صِياغَة مُعاصِرة
لنصِّ أبي العلاءِ المَعَرِّي
(رسالة الغفران)

صِياغَة مُعاصِرة لنصِّ أبي العلاءِ المَعَرِّي
(رسالة الغفران)

تأليف: فرحان بلبل

لوحة الغلاف: منير الشعراني
تصميم الغلاف: فادي العساف
ISBN: 978 - 9933 - 540 - 48 - 7
الطبعة الأولى: 2019

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: /9838/
هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com/Adwan.Publishing.House
twitter.com/AdwanPH

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت الكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

صِياغَة مُعاصِرة
لنصِّ أبي العلاءِ المَعَرِّي
(رسالة الغفران)

بقلم
فَـرحـان بُـلْـبُـل

مُحْتَوَياتُ الكِتاب

تقديم 15
لمحة عن حياة ابن القارح 25
لمحة عن حياة أبي العلاء المعري..... 27

القسم الأول
رسالة ابن القارح إلى المعري

1 – تحية ابن القارح للمعري وحَنينُه إليه 33
2 – ورودُ ابنِ القارح إلى حلب وفَقْدُهُ المَعارِفَ فيها..... 35
3 – رسالةُ أبي الفرج الزَّهَرْجي 36
4 – مع المتنبي..... 37
5 – الهجومُ على الزنادقةِ والمُلْحِدين وذكر بعضهم..... 39
– الزنديقُ الأعور 40
– الصناديقيُّ 41
– الوليدُ بنُ يزيد 41
– أبو عيسى بنُ الرشيد..... 43
– الجَنَّابيُّ القُرْمُطي..... 43
– الحّلاَّج 44

- ابنُ أبي العَزاقِر 46
- الراوَنْدِي 47
- ابنُ الرومي 48
- أبو تمام 49
- المازِيار 50
6 - شكوى الزمان 52
7 - عزوفُ ابن القارح عن الغواني 52
8 - معرةُ النعمان 53
9 - النبيُّ (ص) وصبرُ الصحابة 54
10 - بدءُ الدعوة 55
11 - مساوئُ الدنيا وحَسْرَتُهُ منها 57
12 - مع الخمرةِ والتوبةِ عنها 59
13 - حاجتُنا إلى اللهِ 60
14 - بدءُ التعارفِ بين المعري وابن القارح 62
15 - ابنُ القارح يَروي سيرةَ حياتِهِ 62
- دراستُه وأساتذتُه 62
- سفرُه إلى مصر والعداوةُ بينه وبين أبي القاسم المغربي 63
- لقاؤُه مع الحسينِ بنِ جوهرٍ الصقلي 64
- ذهابُ ابن القارحِ إلى الحجِّ وهروبُهُ من مصر 64
- علاقتُهُ بأبي القاسم 65
16 - فضلُ أبي العلاء 67
17 - أبو الطيب اللغوي 68
18 - محفوظاتُ ابنِ القارح 69

19 – عُزوفُهُ عن العلم 69
20 – فقدانُ الثقة 70
21 – عودةٌ إلى المعري 70
22 – أبو بكر الشِّبْلي 70
23 – ابنُ السَّمَّاكِ والرشيد 71
24 – أَنعامُ اللهِ على البشر 71
25 – عودةٌ إلى الشِّبلي 72
26 – خِتامُ الرسالة 73

القسم الثاني
نصُّ رسالةِ الغُفْران
رداً على رسالة ابن القارح

الجزء الأول
زيارةُ الجنَّةِ والنار

1 – إظهارُ المَوَدَّةِ لابنِ القارح 79
2 – تمهيدٌ عن وصولِ رسالةِ ابنِ القارح 85

الفَصْلُ الأول: الفِرْدَوْس

1 – خمر الجنة 93
2 – ندامى الفِرْدَوْس 97
3 – نزهة ابن القارح 101
4 – حديث الأعشى 102
5 – مع زهيرِ بنِ أبي سُلمى 105

6 – مع عَبيد بن الأبرص.....107
7 – مع عدي بن زيد 108
8 – مع أبي ذؤيب الهُذَليّ.....118
9 – مع النابغةِ الجَعْدِيِّ والنابغةِ الذُّبْياني 120
10 – مَجلِسُ غناء.....128
11 – مع لبيد بن ربيعة 130
12 – مع النابغة الجعدي ونقده 133
13 – غناء الحور.....136
14 – مشاجرة الجعدي والأعشى.....138
15 – مع حسانَ بنِ ثابت 143
16 – مع عُورانِ قَيْس.....146
17 – حكايةُ تميم بن أبي 152

الفَصْلُ الثاني: يومُ المَوْقِفِ مع ابنِ القارح

1 – حكايةُ ابنِ القارح 155
2 – حديث ابن القارح مع رضوان 156
3 – حديثه مع زُفَر.....157
4 – لقاؤه مع حمزةَ بنِ عبد المطلب.....158
5 – مع أبي علي الفارسي.....159
6 – مع علي بن أبي طالب 161
7 – وُرودُهُ الحَوْضَ.....161
8 – لقاؤُه مع فاطمةَ الزهراءِ 162
9 – حديثه مع النبي (ص) 164

10 – عبورُ الصراط 164
11 – حديثه مع رضوان ودخوله الجنةَ..... 165

الفَصْلُ الثالث: نَعيمُ الفِرْدَوْس

1 – مع حُمَيْد بن ثور 167
2 – مع لبيد بن ربيعة 171
3 – مأدُبةٌ في الجنةِ..... 172
4 – مَجْلِسُ أُنسٍ وغِناءٍ 174
5 – مع الجَرادَتَيْن 175
6 – مع جِران العَوْد النُّمَيْري 178
7 – رقصُ الحُور..... 179
8 – مع الحُورِيَّتَيْن..... 183
9 – حدائقُ الحُور..... 185

الفَصْلُ الرابع: جنةُ العفاريت

1 – أشعارُ الجن وحكاياتُ (أبي هدرش) 190
2 – صَرْعُ فتاةٍ 192
3 – عن لغة الجن 194
4 – حديث الأسد 202
5 – مع الحطيئة..... 203

الفَصْلُ الخامس: الجحيم

1 – مع الخنساء..... 205
2 – حديث إبليس 205

3 – مع بشارِ بنِ بُرْد 207
4 – مع امرئِ القيس 208
5 – مع عنترةَ بنِ شَدَّاد 215
6 – مع عَلْقَمَةَ الفَحْل 218
7 – مع عمرو بن كلثوم 221
8 – مع الحارثِ اليَشْكُري 223
9 – مع طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ 224
10 – مع أوس بن حَجَر 227
11 – مع أبي كبير الهذلي 229
12 – مع الأخطل 231
13 – مع المُهَلْهِل 237
14 – مع المُرَقَّشِ الأكبر 238
15 – مع المرقَّشِ الأصغر 240
16 – مع الشَّنْفرى الأزْدي وتأبَّطَ شَراً 241

الفَصْلُ السادس: العودةُ إلى الفردوس

1 – حديثهُ مع آدم 243
2 – مع الحَيَّةِ ذاتِ الصفا 246
3 – عَوْدَةٌ إلى حُورِيَّتِهِ 251
4 – جَنَّةُ شُعَراءِ الرجزِ 252
5 – متعةُ الجنة 254

الجزء الثاني

الإجابةُ على رسالةِ ابنِ القارح

1 – وفاء ابن القارح 259

2 – شيرين وكسرى 259

3 – حديثٌ عن النِّفاق 260

4 – تواضعُ المعري وتبرُّؤُه مِنْ شُهرتِه بالعلمِ 263

5 – عودةٌ إلى ابن القارح 266

6 – الانتحارُ ورجوعُ المعري عنه 267

7 – أبو القَطْرانِ الأسَدِيُّ 267

8 – عودةٌ إلى ابن القارح وحُبِّه للأدب 269

9 – فضلُ الموت 271

10 – مادِحُ أبي العلاء 272

11 – أبو الفَرَجِ الزَّهَرْجي 273

12 – نهر قُوَيْق 273

13 – أمثالُ العرب 274

14 – شكوى الأدباء 276

15 – عن المتنبي والزندقة 278

16 – اختلافُ الأفكار والخواطر 284

17 – عودةٌ إلى المتنبي وشَكْواهُ مِنَ الزمان 285

18 – الزندقةُ والزنادقةُ ونوادِرُهُمْ 287

– بشارُ بنُ بُرد 288

– أبو نواس 290

- القَصَّارُ والصَّناديقي 292
- ربيعةُ بنُ أميةَ بنِ خَلَفٍ الجُمَحي 294
- سُمَيْرُ بنُ أَدْكن 294
- القرامِطة 295
- الوليدُ بن يزيد 296
- أبو عيسى بنُ الرشيد 297
- الجَنَّابيُّ 298
- العَلَويُّ البِصْريُّ 299
- الحَلاج 302
19 - الحُلولُ 305
20 - التَّناسُخُ ومَذهبُهُ في الهند 306
21 - ابنُ هانئ الأندلسي 308
22 - ابنُ أبي عَوْن 309
23 - المُخادِعونَ الضَّالُّون 310
24 - عبدُ الله بنُ ميمونٍ القدَّاح 312
25 - عودةٌ إلى التناسخ 313
26 - ابنُ الراوندي 313
27 - القرآنُ الكريمُ 316
28 - عودةٌ إلى ابنِ الراوندي 316
29 - ابنُ الرومي والتَّطَيُّر 318
30 - أبو تمام 323
31 - المازِيار وبابك الخُرَّمي وأبو مسلم الخراساني 327
32 - أعباءُ الفقيرِ وأحْزانُ الغَنِيِّ 328

33 – عليُّ بنُ أبي طالب..... 329
34 – عودةٌ إلى ابنِ الراوندي 330
35 – أبو جَوْف..... 331
36 – عودةٌ إلى عليِّ بنِ أبي طالب..... 332
37 – الزواج..... 333
38 – الخَدَمُ ولؤمهم 337
39 – التَّوْبَة 339
40 – عن الخمر 341
41 – حديثُ طالوت..... 347
42 – عودةٌ إلى ذِكْرِ الحُور 348
43 – رجعةٌ إلى الخمر..... 348
44 – أبو طلحةَ واليهودي 351
45 – حِرْصُ الناسِ..... 352
46 – مِيتةُ فاذوه..... 352
47 – بَدءُ التَّعارُفِ بين المعريِّ وابنِ القارح..... 353
48 – شيوخُ ابنِ القارح..... 354
49 – الحجُّ وأنواعُ التَّلْبِيَةِ فيه 356
50 – عن مأساةِ آل جوهرَ الصقلي 363
51 – حكايةُ ابنِ القارح مع أبي القاسمِ المَغْرِبيِّ..... 364
52 – سرعةُ البديهة 365
53 – عن ابنِ خالويه..... 365
54 – أبو الطيب اللغوي..... 366

55 – تواضعُ المعري 368
56 – ابنُ القارح في مصر 368
57 – مَضارُّ الخمرِ 369
58 – دنانيرُ ابنِ القارح واستقصاءُ المعري معانِيَ الدينار وما قيل فيه... 371
59 – فضلُ الذهبِ 384
60 – ابنةُ أختِ ابنِ القارح وتقلياتُ لفظةِ (الخال) 385
61 – غرائِزُ النساء في فهم الشعر 386
62 – أبو بكر الشِّبْلي 388
63 – ختامُ الرسالة 388

تقديم

دُعيتُ مرة إلى حفلة غناءٍ وطرب في محلٍّ عام بمناسبة زفاف أحدِ الأصدقاء. وكان أحدُ فناني حلب مع فرقته يُحيي هذه الحفلة. وكان صاحبَ صوت قوي شَجِيٍّ. وصادف أنْ وُجِدَ في الحفلة واحدٌ من أهمِّ مطربي مدينتي حمص. وكان أيضاً صاحبَ صوت شَجِيٍّ قويٍّ مُطرب. فاقتضت اللياقةُ أن يُدعى الضيفُ الحمصي للمشاركةِ في الغناء. فغنَّى الرجلان ساعةً أو بعضَ ساعة. فأطربا وهما يُشَرِّقان في الألحان ويُغَرِّبان. وفجأة دبَّت بينهما روحُ التنافس. فأخذ كل واحد منهما يعلو بصوته إلى الجواب. ثم إلى جوابِ الجواب. وحاول كلٌّ واحد منهما أنْ يُجْبِرَ حَنجرتَه على أداء ما لا تستطيع. وإذا بهما يَجْرَحان صوتيهما ويُجَرِّحان مَشاعِرَنا وآذانَنا حتى انقلب الحفلُ إلى صُراخٍ بغيضٍ بُحَّت فيه الأصوات، وزعقت فيه الآلاتُ المرافِقة. وإذا بالحاضرين يتسلَّلون واحداً بعد واحد. ثم وجدتُ نفسي أهرب راكضاً بابتعادٍ مع أنني كنت ضيفَ الشرف في ذلك الحفل غير البهيج.

***

هذه الحكاية الطريفة الموجِعة تذكَّرْتُها وأنا أعود إلى رسالَتَيْ ابن القارح وأبي العلاء المعري. فهما يتباريان في الإتيان بغريب الألفاظ وحُوشِيِّ الكلام من ناحية، ويتلاعبان بتقديم وتأخير الضمائر من ناحية، ويتركان كثيراً من الجمل تدخل ميدانَ التداخل والتمازج حتى لا يصل القارئ إلى المعنى إلا بصعوبة من ناحية ثالثة.

وكان نتيجةُ ذلك كله أنهما جَرَحا رسالتيهما وجرَّحا معانِيَهما. وما فعلا ذلك إلا لأن رسالتيهما لن تقتصرا عليهما فقط. فهما يعلمان كل العلم أن هاتين الرسالتين سوف يقرؤهما الناس. فابنُ القارح - باعترافه - جعل الناس يقرؤون رسالته قبل إرسالها إلى المعري. وهو يُقِرُّ بأنه سينشر رسالةَ المعري بين الناس لكي يستفيد منها من يقرؤها. وإذاً فإن المباراة بينهما علنيةٌ يفوز فيها مَنْ يفوز ويخسر فيها مَنْ يخسر.

وأعترفُ أن أبا العلاء فاز فوزاً ساحقاً في هذه المباراة العلنية المَجنونة. فقد أتى لا بغريب الألفاظ وحوشِيِّها وبائدِها فحسب، بل بالميِّتِ منها الذي هجره الجاهليون أنفسهم. ولعله لم يترك لفظاً من لهجات القبائل التي قُضِيَ عليها بعد نزول القرآن، إلا وحشرها في رسالته.

قد يقول قائل – وكثيرون قالوا هذا القول – إن المعري حفظ المُعجَم العربي من الضياعِ حين استدرك ما عَجِز غيرُه عن الإتيان به. وقائلو هذا القول يُبدون إعجابهم بـ (العَجَّاج) وابنه (رؤبة) وأمثالهما لأنهم اشتُهِروا في شعرهم ورجزهم بالغريب. ونالوا عند البعض مكانة مرموقة أتتهم من غرابة ما جاؤوا به من مَيِّتِ الألفاظ لا من قوة الشاعرية وفُسحَةِ التخييل.

ولا أعرف موقفاً أكثر ضَلالة من موقف هذين الشاعرين وأمثالهما ومِمَّن يؤيدونهما من نقاد العصر الحديث والقديم. فهذه الألفاظ التي ماتت لا قيمةَ لإحيائها لأن أحداً لن يستعملها، ولأنها صارت عبئاً على جناحَيْ اللغة العربية القادِرَيْنِ على الطيران في مختلف أنواع العلوم والفلسفات والاختراعات. ولعل العربية واحدة من أغنى لغات العالم في قدرتها على مُواكبة تطور العلوم مهما أسرعتْ في تقدُّمها واختراعاتها. وأجزم أن محاولة الاحتفاظ بغرائب الألفاظ وميِّتها وبائدِها يقصُّ كثيراً من قَوادِمِ أجنحةِ العربية وخَوافيها. شأنُها في ذلك شأنُ أجساد المتوفَّيْن. فبدلاً من دفنهم إكراماً لهم، فقد وضعناهم في البرَّادات انتظاراً لمَن يُحييهم. فما قَدَرَ على إحيائهم أحد، وشَغَلوا في البراد مكاناً كان يُمكِن أن نضع فيه الأطعمة والأدوية.

وأولُ أثر أدبي ارتبك بهذه المُحافظة على غرائب الألفاظ وحوشِيِّها ومَيِّتِها وبائدِها هو (رسالة الغفران) ذاتها. فمع أننا – نحن العرب – نتغنَّى بها وندرسها ونجعلُها سابقةً على جحيم (دانتي) وندَّعي أن الشاعر الإيطالي تأثر بها، ونعقد الدراسات والندوات على هذا السبْقِ المَكْذوب، فإننا لا نستطيع قراءة (رسالة الغفران) إلا بصعوبة تستهلك من كبار مُتخصصي اللغة والمتبحِّرين فيها جهداً ووقتاً يشعرون بعدهما أنهما وقتٌ وجهدٌ أقربُ إلى أن يكونا ضائعين. أما الأقلُّ تخصُّصاً، فيكتفون بما كُتب عن الرسالة. أما عامة القراء مِمَّنْ يوصَفون بحقٍّ أنهم مثقفون، فيُهملونها ويبتعدون عنها. وإذا بهذه الرسالة الفريدة التي نعتزُّ بها في التراث العربي تموت وتبقى في أدراج البرَّادات لأنها تخرج من القدرة على الحياة.

***

هل يعني هذا الكلامُ انتقاصاً من (رسالة الغفران)؟

لِيقطعِ اللهُ لساني إنْ قصدتُ ذلك. فهي أثر نفيس فريد حلَّق بها مُنْشِئُها في عوالِمَ لم يعرف العرب مثلَها من قبله، ولم يعرفوا مثلَها من بعده.

ولشدة إعجابي بها فقد درستها وأنا في الصف الأول الثانوي، وحَفِظت كثيراً من مقاطعها وأنا في تلك المرحلة التي يكون فيها الراغب في العلم نَهِماً إلى القراءة والتعلُّم. ثم صرتُ أعود إليها في الحين بعد الحين لأتابع رحلةَ أعمى المعرة في رياضِ الجنة وأطباقِ الجحيم. ثم ألقيتها عني لأنني بعد طول معاركة لها لم أستفد منها لغة أو نحواً إلا القليل الذي كان يمكن أن أجده في مصادر أخرى. وإن ساعدتني قليلاً على تجويد أسلوب الكتابة، فإن الذين ساعدوني المساعدة كلها هم الشعراء والناثرون الذين كانوا أكثر سماحةً في لغتهم، وأعمقَ إسماحاً في سَبْكِ معانيهم، وأكثرَ إِطْراباً في أوزانهم إنْ كانوا من الشعراء، وأدقَّ تنغيماً في رصف عباراتهم إنْ كانوا من الناثرين.

فجأةً، ومنذ عامين تقريباً، شعرت بالغَضاضة من موقفي هذا من (رسالة الغفران). فكيف سوَّلت لي نفسي أن أُهْمِلَ هذا الأثر الذي يجب أن لا يغيب عنه

دارسٌ للغة أو متعلِّقٌ بالثقافة أو مُحِبٌّ للقراءة من أوساط المتعلمين ومن الراغبين في القراءة وإنْ كانوا على قدر ضئيل من التعلُّم؟ وكيف أنكرتُ دورَها وفضلَها عليَّ وعلى مَنْ سبقني من رجال الفكر والقلم؟ فهل يحقُّ لنا أن نُهمِلَها لغرابة ألفاظها وحوشيِّ كلامها؟

ومما زاد من غضبي من نفسي أنني أؤمن أشدَّ الإيمان بأن الأمم تنهض إذا كثُر فيها القُرَّاءُ على اختلاف قدراتهم على التلقي وعلى استيعاب ما يقرؤون، وعلى اختلاف أنصبتهم من التعلُّم. وآهِ ثم آهِ لو كان الناطِقون بالعربية في درجات ثقافاتهم المختلفة يُحِبُّون أن يتمتَّعوا بالقراءة حتى لو كان ذلك ساعةً من نهار أو أقلَّ من ذلك. وعندما تنجح مؤسساتُ الدولة المختلفة ومدارسُنا وجامعاتُنا ومنظماتُنا الشعبية وهيئاتُنا الاجتماعية في مختلف درجاتها واهتماماتها بإغراء المواطن العادي بالقراءة وتُيَسِّرها له، فإن أساساً متيناً للنهضة الشاملة يَبنيه بسطاءُ الناس. وهذا الأساس الذي يبنونه دون أن يشعروا بما يفعلون، إنما يُتيحون به لكبار العلماء والمفكرين أن يرتقوا في آفاق التقدم العلمي والحضاري. أليس المواطنون العاديون هم آباءُ مَنْ سيصبحون علماء ومفكرين ومخترعين؟ ألا ينشأ أولادهم وهم يرونهم يُمسِكون كتاباً أو جريدة؟ ألا يتأثر الولد بأبيه وخاصة في هذا المجال فيصبح الكتابُ جزءاً من حياته اليومية ينعكس ارتِقاءً بتأثيره على حياته العقلية والوجدانية؟

***

انطلاقاً من هذه الأمنية في أن يقرأ كل العرب ما يستطيعون قراءته من التراث القديم إلى الآثار الحديثة، رجعت إلى (رسالة الغفران) لوضعها بين أيدي كبار الدارسين ومُتَوسِّطيهم ومَنْ هُمْ دونَ ذلك. لكن كيف نعود إليها بشغفٍ ولهفةٍ وقدرةٍ على الاستفادة منها بعدما ابتعد عنها القراءُ حتى لم يبقَ لها مكانٌ إلا في أقصى زوايا المكتبات لأنه لا يمكن قراءتها مهما أغرينا الناسَ بقراءتها؟ ألن ينفُروا منها ويفِرُّوا عنها فِرارَهم من همٍّ ثقيلٍ حتى لو أعطيتَهم أجراً مُجزِياً على قراءتها؟

وهنا خطرت لي فكرة أرجو أن تلاقي صداها الطيبَ عند الناس وعند طلاب الثقافة وهي القيامُ بـ (**إعادة صياغتها**).

وكان لا بد من إيراد نص (رسالة ابن القارح) لأن رسالة الغفران كانت رداً عليها. ولا يمكن فهم (الغفران) دون الوقوف عند رسالة (ابن القارح). وقد عاملتها بالطريقة ذاتها من إعادة الصياغة حتى تنسجم الرسالتان مع بعضهما البعض.

وإعادةُ الصياغة تعني أنني قمتُ بما يلي:

1. استبدلتُ الكلماتِ الغريبة البائدة بألفاظ عادية يفهمها القارئ العادي. وهذا الاستبدالُ تمَّ مع الحرص الشديد في المُحافظةِ على نَسَقِ تركيبِ الجملة عند المعري وعلى تشبيهاته الرائعة التي تنبئ عن مخيلة واسعة. وبهذه الطريقة التي اتَّبعناها تجلَّى جمالُ أسلوبه الذي يتفرَّدُ به في عصره ويلتزم فيه بما هو متعارَفٌ عليه من أصول التأليف في عصره وبين أقرانه. فكانت إعادةُ صياغتنا لها أشبهَ بجلاء الحِلْيَة الذهبية المُغْبَرَّةِ ليعود إليها بريقُها. وهذا ما فعلناه أيضاً في إعادة صياغة رسالة ابن القارح.

2. لكن ذلك لم يمنعني من إعادة صياغة بعض التراكيب والجمل بحيث تتخلَّص من مُعاظَلتها التي كان بعضُها دليلَ الفصاحة والبلاغة في ذلك العصر. وحوَّلتُها إلى تراكيبَ وجملٍ سهلة هي مقياس الفصاحة والبلاغة في هذا العصر. وذلك دون الإخلال بأسلوب المعري أو بأسلوب ابن القارح.

ومن أصعب المشاكل التي واجهتني في إعادة صياغة التراكيب والجمل مشكلة إحالات الضمائر إلى مَنْ تعود إليه. وابن القارح أشدُّ تعقيداً من المعري في التعامل مع الضمائر.

وكثير من هذه الجمل والتراكيب وقف عندها دارسو (الغفران) و(رسالة ابن القارح) ومحققو الرسالتين وقالوا: (إنَّ المعنى غير مفهوم). وقد حاولت جهدي أن لا أترك جملةً غير مفهومة. فتحايلت عليها لأصل إلى معناها من سياق الكلام ومن الفكرة التي يناقشها ابن القارح أو المعري.

3. يعالج المعري على الخصوص – ومثله ابن القارح – عشراتٍ من القضايا النحوية والعروضية واللغوية بحسب طرائق عصره في معالجتها. ومثلُ هذه المعالجات تختلف في كثير أو قليل عن طريقة معالجاتنا لها في العصر الحديث. وقد عالجتُها بطرائقنا المعاصِرة بحيث يَفهمها طالبُ المرحلة الثانوية كما يفهمها الطالبُ الجامعي وطالبُ الدراسات العليا.

4. لا يمكن إجراءُ مثل هذه التغييرات على الشعر. فأبقيت عليه لأنه لا يحِقُّ لنا المَساسُ به. لكني قدمت شرحاً وافياً لكل بيت شعري إنْ كان غير واضح المعنى. وهو أمر كثيراً ما هرب منه مَنْ سبقني في تحقيق (الغفران) أو (رسالة ابن القارح).

5. حَرَصْتُ الحرصَ كله على أنْ لا أحذف شيئاً من الرسالتين. لكن بعض الجمل والتراكيب لم أتمكَّن من الوصول إلى معانيها كما لم يتمكن غيري من الوصول إليها، خاصة وأن المعري أتى بها على سبيل الأمثولة إغراقاً في استعمال مَيِّتِ الألفاظ. فحذفتها. وهي في مجموعها لا تزيد عن خمسين سطراً أو أكثر بقليل.

وتظهر أهمية هذا الحرص على نص الرسالتين إذا تذكرنا أن (كامل الكيلاني) قدَّمَ في ثلاثينات القرن العشرين (نصاً مُختصراً) للرسالتين. واعتبر النقاد والدارسون عمله إنجازاً مُهِمَّاً في تخليصهما – والغفران على الخصوص – مِن كثير من تشعبات الأفكار والشواهد والحكايات والأشعار التي أورداها. واعتبروا أن هذه التشعبات تُبْعِد الرسالتين عن أفهام القراء. وإذا كان ما فعله الكيلاني قبل ما يزيد عن ثمانين عاماً نفع وأفاد، فلأن قراء العربية كانوا أكثر قرباً من التراث وأكثر قدرة على التعامل معه من قراء العربية اليوم بعدما ابتعد التراثُ عنهم بعداً كبيراً لأسباب ليس هذا المكان موضعاً لشرحها. لكن ما فعله الكيلاني يبدو اليوم محدود الفاعلية لأن الرسالتين ظلتا في ثوب غرائب الألفاظ وأمواتها، كما جعلهما ناقصتين نقصاً كبيراً يؤذيهما. والأهم من هذا أنه ابتعد عن أسلوبي الرجلين في الانتقال من موضوع إلى موضوع دون روابط متينة في أغلب الأحيان. وهذا الانتقال الذي يقتضيه الإملاءُ، كان أسلوبَ الكُتَّابِ في ذلك العصر. فكان هذا

الاختصار الذي قام به الكيلاني – رغم شكرنا له – إخراجاً للرسالتين مِن سياق عصرهما. ولعل ما قمنا به من إعادة الصياغة يُعيدُ الرسالتين إلى الحياة، ويحافظ على بنيتهما بشكل كامل.

وقد يأتي بعدنا مَنْ ينتقد عملنا ويعتبره مناسِباً لعصرنا وغيرَ مناسب لعصره. فيبتكر طريقة أخرى للتعامل مع الرسالتين لتظل (الغفران) أثراً متألِّقاً بين أيدي القراء. فإذا تم ذلك، فسوف يكون ما توقَّعناه وأَمِلْنا به دليلاً على حيوية الثقافة العربية وقدرتِها على التجدُّد، كما هو دليل على أهمية (الغفران) في تراثنا العربي وفي ضرورتها لاستكمالِ جانبٍ من ثقافتنا.

***

و(رسالة الغفران) – وكذلك (رسالة ابن القارح) - أولاً وآخِراً هما كتابان في الأدب والنحو واللغة وأخبار العرب وشعرائهم. مَثَلُهما في ذلك مَثَلُ ما سبقهما وما لحقهما من كتب اللغة والأدب. فهما مثلُ (أمالي) القالي و(الكامل في الأدب) للمبرِّد، و(البيان والتبيين) للجاحظ وغير ذلك من أشباه هذه الكتب. وهما تسيران على نهج هذه الكتب وأمثالها في إيراد الأخبار والأشعار وقضايا النحو والبلاغة والعروض دون رابط. فهما – كما ذكرنا - تَوارُدُ خَواطر الكُتَّابِ في تقديم علمهم الأدبي واللغوي لمن يريد التأدُّبَ حتى يصبح أديباً. ولكن قيمة (رسالة الغفران) وحدها أنها وضعت هذه المعلومات في (حكاية فاتنة) توغِلُ في حدائق الجنة ونيران الجحيم. وقد استدلَّ كلُّ مَن درس هذه الرسالة على زندقة المعري حيناً، وعلى استهانته بالأديان حيناً، وعلى السخرية من ابن القارح حيناً ثالثاً. ولم نجد في هذه الاستدلالات إلا افتراءً على الرجل وذهاباً ضالاً في فهمه. فهو لا يريد أكثر من تقديم معلوماته الغزيرة والمتنوعة في شكل يُغري المتعلمَ بالتعلُّم بفتنة الخيال وتقلياباتِ أسلوبِ التعليم بالسخرية مرةً، وبالمشاجرة الحادة مرةً، وبإغراء القصِّ الجميل في كل مرة. ولو جاز لنا أن نقول إن المعري استخدم أسلوب (الأكشن) المُثير في تقديمه للمعلومات لقلنا.

والدليلُ الأول على أن الغفران كتاب في اللغة والنحو والأخبار والأشعار، هو أن المعري جعل ابنَ القارح لا يلتقي في الجنة وفي الجحيم إلا بالشعراء. ولو رتَّبتَ الذين التقى بهم لوجدتَ المعري يستوفيهم من الجاهلية حتى عصره. فليس في جنة وجحيم المعري علماءُ الفلك أو التاريخ أو الكيمياء أو غيرِ ذلك من العلوم التي أعطت العصر العباسي زهوه الذي وصلت معه الحضارة العربية إلى أكبر عطاءاتها. كما لا يلتقي بالناثرين وهم من صنف الأدباء. وهو يلاحق هؤلاء الشعراء بالخفايا من أخطائهم، وبالغريب من أخبارهم. وإذا به يُحوِّلُ الجنة والنار إلى مرتع للنقد الأدبي واللغوي والبلاغي بأسلوب شَيِّق يُوشِّيه الخيالُ المتألق.

والدليل الثاني على ذلك أيضاً أن (رسالة الغفران) قسمان متوازيان في الحجم: القسم الأول رِحلة في الجنة والنار، والثاني تعقيباتٌ على ما ورد في (رسالة ابن القارح) من قضايا لغوية وشعرية وإخبارية. وهذا القسم يوازي القسم الأول. ودارسو (الغفران) وقفوا عند رحلة الجنة والنار لأنها الاستثناء في كتب اللغة دون أن ينتبهوا إلى أن القسم الثاني هو القاعدة التي كانت مُتَّبَعَةً في مثل هذه الكتب.

والدليل الثالث على ذلك أيضاً أن المعري لا يكاد يتعلَّق بإحدى الألفاظ حتى يقلِّب معانيَها ويستوفي الكثير مما ورد فيها من أخبار وأشعار. فمنذ الصفحة الأولى، مثلاً، يتعلق بلفظة (الحَماطَة) فلا يترك لها معنى إلا أورده، ولا يترك شعراً قيل فيها إلا استوفاه. ويمضي في رسالته على هذا النحو حتى إذا وصل إلى دنانير ابن القارح الثمانين التي سرقتها ابنةُ أخته، أخذ يُقلِّب لفظة (الدنانير). ثم يقلَّب لفظة (الثمانين). ثم يقلِّب لفظة (الخال). وهكذا.

أما زندقته أو إيمانه أو استهانته بالأديان فنرجع فيها إلى أشعاره الأخرى وليس إلى ما ورد في (الغفران) حتى لا نتمحَّل على الرجل في هذه الرسالة النادرة ما لم يقله.

وبعد

هل يكون ما فعلناه تعدِّياً على الآثار؟ ألا يجب أن نترك اللوحات والمنحوتات

واللُقى القديمةَ على حالها دون تغيير في معالمها؟ ألا يكون تغييرُ معالمها تشويهاً لها وإخراجاً بها عن وضعها في سياق عصرها وعمَّا يُمكِن استدلالُهُ منها عن خصائص ذلك العصر؟

ألا يكون ما فعلناه شبيهاً بذلك التعدي على الآثار القديمة؟

والجواب: بلى. لكن مع الفارق.

فتغييرُ ملامح الآثار المادية تَعَدٍّ فاضحٌ يستحق فاعلُه كل لوم. وهذه الآثار تؤدي دورها التأريخي والفني ودلالاتِ هذين الأمرين بمجرد النظر إليها ودراسة مدلولاتها دون الحاجة إلى المَساس بها. وأيُّ تغيير فيها يُفْقِدها هذا الدور.

أما الآثار الأدبية فقد تستعصي على إعطائنا مثل هذه المفاتيح في فهم العصر خاصة حين تكون صعوبتها حائلاً دون الرجوع إليها مِمَّا يؤدي إلى إهمالها وإخراجها من التداول الثقافي كما كان حال (رسالة الغفران) التي اقتصرت حياتها على قِلَّةِ القِلَّةِ من الدارسين الذين بدؤوا يَقِلُّون. وسوف يَقِلُّون أكثر كلما مال العصر بسرعة إلى الابتعاد عن أساليب القدماء في تركيب اللغة، وإلى الابتعاد عن التراث الذي يجعل الشباب يسخرون منه لصعوبة ملاحقته في عصر السرعة وملاحقة مُستجِدات الحياة.

ومع ذلك فلن نهتَمَّ بتهمة (الاعتداء) على الآثار إنْ أُلْصِقَت بنا. بل ونعترف بها فَرِحينَ ونُصِرُّ عليها مُؤكِّدين. ونَعُدُّ ما فعلناه خدمةً للغة العربية ولآثارها النفيسة. خاصة وأننا لا نطالب بِجعلِ النص الذي قدمناه بديلاً عن النص الأصلي. فما فعلناه ليس إلا (تنويراً) للغفران ولرسالة ابن القارح التي دفعت المعري إلى كتابة رسالته الفذة. وهو أيضاً (تقريبٌ) للرسالتين حتى تعودا إلى السيْرِ في الحياة بدلَ أنْ تبقيا بين أيدي المُتْحَفِيِّين الذين يعشقون العيشَ في ضريح الأموات.

وقد اعتمدنا في إنجاز هذا العمل على:

- (رسالة الغفران) تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ. وأوردتْ فيها رسالتي ابن

القارح والمعري في الطبعة التاسعة لعام 1977 إصدار (دار المعارف) في القاهرة. واستفدْنا الكثيرَ من شروحاتها وترجماتها للأعلام.

- (رسالة الغفران) شرح وإيجاز كامل الكيلاني – الطبعة الثالثة - إصدار مطبعة المعارف في القاهرة. وفيها الرسالتان معاً. ومنها استفدنا أيضاً الكثير في الشروح والتعليقات واقتراح عناوين الموضوعات وترجمات الأعلام.

- (رسالة الغفران) تحقيق الشيخ إبراهيم اليازجي في الطبعة الثانية لعام 1907 إصدار القاهرة.

- نص (رسالة ابن القارح) في كتاب (رسائل البلغاء) تصنيف محمد كرد علي في الطبعة الرابعة لعام 1954 إصدار مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة.

وجعلنا الكتاب على النحو التالي:

القسم الأول: رسالة ابن القارح

القسم الثاني: رسالة الغفران. وهي جزءان

الجزء الأول: رحلة ابن القارح إلى الجنة والنار.

الجزء الثاني: تعقيبات المعري على ما ورد في رسالة ابن القارح.

ونرجو بعد ذلك كله أن نكسب عند الله وعند الناس أجراً واحداً إنْ اجتهدنا فأخطأنا. وأن نكسبَ أَجْرَيْن إن اجتهدْنا وأَصَبْنا.

فَرحان بُلْبُل

حمص - سورية

2015 - 2014

لمحة عن حياة ابن القارح

هو الشيخ علي بن منصور. وكنيته (أبو الحسن).

ولد في حلب عام 351 هـ 962م في أوج حكم سيف الدولة الحمداني، وفي السنة التي استغلَّ فيها الإمبراطور البيزنطي (نقفور فوكاس) غياب سيف الدولة عن حلب، فهاجمها وفتك بأهلها ودمَّر الكثير من أبنيتها.

وانصرف إلى العلم منذ صغره. فكان من أساتذته (ابن خالويه) و(أبو علي الفارسي) و(أبو الحسن المغربي) الذي كان وزيراً في بغداد. وكان يحب الأسفار والهجرة من بلد إلى بلد. وبذلك أتيح له أن يتلقَّف العلم من شيوخ كل بلد حتى صار من شيوخ الأدب. وغلب عليه لقب (دَوْخَلة). و(الدَّوْخَلَةُ) هي السلة التي يوضع فيها التمر. وذلك تعبيراً عن حفظه الكثير. واتخذ التعليم مهنة له حيثما ذهب.

وقد أقام في مصر مدة في أول أمره. وهناك انصرف إلى اللهو والملذات. كما انصرف إلى الاشتغال بالسياسة وما تتطلبه من طموحات ودسائس. وفي مصر التقى من جديد بأستاذه السابق (أبي الحسن المغربي). فأدّبَ أولاده ومنهم (أبو القاسم المغربي).

وكان لابن القارح دور في بعض الدسائس في مصر مع أفراد أسرة (أبي الحسن المغربي) الذين نكَّل بهم (الحاكم بأمر الله) الفاطمي. فخاف ابن القارح على نفسه. فارتحل عنها إلى بغداد هو ومن بقي من أسرة (أبي الحسن). وهناك افترقوا. ووقعت

العداوة بينه وبين (أبي القاسم المغربي) لأنه لم يكن على وفاق معه منذ أن كانوا في مصر.

وتابع ابن القارح رحلاته حتى وصل إلى بلاد الروم (تركيا اليوم). وكذلك ارتحل غريمه (أبو القاسم) عن بغداد حتى وصل إلى (ميافارقين) في بلاد الروم.

وكان العمر قد تقدم بابن القارح وضعف جسمه ومال إلى الزهد والتصوف. وندم على ما اقترفه من فنون اللهو. فرجع إلى حلب. ثم غادرها إلى (الموصل) وتوفي فيها عام 424 هـ 1033 م. وعمره حوالي الخامسة والسبعين.

في أثناء إقامته في حلب راسل المعري بسبب حادثة ذكرها في رسالته. وفي هذه الرسالة أثنى على المعري وتحدث عن نفسه وعرض مسائل لغوية وأدبية. فردَّ عليه المعري برسالة الغفران الشهيرة.

وكان ابن القارح شاعراً مُقِلّاً. وأكثر شعره في المدح والوصف والهجاء.

لمحة عن حياة أبي العلاء المعري

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان.

ولد في (معرة النعمان) الواقعة في شمال غرب سورية عام 363 هـ 973 م. وفي الرابعة من عمره أصيب بالجدري وفقد البصر في أولى عينيه. ثم فقد البصر في العين الثانية.

نشأ أبو العلاء في أسرة مرموقة تنتمي إلى قبيلة (تَنوخ) العربية التي يصل نسبها إلى قحطان جَدِّ العرب العاربة. وكان والده عبد الله شاعراً. وقد تولى قضاء المعرة وقضاء حمص خلفاً لأبيه سليمان بعد وفاته. وكان أخوه الأكبر منه (محمد بن عبد الله) شاعراً. وكذلك أخوه الأصغر (عبد الواحد بن عبد الله).

انصرف أبو العلاء منذ طفولته إلى العلم والأدب وقراءة القرآن والحديث النبوي.

قرأ القرآن على جماعة من الشيوخ. وسمع الحديث عن أبيه وجده وأخيه الأكبر. وتلقى علوم النحو على يد أبيه وعلى يد جماعة من اللغويين والنحاة في معرة النعمان. ولنبوغه أرسله أبوه إلى حلب حيث يعيش أخواله. وهناك تلقى العلم على عدد من علمائها. وفيها التقى بالنحوي (محمد بن عبد الله بن سعد) الذي كان راوية لشعر المتنبي.

ثم انتقل إلى طرابلس الشام والتقى بمن فيها من العلماء. ثم ذهب إلى أنطاكية.

وتردد على مكتباتها. وكان ذا ذاكرة قوية جعلته يحفظ ما يسمع من القراءة الأولى. ثم عاد إلى المعرة. لكن أباه توفي وهو في الرابعة عشرة من عمره.

بعد وفاة أبيه عاوده الحنين إلى الرحلة في طلب العلم. فاستأذن أمه بالسفر فأذِنت له. فسافر إلى بغداد عام 398 هـ 1007 م وهو في الثالثة والثلاثين. واتصل فيها بـ (عبد السلام البِصري) خازن دار الكتب.

لمع نجمه في بغداد حتى صار من شعرائها المعدودين. وأثار عليه ذلك موجةً من الحسد. فأطلق عليه الحاسدون تهمة الكفر والزندقة. وحرَّضوا عليه الفقهاء والحُكَّام. فكان يردُّ عليهم بقوة.

ولم يكن المعري بعيداً عن المشاركة في الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية. فكتب القصائد في المعارك بين العرب والروم. كما كتب عن الفساد في ذلك العصر.

وفي بغداد دخل في خصومةٍ مع (المُرتَضى العلوي) وهو شقيق (الشريف الرضي) بسبب تعصُّب المعري للمتنبي وكُرهِ المُرتضى له. وصادف أن المعري كان يوماً في مجلس (المرتضى). فأخذ المرتضى يتنقَّصُ المتنبي. فقال له المعري: (لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التي مطلعها (لكِ يا منازل في القلوب منازلُ) لكفاه. فغضب المُرتَضى وأمر بإخراجه من مجلسه فسُحِبَ من رجليه حتى أُخْرِجَ من المجلس. والتفت المرتضى إلى جلسائه وقال لهم: أتدرون أيَّ شيء أراد الأعمى بذكر تلك القصيدة؟ فإن للمتنبي ما هو أجود منها). فقالوا: (النقيب أعرف). قال: (لأنه يقول فيها:

وإذا أتتك مَذَمَّتي مِنْ ناقِصٍ فهي الشهادةُ لي بأنيَ كامِلُ

وفي تلك الأثناء جاءه خبر مرض أمه. فرجع إلى المعرة بعد إقامته في بغداد أكثر من عام.

بعد عودته إلى المعرة لزم داره معتزلاً الناس. وسمى نفسه (رَهينَ المَحْبَسَيْن) وهما العمى والبيت. ثم سمى نفسه (رَهينَ المَحابِس الثلاثة). والمَحْبَسُ الثالث هو جسده الذي يحبس روحه. ولم يخرج منه إلا مرة واحدة حينما دعاه قومه ليشفع

لهم عند (أسد الدولة صالح بن مرداس) الذي خرج بجيشه إلى المعرة ليُخْمِدَ حركة عِصيان فيها. فلما علم صالح بقدوم المعري أمر بوقف القتال وأحسن استقباله.

أخذ المعري نفسَه بالشدة. فلم يكن يسعى وراء المال. وكان طعامه قليلاً. ويمكن اعتباره من أشهر النباتيين في العالم.

توفي في معرة النعمان عام 449 هـ 1057 م عن عمر 86 عاماً.

ورحِمَ اللهُ الرجليْن.

القسم الأول

رسالة ابن القارح إلى المعري

بسم الله الرحمن الرحيم
تحيةٌ للمعري وحَنينُه إليه

اسْتِفْتاحاً باسمِه، واستِنْجاحاً بِبركته. والحمدُ للهِ المُبْتَدِئِ بالنِّعَمِ، المُنْفَرِدِ بالقِدَمِ، الذي جَلَّ عن شَبَهِ المَخلوقين وصفاتِ المُحْدَثين، وليِّ الحَسَناتِ، المُبَرَّأِ مِنَ السيِّئاتِ، العادلِ في أفعالِهِ، الصادقِ في أقواله، خالقِ الخلْقِ ومُبْديه، ومُبْقيه ما شاءَ ومُفْنيه. وصلواتُه على مُحَمَّدٍ وأبرارِ عِتْرته وأهليه، صلاةً تُرضيه، وتُقَرِّبُهُ وتُدْنِيه، وتُزْلِفُه إلى ربِّه وتُحْظيهِ عنده.

كتابي – أطال اللهُ بقاءَ مولاي الشيخِ الجليل، ومدَّ مُدَّتَه، وأدام كِفايتَه وسعادتَه، وجَعَلني فداءَه، وقدَّمني قَبْلَهُ على الصِّحَّة والحقيقةِ، وبُعدِ القَصْدِ والعقيدةِ، وهذا الدعاءُ له لا أقولُه على مجازِ اللفظِ ومَجْرى ما تَقْتَضيه الكتابة، ولا على تنقُّصٍ وخِداعٍ، أو على سبيل التَحَبُّبِ والمُسامُحَةِ. ولا كما قال بعضُهم وقد زارَ صديقاً له في مرضِهِ: "كيف تَجدُكَ جَعلنيَ اللهُ فِداكَ"، وهو يَقصِدُ تَحَبُّباً ويُريدُ تملُّقاً، ويظنُّ أنه قد أسْدى جَميلاً يَشْكُرُه صاحبُه عليه حين ينهضُ عنه، ويكافِئُه عليه إنْ شُفِيَ مِنْ مَرضه –

إنَّ كتابي هذا يصدُرُ عن سَلامةِ حُبٍّ يكونُ تمامُها بحُضورِ حَضْرتِهِ، وعن نقاوَةِ قلبٍ تَكتَمِلُ بالتشَرُّفِ بِشريفِ عِزَّته، وبِيُمْنِ أخلاقِهِ، وبالنظرِ إلى طَلْعَتِهِ.

ويعلمُ اللهُ الكريمُ – تقَدَّستْ أسماؤه – أنني لو حَنَنْتُ إليه – أدامَ اللهُ تَأْييدَهُ – حَنينَ الناقةِ الوالِهَةِ إلى بِكرِها، أو حَنينَ ذات الفَرْخِ إلى وِكرِها، أو الحَمامَةِ إلى إِلْفِها، أو الغَزالةِ إلى وَلَدِها، لَكانَ ذلك مِمَّا تُغَيِّرُه الليالي والأيامُ، والعُصورُ والأعوامُ. لكنه حَنينُ الظَّمآنِ إلى الماءِ، والخائفِ إلى الأمْنِ، والسليمِ إلى السلامةِ، والغريقِ إلى النجاةِ، والقَلِقِ إلى السكونِ. بل هو حَنينُ نفسِ مولايَ الشيخِ الجليلِ إلى الحَمْدِ والمَجْدِ.

فإني رأيتُ نَزْعةَ نفسِهِ إلى الحَمْدِ والمَجْدِ نَزْعَةَ الأركانِ الأربعةِ[1] إلى جَواهِرِها.

فإنْ وَهَبَ اللهُ لي فُسحَةً مِنَ العُمْرِ تُؤنِسُني برؤيتِهِ، وتَربِطُني بِحبْلِ مودَّتِهِ، صِرتُ مِثْلَ السَّاري في الليلِ وقد ألقى عَصاهُ، وحُمِدَ مَسْراه، وقرَّ عيناً ونَعِم بالاً، وكان كَمَنْ لم يَمْسَسْه سوءٌ، ولم يُخِفْه عَدُوٌّ، ولا أتْعَبَهُ السَّفَرُ في الرَّواح والغُدوِّ. وعسى أنْ يَمُنَّ اللهُ عليَّ بذلك اليومَ أو غداً. ولي باللهِ ثِقَةٌ.

وسواءٌ كنتُ قريباً مِنْهُ أو بعيداً عنه، فإني أسألُ اللهَ أنْ يُمَتِّعَه بالفضْلِ الذي ارتفعَ شأنُهُ على كاهِلَيْهِ، فامْتَدَّ في الأرضِ على مَشارِقِها ومَغارِبِها. فمَنْ مرَّ على بَحْرِ الشيخِ الجليلِ الهَيَّاجِ، ونظرَ في لألاءِ بدرِهِ الوَهَّاجِ، خَليقٌ بأنْ يَكْبُوَ قَلَمُهُ وهو بين أنامِلِهِ، إلا أنْ يُلْقِيَ إلى الشيخِ بِمَقاليدِ أمْرِهِ وأنْ يتعلَّمَ مِنْ عِلْمِهِ. فيكونُ مَنْسوباً إليه ومَحْسوباً عليه في أصحابِهِ وأحدِ أفرادِ حِزبِهِ. وهيهاتَ أنْ يقَعَ ذلك لأيِّ واحدٍ لأنه لن يلْحَقَ به أحدٌ. فمَثَلُ مَنْ يُريدُ اللَّحاقَ بِعلمِه مَثَلُ المُدَّعي للكَرَمِ الذي يُريدُ أن يَلْحَقَ بالكُرَماءِ. فليسَ التَّكَحُّلُ في العينين كالكُحْلِ. وليس التَّساخي كالسَّخاءِ. لاسيما وأنَّ أخلاقَ النَّفْسِ تَلْزَمُها لُزومَ الألوانِ للأبدانِ. فالأبيضُ لا يقْدِرُ على السَّوادِ. ولا الأسودُ يَقْدِرُ على البياضِ، ولا يقدِرُ الشُّجاعُ على الجُبْنِ ولا الجَبانُ على الشجاعةِ. قال أبو بكر العَرْزَمي[2]:

يَفِـرُّ جَـبانُ الـقَوْمِ عـن أمِّ رأسِـهِ ويَحْمي شُجاعُ القَوْمِ مَنْ لا يُناسِبُهْ[3]
ويَـرزُقُ مَـعْروفَ الـجَوادِ عَـدُوُّهُ ويَحْـرِم مَـعروفَ البخيـلِ أقـاربُه
ومَنْ لا يَـكُـفُّ الجـهلَ عمَّن يَـوَدُّهُ فسوف يَكُفُّ الجَهْلَ عَمَّنْ يُواثبُهْ[4]

1- (الأركان الأربعة): هي النار والهواء والماء والتراب. وكان الأقدمون يعتقدون أنَّ هذه الأركانَ البسيطة تتركَّبُ مِنْها جميعُ مواد الطبيعة. ويقصدُ ابنُ القارح أنَّ نَفْسَ المعري تَنْزِعُ إلى الاكتمال بكل عناصر تكوينه كما تتشكَّلُ موادُّ الأشياء من عناصرها وأركانها.

2- (أبو بكر العرزمي): هو محمد بن عبيد الله. أصله من حضرموت. نشأ في الكوفة، وأدرك أولَ الدولة العباسية. وأكثرُ شعره حِكَمٌ وأمثال.

3- (يناسبه): يكون له معه نسبٌ وقرابة. والمعنى أنَّ الجبان يهرب عن أمه، والشجاع يحمي مَنْ لا يعرف.

4- (الجَهْل): هنا بمعنى نقيض الحِلْمِ والرَّويَّة. والمعنى أنَّ مَنْ لا يمتنع عن إيذاء أصحابه حين قوته، فسوف يكون ضعيفاً أمام مَنْ يحاربه.

ومِنْ أينَ للضَّبابِ أنْ يُمطِرَ المطرَ الغزيرَ كما يفعلُ السَّحابُ؟ ومِنْ أين للغُرابِ أنْ يَنْقَضَّ انقِضاضَ العُقابِ؟ وكيف يُمْكِنُ نِسيانُ مولايَ الشيخِ الجليلِ وقد أصبحَ ذِكْرُهُ على كُلِّ لسانٍ؟ فمَنْ أنْكَرَ مكانتَه مُدَّعياً ما ليس له، كان كَمَنْ أنكرَ العِيانَ وكابرَ الإنْسَ والجانَ، وتَمَسَّك بالإفْكِ والبُهتانِ. وكان كَمَنْ تَحدَّى بضَعْفِه صلابةَ الحَجَرِ، ونافَسَ بقباحَتِه حُسْنَ القمرِ. وهَذى وهذَرَ. ونادى على نفسِهِ بالنقصِ في البدوِ والحَضَرِ. وكان كما قالَ الأعشى (ميمونُ بن قيس[1]):

كَـنـاطِحٍ صَخْرةَ يـوماً لِـيَـفْـلِقَهـا فلم يَـضِرْها وأوْهى قَـرْنَـهُ الوَعِـلُ

ورُوِيَ أنَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلَّمَ وزادَهُ شرفاً قال: (لَعَنَ اللهُ ذا اللسانين. لعنَ اللهُ كلَّ شقَّار. لعنَ اللهُ كلَّ قَتَّات)[2].

ورودُ ابنِ القارح إلى حلب وفَقْدُهُ المَعارِفَ فيها

وَرَدتُ حَلَبَ – حَماها اللهُ وحَرَسها – بعدما لَقِيتُ في ريفِها الدَّواهي والمَصائبَ. فلما دَخَلْتُها وقبلَ أن أستقرَّ في الدارِ أنكَرْتُها لأني فقدتُ فيها معارفي وجيراني. فأنشدتُها باكياً:

إذا زُرْتُ أرضـاً بعدَ طولِ اجْـتِنـابِها فَـقَـدْتُ حبيبـاً والبـلادُ كما هيـا

فكان حالي كحالِ أبي القطران المَرَّارِ بنِ سعيدٍ الفَقْعَسِيِّ[3]. فأبو القطرانِ هذا كان يهوى ابنةَ عَمِّه في نجد. واسمُها (وَحشِيَّة). فتزوَّجَها رجلٌ شامِيٌّ وأخذَها إلى بلده. فاغتمَّ أبو القطران لبُعدِها وساءَهُ فِراقُها. فقالَ مِنْ قصيدةٍ:

إذا تَـرَكتْ وحشيَّـةُ الـنَّجْدَ لم يَـكُنْ لِعينيـك مِمَّا تَـبْكِـيـانِ طـبـيـبُ

1- (الأعشى): هو ميمون بن قيس بن جندل. لُقِّبَ بالأعشى لأنه كان ضعيف البصر. ويُقال له (أعشى قيس) و(الأعشى الأكبر) من كبار شعراء الجاهلية. أدرك الإسلام ولم يُسْلم. توفي عام 7 هـ - 629 م بعد أن عاش طويلاً.

2- (الشَّقَّار): الكذاب. (القَتَّات): النمَّام. من (قَتَّ الكلامَ) زوَّره.

3- (أبو القطران الأسدي): المَرَّار بن سعيد بن حبيب الفقعسي الأسدي. شاعر إسلامي مُكثِر.

رأى نَظْـرَةً منها فـلم يَملِكِ الـبُـكا مُـعاوِزُ يَـرْبو تَحْـتَهُـنَّ كثـيبُ[1]
وكـانَتْ رِيـاحُ الشـامِ تُـكْـرَهُ مَـرَّةً فقد جَعَلتْ تـلكَ الريـاحَ تَـطيـبُ

فما حصَّلَ أبو القطرانِ مِنْ وَحِشِيَّةَ إلا الرياحَ. وأنا ما حصَّلْتُ مِنَ الربحِ إلا الريحَ.

ثم..وثم.. وثم.. ثم أجرى أحدُهم ذِكْرَ الشيخِ[2] – أدامَ اللهُ تأييدَهُ – مِنْ غيرِ سببٍ جرَّه إلى ذِكْرِهِ ومِنْ غيرِ ما يَقْتضيهِ الحالُ فقالَ: "الشيخُ بالنحوِ أعلَمُ مِنْ سيبويه[3]، وباللغةِ والعَروضِ أعلمُ مِنَ الخليلِ[4]". فقلتُ والمجلسُ يأذَنُ بالانفِضاضِ: "بلغني أنَّ الشيخَ – أدامَ اللهُ تأييدَهُ – يَصْغُرُ أمامَه الكبيرُ، ويتضاءلُ أمامَه الصغيرُ. لكنَّ الالتقاءَ به يَجعَلُ الصغيرَ كبيراً، ويجعلُ القليلَ كثيراً".

رسالةُ أبي الفرج الزَّهَرْجي[5]

كانَ (أبو الفَرَجِ الزَّهَرْجي) كاتبُ حَضرةِ (نَصْرِ الدولة[6]) – أدامَ اللهُ حِراستَه –

1- (المُعاوز): ج مِعْوَز. وهو الثوب المهترئ. (الكثيب): التلة من الرمل. وهو هنا يصف أردافَها بأنها مكتنزة. والمعنى أنه نظر إليها فعشقها فبكى. فهي تلبس ثياباً عتيقة. لكن هذه الثياب تُخفي تحتها جسداً جميلاً.

2- هكذا وصلت الرسالة إلى المعري. فقد أسقط ابنُ القارح اسمَ الذي مدحه. وسوف يشير المعري إلى ذلك.

3- (عمرو بن عثمان): مولى الحارث بن كعب. كنيته أبو بشر ولقبه سيبويه. وهي كلمة فارسية معناها (رائحة التفاح). نشأ في البصرة. وصارت شهرته في النحو مَضْربَ المَثَل. توفي عام 180 هـ 796 م.

4- (الخليل): أبو عبد الرحمن بن أحمد البصري الفراهيدي الأزْدي الدَّوْسي. إمامٌ في النحو. كان من أئمة اللغة والأدب. وضع علم العروض. وأخذ هذا العلم عن الموسيقى. وكان عارفاً بها. تلقَّى العلم على يديه كثيرٌ مِنْ علماء العصر. منهم سيبويه والأصمعي والكسائي. كان شاحب اللون متقشف الهيئة مغموراً بين الناس. ولد في البصرة عام 100 هـ 718 م وتوفي فيها عام 170 هـ 786 م.

5- (أبو الفرج الزهَرْجي): كاتب نصر الدولة. وقد كتب رسالة إلى أبي العلاء. وسأل ابنَ القارح إيصالها إليه. فوضعها في رحل له. فسرقها جاره المسافر معه. فكتب ابن القارح رسالته إلى أبي العلاء معتذراً. فكتب المعري رسالة الغفران.

6- (نصر الدولة): أحمد بن مروان أبو نصر الكردي. وَليَ ميافارقين وديار بكر عام 401 هـ 1010 م، واستمر في ولايتها حتى وفاته عام 453 هـ 1061 م. وكان عاليَ الهمة حازماً حريصاً على الدين والدنيا ومحباً للهو. ويقال إنه لم تفته صلاة صبح. قصده شعراء عصره ومدحوه. وَزَرَ له أبو القاسم المغربي.

قد كتبَ رسالةً إليَّ أعطانيها، ورسالةً إلى الشيخِ – أدامَ اللهُ تأييدَه – استَوْدَعَنيها وسألَني إيصالَها إلى جَليلِ حَضْرَتِهِ، وأنْ أُعَجِّلَ بإيصالِها إليه. فسَرَقَ جاري رَحْلاً لي كانت الرسالةُ فيه. فكتبتُ هذه الرسالةَ أَشْكو أموري وأبثُّ همومي وأُطْلِعُه على عُجَري وبُجَري[1] وما لَقيتُ في سَفَري مِنْ أُناسٍ يدَّعون العِلْمَ والأدبَ. والأدبُ أدبُ النفسِ لا أدبُ الدرسِ. وهُمْ أصْفارٌ منها جميعاً. ولهم أغْلاطٌ كنتُ إذا ردَدْتُها عليهم وصحَّحتُها لهم، نَسبوا الغلطَ إليَّ واجْتَمعوا في العَداوةِ عليَّ.

***

لقيتُ (أبا الفرج الزَّهرجي) في (آمِدَ[2]) ومعهُ خِزانةُ كُتبِه. فعَرضَها عليَّ فقلت له: "كُتُبُك هذه يهودِيةٌ، قد بَرِئتَ مِنَ الشريعةِ الحنيفيةِ". فأظهَرَ مِنْ ذلك إعْظاماً وإنْكاراً. فقلتُ له: "ضَعْ كُتُبَك هذه على مَوْضِعِ التَّجربةِ والاختِبارِ. ومِثْلي لا يَهْرِفُ بما لا يَعْرِفُ. واقرأْ تتيَقَّنْ". فقرأها هو وولدُه. فقالَ: "كَشَفَ الاختبارُ الخبَرَ". وكتب إليَّ رسالةً يُقَرِّظُني فيها بطبعٍ له كريمٍ وخُلُقٍ غيرِ ذَميم.

مع المتنبي[3]

وأنا لستُ مثلَ غيري مِمَّنْ يَذُمُّ ما هو غيرُ مَذْمومٍ. فقد قالَ المتنبي:

أذمُّ إلى هـذا الـزَّمان أُهَـيْـلَـهُ فأَعْلَمُهُمْ فَـدْمٌ وأَحْزَمُهُمْ وَغْـدُ[4]

1- (العُجَر والبُجَر): العيوب والهموم. وقد صارت هذه الجملة مثلاً شعبياً متداولاً بين الناس. يقال: (صاحبتُ فلاناً على عجره وبجره) أي على حسناته وسيئاته. و(اشتريت هذه الدار على عجرها وبجرها). و(قبلت هذا العمل على عجره وبجره). وهكذا.

2- (آمد): هي المدينة المسماة اليوم (ديار بكر). وتقع في أقصى ما بين نهري الدجلة والفرات. أسسها الآراميون على ضفاف دجلة. ازدهرت في العهد الروماني. وسماها السلطان العثماني سليم الأول (ديار بكر) عام 1515 عندما فتحها.

3- (أحمد بن الحسين): هو أبو الطيب المتنبي. ولد في الكوفة عام 303 هـ 915 م. وكان أبوه سقّاءً. بدأ تعلُّمه في الكوفة. ثم انتقل به أبوه إلى بلاد الشام فاستكمل علمه فيها. وصار أهم شاعر. يستقدمه الملوك إليهم ليمدحهم. توفي مقتولاً عام 352 هـ 963 م.

4- (الفَدْم): الثقيل الفهم الغبي. وسوف يردُّ المعري على ابن القارح في تهجُّمِه على المتنبي.

فصغَّرَهم تَصْغيرَ تَحقيرٍ غيرَ تَكبيرٍ، ففَضَحَ ما في صَدْرِه مِنْ غِلٍّ وأظْهَرَ ما في ضَميرِهِ المَسْتورِ. وهذا الكلامُ سائغٌ ومَقْبولٌ في مَجازِ الشعرِ. وقائِلُهُ غيرُ مَمنوعٍ مِنْ قوْلِهِ في النظمِ والنثرِ. لكن المتنبي وضَعَهُ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ. وخاطَبَ به غيرَ مُسْتَحِقِّه. وما يستحِقُّ زمانٌ ساعدَهُ بِلقاءِ سيفِ الدولة أنْ يُطْلِقَ على أهلِهِ الذَّمَّ. وكيف يقولُ هذا وهو القائِلُ:

أســيرُ إلى إقْطاعِــه في ثِـيابِـهِ على طِـرْفِه مِنْ دارِه بِحُسامِهِ[1]

وقد كان مِنْ حَقِّه أنْ يجعَلَ أَهْلَ الزَّمانِ في حِمايةِ سيفِ الدولة. إذ كانوا مَنْسوبين إليه ومَحْسوبين عليه. ولا يجِبُ أنْ يشكوَ المتنبي عاقِلاً ناطِقاً وهم أهلُ الزَّمانِ، إلى غيرِ عاقِلٍ ولا ناطِقٍ وهو الزمان. لأنَّ الزمانَ حركاتُ الفلَك. إلا أنْ يكونَ مِمَّنْ يَعتقِدُ أنَّ الأفلاك تَعْقِلُ وتَعْلَمُ وتفْهَمُ وتَدْري بمواقِعِ أفْعالِها بقَصْدٍ وإرادةٍ. ويحْمِلُه هذا الاعتقادُ على أنْ يُقَرِّبَ لها القَرابينَ ويُقدِّمَ لها البَخُورَ. فيكونُ مناقِضاً لقوله:

فـتَـبًّـاً لـدينِ عـبيدِ الـنُّجـو مِ ومَـنْ يَـدَّعي أنـها تَـعْقِـلُ

أو يكونُ كما قالَ اللهُ تعالى في كتابِهِ الكريم: (مُذَبْذَبين بينَ ذلك لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاء[2]). ويوشِكُ أنْ تكونَ هذه صِفَتَه.

حكى (القُطْرُبُّلِيُّ[3]) و(ابنُ الأزهر[4]) في كتابٍ اجْتَمَعا على تصنيفِه – وهو كتابٌ يزعم أهلُ بغدادَ وأهلُ مصرَ أنه لم يُصَنَّفْ مِثلُه في معناه لِصِغَرِ حجمِهِ وكِبَرِ عِلْمِه – أنَّ المتنبي أُخْرِجَ في بغدادَ مِنَ الحَبْسِ إلى مَجْلِسِ (أبي الحسنِ عليِّ بنِ عيسى[5]))

1- (الطِّرْف): الفرس الكريم. وهو يمدح سيف الدولة. فيصف نفسه بأنه يذهب إلى داره في ثيابه على فرسه متقلداً سيفه. أي أن كلَّ ما يملكه مِنْ عَطاء سيف الدولة.

2- سورة النساء. من الآية 143.

3- (القُطْرُبُّلي): أبو الحسن. أحمد بن عبد الله بن الحسين بن سعد بن مسعود القطربلي. مِنْ علماء الكُتَّاب وأفاضلهم. من كتبه (كتاب التاريخ) و(فقر البلغاء) و(المنطق).

4- (ابن الأزهر): هو أبو بكر محمد بن أحمد بن مزيد الخزاعي. النحوي الإخباري. ولد في أواخر القرن الثالث وعُمِّرَ طويلاً.

5- (أبو الحسنِ عليُّ بنُ عيسى بنِ الجرَّاح) البغدادي الكاتب الوزير. وَزَرَ عدة مرات للخليفة العباسي =

الوزيرِ رحِمَهُ اللهُ. فقالَ له: "أنتَ أحمدُ المتنبي؟". فقال: "أنا أحمدُ النبي". وكشفَ عن بَطنِهِ فأراه وَحْمَةً فيه وقالَ: "هذا طابَعُ نُبَوَّتي وعلامةُ رِسالتي". فخلعَ الوزيرُ خُفَّه وصفَعَهُ به خَمسينَ صفعةً. وأعادَه إلى مَحْبَسِهِ.

وقال فيما بعدُ مِن قصيدةٍ أنشأها وهو في مصرَ يشكو سيفَ الدولة:

وتَـغْضَبون على مَنْ نـالَ رِفْدَكُمُ حتى يُعاقِبَه التَّنْغيصُ والمِنَنُ[1]

وكذبَ واللهِ. لقد كان سيفُ الدولةِ يتَحَرَّشُ بالمكارمِ ويتَحَكَّكُ بها. ويحْسُدُ غيرَه عليها إلا أنْ تكونَ مِنْه وبه وبسببِهِ. وهذا غيرُ قادحٍ في طُلاوة شعرِ المتنبي ورونقِ ديباجتِهِ.

الهجومُ على الزنادقةِ والمُلْحِدين

ولكني أَغْتاظُ على الزنادِقَةِ والمُلحِدينَ الذين يَتَلاعَبونَ بالدينِ، ويَرومونَ إدخالَ الشُّبَهِ والشُّكوكِ على المُسلمين، ويَسْتَعْذبون القَدْحَ في نُبُوَّةِ النَّبِيِّينَ صلواتُ اللهِ عليهم أجْمَعين، ويَتَظَرَّفون حين يُبْدون إعْجاباً بِمَذْهبِ الزَّندَقَةِ. وقد وصفَ أبو نُواسٍ ذلك بقولِه:

تِيهُ مُغَنٍّ وظَرفُ زِنديقِ

وقد قَتَلَ الخليفةُ (المَهْدِيُّ)[2] (بشارَ بنَ بُرد) على الزندقةِ. وكان (ابنُ بُردٍ) قد خافَ على نفْسِهِ عندما اشتُهِر بالزندقةِ، فدافَعَ عن نفسِه بقولِهِ:

يـا ابنَ نَهْيـا رأسي عليَّ ثَـقـيـلُ واحتِمالُ الرأسـينِ عِـبْءٌ ثـقيـلُ
فـادعُ غَـيْري إلى عِـبادةِ ربِّيـ ـنِ فـإني بِـواحِـدٍ مَـشـغـولُ

= المقتدر ثم القاهر. وكان مُحدِّثاً عالماً متديناً حتى شبَّهوه بعمر بن عبد العزيز. توفي عام 334 هـ 945 م وعمره تسعون سنة.

1- (الرِّفْد): العطاء. (المِنَن): ج مِنَّة. وهي تعداد ما أعطيتَه للآخر.

2- (المَهدي): هو أبو عبدِ الله محمدُ بنُ أبي جعفرَ المنصور. ثالث خلفاء الدولة العباسية. ولد عام 127 هـ 745 م. وَلِيَ الخلافةَ بعد أبيه المنصور عام 158 هـ 775 م. كان حسن السيرة في الرعية. وجهد في تتبع الزنادقة في كل مكان. توفي عام 169 هـ 785 م.

وأحضَرَ المهديُّ (صالحَ بنَ عبدِ القُدُّوسِ[1])، وأحضرَ النِّطْعَ والسيَّافَ. فقال (عبدُ القدوس) للمهدي: "علامَ تقتلني؟". فقالَ له: "على قولِك:

رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُه فكأني أخْرسٌ أو ثَنى لِسانِيَ عَقْلُ[2]
ولو أني أَظْهَرتُ للناس ديني لم يَكُن لي في غَيْرِ حبْسِيَ أكلُ

وعلى قولِكَ يا عَدُوَّ اللهِ وعدوَّ نفسِهِ:

السِّتْرُ دونَ الفاحِشاتِ ولا يَلْقاك دونَ الخَيْرِ مِنْ سِترِ"

فقالَ (عبدُ القدوسِ): "قد كنتُ زِنديقاً. وقد تُبْتُ عن الزندقة". فقال المهديُّ: "كيف ذاك وأنت القائلُ:

والشيخُ لا يَتْرُك عاداتِه حتى يُوارى في ثَرى رِمْسِهِ
إذا ارْعوى عادَ إلى غَيِّهِ كَذي الضَّنى عاد إلى نُكسِهِ[3]"

وأخذ السيَّافُ غَفْلَةً مِنْ عبدِ القدوس. وإذا برأسهِ يَتَدَحْرَجُ على النِّطْعِ.

ذِكْرُ بعضِ الزنادقة

الزنديقُ الأعور

وظَهَرَ في أيامِ (المهدي) في بلدٍ خَلْفَ (بُخارى[4]) وراءَ النهرِ رجلٌ أعورُ صَنَعَ لنفسِهِ وَجْهاً مِنْ ذهبٍ، وخوطِبَ بـ (ربِّ العِزَّة). وصنعَ لأتباعه قَمَراً وَضَعَه فوقَ جبلٍ ارتِفاعُهُ فراسِخُ. فأنفذَ (المهديُّ) إليه جيشاً حاصَرَهُ وحاصَرَ قلعتَه. فأحرقَ

1- (صالح بن عبد القدوس): بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي. أبو الفضل. مولى بني أسد. كان شاعراً حكيماً متكلماً يعظ الناس. ثم مال إلى الزندقة. قتله المهدي في بغداد عام 160 هـ 776 م.

2- (ثنى قَيْداً على ذِراعه): ربطهما معاً. (العقل): القيد.

3- المعنى أن الإنسان لا يترك ما اعتاد عليه. فإذا تاب وامتنع فسوف يعود إلى ضلاله. كالمريض الذي ينتكس بعد الشفاء.

4- (بُخارى): من أعظم مدن ما وراء النهر. كانت قاعدة عسكرية هامة للأسرة الساسانية الحاكمة في فارس.

الأعورُ كلَّ شيءٍ في القلعةِ. وجَمَعَ كلَّ مَنْ في البلدِ وسقاهم شراباً مَسْموماً. فماتوا جميعاً. وشَرِبَ فلحِقَ بهم. وعجَّل اللهُ بروحِهِ إلى النارِ.

(الصناديقيُّ الزنديق[1])

و(الصَّناديقِيُّ) في اليمنِ كانت جيوشُه في مدينتي (المُدَيْخِرة) و(سَفَهْنة) مِنْ مُدُنِ هَمْدانَ في اليمن. وخوطِبَ بـ (ربِّ العزَّة). وكوتِبَ بها. وكانتْ له دارٌ واسِعَةٌ يَجمَعُ فيها نساءَ البلدة كِلِّها، ويُدْخِلُ الرجالَ عليهن ليلاً. قال مَنْ يوثَقُ بِخبرِهِ: "دخلتُ إلى هذه الدارِ لأنظرَ. فسمعتُ امرأةً تقولُ لأحدِ الرجالِ: (يا بني). فقال لها: (يا أمي. نُريدُ أنْ نُمْضِيَ أمرَ وَلِيِّ اللهِ فينا".

وكانَ يقولُ لأتباعِهِ: "إذا فعلتُمْ هذا، لم يَتَمَيَّزْ مالٌ مِنْ مالٍ ولا ولدٌ مِنْ ولدٍ. فتكونونَ كنفسٍ واحدةٍ". فغزاهُ الحَسَنِيُّ[2] مِنْ صنعاءَ فهزمَهُ. وتحصَّنَ (الصناديقيُّ) مِنَ الحسنيِّ في حِصْنٍ له هناك. فأنفذَ إليه الحَسَنيُّ طبيباً بِمِبْضَعٍ مَسمومٍ. ففَصَدَه به فقتله.

الوليدُ بنُ يزيد[3] الزنديق

و(الوليدُ بنُ يزيدَ) أقامَ في المُلْكِ سنةً وشهرين وأياماً. وهو القائلُ:

إذا مُـتُّ يا أمَّ الحُنَيْـكِلِ فانكِحي ولا تـأمَـلي بَعْدَ الـفِراقِ تلاقِـيـا

1- (الصناديقي): ظهر عام 270 هـ 883 م. وأقام برهة في اليمن. وهو من الزنادقة. اقترف الفظائع. فقتل الأطفال وسبى النساءَ وتسمى بـ (ربِّ العزة). وأعلن سبّ النبي محمد وسائرِ الأنبياء. واتخذ داراً سماها (دارَ الصَّفْوة). وفيها يجتمع النساء والرجال. توفي من جراح كانت فيه عام 295 هـ 908 م.

2- (الحَسَنِي): قائد يمني في القرن الثالث الهجري.

3- (الوليد بن يزيد): الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني أمية. وَلِيَ الخلافةَ بعد عمه (هشام بن عبد الملك) عام 125. عُرِف بارتكاب الموبقات. فأنكره الناس وحوصِرَ. قُتِلَ عام 126 هـ 744 م وعمره ثمانية وثلاثون عاماً.

فـإنَّ الذي حُـدِّثْـتِـهِ مِنْ لِقائِـنـا أحاديثُ طَسْمٍ تَـتْرُكُ العَقْلَ واهِيا[1]

ورمى المُصْحَفَ بالنَّشَّابِ وخَرَقَهُ وقالَ له:

إذا مـا جِـئْـتَ ربَّـك يـومَ حَـشْرٍ فـقُـلْ يـا ربِّ خَـرَّقَـني الولـيـدُ

وأرسل الوليدُ هذا إلى مكةَ بَنَّاءً مَجوسياً لِيَبْنِيَ له فوقَ الكعبةِ مَكاناً للشُّربِ. فمات قبلَ تَمامِ ذلك. فكان الحُجَّاجُ يقولون: "لبَّيك اللهمَّ لبيك. لبيك يا قاتِلَ الوليدِ بنِ يزيدَ لبيك".

وأحضَرَ الوليدُ نفسُهُ وِعاءً مِنْ ذهبٍ فيه جَوْهَرَةٌ جَليلةُ القَدْرِ فيها صورةُ رجلٍ. فسَجَدَ له وقبَّلَه وقالَ لأحَدِ جُلَسائِه: "اسجُدْ يا عِلْج". فقالَ له الجَليسُ: "ومَنْ هذا؟". فقالَ الوليدُ: "هذا ماني[2]. كانَ شأنُه عظيماً. واضْمَحَلَّ أمرُه لِطولِ المُدَّةِ". فقال الجليس: "لا يَجوزُ السُّجودُ إلا لله". فقال له الوليدُ: "قُمْ عنا".

وكانَ يشربُ على سَطْحٍ وبين يديه باطِيَّةٌ. (والباطِيَّةُ وِعاءٌ كبيرٌ للخمرِ). ومعها أقداحٌ مِنَ البِلَّوْرِ. فقالَ لنُدَمانه: "أين القمرُ الليلة؟". فقالَ بعضُهم: "في الباطية". فقالَ له الوليدُ: "صَدَقْتَ. أتيتَ على ما في نفسي. واللهِ لأشربَنَّ الهَفْتَجَة". يعني أنْ يظلَّ يشربُ سَبعةَ أسابيعَ متتالية.

وكان مرةً في مَوضعٍ حولَ دمشقَ يُقالُ له (البَحْرا). فقال:

تَـلَعَّبَ بـالـنُّـبُـوَّةِ هـاشـمِيٌّ بـلا وحْـيٍ أتـاه ولا كِـتـابِ

فقُتِل بهذا البيتِ. قال أحدُهم: "ورأيتُ رأسَه في الباطيةِ التي أرادَ أن يُهَفْتِجَ بها".

1- (الحُنَيْكِل): تصغير (الحَنْكل). وهو اللئيم والبخيل. (طَسْم): قبيلة عربية بائدة. والمعنى أنه يطلب من المرأة أن تتزوج بعده وأن لا تُصدِّقَ ما يقال عن اللقاء في الآخرة. فهي أحاديث كاذبة من الأخبار القديمة. وهي تترك العقل ضعيفاً. أي أن الشاعر يُنكِر يوم القيامة وهو خليفة المسلمين.

2- (ماني). إليه تُنسَب الديانة المانوية في بلاد فارس. وهي ديانة تستمِدُّ عناصرها مِنَ المسيحية والزرادشتية. وتقوم على أن الكون مركب من عنصري النور والظلام. ولد ماني عام (216 م) في قرية من قرى بابل في أسرة متزهِّدة. وحاربه أباطرة الفرس. فصُلِبَ عام 277 م على أبواب مدينة (جند شابور). وبعد موته تبنى أحد الأكاسرة دينه. واستمرت المانوية حوالي ألف عام.

أبو عيسى بنُ الرشيد[1]

وأبو عيسى بنُ الرشيدِ هو القائلُ:

دهانِيَ شَهْرُ الصَّوْمِ لا كانَ مِنْ شهرِ ولا صُمْتُ شَــهْراً بَعْدَه آخِــرَ الــدَّهْرِ

ولــو كان يُــعْديني الإمــامُ بِــقُــدْرةٍ على الشهرِ لاستعديْتُ دَهْري على الشهرِ

فعَرَضَ له في وقْتِهِ صَرَعٌ. فماتَ ولم يُدْرِكْ شهراً غيرَه والحمدُ لله.

الجَنَّابيُّ القُرْمُطي[2]

و(الجَنَّابِيُّ) قَتَلَ بمكةَ أُلوفاً. أخذَ سِتَّةً وعشرين ألفَ جَمَلٍ مِنَ الحُجَّاج. ورمى أحْمالَ الحُجَاجِ المَقْتولينَ في النارِ. واستَمْلَكَ مِنَ النساءِ والغِلْمانِ والصِّبيانِ مَنْ ضاقَ بهم الفضاءُ لِكَثرتهم. وأخذَ الحَجَرَ الأسودَ وظنَّ أنه مَغناطيسُ القلوبِ. وأخذَ ميزابَ الكعبةِ. قال الراوي: "سمعتُ قائلاً يقولُ لغلامٍ أسودَ غليظٍ طُوالٍ يرفُلُ في بُرْدَيه وهو فوقَ الكعبةِ: (يا رَخْمة. اقْلَعْه وأسْرِعْ). يعني ميزابَ الكعبة. فعلمتُ أنَّ مَنْ نَقَلوا هذا الحديثَ صَحَّفوه فقالوا: "يقلَعُهُ غلامٌ اسمُه رَحْمة" ، كما صَحَّفوا على عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه قولَه: "تهلِكُ البصرةُ بالريحِ" فقالوا (تهلِكُ البصرةُ بالزَّنج) لأنها هَلَكَتْ بعد ذلك بهم".

فقد هَلَكَت البصرةُ عندما هَجَمَ عليها صاحبُ الزَّنْجِ وقتلَ في موضِعٍ مِنْها يُقالُ له (العقيق) أربعةً وعشرين ألفاً عَدُّهم بالقَصَبِ، وحَرَّقَ جامِعَها وقال في خُطبتِه يخاطبُ الزَّنْجَ: "إنكم قد أُعِنْتُم بقُبْحِ مَظْهَرٍ. فاشْفَعوه بِقُبْحِ مَخْبَرٍ. اجعلوا كلَّ عامرٍ قَفْراً وكلَّ بيتٍ قبراً".

1- (أبو عيسى بنُ الرشيد): هو صالح بن هارون الرشيد. أمه أم ولد وهي بربرية. كان من أحسن الناس وجهاً ومجالسةً وعشرة. وكان شاعراً.

2- (أبو طاهر سليمان بن الحسن القرمطي): سار إلى البحرين عام 286 هـ 899 م ومَلَكَها. ثم سار إلى مكة في 700 فارس. فاستباح الحجيج كلَّهم في الحَرَم وقتل ثلاثين ألفاً. واقتلع الحجرَ الأسود وردم بئرَ زمزم بجثث القتلى. وصعد على عتبة الكعبة وقال: (أنا بالله. وبالله أنا. أخلِقُ الخلق وأُفنيهم أنا). وأخذ باب الكعبة وعاد إلى البحرين. توفي عام 332 هـ 931 م.

وقال (أبو عبدِ الله بن محمدُ بنُ عليِّ بنِ رِزام الطائيِّ الكوفي[1]): "كنتُ بمكة وسيفُ الجنَّابي قد أَخَذَ الحَجيجَ. ورأيتُ رجلاً مِنْهم قد قَتَلَ جَماعةً وهو يقولُ: (يا كِلابُ. أليسَ قالَ لكم محمدٌ المكيُّ: ومَنْ دخَلَهُ كان آمناً[2]؟. أيُّ أمْنٍ هنا؟".

فقلتُ له: "يا فتى العرب. تؤمِّنُني سيفَك أفسِّرْ لك هذا؟".

قالَ: "نعم". قلتُ: "فيها خمسةُ أجْوِبةٍ: الأولُ: (ومَنْ دَخَلَهُ كان آمناً مِنْ عَذابي يومَ القيامةِ). والثاني: (كان آمِناً مِنْ فَرْضِيَ الذي فَرَضْتُهُ عليه). والثالثُ: "خرجَ مَخْرَجَ الخبر وهو يريد الأمر. كقوله: (والمطلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسَهِنَّ[3]". والرابعُ: "لا يُقامُ عليه الحَدُّ إذا جَنى فيه حتى بعدَ انتهاءِ المَوْسِمِ وصارَ في الحِلّ". والخامسُ: "مَنَّ الله عليهم بقولِهِ: أنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً ويُتَخَطَّفُ الناسُ مِنْ حَوْلِهم).

فقالَ: "صَدَقْتَ. هذه اللِّحْيةُ إلى تَوْبةٍ"؟. وأشارَ إلى لِحْيَتِهِ. فقلتُ: "نعم". فخَلاَّني وذَهَبَ".

الحّلاَّج[4]

و(الحُسَيْنُ بنُ مَنْصورٍ الحَلاَّجُ) مِنْ (نيسابور) وقيلَ مِنْ (مَرْو)[5]، كانَ يدَّعي كُلَّ عِلْمٍ، وكانَ مُتَهَوِّراً جَسوراً يَرومُ إقْلابَ الدُّوَلِ، ويدَّعي فيه أصحابُه الإلهِيَّة. ويقولُ بالحُلولِ. وكان يُظْهِرُ مذاهبَ الشيعَةِ للمُلوكِ، ومذاهبَ الصوفِيَّةِ للعامَّة. وفي

1- (محمد بن علي بن رِزام الطائي): لا توجد له ترجمة. ويُفهم من حديثه عن الجنَّابي أنه عاش في الربع الأول من القرن الرابع الهجري.

2- يشير إلى الآية 97 من سورة آل عمران: (مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً).

3- سورة البقرة. من الآية 228.

4- (الحسين بن منصور الحلاج): ولد عام 242 هـ 858 م. نشأ في واسط ثم دخل بغداد. وزار مكة واعتكف فيها. وهو من أكثر الناس الذين اخْتُلِف في أمرهم. وقاضي بغداد محمد بن داود لم تُعْجِبه آراء الحلاج فأحاله إلى المحكمة. فلقي مصرعه مصلوباً على باب خراسان بأمر الخليفة المقتدر عام 309 هـ 922 م.

5- (نيسابور) و(مرو): من مدن خراسان في فارس.

تَضاعيفِ ذلك يَدَّعي أنَّ الإلهِيَّةَ قد حَلَّتْ فيه. وناظَرَه (عليُّ بنُ عيسى[1]) الوزيرُ، فوَجَدَهُ صِفْراً مِنَ العُلومِ فقال له: "تَعَلُّمُكَ لِطَهارتِك وفُروضِك أجدى عليك من رَسائلَ أنت لا تدري ما تَقولُ فيها. كم تَكتبُ إلى الناسِ: (تبارك ذو النورِ الشَّعْشَعانيِّ الذي يَلْمَع بعد شَعشَعَتِهِ؟). ما أحْوجَكَ إلى أَدبٍ".

حدَّثني (أبو علي الفارسي[2]) قالَ: "رأيتُ الحلاجَ واقِفاً على حَلْقَةِ (أبي بَكرٍ الشِّبْليِّ)[3] الذي قالَ له: (أنت تُفْسِدُ خَشْيَةَ اللهِ إذا قُلْتَ بالحُلول". فنَفَضَ الحلاجُ كُمَّهُ في وجْهِ الشِّبْلي وأنْشَدَ:

يـا سِـرُّ سِـرُّ يَـدِقُّ حـتـى يَجِلَّ عـن وصـفِ كُلِّ حَيّ[4]
وظـاهِـراً بـاطِـنـاً تَـبَـدّى مِـنْ كُـلِّ شَـيْءٍ لكُـلِّ شَـيْ
يـا جُـمْـلَـةَ الكُلِّ لسـتَ غَيري فـما اعْـتِـذاري إذن إلـيّ؟"

وهو يعتقدُ أنَّ (العارِفَ) هو مِنَ اللهِ بِمَنْزلةِ شُعاعِ الشَّمْسِ. مِنَ الشمسِ بَدأَ وإليها يَعودُ، ومِنْها يستمدُّ ضَوْءَه. وكذلك العارفُ. مِنَ اللهِ يَبدأُ. وإليه يعودُ. ومِنْه يستمِدُّ نورَهُ.

وأنشدني شاعرٌ مِنْ شِعرِهِ:

أرى جيلَ التَّصَوِّفِ شـرَّ جيلٍ فَقُلْ لَهُمو وأَهْـوِنْ بـالحُـلولِ

1- (علي بن عيسى) الجرَّاح البغدادي. كان كثير التلاوة والصلاة والصيام. يحبُّ مجالسة أهل العلم. وَزَرَ للعباسيين أكثر من ثلاثين عاماً. ولد عام 240 هـ 854 م وتوفي عام 318 هـ 930 م.

2- (أبو علي الفارسي) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي. من أئمة النحويين. توفي في خلافة الطائع العباسي عام 377 هـ 987 م.

3- (أبو بكر الشِّبْلي): الشيخ الزاهد. ولد في سامراء عام 247 هـ 861 م. نشأ مع أولاد الأمراء وعمل في وظائف الدولة. ثم اعتزلها وانصرف إلى التصوف. وكان من أصحاب الحلاج. وكان يُتقِنُ ادِّعاءَ الجُنون. وكان يقول: (أنا والحلاج شرٌّ واحد. خلِّصني جنوني وقتله عقلُه). توفي عام 334 ه. 945 م.

4- (يا سِرُّ): الحلاج يخاطب اللهَ بأنه سر دقيق لا يمكن لحَيٍّ أن يصفه. وقد ضبطت بنتُ الشاطئ ومحمد كرد علي بالنصب (يا سرَّ). و(سرَّ) الثانية تأكيد. وقد ضبطنا الكلمة بالضم لأنها منادى نكرة مقصودة. وفي ديوان الحلاج: يا سرَّ سرِّي. (الأعمال الكاملة) تحقيق قاسم محمد عباس. الطبعة الأولى عام 2002 – إصدار – نجيب الريس – بيروت – لبنان. ونعتقد أن ضبط الديوان هو الأصح.

أقــالَ اللهُ حين عَــشــقْــتُــموه كُلوا أكْلَ البهائم وارقُصوا لي؟

وحَرَّك الحلاجُ يوماً يدَه فانْتَشَرَ على قومٍ مِسْكٌ. وحَرَّكَها مرةً أخرى فانتشَرتْ دراهمُ. فقال له بعضُ مَنْ حضَرَ مِمَّنْ يَفْهَمُ: "أَرِني دراهمَ غيرَ مَعْروفةٍ، أُومِنْ بك. وأُومِنُ بك أنا وخلْقٌ معي إنْ أَعْطَيْتَني دِرْهماً عليه اسمُكَ واسمُ أبيك".

فقالَ الحلاجُ: "وكيفَ هذا وهذا لا يُصْنَعُ؟".

فقالَ الرجلُ: "مَنْ أحْضَرَ ما ليس بِحاضِرٍ، صَنَعَ ما ليسَ بمَصْنوعٍ".

وكان في كتبه قولُه: "إني مُغْرِقُ قَومِ نوحٍ ومُهْلِكُ عادٍ وثمودَ"

فلما شاع أمرُه وعَرَفَ السلطانُ خَبَرَه على صِحَّةٍ، وقَّع أمراً بضربِه ألفَ سَوْطٍ وقَطَعَ يديه. ثم أحْرَقَه بالنارِ في آخرِ سنةِ تِسْعٍ وثلاثمئة.

وقال الحلاجُ لــ (حامدِ بنِ العباس[1]) الوزير: "أنا أُهْلِكُك". فقال حامد: "الآن صَحَّ أنك تدَّعي ما اتُّهِمْتَ به".

ابنُ أبي العَزاقِر

و(ابنُ أبي العَزاقِرِ أبو جَعفرَ محمدُ بنُ عليٍّ الشَّلْمغانيُّ[2]) أهلُه مِنْ قَريةٍ مِنْ قُرى واسِطٍ[3] تُعْرَفُ بــ (شَلْمَغان). وحالُه كحالِ الحلاجِ. ويدَّعي عنه قومٌ أنه إلهٌ، وأنَّ اللهَ حَلَّ في (آدمَ) ثم في (شيث) ثم في واحِدٍ واحِدٍ مِنَ الأنبياءِ والأوْصِياءِ والأَئِمَّةِ حتى حلَّ في (الحسنِ بنِ عليٍّ العسكري[4])، ثم حَلَّ اللهُ فيه. وكان قد أَغْوى

1- (حامد بن العباس) من أعلام القرن الثالث الهجري. كان وزيراً للمقتدر. وكان كريماً سخياً صاحب مروءة. توفي عام 311 هـ 923 م.

2- (أبو جعفر محمد بن علي التِّلْمِساني الشَّلْمَغاني بن أبي العَزاقِر): قال بالتناسخ وبنظرية الحلول، ويرى أن الله يَحُلُّ في كل شيء بقَدْرِ ما يحتمله، وأن الله خلق الشيءَ وضده. فآدمُ وإبليسُ واحد. وإنَّ الإلهيةَ اجتمعتْ في نوح وإبليسه، وفي إبراهيم ونمرود. وهكذا. قتل عام 323 هـ 935 م.

3- (واسط): مدينة بناها الحجاج بين البصرة والكوفة وجعلها مقراً له. انتهى من بنائها عام 86 هـ 705 م.

4- (الحسن العسكري) بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق. أحد الأئمة الاثني عشر. توفي عام 270 هـ 883 م.

جَماعةً مِنْهم (ابنُ أبي عَوْنٍ[1]) صاحِبُ كتابِ (التشبيه)، ومعه ضُرِبَت عُنُقُه. وكان أصحابُه يُبيحونَه نساءَهم وأموالَهم. يتحَكَّمُ فيها كَما يَشاءُ. وكان يتعاطى الكيمياءَ. وله كتبٌ معروفة.

الراوَنْدِي[2]

وكان (أحمدُ بنُ يحيى الراوندي) مِنْ أهلِ (مرو الروذ[3]). وكان حسنَ السيرةِ جَميلَ المذهبِ. ثم انْسلَخَ مِنْ ذلك كله لأسبابٍ عَرَضَتْ له، ولأنَّ عِلْمَه كانَ أكبرَ مِنْ عَقْلِه. وكان مَثَلُه كما قالَ الشاعرُ:

ومَنْ يُطيقُ مَـرَدّاً عِـندَ صَبْوتِهِ؟ ومَنْ يقومُ لمَسْتورٍ إذا خَلَعا؟[4]

صَنَّفَ – أي ألَّفَ – (كِتابَ التاج) يَحْتَجُّ فيه لِقِدَمِ العالَمِ. فنَقَضَه (أبو الحُسين الخياط[5]). وكتابَ (الزُّمُرُّد) يَحْتجُّ فيه لإبْطالِ الرِّسالةِ السماوية. ونَقَضَه (الخياطُ) أيضاً. وكتابَ (نَعْتُ الحِكْمَة). وفيه سَفَّهَ اللهَ تعالى في تَكليفِ خَلْقِهِ بأوامِرِه. ونقضَهُ الخياط. وكتابَ (الدامِغ) يَطْعَنُ فيه على نَظْمِ القرآنِ. وكتابَ (القضيب) يُثْبِتُ فيه أنَّ عِلْمَ الله مُحْدَثٌ، وأنَّه كانَ غيرَ عالِمٍ حتى خَلَقَ لنفسه عِلْماً. ونقضَهُ الخياط أيضاً. وكتابَ (المَرجان) في اخْتِلافِ أهلِ الإسلامِ.

1- (ابن أبي عون): أبو إسحاق. إبراهيم بن محمد بن أبي عون. كان من أشياع الشلمغاني. له كتاب (التشبيهات). توفي عام 322 هـ 934 م.

2- (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندي): من قرية راوَنْد في فارس. ولد عام 210 825 م. كان في البداية مسلماً شيعياً من المعتزلة. ثم هجر الإسلام بتأثير صديقه (أبي عيسى الدراق). واختلفوا في وفاته. بعضهم جعلها بين 245 و250 حوالي عام 864 م وكان عمره بين الخامسة والثلاثين وبين الأربعين. وبعضهم جعل وفاته حوالي عام 300 هـ 912 م بعد أن بلغ الثمانين.

3- (مرو الروذ): قرية قرب مدينة مرو العظمى.

4- المعنى أن المرء لا يستطيعُ أن يردَّ الصبوةَ وحبَّ اللذة إذا انشغلَ بها، ولا يستطيعُ إخفاءَ ما في نفسه إذا خلع الحياء.

5- (أبو الحسين الخياط) عبد الرحيم بن محمد. من أعيان المعتزلة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. والمرجح أنه توفي بعد عام 300 هـ 912 م بقليل.

ابنُ الرومي[1]

ومِنْ هؤلاءِ الزنادقةِ (عليُّ بنُ العباسِ بنِ جُرَيْج الرومي).

قال (أبو عثمانَ الناجمُ[2]) عنه: "دخلتُ عليه في عِلَّتِهِ التي ماتَ فيها، وعندَ رأسِه كأسٌ فيه ماءٌ مَثْلوجٌ وخَنْجَرٌ مُجَرَّدٌ لو ضُرِبَ به صَدْرٌ لَخَرَجَ مِنْ ظَهْرٍ. فقلتُ له: (ما هذا؟). قالَ: (الماءُ أبُلُّ به حَلْقي. فقَلَّما يَموتُ إنْسانٌ إلا وهو عَطْشانُ. والخَنجَرُ إنْ زادَ عليَّ الوجَعُ نَحَرْتُ به نفسي). ثم قال: (أقصُّ عليك قِصَّتي تَستدِلُّ بها على حَقيقةِ تَلَفي. أردْتُ الانتقالَ مِنَ الكرخِ إلى بابِ البصرةِ. فشاورتُ صديقَنا أبا الفضلِ وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الإفْضالِ. فقالَ: "إذا جئتَ القنطرةَ فخُذْ على يمينك – وهو مُشْتَقٌّ مِنَ اليُمْنِ – واذهَبْ إلى سِكَّةِ النَّعيمَة – وهو مشتقٌّ مِنَ النَّعيمِ – فاسْكُنْ دارَ ابنِ المُعافى – وهو مُشتقٌّ مِنَ العافية". فخالفتُهُ لِتَعْسي ونَحْسي. فشاورتُ صديقَنا جَعْفَرَ – وهو مُشتقٌّ مِنَ الجوعِ والفِرارِ – فقال: "إذا جئتَ القنطرةَ فخُذْ على شِمالِك – وهو مُشتقٌّ مِنَ الشؤمِ – واسْكُنْ دارَ ابنِ قِلابَةَ. وهي هذه الدارُ التي أنا فيها لا شكَّ. فقد انقلبتْ بي الدنيا. وأضَرُّ ما عليَّ العصافيرُ في هذه الشجرةِ تَصيحُ: سيق سيق. فها أنا في السِّياقِ. ثم أنشدَ:

أبــا عــثمانَ أنت قــريعُ قومِــكْ وجودُكَ للعَشيرةِ دونَ لَــوْمِــكْ[3]
تَــمَتَّــعْ مِنْ أخيــك فَــما أراهُ يَــراكَ ولا تَــراهُ بَــعــدَ يــومِــكْ

وألحَّ عليه البَوْلُ فقلت له: "البولُ مُلِحٌّ بك". فقال:

1- (ابن الرومي) علي بن العباس بن جُرَيْج الرومي. ولد عام 221 هـ 836 م في بغداد. أبوه رومي وأمه فارسية. كان من كبار شعراء القرن الثالث الهجري. وكان هَجَّاءً لاذعاً. وكان متشائماً مُتطيِّراً. توفي عام 283 هـ 896 م.

2 - (سعد بن الحسن بن شداد السمعي أبو عثمان) المعروف بالناجم. كان صديقاً لابن الرومي وراوية شعره. وكان أديباً فاضلاً. توفي عام 314 هـ 926 م.

3- (قَريعُ القوم): سيدهم. والمعنى أنك سيد قومك وأنك تجود على قومك ولا تلومهم.

غـداً ينـقَـطِع الـبَـولُ ويأتي الوَيْـلُ والعَوْلُ[1]

ألا إنَّ لِـــقـاءَ اللهِ هَـوْلٌ دونَـه الهَوْلُ

وماتَ مِنَ الغَدِ. فأرْجو أنْ يَكونَ هذا القَولُ توبةً له مِمَّا كانَ اعتَقَدَه مِنْ ذَبْحِه نفسَه[2] والرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ يقولُ: (مَنْ وَجَأَ[3] نفسَه بِحَديدةٍ حُشِرَ يومَ القِيامةِ وحَديدتُه بيده يَجَأُ بها نفسَه خالِداً مُخلَّداً في النارِ. ومَنْ تردَّى مِنْ شاهِقٍ حُشِرَ يومَ القيامةِ يتردَّى على مِنخَريهِ في النارِ خالداً مُخلَّداً. مَنْ تحسَّى[4] سُمَّاً حُشِرَ يومَ القِيامةِ وسُمُّهُ بِيدِهِ يتحسَّاه خالداً مُخَلَّداً في النارِ)".

أبو تمام

قالَ (الحسنُ بنُ رَجاءٍ الكاتبُ[5]): "جاءني أبو تمام[6]إلى خُراسانَ. فبَلَغَني أنَّه لا يُصَلي. فوكَّلْتُ به مَنْ لازمَهُ أياماً. فلم يَرَه صلَّى يوماً واحداً. فعاتَبْتُه فقالَ: (يا مولاي. قطَعْتُ إلى حَضْرتكَ مِنْ بغدادَ. فاحتَمَلْتُ المَشَقَّةَ وبُعْدَ الشُّقَّة ولم أَرَهُ يَثْقُلُ عليَّ. فلو كنتُ أعلمُ أنَّ الصلاةَ تنفَعُني وتَرْكَها يَضُرُّني ما تَركتُها). فأردتُ قتلَهُ. فخشيتُ أنْ يُحمَلَ على غيرِ هذا".

1- (العوْل): العويل.

2- يشير إلى قول ابن الرومي للناجم: (والخَنجر إن زاد عليَّ الألم نحرت به نفسي).

3- (وَجَأَ فلاناً بالسكين): ضربه في أي موضع كان.

4- (تحَسَّى الشرابَ واحْتَساه): شربه شيئاً بعد شيء. .

5- (الحسن بن رجاء): دخل على المأمون وهو غلام وعلى أذنه قلم. فقال له المأمون: (مَنْ أنت يا غلام؟). فقال له: (أنا الناشئ في دولتك، المُتَقلِّبُ في نعمتك، المؤمِّل لخدمتك، الحسن بن رجاء). فعيَّنَه في الديوان. وارتقى حتى صار من أهم الكتاب في عصره.

6- هو (حبيب بن أوس الطائي): الشاعر العباسي الشهير. ولد عام 188 هـ 804 م في قرية جاسم من قرى حوران في سورية. وكان أبوه حائكاً. فلما ترعرع ذهب إلى مصر. فكان يسقي الماءَ في جامع عمرو بن العاص. ثم نبغ في الشعر. فغادر مصر إلى بغداد. وصار من أشهر الشعراء. مات عام 231 هـ 846 م في خلافة الواثق. شغل النقاد في عصره وبعده حتى اليوم.

المازِيار

وفي تآريخَ كثيرةٍ أنه أُحضِرَ (المازِيارُ[1]) إلى المُعتصمِ[2]. وقبلَ قدومِهِ بيومٍ سَخِطَ المعتصمُ على (الإفشين) لأنَّ القاضيَ (ابنَ أبي دُوَادَ[3]) قالَ للمعتصمِ عنه: "أغْرَلُ[4] ويَطَأُ امرأةً عربيةً؟. وهو الذي كاتَبَ المازيارَ وزيَّنَ له العِصْيانَ".

فأحْضَرَ المُعتصمُ كاتِبَ الإفشين[5] وتهدَّدَهُ فأقرَّ أنَّ (الإفشين) كَتَبَ إلى المازيار: "لم يكنْ في الأرضِ ولا في العصر بَلِيَّةٌ إلا أنا وأنت وبابِك[6]. وقد كنتُ حريصاً على حَقْنِ دَمِهِ حتى كان مِنْ أمْرِهِ ما كان. ولم يبقَ غيري وغيرُك. وقد توجَّه إليك عَسْكَرٌ مِنْ عَساكِرِ القومِ. فإنْ هزمتَه، وثَبْتُ أنا بِمَلِكِهم في قَرارِ دارِهِ. فظَهَرَ الدينُ الأبيضُ".

1- (المازِيار بن قارن): دِهقانٌ من أبناء ملوك طبرستان. شقَّ عصا الطاعة بتحريض الإفشين عام 224 ه، ومنع الخراج وتحصَّن بجبال طبرستان التي ولاه المعتصم عليها. ثم هُزِم وحُمِلَ إلى المعتصم عام 224 هـ 840 م.

2- (المعتصم): أبو إسحاق. محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي. أمه (ماردة) أم ولد. ولد عام 180. بويع بالخلافة بوصية من أخيه المأمون عام 218 هـ 833 م. كان قوياً مهيباً ذا بطش. توفي عام 227 هـ 842 م وعمره سبعة وأربعون عاماً.

3- (القاضي بن أبي دؤاد) الإيادي المعتزلي. ولد عام 160 هـ 776 م في قنسرين. وخرج مع أبيه في تجارة إلى العراق. واستقرَّ هناك طلباً للعلم وخاصة الفقه وعلم الكلام. صاحَبَ واصِلَ بنَ عطاءٍ فصارَ من المعتزلة. اتصل بالمأمون وكان من ندمائه. عينه المعتصم قاضي القضاة. توفي عام 240 هـ 854 م.

4- (الأغرل): غير المختون.

5- (حيدر بن كاوس) الملقب بالإفشين. هو أحد قواد المعتصم. أخمد ثورة بابك الخرمي وقال فيه أبو تمام:

فرماه بالإفشين بالنجمِ الذي صَدَعَ الدُّجى صَدْعَ الرداءِ البالي.

ثم اتُّهِمَ بالزندقة وحُكِمَ عليه بالسجن ومات أواخر عام 226 هـ 842 م.

6- (بابِك الخُرَّمي): كان أبوه بائع دهن من أهل المدائن. سكن أذربيجان وقُتِل وابنه بابك صغير. فعمل الصغير راعياً. ثم دخل أجواء الخُرَّميَّة التي تؤمن بالتناسخ وبوجود إلهين واحدٍ للنور وواحدٍ للظلام، وبالقول بإباحة النساء. بدأ ثورته عام 201 هـ 816 م. أرسل إليه المأمون عدة جيوش هزمها. ثم أرسل المعتصم الإفشين الذي هزمه عام 223 هـ 838 م. قُتِل وصُلِب في سامراء.

فأجابَهُ المازيارُ بِجوابٍ هو عندَه في سَفَطٍ أحمرَ. فجمَعَ المعتصمُ بين الإفشين والمازيار، فاعترف المازيارُ بما حُكِيَ عنه.

وقيل للمعتصم: "إنَّ وراءَ المازيار مالاً جليلاً فأنشدَ:

إن الأســودَ أســودَ الــغابِ هِمَّــتُــهــا يومَ الكريهةِ في المَسْلوبِ لا السَّلَبِ"

***

وذكروا أنَّ هذين الاثنين – الإفشين والمازيار – قتلا ثلاثةَ آلافِ ألفٍ وخمسمئة واحِدٍ ذَبْحاً وهُما بالثياب الحُمْرِ وبالخناجرِ الطِّوالِ، وأنَّهم وجَدوا أسْماءَهم في الوَقْعَةِ بعدَ الوَقْعَةِ وفي البلدِ بعدَ البلدِ. وكانا يأخُذانِ مِنْ كُلِّ واحِدٍ مقتولٍ علامةً: خاتَمَه أو ثوبَه أو مِنديلَه أو رباطَ سِروالِه.

وقد لَقِيتُ مَنْ يُجادِلُني أنَّ علياً رضي الله عنه... وكذلك الحاكم...[1]

وقد ظهرَ في البصرةِ مَنْ يدَّعي أنَّ جَعفَرَ بنَ مُحمدٍ[2] عليهما السلامُ... وأنَّه مُتَّصِلٌ به وروحُه فيه ومتَّصِلَةٌ به[3].

ولو اسْتَقْصَيْتُ القولَ في هذا الفنِّ لَطالَ جداً ولكن:

لا بُــدَّ للــمَــصْــدورِ أنْ يَنْــفُــثــا ولِلــذي في الصَّــدْرِ أن يُــبْعَــثــا

بل لو قلتُ كلَّ ما أَعْلَمُه، أكلتُ زادي في مَحْبسي، بل كنت أُنشِدُ:

ليــس يَشفي كلومُ غــيري كلومي مــا بِــهِ بِــهِ ومــا بــيَ بــي

1- الكلام هنا ناقص في أصل النص. ولعله يقصد الحاكمَ بأمر الله الفاطمي. وتركيب الجملة يوحي بأن هناك من يدعي الألوهية لعلي بن أبي طالب وللحاكم بأمر الله.

2- (جعفر بن محمد الصادق): أبو عبد الله. ولد في المدينة المنورة عام 80 هـ 702 م. إمام من أئمة المسلمين. عالم جليل وعابد فاضل. وهو من ذرية الإمام علي بن أبي طالب. وله مكانة عالية عند جميع المسلمين. وهو الإمام السادس عند الشيعة الاثني عشرية، والخامس عند الإسماعيلية. وإليه يُنسَب علم الشيعة الإمامية فسميت (الجعفرية). وهو أساس علم الفقه عند طوائف أهل السنة. لُقِّبَ بالصادق لأنه لم يعرف الكذب يوماً. وهو من أوائل رواد علم الكيمياء. وتتلمذ على يديه جابر بن حيان. والكلام هنا ناقص أيضاً.

3- الكلام هنا أيضاً ناقص. ولعل المقصود أنَّ هناك مَن ادعى على جعفر الصادق الألوهية.

شكوى الزمان

إنْ شكوتُ العصرَ وأحكامَه، وذَمَمْتُ صُروفَه وأيامَه، شَكَوْتُ مَنْ لا يُزيلُ الشكوى، وذَمَمْتُ مَنْ لا يُرضي أحَداً. شِيمَتُهُ اصْطِفاءُ اللئامِ، والتحامُلُ على الكِرامِ. وهِمَّتُه رَفعُ الخامِلِ الوَضيعِ، ووضعُ الفاضِلِ الرفيعِ. إذا سَمَحَ بالعَطاءِ، فأبشِرْ بسرعةِ الانقِضاءِ. وإذا أعارَ، فأحسَبُه قد أغارَ. فما بين أنْ يُقبِلَ عليك مُستبشِراً، ويُوَلِّيَ عنك مُتجهِّماً مُقَطِّباً وجهَهُ، إلا كَلَمْحِ البصَرِ واسْتِطارةِ الشَّرَرِ. لم يَخترقْ ذكرُ الوفاءِ مَسامِعَه، ولم يَمْسُسْ ماءُ الحياءِ مَدامِعَه. ظاهِرُه يَسُرُّ ويُؤْنِسُ، وباطِنُه يَسوءُ ويوئِسُ. يُخَيِّبُ ظنَّ راجيه، ويُكذِّبُ أَمَلَ الذي يطلبُ مَعروفَه. لا يَسمعُ الشكوى، ويَشْمَتُ بالبلوى. وقد ذَمَمْتُ المتنبي الذي ذمَّ الزمانَ، ووقعتُ أنا في ذَمِّ الزمانِ. فكنتُ كالغريقِ الذي يَطْلُبُ مُنقِذاً، وكالأسيرِ الذي يندبُ مُطْلِقاً. وأستَحْسِنُ قولَ (علي بن العباس بن جُريْجٍ الرومي):

ألا ليس شَيْبُك بالمُنْتَزَعْ فهل أنت عن غَيِّهِ مُرْتَدِعْ
وهل أنت تارِكُ شَكْوى الزما نِ إذا شِئْتَ تشكو إلى مُسْتَمِعْ
فَشَيْبُ أخي الشَّيْبِ أُمْنِيَّةٌ إذا ما تَناهى إليها هَلَعْ

عزوفُه عن الغواني

في حالِ الحَداثَةِ كانَ أقربُ الناسِ إليَّ وأَعزُّهُم عليَّ وأقربُهم عندي وأجلُّهُمْ في نفسي مَرتبَةً مَنْ قالَ لي: أطالَ اللهُ أَجَلَك، وجَعَلَ اللهُ لك أَمَدَّ الأعمارِ وأطولَها. فلمَّا بَلَغْتُ عَشرَ الثمانين جاءَ الجَزَعُ والهَلَعُ. فمِمَّ أرتاع – وقد بَلَغْتُ هذه السنَّ – وألتاعُ وأخلُدُ إلى الأطْماعِ، وطولُ العُمْرِ هو الذي كنتُ أتمنَّاهُ ويَتَمنَّاهُ لي أهلي؟ أَمِنْ صُدوفِ الغواني عني؟ فأنا، واللهِ، عنهن أصْدَفُ، وبهنَّ وأدوائهنَّ أعْرَفُ. إذْ لستُ مِمَّنْ يُنشِدُ تَحَسُّراً عَليهِنَّ:

للســودِ في السودِ آثــارٌ تَــرَكْــنَ بها لُمَعاً مِنَ البيضِ تثْني أَعْيُنَ البيضِ[1]

وقولَ الآخَر:

ولَــمَّــا رأيــتُ النَّــسْرَ عَــزَّ ابنَ دايــةٍ وعَشَّشَ في وِكْرَيْهِ جاشتْ له نفسي[2]

ولا أُنشِدُ لأبي عُبادةَ البحتري[3]

إنَّ أيــامه مِنَ الــبــيــضِ بــيــضٌ مــا رَأَيْــنَ المَفارقَ السودَ سودا[4]

وإذا المَــحْــلُ ثــارَ ثــاروا غُــيــوثــاً وإذا الــنَّــقْــعُ ثــارَ ثــاروا أُســودا[5]

يَحْــسُنُ الــذِّكْــرُ عــنهمُ والأحــاديــ ـث إذا حــدَّثَ الــحَــديــدُ الحَــديــدا

بَــلْــدَةٌ تُــنْــبِــتُ المعالي فما يَثَّغِــ ـرُ الطِّــفْــلُ فــيهُمُ أو يــســودا[6]

معرةُ النعمان

وصِفَةُ هذهِ البلدةِ التي وصفها البحتريُّ في البيتِ الأخيرِ مِنَ الأبياتِ السابِقَةِ

1- (السود) الأولى: الأعين السوداء. و(السود) الثانية: الشعر الأسود. و(البيض) الأولى: الشيب. و(البيض) الثانية: الغواني. (اللُّمَع): ج لَمْعة. وهي القطعة والجماعة. والمعنى أن أعين النساء تركت في شَعر الشباب الأسود قطعاً من الشعر الأبيض تُبْعِد النساء.

2- (ابن الداية): الغُراب. (جاشت): تألَّمت. والمعنى أنه عندما رأى النسر يبجِّل الغُرابَ الذي سكن في وكر النسر تألم من أجله.

3- (البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي. أحد أشهر الشعراء العرب في العصر العباسي. يقال لشعره (سلاسل الذهب). وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي وأبو تمام والبحتري. ولد في منبج إلى الشمال الشرقي من حلب في سورية عام 205 هـ 821 م. ظهرت موهبته الشعرية وهو صغير. انتقل إلى حمص وعرض شعره على أبي تمام. فأوصاه بقواعد في نظم الشعر. كان شاعر البلاط عند الخلفاء العباسيين من أيام المتوكل. توفي عام 284 هـ 897 م.

4- الأبيات من قصيدته التي مطلعها:

إنــمــا الــغَــيُّ أن تكــونَ رشــيــدا فــانْــقُــصَنْ مِنْ ملامةٍ أو فَــزيــدا

5- (الغُيوث): ج غَيْث. والمعنى أنهم إذا جاء المَحْل كانوا غيثاً للناس. وإذا ثار غبار المعارك كانوا أسوداً في الحرب.

6- (اثَّغر الطفلُ): نبتت أسنانه. والمعنى أن هذه البلدة تُنبِت المعالي. فلا يكاد طفلها تنبت أسنانه حتى يصبح سيداً.

هي صِفَةُ (معرة النعمان[1]) بوجودِهِ أدامَ اللهُ تأييدَه. وأرجو مِنَ اللهِ أنْ لا تَخْلُوَ مِنْهُ ولا مِنْ فَيْضِ النِّعْمَةِ عليه وعِنْدَهُ. فقد وجدتُ أهلها مُعترفينَ بمَعْروفِهِ وعَطاياه. ولا يُقارِبُه في الفَضْلِ والمَعْروفِ إلا (أبو العباسِ أحمدُ بنُ خَلَفٍ المُمَتَّع[2]) أدامَ اللهُ عِزَّه. فإني وجدتُ آثارَ تَفَضُّلِه على الشيخِ ظاهرةً، ووجدتُ لسانَه رِطباً بشُكْرِ الشيخِ وذِكْرِهِ. قد ملأ السماءَ دعاءً له وثَناءً عليه.

النبيُّ (ص) وصبرُ الصحابة

قالتْ قريشٌ للنبي عليه الصلاةُ والسلامُ: "هل أتباعُك مِنْ هؤلاءِ المَوالي كبلالٍ وعمارٍ وصُهيب[3]، خيرٌ مِنْ قُصَي بنِ كِلابٍ وعَبْدِ مَنافٍ وهاشمٍ وعبدِ شمس؟"[4]. فقالَ: "نعم. واللهِ لَئِنْ كانوا قليلاً ليَكْثُرُنَّ. ولئن كانوا وُضَعاءَ لَيَشْرُفُنَّ حتى يَصيروا نُجوماً يُهتدى بهم ويُقْتدى. فيقالُ: هذا قولُ فلانٍ وذِكْرُ فلان. فلا تُفاخِروني بآبائِكم الذين مُوِّتوا في الجاهليةِ. فَلَما يُدَهْدِهُ الجُعَلُ[5] بِمِنْخَرِه خيرٌ مِنْ آبائِكم الذين مُوِّتوا فيها. فاتَّبِعوني أجْعلْكم أنساباً. والذي نفسي بيدِهِ، لَتَقْتَسِمُنَّ كنوزَ كسرى وقيصر".

فقالَ له عمُّه أبو طالبٍ[6]: "أَبْقِ عليَّ وعلى نفسِك". فظنَّ عليه الصلاةُ والسلامُ أنَّ عَمَّه خاذِلُهُ ومُسْلِمُه. فقال له: "يا عَمِّ. واللهِ لو وضَعوا الشمسَ في يميني والقمرَ

1- تقع معرة النعمان جنوبي إدلب في سورية. وتبعد عن حلب 84 كم. وعن حماة 60 كم. وتجاور مملكة إيبلا. وهي خصبة الأرض. وهي بلدة أبي العلاء الذي وُصِفَ بالمعري لأنه منها.

2- (أحمد بن خلف المُمَتَّع) أبو العباس. من أهل المعرة. ذهب إلى حلب ودرس على عدد من علمائها. ومنهم ابن خالويه. شاعر وأديب.

3- (بلال بن رباح وعمار بن ياسر وصُهيب الرومي): من السابقين إلى الإسلام وكانوا من الموالي ومن ضِعاف قريش.

4- (قصي بن كلاب): هو الجد الرابع للنبي. وهو الذي أخرج خزاعة وبني بكر من مكة. و(عبد مناف بن قصي): هو الجد الثالث للنبي (ص). وهو أبو هاشم وعبد شمس.

5- (يُدَهْدِهُ): يُدَحْرِج. (الجُعَل): نوع من الخنافس. والمعنى أنَّ ما يدحرجه الخنفس بمنخره أحسنُ من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية.

6- (أبو طالب) بن عبد المطلب بن هاشم. عمُّ النبي (ص) وكافِلُهُ بعد موت جده عبد المطلب. وهو والد الإمام علي بن أبي طالب وجعفر الطيار، وأخو العباس وحمزة وأبي لهب.

في شِمالي على أنْ أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظْهِرَه اللهُ أو أَهْلِكَ فيه ما تركته". ثم استَعْبَرَ باكياً. ثم قامَ. فلما ولَّى ناداه عمُّه: "أَقْبِلْ يا ابن أخي". فأَقْبَلَ. فقال له: "اذهبْ وقُلْ ما شئتَ. فواللهِ لا أَسْلَمْتُك لِسوءٍ أبداً". فكان عليه الصلاةُ والسلامُ يذكرُ يوماً ما لَقِيَ مِنْ قومِهِ مِنَ الجَهْدِ والشِّدَّةِ فَقالَ: "لقد مَكَثْتُ أياماً وصاحبي هذا – يُشيرُ إلى أبي بكر – بضعَ عشْرَةَ ليلةً ما لنا طَعامٌ إلا البَرْبَرُ[1] في شُعَبِ الجبالِ".

وكان (عُتبةُ بنُ غزوان)[2] يقولُ إذا ذَكَرَ البلاءَ والشِّدَّةَ التي كانوا عليها بمكةَ: "لقد مَكَثْنا زماناً ما لنا طعامٌ إلا وَرَقُ البَشام[3]. أكلناه حتى تَقَرَّحَتْ أشْداقُنا. ولقد وَجَدْتُ يوماً تَمْرةً فجَعلْتُها بيني وبين سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاص[4]. وما مِنَّا اليومَ أحدٌ إلا وهو أميرٌ على كورة". وكانوا يقولون في مَنْ وَجَدَ تمرةً فقسَّمها بينه وبين صاحِبِهِ: "إنَّ أَسْعَدَ الرجلين مَنْ حَصَلت النواةُ في قِسْمِهِ. يَلوكُها يومَه وليلتَه مِنْ عَدَمِ القُوتِ".

وكذا قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لقد رَعَيْتُ غُنيماتِ أهلِ مكة لهم بالقَراريطِ".

بدءُ الدعوة

وابتداءُ أمرِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ أنه وَقَفَ على الصَّفا ونادى: "يا صَباحاهُ. يا صَباحاه". فجاؤوا يَهْرَعونَ فقالوا: "ما دَهَمَك؟ ما طَرَقَك؟".

قال: "بِمَ تَعْرِفونني؟".

قالوا: "محمدٌ الأمينُ".

1- (البربر): ثمر الأراك. وهو نبات بري يشبه ما يسميه أهل سورية (توت العُلّيق).

2- (عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب السُّلَمي): سابع مَنْ دخل الإسلامَ من قريش. من مهاجرة الحبشة. أرسله النبي (ص) إلى الأُبُلَّةِ ليفتحها. واستدعاه عمر بن الخطاب إلى المدينة. عام 15 هـ 636 م. فمات في الطريق. .

3- (البشام): شجر طيب الرائحة يصنع منه السواك. ورقه صغير ولا ثمر له.

4- (سعد بن أبي وقاص الزُّهري): من المسلمين الأوائل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. أسلم وهو في السابعة عشرة من عمره. وهو قائد معركة القادسية. ولد في مكة عام 23 قبل الهجرة. وتوفي عام 55 هـ 675 م. وهو آخر من توفي من العشرة المبشرين بالجنة.

قالَ: "أرأيتُم إنْ قُلْتُ لكم إنَّ خَيْلاً قد طَرَقَتكُم في الوادي، وإنَّ عَسْكَراً قد غَشِيَكُمْ من الفجِّ، أكنتم تُصدِّقونني؟".

قالوا: "اللهُمَّ نعم. ما جَرَّبنا عليك كَذِباً قط".

قالَ: "فإنَّ الذي أنتم عليه ليس لِلهِ ولا مِنَ اللهِ ولا يَرضاهُ اللهُ. قولوا: لا إله إلا اللهُ، واشْهَدوا أني رسولُه، واتَّبِعوني تُطِعْكُمُ العربُ وتَمْلِكوا العَجَم. وإنَّ اللهَ قال لي: (استَخْرِجْهُمْ كما اسْتَخْرَجوك. وابْعثْ جيشاً أَبْعَثْ خَمسةَ أمثالِه). وضَمِنَ لي أنَّه ينصُرُني بقومٍ منكم. وقالَ لي: (قاتِلْ بِمَنْ أطاعَك مَنْ عَصاك". وضَمِنَ لي أنه يَغْلِبُ سُلْطاني سُلْطانَ كسرى وقيصر)".

ثم إنَّه عليه الصلاةُ والسلامُ غزا (تبوك[1]) في ثلاثين ألفاً. وهذا مِنْ قِبَلِ اللهِ الذي يَجْعَلُ مِنْ لا شيءَ كلَّ شيء. ويَجْعَلُ كلَّ شيءٍ لا شيءَ. يُجَمِّدُ المائِعاتِ، ويُمَيِّع الجامِداتِ. يُجَمِّدُ البحرَ ثم يُفجِّرُ الصخرَ.

وما مَثَلُه في ذلك إلا كمَثَلِ مَنْ قال: "هذه الزجاجةُ الرقيقةُ السخيفةُ أحكُّ بها هذه الجبالَ الصَّلْدَةَ الصُّلْبَةَ المُنيفَةَ، فترُضُّها وتَفُضُّها. وهذه النملةُ الضعيفةُ اللطيفةُ تهزِم العساكرَ الكثيرةَ المُعَدَّة".

وكذا حقيقةُ أمْرِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ حتى لقد قالَ (عُروةُ بنُ مسعودٍ الثقفي[2]) لقريشٍ وكانَ رسولَهم إليه صلى اللهُ عليه وسلَّمَ بالحديبيةِ[3]: "لقد وَرَدْتُ على النجاشي وكسرى وقيصر. ورأيتُ جُنْدَهم وأتباعَهم. فما رأيتُ أَطْوَعَ ولا أَوْقَرَ ولا أَهْيَبَ مِنْ أصحابِ محمدٍ لمحمَّدِهم. هم حَوْلَه وكأنَّ الطيرَ على رؤوسِهم. فإنْ أشارَ

1- يشير إلى (غزوة تبوك). وكانت آخر غزواته. وتبوك موضع بين الحجاز والشام. وكانت تحت سيطرة الروم. وقد ذكرها الكاتب ليُظهِر كيف بدأ محمد (ص) دعوته وليس معه أحد. ثم كثر أتباعه حتى غزا تبوك بهذا الجيش الكبير.

2- (عروة بن مسعود الثقفي): ولد في الطائف في بيت عِزٍّ وشرف. وكان سيد قومه. وكان رسولَ قريش في الحديبية قبل عقد الصلح. وقد بهره طاعةُ أنصار محمد له. ثم أسلم وصار من كبار الصحابة.

3- (الحديبية): ماء بينه وبين مكة حوالي 30 كم. وفيه تم صلح الحديبية الشهير. وهو المنطقة التي تسمى اليوم (الشميسة).

بأمرٍ بادَروا إليه. وإنْ توضَّأ اقتسموا وضوءَه. وإن تنَخَّم دلكوا بالنُّخامةِ وجوهَهم ولِحاهُمْ وجلودَهم".

وكانوا له بعدَ موتِهِ أَطْوعَ مِنْهم في حياته. حتى لقد قالَ بعضُ الصحابة: "لا تَسُبُّوا أصحابَ محمد. فإنَّهم أَسْلموا مِنْ خوفِ الله. وأسلمَ الناسُ مِنْ خوفِ أسيافِهم".

فتأمَّلْ كيفَ استَفْتَحَ دعوتَه، وهو ضَعيفٌ وحْدَه، فقال بأنَّ سلطانَه سيغْلِبُ سلطانَ كسرى وقيصر. فأقرَّهُ على ذلك العدوُّ والوليُّ. وما كان مَثَلُه في ذلك إلا مَثَلَ مَنْ قالَ: "هذه الحَفْنَةُ مِنَ التراب تَعْظُمُ وتَصيرُ جبلاً يُغَطِّي الأرضَ كُلَّها". وقد أَنْذَرَ الناسَ بها في حالِ ضَعْفِها.

وجاءَ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ يوماً ليدخُلَ الكعبةَ. فَدَفَعَهُ (عثمانُ بنُ طَلْحَةَ العَبْدري[1]). فقالَ له: "لا تفْعَلْ يا عثمان. فكأنك بِمفتاحِها بيدي أضَعُهُ حيث شِئْتُ". فقالَ له عثمانُ: "لقد ذلَّت يومئذ قريشٌ". فقالَ له: "بل كَثُرَتْ وعزَّتْ[2]".

مساوئُ الدنيا وحَسْرَتُهُ منها

وأنا أسْتَعينُ بِعصمةِ اللهِ وتوفيقِه، وأجعَلُهما مُعينِيَّ على دَفْعِ شَهَواتي، وأشكو إليه عُكوفي على الأماني، وأسألُه فَهْماً لِمَواعِظِ عِبَرِ الدنيا. فقد عَمِيتُ عن كُلومِ تقلُّباتِها ومَصائِبِها بِما جَثَمَ على خواطِري مِنَ الشَّغَفِ بها. ولستُ أجِدُ مُنْصِفاً لي مِنْها ولا مانِعاً لي عن رَغْبتي فيها. فكأني أقولُ لنفسي: "أينَ ودَائعُ العُقولِ

1- (عثمان بن طلحة العبدري): من بني عبد الدار بن قصي بن كِلاب. وكانت حجابةُ الكعبة في بني عبد الدار ميراثاً لهم من جدهم قصي. أسلم عثمان في هدنة الحديبية. وهاجر إلى المدينة مع خالد بن الوليد قبل فتح مكة. وقُتِلَ شهيداً في أجنادين في أول خلافة عمر بن الخطاب.

2- يشير هنا إلى حادثة مشهورة. فقد جاء محمد قبل الهجرة إلى عثمان هذا وكان معه مفتاحُ الكعبة، وطلب منه فتحها له فرفض. وجرى بينهما الحوار الذي ورد. وعند فتح مكة أخذ محمد المفتاح من عثمان. ثم ردَّه إليه وأمر أن يظل المفتاح في يد أسرته إلى يوم القيامة. وقد أتى الكاتب بالحادثة ضِمنَ سياق كيف بدأ محمد دعوته ضعيفاً. ثم صارت دعوته عظيمة.

وخَزائنُ الأفْهامِ يا أولي الأَبصارِ؟". فقد تَناسيْنا مساوئَ الدنيا طَلَباً لعاجِلٍ لا يُثْمِرُ إلا التَّنْغيصَ وتُومِئُ إليه يدُ الزوالِ، وتَكْمُنُ له الآفاتُ. فكنتُ في طَلَبِ الدنيا كما قالَ كُثَيِّر[1]:

كأنِّي أُنادي صَخْرةً حين أعْرَضَتْ مِنَ الصُّمِّ لو تَمْشي بها العُصْمُ زَلَّتِ[2]

وأقولُ على مَذْهبِ (كُثَيِّر) مُخاطِباً الدنيا: "يا مُكَدِّرَةَ الصَّفاءِ ويا ناقِضَةَ عَهْدِ الوفاءِ. ما وُفِّق لحظةً مَنْ عَرَجَ نحوكِ، ولا سَعِدَ مَنْ آثرَ المَقامَ على حُسْنِ الظَّنِّ بكِ. هيهاتَ يا معشرَ أبناءِ الدنيا. لكم في الظاهِرِ اسمُ الغِنى. وأهلُ القِلَّةِ لهم في الباطنِ نَفْسُ هذا المعنى. كم مِنْ يومٍ لي أبيضَ كثيرِ الإشراقِ، قد صَحَتْ سماؤه وامتدَّ عليَّ ظِلُّه. تَمُدُّني ساعاتُه بالأُمْنِياتِ، ويَضْحَكُ لي مُبَشِّراً بِكلِّ ما أهوى. حتى إذا تحقَّقَ لي فيه كُلُّ ما تَمَنَّيتُه، حَسَدتني عليه الدنيا. فسعَتْ بتَشتيتِ الأصْحابِ وهم الأُلْفَةُ، وأنْقَصَتْ زمانَهُ ومُدَّتَه. فكَسَفَتْ بهجةَ لِقاءِ الأصْحابِ كُسوفاً، وأرهقت نَضْرَتَه قسوةُ الفراقِ، وقَطَّعَتْنا فِرَقاً في الآفاقِ بعد أَنْ كنا كالأعضاءِ المُؤْتَلِفَةِ، والأغصانِ اللدْنَةِ المُنْعَطِفَةِ.

فيا حسرتي يوم يَضُمُّ جسدي كفَنٌ ولَحْدٌ فأقولُ:

"يا حسرتي في يومِ يَجْمَعُ شِرَّتي كَفَنٌ ولَحْدُ[2]
ضَيَّعتُ ما لا بُدَّ منهُ بالذي لي منه بُدُّ"

وأُنشِدُ قولَ ابنِ الرومي:

"ألا ليس شيبُك بالمُنْتَزَعْ فهل أنت عن غَيِّهِ مُرْتَدِعْ"

1- (كثيِّر عزة): هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي. ولد في المدينة المنورة في آخر أيام يزيد بن معاوية. وهو من الشعراء العشاق. اشتهر بحبه لعزة بنت جميل الغفارية. توفي في المدينة عام 105 هـ 723 م.

2- (العُصْم): ج أعْصَم. وهو الحيوان الذي خالط سوادَه بياضٌ. والمعنى أنه حين خاطبها أعرضت عنه. فكأنه يخاطب صخرة صماء لو سار عليها حيوان قوي لزلَّت قدمه.

3- (الشِّرَّة): الحدة والنشاط والطيش.

وأقلقُ وأبكي بكاءً غيرَ نافِعٍ ولا ناجعٍ. ويجِبُ أنْ أبكيَ على بكائي وأُنشِدَ:

"لساني يَقولُ ولا أفْعَلُ وقَلبي يُريدُ ولا أَعْمَلُ
وأعرِف رُشْدي ولا أهْتَدي وأَعْلَم لكنَّني أجْهَلُ"

مع الخمرةِ والتوبةِ عنها

عرضَ عليَّ بعضُ الناسِ كأسَ خمر. فامتنعتُ مِنْها وقلتُ لهم: "خَلُّوني والمَطبوخَ على مَذْهَبِ الشيخِ (الأوزاعي)[1]". وقلت لهم: "عَرَضَ (إبراهيمُ بنُ المَهْدِيِّ[2]) على (محمدِ بن حازِمٍ[3]) الخمرةَ فامتنعَ وأنشد:

أبَعْدَ شَيْبِيَ أصْبو والشَّيْبُ للجَهْلِ حَرْبُ
سِنٌّ وشَيْبٌ وجَهْلٌ أَمْرٌ لَعَمْرُكَ صَعْبُ
يا ابنَ الإمامِ فألاً أيَّامَ عُودِيَ رَطْبُ[4]
وإذْ شَيْبي قَليلٌ ومَنْهَلُ الحُبِّ عَذْبُ
وإذْ شِفاءُ الغَواني منِّي حَديثٌ وقُرْبُ
فالآن لَمّا رأى بيَ الـ عُذَّالُ ما قَدْ أَحَبوا
وآنَسَ الرُّشْدَ منِّي قَوْمٌ أُعابُ وأصْبو؟
آليْتُ أشرَبُ خَمْراً ما حَجَّ للهِ رَكْبُ"

وأقبلتُ على نفسي مُخاطِباً، ولها مُعاتِباً. والخِطابُ لغيرها والمعنى لها:

1- (الأوزاعي): عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي أبو عمرو الإمام. فقيه الشام وإمامه في القرن الثاني الهجري. ولد في بعلبك في بلاد الشام عام 88 هـ 707 م. لقب بالأوزاعي نسبة إلى قرية (أوزاع) قرب دمشق. توفي عام 157 هـ 774 م في بيروت. وكان يحرِّم الخمر المطبوخ.

2- (إبراهيم بن الخليفة المهدي) وهو أشهر أولاد الخلفاء الذين عملوا في الموسيقى والغناء. ولد حوالي عام 150 هـ 779 م. وتوفي حوالي عام 212 هـ 839 م.

3- (محمد بن حازم بن عمرو الباهلي). شاعر عباسي كثير الهجاء. لم يمدح من الخلفاء إلا المأمون. توفي عام 215 هـ 830 م.

4- (ابن الإمام): يقصد ابن الخليفة المهدي. (ألا): أداة تحريض بمعنى (هلاَّ). (أيامَ عودي رطب): أيام الشباب. والمعنى: هلاَّ عرضتَ علي ذلك عندما كنت شاباً؟

"لقد أمْهَلَكم اللهُ حتى كأنَّهُ أهملَكُم. أما تَسْتَحْيونَ مِنْ طولِ المُدِّةِ التي كُنتمْ فيها لا تَستَحْيون؟ فكُنْ طاهِراً كالوليدِ تُقَلِّبُه يدُ اللُّطْفِ به على فِراشِ العطفِ عليه، وتُصْرَفُ إليه المَنافِعُ بغيرِ طَلَبٍ منه لِصِغَرِه، وتُصْرَفُ عنه المَضارُّ بغير حَذَرٍ منه لِعَجْزِهِ. أما سمعتَ الرسولَ عليه الصلاةُ والسلامُ إذْ يقولُ في دعائِهِ: "اللهم اكْلأْني كَلاءَةَ الوليدِ الذي لا يدري ما يُرادُ به ولا ما يُريد".

فيا أيها الإنسانُ. ألا كنتَ مُعِدّاً لمطيَّةٍ ورَحْلاً ليومِ رَحيلِكَ؟ ياويلاهُ. احْذَرْ ظُلْمَةَ القبرِ المُظْلِمَة. إنَّه مَنْ لم يَسبِقْ إلى الماءِ يَظْمَأْ. إنَّما مَنَعْتُكَ ما تَشْتَهي ضَنَّاً بكَ وغَيْرةً عليك. قالَ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ: "إذا أحبَّ اللهُ عَبْداً حَماهُ الدنيا". وأنت يا مَنْ ضَلَّ السبيلَ تَشكوني إذا حَمَيْتُكَ مِنَ الدنيا، وتَكرهُ صِيانَتي إذا صُنتُك. ألا لائِذٌ بِفِناء التائبين لِيُصبِحَ عَزيزاً؟ ألا فارٌّ إلى التائبينَ لا فارٌّ منهم؟

حاجتُنا إلى اللهِ

يا مَنْ له حاجةٌ ورغبةٌ في كلِّ شيءٍ. ارْحَمْ مَنْ لا يَمْلِكُ شيئاً ويحتاجُ مِنْكَ شيئاً في كُلِّ حالٍ. فاللهُ يُغْني بِشيءٍ عَنْ شيءٍ، وليس يُستَغْنى عنه بِشَيءٍ. ولهذا قالَ جبريلُ لإبراهيمَ الخَليلِ: "ألك حاجةٌ؟". قالَ: "أمَّا إليك فلا. اللهُ يَسْتَحِقُّ أنْ يُسْألَ وإنْ أَغْنى عنِ السؤالِ. لأنه لا يُغْنَى بشيء عنه". فأَطِعِ اللهَ لِتُطيعَه ولا تُطِعْه لِيُطيعَك فَتَفْتُرَ عن العبادةِ وتَمَلَّ منها. مَنْ تَرَكَ تدبيرَهُ لتدبيرِ اللهِ أراحَهُ. جَلَّ مَنْ لَوالِبُ القُلوبِ والهِمَمِ بِيدِهِ. وهو الذي بِيدِه ما حَكَمَ به على الناسِ وما قَسَمَهُ لهم مِنَ الأرزاقِ:

أَنَسِيتَ ذِكْرَ أَحِبَّةٍ ... يَنْسَوْن ذنْبَك عِنْدَ ذِكْرِكْ؟
وجَفَوْتَهُم ولَطالَما ... كانوا، خِلافَك، طَوْعَ أمْرِكْ
وصَبَرتَ عِندَ فِراقِهم ... ما كان عُذْرُك عِنْدَ صَبْرِكْ؟

إنك تتركُ مَنْ إذا جَفَوتَه ونَسيتَ ذِكْرَه وتَعَدَّيْتَ حَدَّهُ وتَركْتَ نَهْيَهُ وضَيَّعْتَ أَمْرَه، ثم تُبْتَ إليه وعَوَّلْتَ عليه في تَفَضُّلِه عليك وقلتَ: "يا ربِّ"، قالَ لك: "لبَّيْك".

(وإذا سألكَ عِبادي عَنِّي فإنِّي قَريبٌ[1]). إنْ وضَعْتُ الذُّبابَ في وَجهِك فإني أَتَّهِمُكَ. وإِنْ قَطَّعْتُ أنا أَعْضاءَكَ فلا تَتَّهِمْني. أنت الذي إذا أَعْطَيْتُكَ ما طَلبْتَ مني، تَرَكْتَني وانصرفْتَ: (وإذا أَنْعَمْنا على الإنسانِ أَعْرَضَ ونأى بجانِبِهِ[2]). يا واقِفاً أمامي بالتُّهَمِ كَمِ اقْتَرَفْتَ مِنَ الذُّنوبِ؟ أليس يُقالُ لك: "ما غَرَّك بي"؟، فتقولُ "حِلْمُك"؟. ألا تقول: "يا رَبِّ لو أَرْسَلْتَ عليَّ بَقَّةً لَجَمَعْتَني عندك إذا أردْتَ أنْ تَجْمعَني؟":

أَمِـنْ بَعْـدِ شُـرْبِكَ كأسَ النُّهى[3] وشَـمِّـك رَيْـحـانَ أهْـلِ الـتُّـقى
عَشِـقْتَ فأصْبَحْـتَ في العاشـقـ ـنَ أَشْـهَرَ مِـنْ فَـرَسٍ أبْلَقـا؟[4]
أدُنْيـايَ مِـنْ غَمْـرِ بَحْـرِ الهَـوى خُـذي بـيـدي قَـبْـلَ أنْ أغْـرَقـا
أنـا لـكِ عَبْـدٌ فكونـي كَمَـنْ إذا سَـرَّه عَـبْـدُهُ أَعْـتَـقـا

كان في بغدادَ رجلٌ كبيرُ الرأسِ فيلِيُّ الأذنين اسمُهُ (فاذوه). رأسُهُ في الفصولِ الأربعةِ مَكْشوفٌ. لا يتورَّعُ عن ارتكابِ مَعْصِية. وكان يُقالُ له: "يا فاذوه. ويلك تُبْ إلى الله". فيقولُ: "يا قوم. لِمَ تدخلون بيني وبين مَوْلاي وهو الذي يقبلُ التوبةَ مِنْ عِبادِه"؟.

فكان ذاهباً يوماً في بعضِ الشَّوارِعِ. والشارِعُ قد اتَّسَع أولُه وضاقَ آخِرُه. فَناوَلَتْ جارةٌ جارَتَها مِهراساً. فانْسَلَّ مِنْ يدِها على رأس (فاذوه)، فهَرَسَ رأسَه، وخُلِط كخَلْطِ الهَريسةِ. وأَعْجَلَهُ ذلك عن التوبةِ. وكان لنا واعِظٌ صالِحٌ يقولُ لنا: "احْذَروا مِيتَةَ (فاذوه).

قالَ (جِبريلُ) في حديثِه: "خَشيتُ أن يُتِمَّ (فِرعَوْنُ) الشهادةَ والتوبَةَ. فأَخَذْتُ

1- من الآية 186 من سورة البقرة.

2- من الآية 83 من سورة الإسراء.

3- (النُّهى): العقل.

4- (الفرس الأبلَقُ): الذي فيه سواد وبياض مما يجعله واضحاً متميزاً. والمعنى أن هذا الرجل عشق فأصبح من أشهر العاشقين كأنه الفرس الأبلق بين الخيل.

5- (أدنياي): الهمزة للنداء. والمعنى: يا دنياي خذي بيدي من غَمرة بحر الهوى قبل أن أغرقَ.

مِنْ طينِ البحرِ فضَربْتُ به وجهَه. فكيفَ يَصْنَعُ مَنْ يعتقِدُ أنَّ التوبةَ لا تَصِحُّ مِنْ ذَنْبٍ مع الإقامَةِ على آخر؟ فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

بدءُ التعارفِ بين المعري وابن القارح

بَلَغَني عن مَوْلايَ الشيخِ – أدامَ الله تأييدَه – أنَّه قالَ وقد ذُكِرْتُ له: "أعْرِفُه سَماعاً. هو الذي هجا (أبا القاسمِ بنَ عليِّ بنِ الحُسَيْنِ المَغْربي[1])"

وقولُه هذا – أدام الله عِزَّه – مُرَوِّعٌ لي. وذلك لأني أَخافُ أنْ يَجِدَ طَبْعي شِرِّيراً، وأنْ يَتَصوَّرَني بصورةِ مَنْ يَضَعُ كُفْرَ النعمةِ مَوْضِعَ الشُّكْرِ لِصاحبها. ومَعرِفَةُ الشيخِ لي أنفعُ لي عِنْدَه لجَلالَةِ قَدْرِهِ ودينِه ونُسْكِه. وأنا أُطْلِعُه على حالي لِيَعْرِفَني ويَعْرِفَ مَنْ يَمْدَحُ ومَنْ يَذمُّ.

ابنُ القارح يَروي سيرةَ حياتِهِ

1 – دراستُه وأساتذتُه

كنتُ أدرُسُ على (أبي عبدِ الله بن خالَويه[2]) رَحِمَه اللهُ. وأخْتَلِفُ إلى (أبي الحسن المغربي[3]) والدِ (أبي القاسِمِ المغربي) الذي بَلَغَ الشيخَ أني هَجَوْتُهُ. ولمَّا ماتَ (ابنُ خالويه) سافَرْتُ إلى بغدادَ ونزلتُ على (أبي عليٍّ الفارسي[4]). وكنتُ أخْتَلِفُ إلى

1- (أبو القاسم): الحسين بن علي بن الحسين. المعروف بالوزير المغربي. كاتب شاعر وسياسي مغامر. كان يُلَقَّب بالكمال ذي الوزارتين. ولد عام 370 هـ 980 م. وتوفي عام 418 هـ 1027 م.

2- (ابن خالويه): هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه. عالم لغوي بارز. ولد في هَمْدانَ في اليمن. ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها عام 370 هـ 981 م.

3- (أبو الحسن المغربي): علي بن الحسين. وهو والد أبي القاسم. يقال إنه من نسل الأكاسرة. وزير من الدهاة. ولد في مصر. قتل الحاكمُ الفاطميُّ والدَه فهربَ إلى الشام عام 400 هـ 1009 م. استوزره (مشرف الدولة) البويهي) عشرة أشهر.

4- هو (الحسن بن أحمد بن عبد الغفار). كنيته (أبو علي الفارسي). ولد عام 288 هـ 900 م. اشتهر بعلم النحو. وأقام في حلب عند سيف الدولة. وكان بينه وبين المتنبي مناقشات. انتقل إلى فارس وصَحِبَ عَضُدَ الدولة البويهي حتى علت مكانته عنده. توفي عام 377 هـ 987 م.

عُلماءِ بغدادَ: إلى (أبي سَعيدٍ السيرافي[1])، و(عَليِّ بن عيسى الرَّمَّاني[2])، و(أبي عبيد الله المَرْزُباني[3])، و(أبي حَفْصٍ الكَتَّاني[4]) صاحبِ (أبي بكرِ بنِ مُجاهد[5]). وكتبتُ حديثَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم، وبَلَّغْتُ نفسي ما تَطْلُبُه مِنَ العلم جَهْدي. والجُهْدُ عاذِرٌ.

2 - سفرُه إلى مصر
والعداوةُ بينه وبين أبي القاسم المغربي

ثم سافَرْتُ مِنْ بغدادَ إلى مِصْرَ. ولَقِيتُ (أبا الحَسَنِ المغربي) والدَ (أبي القاسم). فلَزِمْتُه لزومَ الظلِّ، وكنتُ مِنْهُ مَكانَ المُتَشَبِّهِ به لِكَثْرَةِ إنْصافِهِ لي والحُنُوِّ عليَّ والتودُّدِ مِنِّي إليه. فقالَ لي سِراً: "أنا أخافَ طُموحَ ولدي أبي القاسمِ أنْ يُورِدَنا شَرًّا لا يُمْكِنُ تَلافيه. وإنْ كانتْ أنفاسُ الإنسانِ مِمَّا يُمكِنُ أن تُحْفَظَ وتُكتَب، فاكتُبْ ما قلتُ لك واحْفَظْهُ وذكِّرني به".

أما ابنُهُ أبو القاسمِ فقالَ لي: "ما نَرْضى بالخُمولِ الذي نحن فيه".

قلتُ له: "وأيُّ خُمولٍ هنا؟ تأخذون مِنْ مولانا - خَلَّدَ الله مُلْكَه - في كُلِّ سَنَةٍ ستةَ آلافِ دينار. وأبوك مِنْ شيوخِ الدولة وهو مُعَظَّمٌ مُكَرَّمٌ".

فقالَ: "أريدُ أن تُصارَ إلى أبوابِنا الكَتائبُ والمَواكِبُ، وأن تُجْمَعَ إلينا خُيولُ الغاراتِ. ولا أرضى بأن يُجرَى علينا المالُ كالوِلْدانِ والنِّسوان".

1- (أبو سعيد السيرافي): الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي النحوي المعروف بالقاضي.ولد عام 284 هـ. حوالي 894 م. توفي عام 368 هـ 978 م.

2- (علي بن عيسى الرَّماني) أبو الحسن. نحوي اعتزالي. ولد عام 296 هـ 908 م. وتوفي عام 384 هـ 994 م.

3- (أبو عبد الله المَرْزُباني): محمد بن عمران بن موسى المرزباني. إخباري ومؤرخ وأديب. خراساني الأصل. ولد في بغداد عام 297 هـ 910 م. وتوفي فيها عام 384 هـ 994 م.

4- (أبو حفص الكَتاني) هو عمر بن إبراهيم البغدادي. إمام القراء في القرن الرابع الهجري. ولد عام 300 هـ 912 م. توفي عام 390 هـ 1000 م.

5- (أبو بكر بن مجاهد) هو أحمد بن موسى بن العباس. شيخ القراء في بغداد. ولد عام 245 هـ 859 م. وتوفي عام 324 هـ 936 م.

فذَكَرْتُ ذلك لأبيه فقال لي: "ما أَخْوَفني أن يَخْضِبَ ولدي أبو القاسمِ هذه من هذه". وقَبَضَ على لِحْيتهِ ورَأْسه.

وعلمَ أبو القاسم بما ذَكَرْتُ لوالدِهِ أبي الحسنِ. فصارَتْ بيني وبينه جَفْوَةٌ.

لقاؤُه مع الحسينِ بنِ جوهرٍ الصقلي

وأرسلَ إليَّ القائدُ (أبو عبدِ اللهِ الحسينُ بنُ جَوْهَرٍ[1]) يَطْلبني. فشرَّفني بِشريفِ خِدْمَته. وكانَ الحاكمُ[2] بأمرِ اللهِ كلما قتلَ رئيساً أرسلَ إلى (الحُسين بنِ جَوْهَرٍ) رأسَه وقالَ له: "هذا عَدُوي وعدوُّك يا حسين". فقلتُ لنفسي: "مَنْ يفعلْ شيئاً يُفْعَلْ به مِثلُه. والدهرُ لا يأمَنُ أحدٌ تَقَلُّباتِه".

ذهابُ ابن القارحِ إلى الحجِّ وهروبُهُ من مصر

فاستأذَنْتُ الحُسَيْنَ بنَ جوهرٍ في الحَجِّ. فأذِنَ لي. فخَرجتُ في سنةِ سَبْعٍ وتسعين وثلاثمئة.

وحَجَجْتُ خمسَ حِجَّات. وعدتُ إلى مصرَ وقد قَتَلَ الحاكمُ (الحسينَ بنَ جوهر). فجاءني أولادُه سِراً يَرومونَ الرجوعَ إلى أَهْلِهِم. فقلتُ لهم: "خَيْرُ ما لي ولكم الهَرَبُ. ولأبيكم ببغدادَ ودائعُ قيمتُها خمسمئةُ ألفِ دينار. فاهْرُبوا وأهربُ".

ففعلوا وفعلتُ. وبلغني خَبَرُ قتلِهم في دمشقَ وأنا في طرابلس الشام. فدخَلْتُ إلى أنطاكية وخَرَجْتُ منها إلى (مَلَطْية[3]) وفيها المايَسْطرِيَّة (خولةُ بنتُ سَعْدِ

1- (أبو عبد الله الحسين بن جوهر الصقلي): هو ابن جوهر الصقلي الذي أخذ مصر للفاطميين. كان قائد الجيوش في عهد الحاكم. وقد قتله الحاكم عام 401 هـ 1010 م وقتل معه قاضي القضاة.

2- (الحاكم بأمر الله): أبو علي منصور الفاطمي. صاحب مصر والشام والمغرب. سادس الخلفاء الفاطميين. ولد عام 375 هـ 9805 م. ولي الحكم بعد أبيه العزيز. وكان غريب الأطوار شاذ التصرفات. قُتِلَ عام 411 هـ 1020 م.

3- (مَلَطية): هي عاصمة محافظة ملطية قرب نهر الفرات في تركيا. استولى عليها المسلمون عام 117 هـ 735 م في عهد هشام بن عبد الملك.

الدولةِ[1]). فأقمتُ عندها إلى أن وَرَدَ عليَّ كتابُ أبي القاسم. فسرتُ إلى (ميافارقين) وهي أشهرُ مُدنِ ديارِ بكْرٍ، لأنه كان يُظهِرُ لي أمراً ويُخْفي غيرَه.

علاقتُهُ بأبي القاسم

فقد قالَ لي يوماً: "أنا لا أراك". فقلتُ له: "هل عَرَضَتْ حاجَةٌ تستدعي حُضوري؟". فقالَ: "لا. أردْتُ أنْ ألْعَنك". قلتُ له: "فالْعَنِّي غائباً". قالَ: "لا. في وجهِك أشْفى". قلتُ: "ولِمَ؟". قالَ: "لِمُخالَفَتِك لي فيما تَعْلَمُ". ويقصدُ أنني خالَفْتُه حينَ هَمَّ بالثورة على الحاكمِ بأمرِ اللهِ.

وقُلْتُ له مرةً بيني وبينه ونحنُ على أُنْسٍ: "لي عندَكَ حُرُماتٌ ثلاثٌ: البلديةُ، وتربيةُ أبيك لي، وتربيتي لإخْوتِك". فقال: "هذه حُرَمٌ مُهَتَّكَةٌ. فالبلدِيَّةُ نَسَبٌ بين الجُدْرانِ. وتربيةُ أبي لك مِنَّةٌ لنا عليكَ. وتربيتُك لإخوتي بالخِلَعِ والدنانيرِ".

وأردتُ أنْ أقولَ له: "استرحتَ مِنْ حيثُ يتعبُ الكِرام". فخَشيتُ جنونَ جُنونه لأنَّ جُنونَه كانَ مجنوناً. و(المَجْنونُ) هو المَخْفِيُّ المَسْتورُ. ومثلُ هذا المَجنون أَجَنُّ مِنْه لا يكونُ. وقد أُنشِدُ:

جُنونُـكَ مَجْنـونٌ ولسـتُ بواجِدٍ طَبيبـاً يُـدواي مِنْ جُنـونِ جُنونِ[2]

وأقلُّ ما يُقالُ فيه: (جُنَّ جِنانُه – أي قلبُه – ورَقَصَ شيطانُه):

بـهِ جِنَّـةٌ مَجْـنـونـةٌ غيـرَ أنهـا إذا حَصَلَـتْ مِنْـهُ أَلَـبُّ وأَعْـقَـلُ

وقالَ لي ليلةً: "أريدُ أنْ أجمعَ أوصافَ الشَّمْعَةِ السبعةَ في بيتٍ واحدٍ. ولا يأتيني مِنَ الشعرِ ما أرضاه". فقلتُ: "أنا أفعلُ في هذه الساعةِ". فقالَ: "أنت أهلٌ لهذا".

فأخذتُ القلمَ مِنْ دَواتِه، وكتبتُ بحضرتِه:

1- (خولة بنت سعد الدولة): حفيدة سيف الدولة. أبوها (سعد الدولة) هو أبو المعالي شريف. وَلِيَ حلب بعد موت أبيه سيف الدولة عام 356 ه. وتوفي عام 381 ه. ولدت عام 356 هـ 976 م. وتوفيت عام 381 هـ 991 م.

2- معنى البيت أن جنونك مَخْفِيٌّ. ولا أجد طبيباً يداوي مثلَ هذا الجنون.

لقد أشْـبَهَتْني شَمعَةٌ في صَبابَتي وفـي هَـوْلِ مـا ألْقـى ومـا أَتَوَقَّعُ
نُحـولٌ وحَرْقٌ فـي فَنـاءٍ ووَحْدةٍ وتَسْـهيدُ عَيْـنٍ واصْفِـرارٌ وأدمُـعُ

فقالَ: "كنتَ عَمِلْتَ هذا قبلَ هذا الوقْتِ". فقلتُ له: "تَمنعُني سُرْعةَ الخاطرِ وتُعْطيني عِلْمَ الغيب؟".

ثم قلتُ له: "أنت ذاكرٌ قولَ أبيك لي ولك ولـ (البَتِّيِّ[1]) الشاعرِ ول (المُحَسَّنِ[2]) الدمشقي ونحنُ في بيته: "اعمَلوا قطعةً قِطعةً. فمَنْ جَوَّد جَعَلْتُ جائزتَه أنْ أُعلِّقها هنا". فقلت:

"بَـلَـغَ السـمـاءَ سُـمُـوُّ بـيْـتٍ شِـيـدَ فـي أعْـلـى مَـكـانِ
بَـيْـتٌ عـلا حـتـى تـوارى فـي ذُراهُ الـفَـرْقَـدانِ
فـانْـعِـمْ بـه لا زلـتَ مِـنْ رَيْـبِ الـحَـوادِثِ فـي أمـانِ"

فاستجادَ سُرعَتَها وكتبها وعَلَّقَها في ذاك البيتِ وخَلَعَ عليَّ".

وكان أبو القاسم مَلولاً. والمَلولُ ربما ملَّ المَلَلَ. وكان لا يَمَلُّ أنْ يَمَلَّ. وكان يحقِدُ حِقْدَ مَنْ لا تَلينُ كبِدُه ولا تَنْحَلُّ عُقَدُه.

وقال لي بعضُ الرؤساء مُعاتِباً: "أنت حَقودٌ ولم يكُنْ أبو القاسم حَقوداً". فقلتُ له: "أنت لا تَعْرِفُه. واللهِ ما كان يُنالُ مِنْه عَطاءٌ ولا يُرجى منه عِيادةُ مَريضٍ. وله رأيٌ يُزَيِّنُ له العُقوقَ ويُمَقِّتُ إليه رعايةَ الحُقوقِ. وهو بعيدٌ عن الطبعِ الذي يَصُدُّ الصُّدودَ، وبعيدٌ عما يجْعَلُهُ مِنْ جِنْسِ الأَلوفِ الوَدودِ. كأنه مِنْ كِبْرِه قد رَكِب الفَلَكَ واستوى على السماءِ. ولستُ مِمَّنْ يرغَبُ في التواصُلِ مع مَنْ يرغبُ وَصْلَهُ أو مع مَنْ يَطْلُبُ صَداقَتَه. ولمَّا رأيتُه سادِراً في غَيِّه جارياً في قِلَّةِ إنصافي بِسببِ غُلَوائه، مَحَوْتُ ذِكْرَه عن صَفْحَةِ فؤادي وعَدَدْتُ وُدَّه مِمَّا يَحْمِلُه السيلُ في الوادي:

1- (البتِّي): على الأرجح هو أحمد بن علي أبو الحسن. كان حافظاً للقرآن عارفاً بالأخبار والآداب. نادم الوزراء وكتب للخليفة العباسي القادر بالله. توفي عام 403 هـ حوالي 1012 م.

2- (المُحَسَّن الدمشقي): هو على الأرجح المُحَسَّن بن الحسين بن علي. الأديب الشاعر الوراق. توفي عام 416 هـ حوالي 1025 م.

ففي الناسِ إنْ رَثَّتْ حِبالُك واصِلٌ وفي الأرضِ عن دار القِلى مُتَحَوِّلُ"[1]

وأنشدتُ الرجلَ الذي عاتبني في أبي القاسم أعتذِرُ فيها عن انقطاعي عنه:

فلــو كانَ منه الخَيْرُ إذ كان شَــرُّهُ عَتيــداً لقُلْنــا: إنَّ خيــراً مــع الشــرِّ
ولــو كانَ إذْ لا خَيْــرَ، لا شــرَّ عِنْدَهُ صَبَرْنــا وقُلْنا لا يَريــش ولا يَبْري[2]
ولكــنــه شَرٌّ ولا خَــيْــرَ عِــنْــدَه وليــس على شــرٍّ إذا دام مِــنْ صَبْرِ

وبُغْضي له – شَهِدَ اللهُ – دائمٌ حَيًّاً ومَيِّتاً. وقد أوْجَبَ هذا البُغْضَ أنه أخَذَ من مَحاريبِ الكعبةِ الذهبَ والفضَّةَ وضَرَبها دنانيرَ ودراهمَ وسمَّاها (الكَعْبِيَّة). وجَعَلَ البدوَ ينهبون مدينةَ (الرملة في فلسطينَ. وخرَّبَ بغدادَ. وكم دَمٍ سَفكَ. وحَريمٍ انتهكَ. وحُرَّةٍ أرمَلَ، وصبيٍّ أيَّمَ.

فضلُ أبي العلاء

وأنا مُعْتذِرٌ إلى الشيخِ الجليلِ مِنْ تَقْريظِه لي مع أنَّ تقريظي له هو مِنْ حَقِّهِ. لأنه قد شاعَ فَضْلُهُ في جَميعِ البشرِ. وصار غُرَّةً على جَبْهةِ الشمسِ والقمرِ. خَلُدَ ذلك له بسببِ ما جاءَ عنه في بَدائعِ الأخبارِ، وكُتِبَ بسوادِ الحِبْرِ الذي كالليلِ على الورقِ الذي ببياضِ النهارِ. وأنا في مُكاتبةِ حَضْرتِه بمنظومٍ ومَنثورٍ، كَمَنْ أَمَدَّ النارَ بالشررِ، وأهدى الضوءَ إلى القمرِ، وكمَنْ صَبَّ في البحرِ جُرْعَة، وأعارَ سَيْرَ الفَلَكِ سُرعةً. فالنقصُ لا يَحُلُّ في وادي عِلْمِهِ، ولا يقتربُ السهوُ مِنْ مَجلسِه.

وقد سمعتُ من رسائِلِهِ روائعَ ألفاظٍ إنْ نعَتُّها فقد عِبْتُها. وإنْ وَصفتُها فما أنصفتُها. وأطْرَبَتْني هذه الألفاظُ – يَشهدُ اللهُ – إطْرابَ السَّماعِ. وباللهِ لو أَخذَ هذه

1- البيت للشنفرى من لامية العرب المشهورة. و(القِلى): البغضاء. من (قَلاه): أبغضه وهجره. ومنه الآية الكريمةُ (ما ودعك ربك وما قلى). والمعنى أنَّ في الناس مَنْ يُواصل الآخرَ وإنْ قطع حباله معه، وفي الناس أيضاً مَنْ يهجر أرضاً يُبغِضُه فيها أهلُها.

2- (لا يَريشُ ولا يبري): لا ينفع ولا يضرُّ. وأصلُه من (راش السهمَ يريشه): ألصق عليه الريش. و(برى السهمَ أو القلمَ): نحته.

الألفاظَ مِنْ خِزانته، وكُتُبُه حولَهُ يُقَلِّبُ طَرْفَه في هذا ويرجِعُ إلى هذا، – فإن القلمَ لسانُ اليدِ وهو أَحَدُ البلاغَتَيْن – لكانَ ذلك عَجيباً وصَعباً وشديداً. ووالله لقد رأيتُ عُلَماءَ منهم (ابنُ خالويه)، إذا قُرِئتْ عليهم الكتبُ ولا سيما الكتبُ الكبيرة، رجَعوا إلى ما عندهم من كتبٍ. فكأنهم يُقابِلون ما عندهم بما قُرِئَ عليهم يَتَحَفَّظون مِنْ سَهْوٍ وتَصْحيفٍ وغَلَط.

والعجيبُ العجيبُ والنادرُ الغريبُ حِفْظُه – أدامَ اللهُ تأييدَه – لأسماءِ الرجالِ وللكلامِ المَنْثورِ. فحِفْظُهُ للمنثور كَحِفْظِ غيرِهِ مِنَ الأذكياءِ المُبَرِّزين للمَنظوم. وحِفْظُ المنثورِ سهلٌ بالقولِ صعْبٌ بالفعلِ. مَنْ سَمِعَهُ طَمِع فيه. ومَنْ رامَهُ امتنعَتْ عليه معانيه ومبانيه.

أبو الطيب اللغوي[1]

حدَّثني (أبو عليٍّ الصقِلِّيُّ) في دمشقَ قالَ: "كنتُ في مَجْلِسِ (ابنِ خالَويه) إذْ وَرَدَتْ عليه مِنْ (سيفِ الدولةِ[2]) مسائلُ تَتَعلَّقُ باللغةِ. فاضْطَرَبَ لها ودَخَلَ خِزانتَه وأَخْرَجَ كتبَ اللغة وفرَّقَها على أصْحابِه يفتِّشونها لِيُجيبَ عن تلك المَسائلِ. وتركتُه وذهبتُ إلى (أبي الطيِّبِ اللُّغَوي) وهو جالسٌ وقد وَرَدَتْ عليه تلك المسائلُ بعينِها وبيده قلمُ الحُمْرة. فأجابَ به ولم يغَيِّرْه قُدرةً على الجوابِ".

وقال أبو الطيب: "قرأتُ على (أبي عمر[3]) كتابَ (الفَصيح) لثعلب أبي العباس[4]،

1- (أبو الطيب اللغوي): هو عبد الواحد بن علي. أديب لغوي. لا يُعْرَف عام ولادته. سكن حلب وقُتِلَ فيها يوم دخلها الروم عام 351 هـ 962 م.

2- (سيف الدولة الحمداني): هو علي بن أبي الهيجاء بن حمدان التغلبي. أسس إمارة حلب التي كانت موئلاً للعلماء والشعراء ومختلف أنواع الفنون. و(سيف الدولة) لقبه الذي اشتُهِرَ به. وله مع الروم معارك كثيرة استمرت حتى دخلها الروم عام 962 م. ولد عام 303 هـ 915 م. وتوفي عام 356 هـ 967 م.

3- (أبو عمر): غلام ثعلب.

4- (ثعلب أبو العباس): هو أحمد بن يحيى النحوي البغدادي الشيباني. وهو مولى معن بن زائدة الشيباني. ولد عام 200 هـ 816 م في بغداد. ومات فيها عام 291 هـ 904 م.

وكتابَ (إصلاحُ المنطق) لابن السِّكِّيت[1] حِفْظاً". وقال لي (أبو عمر): "كُنْتُ أكتبُ اللغةَ عن (ثعلب) على لَوْحٍ من خَزفٍ. وأجْلِسُ على شاطئِ دجلةَ أحفظُها ثم أرمي اللوحَ".

محفوظاتُ ابنِ القارح

وأنا تعبتُ وحَفِظتُ نِصْفَ عُمري ونَسيتُ نِصْفَهُ. وذاك أني دَرَستُ ببغدادَ وخَرَجْتُ عنها وأنا طريُّ الحِفظ. ومَضَيْتُ إلى مِصْرَ فتركتُ نفسي تَسرحُ في الشهواتِ. وأردتُ بِزَعْمي وخَديعةِ الطَّبْعِ الذي يَستَحِقُّ اللومَ أنْ أُذيقَها حَلاوةَ العيش بعدما صَبَرْتُ في طلبِ العلمِ والأدبِ. ونسيتُ أنَّ العلمَ غِذاءُ النفسِ الشريفةِ وصَيْقَلُ الأفْهامِ اللطيفةِ. فقد كنتُ أكتبُ خَمسينَ وَرَقَةً في اليومِ وأدرسُ مئتين. فصرتُ الآنَ أكتبُ وَرَقَةً واحدةً وتَحُكُّني عينايَ حَكّاً مُؤْلِماً. وأدْرُسُ خَمْسَ أوراقٍ وتَكِلُّ عيناي.

عُزوفُهُ عن العلم

ثم دُفِعْتُ إلى أوقاتٍ لَقِيتُ فيها مَنْ لا يَرْغَبُ في عِلْمٍ ولا أدبٍ. بل في فِضَّةٍ وذَهَبٍ. وصِرْتُ أضَعُ كِتاباً عن يَميني وأطلبُه عن شمالي. وصرتُ أُريدُ، مع ضَعْفي، مَعاشاً مِنْ غير جُهْدٍ ولا تَعَبٍ. فكأني ركِبْتُ ناقةً ضَعيفَةً مَجْروحَةً، أو كأني اعْتَلَيْتُ ظَهْرَ دابَّةٍ غيرِ صَلْبَة. إنْ جلستُ عليها فظهرُها كالدُّمَّل. وإنْ مَشيتُ فكأني جُمْلَةُ دمامِل. وكان معي بقيةٌ قليلةٌ مِنْ عِلْمٍ كانَ كثيراً. ولو وَجَدْتُ رجلاً مَوْثوقاً لأعطيتُه بقيةَ ما أعْرِفُ ليرُدَّه إليَّ بما أُرَفِّهُ به عن جِسْمي مِنَ الحَركَةِ، وقَلْبي مِنَ الشُّغْلِ. وقد وجدتُ مَنْ أدفعُ علمي إليه. بَقِيَ أنْ يَردَّه عليَّ.

1- (ابن السِّكِّيت): هو يعقوب بن إسحاق بن السِّكِّيت أبو يوسف. إمام من أئمة اللغة وعالم ونحوي وأديب شهير. اشتهر بتشيُّعِه. توفي عام 244 هـ 858 م.

فقدانُ الثقة

يُرْوى أنَّ رجلاً دَفَعَ إلى صَديقٍ له جاريةً أوْدَعَها عنده وذَهَبَ في سَفْرَةٍ. فقالَ الصديقُ بعد أيام لمَنْ يَثِقُ به وتَسْكُنُ إليه نفسُهُ: "يا أخي. ذهبتْ أماناتُ الناسِ. أَوْدَعَني صديقٌ لي جاريةً يُظُنُّ أنها بِكْرٌ. فجرَّبْتُها فإذا هي ثَيِّبٌ".

ومِنْ طَريفِ أخبارِ فُقْدانِ الثِّقَةِ أنَّ بِنتَ أُخْتي سَرَقَتْ لي ثلاثةً وثمانينَ ديناراً. فلما هدَّدَها السلطانُ – أطالَ اللهُ بقاءَهُ ومَدَّ مُدَّتَه وأدامَ سُمُوَّه ورِفعتَه – وأعادَتْ بعضَها قالتْ: "واللهِ لو عَلِمْتُ أنَّ الأمرَ يَجْري على هذا الشكْلِ كُنْتُ قتلْتُ خالي".

عودةٌ إلى المعري

واللهِ لولا ضَعْفي وعَجْزي عن السفرِ، لخَرَجْتُ إلى الشيخِ الجَليلِ مُتَشَرِّفاً بمُجالَسَتِه ومُحاضَرِتِه. فأما مُذاكَرَتُه فقد يَئِسْتُ مِنْها لِما قد استَوْلى عليَّ مِنَ النِّسيانِ، واحتوى على قلبي مِنَ الهُمومِ والأحزانِ. وإلى اللهِ الشكوى لا مِنْه. وليس يَحْسُنُ أنْ أشْكُوَ مَنْ يَرْحمُني إلى مَنْ لا يَرْحَمُني. وليس بِحَكيمٍ مَنْ شَكا رَحيماً إلى غيرِ رَحيمٍ.

أبو بكر الشِّبْلي[1]

وكان أبو بكرٍ الشِّبْلي يقولُ: "ليس غيْرَ الله غيرٌ. ولا عند غيرِ اللهِ خَيْرٌ". وقال يوماً مخاطِباً اللهَ: "يا جَوادُ". ثم أمسكَ مُفَكِّراً ورفعَ رأسه ثم قال: "ما أوْقَحَني. أقولُ لك (يا جواد). وقد قيلَ في بعضِ عَبيدِكَ:

ولـو لم يَكُـنْ في كَفِّه غيرُ نفْسِـهِ لجـادَ بهـا فَلْيِتِّـقِ اللـهَ سـائِـلُـهْ

وقد قيلَ في آخَرَ:

تـراه إذا مـا جِـئْـتَـه مُـتَـهَلِّـلاً كأنـكَ مُعْطيهِ الـذي أنت سـائِلُهْ".

1- مرت ترجمته.

ثم قال: "بلى. أقولُ يا جواداً فاقَ كلَّ جَواد. وبِجودِه جادَ مَنْ جادَ".

ابنُ السَّمَّاكِ والرشيد

ودخل ابنُ السمَّاكِ[1] على الرشيدِ[2]. فقالَ له الرشيدُ: "عِظْني". وكان في يدِ الرشيدِ كوزُ ماءٍ. فقالَ له ابنُ السَّمَّاكِ: "مهلاً يا أميرَ المؤمنين. أرأيتَ إنْ قَدَّرَ اللهُ عليك مُقَدَّراً فقالَ: (لن أُمَكِّنَكَ من شَرْبَةٍ إلا بنصفِ مُلْكِك)، أكنتَ فاعِلاً ذلك؟".

قالَ الرشيدُ: "نعم"

قالَ ابنُ السَّماكِ: "اشرَبْ. هَنَّاكَ اللهُ". فلما شربَ قالَ له: "أرأيتَ يا أميرَ المؤمنينَ أنْ لو جاءك المُقَدَّرُ عليك فقالَ: (لن أُمَكِّنَك مِنْ إِخْراجِ هذا الكوزِ إلا بأنْ أستَبِدَّ بِمُلْكُك دونك)، أكنتَ فاعلاً ذلك؟".

قالَ الرشيدُ: "نعم".

قالَ ابنُ السَّمَّاكِ: "فاتَّقِ اللهَ في مُلْكٍ لا يُساوي إلا بَوْلَةً".

أَنعامُ اللهِ على البشر

وكيف أشكو مَنْ قاتَني وعالَني نيِّفاً وسبعينَ سنةً. كنتُ صغيراً لا يزيدُ قميصي عن ذِراعَيْن. فوكَّلَ بي والِدَيْنِ حَدْبين مُشْفِقين يتناهيان معي في الدقَّةِ والرِّقَّةِ والطيبةِ. فلمَّا كبرتُ وصار قميصي اثني عشرَ ذِراعاً، تَولاَّني وتَوَلَّى طَعامي. فما أَجاعَني قطُّ ولا أَعْراني: (والذي هو يُطْعِمُني ويَسقين[3]). وشأني شَأْنُ مَنْ خاطَبَ

1- (ابن السماك): هو أبو العباس محمد بن صبيح الكوفي الزاهد الواعظ. كان كبير القدر عند هارون الرشيد. توفي عام 183 ه. حوالي 800 م.

2- (الرشيد): هارون بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي. وَلِيَ الخلافةَ بعد أخيه الهادي عام 170 هـ 786 م. كان مهتماً بالعلوم والفنون والآداب كما كان مثقفاً ثقافة عالية. وكانت له صلات واسعة مع شارلمان. وهو أول خليفة قاد الحروب بنفسه. حكم بين عامي 786 و809 م. توفي في مدينة قوس (مشهد الإيرانية اليوم) عام 193 هـ 809 م.

3- الآية 79 من سورة الشعراء.

ربَّه بالأدبِ فقالَ: (وإذا مَرِضْتُ فهو يشفين[1]). فنَسَبَ المرضَ إلى نفسِه لأنها تَنفِرُ مِنَ الأعْراضِ والأمْراضِ.

وكلُّ شيءٍ يَطْرَأُ على الإنسانِ ولا يَقْدِرُ على دَفْعِهِ مثلِ النومِ واليقْظَةِ والضَّحِكِ والبُكاءِ والغمِّ والسرورِ والخِصْبِ والجَدْبِ والغِنى والفَقْرِ، فهو مِنَ اللهِ تقدَّستْ أسماؤه. ألا ترى أنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أنْ يتوعَّد أحداً على فعلٍ، ولا يستطيعُ أنْ يعاقِبَ عليه؟ وما يستطيع الإنسانُ أنْ يدفَعَهُ عن نفسِهِ فهو مِنَ اللهِ. كأنْ يريدَ الكتابةَ فلا يقعُ مِنْه البناءُ. ويريد البناءَ فلا تقعُ منه الكتابة. ومَنْ به الرِّعْشَةُ لا يقْدِرُ على إمْساكِ يدٍ. ومَنْ ليست به الرِّعْشَةُ يقدرُ على إمساكها.

كنتُ في (تَنِّيسَ[2]) وبين يديَّ إنسانٌ يقرأُ ويُرقِّقُ صَوْتَه: (يُوفونَ بالنَّذْرِ ويَخافون[3]) ويبكي. فخَطَرَ لي خاطِرٌ فقلتُ: "أنا عَكْسُ هؤلاء القومِ الذين يُوفُونَ بالنَّذْرِ ويخافونَ صلواتُ الله عليهم. أنا لا أَنذِرُ نذراً ولا أَفي بوعد. ولا أخافُ شَقاءً ولا عناءً. ولو كنتُ أخافُ لَما أصبحتُ إلا مَحْموماً".

عودةٌ إلى الشِّبلي

وحدَّثني مَنْ أثِقُ به ولا أَتَّهِمُهُ عن أبيه – وكان زاهِداً – قالَ: "كنتُ مع أبي بكر الشِّبلي في بغدادَ في الجانبِ الشَّرْقي ببابِ الطاق. فرأينا شاوِياً قد أَخْرَجَ حَمَلاً مِنَ التَّنُّورِ كأنَّه التَّمْرُ الغَضُّ نُضْجاً. وإلى جانِبِهِ حَلْوى مِنَ الفالوذج. فوقف الشِّبلي ينظرُ إليهما وهو ساهٍ يُفَكِّرُ. فقلتُ له: (يا مولاي. دَعْني آخُذْ مِنْ هذا وهذا وَرِقاقاً وخُبْزاً. ومَنْزِلي قريبٌ. تُشَرِّفُني بأنْ تجعلَ راحتَك اليومَ عندي). فقال: (يا هذا. أظننتَ أني قد اشْتَهيتُهما؟ وإنَّما فِكْري أنَّ الحيوانَ كلَّه لا يدخلُ النارَ إلا بعْدَ الموتِ. ونحن نُدْخِلُ الحيواناتِ النارَ أحْياءً:

1- الآية 80 من سورة الشعراء.

2- (تَنِّيس): جزيرة قريبة من ساحل مصر الشمالي قريبة من دمياط. وكانت ذات شهرة في النسيج.

3- من الآية 7 من سورة (الإنسان).

يا ربِّ عَفْوَك عن ذي شَـيْبَةٍ وَجِلٍ كأنَّــه مِــنْ حِـذارِ النــارِ مَجْنـونُ
قــد كـــان ذَمَّــمَ أفْعــالاً مُذَمَّمَــةً أيــامَ ليــس لــه عَــقْــلٌ ولا ديـــنُ

خِتامُ الرسالة

تَمَّت الرسالةُ والحمدُ للهِ ذي الأفْضالِ، وصلواتُه على محمدٍ وخيرةِ الآلِ.

ما فَرَغْت مِنْ تسويدِها حتى أصابتْني الكآبةُ والسوداءُ. وأنا أعتذرُ عن أيِّ خَطَأٍ فيها أو زَلَلٍ. فإنَّ الخطأَ مع الاعْتِذارِ والاجْتِهادِ وتَحَرِّي الصوابِ، مَغْفورٌ عن المُخطئِ.

ومَنْ ذا الذي يُؤتى الكَمالَ فيَكْمُلُ؟

قالَ عمرُ بنُ الخطاب[1]: "رَحِمَ اللهُ امْرَءاً أَهْدى إليَّ عُيوبي.

وأسألُ مولاي الشيخَ – أدام اللهُ عِزَّهُ – تَشريفي بالجوابِ عنها. فإنَّ رسالتي هذه – على ما فيها – قد اسْتُحْسِنَتْ وكُتِبَتْ عني وسُمِعَت مِنِّي وشرَّفْتُها باسمِه، وطَرَّزتُها بذِكْره.

والرسالةُ التي كتبها (الزَّهرجِيُّ) إليَّ، كانتْ أكبرَ الأسبابِ في دُخولي إلى حلبَ. وإذا جاءَ جوابُ هذه الرسالة، سيَّرتُه في حلب وغيرِها إنْ شاءَ اللهُ وبه الثقةُ. وصلى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلِه وسلَّمَ.

1- (عمر بن الخطاب): أمير المؤمنين. ولد عام 40 قبل الهجرة تقريباً وتوفي عام 23 هـ 644 م.

القسم الثاني

نصُّ رسالةِ الغُفْران

رداً على رسالة ابن القارح

الجزء الأول

زيارةُ الجنَّةِ والنار

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهُمَّ يسِّرْ وأَعِنْ.

إظهارُ المَوَدَّةِ لابنِ القارح

قد عَلِمَ اللهُ الذي هو الوسيلةُ إلى كُلِّ الخَيْراتِ، أنَّ في صَدْري (قَلْباً) عجوزاً يابِساً يُشبِهُ الشجَرَةَ اليابِسةَ التي لم تكن يوماً مُثْمِرَةً. لكنَّ هذه الشجرةَ اليابسةَ لم تَسكنْها يوماً ضَغينةٌ تُشبِهُ الحَيَّةَ الخَبيثة. غير أنَّ هذه الشجرةَ غيرَ المُثْمِرَةِ تُثمِرُ مِنْ مَودِّةِ مولاي الشيخِ الجليلِ – قَهَرَ اللهُ عَدُوَّه وأدامَ سَعْيَه إلى الفَضْلِ في الذهابِ والإيابِ – ثِمارَ حُبٍّ لو حَمَلَتْها الأشجارُ العاليةُ لَدَنَتْ إلى الأرضِ غُصونُها حتى أصبَحَ بإمْكانِ كُلِّ واحِدٍ أنْ يَقْطُفَها.

<u>ملاحظة</u>

ومِنْ أسماءِ اللهِ (الجَبْر). ومِنَ (الجَبْر) اشتُقَّ اسمُ المَلَك (جِبرئيل). و(إيل) هو (العبد). فالمَلَكُ (جبرئيل) هو عبدُ اللهِ.

وهذا النوعُ اليابِسُ مِنَ الشجَرِ يُسمَّى (الحَماطة). قالَ الشاعرُ:

إذا أمُّ الـوُلَيِّـد لـم تُطِـعْـنـي حَنَـوْتُ لهـا يـدي بِعصـا حَماطِ
وقلـتُ لهـا: عليـكِ بنـي أُقَيْـشٍ فإنـك غيـرُ معجِبَـةِ الشَّـطاطِ[1]

وتوصَفُ شجرةُ (الحَماطَةِ) بأنها مَسْكَنُ الحيَّاتِ. قال الشاعرُ:

1- (حَنَوْت): مِنْ حَنا – يحنو: يُشفِق. و(بنو أُقَيش) قوم الشاعر. و(الشَّطاط): الشَّطَط وهو مُجاوزة المسموح به. ويقصد الشاعر أنه إذا لم تُطِعْهُ أمُّ ولده فإن إشفاقه عليها يكون بالضرب بعصا من شجر الحماط اليابس. ويُجبِرها على لزوم بيته وقومه فإنه لا يُعجَب بمجاوزتها حدودَ طاعته.

أُتيـحَ لهـا وكانَ أخـا عِيـالٍ شُـجاعٌ فـي الحَماطَةِ مُسْـتَكِنُّ[1]

عودةٌ إلى السياق

وإنَّ هذه الشجرةَ اليابسةَ التي في مَقَرِّي وفي صَدْري، والتي تُسمى الحَماطةَ، لَتَجِدُ مِنَ الشوقِ إلى الشيخِ حُرْقَةَ قَلْبٍ لأنَّ مِنْ مَعاني الحماطة (حُرْقَةَ القلب) كما تعني حَبَّةَ القلب. قالَ الشاعرُ:

رَمَـتْ حَماطَةَ قَلْبٍ غيـرِ مُنْصَرِفٍ عنها بأسْـهُمِ لَحْظٍ لم تكن غَرَبا[2]

وكما أنَّ في صدري حبةَ قلبٍ تَحْمِلُ المودَّةَ لِمولاي الشيخِ الجليلِ، فقد علمَ اللهُ أنَّ في ثيابي العتيقةِ جسداً هزيلاً مريضاً كثيرَ الأوجاعِ. فكأنَّه يَضُمُّ ذَكَرَ حَيَّةٍ ضَخْماً مُوكَّلاً بإيذائي. وذَكَرُ الحية هذا يسمى (الحَضِبَ) كما أنَّ حبةَ القلب تُسمى (الحَضِب). ولو نَطقَ هذا الذَّكَرُ لَذَكَرَ ما يَرْميهِ عَليَّ مِنَ الشِّدةِ والآلامِ. وذَكَرُ الحية هذا مُستَقِرٌّ في جَسدي وليس مُقيماً في ذُرى الجِبالِ أو في شِعابِها. وهذا الحَضِبُ الذي يَعني المَعْنَيَيْنِ – حبَّةَ القلبِ وذَكَرَ الحيَّةِ – يُضْمِرُ، باعتبارِه حبةَ قلبٍ، مِنْ مَحَبَّةِ مولاي الشيخِ الجليل – ثَبَّت اللهُ أركانَ العلمِ بحياتِه – ما لا تُضْمِرُهُ الأمُّ لولدِها مِنَ الحبِّ له. ويُضْمِرُ، باعتباره ذَكَرَ الحيةِ، ما لا تُضْمِرُ أمَّهاتُ الأفاعي حُبَّاً مثلَه لأولادِها سواءٌ كانت مِنْ ذَواتِ السُّمِّ أم كانت مِنْ غيرِ سُمٍّ. وهذا (الحَضِبُ) الذي ذَكَرتُه ليس مُجانِساً للحَضِبِ الذي عناه (رؤبةُ بنُ العَجَّاجِ) الرجَّازُ بقولِهِ:

وقد تَطَوَّيْتُ انطِواءَ الحَضِبِ

فالمقصود بـ (الحَضِبِ) هنا: الوتر.

وقد عَلِمَ الشيخُ – أدامَ اللهُ جمالَ البراعةِ بسلامتِه – أنَّ (الحَضِبَ) ضَرْبٌ مِنَ الحياتِ، وأنه يُقالُ لـ(حَبَّةِ القلب) حَضِبٌ.

1- (الشجاع) هنا نوع من الحيات. وهو لطيف دقيق. وقيل إنه من أجرئها. و(المُسْتَكِنُّ): الساكن.

2- يقول الشاعر إن حبيبته رمت حبةَ قلبه الذي لا ينصرف عنها بسهام عيونها. وهو يعرف مصدر هذه السهام. فهي ليست (غَرَباً). و(السهم الغَرَب) هو الذي لا يُعرَف راميه.

والشيخُ يعلمُ أنَّ القَلْبَ يُسَمَّى (الأَسْودَ). وإنَّ أسْوَدي الذي في صدري، أعزُّ عليَّ مِنْ (عَنْتَرَةَ بنِ شَدَّادٍ)[1] عند أمِّهِ (زبيبةَ). وهو أَكْرَمُ عِنْدي مِنَ الشاعِرِ (السُّلَيْكِ) عندَ أمِّهِ (السُّلَكَةَ) السوداءِ[2]. وهو أحَقُّ بإيثاري واهْتِمامِي مِنَ اهتمامِ الشاعرِ (خُفافٍ السُّلَمِيِّ) بِما تُخَبِّئُه أمُّه (نَدْبَةُ) مِنْ حَوائجِها وتُخْفيهِ عن العيونِ[3].

وهذا القلبُ الذي يُطلَقُ عليه اسمُ (الأسودِ) مَحْجوبٌ داخلَ الصَّدْرِ أبداً، ولا تُرفَعُ عنه حُجُبُ الأغْطِيَةِ ولا يَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعِهِ فيَجوبُ الأرضَ. ولو قَدَرَ أَسْودي على السفَرِ لسافَرَ إلى أنْ يَلْقى الشيخَ الجليلَ. ولن يَمْنَعَهُ عن ذلك شَقاءٌ يُكابِدُه ويَشْقاه.

وعلى ذِكْرِ هذا القلبِ الذي في الصدرِ، فإنَّه في الكلامِ يؤنَّثُ ويُذكَّرُ. وهو لا يَعْلَمُ إنْ كانَ حَقيقِيَّ التَّذْكيرِ أو إنْ كان تَأْنيثُه غيرَ مُنْكَرٍ. وأنا لا أفْتَأُ أسْعى إلى إرْضائِه. على أنَّه لا يُمكِنُني إرضاؤه.

وهذا القلبُ المُسمَّى بالأسودِ أُعْظِمُهُ وأُبجِّلُه أكثرَ مِنْ إعْظامِ وتَبْجيلِ قبيلةِ (لَخْمٍ) للأسودِ بنِ المنذر[4] الذي كانَ الشاعرُ الأعشى[5] يَفِدُ عليه ويَمْدَحُهُ، وأكثرَ مِنْ إعْظامِ وتَبْجيلِ قبيلة كِندة لــ (الأسودِ بنِ مَعْديكَرِبٍ[6]) وهو مِنْ أشرافِها وقد وَفَدَ على

1- (عنترة بن شداد العبسي) أحد فرسان الجاهلية وشعرائها. وكان شجاعاً وجيد الشعر. وأمه (زبيبة) سوداء. وهو من أصحاب المعلقات. وهو من أغربة العرب. و(الأغربة) جمع غُراب. وأُطلِقَ هذا الاسم على الشعراء السود في الجاهلية.

2- (السُّلَيْك بن السُّلَكَة السعدي). يُنسَب إلى أمه السوداء. وهو من صعاليك العرب وأغربتهم. وكان ذا بأس ونجدة. كما كان سريع العدو بحيث لا تستطيع الخيل اللحاق به. و(الصعاليك) جماعة عاشوا في الجاهلية. وسُمُّوا بذلك لأنهم لم يعترفوا بسلطة القبيلة وواجباتها. فطُرِدوا من قبائلهم. وأكثرهم من الشعراء. وشعرهم من عيون الشعر العربي. توفي السليك حوالي عام 605 م.

3- (خُفاف بن نَدبة السُّلمي) من أغربة العرب وفرسانها وشعرائها المُجيدين. ويُنسَب إلى أمه السوداء. و(أغربة العرب هم الذين كان لونهم أسود). أسلم وثبت على إسلامه في وقت الرِّدَّة. وشهد مع النبي (ص) فتح مكة. وكان معه لواء بني سُليم. كما شهد معه حُنيناً والطائفَ. عاش حتى أيام عمر بن الخطاب.

4- (الأسود بن المنذر اللخمي): من ملوك الحيرة في الجاهلية.

5- مرت ترجمته.

6- (الأسودُ بن مَعْديكَرِب). كان لقبه المِقدام. كان من فرسان المسلمين المشهورين. سكن مدينة حمص وتوفي فيها عام 87 هـ 706 م.

النبيِّ وأسلمَ. وأُعظِمُه وأبجِّلُه أيضاً أكثرَ مِنْ إعظامِ وتبجيلِ بني نهشل بن دارم لشاعرِها (الأسودِ بنِ يَعْفُرَ)[1] صاحبِ الشعرِ المُطرِبِ.

وهذا القلبُ لا يَبْرَحُ مُولَعاً بذكرِ الشيخِ الجليلِ كما كانَ الشاعرُ (سُحَيْمٌ) مولَعاً بذكْرِ فتاتِه (عُمَيرةَ)[2] إنْ كانْ ساكناً في الحَضَرِ أو في البادية، وكما كانَ (نُصَيبٌ) مولى بني أميةَ مُولَعاً بفتاتِه (سُعدى)[3].

وقد كان مثلُ هذا القلب الذي في صدري مع (الأسودِ بنِ زَمْعَةَ) في صَدْرِه وفي صَدْرِ (الأسودِ بنِ عبد يغوث)[4]، ومع الأسوَدَيْن اللذين ذكرَهما الشاعرُ (اليَشْكُرِيُّ) في قولِه:

فغزاهــمُ بالأسْــودَينِ وأمــرُ اللــه بُلْــغٌ يَشــقى به الأشــقياء[5]

1- (الأسودُ بن يَعفُر) التميمي. من سادات تميم. كان فصيحاً جواداً. نادَمَ النعمان بن المنذر. ويكنى أبا الجراح. شاعر جاهلي بليغ مُقِلٌّ. وعندما أسنَّ كُفَّ بصرُه فصار يسمى (أعشى بني نهشل). وله قصيدة طويلة رائعة مطلعها:

نام الخليُّ فما أُحسُّ رُقادي والهمُّ مُحتَضَرٌ لـديَّ وسادي

2- (سُحَيْم) هذا كان عبداً لبني الحَسْحاس. وكان حبشياً غليظاً قبيحاً وشاعراً مُجيداً. وقد اشتراهُ عبدُ الله بن أبي ربيعة المخزومي وكتب إلى عثمان بن عفان: (إني اشتريتُ لك غلاماً حبشياً شاعراً). فكتب إليه عثمان: (لا حاجة لنا به فاردُدْه. فإنما حظُّ أهل العبد الشاعرِ منه إذا شبع أن يُشبِّب– يتغزل – بنسائهم، وإذا جاع أن يهجوَهم). و(عميرة) حبيبته. وفيها يقول:

عُمَيْـرةَ ودِّعْ إنْ تجهَّزتَ غازِيـا كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

3- (نُصيْب بنُ رباح) كان شاعر عبد العزيز بن مروان. وكان عفيفاً مُقَدَّماً عند الملوك. واشتُهِرَ بحبه لسعدى. ولم يكن يُحسِن الهجاء. وكان عبد العزيز بن مروان يطلب منه أن يُنشِده مراثيه في بني أمية. فإذا أنشده بكى معه. توفي عام 113 هـ 731 م.

4- (الأسودُ بنُ زَمْعَة) قُتِل ابنه (زَمْعَة) في معركة بدر في صفوف قريش. وحرَّمت قريش البكاء على قتلاها لئلا يشمتَ بها المسلمون. فسمع الأسود بكاءً في جوف الليل فظنَّ أن البكاء على القتلى سُمِح به فقال: (انظروا. هل حلَّت قريشٌ البكاءَ حتى أبكي على زَمْعَةَ؟) فقالوا: لا. إنما هي امرأة أضلت بعيراً فهي تبكي. فقال:

أتـبكي أنْ يضِلَّ لها بَـعيـرٌ ويمْنعُها مِنَ الـنـومِ السهودُ؟

وتُروى الحكاية نفسها عن (الأسود بن عبد يغوث) القرشي الجمحي. وقد ذكر المعري الأسودين ليجمع بين الروايتين.

5- (اليشكري) هو الحارث بن حِلِّزة من بكر بن وائل. وهو من شعراء المعلقات. والبيت من معلقته =

ومِثْلُ هذا القلبِ كان مع "أسْودانَ" الذي هو الفارسُ المَشْهورُ (نبهانُ بن عَمْروِ بنِ الغَوْثِ بنِ طيِّئ)[1]، ومع أبي الأسودِ الذي ذكَرَهُ الشاعرُ (امرؤُ القيس)[2] في قولِه:

وذلــك مــن خَبَــرٍ جاءنــي ونُبِّئْتُــه عــن أبــي الأســودِ

و(أبو الأسودِ الدؤلي)[3] الشاعرُ النحويُّ ما فارقَ هذا القلبَ الحزينَ طَوالَ عُمْرِه طَرْفةَ عينٍ في حالِ الراحَةِ وحالِ التعَبِ لِحُبِّي له. وصاحَبَ هذا القلبُ أيضاً (سُوَيْدَ بنَ أبي كاهِلٍ)[4] . فكان يُرافِقُهُ حينَ يَرِدُ الماءَ على كلِّ مَنْهَلِ ماءٍ. وتَحالَفَ هذا القلبُ مع (سويدِ بنِ الصامِتِ)[5] الشاعرِ الأوسي الذي لم يَغِبْ عن الإسلام فلم يُؤْمِنْ به ولم يَبْتَعِدْ عنه. فكان الناسُ بين مُبْتَهِجٍ به لإسلامِهِ وبين شامِتٍ به لأنَّه لم يدخلِ الإسلامَ. وأسْعَفَ هذا القلبُ (سُوَيْدَ بنَ صُمَيْعٍ[6]) بالمودَّةِ في أيامِ ضيقِ عَيْشِهِ وفي أيامِ رخائِهِ. و(سويدٌ) هذا هو الذي يقولُ:

إذا طَلبــوا منــي اليميــنَ مَنَحتُهم يمينــاً كبُــرْدِ الأتْحَمِــيِّ المُمَــزَّقِ
وإنْ أحلفونــي بالطــلاق أتَيتُهــا علــى خَيْــرِ مــا كُنــا ولــم نَتَفَــرَّقِ

= التي ارتجلها في مجلس عمرو بن هند في خصومة كانت بين بكر وتغلب. والأسودان هنا هما التمر والماء أو الليل والنهار. وهذان الأسودان ليسا من سياقِ ذكر الأعلام الذين يوردهم المعري. و(البُلْغ): البلاغ والأمر.

1- من أولاده (زيد الخيل) الفارس المشهور الذي سماه النبي (ص) زيد الخير.

2- (امرؤ القيس بن حِجْر الكندي). الأمير الشاعر الجاهلي. من شعراء المعلقات. والبيت من قصيدته التي قالها حين بلغه مقتل أبيه. ومطلعها:

تــطاول لــيلُك بــالإثــمــدِ ونــام الخليُّ ولم تــرقُــدِ

3- (أبو الأسود الدؤلي) من بني الدؤل بن بكر. واسمه ظالم بن عمرو. وهو من الشعراء والمحدِّثين والنحويين. وتتلمذ عليه في النحو كثير من علماء النحو. وكان أعرج بخيلاً مفلوجاً. ولد في الجاهلية وأدرك الإسلام. وتوفي عام 65 هـ 684 م على أرجح الأقوال عن 85 سنة.

4- (سويد بن أبي كاهل) من شعراء بني يَشكُر المتقدِّمين في الجاهلية. أدرك الجاهلية والإسلام. كان شاعراً مرهف الإحساس. وكان فقيراً. قيل إنه عُمِّر طويلاً في الإسلام وتوفي حوالي عام 64 هـ 683 م.

5- (سُوَيد بن الصامت) الأوسي. كان من سادة الأوس وشعرائهم. وكان أحد الكَمَلَة من العرب في الجاهلية. قدم مكة حاجاً. فعرض عليه النبي القرآن فقال له: إن هذا لَقَوْلٌ حسن. ثم انصرف عنه. ولم يلبث أن قتله الخزرج. فكان قومُه يقولون إنه قُتِلَ وهو مسلم.

6- (سويد بن صُمَيْع): المرثدي من بني الحارث. من شعراء (الحماسة) لأبي تمام.

وإنْ أَحْلَفونــي بالعَتــاقِ فقد دَرى عُبيــدٌ غلامــي أنَّــه غيــرُ مُعْتَــقِ[1]

وكان هذا القلبُ يألَفُ فِراشَ (سَوْدَةَ بنتِ زَمْعَةَ بنِ قيس)[2] امرأةِ النبيِّ صلي الله عليه وسلَّم. ويعرفُ لهفتَهُ ومكانَه في الصَّدْرِ الرسولُ الذي يأتيني بالأخبارِ. وهو لا يَنْحَرِفُ أو يَتوانى عن السؤالِ، بلهفةٍ، عمَّا يأتي به هذا الرسولُ مِنْ أخبارٍ. فيقلَقُ ويضطَرِبُ منها. ودَخَلَ هذا القلبُ القبرَ مع (سَوادَةَ بنِ عديٍّ) حُزْناً عليه عندما ماتَ. وليس ذلك أمراً غريباً على (سوادة) هذا أو غيرَ مَعلومٍ عنه. فهو الذي يقولُ:

لا أرى الموتَ يســبِقُ الموتَ شيءٌ نَغَّــص الموتُ ذا الغِنــى والفقيرا

وحَضَرَ هذا القلبُ حَزيناً في الأمْكِنةِ التي لا يكونُ فيها إلا الأسودانِ اللذان هما التمرُ والماءُ طعاماً، أو هما الأرضُ الغليظةُ الوَعْرَةُ والظلامُ حين المَسيرِ. ولِتعلُّقِ قلبي بكلِّ ما هو أَسودُ، فإنه يَنْفِرُ عن الأبْيَضَيْنِ إذا غَطَّاهُما غبارُ المعركةِ فلم يَظْهَرا لشدَّةِ مُشارَكَتِهما فيها. وهذان الأبيضان هما سَيْفانِ أو سَيْفٌ ورُمْحٌ. لكنه يَصْبِرُ على كل أبيضَيْن إذا كانَ لا بُدَّ مِنَ الصبرِ عليهما. وهذان الأبيضانِ اللذان لا بدَّ مِنَ الصبرِ عليهما، هما اللذان ذكرَهُما الراجِزُ في قولِه:

الأبْــيَــضــانِ أَبْــرَدا عــظامــي الــمــاءُ والــفَــثُّ بــلا إدامِ[3]

وإذا كانَ هذا الراجِزُ يَضيقُ بهذينِ الأبيضين، فإنَّ الشاعرَ (هُذَيْلَ بنَ عبدِ اللهِ الأَشْجَعِيِّ[4]) – وهو مِنْ شُعراءِ الحِجازِ – يرتاحُ إليهما في قولِه:

1- في الأبيات نوع من التحدي والمُغاضبة. والمعنى أنه إذا طلبوا منه أن يحلف يميناً فسوف يعطيهم يميناً تشبه الثوب – وهو الأتحمي – الممزق. وإذا طلبوا منه أن يحلف بطلاق امرأته فسوف يُطلِّقُها على الرغم من أنه كان مع زوجته على وفاق. وإن طلبوا منه أن يُعتِق عبيدَه، فإن عبدَه (عُبَيْداً) يعلم أنه لن يُعتَق.

2- (سودة بنت زَمعة بن قيس) القرشية العامرية أم المؤمنين. تزوجها السكران بن عمرو. فتوفي عنها وتزوجها النبي (ص). وهي أول زوجة له بعد وفاة زوجته خديجة. توفيت في خلافة عمر بن الخطاب.

3- (الفثُّ): نبات بري يُخبَز حَبُّه ويؤكل في المجاعات لأن خبزه غليظ. والمعنى أن الماء والفث من غير إدام جعلا عظامه باردة من قلة الدسم فيهما.

4- (هُذَيل بن عبد الله الأشجعي): من شعراء الكوفة في عصر بني أمية. توفي عام 120 هـ 738 م.

ولكنــه يَمْضــي لــيَ الحَــوْلُ كلُّه ومــا لــيَ إلا الأبيضيــن شــرابُ[1]

فأما الأبيضانِ اللذان هما الشَّحْمُ والشَّبابُ فإنَّما تَفْرَحُ بهما الفتياتُ. وقد يَبْتَهِجُ الناسُ بالشحمِ – وهو اكْتِمالُ الجِسم – والشبابِ. أما أنا فقد يَئِسَ هذانِ الأبيضانِ من صِحَّةِ جِسْمي. أما الأحمرانِ اللذان هما اللحمُ والخمرُ فيُسَرُّ بهما غيري.

تمهيدٌ عن وصولِ رسالةِ ابنِ القارح

وقد وصلت (الرسالةُ) التي بَحْرُها بالحِكَمِ مَمْلوءٌ. ومَنْ قَرَأَها مُثابٌ عندَ اللهِ ومَأْجورٌ. إذْ كانت تَأْمُرُ بتَقَبُّلِ الشريعَةِ وتَعيبُ مَنْ تَرَكَ أصلاً مِنْ أُصولِها إلى فَرْعٍ مِنْ فُروعِها. وغَرِقتُ في أمواجِ بَدائعِها الزاخِرَةِ، وعَجِبْتُ مِنَ اتِّساقِ عُقودِها الفاخِرَةِ. ومِثْلُها شَفَعَ ونَفَعَ، وقرَّبَ عند اللهِ ورَفَعَ. وألفَيْتُها مُفتَتَحةً بتمْجيدِ اللهِ. وهذا التَّمْجيدُ للهِ صَدَرَ عن رجلٍ بَليغٍ مُجيدٍ. وفي قُدْرَةِ ربِّنا – جَلَّت عَظَمتُه – أنْ يَجْعَلَ كلَّ حَرْفٍ مِنْها شَبَح نُورٍ لا يَمْتَزِجُ بقَوْلِ الزورِ. وكلُّ حَرْفٍ مِنْها يَسْتَغْفِرُ لِمَنْ كتبها وأنشأها إلى يومِ الدينِ، ويَذكُرُ مَنْ خَطَّه وأنشأهُ ذِكْرَ مُحِبٍّ خَدينٍ. ولعله – سبحانه – قد نَصَبَ لِسطورِها المُنْجِيَةِ مِنَ اللهَبِ مَعاريجَ مِنَ الفِضَّةِ أو الذَّهَبِ. تعرُجُ بها الملائكةُ مِنَ الأرضِ الراكِدَةِ إلى السماءِ، وتَكْشِفُ ستائِرَ الظَّلْماءِ بدليلِ الآية: (إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ، والعَمَلُ الصالِحُ يَرْفَعُه[2]).

وهذه الكلمةُ الطيبةُ كأنَّها المَعْنيَّةُ بقولِهِ تعالى: (ألم تَرَ كيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمةً طَيِّبَةً كشجَرَةٍ طيبةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السماءِ. تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذنِ رَبِّها[3]).

1- (الأبيضان) هنا هم التمر والماء. ويقصد الشاعر أنه قد يمضي عليه الحوْل وليس له طعام وشراب إلا التمر والماء.

2- سورة فاطر. من الآية 10.

3- سورة إبراهيم. الآيتان 24 – 25.

الفَصْلُ الأول

الفِرْدَوْس

وفي تلك السُّطورِ كَلِمٌ كَثيرٌ، كُلُّه عند الباري – تقدَّسَ – مَقْبولٌ أَثيرٌ. فقد غُرِسَ لِمولايَ الشيخِ الجليلِ – إن شاء اللهُ – بِذلك الثناءِ شَجَرٌ في الجَنَّةِ لذيذٌ اجْتِناءُ ثَمَراتِه. وكل شَجَرَةٍ مِنْه تَمتَدُّ ما بين الشَّرْقِ والغربِ بظلٍّ واسعٍ مَبْسوطٍ يُغطِّي ما حَوْلَهُ. وهي ليستْ في الأعْيُنِ ك (ذاتِ أَنْواط). و(ذاتُ أَنْواط) – كما يَعلَم الشيخُ – شجرةٌ كانوا يُعظِّمونَها في الجاهلية. وقد رُوِيَ أنَّ بعضَ الناس قال: "يا رسولَ الله اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط". وقال بعض الشعراء:

لنــا المُهَيْمِــنُ يكفينــا أعاديَنــا كمــا رَفَضْنــا إليــهِ ذاتَ أنــواطِ[1]

والوِلْدانُ المُخَلَّدونَ في ظِلالِ تلك الشجرةِ قِيامٌ وقُعودٌ، وبالمَغْفِرَةِ نيلَتِ السُّعودُ. وهؤلاء الوِلْدانُ يقولونَ – واللهُ القادرُ على كلِّ شيءٍ عَزيزٍ – "نحن وهذه الشجرةُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ لعليِّ بنِ مَنصورٍ، نُخَبَّأُ له إلى نَفْخِ الصُّورِ".

وتَجْري في أُصولِ ذلك الشجرِ أنهارٌ تُجَرُّ مِنْ ماءِ الحياة، والكوثرُ يَمُدُّها في كلِّ أوانٍ. مَنْ شَرِبَ مِنْها الجُرعةَ فلا مَوْتَ. قد أَمِنَ هنالكَ انْقِضاءَ العُمْرِ. وتجري

1- يفتخر الشاعر بأنَّ له الله المهيمن، وأنه مِمَّنْ رفض الوثنية المتمثلة بذات أنواط التي كان المشركون يتعبدون بها في الجاهلية.

أيضاً جَداوِلُ مِنَ اللبنِ واسعاتٌ لا تَتَغيَّرُ بأنْ تَطولَ عليها الأوقاتُ. وتجري أنهارٌ مِنَ المِسْكِ والرَّحيقِ المَخْتومِ، عزَّ اللهُ المُقتَدِرُ على كلِّ أمْرٍ مَحْتومٍ بِمشيئتِهِ. وتلك هي الراحُ الدائِمَةُ لا الذَّميمَةُ، ولا التي تَعيبُ صاحِبَها إنْ شَرِبَها. بل هي كما قال (عَلقمةُ)[1] مُفْتَرِياً كَذِباً ولم يَكُنْ لعفْوٍ مِنَ اللهِ طالِباً:

تَشــفي الصُّداعَ ولا يُؤذيه صالِبُها ولا يخالِـطُ منها الــرأسَ تَدْويمُ[2]

وهذه الراحُ يَعْمِدُ إليها الذي يَغْتَرِفُها بكؤوسٍ مِنَ العَسْجَدِ، وبأباريقَ خُلِقَتْ مِنَ الزبرجدِ. ينظُرُ إليها الناظِرُ فيحلَمُ بما حَلَمَ به (أبو الهنديِّ)[3] رَحِمَهُ اللهُ. فلقد آثَرَ شرابَ الدنيا الفانيةِ، ورغِبَ في الشهواتِ الدنِيَّةِ الدانِيَةِ. ولا شكَّ أنَّ الشيخَ الجليلَ يَروي ديوانَه. و(أبو الهندي) هو القائلُ:

سيُغني أبا الهنديِّ عن وَطْبِ سالمٍ أباريقُ لــم يَعْلَقْ بها وَضَــرُ الزُّبْدِ
مُقَدَّمَــةٌ قَــزّاً كأنَّ رِقابَهــا رِقابُ بَناتِ المــاء أفزعَها الرعدُ[4]

ملاحظة

وهذان البيتان يُنشَدان هكذا على (الإقْواء). والإقْواءُ هو اخْتلافُ حَركةِ الحرفِ الأخيرِ مِنْ بيتٍ إلى بيتٍ. وبعضُهم يُنشِدُ

رقابُ بناتِ الماء ريعَتْ من الرعدِ

1- (علقمة بن عبدة) شاعر جاهلي مِنْ بني تميم. ويقال له: علقمة الفحل. وسبب هذه التسمية أنه احتكم مع امرئ القيس إلى أم جُندب امرأة امرئ القيس. فطلبت منهما أن يقولا شعراً في وصف الخيل على وزن واحد وقافية واحدة. فحكمت لعلقمة. فطلقها زوجُها فتزوجت علقمة. أدرك الإسلام ولم يُسلِم. ولد حوالي عام 20 قبل الهجرة 603 م.

2- صالِبُ الخمر: حُمياها وأثرُ السُّكْر فيها. و(التدويم) هو الدوار الذي يعقب السُّكْر.

3- (أبو الهندي): هو عبد المؤمن بن عبد القدوس من يربوع. شاعر مشهور فصيح أدرك الدولتين الأموية والعباسية. وقف شعرَه على وصف الخمر. وهو أول من وصفها من شعراء الإسلام. وكان قومه من أسياد الكوفة. فهبط به وصفُه للخمر.

4- (الوَطْبُ): إناء اللبن. (الوَضَر): الوسخ. (الزُّبد): السمن أو ما نسميه اليوم: الزبدة. (القَزُّ): المستعِدُّ للوثب. (بنات الماء) بنات البحر مِنَ الأسماك وغيرها. والمعنى أنَّ أبا الهندي يَستغني عن إناء اللبن الذي لسالم، بأباريقِ الخمر التي لم يَعْلَقْ بها وسخُ اللبن حينما يُمخَضُ لاستخراج السمن. وهذه الأباريق تبدو كأنها مستعدة للقفز فتطولُ رقابها كأنها أسماك البحر التي فزعت من صوت الرعد.

والروايةُ الأولى إنشادُ النحويين شاهداً على الإقواءِ.

و(أبو الهنديِّ) إسلامِيٌّ. واسمُهُ (عبدُ المؤمن بنُ عبدِ القدوس). وهذان اسمان شرعيان. وما اسْتَشْهَدَ أحدٌ بهذا البيتِ إلا كان قائلُه (أبو الهندي) عندَه فصيحاً. فإنْ كان (أبو الهندي) مِمَّنْ كتبَ وعرفَ حروفَ المُعْجَمِ فقد أساءَ في الإقواءِ. وإنْ كان بنى الأبياتَ على السكونِ فقد صحَّ قولُ (سعيدِ بنِ مَسْعَدةَ)[1] في أنَّ البحرَ الطويلَ مِنَ الشعرِ له أربعةُ أَضْرُبٍ[2].

عودةٌ إلى السياق

ولو رأى تلك الأباريقَ (أبو زُبَيدٍ)[3] لعلِمَ أنَّه أمامَ صُنْعِها الدقيقِ يُشْبِهُ العبدَ الذي يُتقِنُ صِناعةَ أمثالِها ولا يَصِلُ إلى مَرْتَبةِ صُنْعِها، أو أنَّه يُشبهُ عُبَيْداً مُبْتَدِئاً في الصِّناعَةِ، وأنَّه ما تغزَّل بخيرٍ، وأنه رَضِيَ بأباريقَ قليلةِ الصِّناعةِ، وهَزِئَ بقولِه:

وأباريــقُ مثــلُ أعنــاقِ طَيْــرِ الـــ ماءِ قــد جِيــبَ فوقَهُــنَّ خَنيفُ[4]

هيهات. أباريقُ الجنةِ هذه أباريقُ، تَحْمِلُها أباريقُ، كأنها في الحُسْنِ الأباريقُ. فالأولُ هي الأباريقُ المَعْروفةُ. والثانيةُ مِنْ قولِهم: جارِيةٌ إبْريقٌ. إذا كانت تبرُقُ من حُسْنِها. قالَ الشاعرُ:

1- (سعيد بن مسعدة): أبو الحسن. الأخفش الأوسط. مولى بني مجاشع. من كبار النحويين البصريين. ويُعتَبَر أعلَمَ مَنْ تلقى العلمَ عن سيبويه. توفي عام 210 هـ 825 م.

2- للبحر الطويل ثلاثة أضرب: مقبوض (مفاعلن) وهو الأصل في وزن هذا البحر. وتام (مفاعيلن). ومحذوف (فعولن). فإن بنى الشاعرُ الأبياتَ على سكون الحرف الأخير كان الضرب الرابع الذي أشار إليه المعري هو (فعولان).

3- (أبو زُبيد الطائي): هو حَرْمَلَة بن المنذر. جاهلي نصراني أدرك الإسلام ولم يُسلِم ومات على نصرانيته. وكان نديمَ الوليد بن عقبة بن أبي معيط والي الكوفة لعثمان بن عفان. فلما عزله عثمان لشربه الخمر قال أبو زبيد قصيدة طويلة كان منها هذا البيت الذي سيأتي الاستشهاد به.

4- (جِيبَ): مِنْ جابَ. يقال: جابَ الطيرُ: انقضَّ. وجاب فلانٌ الشيءَ: قطعه. ومنه قول النبي (ص): (الإسلام يجبُّ ما قبله). ويقال للذي قُطِعَ ذَكَرُه: المَجبوب. (الخَنيف): الثوب الغليظ الأبيض من الكتان. والمعنى أنَّ هذه الأباريق تشبه أعناقَ طيور الماء وقد أُلْقِيَ فوقها ثوبٌ أبيض غليظ من الكتان. ونلاحظ هنا أن أبا زبيد وأبا الهندي شبَّها أباريق الخمر بالأسماك التي ترفع رأسها.

وغيـداءَ إبريـقٍ كأنَّ رُضابَهـا جَنى النَّحْلِ مَمْزوجاً بِصَهْباءِ تاجرِ[1]

والثالثةُ مِنْ قولِهم: سَيفٌ إبريقٌ. مأخوذ من البَريقِ. قالَ (ابنُ أحمر):

تقلَّـدْتَ إبريقـاً وعلَّقـتَ جَعْبـةً لِتُهلِـكَ حيَّـاً ذا زُهـاءٍ وجامِـلِ[2]

ولو نظرَ إلى تلك الأباريقِ (علقمةُ بنُ عبدة) الفحلُ لانْدَهَشَ وتحَيَّرَ لِما هي عليه، وخافَ وظَنَّ أنَّه فَقَدَ عَقْلَهُ. وكيف يُمْكِنُ أنْ يراها المسكينُ علقمةُ؟ فلعله في نارٍ لا يَنقُصُ أُوارُها. وماؤها للشاربِ مِنْهُ حارٌّ مُتَوقِّدٌ. وما (ابنُ عبدة) هذا وما فَريقُه؟ خَسِرَ وكُسِرَ إبريقُه. أليس هو القائلَ:

كأن إبريقَهـم ظبـيٌ برابِيَـةٍ مُجَلَّـلٌ بسَـبا الكَتَّـانِ مفـدومُ
أبيـضُ أبْـرزه للضَّـحِّ راقِبُـه مُقَلَّـدٌ قُضُـبَ الرَّيْحـانِ مَفْغومُ[3]

1- (الغَيْداء): الفتاة التي تمشي فتتمايل وتتثنى. من (الغَيَد). و(التاجر): هو الذي يبيع ويشتري. ثم غلب اسم التاجر في ذلك العصر على مَنْ يبيع الخمر. و(الصهباء): الخمر. والمعنى أنَّ ريق هذه الفتاة يشبه العسل ممزوجاً بخمر.

2- (ابن أحمر): عمرو من بني معن الباهلي. وكان أعور. رماه رجل بسهم فذهبت عينه. و(الجَعبة): وعاء السهام. (الزُّهاء): طولُ الجسم ومتانته. و(الجامل): ذو جمال. والشاعر ولد ونشأ في نجد. وأدرك الإسلام وأسلم وقاتل مع خالد بن الوليد وشارك في الفتوحات. قيل إنه عاش تسعين سنة. وتوفي عام 75 هـ 694 م. والمعنى أن هذا الرجل تقلد سيفاً إبريقاً ليقتل رجلاً ذا قوة وجمال.

3- (مجَلَّلٌ): أُلقِيَ عليه الثوبُ. (السَّبا): مُرَخَّمة ترخيماً غير قياسي. وأصلها: (السبائب). وهي القماش المزخرف. (مَفْدوم): مغَطًّى. من (فَدَمَ الإبريقَ): غطاه. (الضَّحُّ): الشمس. (الراقب): المُراقب. (مُقَلَّدٌ قُضُبَ الريحان): مُحَمَّلٌ بأغصان الريحان. يقال (تقلَّد سيفاً): حمله. (مَفْغوم): مُطيَّبٌ بالرائحة الزكية. من (فَغَمَ الإناءَ): ملأه. و(فَغَمَ الطيبُ فلاناً): ملأ أنفه. والشاعر يشبِّه إبريق الخمر بظبي وضعوه على رابية وغطَّوه بالكتان المزخرف. وهو أبيض وضعه مراقبه في الشمس بعدما وضع عليه الريحان ذا الرائحة الزكية. ونلاحظ هنا أن أبا زبيد شبه الأباريق بأعناق الطير التي غُطِّيت بالكتان في قوله الذي مر معنا:

وأباريقُ مثلُ أعناقِ طير الـ ماءِ قد جيبَ فوقهن خَنيفُ

وعلقمة شبه الأباريق بالظبي المغطى بالكتان.

والبيتان من ميمية علقمة التي أولها: (هل ما علِمتَ وما استُودِعْتَ مَكتوم)؟

إنَّ نظرةً إلى تلك الأباريقِ خيرٌ مِنْ بنتِ الكَرْمةِ العاجلية[1]، ومِنْ كلِّ ريقٍ ضَمِنتْه هذه الدارُ الخادِعَةُ، التي هي لكل حَمِيَّةٍ وشَمَمٍ قاطِعَةٌ وجادِعَة[2].

ولو رآها (عَدِيُّ بنُ زيدٍ)[3] لَشُغِلَ عن المُدامِ والصَّيْدِ، واعترفَ بأنَّ أباريقَ مُدامِهِ لا تساوي نبتةً في الرملِ أو جَرادةً في البَرِّ.

وكنت في مدينة السلامِ (بغدادَ) فشاهدْتُ بعضَ الورَّاقين[4] يَسألُ عن قصيدةِ (عَديِّ بن زيد) التي أولُها:

بَكَـرَ العـاذِلاتُ في غَلَـسِ الصُّبْـ ... ـحِ يُعاتِبْنَـه: أمـا تَـسـتَفيـقُ؟
ودَعـا بالصَّبـوحِ فجْـراً فجـاءتْ ... قَيْنَـةٌ فـي يَمينِهـا إبْريـقُ[5]

وزعمَ ذلك الورَّاقُ أنَّ (ابنَ حاجِبِ النعمان[6]) سألَ عن هذه القصيدةِ فطُلِبَتْ في ديوانِ (عدي) فلم توجَدْ.

فأما (الأُقَيْشِرُ الأسدي)[7] فإنه مُنيَ بالحِصانِ الخاسِرِ، وشَقِيَ إلى يومِ القيامةِ (الحاشِرِ) الذي يُحشَرُ فيه الناسُ جميعاً. فقال ولعله سيندم حين يتقشَّر جِلدُه في قبرِه:

1- (بنت الكرمة): الخمر. و(العاجلية): هي الدنيا العاجلة.

2- (الجادعة): القاطعة. يقال في المثل: (لأمرٍ ما جَدَعَ قَصيرٌ أنفَه).

3- (عدي بن زيد التميمي): شاعر جاهلي نصراني مشهور. كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف الوارفة. فلانَ لسانُه ولطُف منطِقُه. والحيرة مدينة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة. كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من بني نصر ثم من بني لخم. وكان يجيد الفارسية. وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى. وكان ترجماناً له. توفي عام 35 قبل الهجرة 587 م.

4- الورَّاق هو الذي كان يكتب الكتب.

5- (الغلس): ظُلمةُ آخر الليل. (الصَّبوح): الخمر التي تُشرَب في الصباح. (القَيْنَة): الأمة. ويُطلَق هذا الاسم غالباً على المُغنية. والمعنى أن العاذلاتِ جِئْنَه في الصباح الباكر يعاتِبْنَه ويقلن له: أما تستيقظُ من نومك؟ فكان جوابه أنْ دعا بخمر الصباح فجاءته قينة تحمل إبريق الخمر.

6- (ابن حاجب النعمان): هو أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم. قال بعضهم إنه لم يشاهِدْ خزانةَ كتب أحسن من خزانته. وكان مسؤولاً عن ديوان أرض السواد في أيام معز الدولة البويهي. توفي بعد عام 312 هـ 924 م.

7- هو (المغيرة بن الأسود) من بني أسد بن خزيمة. أموي. كان من ماجني الكوفة وأصحاب الشراب. هجا عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير.

أفنى تِلادي وما جمَّعتُ من نَشَــبٍ قــرعُ القواقيــزِ أفــواهَ الأباريقِ[1]

فما هو؟ وما شرابُهُ؟ استهلَكَ في هذه الدنيا الخائِنَةِ مَقاصِدَه ومَآرِبَهُ. لو عايَنَ أباريقَ الجَنةِ تلك، لَأيقنَ أنه فُتِن بالغُرورِ، وسُرَّ بغيرِ مُوجِبٍ للسُّرور. وكذلك (إياسُ بنُ الأرتّ)[2]. إن كانَ عَجِبَ لِأباريقَ كإوزِّ الطَّفِّ، فإنَّ الحَوادثَ بسطتْ له أقبضَ كَفٍّ. فكأنه ما قالَ:

كأنَّ أباريــق المُدامــةِ بينهُــمْ إوزٌّ بأعلى الطَّفِّ عُوجُ الحَناجِرِ[3]

ورَحِمَ اللهُ (العَجَّاج)[4] فإنه خَلَطَ في رَجَزِه الخَمْرَ الكثيفَ مِنْ قِلَّةِ مَزْجِه بالماءِ، والخمرَ الرقيقَ مِنْ كَثْرَةِ مَزْجِهِ بالماءِ. فكأنه خَلَطَ لبناً خاثِراً بلبنٍ مائِعٍ. وأينَ إبريقُه الذي ذكَرَهُ فقالَ:

قَطَّــفَ مِــنْ أعنابهــا مــا قَطَّفــا فغمَّهــا حَوْليــن ثــم اســتَوْدَفا
صهبــاءَ خُرطومــاً عُقــاراً قَرْقَفــا فَسَــنَّ فــي الإبريــقِ مِنْهــا نُزُفــا
مِنْ رَصَفٍ نــازعَ سيلاً رَصَفا[5]

1- (التِّلاد): المال الأصلي القديم. (النَّشَب): المال. (القواقيز): ج قاقوزة. وهي القدح الصغير. يقول الشاعر إنَّ قرعَ القواقيز لأفواه الأباريق – كناية عن إسرافه في شرب الخمر – أفنت ما ورثه من مال وما جمعه منه.

2- هو (إياس بن خالد الطائي الأرتّ). وغلب على أبيه هذا اللقب من الرَّتَّة. وهي حُبْسَةٌ في اللسان.

3- (الطَّف): شاطئ النهر أو البحر. (العُوج): جمع أعوج وهو المائل. والشاعر يشبه الأباريقَ بإوز يسرح على الشاطئ متلفتاً حتى اعوجَّت رِقابه. ونلاحظ هنا أيضاً أن الشاعر لم يبتعد في وصف الأباريق عن الماء وعن تشبيهها بالحيوانات اللطيفة.

4- (العجاج أبو رؤبة بن عبد الله بن رؤبة التميمي). ولد في الجاهلية وأدرك الإسلام. ويكنى أبا الشعثاء وهي ابنته. وسمي (العجاج) من قوله: حتى يعِجَّ عندها عجيجاً. والعَجيجُ رفعُ الصوت. توفي عام 90 هـ 709 م في خلافة الوليد بن عبد الملك. عُمِّر وفُلِج في آخر عمره. وهو من أشهر الرجازين.

5- (غَمَّها) أخفاها. (استَوْدَفَ): انتظر. (الصهباء) نوع من الخمر يكون لونها أحمر أو أشقر. وتسمى الفتاة ذات الشعر الأحمر أو الأشقر: الصهباء. (الخرطوم): الخمر السريع الإسكار. (العُقار): التي تعقر عقل شاربها فتجعله يسكر بسرعة. (القرقف) الباردة. (سنَّ عليه الماءَ) صَبَّه. (النُزَف): ج نُزْفَة. وهي القليل من الماء. (الرَّصَف): الحِجارة المرصوفة إلى جانب بعضها البعض. والمعنى أنه قطف العنبَ وعتَّقه عامين ثم انتظر عليه. فجاءت خمرتُه ذاتَ لون أحمر أو أشقر. وهي تُسكِر صاحبها =

وكم على أنهارِ الجنة مِنْ آنِيَةِ زَبَرْجَدٍ مَنْقوش، وياقوتٍ خُلِقَ على هَيْئةِ الظِّباءِ ذاتِ اللونِ الأصفرِ والأحمَرِ والأزرقِ. ومِنْ شِدَّةِ لَمَعانِها يَظُنُّ المرءُ أَنَّه إنْ لَمَسَها أَحْرَقَ يدَه كما قالَ (الصَّنَوْبَرِيُّ)[1]:

تَـخيّـلُـهُ سـاطِـعـاً وهُـجُـه فتأبـى الدُّنُـوَّ إلـى وَهْجِـهِ

خمر الجنة

وفي تلك الأنهارِ أوانٍ على هيئةِ الطيرِ التي تَسْبَحُ أو تلك التي لا تَسبحُ. فمِنْها ما هو على صُوَرِ طائرِ الكراكي الكبيرِ الطويلِ العُنُقِ والرِّجْلَيْنِ، ومِنْها ما هو على صُوَرِ طائرِ المكاكي الصَّغيرِ. ومِنْها ما هو على صُوَرِ طواويسَ وبطٍّ. فبعضٌ مِنْها يَسْبحُ في الأنهارِ وبعضٌ مِنْها يبقى على الشَّطِّ. وكلها يَنْبُعُ مِنْ أفواهِها شرابٌ كأنه مِنَ الرِّقَّةِ سَرابٌ. لو (جَرَعَ) مِنْهُ (الحَكَمِيُّ)[2] جُرعَةً، لَحَكَمَ أَنَّ الفَوْزَ بهذا الشرابِ هو الفوزُ الأبديُّ. وهو شرابٌ يَشهَدُ كلُّ وَصَّافٍ للخمرِ مِنَ المُحْدَثين ومِنَ القُدماءِ، أَنَّ أصنافَ الأَشْرِبَةِ المَنْسوبةِ إلى الدارِ الفانيةِ كخَمرِ مدينةِ (عانةَ) في الجزيرةِ وخمرِ (أَذْرِعات) في بلادِ الشامِ التي يتبارى الوصَّافون في وَصْفِها، وخمرِ (غزة) في فلسطينَ وخمرِ (بيت راس) التي في بيتِ المقدسِ، و(بيت راس) التي قُرْبَ حلبَ وخمرِ (بصرى الشام) التي كانت تُحمَلُ إلى المُدُنِ الأخرى للمتاجَرَةِ بها في أوقاتِ الحَجِّ قبل أَنْ تُحَرَّمَ الخَمْرُ التي هي القَهَوات، وقبل أَنْ تُحْظَرَ لِخوفِ الله مِنَ الشَّهواتِ، والخمرِ التي تُعتَصَرُ في مدينة (صرخد) في بلاد الشامِ لكل مَلِكٍ لطيفٍ،

= بسرعة مِنْ كثافتها. ثم صبَّ بعضها في الإبريق. ثم خلطها بماء مُنْحَدِر من أعالي الجبال. وهذا الماء مُختلِطٌ بماء آخر منحدرٍ من سيل جبل آخر. واعتراضُ المعري على هذا الشعر أن هذه الخمرة الكثيفة التي صَبَّ منها صاحبُها قليلاً منها في الإبريق، خلطها بكثير من الماء. فكأنه جمع بين اللبن الخاثر الكثيف وبين اللبن الكثير الماء.

1- (الصنوبري): أبو بكر أحمد بن محمد الضَّبي الحلبي. توفي عام 334 هـ 945 م. و(تَخيَّلُه): تتخيله. حذف التاء الأولى للتخفيف.

2- (الحكمي): أبو نواس الحسن بن هانئ الشاعر العباسي. عُرِفَ بالمُجون وبأنه أشهَرُ مَنْ وصَفَ الخمر. ولد عام 145 هـ 762 م. وتوفي في بغداد في خلافة الأمين بن الرشيد عام 195 أو 196 هـ 811 م.

وكلِّ الخمورِ المنسوبةِ إلى المدنِ المشهورةِ بصُنْعِها، وكلِّ ما كان يُصْنَع مِنْ أجناسِ المُسْكِراتِ التي تُحمَل للأشراف والسادةِ، وكلِّ ما صُنِع مِنْ أيامِ (آدمَ) و(شيثٍ) إلى يومِ القيامةِ، لا تُوازي تلك الخمرةَ التي تقذِفُها تلك الطيورُ على تلك الأنهارِ. فإذا كانت الجُرْعَةُ من خَمْرِ الجنة مَلِكَةً، فإنها لا تصْلُحُ أنْ تكون لرعاياها شَبيهَةً.

ويُجاوِرُ تلك المُدامةَ أنهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ما جنتْ مثْلَهُ النحلُ الغادِيةُ إلى الأزْهارِ، ولا هو موضوعٌ في شَمْع مُخَبَّأٍ مُتَوارٍ. ولكنْ قالَ له العزيزُ القادِرُ: "كن". فكانَ. لأنه بِكَرَمِهِ يُكَوِّنُ المخلوقاتِ كما يُريدُ.

واهاً لعسلِ الجنةِ ذاك. فهو لم يَكُنْ بالنارِ مَطبوخاً وليس حامِضاً. لو جَعَلَهُ الشاربُ المريضُ غِذاءَه طولَ الأبَدِ، ما جاءه عارِض مِنْ بُثورٍ تسمى "المُومَ"، ولا لبسَ ثوبَ المَحْموم. وذلك كلُّه بدليلِ قوله تعالى (مَثَلُ الجنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ فيها أنهارٌ مِنْ ماءٍ غيرِ آسِنٍ وأنهارٌ مِنْ لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه وأنهارٌ مِنْ خَمرٍ لذةٍ للشارِبين وأنهارٌ مِنْ عَسَلٍ مصفًّى ولهم فيها مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ)[1].

فليت شعري عن "النَّمِرِ بن تولب العُكْليِّ"[2]. هل يُقَدَّرُ له أنْ يَذوقَ ذلك العسلَ الأبيضَ المُصَفَّى فيعلمَ أنَّ شُهْدَ الدارِ الفانِيَةِ إذا قيسَ إلى عسلِ الجنةِ وُجِدَ مُشابِهاً للحَنْظَل. فهو لَمَّا وَصَفَ (أمَّ حِصْنٍ) وما رُزِقَتْهُ من الطعامِ وهي في حالِ الدَّعَةِ والأمْنِ، ذَكَرَ الدقيقَ الأبيضَ – وهو الحُوَّارى – مَخلوطاً بالسمن، كما ذَكَرَ العسلَ المُصَفَّى. فرَحِمَهُ الخالقُ مُتَوفّى. فقد كان أسلَمَ وروى حديثاً مُنْفرداً. وحسبُنا به أنه روى ذلك الحديثَ. قال النَّمِرُ المِسكينُ:

أَلَـمَّ بصُحْبتـي وهُـمُ هُجـوعٌ خَيـالٌ طـارِقٌ مِـنْ أُمِّ حِصْـنِ
لهـا مـا تشـتهي: عسـلاً مُصَفًّـى إذا شـاءت وحُـوَّارى بِسَـمْنِ

1- من الآية 15 من سورة محمد.

2- (النَمِرُ بن تولب): بن زهير من عُكْل. شاعر مُخضرم. من الفرسان المعدودين. أدرك الإسلام وأسلم وله صُحبة. سماه أبو عمرو بن العلاء: "الكَيِّس" لجودة شعره. وله حديث نبوي منفرد أشار إليه المعري كما سيأتي. توفي عام 14 هـ 635 م.

والشيخُ الجليلُ – أدامَ اللهُ تَمْكينَهُ – يعرِفُ حِكايةَ (خَلَفِ الأحمر)[1] مع أصحابِه في هذين البيتين. ومعناها أنه قال لهم: "لو كانَ موضعَ (أمِّ حِصنٍ) (أمُّ حفصٍ) ما كانَ يقولُ في البيتِ الثاني؟". فسكتوا. فقال: "حُوَّارى بلَمْصِ. يعني الفالوذج"[2].

ويُفَرَّع على هذه الحكايةِ فيُقالُ: "لو كانَ مكانَ (أمِّ حِصْنٍ) (أمِّ جَزءٍ) ما كان يقولُ في القافية الثانية؟". فإنه يُحتَملُ أنْ يقولَ: (حُوَّارى بكَشْءٍ) مِنْ قولِهم: كَشَأْتُ اللحمَ: إذا شَوَيْتُه حتى يَيْبَسَ. أو يقولَ: (بِوَزْءٍ) مِنْ قولِهم: وَزَأْتُ اللحمَ إذا شويته. ولو قال: (حُوَّارى بنَسْءٍ) لَجازَ. وأحسنُ تأويلٍ له أنْ يكونَ مِنْ قولِنا: (نَسَأَ اللهُ في أجلِهِ). أي: لها خُبزٌ مع طولِ حَياةٍ. وهذا أحسنُ مِنْ أنْ يُحمَلَ النَّسْءُ على أنَّه اللبنُ الكثيرُ الماء. وقد قيل: النَّسءُ: الخمرُ. وفَسَّروا بيتَ (عروةَ بنِ الوردِ)[3] على الوَجْهَيْنِ:

سَــقَوْني النَّــسْءَ ثــم تَكَنَّفونــي عُــداةُ اللــهِ مِــنْ كَــذِبٍ وزورِ[4]

ويمكن استبدالُ الاسمِ الأخيرِ على كُلِّ حُروفِ المُعْجَمِ.

***

ولو خالطَ مقدارُ مِكْيالٍ صَغيرٍ مِنْ عَسَلِ الجنةِ كلَّ ما خَلقَهُ اللهُ – سبحانه – مِنْ

1- (خَلَف الأحمر): هو خلف بن حيان أبو محرز. من نُحاة البصرة المتقدمين. كان يقول الشعر ويرويه. وهو معلم الأصمعي وأبي نواس والكسائي. فهو معلم أهل البصرة. كان يقول الشعر ويجيده. وكان يقول شعراً وينسبه إلى فلان أو فلان فلا يتميز عن شعر الذي نسبه إليه. توفي حوالي عام 180 هـ 796 م

2- (الفالوذج): نوع من الحلوى يصنع من الدقيق والسكر.

3- (عروة بن الورد بن زيد العبسي) شاعر جاهلي من غطفان. وكان يُلَقَّبُ (عروةُ الصعاليك) لأنه كان من صعاليك العرب المشهورين في الجاهلية. كان يسرق من الأغنياء ليطعم الفقراء. والبيت المُشار إليه من أبيات قالها في زوجته أم عمرو. توفي عام 30 قبل الهجرة 594 م.

4- (تكنَّفوني): أحاطوا بي. من (تكنَّف القومُ فلاناً): أحاطوا به. و(العُداة): ج عادٍ: أي العدو. والمعنى أن أعداء الله سَقَوْه الخمرَ ثم أحاطوه بالكذب وقول الزور.

والمعري بعد هذا البيت يأتي ببقية أسماء المرأة على كل حرف من حروف المعجم بدءاً من الهمزة. فبعد (أم نسء) يأتي (بأم لزء). ثم بـ (أم حرب). ثم بـ (أم صمت). وهكذا حتى (أم دوٍّ) و(أم شَريٍ). ومع كل اسم يأتي بالشواهد. وقد اكتفينا بهذا القدر من الأسماء.

أنواعِ النباتاتِ المُرَّةِ الطَّعْمِ في هذه الدنيا الفانيةِ، لَصارَ يُعَدُّ مِنَ اللذائذ المُشْتَهَياتِ. فصارَ ما كُرِه مِنْ شجرِ (الصَّابِ) الشديدِ المرارةِ كأنه مُعْتَصَرٌ مِنْ قَصَبِ السُّكَّرِ. وأمسى نباتُ الحَنْظَلِ كأنه السُّكَّرُ. ولو تَمَّ ذلك لانقَطَعَتْ مَعايِشُ أَصْحابِ صُنْعِ قَصَبِ السُّكَّرِ في ساحِلِ البحرِ، وصُنِعَ مِنَ النباتِ المُرِّ الشَّديدِ المرارةِ الفالوذجُ المُحْكَمُ الصُّنْعِ.

ولو أنَّ (الحارثَ بنَ كَلْدَة)[1] أكلَ مِنْ ذلك العسلِ لَعَلِمَ أنَّ الذي وصَفَه يَجْري مِنْ هذا العسلِ المَوْصوفِ مَجْرى نَباتِ الدِّفْلى المُرِّ الطَّعْمِ أو مَجْرى المَخْلوطِ بِما هو مَكْروهٌ مِن عسلِ قصبِ السكر. وقد ذكرتُ (الحارثَ بنَ كَلْدَةَ) بقولِهِ:

فما عسلٌ ببارِدِ ماءِ مُزنٍ على ظَمَأٍ لشاربِه يُشابُ
بأشهى مِنْ لُقَيِّكُمُ إلينا فكيفَ لنا بـه ومتى الإيابُ؟[2]

وكذلك العسلُ السَّلْوَى - وقد سُمِّيَ بالسَّلوى لأنه يُسلِّي آكِلَهُ - الذي ذكرَهُ (أبو ذؤيبٍ الهُذَلي)[3] هو عند عسلِ الجنة كأنَّه شجَرُ القارِ المُرِّ الذي يَنْبُتُ في الرملِ. وذلك في قولِهِ:

فقاسَمَها باللهِ جَهداً لَأنتمُ ألذُّ مِنَ السَّلوى إذا ما نَشورُها[4]

وإذا منَّ اللهُ تباركَ اسمُه بِورودِ تلك الأنهارِ التي تَجْري في أصولِ شجرِ الجنةِ، صادَ فيها الوارِدُ سَمَكَ حَلاوةٍ لم يُرَ مِثْلُه في أيِّ زمان. ولو بَصُرَ بهذا السَّمَكِ (أحمدُ بنُ الحسين) المتنبي، لَاحْتَقَرَ الهديةَ التي أُهْدِيت إليه فقالَ فيها:

1- (الحارث بن كِلْدَة بن عمرو الثقفي). ولد في الطائف. تعلَّم الطبَّ في اليمن ثم في بلاد فارس فصار طبيب العرب المشهور. وكان شاعراً حكيماً وعَدَّاءً. وكان يُضرَبُ به المثلُ في الجري. كما كان يضرب على العود لأنه تعلَّم الموسيقى في فارس. وكان طبيب كسرى أنو شروان. توفي عام 13 هـ 670 م.

2- معنى البيتين أن العسل البارد المخلوط بماء المطر ليس أشهى عند الشارب الظمآن من الالتقاء بكم. فكيف يتم هذا اللقاء؟ ومتى إيابكم إلينا؟

3- هو (أبو ذؤيب الهذلي) من شعراء صدر الإسلام. مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. جاء إلى المدينة بعد وفاة النبي (ص) وسكنها. مات في غزوته لشمالي إفريقية عام 27 هـ 648 م.

4- (نَشورُها): نستخرجها مِنْ مكامنها. من (شارَ العسلَ): استخرجه. ومعنى البيت أنَّ الشاعر أقسم أمامها بالله أنها ألذ من العسل الذي نستخرجه من مكامنه.

أَقَـلُّ مـا فـي أَقَلِّهـا سَـمَكٌ يَلْعَـبُ فـي بِركةٍ مِـنَ العَسَـلِ[1]

فأما الأنهارُ الخَمْريةُ، فتلعبُ فيها أسماكٌ على صُوَرِ السَّمَكِ بَحْريةً ونهريةً وما يَسْكُنُ مِنْهُ في العيونِ النَّبْعِيَّةِ إلا أنها مِنَ الذهبِ والفضةِ وصُنوفِ الجَوَاهِرِ الشَّبيهَةِ بالنورِ الباهِرِ. فإذا مَدَّ المؤمنُ يدَه إلى واحدةٍ مِنْ ذلك السمكِ، شربَ مِنْ أفواهِها ماءً عذباً لو وَقَعتِ الجُرْعةُ مِنْهُ في البحرِ الذي لا يستطيع ماءَه الشاربُ، لَحَلَتْ مِنْهُ أسافِلُ البحرِ وأعاليه، ولَصارتِ الرائِحةُ النتنةُ كأنها رائحةُ خُزامى أو رائحةُ خَمْرٍ خفيفةٍ لَطيفَةٍ مُعَبَّأةٍ في أَكْوازٍ صَغيرةٍ.

ندامى الفِرْدَوْس

وكأني بالشيخِ الجليلِ – أدامَ اللهُ الجمالَ ببقائه – إذا استَحَقَّ تلك الرتبةَ بيقينِ التوبةِ، قد اصْطَفى له نَدامى مِنْ أبناءِ الفردَوْسِ كـ(أخي ثُمالةَ المُبَرِّدِ) و(أخي دَوْسٍ محمد بن الحسين) و(يونسِ بنِ حَبيبٍ الضَّبِّيي) و(ابنِ مَسْعَدَة المُجاشِعِيِّ وهو الأخفش الأوسطُ)[2]. فهم كما جاءَ في الكتابِ العَزيزِ: (ونَزَعْنا ما في

1- هذا البيتُ من قصيدة للمتنبي ارتجلها في صباه حين أهدى إليه عُبيدُ الله بنُ خِلِّكان هديةً فيها سمك من سُكَّرٍ ولوز من عسل. وأولها:

قـد شَـغَلَ الناسَ كـثرةُ الأمـلِ وأنـت بالمكـرُمات في شُـغُـلِ

وفيها:

هـديـةٌ مـا رأيـت مُـهـديـهـا إلا رأيـتُ الأنـــامَ في رجـــلِ

2- (أخو ثُمالة): محمد بن يزيد. ويكنى أبا العباس وأخا ثُمالة. ولقبه (المبرِّد). صاحب كتاب (الكامل) الذائع الصيت. ولد عام 210 هـ 825 م. لقب بالمبرِّد لحسن وجهه وحسن حديثه. فهما يُبَرِّدان الناظر والمستمع. تعلم في البصرة. وكان يقال عنه إنه أعلم الناس بالنحو بعد سيبويه. توفي عام 286 هـ 899 م.

(أخو دوس): محمد بن الحسين بن دريد. كنيته أبو بكر. وموطنه البصرة. ولد ونشأ فيها وأخذ من علمائها. رحل إلى عُمان في أثناء فتنة الزَّنج في البصرة. فأقام فيها اثنتي عشرة سنة آخذاً اللغة والأدب. ثم رجع إلى البصرة. ثم إلى بغداد ومات فيها بعدما أصيب بالفالج. وذلك عام 286ه 899 م.

(يونس بن حبيب الضبي) من أكابر نحاة البصرة. أخذ عن أبي عمرو العلاء وعن سيبويه. ولد عام 94 هـ 713 م. وتوفي عام 183 هـ في خلافة الرشيد 798 م.

(ابن مَسْعَدة المُجاشعي) سعيد بن مسعدة أبو الحسن. مولى بني مُجاشع بن دارم. وهو الأخفش الأوسط. وقد مرت ترجمته.

صُدورِهم مِنْ غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين. لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم مِنْها بِمُخْرَجين)[1]. فصدْرُ (أحمدَ بنِ يحيى ثعلب) قد غُسِلَ مِنَ الحِقْدِ على (محمدِ بنِ يزيدَ)[2]. فصارا يتصافَيان وُيبدي كلُّ واحدٍ منهما الوفاءَ لِصاحِبِهِ كأنهما ندمانا (جَذيمَةَ)[3]: (مالكٍ وعَقيلٍ) أينما حَلَّا أو ارْتَحلا. و(أبو بِشْرٍ عمروُ بنُ عثمانَ سيبويه[4]) قد تخلَّصتْ سُوَيْداءُ قلبِه مِنَ الحِقْدِ على (عليِّ بنِ حمزةَ الكِسائي[5]) وأصحابِهِ لِما فعلوا به في مَجلسِ (البرامكة[6]). و(أبو عُبيدةَ[7]) صارَ صافِيَ الطَّوِيَّةِ لـ (عبد الملك بن قُرَيْب[8]). فارتَفَعَتْ نفساهُما عن الشكِّ والريْب. فهما كـ (أَرْبَدَ ولَبيدٍ)[9] أَخَوان.

1- من سورة (الحجر) الآيتان 47 و 48.

2- (أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني) أبو العباس مولى معن بن زائدة الشيباني. وهو المعروف بـ(ثعلب). إمامُ الكوفة في النحو واللغة في زمانه. وكان بينه وبين المبرِّد منافرة. وقد مرت ترجمته. و(محمد بن يزيد): المبرِّد. وسبقت ترجمته.

3-(جذيمة الأبرش) ملك الحيرة. وكان مالك وعقيل القُضاعيان نديميه. وقد بقيا على ذلك أربعين سنة. ثم قتلهما وندم. ويُضرَبُ بهما المثل على طول المنادمة.

4- مرت ترجمته

5- مرت ترجمته

6- (البرامكة): وبالفارسية (برمكيان). وهي عائلة ترجع أصولها إلى (برمك) المجوسي من مدينة (بلخ). صار لهم منزلة عالية في أيام العباسيين وخاصة في زمن هارون الرشيد. فقد أرضعته زوجة (يحيى البرمكي). فكان أخاً بالرضاعة لولديه (الفضل وجعفر). و(يحيى) هو الذي حفظ لهارون الرشيد ولاية العهد بعد أن حاول (الخليفة الهادي) نزع الولاية عنه. و(يحيى) هو الذي تولى تربية الرشيد. وعظم نفوذ البرامكة في عهد الرشيد مِمَّا أدَّى إلى إيغار صدر الخليفة عليهم. فسجنهم عام 187 هـ 803 م. وصادر أموالهم. وهذا ما يسمى (نكبة البرامكة).

7- (أبو عبيدة): مَعْمَر بن المثنى. مولى تيم القرشية. انفرد عن بقية الرواة بسعة حفظه لأخبار العرب وأنسابهم وعلومهم وآدابهم. وكان متعصباً على العرب. وكان شَتَّاماً لم يترك أحداً من الطعن فيه. وله كتاب (مجاز القرآن) الشهير. توفي عام 208 أو 209 هـ 823 م في عهد المأمون.

8- (عبد الملك بن قُرَيْب): الأصمعي صاحب النحو واللغة والأخبار. أكثر سماعه من الأعراب وأهل البادية. قدم بغداد أيام الرشيد فقرَّبه منه. كان واسع الرواية حاضر المحفوظ متبحراً في اللغة. ولد عام 121 هـ 739 م. وتوفي عام 216 هـ 831 م.

9- (لبيد بن ربيعة بن مالك العامري). أبو عقيل. من فحول شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات. وقد أسلم وامتنع عن قول الشعر. فلما سئل عن ذلك قال: (اكتفيت بالقرآن عن الشعر). عُمِّرَ طويلاً وتوفي عام 41 هـ 661 م.

و(أربد بن مقيس) أخوه لأمه. أتى النبي (ص) مع عامر بن الطفيل غير مسلمين. فدعا عليه النبي =

أو كـ (ابني نُوَيْرَة)[1] فيما سبقَ مِنَ الأوانِ. أو كـ (صَخْرٍ ومُعاويةَ)[2] وَلدَيْ عمروٍ وقد أَخْمَدا مِنَ الإحَنِ كلَّ جَمْرٍ: (والملائِكَةُ يَدخُلونَ عليهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ. سلامٌ عليكم بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبى الدارِ[3]).

وهو – أيَّدَ اللهُ العلمَ بِحياتِهِ – معهم كما قالَ الأعشى البكريُّ[4]

نازعْتُهُمْ قُضُبَ الريحان مُرْتَفِقاً ... وقَهْوةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ
لا يستَفيقون مِنْها وهي راهِنَةٌ ... إلا بهاتِ وإنْ علُّوا وإنْ نَهَلوا
يسعى بها ذو زُجاجاتٍ له نُطَفٌ ... مُقَلِّصٌ أسفلَ السِّربالِ مُعْتَمِلُ
ومُستَجيبٌ لصوت الصَّنْجِ يَسمعُهُ ... إذا تُرجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ[5]

= فأصابته صاعقة بعد انصرافه من المدينة. وقد رثاه أخوه لبيد بعدة قصائد منها اللامية التي مطلعها:

وأرى أربدَ قد فارقني ... ومِنَ الأرزاء رُزءٌ ذو جَلَلْ

1- ابنا نويرة (مالك ومتمم ابنا نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي). كان مالك شاعراً فارساً. استعمله النبي على صدقات قومه. فلما مات النبي أمسك الصدقات التي جمعها. فقتله خالد بن الوليد في حروب الردة. وحزن عليه أخوه متمم ورثاه بعدة قصائد.

2- (صخر ومعاوية) ولدا عمرو بن الحارث بن الشريد السُّلَمي. وأختهما تماضُر الخنساء صاحبة المراثي المشهورة فيهما. وهي من الصحابيات.

3- سورة الرعد. الآيتان 23 و24.

4- البكري هو (ميمون بن قيس) من قبيلة بكر بن وائل. لقبه الأعشى. ومسكنه الحيرة. من أكبر ما امتاز به شعره أن العرب كانوا يتغنَّوْن بشعره كما كان هو يفعل حتى سُمي "صَنَّاجة العرب".اشتُهِرَ بحبه للخمر وبوصفه. أدرك الإسلام ولم يسلم. توفي عام 7 هـ 629 م. وله قصة طريفة مع الإسلام. فقد جاء إلى المدينة ليلقى النبي. فخافت قريش من إسلامه حتى لا يمدح محمداً. فأخبرته أنه يحرم الزنا. فقال لهم إنه لم يعد بحاجة إلى النساء. فقالوا له إنه يحرم الخمر. فقال إنه لا يصبر عن الخمر. وسوف يشربها هذا العام ويعود إلى محمد في العام التالي. ثم مات.

5- (نازعتُهم): أخذتُ منهم وأعطيتُهم. (القُضُب): ج قضيب وهو الغصن. (المُرتَفِق) المتكئ على مِرفقه. (القهوة): الخمر. (المُزَّة): ما كان مِنَ الخمر بين الحلو والحامض. (الراووق): في الأصل هو المِصفاة. وراووق الخمر: إناء يَروق فيه الخمرُ ويصفو. (الخَضِل): الندي الرطب. (الراهنة): الدائمة. (عَلُّوا) شربوا الخمر مرة ثانية. (نَهلوا): شربوا الخمر أولاً. أي أنهم يشربون ثانية وإنْ شربوا في البداية. (النُّطَف): ج نُطْفة وهي القِرْط. أي أنَّ الذي يوزع عليهم الخمر يضع في أذنيه الأقراط. (السِّربال): الثوب. (مقَلِّص) رفع ثوبه فظهر ساقاه. (المُعْتَمِل): الدائب الحركة. (الصنج): من آلات الطرب. (تُرجِّع اللحن): تُعيده مرة بعد مرة برفع الصوت وخفضه وبشدة ولين. (الفُضُل): التي لا تلبس تحت ثيابها الخارجية شيئاً.

و(أبو عُبيدةَ مَعْمَرُ بن المثنى) يذاكِرُهم بوقائعِ العربِ ومَقاتِل الفرسانِ. و(الأصمعي) يُنشِدهم مِنَ الشعرِ ما أحسَنَ قائلُه كلَّ الإحسانِ.

وتشتهي نفوسُهم اللَّعِبَ فيقذِفون تلك الآنيةَ في أنهارِ الرَّحيقِ، ويمتزِجُ العسلُ الأبيضُ بتلك الآنيةِ. وتتقارَعُ تلك الآنيةُ فيُسمَعُ لها أصواتٌ تُبعَثُ بِمثلِها الأمْواتُ. فيقولُ الشيخُ – حسَّن اللهُ الأيامَ بطولِ عمرِهِ – : "آهِ لِمَصْرَعِ (الأعشى ميمون). كم ركبَ مِنَ المطايا الآمِنَةِ مُرْتحِلاً. ولقد ودِدْتُ أنه ما صَدَّته قريشٌ لمَّا توجَّهَ إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ. وإنَّما ذَكَرتُه الساعةَ لَمّا تقارعَتْ هذه الآنيةُ بِقولِهِ في (الحائية):

وشَمولٍ تحسَبُ العينَ إذا ... صُفِّقَتْ جُنْدُعُها نَوْرَ الذُّبَحْ[1]
مثلُ ريحِ المِسْكِ ذاكٍ ريحُها ... صَبَّها الساقي إذا قيل: تَوَحْ[2]
مِنْ زِقاقِ التَّجْرِ في باطيَّةٍ ... جَوْنَةٍ حاريَّةٍ ذاتِ رَوَحْ[3]
ذاتِ غَوْرٍ ما تُبالي يومَها ... غَرَفَ الإبريقُ منها والقدحْ[4]
وإذا ما الرَّاح فيها أزْبَدَتْ ... أَفَلَ الإزْبادُ عنها فَمَصَحْ[5]

1- (الشَّمول): الخمرة الباردة. سُمِّيت بذلك لأن ريح الشمال الباردة جعلتها باردة أو لأنها تشمُلُ الشاربين برائحتها. (صُفِّقت): مُزِجَت بالماء. (الجُندُع): فقاعة الماء. (النَّوْر): الزهر. (الذُّبَح): الجَزَر البري. لونُ زهره أحمر. والمعنى أن هذه الخمر يظن الناظر إليها أنَّ فقاعاتها زهر الجزر الأحمر إذا مُزِجت بالماء.

2- (ذاكٍ): من ذكا – يذكو. (ذكت النار) اشتدَّ لهيبُها. و(ذكت الريحُ): فاحت بالرائحة الطيبة. و(الذُّكاء): الشمس. ومنه (الذكي): الذي اتقد ذهنه وسَرُع فهمه. و(الذاكي) اسم الفاعل. (تَوَحّ): اسم فعل أمر بمعنى أسرع. يقال: (توحَّ يا هذا). إذا أمروه بالإسراع.

3- (الزِّقاق): ج زِق. وهو وعاء الخمر. (التَّجْر): اسم جمع لتاجر. والعرب تسمي بائع الخمر تاجراً. (الباطية): وعاء الخمر الكبير. أعلاها واسع وأسفلها ضيق. (الجَوْنة): ذات الشعاع الباهر (حاريَّة): نسبة شاذة إلى الحيرة. (رَوَح): اتساع. ومعنى البيت أنهم إذا قالوا للساقي أَسْرِعْ في صَبِّ الخمر فسوف يصبها من وعاء للخمر في كأس كبيرة ملتمعة جُلِبَت من الحيرة.

4- (الغَوْر): العمق. أي أن هذه الباطية عميقة ممتلئة لا تتأثر إذا غرف منها الإبريقُ والقدحُ.

5- (أزبدت): علاها الزبد وهو الرغوة. أَفَلَ: غاب. (مَصَحَ): زال. والمعنى أنه عندما تُزبِدُ الخمرةُ فإن زبدها يذهب بسرعة.

وإذا مَـكُّـوكُـهـا صـادَمَـهُ جانِباهـا كَـرَّ فيهـا وسَـبَحْ[1]
فَـتَـرامَـتْ بِـزُجـاجٍ مُعْمَلٍ يُخْلِـفُ النَّـازحُ مِنْهـا ما نَـزَحْ[2]
وإذا غـاضَـتْ رفـعْـنـا زِقَّـنـا طُلُـقَ الأوْداجِ فيهـا فانْسـفَحْ[3]

ولو أنَّه أسْلَمَ لَجازَ أنْ يكونَ بيننا في هذا المجلسِ، فيُنشِدَنا غريبَ الأوزانِ مِمَّا نَظَمَ في دارِ الأحزانِ، ويُحدِّثَنا حديثَه مع (هَوْذَةَ بنِ علي) و(عامرِ الطُّفيْل) و(يزيدَ بنِ مُسْهِر) و(عَلْقمةَ بنِ عُلاثة) و(سلامةَ بنِ ذي فائشٍ)[4]" وغيرِهم مِمَّنْ مَدَحَه أو هَجاه، وخافَه في زمنهِ أو رَجاه.

نزهة ابن القارح

ثم إنَّه – أدامَ اللهُ تَمكينَه – يَخطِرُ له حديثُ شيء كانَ يُسمَّى النُّزْهةَ في الدارِ

1- (المكُّوك): الطاس الذي يُشرَب فيه. (كَرَّ): تحرك

2- (المُعْمَل): المَصنوع. (نَزح الماءَ): استقى منه. والمعنى أنَّ هذه الخمر تجول في زجاج أُتْقِن صنعه. وإذا نزح النازحُ منها شيئاً فسوف يُعَوَّض.

3- (الطُّلُق): ج طَليق وهو الحر غير المقيد. (الأوداج): ج وَدْج. وهو عِرقٌ في العنق. والمعنى أنه إذا غاضَت الخمر رفعنا الزِّقَّ وأطْلقْناه كأنه حيوان حرَّرناه. وإذا بالخمر ينسفح منه.

4- (هوذَةَ بن علي) الحنفي. من سادة بني حنيفة في اليمامة. كان فارساً شجاعاً. استعمله كسرى أنو شروان لتمُرَّ قوافِلهُ في أرض بني حنيفة حتى تبلغ عُمَّالَه في اليمن.

(عامر بن الطُّفيْل): العامري القيسي. كان فارسَ قيس وأحدَ شعراءها المُجيدين. تنازع الرئاسةَ مع علقمة بن عُلاثة. وكان عامر أعورَ عقيماً. جاء إلى النبي (ص) طالباً منه أن يجعل له نصفَ ثِمار المدينة ويجعلَه وليَّ الأمر من بعده حتى يدخلَ الإسلام. فدعا اللهَ أن يكفيَه شرَّ عامر. فمات في طريق عودته. وهو مِمَّنْ مدحهم الأعشى.

(يزيد بن مسهر بن أبي ثابت الشيباني). من سادة شيبان وذوي الرأي فيهم. قال فيه الأعشى لاميته المشهورة:

ودِّعْ هُرَيـرةَ إنَّ الركـب مُـرتَحِلُ وهل تُطيقُ وَداعـاً أيها الرجـل؟

(علقمة بن عُلاثة بن عوف) مِنْ بني جعفر بن كلاب ومِنْ أشهرِ فرسانهم. وهو مِنَ المؤلَّفَةِ قلوبُهم. وكان الأعشى ينتصرُ لعامر بن الطفيل في أول الأمر حين تنافرا.

(سلامة بن فائش) فائِش وادٍ في اليمن كان يَحميه ذو فائش الحميري. فكان هذا الوادي لأبيه وله من بعده. مدحه الأعشى.

الفانيةِ. فيركبُ جَمَلاً مِنْ جِمالِ الجنة خُلِق مِنْ ياقوتٍ ودُرٍّ، في جَوٍّ مُعْتَدِلٍ بَعُدَ عن الحَرِّ والقَرِّ ومعه قَدَحُ خَمْر. فيسيرُ في الجنةِ على غيرِ مَنْهَجٍ ومعه شيءٌ مِنْ طعامِ الخُلودِ مُدَّخَرٍ لأصْحابِ السَّعدِ مِنْ والدٍ ومَوْلودٍ. فإذا رأى جَمَلَه يسير سَيْراً سَريعاً وخَفيفاً بين كُثْبان العنبرِ وأشجارِ الريحانِ، رفعَ صوتَه مُتمثِّلاً بقولِ الأعشى البكري:

ليت شـعري متـى تَخُبُّ بـي النا ... قـةُ نحـوَ العُذَيْـبِ فالصَّيْبـونِ
مُحْقِبـاً زُكْـرَةً وخُبـزَ رُقـاقٍ ... وحِباقـاً وقِطعـةً مـن نـونِ[1]

حديث الأعشى

يعني بالحِباقِ جُرزَةَ البَقْلِ. فيهتفُ هاتِفٌ: "أتشْعرُ أيها العبدُ المَغْفورُ له لِمَنْ هذا الشعرُ؟. فيقولُ الشيخُ: "حدَّثنا أهلُ ثقتِنا عن أهلِ ثقتهم يَتوارثون ذلك كابِراً عن كابرٍ حتى يصِلوهُ بـ (أبي عمرو بن العلاء[2])، فيرويَه لهم عن أشياخِ العربِ الذين يَصيدونَ الضَّبَّ في الصحراءِ ويَجْمَعون الكَمْأَةَ في أرضِ البدوِ، الذين لا يَعرِفونَ اللبنَ الرائِبَ فلا يأكلونَه، ولا يَعرِفونَ ثِمارَ الأشجارِ فلا يَقطِفونَها ويَضعونها في ذيولِ ثيابِهم وذلك لِشِدَّةِ بداوتِهم وانْقطاعِهم عن الحَضَرِ، أنَّ هذا الشعرَ لـ (ميمونِ بنِ قيسِ بنِ جندلٍ الأعشى)". فيقولُ الهاتفُ: "أنا ذلك الرجلُ مَنَّ اللهُ عليَّ بعدما صِرتُ مِنْ جَهَنَّمَ على شَفيرٍ، ويئِسْتُ مِنَ المَغْفِرَةِ والتَّكْفيرِ". فيلتفتُ إليه الشيخُ هاشَّاً باشَّاً مُرْتاحاً. فإذا هو بشابٍّ جَميلٍ يعيشُ في النعيم وقد صار عَشى عينيه حَوَراً مَعروفاً وانحناءُ ظَهْره قَواماً مَوْصوفاً. فيقولُ الشيخُ: "أخبرْني. كيف كانَ خلاصُك مِنَ النارِ، وسلامَتُكَ مِنْ قَبيحِ العقابِ"؟. فيقولُ الشابُّ: "سَحَبَتني الزبانيةُ إلى سَقَر. فرأيتُ رجلاً في باحاتِ القيامة يتلألأ وجهُه تَلَؤلُؤَ القَمَرِ والناسُ يَهتِفون مِنْ كلِّ صَوْبٍ: يا محمد. يا محمد. الشفاعةَ الشفاعةَ. نحن نمتُّ إليك بكذا وكذا. فصرختُ في أيدي الزبانية: يا محمد. أغِثْني فإنَّ لي بك حُرْمةً. فقالَ: يا عليُّ. بادِرْهُ

1- (تَخُبُّ): الخَبَبُ نوعٌ مِنْ سير الإبل. (العُذيب والصَّيْبون): مكانان في الجزيرة. (مُحْقِباً): من أَحْقَبَ الرجلُ: حمل حقيبته. (الحِباق): كما شرحها المعري: حُزمة البقل. (النون): السمك.

2- مرت ترجمته.

فانظُرْ ما حُرمَتُه؟ فجاءني عليُّ بنُ أبي طالبٍ[1] صلواتُ اللهِ عليه وأنا أُجَرُّ كي أُلقَى في الدَّرَكِ الأسفلِ مِنَ النار. فزجَرَهم عني وقال: "ما حُرمتُك؟" فقلتُ أنا القائلُ:

ألا أيُّهـذا الســائلي أيــنَ يَمَّمَــتْ ... فإنَّ لها فــي أهْلِ يثــربَ موعِدا[2]

فآلَيْــتُ لا أرثــي لهــا مِــنْ كَلالَــةٍ ... ولا مِنْ حَفىً حتى تُلاقي مُحمَّدا[3]

متى ما تُناخي عند بابِ ابنِ هاشــمٍ ... تُراحي وتَلْقَيْ مِــنْ فواضِلِهِ نَدا[4]

أَجِــدَّكَ لــم تَسْــمَعْ وَصــاةَ مُحمــدٍ ... نبيِّ الإلهِ حينَ أوصى وأشْــهَدا[5]

إذا أنــتَ لــم ترحَلْ بزادٍ مِــنَ التُقى ... وأبصرتَ بعد الموتِ مَنْ قد تزوَّدا

نَدِمْــتَ علــى أنْ لا تكــونَ كمثلــهِ ... وأنك لم تُرصِدْ لِمــا كان أرصدا[6]

فإيــاكَ والمَيْتــاتِ لا تَقْرَبَنَّهــا ... ولا تأْخُذَنْ سَهْماً حديداً لِتَقْصِدا[7]

ولا تقْرَبَــنْ جــارةً إنَّ سِــرَّها ... عليــك حَــرامٌ فانْكِحَــنْ أو تأبَّدا[8]

نبــيٌّ يَــرى مــا لا يَــرونْ وذِكْــرُه ... أغارَ لَعمْري فــي البلاد وأنجدا"[9]

1- (علي بن أبي طالب): بن عبد المطلب الهاشمي القرشي. ولد عام 23 قبل الهجرة 599 م. وهو أول مَنْ أسلم مِنَ الصبيان. كانت له الوقائع المشهورة مع النبي الذي زوجه ابنته فاطمة. فولدت له (الحسن والحسين). بويع بالخلافة عام 35 هـ 656 م. قتل عام 40 هـ 661 م. وهو رابع الخلفاء الراشدين.

2- البيت ردٌّ على مَنْ سأله إلى أين تذهب راحلتك؟ فكان الجواب أنَّ لها موعداً في يثرب مع النبي.

3- أقسم الشاعر أنه لن يحِنَّ عليها مِنَ التعب أو مِنَ الحفى – وهو رِقَّةُ الأرْجُل – حتى تلاقي محمداً.

4- يخاطب ناقته أنها سوف تستريح عند باب النبي. وعندها ستلقى النِّعَمَ من كرمه. (الفواضل): المَكارم.

5- (الجِدُّ): الأمرُ العظيم والإجهادُ والسعيُ الحثيث. يخاطب الشاعر نفسه: بعد هذا السعي الحثيث على ناقتك ألم تسمع وصيةَ محمد النبي حين أوصى الناس وأشهد الله عليهم؟

6- (رَصَدَ): راقب. و(أرصد) أعدَّ

7- الشاعر يُحذِّرُ مِنْ أكلِ المَيْتة. (أَقْصَدَ الناقةَ): عَقَرَها. أي لا تأخذْ سهماً مِنْ حديد وتقتل الناقة على غير الطريقة الإسلامية. ويمكن فهم البيت بمعنى آخر وهو التحذير من المَيْسر. فيكون معنى (أقصَد): أخَذَ السهمَ ورمى به. والمقصود هو السهام التي كانوا يلعبون بها الميسر. وذلك حسب مضمون الآية 90 من سورة المائدة: (إنما الخمرُ والمَيْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عمل الشيطان).

8- (سِرُّ المرأة): فرجُها. يحذِّر مِنَ التحرّشِ بالجارة لأن فرجها حرام عليك. فتزوَّجْ أو ابقَ عازباً. (تأبَّد الرجلُ): طالت عزوبته.

9- (أغار): سار إلى الغَوْر المنخفض. (أنجد): سار في النجد وهو المكان المرتفع. أي أنَّ ذِكْرَ محمد سار في كل أنحاء الأرض.

(ملاحظة)

والشيخُ الجليلُ – أَكْمَلَ اللهُ زينةَ المَحافِلِ بحضورِه – يعرفُ الأقوالَ في هذا البيتِ الأخير. وإنَّما أذكُرُها لأنه قد يجوزُ أنْ يقرأَ هذا الكلامَ ناشئ لم يبلغْه ما قيلَ: حكى (الفرّاءُ)[1] وحدَهُ أنَّ (أغار) في معنى (غار) إذا أتى الغَوْرَ. وإذا صحَّ هذا البيتُ للأعشى، فلم يُرِدْ بالإغارة إلا ضدَّ الإنجاد. (والإنجادُ هو السير في المكانِ النَّجْدِ أي المرتفع. وهو يقابل أغار إذا سار في المكانِ المُنخفض). ورُوِيَ عن (الأصمعي) روايتان:

إحداهُما أنَّ (أغارَ) في معنى (عَدا عَدْواً شديداً). واستشهدَ على ذلك بقولِ الشاعرِ:

فَعَدِّ طِلابَها وتَسَلَّ عنها بِناجِيَةٍ إذا زُجِرَتْ تُغيرُ[2]

والثانيةُ أنَّه كان يقرأ هذا البيتَ فيقدمُ فيه ويُؤَخِّرُ فيقولُ:

لَعَمريَ غارَ في البلادِ وأنجدا

وكان (سعيدُ بنُ مَسْعَدةَ) الأخفشُ الأوسطُ يُنشِدُ بيتَ الأعشى:

غارَ لَعمري في البلاد وأنجدا"

(عودةٌ إلى السياق)

ويقول الأعشى: "قلتُ لعليٍّ: وقد كنتُ أؤمِنُ باللهِ وبالحسابِ وأُصدِّقُ بالبعث وأنا في الجاهليةِ الجَهْلاءِ. فمِنْ ذلك قولي:

فما أَيْبُلِيٌّ على هَيْكلٍ بناه وصَلَّبَ فيه وصارا[3]

يُراوِحُ مِنْ صَلَواتِ المَليكِ طَوْراً سُجوداً وطوراً جُؤارا

1- (الفَرَّاء) أبو زكريا يحيى بن زياد مولى بني أسد. مِنْ أئمة الكوفة. كان يقال: (الفراء أمير المؤمنين في النحو). ولد في الكوفة عام 144 هـ 761 م. وتوفي عام 207 هـ 822 م في خلافة المأمون.

2- (عَدِّ طِلابَها): اتركْ طلبها. (الناجية): الناقة. ومعنى البيت أنَّ عليه أنْ يترك طلب التي يحبها وأنْ يتسلى عنها بركوب ناقة تسرع في سيرها إذا زُجِرت.

3- (الجُؤار): مِنْ: جِأَرَ إلى الله: تضرَّع. أي أنَّ هذا الراهب يسجد مرة ويرفع صوته بالدعاء مرة.

بأعظـمَ منك تُقـىً في الحِســابِ إذا النَّسَـماتُ نَفَضْــنَ الغُبــارا"[1]

فذهبَ (عليٌّ) إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ فقالَ: "يا رسولَ اللهِ. هذا أعشى قيسٍ. قد رُوِيَ مَدحُه فيك، وشَهِدَ أنك نبي مُرسَلٌ". فقالَ: "هلَّا جاءني في الدارِ السابِقَةِ؟" فقالَ عليٌّ: "قد جاءَ. ولكنْ صدَّته قريشٌ وحبُّهُ لِلخَمرِ". فشفَعَ لي فأُدخِلْتُ الجنةَ على أنْ لا أشربَ فيها خمراً. فقرَّتْ عيناي بذلك. وإنَّ لي مَنْدوحةً في العسلِ واللبنِ. وكذلك مَنْ لم يَتُبْ مِنَ الخمرِ في الدارِ الساخِرَةِ، لم يُسْقَها في الدارِ الآخِرةِ.

مع زهيرِ بنِ أبي سُلمى

وينظر الشيخُ في رياضِ الجنةِ فيرى قَصْرَيْن مُنيفَيْن. فيقولُ في نفسِهِ: "لأبْلُغَنَّ هذين القَصرَيْنِ فأسألَ لِمَنْ هما؟". فإذا قَرُبَ إليهما رأى على أحَدِهما مَكْتوباً: (هذا القصرُ لزهيرِ بنِ أبي سُلمى المُزَني[2]) وعلى الآخَرِ: (هذا القصرُ لِعَبيدِ بنِ الأبرص الأسَديِّ[3]). فيعْجَبُ مِنْ ذلك ويقولُ: "هذان ماتا في الجاهِليةِ. ولكنَّ رحمةَ ربِّكَ وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ. وسوف أَلْتَمِسُ لقاءَ هذين الرجلين فأسألُهما بِمَ غُفِرَ لهما". فيبتدِئُ بزهيرٍ. فيجده شاباً كالزهرةِ النَّضِرَةِ التي قُطِفَتْ لِساعتِها، وقد وُهِبَ له قصرٌ مِنَ اللؤلؤ كأنَّه ما لَبِسَ جِلْبابَ الهَرَم، ولا تأفَّفَ مِنَ الضِّيقِ والبَرَم. وكأنَّه لم يَقُلْ في (الميمية):

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانيــنَ حَــوْلاً لا أبــا لــك يســأَمِ

1- (الأيْبُلي): الراهب. (صلَّب): رسم الصليب. (يُراوِح): من (راوح): انتقل من عمل إلى عمل. (النَّسَمات): ج نَسْمة: وهي الروح. والمعنى أنَّ راهباً يصلي ليس أعظم منك في التقوى حين ينفضُ البشرُ الغبارَ يومَ الحساب. والأبيات مِنْ قصيدة يمدح بها الأعشى (قيسَ بنَ معديكرب).

2- (زهير بن أبي سُلمى) مِنْ مُزَينة. تعلَّم الشعر على يد خاله الشاعر (بشامة بن الغدير). وكان يروي شعر (أوس بن حجر). من الطبقة الأولى من الشعراء ومن أصحاب المعلقات. اشتهر بالحِكَمِ والصدق وعدم المبالغة. وهو والد الشاعر (كعب بن زهير). توفي عام 609 م قبل البعثة بعام.

3- (عَبيد بن الأبرص) من بني أسد. الشاعر الجاهلي المشهور ومِنْ أصحاب المعلقات. عُمِّر طويلاً وقتله المنذرُ بنُ ماء السماء لأنه ذهب إليه في يوم بؤسه. وكان ذلك عام 555 م.

ولم يقُلْ في الأخرى:

أَلَــم تَرَني عُمِّــرتُ تِســعين حِجَّةً وعشــراً تِباعــاً عشــتُها وثمانيــا

فيقول لزهير:"أهلاً أهلاً. أأنت أبو كعب وبُجَيْر؟[1]"

فيقولُ زهيرٌ: "نعم". فيقولُ أدامَ اللهُ عِزَّهُ: "بِمَ غُفِرَ لك وقد كنتَ في زمانِ الفَتْرةِ[2] والناسُ هَمَلٌ لا يَحْسُنُ مِنْهُمُ العملُ؟". فيقولُ زهيرٌ: "كانت نفسي مِنَ الباطِلِ نَفوراً. فصادفتُ مَلِكاً غَفوراً. وكنتُ مُؤمناً باللهِ العظيمِ. ورأيتُ فيما يرى النائمُ حَبْلاً نزلَ مِنَ السماءِ. فمَنْ تعلَّقَ به مِنْ سُكانِ الأرض سَلِمَ. فعلِمتُ أنه أمرٌ مِنْ أمْرِ اللهِ. فأوْصَيْتُ بَنِيَّ وقلتُ لهم عندَ المَوتِ: "إنْ قامَ قائمٌ يدعوكم إلى عبادةِ اللهِ فأطيعوه". ولو أدركتُ محمداً لكنتُ أولَ المؤمنينَ. وقلتُ في (الميمية) والجاهليةُ على ما هي عليه مِنْ أحوال السَّفَهِ:

فــلا تَكْتُمَــنَّ اللهَ ما في نفوســكمْ لِيَخْفــى ومهمــا يُكْتَمِ، اللــهُ يَعلَمِ
يُؤَخَّــرْ فيوضَــعْ في كتــابٍ فَيُدَّخَرْ ليومِ الحسابِ أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ"[3]

فيقولُ الشيخُ: "ألستَ القائلَ:

وقــد أغْــدو علــى ثُبَــةٍ كِــرامٍ نَشــاوى واجِديــن لِمــا نشــاءُ
يَجُــرُّون البُــرودَ وقــد تمشَّــتْ حُمَيَّــا الــكأس فيهــم والغِنــاءُ[4]

1- (بَجير بن زهير بن أبي سُلمى) من الصحابة الشعراء. أسلم قبل أخيه وأرسل إليه قصيدة يدعوه فيها إلى الإسلام. وشهد مع النبي فتح مكة. و(كعب): أخوه الذي هجا النبي (ص) فكان أحدَ الذين أهدر النبيُّ دمَهم. ثم دخل المدينة وألقى قصيدته الشهيرة (بانت سعاد). فعفا عنه وأهداه بردته. ولد كعب عام 13 قبل الهجرة 609 م. وتوفي عام 26 هـ 646 م.

2- (زمان الفترة) مصطلح يُطلَق على المدة بين نبيين.

3- المعنى أن أعمال الإنسان تُسجَل وتُحفظ في كتاب ليوم القيامة، أو يُعجِّل الله الانتقام منه في الدنيا.

4- (الثُّبَة): الجماعة. (نشاوى): سُكارى. (البُرود) ج بُرْد: وهو الثوب. (حُمَيَّا الكأس): شِدَّتها وإسكارها. ومعنى البيتين: أنني قد ألتقي مع جماعة مِنْ كِرامِ الناس وهم سكارى يجدون ما يطلبون. وهم يجرُّون ثيابهم افتخاراً بأنفسهم وقد تمشَّتْ فيهم حميا الكأس والغناء.

فَهل أُطْلِقَتْ لك الخمرُ كغيرِكَ مِنْ أصحابِ الخُلودِ، أم حُرِّمتْ عليك مِثلما حُرِّمتْ على أعشى قيس؟"

فيقول زهير: "إنَّ أخا بكرٍ (الأعشى) أدركَ محمداً فوجَبَتْ عليه الحُجَّةُ لأنَّ محمداً بُعِثَ بتحريمِ الخمرِ، وحَظْرِ ما قَبُحَ مِنْ أمرٍ. وهّلَكتُ أنا والخمرُ كغيرها من الأشياءِ. يشربُها أتباعُ الأنبياء فلا حُجَّةَ عليَّ".

فيدعوه الشيخُ إلى المُنادَمَةِ. فيجِدُه مِنْ ظِرافِ النُّدماءِ. فيسألُهُ عن أخبارِ القدماءِ. وكان مع خادِمِهِ باطِيَّةٌ مِنَ الزُّمُرِّدِ. فيها مِنَ الرَّحيقِ المَخْتومِ شيءٌ يُمزَجُ بِزنْجَبيلٍ. والماءُ أُخِذَ مِنْ سَلْسَبيلٍ. فيقولُ – زادَ اللهُ في أنفاسِهِ –: "أينَ هذه الباطِيةُ مِنَ التي ذَكَرَها السَّرَويُّ في قوله:

ولنا باطِيَّةٌ مَمْلوءةٌ جَوْنَةٌ يَتْبَعُها بَرْذينُها
فإذا ما حارَدَتْ أو بَكَأتْ فُتَّ عن خاتَمِ أُخرى طينُها"[1]

مع عَبيد بن الأبرص

ثم ينصرفُ إلى (عَبيدِ بنِ الأبْرصِ الأسديِّ). فإذا هو قد أُعطِيَ في الجنةِ بقاءَ الخُلودِ فيقولُ: "السلامُ عليك يا أخا بني أسدٍ". فيقول عَبيدٌ: "وعليك السلامُ". وأهلُ الجنةِ أذكياءُ لا يُخالِطُهم الأغبياءُ. فيتابعُ عَبيدٌ: "لعلك تُريدُ أنْ تسألني بِمَ غُفِر لي؟". فيقولُ الشيخُ: "أجل. وإنَّ في ذلك لَعَجَباً. أألفَيْتَ حُكْماً لِلمَغْفِرةِ موجِباً، ولَمْ يكُنْ عنِ الرحْمَةِ حاجِباً؟". فيقولُ عَبيدٌ: "أُخْبِرُك أنِّي دخلتُ الهاويةَ. وكنتُ قلتُ في أيامِ الحياةِ:

مَنْ يسألِ الناسَ يَحرِموهُ وسائِلُ اللهِ لا يَخيبُ

1- البيتان منسوبان لعدي بن زيد. ولم يُعثَر لترجمة عن شاعر يسمى السروي. و(الباطِيَّة) مرَّ ذِكْرها وهي وعاء الخمر الكبير. (الجَوْنة) السوداء. (البَرْذين) إناء لشرب الخمر يُصنَع من شجر الطلع. (حارَدَتِ الناقةُ): قلَّ لبنُها. ومثلها (بكأت). والمعنى أنهم يشربون الخمر من وعاء كبير للخمر. ومع هذا الوعاء أقداحه. فإذا قلَّت الخمر في هذا الوعاء، فُتَّ الطين عن الوعاء الآخر.

وسارَ هذا البيتُ في آفاقِ البلادِ. فلم يزل يُنْشَد ويَخِفُّ عني العذابُ حتى أُطلِقْتُ مِنَ القُيودِ والأصفادِ. ثم كُرِّر إنشادُ البيتِ إلى أنْ شَمَلَتْني الرحمةُ ببركةِ ذلك البيتِ. وإنّ ربَّنا لَغَفورٌ رَحيم".

مع عدي بن زيد

فإذا سمِعَ الشيخُ – ثَبَّتَ اللهُ وَطْأَتَهُ – ما قاله زهيرٌ وعَبيدٌ، طَمِعَ في سلامةِ كثيرٍ مِنْ أصنافِ الشعراءِ. فيقولُ لــ (عَبيد): "ألك عِلْمٌ بــ (عَدِيِّ بنِ زَيْدٍ العِبادي؟)[1]".

فيقولُ عَبيد: "هذا منزلُه قريباً منك". فيقفُ الشيخُ على منزلِ عَدِيٍّ فيقولُ: "كيف كانت سلامتُكَ على الصِّراطِ وخلاصُك بعد الإفراط؟".

فيقولُ عديٌّ: "إني كنتُ على دينِ المَسيحِ. ومَنْ كان مِنْ أتباعِ الأنبياءِ قبل أنْ يُبْعَثَ محمدٌ فلا بأسَ عليه. وإنَّما التَّبِعةُ على مَنْ سَجَدَ للأصنامِ، وعُدَّ في الجَهَلَةِ مِنَ الأنامِ". فيقولُ الشيخُ: "يا أبا سَوادة. ألا تُنشدني (الصاديةَ) فإنَّها بديعةٌ بينَ أشعارِ العربِ؟".

فينبعثُ عديٌّ مُنْشِداً:

أَبْلِغْ خليلي عَبْدَ هِندٍ فلا ... زِلتَ قريباً مِنْ سَوادِ الخُصوصْ[2]

مُوازِيَ الفُورَةِ أو دونَها ... غَيْرَ بَعيدٍ مِنْ غُمَيْرِ اللُّصوصْ[3]

تُجْنى لك الكَمْأةُ رِبْعِيَّةً ... بالخَبِّ تُندى في أُصولِ القَصيصْ[4]

1- وردت ترجمته من قبل.

2- القصيدة موجَّهة إلى (عبد بن هند بن لخم). وهو من ملوك الحيرة في جنوب العراق. ويطلب إبلاغَه بأنه يدعو له أن يظل قريباً من سواد الخُصوص وهو مكانٌ في الكوفة تُنسَب إليه الدِّنان الخُصية. أي أنْ يظلَّ الخمر وافراً عنده.

3- (الفُورة): اسم مكان. (غُمَير اللصوص): اسم قصر كان في تلك المنطقة. والشاعر يحدِّد مكان إقامة عبد هند بأنها قريبة من الفورة أو قريباً منها عند غُمير اللصوص.

4- (الكَمْأة): نبات فطري ينبت في الصحراء في أول الربيع. (الخَبُّ): سهلٌ بين مرتفعين. (القَصيص): شجر تنبت عنده الكمأة. والشاعر يصف عبد هند بأنه السيد الذي تُجنى له الكمأة طازجة في أول الربيع من أصول شجر القصيص في مكانها الذي تنبت فيه.

تَقْنِصُك الخَيْـلُ وتصطادُك الـ ... طَّيْـرُ ولا تُنْكَـعُ لَهْـوَ القَنيـصْ[1]

تـأكُـلُ مـا شِـئْـتَ وتَعْـتَـلُّـها ... حمـراءَ مِلْحُصٍّ كَلَـوْنِ الفُصوصْ[2]

غُيِّبْتَ عني "عبدُ" في ساعة الـ ... شـرِّ وجُنِّبْـتَ أوانَ العَويـصْ[3]

لا تَنْسَيَنْ ذِكْـري على لَذَّة الـ ... كأسِ وطَوْفٍ بالخَذوفِ النَّحوصْ[4]

إنَّـكَ ذو عَهْد وذو مَـصْـدَقٍ ... مُخالِفـاً هَـدْيَ الكَـذوبِ اللَّمُوصْ[5]

يـا عَبْـدُ هـل تَذْكُرنـي سـاعةً ... فـي موكـبٍ أو رائـداً للقَنيـصْ

يومـاً مـع الرَّكْـبِ إذا أوْفَضـوا ... نَرْفَـعُ فيهـم مِـنْ نَجاءِ القَلـوصْ[6]

قـد يُـدرِكُ المُبْطـئُ مِـنْ حَظِّـهِ ... والخَيرُ قد يَسـبِقُ جُهدَ الحَريصْ[7]

فـلا يـزلْ صَـدْرُك فـي ريبـةٍ ... يَذكُـرُ مِنِّـي تَلَفـي أو خُلـوصْ[8]

يـا نَفسِ أَبْقِي واتَّقِي شَـتْمَ ذي الـ ... إعْـراضِ إنَّ الحِلْـمَ مـا إنْ يَنوصْ[9]

1- (كَنَعَه عن الأمر): ردَّه ومنعه. (القنيص): القَنْص. والمعنى أنَّ الخيل تقنِص عنك والطيرَ تصطادُ لك فلا تُمنَع عن مسرات الصيد.

2- (اعتلَّ الخمر): شربها. (مِلْحُصٍّ): مِنَ (الحُص): وهي بلدة في الشام مشهورةٌ بصنع الخمر. (الفُصوص): ج فَص. وهو الحجر الكريم. والمعنى أنك تأكل ما تشاء وتشرب الخمر الجيدة الحمراءَ اللون كأنها الأحجار الكريمة.

3- (العَويص مِنْ كل شيء): الشديد. والشاعر يدعو له أنْ يغيب عن ساعة الشر وأن يُجَنَّبَ الأوقاتَ الصعبة.

4- (الطَّوْف): الطَّواف. (الخَذوف): الأتان الوحشية السمينة. (النَّحوص): التي لم تَحمِل لأنها سمينة. والشاعر يطلب منه أن يذكره عند لذة الشرب وعندما يطوف حول الأتان الوحشية السمينة لكي يصطادها.

5- (اللَّموص): المُخادِع الكذوب. والمعنى أنك تصْدُقُ إذا عاهدتَ على غير ما هو عليه المخادع الكذاب.

6- (أَوْفَضَ): جدَّ في السير. (القَلوص): الناقة الفتية السريعة. والشاعر يتابع مخاطبته لعبد هند في تذكُّره في موكب الصيد حين يُسرِعون.

7- (المُبطئ): البطيء السير والعمل. (يَسبِق): يفوت. والمعنى أنَّ البطيء الكسول قد يدرك حظه، بينما يفوتُ الخيرُ عن الحريص.

8- (الريبة): الشك. (الخُلوص): الخلاص. أي أنك ماتزال تشكُّ في أمري. فاذْكُرْ تلفي حتى تخلصني مِنْ شكوكك.

9- (يا نفسِ): يا نفسي. (أبقى عليه): حفظه ولم يقتله أو يُصِبْه بأذى. (أعرض عنه): هجره وجافاه. (إنْ): هنا زائدة. (ينوص): يفرَّ. ومنه (ولات حين مناص). والمعنى أنَّ الشاعر يُطالب نفسه بالإبقاء عليه وأن لا تشتم مَنْ أعرض عنه لأن الحِلم لا يهرب مِنْ صاحبه.

يـا ليـتَ شِـعري وانَ ذو عَجَّـةٍ ... متى أرى شَـرْباً حَوالَـيْ أَصيصْ[1]

بَيْـتِ جَلُـوفٍ بـارِدٍ ظِلُّـهُ ... فيـه ظِبـاءٌ ودواخِيـلُ خُـوصْ[2]

والرَّبْـربُ المَكْفـوفُ أردانُـهُ ... يَمشـي رُويـداً كَتَوَقِّـي الرَّهِيصْ[3]

يَنْفُـحُ مِـنْ أردانِـه المِسْـكُ والـ ... ـعَنْبَـرُ والغَلْـوَى ولُبْنـى قَفـوصْ[4]

والمُشْـرِفُ المَشْـمُولُ نُسـقى بِـهِ ... أَخْضَـرَ مَطْموثـاً بِمـاءِ الخَريصْ[5]

ذلـك خَيْـرٌ مِـنْ فُيـوجٍ علـى الـ ... ـبـابِ وقَيْدَيْـنِ وغُـلٍّ قَـروصْ[6]

أو مُرتَقـى نِيـقٍ علـى نِقْنِـقٍ ... أَدْبَـرَ عَـوْدٍ ذي إكافٍ قَمُـوصْ[7]

لا يُثْمِـنُ البَيْـعَ ولا يَحْمِـلُ الـ ... ـرِّدْفَ ولا يُعْطَـى به قَلْبُ خُوصْ[8]

1- (وانَ): وأنا. لهجةٌ عند قوم الشاعر. (العجَّة): الصوت العالي. (الشَّرب): القوم الشاربون. (الأصيص): دَنُّ الخمر. وتستعمل الكلمة اليوم لوعاء الأزهار. نقول: أصيص الورد. والمعنى أنه يتمنى أنْ يرى الشاربين حول دنِّ الخمر. وهو يدعوهم إليه لأنه ذو صوتٍ مرتفع.

2- (الجَلوف): ج جِلف. وهو الدِنُّ الضخم الكبير. (الظباء): الأباريق الضخام. (الدواخيل): ج (دَوْخَلَة): وهي سقيفة تُبْنى من خوص النخيل يوضع فيها التمر. والمعنى أنه يتمنى أن يرى الشاربين حول دن الخمر في بيت يحوي ضِخام الدنان. وفيه سقائف من خوص النخيل توضع فيها الدنان.

3- (الربرب): الظبي أو البقر الوحشي. وتُشبَّه به النساء. (الأردان) أكمام الثوب. (الرَّهيص): أنْ يُصيبَ باطنَ قدم الدابة شيءٌ يوهِنها. فهي تمشي متأنية. والمعنى أن الذي يسقيهم الخمر مكفوفة أردان ثوبه ويمشي متأنياً.

4- (الغَلوى): طِيبٌ معروف. (لُبنى): شجرة لها صمغ طَيِّبُ الرائحة يتبخَّرون به. (قَفوص): مكانٌ في الشام ينبت فيه هذا النوع من الأشجار. والشاعر يتابع وصف الساقي بأنَّ المسك يفوح من أردانه. وهو مسكٌ مستخرَجٌ مِنْ شجرة اللبنى.

5- (المُشْرِف): إناءٌ للشرب. (المَشمول): المُطّيَّب. (المَطْموث): المخلوط. (الماء الخَريص): الماء البارد. والمعنى أننا نُسقى الخمرَ بإناءٍ مُطَيب. وهو أخضر اللون مخلوط بماء بارد.

6- (الفُيوج): ج فَيْج. وهو الحارس على باب السجن. (الغُل): طوقٌ مِنْ حديد يوضع في العنق أو في اليدين. (القَروص): صيغة مبالغة على وزن فَعول من قرَص. والمعنى أنَّ الشرب بذلك الكأس أحسن مِنْ وجود حارس السجن على الباب ومِنَ القيودِ والأغلال التي تقرص الجلد.

7- (النيق): الجبل. (النِقْنِق): ذَكَر النعام. (أَدْبَرَ): اسم تفضيل مِنْ أدبرت الدابة: شاخَتْ. (العَوْد): الكبير السن. (الإكاف): البرذعة. (القَموص): مِنْ (قَمَصَت الدابة): قفزت. والمعنى أنَّ شُرْبَ الخمر أحسنُ أيضاً مِنْ صعودِ جبل على ذكر نعام عجوز لها برذعة تتقلقل تحت راكبها.

8- يتابع الشاعر في هذا البيت وصفَ النِّقْنِق الذي ليس ثميناً في البيع ولا يستطيع حملَ أرداف مَنْ يركبه ولا يساوي قلبَ نبات الخوص.

أو مِــنْ نُســورٍ حْــوْلَ مَوْتــى مَعاً يأكُلْنَ لَحْماً مِنْ طَريِّ الفَريصْ"[1]

فيقولُ الشيخُ: أحسنتَ واللهِ أحسنتَ. لو كنتَ الماءَ الراكدَ لَما أسَنْتَ. وقد عمِلَ أديبٌ مِنْ أُدباءِ الإسلامِ قصيدةً على هذا الوزن وهو المعروف بـ (أبي بكر بن دُريْد[2]). قال:

يَســعَدُ ذو الجَدِّ ويشقى الحريصْ ليــس لِخَلْقٍ عن قضــاءٍ مَحيصْ[3]

ويقول فيها:

أيــنَ مُلــوكُ الأرضِ مِــنْ حِمْيَــر أكْرَمُ مَنْ نُصَّــت إليهم قَلوصْ؟[4]
(جَــيْــفَــرُ الوهّــابُ) أودى بِــهِ دَهرٌ على هَدْمِ المَعالي حَريصْ[5]

إلا أنك يا (أبا سَوادَة) أحْرَزْتَ فَضيلَةَ السَّبْقِ. وما كنتُ أختارُ لك أنْ تَقولَ:

يا ليت شعري وانَ ذو عَجَّةٍ

قاصداً (وأنا). لأنك لا تخلو مِنْ أحدِ أمرين:

إما أنْ تكونَ قد جَعلْتَ همزةَ القطعِ في (أنا) همزةَ وَصْلٍ وذلك رديءٌ. على أنَّ ما يَدعمُ استعمالَكَ هذا أنَّهم قد أنشدوا:

إنْ لــم أقاتــل فالْبِســوني بُرقُعــاً وفَتَخــاتٍ فــي اليديــن أربعــا[6]

فجعلوا همزةَ القَطْعِ في (ألبِسوني) همزةَ وصلٍ.

1- (الفَريص): ج فريصة وهي أوداج العنق. ويعود الشاعر في هذا البيت إلى تِبيان أهمية الشرب. فهو أحسن من القيود في السجن وأحسن من الصعود في الجبل وأحسن من ركوب ذكر النعام الذي لا يساوي شيئاً، وأحسن من رؤية نسور تحوم حول الموتى وتأكل من لحمهم.

2- هو (أخو دوس). وهو أبو بكر محمد بن الحسين. وقد مرت ترجمته.

3- (الجَدُّ): الحظ. والمعنى أنَّ المَحظوظ يَسْعَدُ وأن الحريص المُجِدَّ يشقى. فليس هناك مَفَرٌّ مِمَّا هو مُقَدَّر عليك.

4- (نصَّ الدابةَ): استحثَّها على السير. (القَلوص) من الإبل: الفتية القوية.

5- (جيفر) اسم شخص. والمعنى أنَّ جيفر الذي كان كريماً وهَّاباً أهلكه الدهرُ الحريصُ على هدم المعالي.

6- (فالْبِسوني): هي موضع الشاهد. والأصل: (فألبسوني). (الفتخة): خلخال يكون في اليد والرجل. والمعنى أنني إذا لم أقاتل فألبسوني البراقع والخلاخيل كالنساء.

لكنَّ ما يزيدُ خطأك بِما فعلتَ مِنْ إسقاطِ الهمزة، أنك حَذَفتَ الألِفَ التي بعدَ النونِ. فإذا حُذِفتِ الهمزةُ مِنْ أولِ كلمةِ (أنا)، وحُذِفَتِ الألفُ في آخرِها، بقيتْ على حرفٍ واحِدٍ هو (نَ). وذلك إخْلالٌ بالكلمةِ.

وإما أن تكونَ حَقَّقْتَ همزةَ (أنا) فجعلتها بين بين. أي (وأْنَ). وهذا نَقْضٌ للقاعدةِ. ومثلُ ذلك قولُ القائلِ:

يقولــون مهلاً ليــس للشــيخِ عَيِّلٌ فها أنــا قــد أَعْيَلْــتُ وانَ رَقوبُ[1]

ولو قلتَ:

يا ليت شعري أنا ذو عَجَّةٍ

فحذفتَ الواوَ لكان عندي أحسنَ وأشبهَ بالكلامِ".

فيقولُ عديُّ بنُ زيد: "إنَّما قلتُ كما سَمِعْتُ أهلَ زَمَني يقولون. وحَدَثَتْ لكم في الإسلامِ أشياءُ ليس لنا بها عِلْمٌ."

فيقولُ الشيخُ: لا أراك تَفْهمُ ما أريدُ مِنَ الكلامِ. ولقد هَمَمْتُ أنْ أسألَك عن بيتِك الذي استَشْهَدَ به سيبويه وهو قولُكَ:

أرَواحٌ مــوَدِّعٌ أم بُــكــورُ أنــتَ فانْظُــرْ لأيِّ حــالٍ تَصيــرُ

فإنه يزعُمُ أنَّ الضميرَ (أنت) يَجوزُ أنْ يكونَ فاعلاً لفعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُهُ قولُك (فانظُرْ). وأنا أستَبْعِدُ هذا المذهبَ ولا أظنُّك أردتَه".

فيقولُ عديُّ بنُ زيدٍ: "دَعْني مِنْ هذه الأباطيلِ. ولكني كنتُ في الدارِ الفانيةِ صاحبَ قنْصٍ. ولعله قد بَلَغَكَ قولي:

ولقــد أغــدو بِطِــرْفٍ زانَــه وجــهُ مَنْزوفٍ وخَــدٌّ كالمِسَــنْ[2]

1- (العَيِّل): الفقير ومَنْ له أولاد. (الرَّقوب): تقال للرجل أو للمرأة إذا لم يعش لهما أولاد. فكل واحد منهما يراقب موت ولده. (وانَ): وأنا. والمعنى: يقولون إنَّ الشيخ لا يكون له أولاد يُعيلهم. وأنا اليوم مُعيلٌ لأولاد وأنا أراقبهم خوفاً عليهم من الموت.

2- (الطِّرْفُ): الفرس الكريم. (المَنْزوف): الذي نزف دمُه. (المِسَنُّ): حَجَرٌ يُسَنُّ عليه الأدواتُ الحادة. والمعنى أنني قد أَمضي على حصان كريم زيَّنَهُ وجهٌ مُحْمَرٌّ كأنه وجهٌ منزوف، وزيَّنَه أيضاً خَدٌّ صقيل كأنه المِسَن.

ذي تَـلـيـلٍ مُشْـنِقٍ قائِـدَه ... يَسَـرٍ في الكفِّ نَهْدٍ ذي غُسَـنْ[1]

مُدْمَـجٍ كالقِـدْحِ لا عَيْـبَ بِـهِ ... فيُـرى فيـه ولا صَـدْعَ أُبَـنْ[2]

رَمَّـهُ البـاري فسـوَّى دَرْأَهُ ... غَمْـزُ كفَّيـهِ وتَخليـقُ السَّـفَنْ[3]

أيُّ ثَغْـرٍ مـا يُخَـفْ يُنْـدَبْ لـهُ ... ومتى يُخْـلَ مِـنَ القَـوْدِ يُصَنْ[4]

كربيـبِ البيـتِ يَفْـري جُلَّـهُ ... طاعَـةُ العُـضِّ وتَسْـحيرُ اللَّبَنْ[5]

فَبَلَغْنـا صَنْعَـهُ حتـى شَـتـا ... ناعِمَ البـالِ لَجوجاً في السَّـنَنْ[6]

فـإذا جـالَ حِـمـارٌ مُـوحِـشٌ ... ونَـعامٌ نـافِـرٌ بَـعْـدَ عَـنَـنْ[7]

1- (التَّليل): العنق. (أشنقَ البعيرُ رأسَه أو قائدَه): رفع رأسه. (اليَسَر): المُعَدُّ المُهيَّأُ. (النَّهْد): الفرس الكريم (غُسَن): ج غُسْنة. وهي الخصلة مِنَ الشعر. والمعنى أنَّ الشاعر يتابع وصف حصانه بأنَّ له عنقاً مرفوعاً. وهو مُهيأ للجري فيُسلِسُ قيادَه لكفِّ الفارس. وهو حصان كريم له شعر طويل.

2- (أُدمِجَ الحبلُ): كان جَيِّدَ الفتل. و(الجواد المُدْمَج): المُضَمَّر غير المترهل. (القِدْح) السهم. (الأُبَن): ج أُبْنَة. وهي العيب. والمعنى أن حصانه مُضمَّر صقيل كأنه السهم فلا عيب فيه.

3- (رمَّه): أصلحَه ورمَّمَه. والضمير في (رمَّه) عائد على القِدْح في البيت السابق. (الباري): مِنْ (بَرى العودَ أو الحجرَ): نَحَتَه. (الدَّرْء): الاعوِجاج. (غَمَزَ الدابةَ) جَسَّها. و(الغَمْز) الجَسُّ باليد. (التخليق): التمليس والتنعيم. (السَّفَن): ما يُترك على غِمْد السيف ليثبتَ في اليد. أي أن الخالق خلقه مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا عيباً. فكأنه سيف لا يترك أثراً على الغمد.

4- (الثَّغْرُ): المكان الذي يُخشى منه هجوم العدو. (يُخَفْ): فعل مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط. وأصله: يُخاف. (يُندَب): من ندبه للأمر: كلَّفه به. وهو جواب الشرط. (يُخْلَ): فعل الشرط لمتى. مجزوم بحذف الألف. وأصله يُخلى. (القَوْد): مِنْ معانيها الطائفة من الخيل. (يُصَنْ): جواب شرط متى مجزوم. وأصله يُصان. والمعنى أنَّ أيَّ مكان يُخشى منه هجومُ العدو فإنه يُندَبُ لحمايته. فإذا حماه وخرجت منه الخيل فسوف يبقى مُصاناً.

5- (ربيب البيت): الذي رُبِّي في البيت. (يَفري): يَشُقُّ. (الجُلُّ): ما تلبسه الدابة لتصان به. (العُض): الشعير والحنطة واليابس من الحشيش. (سحَّره): أطعمه وسقاه. والشاعر يشبه عبد هند بالحصان الذي رُبِّيَ في البيت.

6- (صنع الحصانَ صَنْعاً وصُنعاً): أحسن الاهتمام به. (شتا): دخل فصل الشتاء. (اللَّجوج): الشديد العنيد. (السَّنَن): جَرْيُ الحصان إقبالاً وإدباراً. يتابع الشاعر وصف الحصان بأننا نهتم به. فإذا جاء فصل الشتاء ظل مستريحاً وشديداً في العدو إقبالاً وإدباراً.

7- (العَنَن): بلوغُ الفرس أو غيرُه آخِرَ جُهْدِه. والمعنى أنه إذا جال وتحرك أمامنا حمارُ الوحش أو النعام الذي بلغ أقصى ما يستطيع من الجري.

شـاءنا ذو مَـيْـعَـةً يُبْطِرُنـا خَمَـرَ الأرضِ وتَقْديـمَ الجُنَـن[1]

يـــرأَبُ الـشّـدَّ بِـسَـحٍّ مُـرْسَـلٍ كاحتفـالِ الغَيثِ بالمُـزْنِ اليَفَنْ[2]

أنسـلَ الذَّرعـانَ غَـرْبٌ خَـدِمٌ وعـلا الرَّبْـرَبَ أَزْمٌ لـم يُـدَنْ[3]

فـالـذي يُـمـسِـكُـهُ يَـحْـمَـدُه تَئِـقٌ كالسِّـيدِ مُمْتَـدُّ الرَّسَـنْ[4]

وإذا نـحـنُ لـديـنـا أربَـعٌ يَهْتَـدي السـائِلُ عَنَّـا بالدَّخـنْ[5]

وقولي في (القافيةِ):

ومَجُـودٍ قـد اسـجَهَرَّ تَناويـ ـرَ كَلَـونِ العُهُـونِ فـي الأعْلاقِ[6]

عن خَريفٍ سـقاهُ نَـوْءٌ مِـنَ الدَّلْـ ـوِ تَدلَّـى ولَـمْ تَـوَارَ العَراقـي[7]

1- (شاءنا): سرنا وأعجبنا. (ميعة الحصان): أول جريه. يُبطِرنا): يُعجِلنا. (الخَمَر): ما واراك من الشجر أو غيره. (الجُنن): ج جنة. وهو ما غاب عنك. ويتابع الشاعر ما بدأ بوصفه في البيت السابق. والمعنى أنه عندما نرى حمار الوحش ذاك فإن هذا الحصان يمتِّعنا ويسرنا ويدفعنا بجريه إلى ما يُخفينا وراء الأشجار.

2- (يرأَب): يُصلِح. (الشَّدُّ): السُّرعة. (السحَّ): الغزير. (الاحتفال): الاجتماع. (المُزن): المطر. (اليَفَن): السير السريع. والمعنى أن هذا الحصان يُصلِحُ سيرَه بجريٍ سريع. فكأنما اجتمع المطر الغزير بالمطر السريع.

3- (أنسلَ القومَ): تقدَّمهم. و(أنسلَ في عَدْوِه): أسرع. (الذرْعان): ج ذَرْع. وهو ولد البقرة الوحشية. (الغَرْبُ): الحصان الكثير الجري. (الخَذِمُ): النافذ القاطع. (الربرب): القطيع مِنْ حمار الوحش. (الأَزْمُ): الشديد. (يُدَنْ): أصلها يُدان. مجزوم بلم. أي يُستَعْبَدُ ويُذَلُّ. والمعنى أنَّ قطيع حمار الوحش الفتي يسبقه حصان كثير الجري. وهذا القطيع لم يستطع أن يتعرَّض له أحدٌ قبلنا.

4- (التَّئِقُ): الغاضب. (السِّيدُ): الذئب والأسد. جمعه سِيدان. (الرَّسَنُ): الحبل في عنق الدابة. والمعنى أن مَنْ يُمسك هذا الحصانَ يَحْمَدُه ويُسَرُّ به لأنه غاضب. والغاضب يُسرِع في الجري. فكأنه ذئب أو أسد امتدَّ رسنُه ليجريَ بكل قوته.

5- (الدَّخَن): االدخان. والمعنى أنهم بعد رحلة الصيد صادوا أربعاً مِنْ حمار الوحش. ومَنْ يسألُ عنا يهتدي إلينا بدخان الشِّواء.

6- (المَجُودُ): الروض الذي جاده المطر. (اسجَهَرَّ): أزْهَرَ وتوقَّدَ حُسْناً بألوانِ الزهر. (التناوير): ج تَنوير. من نَوْرِ الزهر. (العُهون): ج عِهْن وهو الصوف المَصبوغ. (الأعْلاق): ج عِلْق. وهو الجِرابُ المَحْمول على الكتف. والمعنى أن هذا الروض تَنَوَّر بأزهارٍ ألوانُها كالصوف المُلَوَّنِ الموضوع في الجِراب المعلق على الكتف.

7- (النَّوْء): المطر. (الدَّلْوُ): الإناء الذي يُنْزَحُ به الماءُ من البئر. و(برجُ الدلو): من الأفلاك. (تَوارَ): =

لم يَعِبْهُ إلا الأَداحِـيُّ فقد وَبَّـ ... ـرَ بَعْـضُ الرِّئـالِ فـي الأفْـلاقِ[1]

وإرانُ الـثِّـيـرانِ حَـوْلَ نِـعـاجٍ ... مُطْفِـلاتٍ يَحْمِيـنَ بـالأرْواقِ[2]

وتَـراهُـنَّ كـالأعِـزَّةِ في المَحْـ ... ـفَـلِ أو حيـنَ نَعْمَـةٍ وارتِفـاقِ[3]

قـد تَبَطَّنْتُه بِـكَـفَّـيَّ خَـرَّا ... جٌ مِنَ الخَيْل فاضِلٌ في السِّـباقِ[4]

يَسَرٌ في القِيادِ نَهْدٌ ذَفيفُ الـ ... ـعَدْوِ عَبْلُ الشَّـوى أميـنُ العُراقِ[5]

لم يُقَيَّلْ حَرَّ المَقيظِ ولم يُلـ ... ـجَـمْ لِطَـوْفٍ ولا فَسـادِ نِـزاقِ[6]

غَيْـرَ تَيْسـيرِهِ لرَغْبـاءَ إنْ كا ... نَـتْ وحَرْبٍ إنْ قَلَّصتْ عن سـاقِ[7]

= أصلها: تتوارى: تختبئ. حذف التاء الأولى للتخفيف. وحذف الألف المقصورة علامةَ جزم المضارع. (العَراقي): أخشابُ الدلو التي تُعلَّق بالحبل. والمعنى أن هذا الروض سقاه مطر الخريف من برج الدلو الذي لم تتوار أخشابه فنضحت ماء كثيراً. والشاعر هنا يتلاعب بمعنيي (الدلو).

1- (الأداحِي): ج أُدحِيّة. وهي مكان مَبيض النعام في الرمل. (وبَّر): نَبَتَ وَبَرُه. (الرِّئال): ج رَأْل. ولد النعام. (الأفْلاق): ما تفلَّق من البيض. والمعنى أنَّ هذا الروض لا يَعيبه إلا وجود أمكنة وضع فيها النعام بيوضَه. فبعضُ أولاده نبتَ زَغَبُها بعدما خرجت من البيض المكسور.

2- (الإران): النشاط. (مُطْفِلات): ذوات أطفال. (الأرْواق): ج رَوْق. وهو القِرْن. والمعنى أن هذا الروض لا يعيبه أيضاً إلا نشاطُ حُمُرِ الوحش حول إناثها ذاتِ الأطفال وهن يحمين أولادَهن بقرونهن.

3- (الأعِزَّة): ج عزيز. (المَحْفَل): الجَمْع. (الارتِفاق): الاتكاء على المِرْفق. وفي هذا البيت يتابع الشاعر وصفَ نعاجِ حُمُرِ الوحش بأنها تبدو كأعزة القوم في الجمع الكثير وهم متكئون في نعمة ويُسر.

4- الضمير في (تبطَّنْتُه) عائد على مَجُود. (تبطَّنَ الودي): جال فيه. (الخَرَّاج): الكثير الخروج. و(خرَّاج) مبتدأ. والجار والمجرور (بكفي) متعلقان بالخبر المحذوف. والمعنى أنني جُلْتُ في هذا الروض وبين يديَّ حصانٌ كثير الجري فاضلٌ في السباق.

5- (يَسَرٌ): سهل الانقياد من: اليُسْر. (النَّهْد): الفرس الجميل ذو الصدر الواسع. (الذَّفيف): الخفيف السريع. (العَبْل): المُكتنز. ومنه (العَبْلَةُ): المرأة المكتنزة من غير سِمنة. (الشَّوى): القوائم. (العُراق): العظام. وفي هذا البيت يتابع الشاعر وصف الحصان الذي جال به في الروض. وهو حصان سهل الانقياد جميل سريع واسع الصدر مُكتنز القوائم مَتينُ العِظام.

6- (القَيْل): وقت الظهيرة. ومنه جاءت القيلولة. (المَقيظ): وقت الحر. (الطَّوْف): اللَّعِب. (النِّزاق): الطيش والنَّزق. والمعنى أنَّ هذا الحصانَ لم يُرْكَبْ وقتَ حرِّ الظهيرة أو للَّعبِ الفاسد الذي يدل على الطيش والنزق.

7- (الرَّغْباء): رغبة الصيد. (قلَّصت):شَمَّرَت. أي أننا لا نُسيِّر هذا الحصانَ إلا للصيد إنْ كان صيدٌ أو للحربِ عندما تُشمِّرُ عن ساقها. ولا نركبه لِما ذكره في البيت السابق.

ولـه النَّعْجَـةُ المَـرِيُّ تِجـاهَ الـــ رَّكْـبِ عِـدْلاً بالنَّابئِ المِخـراقِ[1]
والخِـدَبُّ العـاري الزَّوائِـدِ مِلْـــ حَفَّـانِ دانـي الدِّماغِ للآمـاقِ"[2]

وبعدما انتهى عَدِيُّ بنُ زيدٍ مِنْ إنشادِهِ قالَ للشيخِ: "هل لكَ أنْ نركبَ فَرَسَيْنِ مِنْ خيْلِ الجنةِ فنَبْعَثَهما على قُطعانِ البقَرِ الوَحْشِيِّ وجَماعاتِ نَعامِها وعلى أسْرابِ ظِبائِها؟ فإنَّ للصيدِ لذةً اشتَهَيْتُها لك".

فيقولُ الشيخُ: "إنَّما أنا صاحبُ قلمٍ ومُسالَمَةٍ ولم أكُنْ صاحِبَ خَيْلٍ، ولا مِمَّنْ يركبُ حيواناً طويلَ الذيلِ. وقد زُرتُك إلى مَنزلكَ مُهنِّئاً بسلامتكِ مِنَ الجحيمِ وبِتَنَعُّمِك بعفوِ الرحيمِ. وما آمَنُ إذا ركبتُ حصاناً نشيطاً رَتَعَ في رياضِ الجنةِ فصارَ مِنَ البطَرِ والمَرَحِ والراحةِ كالسِّعلاةِ الصَّاخِبةِ. وأنا كما قالَ القائِلُ:

لـم يركَبوا الخيـلَ إلا بعدما كَبِروا فهـم ثِقالٌ علـى أكتافِهـا عُنُفُ[3]

وقد يَلْحَقُني ما لَحِقَ (جَلَماً[4]) عاشقَ (المُتَجَرِّدةِ) زوجةِ (النعمانِ بنِ المُنْذِرِ[5]) لَمَّا حُمِلَ على فَرَسِ (النعمان) المُسَمَّاةِ (اليَحْموم) فدُقَّت عُنُقُه. وقد بلَغَكَ ما لَقِيَ ولدُ (زهير بن أبي سُلمى) لمَّا دُقَّتْ عُنُقُه حينما سَقَطَ عن حصانِهِ القويِّ[6]. وكذلك ولدُكَ (عَلقمَةُ) الذي حَلَّت به في الدنيا العاجِلةِ النِّقمةُ لمَّا رَكِبَ للصيدِ وقلتَ فيه:

1- (النعجة): الأنثى. (المَري): الناقة الكثيرة اللبن. جمعه مَرايا. و(العِدْلُ): النظير. (النابِئ): الثور الذي ينبَأُ ويتحرَّك مِنْ أرضٍ إلى أرض. (المِخراق): الحسنُ الجسم الذي يخترق البلادَ ويجول فيها. والمعنى أن هذا الحصان لا يعادله ويساويه إلا الناقة الكثيرة اللبن الحسنةُ الجسم القادرة على السير واختراق البلدان.

2- (الخِدبُّ): الضخم من النعام وغيره. (مِلْحفَّان): يعني من الحفَّان. وهي صغار النعام ومفردها حفَّانة. (الآماق): مجاري الدمع في العين. مفردها: مُؤَق. والمعنى أنه يوازيه أيضاً النعام الضخم الذي لا يشغله أولادُه الصغارُ. فيقرب رأسه منهم.

3- (عُنُف): ج عنيف. أي أنَّ كبار السن عندما يركبون الخيل يكونون ثقالاً عليها ويعنفون بها.

4- (جَلَم بن عمرو): حمله النعمان بن المنذر على أن يركب فرسه (اليحموم). فأرداه قتيلاً.

5- (النعمان بن المنذر): بن الحارث بن امرئ القيس اللخمي. أبرز الملوك المناذرة في الحيرة في العراق. كان مسيحياً نسطورياً. وكان داهية مقداماً. وله يؤم بؤس ويوم سعد. وهو الذي قتل الشاعر (عَبيد بنَ الأبرص) في يوم بؤسه. حكم بين عامي 582 – 609 م.

6- كان لزهير بن أبي سُلمى ولد اسمه سالم. وقع عن حصانه فدُقَّتْ عنقه. فرثاه أبوه.

أنْعِـمْ صباحـاً علقـمَ بـنَ عَـديٍّ أثَوَيْـتَ اليـومَ لـم تَرْحَـلْ[1]

ملاحظة

وإني أحارُ يا معاشِرَ العربِ في هذه الأوزان التي تنتهي بالرويِّ الساكِنِ، والتي نَقلَها عنكم العلماءُ الثِّقاتُ، وتداولَها مِنْ بعدِهم مَنْ تعلَّمَ مِنْهُمْ. وأحارُ أيضاً مِنْ قصيدتك التي على الراءِ الساكنةِ وأولُها:

قـد آن أن تَصْحُـوَ أو تُقْصِـرْ وقـد أتـى لِمـا عَهِـدْتَ عُصُـرْ[2]
عـن مُبْرِقـاتٍ بالبُرِيـنَ وتبـدو بـالأَكُـفِّ اللامِعاتِ سُـوُرْ[3]
بيـضٌ عليْهِـنَّ الدِّمَقْـسُ وبالـ أعنـاقِ مِـنْ تَحْـتِ الأَكِفَّـةِ درّْ[4]

عودةٌ إلى السياق

ويَجوزُ أنْ يقْذِفَنِيَ السابِحُ[5] على صُخورِ زُمُرُّدٍ فيكسِرَ لي عَضُداً أو ساقاً، فأصيرَ ضُحْكةً في أهلِ الجِنانِ".

فيتبسَّمُ عديٌّ ويقولُ للشيخِ: "ويحَكَ. أما عَلِمْتَ أنَّ الجنةَ لا يُرهَبُ لديها السَّقَمُ ولا تَنزِلُ بِسُكَّانِها النِّقَمُ"؟.

فيركَبانِ سابِحَيْنِ مِنْ خَيْلِ الجنةِ. وحِصانُ كُلِّ واحِدٍ مِنْهما لو عُدِلَ بِمَمالِكِ الدنيا العاجِلَةِ مِنْ أولِها إلى آخِرِها، لَرجَحَ بها وزادَ في القيمَةِ عليها. فإذا نظرَ الشيخُ

1- البيت من قصيدة يرثي بها عديٌّ ولده علقمة. وكانا قد خرجا إلى الصيد. فلحق علقمة بحمار فقتله. ثم لحق بآخر فطعنه بالرمح. وانقصف الرمح في الحمار. وانقضَّ عليه الحمارُ بما بقي فيه من الرمح فأصاب علقمة.

2- (تُقْصِر): تتوقف. مِنْ (أقصَر): امتنع. والمعنى أنه آنَ لك أن تصحوَ مِنَ الحُبِّ وأن تتوقف عنه. فقد مضى عليك وأنت في هذه الحالة زمن طويل.

3- (أبرقت المرأة): أشارت بحُلِيِّها التي بَرَقَت. (البُرين): ج بُرَة. حلية. (سُوُر): ج سِوار. والمعنى أنه آنَ لك أنْ تتوقف عن حب الفتيات اللواتي يُشِرْن إليك بحليهن وبسوارهن الذي في أيديهن.

4- (الدِّمَقْس): نوع من الثياب. (الأكِفَّة): ج كِفاف. وهو طرف الثوب أو أي شيء. والمعنى أن هذه الفتيات بيض ويلبسن ثياب الدمقس ويضعن الدرَّ على الأعناق التي تظهر من تحت أطراف الثوب.

5- (السابح): من أوصاف الخيل. ويسمى الحصان سابحاً إذا كان جريه يشبه السباحة.

إلى قَطيعٍ مِنْ حُمُرِ الوَحْشِ يَرْتعُ في رِياضِ الفردوسِ، صوَّبَ مولايَ الشيخُ الرُّمْحَ إلى ثَوْرٍ وَحْشيٍّ طَويلِ الذيلِ قد رَتَعَ هناك طويلَ أيامٍ ولياٍل. حتى إذا لم يَبْقَ بين سِنانِ الرُّمْحِ وبين الثورِ إلا مِقْدارُ ظُفرٍ قالَ الثورُ: "توقَّفْ رَحِمَكَ اللهُ. فإني لستُ مِنْ وُحوشِ الجنة التي أَنْشأها اللهُ سبحانه ولم تكُنْ في الدارِ الزائلةِ. ولكني كنتُ في دنيا الغُرورِ أرتادُ بعضَ القِفارِ وأتجَوَّلُ فيها. فمَرَّ بي ركبٌ مؤمنون قد نَقَصَ زادُهم. فصَرَعوني واستَعانوا بِلَحْمي على السفرِ. فعوَّضني اللهُ – جلَّتْ كلمتُه – بأنْ أسْكَنَني في الخلودِ". فيكفُّ عنه مولايَ الشيخُ الجليلُ.

ويَعْمِد الشيخُ لِحمارٍ وَحشيٍّ لا يُخشى مِنَ القضاءِ عليه بالصيدِ. فإذا صار الرمحُ على بعد أنْمُلَةٍ عنه قالَ الحمارُ: "توقَّفْ يا عبدَ الله. فإنَّ اللهَ أنْعَمَ عَليَّ ورفعَ عني البؤسَ. وذلك أنَّه صادني صائدٌ بمِخْلَبٍ. وكان جِلْدي مِنْ أسلابِهِ. فباعَه في بَعضِ الأمْصارِ. وقطَّعه للسُّقاة قِطَعاً. واتَّخَذَ منه وِعاءً سُقِيَ بمائِه المَكْروبون، وتَطَهَّر بما مُلِئَ به مِنْ ماءٍ الصالِحون. فشَمَلَتْني بَرَكَةٌ مِنْ أولئك. فدخَلْتُ الجنةَ أُرزَق فيها بغيرِ حِسابٍ".

فيقولُ الشيخُ: "يجبُ أنْ تَتَمَيَّزْنَ عن غيركُنَّ. فمَنْ دخَلَ مِنْكُنَّ الدارَ الفانيةَ يجبُ أنْ لا يَختلِطَ بوحوشِ الجنة". فيقول ذلك الثورُ الوحشيُّ: "لقد نَصَحْتَنا نُصْحَ المُشْفِقِ علينا. وسوف نَفعلُ بِما أَمَرْتَ".

مع أبي ذؤيب الهُذَليّ

وينصرِفُ مولاي الشيخُ الجليلُ وصاحِبُهُ "عديٌّ". فإذا هما بِرجلٍ يَحْلِبُ ناقةً في إِناءٍ مِنْ ذَهَبٍ. فيقولان: "مَنِ الرجلُ؟". فيقولُ: "أبو ذؤيب الهُذَلي"[1]. فيقولان: "حُيِّيتَ وسَعِدتَ. لا شَقيتَ في عَيْشِك ولا ابْتَعَدْتَ. أتَحْلِبُ ناقةً مع وُجودِ أنهارِ لبنٍ؟ فكأنَّ ذلك مِنَ الحُمْقِ وضَعْفِ الرأيِ". فيقولُ أبو ذؤيب: "لا بأسَ. إنَّما خَطَرَ لي ذلك مِثْلما خَطَرَ لكما الصَّيْدُ. وإني ذكرتُ قولي في الدهرِ الأولِ:

1- مرت ترجمته.

وإن حَديثـاً مِنْـكِ لـو تَعْلمينَـهُ جَنى النحْلِ في ألبانِ عُوذٍ مَطافِلِ
مطافيـلَ أبـكارٍ حَديـثٍ نِتاجُهـا تُشـابُ بماءٍ مثلِ مـاءِ المَفاصِلِ[1]

فقيَّضَ اللهُ لي بقدرته هذه الناقةَ عائذاً مُطفِلاً لأنه كانَ بالنِّعَم مُتَكفِّلاً. فقُمتُ أحْلِبُها على العادةِ. وأريدُ أن أخلُطَ حليبَها بعسلِ نَحلٍ".

فإذا امتلأ إناؤُه مِنَ اللبنِ، كوَّن الباري – جَلَّتْ عَظَمَتُه – خَلِيَّةَ نحلٍ مِنَ الجوهرِ، رتعَ نحلُها في الزهرِ. فاجتنى ذلك (أبو ذؤيب). ومَزَجَ حَليبَه بالعسلِ بلا ريب. فيقولُ: "ألا تشربان؟". فيَجْرعانِ مِنْ ذلك اللبنِ المَحْلوبِ المَمزوجِ بالعسلِ جُرُعاتٍ لو فُرِّقَتْ على أهل (سَقَر) لفازوا بالخُلْدِ رأساً. فيقرأُ عديٌّ الآيةَ الثالثةَ والأربعين مِنْ سورة (الأعراف): "الحَمْدُ لله الذي هدانا لِهذا وما كُنا لِنهتَدِيَ لولا أنْ هدانا اللهُ لقد جاءتْ رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ ونُودُوا أنْ تِلْكُمُ الجنةُ أورِثْتُموها بِما كُنتم تَعْمَلون".

ويقولُ الشيخُ – أدامَ اللهُ تَمْكينَه – لـ (عدي): "جئتَ يا عديُّ بشيئين في شِعرِكَ ودِدْتُ أنك لم تأتِ بهما. أحدُهما قولُك:

فَصـافَ يُفَـرِّي جُلَّـه عن سَـراتِهِ يَبُـذُّ الجِيـادَ فارِهـاً مُتتابِعـا[2]

والآخَرُ قولُك:

فليـتَ دَفَعـتَ الهـمَّ عنِّيَ سـاعةً فنُمسي على ما خَيَّلَتْ ناعِمَيْ بالِ"[3]

1- (العُوذ): ج عائذ. وهي الحديثة الولادة. (المَطافِل): ذات الأطفال. (المفاصِل): الحجارة المتراصفة ما بين جبلين. ويكون ماؤها صافياً رقراقاً. ومعنى البيتين أنَّ حديث هذه الفتاة يشبه عسلَ النحل في ألبان ناقة حديثة الولادة. وقد خُلِط هذا اللبن بماء المفاصل الرقراق.

2- (صافَ): أقام في المكان صيفاً. (يُفَرِّي): يُمزِّق. (الجُلَّ): ما يوضَع على ظهر الدابة. (السَّراة): الظهر. (يبذُّ): يسبق. (الفارِهُ): الحاذق النشيط. (المُتتابع): المُتكامل الخَلْق. والمعنى أنَّ هذا الحصان أقام في الصيف وهو يمزق جُلَّه. وهو يسبق الخيل وهو نشيط. ومأخذ المعري على عدي في هذا البيت أن كلمة (فارِه) تطلق على الحمار. يقال: (برذونٌ وحمارٌ فاره) . وكان الأصمعي يقول عن عدي بن زيد إنه لا علم له بالخيل.

3- مأخذ المعري على عدي أنه قال: (فليت دفعت). وكان يجب أن يقول: ليتك دفعت لأن ليتَ لا تدخل على الفعل.

فيقول عديٌّ: "يا مكبور. لقد رُزِقْتَ ما يَجِبُ أنْ يَشغَلَكَ عن الشِّعرِ. إنَّما يَنبغي أنْ تكونَ كما قيلَ لك في الآية التاسعةَ عَشْرةَ مِنْ سورةِ (الطور): (كُلوا واشْرَبوا هنيئاً بِما كُنتُم تَعْمَلون).

ملاحظة

قوله: (يا مَكبور) يريدُ: يا مَجْبور. فجَعَلَ الجيمَ كافاً. وهي لغةٌ رديئةٌ يَستعمِلُها أهلُ اليمنِ. وجاءَ في بعضِ الأحاديثِ أنَّ (الحارثَ بنَ هاني بنِ أبي شَمِرِ بنِ جبَلَة الكِنْدي)، أحاطَ به العدوُّ يومَ (ساباط[1]) فنادى: (يا حُكْر يا حُكْر). يريد (يا حُجْرَ بنَ عديّ)[2]. فعطفَ عليه حُجْرٌ وأنقذَهُ.

عودةٌ إلى السياق

فيقولُ الشيخُ – زادَ اللهُ في أنفاسِهِ – "إني سألتُ ربي عزَّ سُلطانُه، ألا يَحرِمَني في الجنةِ تَلَذُّذاً بأدبي الذي كنتُ أتلذَّذُ به في عاجلتي، فأجابَني إلى ذلك. (ولهُ الحَمْدُ في السمواتِ والأرضِ وعَشِياً وحين تُظهِرون[3]).

مع النابغةِ الجَعْدِيِّ والنابغةِ الذُّبْياني

ويَمضي الشيخُ في نُزْهتِه تلك، فيلتقي بشابَّيْنِ يَتَحادثان. كلٌّ واحِدٍ منهما يقفُ

1- (ساباط): اسم مكان يبعد عن المدائن مقدار خمسة عشر كيلومتراً. فبعد الانتصار في معركة القادسية وجَّه عمرُ بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بفتح المدائن التي تبعد عن نهر دجلة مقدار ثلاثين كيلومتراً من جهة الغرب. وكان هناك مكان يسمى (مُظْلِم ساباط). وسمي بهذا الاسم لكثافة الأشجار فيه فلا تدخل إليه أشعة الشمس. والتقى المسلمون بالجيش الفارسي. وكان مع الفُرْسِ أسدٌ قوي. وفي هذا المكان قُتِلَ الأسدُ وانتصر المسلمون. فسمي هذا اليوم (يوم ساباط).

2- (الحارث بن هاني) وفد على النبي في المدينة. وشهد معركة ساباط في المدائن في العراق. و(حُجْر بن عدي بن معاوية الكندي) المعروف بـ (حُجْرِ الخير). أسلم وهو صغير السن. وفد على النبي مع أخيه (هانئ بن عدي) في المدينة في آخر أيامه. كان قائداً عسكرياً وشجاعاً وتقياً. شارك في فتح العراق والشام وشهد القادسية ثم الجمل وصفين مع علي بن أبي طالب. قتله معاوية بن أبي سفيان عام 51 هـ 671 م. ودُفِنَ في (مرج عذراء) قرب دمشق.

3- الآية 18 من سورة الروم.

على بابِ قصرٍ مِنْ دُرٍّ. وقد أُعْفِيَ مِنَ البؤسِ والضُّرِّ. فيسلِّمُ عليهما ويقولُ: مَنْ أنتما رَحِمَكُما اللهُ وقد فعلَ؟ فيقولان: نحن النابغتان: نابغةُ بني جَعْدة[1] ونابغةُ بني ذُبيان[2]. فيقولُ – ثَبَّتَ اللهُ وطْأَتَهُ – : "أمَّا نابغةُ بني جعدة، فقد استوْجَبَ الجنةَ بِما هو عليه مِنْ دُخولِ الإسلامِ الحنيفِ. وأمَّا أنت يا أبا أُمامةَ، فما أدري ما هي جِهتُك التي أدْخَلَتْكَ الجنةَ"؟. فيقولُ الذبياني: "إني كنتُ مُقِرًّا باللهِ. وحَجَجْتُ البيتَ في الجاهلية. ألم تسمَعْ قولي:

فــلا لَعَمْرُ الــذي قد زُرْتُــه حِجَجاً ... وما هُريقَ على الأنصاب من جَسَدِ[3]

والمؤمنِ العائذات الطيرَ تَمْسَــحُها ... رُكْبــانُ مكةَ بين الغِيل والسَّــندِ؟[4]

وقولي:

حَلَفْــتُ فلــم أَتْــرُكْ لنفســك رِيبةً ... وهل يَأْثَمَن ذو إِمَّــةٍ وهو طائعُ[5]

بِمُصْطَحِبــاتٍ مِــنْ لَصــافٍ وثَبرةٍ ... يَــرِدْنَ إلالاً سَــيْرُهُنَّ تَدافُــعُ؟[6]

1- (النابغة الجعدي): كنيته أبو ليلى. وهو (قيس بن عبد الله الجعدي). شاعر مخضرم. اشتهر بوصف الخيل واستنكار الخمر والأوثان في الجاهلية. عُمِّر في الإسلام وشهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب. توفي عام 58 هـ 678 م

2- (النابغة الذبياني): زيد بن معاوية من بني ذبيان الغطفاني. أبو أمامة. وأبو سَوادة. وأبو ليلى. من الطبقة الأولى في الفحول. وكان يُضرب له قبة في سوق عكاظ ليحكم بين الشعراء. توفي عام 604 م.

3- (الحِجَج): السِّنين. (هُريقَ): أُريق. (الأنصاب): حجارة كانوا يذبحون القرابين عندها حول الكعبة. (الجسد): الدم.

4- (المُؤمِن): الذي يؤمِّن الطيرَ العائذاتِ بالكعبة. (يَمْسَحُها): يُمَرِّر أيديَهُ عليها بلطف. (الغيل والسند): اسما مكان.

والبيتان من قصيدته الشهيرة التي يمدح بها النعمان بن المنذر.

يــا دارَ مَــيَّــةَ بالعليــاءِ بالسندِ

ومعنى البيتين أنه يقسم باللهِ الذي زار كعبته مِراراً، ويقسم بما أريق مِنْ دماءٍ على أنصاب الكعبة، ويقسم بالله الذي أَمَّنَ طيورَ الكعبة التي يمسحها الركبان.

5- (الإمَّة): الدين والشريعة.

6- (لصاف وثبرة): موضعان. (ألال): جبل قرب جبل عرفات. ومعنى البيتين أنه يُقسم بالركاب التي تقصد جبل عرفات. وهذه الركاب تسير بتدافع. وقد حلف الشاعر حتى لا يترك شكاً وريبة في نفس النعمان. وهل يأثم بالكذب مَنْ هو ذو دين وطائعٌ لربه؟

ولم أُدرِكِ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ، فتقومُ الحُجَّةُ عليَّ بِمُخالفتِهِ. وإنَّ اللهَ تقدَّسَتْ أسماؤهُ، عزَّ مَلِكاً وجلَّ، يَغْفِرُ ما عَظُمَ مِنَ الذنوبِ بِما قلَّ مِنَ الطاعةِ". فيقولُ الشيخُ – لازالَ قولُه عالياً – : "يا أبا سَوادة عديَّ بنَ زيد، ويا أبا أُمامةَ نابغةَ بني ذُبيان، ويا أبا ليلى نابغةَ بني جَعدةَ، اجْعَلوها ساعةَ مُنادمةٍ. فإنَّ مِنْ قولِ شيخِنا عديِّ بنِ زيد:

أيها القلبُ تَعَلَّلْ بِدَدَن ... إنَّ هَمِّي في سَماعٍ وأَذَنْ[1]

وشَرابٍ خُسْرُوانيٍّ إذا ... ذاقَهُ الشيخُ تَغَنَّى وارْجَحَنْ[2]

وقال:

وسَماعٍ يَأْذَنُ الشيخُ لهُ ... وحَديثٍ مِثْلِ ماذيٍّ مُشارِ[3]

فكيف لنا بـ (أبي بَصيرٍ الأعشى)؟".

فلا تتمُّ الكلمةُ إلا وأبو بَصيرٍ قد صارَ خامِسَهم. فيسبِّحون للهِ ويُقَدِّسونَه ويَحمَدونه على أنْ جَمَعَ بينهم. ويتلو الشيخُ – جَمَّلَ اللهُ ببقائِهِ – الآيةَ التاسعةَ والعشرين مِنْ سورة (الشورى): (وهو على جَمْعِهِمْ إذا يَشاءُ قَديرٌ).

فإذا أكلوا مِنْ طيِّباتِ الجنةِ وشَرِبوا مِنْ شَرابِها الذي خَزَنَه اللهُ لعبادِهِ المُتَّقين، قالَ الشيخُ – أرغم اللهُ أنفَ مُبْغِضِه – للنابغةِ الذبياني: "يا أبا أُمامةَ. إنَّكَ لَحَصيفُ الرأيِ لَبيبٌ. فكيف حَسَّنَ لك لُبُّك أنْ تقول للنعمان بنِ المنذر[4]:

زَعَمَ الهُمامُ بأنَّ فاها بارِدٌ ... عَذْبٌ إذا ما ذُقْتَهُ قُلْتَ ازدَدِ

زَعَمَ الهُمام ولم أَذُقْهُ بأنَّهُ ... يُشفَى بِبَرْدِ لَثاتِها العَطِشُ الصَّدي[5]

1- (تعلَّل): تمسَّك. (الدَّدَن): اللهوُ واللعب. (الأَذَنُ): الاستماع. من أَذَن يَأْذَنُ: استمع

2- (ارْجَحَنَّ): مالَ واهتزَّ.

3- (يأْذَنُ): يسمع. (الماذِيُّ): العسل الأبيض. (مُشار): من: شارَ العسلَ: استخرجَه مِنَ الخلية. فهو مُشار أي مُسْتَخرج.

4- (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة الذي مرَّ ذكره. وكان الشعراء يقصدونه. نادمه النابغة الذبياني. وصحبه عدي بن زيد. ومدحه حسان بن ثابت والأعشى وعَبيد وغيرهم من شعراء الجاهلية.

5- (اللثاة): اللثة. (الصَّدِيُّ): الشديد الظمأ.

ثم استمرَّ بكَ القولُ حتى أنكَرَه عليك الخاصَّةُ والعامةُ؟"

فيقولُ النابغةُ بذكاءٍ وفَهْمٍ: "لقد ظَلَمَني مَنْ عابَ عليَّ. ولو أنْصَفَ لَعلِمَ أنني احْتَرَزْتُ أشدَّ احْتِرازٍ. وذلك أنَّ النعمانَ كانَ مَفْتوناً بتلك المرأةِ. فأمَرَني أنْ أَذْكرَها في شِعْري. فأدرتُ الأمرَ في خَلَدي فقلتُ: إنْ وصفتُها وَصْفاً مُطلَقاً دونَ ذِكرِ اسمِها، جازَ أنْ يكونَ وصفي لِغيرِها. وخَشيتُ أنْ أذكرَ اسمَها في النظمِ، فلا يكونُ ذلك مُوافِقاً لِلمَلِكِ لأنَّ المُلوكَ يأنَفونَ مِنْ تَسميةِ نِسائِهِمْ. فرأيتُ أنْ أُسْنِد الصِّفةَ إليه فأقولَ: زَعَمَ الهُمامُ. إذ لو تَركتُ ذِكْرَهُ لَظنَّ السامِعُ أنَّ وَصْفي لها قائِمٌ على المُشاهدةِ. والأبياتُ التي جاءتْ بعدُ، داخِلةٌ في وَصفِ الهُمامِ. فمَنْ تأمَّلَ المَعنى وجدَه غيرَ مُخْتلٍّ. وكيف تُنشِدونَ:

وإذا نظرتَ رأيتَ أقمرَ مُشْرِقاً

وما بعده؟".

فيقولُ الشيخُ – أرغمَ اللهُ أنفَ شانِئِهِ – :"نُنْشِدُ: وإذا نظرتَ..وإذا لمستَ.. وإذا طعنتَ.. وإذا نزعتَ[1] على الخِطاب".

فيقولُ النابغةُ: "قد يَسوغُ هذا. ولكنَّ الأجودَ أنْ تَجعلوهُ إخباراً عن المُتكلِّم. لأن قولي: (زعم الهُمامُ) يؤدِّي مَعْنى قَوْلِنا: (قالَ الهُمامُ). فهذا أسْلَمُ. إذْ كانَ المَلِكُ إنَّما يَحْكي عن نفسِهِ. وإذا جَعلتُموهُ على الخِطابِ.. (إذا نظرتَ.. إذا لمستَ) قَبُحَ. فإن نسبتُم الخِطابَ إليَّ فهو خِزْيٌ يَنْدى له الجبينُ. وإذا نسبتُم الخِطابَ إلى النعمان فهو إزْراءٌ به وتَنقُّصٌ مِنْه".

فيقولُ الشيخُ – أيَّدَ اللهُ الفضلَ بزيادة مُدَّتِه – "لله دّرُّك يا كوكَبَ بني مُرَّة. ولقد صَحَّفَ عليك أهلُ العِلْمِ مِنَ الرُّواةِ. وكيف لي بـ (أبوي عمرو: المازنيِّ والشيبانيِّ، وأبي عُبيدةَ، وعبدِ المَلِكِ[2] وغيرِهِم مِنَ الرُّواةِ لأسألَهم: كيف يَروونَ هذه الأبياتَ

1- هذه العبارات من صدور أبيات من دالية النابغة في وصف (المتجردة) التي أولها: أمِنْ آل ميَّةَ رائحٌ أم مُغْتَدي).

2- هم (أبو عمرو بن العلاء المازني)، و(أبو عمرو الشيباني): إسحق بن مُرار الذي كان من نُحاة الكوفة.=

وأنتَ شاهِدٌ لِتعلمَ أني غيرُ مُتَخَرِّصٍ ولا كذَّابٍ عليك ولا مِمَّنْ يخوضُ في أَعْراضِ الناسِ".

فلا يَسْتقِرُّ هذا القولُ في أذني (أبي أمامةَ) إلا وهؤلاء الرواةُ أجمعونَ قد أحضَرَهَمُ اللهُ القادرُ مِنْ غيرِ مشقَّةٍ نالَتْهُمْ، ولا كُلْفةٍ في ذلك أصابَتْهُم. فيَسلِّمونَ بلُطْفٍ ورِفْقٍ. فيقولُ الشيخُ: "مَنْ هذه الشخوصُ الفِردَوْسية؟".

فيقولون: "نحنُ الرواةُ الذين شِئْتَ إِحْضارَهم آنفاً".

فيقولُ: "لا إلهَ إلا اللهُ مُكَوِّناً لِلخَلْقِ مُدَوِّناً لأعمالِهِم. وسبحانَ اللهِ باعِثاً وارِثاً. وتَبارَكَ اللهُ قادِراً لا غادِراً. كيفَ تَرْوُونَ أيها المَرْحومون قولَ النابغةِ في (الداليةِ): وإذا نظرت.. وإذا لمست.. وإذا طعنت.. وإذا نزعت. أَبِفتح التاءِ أم بِضمِّها؟". فيقولون: "بفتحِها". فيقول: "هذا شيخُنا أبو أُمامةَ يختارُ الضمَّ، ويُخبِرُ أنَّه حكاه عن النعمان". فيقولونَ: "هو كما جاءَ في الآيةِ الثالثةِ والثلاثين مِنْ سورةِ (النمل): (والأمرُ إليكِ فانْظُري ماذا تَأمرين)".

فيقولُ الشيخُ – ثَبَّتَ اللهُ كلمتَه على التوفيقِ: "مضى الكلامُ في هذا يا أبا أُمامةَ. فأنشِدْنا قصيدَتَك التي أولُها:

أَلِمَّــا علــى المَمْطْــورَةِ المُتَأَبِّــدةْ ... أقامَتْ بها في المَرْبَعِ المُتَجَرِّدةْ[1]
مُضَمَّخَةً بِالمِسْكِ مَخْضوبَةَ الشَّوى ... بِــدُرٍّ وياقــوتٍ لهــا مُتَقَلِّــدةْ[2]
كأنَّ ثَناياها – ومــا ذُقْتُ طَعْمَها – ... مُجاجَــةُ نَحْلٍ في كُمَيْــتٍ مُبَرَّدةْ[3]
لِيَقْــرِرْ بهــا النُّعمــانُ عَيْنــاً فإنَّها ... لــه نِعْمَةٌ في كُلِّ يــومٍ مُجَدَّدةْ"[4]

= توفي عام 206 هـ 821 م في خلافة المأمون. وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى وقد وردت ترجمته. وعبد الملك بن قُرَيْبٍ الأصمعي. وقد وردت ترجمته.

1- (المَطورة): الأرض التي يسقيها المطر. (المتأبِّدة): التي تسكنها الأوابد أي الوحوش. (المَربَع): مكان الإقامة في الربيع. (المتجردة): زوجة النعمان.

2- (الشَّوى): الأطراف. أي أنها متعطِّرةٌ بالمِسكِ وقد خضَّبت أطرافَها بالحِنَّاء. (متقلِّدة): جعلت الدرَّ والياقوتَ قِلادةً لها.

3- (المُجاجة): الريق. (الكُمَيْت): الخمر.

4- (لِيَقْرِرْ): مِنْ قَرَّتْ عينُه: هنِئَ. (مُجَدَّدة): متجددة الحُسْن.

فيقولُ أبو أمامة: "ما أذكرُ أني سَلَكْتُ هذا المَذْهَبَ قطُّ"[1]. فيقولُ مولاي الشيخُ – زَيَّنَ الله أيامَه ببقائِهِ – : "إنَّ ذلك لَعَجَبٌ. فمَنْ ذا الذي تَطوَّعَ فنَسَبَها إليك؟". فيقولُ النابغةُ: "إنها لم تُنْسَب إليَّ على سبيل التطوُّعِ. وإنما على معنى الغَلَطِ والتوهُّم. ولعلها لِرَجُلٍ مِنْ بني (ثعلبة بنِ سَعد)".

فيقولُ (نابغةُ بني جعدة): "صَحِبَني شابٌّ في الجاهليةِ ونحنُ نُريدُ (الحِيرةَ). فأنشدَني هذه القصيدةَ لِنفسِه. وذَكَرَ أنَّه مِنْ (ثعلبة بن عُكابة). وصادفَ قدومُهُ أنْ مَرِضَ النعمانُ فلم يصِلْ الرجلُ إليه". فيقولُ نابغةُ بني ذبيان: "ما أجدَرَ ذلك أنْ يكونَ".

ويقولُ الشيخُ – كتب اللهُ له ثَوابَ المُتَّقين – لِنابغةِ بني جعدة: "يا أبا ليلى. أنْشِدْنا قصيدتَك التي على الشِّينِ والتي تقولُ فيها:

ولقد أغـــدو بِـــشَـــرْبٍ أُنُـــفٍ ... قبـلَ أنْ يَظْهَرَ في الأرضِ رَبَشْ[2]
مَـعَـنـا زِقٌّ إلـــى سُـمَّـهَـةٍ ... تَسِـقُ الآكالَ مِـنْ رَطْـبٍ وَهَشْ[3]
فَـنَـزَلْـنـا بِـمَـلـيـعٍ مُـقْـفِـرٍ ... مَسَّـهُ طَـلٌّ مِـنَ الدَّجْـنِ ورَشْ[4]
ولَـدَيْـنـا قَـيْـنَـةٌ مُـسْـمِـعَـةٌ ... ضَخْمَةُ الأرْدافِ مِـنْ غير نَفَشْ[5]
وإذا نـحْـنُ بِـإِجْـلٍ نـافِـرٍ ... ونَعـامٍ خِيطُـه مِثْـلُ الحَبَـشْ[6]
فَحَمَلْـنـا مـاهِـنـاً يَـنْصِفُـنـا ... فوق يَعْبـوبٍ مِنَ الخَيْـلِ أجَشْ[7]

1- يرى المعري أن هذه القصيدة منحولة على النابغة.

2- (الشَّرب): ج شارب. (أُنُف): الشديد الأنفة. (الرَّبَش): العشب والنبات. يقال: أَرْبَشَ الشجرُ: أورق. والمعنى أنه يذهب مع جماعةٍ من الشاربين لهم أنفة وكبرياء. وذلك قبل أنْ يورق الشجر.

3- (السُّمَّهة): خوصٌ يُجمَع فيصبح مائدة. (الآكال): ج أُكُل. وهو ما يؤكل. (الهَشُّ): اليابِسُ اللين المكسَّر.

4- (المَليع): المفازة التي لا نبت فيها. (الطَّلُّ) المطر الضعيف. (الدجْن): المطر الكثير. (الرش): المطر الخفيف.

5- (القَيْنَة): المغنية. (المُسْمِعة): المُطْرِبة. (النفَش): التشعيث. مِنْ (نَفَش الصوفَ): شَعَّثه وفرَّقه. أي أنَّ هذه القينة ضخمةُ الأرداف دون زيادة.

6- (الإجْل): القطيعُ مِنْ بقر الوحش والظباء. (الخِيط): جماعة النعام.

7- (الماهِن): الخادم. مِنْ مَهَن: صار صاحبَ مهنة. (نَصَف): خدم. (اليعبوب): الفرس الطويل السريع. (أجش): غليظ الصهيل. والرجل الأجش: الغليظ الصوت.

ثم قُـلْـنا: دونَـكَ الصَّـيْـدَ بـه تُـدْرِكِ المَحْبـوبَ مِنَّـا وتَعِـشْ[1]
فَـأَتـانـا بِـشَـبـوبٍ نـاشِـطٍ وظَلـيـمٍ مـعَـهُ أُمٌّ خُـشَـشْ[2]
فاشـتويْـنا مِنْ غَريـضٍ طَـيِّـبٍ غيْـرِ مَمْنـون وأُبْنـاً بِغَبـشْ"[3]

فيقولُ نابغةُ بني جَعدةَ: "ما جعلتُ الشينَ قطُّ رويًّا. وفي هذا الشعرِ ألفاظٌ لم أسمَعْ بها قطُّ. منها: (رَبَش) و(سُمَّهة) و(خُشش)".

فيقولُ مولاي الشيخُ الأديبُ المُغْرِمُ بالعلمِ: "يا أبا ليلى. لقد بَعُدَ عَهْدُك بألفاظِ الفُصَحاءِ. وشَغَلَك شرابٌ ما جاءتْكَ بمثلِهِ بابلُ ولا أذرِعاتٌ، وشَغَفَتْكَ لحومُ الطيرِ الراتِعَةِ في رِياضِ الجنةِ فنسيتَ ما كنتَ عرفتَ. ولا مَلامةَ إذا نَسيتَ ذلك. فقد قالَ تعالى: (إنَّ أصحابَ الجنةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكِهون. هم وأزواجُهُم في ظِلالٍ على الأرائِكِ مُتَّكِئون. لهم فاكِهةٌ ولهم ما يدَّعون).

أما (رَبَشٌ)، فمِنْ قولِهم: (أرضٌ رَبْشاء). إذا ظهرتْ فيها قِطَعٌ مِنَ النبات. وكلُّها مَقْلوبَةٌ من (بَرْشاء). وأما (السُّمَّهَةُ)، فشبيهةٌ بالمائدةِ تُتَّخَذُ مِنَ الخُوصِ. وأما (خُشَش)، فإنَّ (أبا عمرو الشيبانيَّ[4]) ذَكَرَ في كتابِ (الخاء) أنَّ الخُشَش ولدُ الظبية.

فإذا أغلقْنا هذا البابَ فإني أسألُكَ يا أبا ليلى: كيف تُنشِدُ قولَك:

وليس بِمَعروفٍ لنا أنْ نَرُدَّها صِحاحـاً ولا مُسـتَنْكَراً أن تَعَقَّـرا

أتقولُ: ولا مستنكَراً أم مُستَنكَرٍ؟".

1- (تعِشْ): من عاش يعيش. و(تدركْ): مجزومة بجواب الطلب. و(تَعِشْ) معطوفة على تدرك. والمعنى أننا قلنا للماهن أن يصيد على ذلك الحصان. فإذا فعلتَ أدركتَ ما ترغب به وعشت.

2- (الشَّبوب): النشِط الحَرون. من شبَّ يشِبُّ: رفع رجليه. (الظليم): ذكر النعام. (الخُشَش): ج خَشيش. وهو الغزال الصغير. والمعنى أنه جاءنا بحمارٍ وحشي ناشط، وبذكرِ نعام ومعه أم غزال.

3- (اشتوينا): شوينا اللحم. (الغَريض): الطري. (المَمْنون): المقطوع أو الذي يُفسِده المَنُّ. (أُبنا): رجعنا. من آب يؤوب. (الغَبَش): بقية الليل. والمعنى أنهم شَوَوْا ما صادوه وأكلوه ورجعوا إلى بيوتهم آخر الليل.

4- مرت ترجمته.

فيقولُ الجعديُّ: "بل مُستنكَراً".

فيقولُ الشيخُ: "فإنْ أنشدَ مُنْشِدٌ: مُستنكَرٍ، ما تصنع به؟".

فيقولُ الجعدي: "أمنعُهُ وأزْجُرُهُ. نَطَقَ بأمرٍ لا يَعْرِفُه".

فيقولُ الشيخُ – طَوَّلَ اللهُ له أَمَدَ البقاءِ – "إنا لله وإنا إليه راجِعون. ما أرى سيبويه إلا وَهِم في هذا البيتِ[1]. لأنَّ أبا ليلى الجعدي أدركَ جاهليةً وإسلاماً، وغُذِّيَ بالفصاحة غُلاماً".

ويلتفتُ الشيخُ إلى (أعشى قيس) فيقولُ: "يا أبا بَصيرٍ. أنشِدْنا قولَك:

أَمِـــنْ قَـتْـلَـةَ بالأنْقا ... ءِ دارٌ غـيـرُ مَحْلولَـةْ[2]

كأنْ لـم تَصْحَـبِ الحَـيَّ ... بهـا بَيضـاءُ عُطْـبـولةْ[3]

أنـــاةٌ يُـنْـزِلُ القُوسِيَّ ... مِـنْهـا مَـنْظَـرٌ هُـولـةْ[4]

ومـا صَهْـبـاءُ مِنْ عـانـةَ ... فـي الـذّارِعِ مَـحْـمـولـةْ

تَـوَلَّى كَـرمَـها أصْـهَـبُ ... يَـسْـقـيـهِ ويَـغْـدو لهْ

ثَـوَتْ في الخَرْسِ أعواماً ... وجـاءَتْ وهْـيَ مَقـتـولـةْ

بِـمـاءِ الـمُـزْنَـةِ الـغَـرَّا ... ءِ راحَـتْ وهـيَ مَشـمولةْ

1- المقصود أن سيبويه عطف (ولا مستنكرٍ) على (بمعروف). الباء في (بمعروف): حرف جر زائد. و(معروف) مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ليس. و(مستنكراً) عند الجعدي معطوف على الخبر المنصوب. أما سيبويه فيرى أنَّ (مستنكرٍ) معطوف على الخبر المجرور لفظاً المنصوب محلاً. وهذا ما أنكره المعري على لسان الجعدي. و(تَعْقّر): أصلها (تَتَعَقَّر: أي تُنحَر. وقال (تتعَقَّر) للمبالغة. والمعنى أنه ليس من المعروف عند الصائدين أنْ يَردُّوا صيدهم صحيحاً غير منحورٍ ومشويٍّ ومأكول. ولا أحد يستنكر أن يذبحوها. و(التعقير) هو أن يقطعوا قوائمها قبل ذبحها حتى لا تنفر منهم.

2- (الأنقاء): ج نَقا. وهو القطعة المحدودِبَةُ من الرمل. (مَحْلولة): مسكونة. من (حلَّ بالمكان): نزل فيه.

3 (العُطبولة): المرأة الفتية الجميلة.

4- (الأناةُ من النساء): المرأة التي فيها فتور وتأنٍّ عن القيام، أو هي الرزينة التي لا تصخَبُ ولا تُفحِش في الكلام. (القُوسيُّ): الراهب. (الهولة): المرأة التي يروعك ويَهوُلك جمالُها. كما نقول عن الجميل: رائع. لأنه يروعُك بجماله. والمعنى أن هذه المرأة تُغري الراهبَ بمنظرها الجميل.

بِـأَشْـهـى مـنْـكِ للظَّمآ نِ لـو أَنَّـكِ مَبْذولـةْ"[1]

فيقول (أعشى قيس): "ما هذه مِمَّا صَدَرَ عني. وأرى أنك منذ اليومِ لَمولَعٌ بالمَنْحولات".

مَجلِسُ غناء

ويَمُرُّ رفٌّ مِنْ إوزِّ الجنةِ. فلا يَلْبثُ أنْ يَنزِلَ على تلك الروضةِ ويقفَ وقوفَ مُنتَظِرٍ لأمرٍ – ومِنْ شأنِ طيرِ الجنةِ أنْ يتكلَّمَ – فيقولُ الشيخُ للإوزِّ: "ما شَأنُكنَّ؟". فيقُلْنَ: "أُلْهِمْنا أنْ نَسقُطَ في هذهِ الروضةِ فنُغَنِّيَ لِمَنْ فيها مِنَ الشاربينَ". فيقولُ الشيخُ: "على بركةِ اللهِ القديرِ". فينْتَفِضْنَ، فيَصِرْنَ جَواريَ كواعبَ يَرْفُلْنَ في وَشْيِ الجنةِ، وبأيديهنَّ المَزاهرُ وأنواعُ ما يَلتَمِسُ به الناسُ أنواعَ اللهوِ. فَيَعْجَبُ وحُقَّ له العَجَبُ. وليس ذلك إلا مِنْ بدائعِ قُدْرةِ اللهِ جَلَّت عظمتُه، وعزَّت كلمتُه، وسَبَغَت على العالَم نِعمتُه، ووسِعتْ كلَّ شيء رحمتُه، ووقعتْ بالكافِرِ نِقْمَتُه. فيقولُ لإحداهنَّ على سبيلِ الامتحانِ: "اعْمَلي قول (أبي أمامةَ النابغةِ الذبياني) وهو هذا القاعدُ:

أَمِـنْ آلِ مَيَّـةَ رائـحٌ أو مُغْتَـدِ عَجـلانَ ذا زادٍ وغَيْـرَ مُـزَوَّدِ

ثقيلاً أولَ".

فتصْنَعُه فتجيءُ به مُطْرِباً، وفي أعضاءِ السامعِ مُتَسَرِّباً. ولو نُحِتَ صَنَمٌ مِنْ أحْجارٍ، أو صُنِع دفٌّ مِنْ خشبٍ عند النجارِ، ثم سَمِعَ ذلك الصوتَ لَرَقَصَ، وإنْ كانَ

1- الأبيات من الرابع حتى الثامن فكرةٌ واحدة. (الصهباء): الخمر. (عانة): اسم مكان كان يُصنَع فيه الخمر. (الذارع): الزق الصغير يُسْلَخُ من الذراع. (الأصهب): الذي يُخالط بياضَه حُمرةٌ. (الخَرْس): الدّن. (مقتولة): ممزوجة. (المُزْنَة الغراء): المطر الكثيف. (مَشمولة): ممزوجة. والمعنى أنها كانت خمرةً مِنْ عانةَ موضوعةً في الزق. وقد تولى العناية بكَرْمِها شابٌّ أصهبُ يسقيه. وقد بقيت في الدِّنان أعواماً حتى تعتَّقت ثم مُزِجَتْ بماء المطر. أي أنَّ هذه الفتاة أطيبُ من تلك الخمرة الطيبة للظمآن لو أنها مبذولة لنا.

واقِفاً في مكانٍ مُرْتفعٍ، هَبطَ ونزلَ ولم يَخَفْ أنْ تُدَقَّ عنقُه. فيَرِدُ عليه – أوردَ اللهُ قلبَه الحُبَّ – إعجابٌ يَعجِزُ أصحابُ الحِذْقِ والمَهارةِ والقدرةِ على الإتقانِ والتصرُّفِ عن إيصالِ مثلِه. فيقولُ: "هَلُمَّ خفيفَ الثقيلِ الأولِ"[1]. فتنبعث فيه تلك الجاريةُ بِنَغَمٍ لو سَمِعَهُ (الغَريض[2]) لأقرَّ أنَّ ما ترنَّم به ضعيفٌ مريضٌ.

فلمَّا أجادتِ الجاريةُ الغناءَ وأَدَّتْه كما يَجِبُ أنْ يُؤَدى، وزادتْ في الإجادةِ والمَهارةِ قالَ لها: "عليكِ بالثقيلِ الثاني". فتأتي به على نَهْجٍ لو سَمِعَه (عبدُ اللهِ بنُ جعفرَ[3])، لقرنَ أغانيَّ (بُدَيْحٍ[4]) إلى هَديرِ البعيرِ. فإذا رأى ذلك قالَ: "سبحانَ اللهِ. كلما كُشِفتْ قدرةُ هذه الجاريةِ ظهَرَ منها عَجائبُ لا يقدِرُ على مِثلِها أصحابُ النَّجابةِ والذكاءِ". ثم قالَ لها: "صيري إلى خَفيفِ الثقيلِ الثاني، فإنكِ لَمُجيدَةٌ مُحْسِنةٌ، يُطرَدُ بِغنائك النومُ". فإذا فعلتْ ما أمَرَ به كانت كَمَنْ يأتي بالمُتعَبين ويقولُ لهم: "ألا تَستريحونَ وتَمْرحونَ؟".

ثم يقترحُ عليها: الرملَ وخفيفَه، وأخاه الهَزجَ وسريعَه. وهذه الألحانُ الثمانيةُ مُطرِبةٌ للأذنِ ومُريحةٌ لها.

فإذا تَيَقَّنَ مِنْ حَذاقتِها في الغناءِ، وعَرَفَ لباقتَها في العزفِ على العودِ، هَلَّلَ وكَبَّرَ، وأطالَ حَمْدَ ربِّه واعْتَبَرَ. وقال لها: "ويحَكِ. ألم تكوني الساعةَ إوزَّةً طائِرةً، واللهُ خلقَكِ مَهْدِيَّةً لا حائرة؟ فمِنْ أين لك هذا العلمُ كأنك مَخلوقةٌ لِفَرحِ النفوسِ؟

1- (الثقيل الأول وخفيف الثقيل الأول والثقيل الثالث) وأمثالها، هي أسماءُ الأوزان والضروب الإيقاعية للموسيقى في ذلك العصر. وهي ثمانية – كما سوف يذكر المعري. ويتفرعُ عنها أوزانٌ وضروبٌ أخرى حتى تبلغ 32 ضرباً. و(الغَريض) من اللحم والتمر: كل أبيض طري، والمغني المُجيد.

2- (الغَريَض): عبد الملك أبو يزيد. لُقِّبَ بالغريض لنُضْرة شبابه وحُسْنِ مَنظره. كان مولى لــ (الثريا بنت علي) التي تغزل بها عمر بن أبي ربيعة. عاش في مكة، وأخذ الغناء عن ابن سُرَيْج. فبرز فيه حتى ذاع أمره. توفي عام 96 هـ 715 م في خلافة سليمان بن عبد الملك.

3- (عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب). كان شهماً كريماً. تزوج زينب بنت فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب. توفي عام 80 هـ 699 م.

4- (بُدَيْح): مولى عبد الله بن جعفر. كان عبد الله معجباً بغنائه حتى أحبَّ أن يسمعه عبد الملك بن مروان. فاحتال حتى أدخله على عبد الملك وأسمعه.

ولو نَشأْتِ بين (مَعْبَدٍ[1]) و(ابنِ سُرَيْجٍ[2])، لَما هَيَّجْتِ السامعَ هذا الهِياجَ. فكيف نَفَضْتِ عنك بَلَهَ الإوزِّ، وجعَلْتِنا نهتزُّ بالطربِ أشد الهّز؟". فتقولُ: "وما الذي رأيتَ مِنْ قُدْرةِ بارِئِكَ؟ إنك على شاطئِ بحرٍ لا يُدْرَك له شاطئٌ. سُبحان مَنْ يُحْيي العِظامَ وهي رَميمٌ".

مع لبيد بن ربيعة

فبينما هم كذلك إذْ مرَّ شابٌّ بيدِهِ عصا مِنْ ياقوتٍ. فيُسلِّمُ عليهم فيقولونَ: "مَنْ أنتَ؟". فيقولُ: "أنا لَبيدُ بنُ ربيعةَ بنِ كِلابٍ[3]". فيقولون: "أُكْرِمْتَ أُكْرِمتَ. لو قلتَ (لبيدٌ) وسكتَّ، لَشُهِرْتَ باسمِكَ وإنْ صمتَّ. فما تقولُ في مَغْفِرَةِ رَبِّك؟". فيقولُ: "أنا بِحمدِ اللهِ في عَيْشٍ قَصَّرَ أنْ يَصِفَهُ الواصِفونَ. ولديَّ خادِماتٌ وخادِمون. لا هَرَمَ ولا بَرَمَ". فيقولُ الشيخُ: "تبارك المَلِكُ القُدُّوسُ. ومَنْ لا تُدرِكُ يَقينَه الحَدْسُ أو الحُدوسُ. كأنَّك لم تَقُلْ في الدارِ الفانيةِ:

ولقد سـئمتُ مِنَ الحيـاةِ وطولِها وسـؤالِ هذا الناسِ: كيـف لَبيدُ؟

ولم تَفُهْ بِقولِك:

فمتى أهْـلِـكْ فـلا أَحْـفِـلُـهُ بَجَلـي الآنَ مِـنَ العَيْـشِ بَجَـلْ[4]

مِـنْ حَيـاةٍ قـد مَلِلْنـا طولَهـا وجَديـرٌ طـولُ عَيـشٍ أنْ يُمَـلّ

1- (معبد بن وهب). كان مولى بني مخزوم. ولد في المدينة وتنقل بين مكة وبلاد الشام. يعتبر إمام المغنين. وقد عُمِّر طويلاً حتى انقطع صوته. ومات بالفالج أيام الوليد بن يزيد في دمشق. توفي بمرض الفالج في خلافة الوليد بن يزيد عام 126 هـ 744 م.

2- (ابن سُرَيج): أبو يحيى عبد الله بن سُرَيْج. مولى بني نوفل. ولد في مكة في خلافة عمر بن الخطاب. وتوفي في خلافة هشام بن عبد الملك وعمره 85 عاماً.

3- (لبيد بن ربيعة) من بني عامر بن صَعصَعة. عاش نحو 145 سنة. أكثرها في الجاهلية. أسلم وهو في التسعين من العمر. وصحب النبي (ص) في هجرته إلى المدينة. مات في الكوفة أواخر خلافة معاوية. وهو من أصحاب المعلقات.

4- (بَجَلي): حسبي وكفاني.

فأنشِدنا (ميميتَك المُعَلَّقة[1])". فيقولُ: "هيهاتَ. إني تركتُ الشعرَ في الدارِ الخادِعَةِ، ولن أعودَ إليه في الدارِ الآخِرَةِ. وقد عُوِّضْتُ عنه ما هو خَيْرٌ وأَبَرُّ".

فيقولُ الشيخُ: "أَخْبِرْني عن قولك:

تَـرَّاكُ أَمْكِنَـةٍ إذا لـم أرضَـهـا أو يَرتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[2]

هل أردتَ مِنْ (بعض) معنى الكلِّ؟".

فيقول لبيد: "كلا. إنما أردتُ نفسي. وهذا كما تقولُ للرجلِ: (إذا ذهَبَ مالُك أعطاك بعضُ الناسِ مالاً). وأنت تعني نفسَكَ في الحقيقة بأنك الذي ستُعْطيه المالَ. وظاهِرُ الكلامِ واقعٌ على كلِّ إنسانٍ".

فيقولُ الشيخُ – لا فَتِئَ خَصْمُهُ مُفْحَماً –: "أَخْبِرْني عن قولِك (أو يَرتبِطْ). هل مَقصَدُك: إذا لم أرْضَها أو يرتبطْ فيكون التقدير (لم يرتبط)؟ أم أنَّ المعنى: أتركُ المنازلَ إذا لم أرضَها. فيكونُ (يرتبطْ) محمولاً على قولك (تَرَّاكُ أمكنةٍ)"؟.

فيقول لبيد: "المعنى الأولَ أردتُ".

فيقولُ الشيخُ – أَعْظَم اللهُ حظَّه في الثوابِ –: "فما مَغزاك في قولِكَ:

وصَبـوحُ صافِيـةٍ وجـذبُ كَرينَةٍ بِـمُـوَتَّـرٍ تَـأتـالُـه إبْـهامُـها[3]

فإن الناس يَروون هذا البيتَ على وجهين.

1- يقصد قصيدته التي أولها:

عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فمُقامُها بمنىً تأبَّد غَوْلُها فرِجامُها

و(عفا): لازِمٌ ومُتَعَدٍّ. وهو هنا لازم. (المحلَّ): ما أقمتَ فيه لأيام قليلة. (المُقام): ما أقمت فيه طويلاً. (الغَوْل والرِّجام) جبلان في منى. (تأبَّد): صار مسكناً للأوابد وهي الوحوش.

2- البيت من معلقته. والمعنى: أنا أترك الأمكنة إذا رأيتُ فيها ما أكرهه. إلا إذا ربطني إليها الموتُ. و(يرتبطْ): مجزوم بالعطف على (لم أرضها). وللنحاة أقوال في إعراب (يرتبط). وما ذكرناه هو ما اختاره المعري.

3- البيت من معلقته. (الكرينَة): المُغنية. (المُوتَّر): له أوتار. (تأتالَه وتأتالُه): بفتح اللام من قولك: تأَتَّيتُ له: فعلتُ ذلك على مهل. وبضم اللام: من قولك: أَلْتُ له: إذا أصْلَحْتُه. والمعنى: كم من خمرة أشربها في الصباح حين تكون المغنية تعزف على عود تشدُّه أصابعها.

مِنْهم مَنْ يُنشِدُ: (تأتالُهُ) فيجعلُه على وزنِ (تَفْتَعِلُهُ) من (آلَ الشيءَ يؤولُه) إذا ساسَهُ وتدبَّرهُ.

ومنهم مَنْ يُنشِدُ: تأتالَه مِنَ الإتيان".

فيقول لبيد: "كلا الوجهين يَحْتَمِلُه البيتُ".

فيقولُ الشيخُ - أرغمَ اللهُ حاسِدَه -: "إنَّ أبا عليٍّ الفارسيَّ[1] كان يَدَّعي في هذا البيتِ أنَّه مثلُ قولهم (استحى يَستحي) على مَذْهَبِ الخليلِ[2] وسيبويه. لأنهما يَريانِ أنَّ قولَهم: (استَحَيْتُ) إنما جاءَ على قولهم استحايَ، كما أنَّ (استَقَمْتُ) على (استَقام). وهذا مذهبٌ طريفٌ لأنه يُعتَقَدُ أنَّ (تَأْتَى) مأخوذةٌ مِنْ (أَوَيَ) كأنه بُنِيَ منها (افتعل). فقيل (ائْتايَ) فأُعِلَّتِ الواوُ كما تُعَلُّ في قولنا: (اعْتانَ) مِنَ العَوْن. و(اقْتالَ) مِنَ القَوْلِ. ثم قيل: (ائْتَيْتُ). فحُذِفَت الألفُ كما يُقالُ (اقْتَلْتُ)".

فيقولُ لبيدٌ: "هذا قولُ مُعْتَرِضٍ لِما ليسَ مِنْ شَأنِهِ. الأمرُ أيسرُ مِمَّا ظنَّ هذا المُتَكَلِّفُ".

ويلتفتُ لبيدٌ إلى الأعشى ويقولُ له: "سبحانَ اللهِ يا أبا بَصيرٍ. غُفِرَ لك وصِرتَ في جنة عدنٍ بعدَ إِقْرارِكَ بِما تَعلَمُ".

فيقولُ مولاي الشيخُ مُتكلِّماً عنِ الأعشى: "كأنك يا أبا عَقيلٍ تعني قولَه:

وأشــربُ بالريــفِ حتــى يُــقــا ... لَ: قد طــالَ بِالريفِ ما قد رَجَنْ[3]
صَــريــفِــيّــةً طَــيِّــبــاً طَعْمُها ... تُصَفَّــقُ مــا بَيْــنَ كُــوبٍ ودَنْ
وأقْــرَرتُ عــيــني مِنَ الغــانِــيــا ... تِ إمــا نِكاحــاً وإمــا أُزَنْ[4]

وقولَه:

1- مرت ترجمته.

2- مرت ترجمته.

3- (رَجَنَ): أقام. والمعنى أنه يظل يشرب بالريف حتى يقال إنه أقام فيه.

4- (أُزَن): من الزنى. أي أنه ملأ عينيه من الغانيات إما بالزواج وإما بالزنى. وهذا ما يستغربه لبيد. فهو أقرَّ بأنه يزني وغُفِر له.

فَبِتُّ الخَليفَةَ من بَعْلِها وسَيِّدَ نُعْمٍ ومُستادِها[1]

وقولَه:

فَظَلِلْتُ أرْعاها وظَلَّ يَحوطُها حتى دَنَوْتُ إذِ الظلام دَنا لها
فَرَمَيْتُ غَفلَةَ عَيْنِهِ عن شاتِهِ فأصَبْتُ حبَّةَ قَلبها وطِحالَها[2]

ونحوَ ذلك مما رُوِيَ عنه. فلا يخلو مِنْ أحدِ أمرين: إما أنْ يكونَ قالَه تَحْسيناً للكلام على مَذْهبِ الشعراءِ، وإما أنْ يكونَ فَعَلَهُ فَغُفِرَ له: (قُلْ يا عِبادِيَ الذين أَسْرَفوا على أَنْفُسِهمْ لا تَقْنَطوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جَميعاً إنَّه هو الغَفورُ الرَّحيمُ)[3]. (إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دونَ ذلك لِمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشرِكْ باللهِ فقد ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً)[4].

مع النابغة الجعدي ونقده

ويقولُ الشيخُ – رفعَ اللهُ صوتَه – لِنابغةِ بني جعدةَ: "يا أبا ليلى. إنِّي لَأَسْتَحْسِنُ قولَكَ:

طَيِّبَةُ النَّشرِ والبُداهَةِ والـ عِلَّاتِ عِنْدَ الرُّقادِ والنَّسَمِ[5]
كأنَّ فاها إذا تُنَبِّهُ مِنْ طِيبِ مَشَمٍّ وحُسْنِ مُبْتَسَمِ
يُسَنُّ بالضَّرْوِ مِنْ بَراقِشَ أو هَيْلانَ أو ضامِرٍ مِنَ العُتُمِ[6]

1- (استاد): صار سيداً. والمعنى أنه صار سيد (نعم) وسيد سيدِها. و(مُسْتادِها): معطوف على (بعلها).
2- شبه الشاعر الرجلَ بالذي يرعى غنمه. وشبه المرأة بالشاة. وعندما غَفَلَتْ عينُ الراعي عن شاته – أي امرأته – أصابها ووقع عليها.
3- سورة الزمر الآية 53.
4- سورة النساء الآية 116.
5- (النَّشْرُ): النفَسُ والرائحةُ بعد النوم. (البُداهَة): الفُجاءة. (العِلَّات): الأمْراض. والمعنى أنها طيبة الرائحة في كل حالاتها. حتى حين تفاجئها في النوم أو حين تمرض.
6- (يُسَنُّ): يُصْقَلُ. (الضَّرْوُ): شجرٌ طيبُ الرائحة. (براقِش وهَيْلان): واديان في اليمن يَنبتُ فيهما هذا الشجر. (العُتَم): شجر يشبه الزيتون البري. ومعنى هذا البيت والذي قبله: إنَّ فمها عندما تستيقظ من النوم يبدو كأنه سُنَّ بسواك من نبات طيب الرائحة. وذلك لطيب رائحته وحسن ابتسامتها. والمعروف أن العرب كانت تستخدم السواك من الأشجار الطيبة الرائحة.

رُكِّـزَ فـي السَّـامِ والزَّبيـبِ أقـا ... حِـيٌّ كَـثِيـبٍ تُـعَـلُّ بِالرِّهَـمِ[1]

بِمـاءِ مُـزْنٍ مِـنْ مـاءِ دَوْمَـةَ قـد ... جُـرِّدَ فـي لَيْـلِ شَـمْأَلٍ شَـبِمِ[2]

شُـجَّتْ بِـهِ قَرْقَـفٌ مِنَ الرَّاحِ إسْـ ... ـفَـنْـطُ عُقـارٍ قَـلِيلَـةُ الـنَّـدمِ[3]

أُلْقِـيَ فيهـا فِلْجـانِ مِنْ مِسْـكِ دا ... ريـنَ وفِلْـجٌ مِـنْ فُلفُـلٍ ضَـرِمِ[4]

رُدَّتْ إلـى أَكْلَـفِ المَناكِـبِ مَـر ... سـومٍ مُقيمٍ فـي الطِّيـنِ مُحْتدِمِ[5]

جَـوْنٍ كَجَـوْزِ الحِمـارِ جَـرَّده الـ ... بيـطـارُ لا ناقِـسٍ ولا هَـزِمِ[6]

تَـهْـدِرُ فيه وسـاوَرَتْـهُ كَـمـا ... رُجِّـعَ هَـدْرٌ مِـنْ مُصْعَـبٍ قَطِمِ[7]

نقدُ المعري لقصيدة النابغة الجعدي

وأقولُ لك يا نابغةَ بني جعدةَ:

1- (السامُ): عِرْقُ معدَنَيْ الذهب والفضة. (الأقاحي): ج أُقحُوان. وهو الزهر المعروف. (الرِّهَم): ج رَهْمَة. وهي المطر الخفيف.

2- (الدَّوْمَة): اسمُ ماء في ديار بني عامر. (جُرِّدَ): أُخِذَ. (الشَّمْأل): جهة الشمال. (الشَّبِم): البارد. وفي هذا البيت يتابع الشاعر وصفَ الماء بأنه من ماء المطر في أرض دومة وقد هطل بارداً في ريح الشمال الباردة.

3- (شُجَّت): مُزِجت. (القَرْقَف): الخمر الباردة في الدنِّ. (الإسْفَنْط): نوعٌ من الخمر مَعصورٌ من العنب بعد غليه. (العُقار): الخمرةُ القوية التي تَعقِرُ العقلَ. والمعنى أن ماء المزن تُخلَط به خمرةٌ من نوع العنب المغلي. وهي قوية تُسكِرُ ولا يندم شاربها.

4- (الفِلْجُ): المكيال (دارين): ميناء في البحرين يُجلَب إليه المِسْكُ من الهند. (الضَّرِم): الحارُّ المُتَّقِد. والمعنى أن هذه الخمر مُطَيَّبَة بمكيالين من مِسك دارين وبمكيال من الفلفل الحارِّ الحادِّ الطعم.

5- (الأَكْلَف): المُرقَّشُ المُزَيَّن. (المَناكِب): يقصد بها الأيدي التي توضع على طرفيْ الدَّنِّ أو الخابية ليُحْمَل بها. (مَرسوم): لغة في مَرشوم. وهو المختوم. (المُحْتَدِم): الذي يُغلى على النار. والمعنى أنَّ هذه الخمر وُضِعتْ في دَنٍّ مَنقوشِ اليدين مختومٍ بالطينِ حتى صارت تغلي فيه.

6- (الجَوْن): الأسود. (الجَوْز): وسط الشيء. (الناقِس): الحامِض. (الهَزِم): الفائر المتكَسِّر. والمعنى أنَّ هذا الدنَّ الذي وُضعت فيه الخمرة أسودُ ضخمٌ كبطنِ الحمار الذي حداه البيطار. وهو دَنٌّ لا يصبح فيه الخمر حامضاً ولا يفور فلا يتكسَّر.

7- (تهدِرُ): ومنه هَدَرُ. والهدير. الصوت المُرَدَّد. (ساوَرَتْه): دارت به وجاوبته. (المُصْعَب): الفحلُ الذي لم يُرْكَب. (القَطِم): الشَّبِقُ المُهْتاج. والمعنى أن هذه الخمر تهدِر في الخابية كما يهدر الفحل الهائج. فتتجاوب معه الخابية.

أين طيبُ هذه الفتاةِ التي تصِفُها في أبياتِكِ مِنْ طيبِ فتياتِ الجنةِ اللواتي وَصَفَهُنَّ اللهُ تعالى بقوله: (فَجَعَلناهُنَّ أَبْكاراً. عُرُباً أَتْراباً)[1]. كلا واللهِ. فأينَ الأهلُ مِنَ الغُرباءِ؟ وأين فَمُها الذي جَعلتَه مُذكَّراً مِنْ أفْواهِ نِساءِ الجنةِ التي ما دَخَلَ إليها مُنكَرٌ. إنَّ كلَّ فَتاةٍ في الجنةِ تَفضُلُ فتاتَك كما تفضُلُ الدرَّةُ المَكْنونَةُ على الحَصاةِ المُلْقاةِ في الطريقِ، وكما تفضُلُ الأشياءُ المختارةُ المُنتَقاةُ على الأشياءِ العارضةِ التي لا يسألُ عنها أحدٌ .

ما ذهبُك وما فِضَّتُك وما زَبيبُك؟ ما حَسُنَ في الدنيا العاجِلةِ حبيبُك. وإنَّ ثَغْراً يَحْتاجُ إلى سِواكٍ مِنَ الأشجارِ الطَّيِّبَةِ الرائِحَةِ إنَّما يُجَشِّمُ صاحبَه بإحْضارِ المَطْلوبِ لِكي يُصبِحَ طَيِّبَ الرائحةِ. ولو لم يَكُنْ مُلَطَّخاً بالوَسَخِ لَما احتاجَ إلى سِواكٍ مِنْ غُصْنٍ رَطيبٍ طيِّبِ الرائحةِ.

وما الماءُ الذي وصَفْتَهُ مِنْ (دوْمَةَ) بينما غيرُه أطيبُ مِنْه. أليس هو إنْ طالَ وُجودُه تَغيَّرَ طَعْمُهُ ولَوْنُه، ولا يدومُ مَطَرُه لِمَنْ يَمْكُثُ عندَهُ بِانْتِظارِه؟ أليس إنْ فَقَدَ بُرودةَ ريحِ الشِّمالِ عادَ كَغيرِهِ مِنْ بقايا الماءِ في الحوضِ؟ تُلْقي فيهِ الريحُ التي تَهُبُّ عليه الأوساخَ، ويُصبِحُ حاراً في وقتِ الظهيرةِ فكأنما تُوقَدُ عليه النارُ المَشْبوبَةُ.

وما خَمْرَتُك هذه التي تَصِفُها بـ (القَرْقَفِ) المَخْلوطَةِ بالماءِ مع أنَّ الشاربين يَشربونها مرةً بعد مرةٍ؟ لقد اقتربتَ في الجنةِ مِنْ حاجَتِكَ فلا تَبتعِدْ عمَّا أنتَ فيه. فلا كانتِ الخمرُ التي تُسَمِّيها الفيهجَ والإسْفَنْطَ. لَطالما ثَمِلْتَ في جَماعَتِكَ فنَدِمْتَ، وأنْفَقْتَ ما تَمْلكُ فعَدِمتَ وصِرتَ فقيراً.

ما عُقارُك وما مِكْيالُكَ الذي تُسمِّيهِ (الفِلْجَ) وتَجعلُهُ فِلْجَك؟ لقد زال عن مقلتِك في الجنة دُجاكَ. ولو دَخَلَ مِسكُ دارينَ جَنةَ رَبِّنا المَوْهوبةَ لِغيرِ المُمارينَ المُخادِعينَ، لَعُدَّ هذا المِسْكُ شبيهاً برائِحةِ جُثَّةِ المَقتولِ، أو رائِحَةِ القَدَمِ المَقْطوعَةِ التي يقْطُرُ منها الدَّمُ.

1- سورة الواقعة. الآية 56.

زَعَمتَ أنها تُطَيَّبُ بالفُلفُلِ. وشبَّهها غيرُك بِنسيمِ القَرَنفُلِ.

إنَّ في هذه المَنْزِلَةِ التي وضعتَها فيها، نَشْراً ودَعاوَةً لِمَكانتِها. وهي مَكانةٌ بالغَ أصحابُ الدارِ الفانيةِ فيها. فقد زادتْ أوصافُها عندهمْ عن العَشْرَةِ حتى وَصَلَتْ هذه الأوصافُ إلى أَعْدادٍ لا يُمْكِنُ إحْصاؤُها.

ما أسوأَ أنْ تُوضَعَ هذه الخمرةُ وأنْ تُدَّخَر في دنٍّ. وإنَّ مَنْ حَفِظَها ليس إلا مُنْحَرِفاً وآثماً. وقد خُتِمَ هذا الدَّنُّ بالطينِ حتى أصبح الطينُ له سِمَةً يُوصَفُ بها. ووضَعَ المتربِّصُ الحافِظُ لهذا الدَّنِّ علاماتٍ وأوصافاً. فهو (أسودُ كبطنِ الحِمارِ). فلا سلَّمَ اللهُ هذا الخَمَّارَ. وهذا الشرابُ ليس حامِضاً، بل هو مُعابٌ ومَنْقوصٌ. قد ذَمَّه المُتحَنِّفون الأتْقِياءُ والذين يسكنون في الصوامِعِ والمَعابِدِ.

ووصفتَ هذا الدَّنُّ بأنَّه تَهْدِرُ فيه الصَّهْباءُ المُعْتَصَرَةُ مِنَ العنبِ كما يهدِرُ ولدُ الناقةِ الحديثُ الولادةِ وهو مُكْتمِلُ النموِّ. فإذا اخْتَمَرَتْ فيه الصَّهْباءُ انقَطَعَ الهديرُ كما يبطُلُ هديرُ ولدِ الناقة حين تظهرُ أسنانُهُ. وعندها يُديرُ هذه الخمرةَ في الكأسِ على الشاربينَ مُديرٌ.

عودةٌ إلى السياق

غناء الحور

ويخطُرُ له – جعلَ اللهُ الإحسانَ إليه مَرغوباً ووُدَّهُ في الأفئدة مَشْبوباً – غناءُ القِيانِ في بيوتِ الشَّعْرِ في بغدادَ مدينةِ السلام. ويذكرُ تَرْجيعَهُنَّ بميميةِ (المُخَبَّلِ السعدي)[1]. فتندفِعُ تلك الجواري اللواتي نَقَلَتْهُنَّ القُدْرةُ الإلهيةُ مِنْ خِلقَةِ الطيرِ إلى خِلْقَةِ الحُورِ، تُلَحِّنَّ قولَ (المخَبَّلِ السعدي):

1- هو (ربيعة بن عوف السعدي التميمي) من بني أنف الناقة. كنيته أبو يزيد. وهو شاعر مقدَّم. هاجر إلى البصرة. توفي عام 12 هـ 633 م. ومِمَّا يذكر له أنه هجا الزبرقان بن بدر وأخته خليدة. وقد مر بها يوماً وقد كُسِر. فآوته وجبرت له كَسره. فقال فيها:

لقد ضَلَّ حِلْمي في خليدة ضَلةً ... سأعتُبُ نفسي بعدها وأتوبُ

وأشهد – والمُسْتَغْفَرُ اللهُ – أنني ... كَذَبْت عليها والهِجاءُ كذوبُ

ذَكَـرَ الـربـابَ وذِكْرُهـا سُـقْمُ وصبا وليـس لِمَـنْ صَبا عَـزمُ[1]
وإذا أَلَـمَّ خَـيـالُـهـا طَـرِفَـتْ عينـي فمـاءُ شُـؤونِها سَـجْمُ[2]
كاللؤلـؤ المَسْـجورِ تُوبِـعَ فـي سِـلْكِ النِّظـامِ فخانَـهُ النَّظْـمُ[3]

فلا يمرُّ حَرفٌ ولا حركةٌ إلا ويُوقِعُ مَسَرَّةً لو عُدِلَت بمَسرّات أهلِ العاجلةِ، منذ خَلَقَ الله آدمَ، إلى أنْ طوى ذُرِّيته مِنَ الأرضِ، لَكانتْ هذه المَسَرةُ زائدةً على ذلك زيادةَ لُجِّ البحرِ المُتمَوِّجِ على دمعةِ الطفلِ، وزيادةَ الهِضابِ الشامِخَةِ على الغُبارِ الذي يتحرَّكُ في سَنامِ البعيرِ.

ويقول الشيخ لِنُدَمائِه: "ألا تَسْمَعونَ إلى قولِ السَّعْدي:

وتَقـولُ عاذِلَتـي وليـس لهـا بِـغَـدٍ ولا مـا بَـعـدَهُ عِلْمُ
إنَّ الثَّـراءَ هـو الخُلـودُ وإنَّ الـ مـرءَ يُـكْـرِبُ يومَه الـعُـدْمُ[4]
ولئـن بَنَيْـتِ لـيَ المُشَـقَّرَ فـي عَنقـاءَ تَقْصُـرُ دونَهـا العُصْمُ[5]
لَـتُـنَـقِّـبَـنْ عـنِّـي الـمَـنِـيَّـةُ إنَّ اللـهَ ليـس كَحُكْمِهِ حُكْـمُ"[6]

ثم يقولُ: "إنَّ السعديَّ مسكينٌ. قالَ هذه الأبياتَ وبنو آدم في دارِ المِحَنِ والبلاءِ. تأتيهم المصائبُ فكأنهم يَقْبِضونَ على الشَّوْكِ. والوالدةُ تخافُ المَنِيَّةَ على وَلدِها، ولا يزال رُعبُها في خَلَدِها. والفَقرُ يُرهَبُ ويُتَّقى. والمالُ يُطلَبُ ويُستَبقى. والجوعُ والعطشُ مَوْجودان. والتعبُ والشيخوخةُ مَعروفان. ولا يُرْبَطُ لِمَصائبِ الدَّهْرِ عِنان.

1- (السُّقْمُ): المرض. (صَبا): حنَّ واشتاق.

2-(شؤون العين): مجاريها. (السَّجْمُ): الغزير.

3- (المَسْجور): المنظوم. والمعنى أنَّ دموعه تشبه عقدَ اللؤلؤ الذي انفرط فتناثر اللؤلؤ منه.

4- (يُكْرِبُ): من كَرِبَ يَكرَبُ: دنا وقرُب. ويُكرِب: يُقرِّب. (العُدْم): الفقر. والمعنى أن الغنى هو الخلود. وإن الفقر يُقرِّبُ يومَ موت المرء.

5- (المُشَقَّر): حِصْنٌ قديم في البحرين. (العنقاء): السامِقَةُ الشديدةُ العُلُوِّ. وهي صفة لكلمة محذوفة هي القمة. (العُصْم): ج أَعْصَم وهو الوعل.

6- معنى الأبيات أن هذه المرأة تلومه على كرمِه وإنفاقِه المالَ وهي لا تعلم ما في الغد ولا ما بعد الغد. وتقول له إنَّ الغنى هو الخلود وإنَّ الفقر يُقَرِّبُ يومَ موت المرء. فيجيبها بأنه لو بَنَتْ له حِصناً منيعاً في قِمة عالية لا تصل إليها الوعول، فسوف تأتيه المنية لأن حكم الله ليس له شبيه ولا مَردَّ له.

وقلوبُ الناسِ لم يُهَدِّئْها رجاءُ العفوِ مِنَ اللهِ. فالحَمْدُ للهِ الذي أذْهَبَ عنَّا الحُزنَ إنَّ ربَّنا لَغفورٌ شَكور. الذي أسْكَننا دارَ البقاءِ مِنْ فَضْلِهِ. لا يَمَسُّنا فيها تَعَبٌ ولا نَصَبٌ. فتباركَ اللهُ القُدُّوسُ. فقد نَقَلَ هذه المغنياتِ المُطْرِباتِ مِنْ زِيٍّ رَبَّاتِ الأجْنحةِ، إلى زِيٍّ ربواتِ الأردافِ المُتَأرْجِحَةِ. ثم ألْهَمَهُنَّ، بحِكْمَتِه، حِفظَ أشعارٍ لم تَمْرُرْ قبلُ بمسامِعِهن. فجِئْنَ بها مُتْقَنةً، مَحْمولةً على طرائِقِ الغِناءِ مُلحَّنةً، مُصيبَةً في لَحْنِ الغناءِ مُنَزَّهةً عنْ أخْطاءِ غيرِ الفُصَحاءِ. ولقد كانتِ الجاريةُ إذا تفرَّسَ أصحابُها فيها النَّجابةَ، يُحْضِرونَ لها المُلَحِّنةَ لِتُلْقِيَ إليها ما تَعرفُ مِنَ الأوزان كالثقيلِ والخفيف. وتعلِّمُها تعليماً غيرَ مُرْهِقٍ أو سريعٍ. تقيمُ معها الشَّهْرَ كاملاً قبل أنْ تُلَقِّنَها بيتاً من الغَزَلِ أو بيتين. ثم تُعطيها المئةَ أو المئتين. فسبحانَ القادِرِ على كلِّ عَزيز، والمُمَيِّزُ بِفضلِه كُلَّ فاضل".

مشاجرة الجعدي والأعشى

ويقولُ (نابغةُ بني جعدةَ) وهو جالِسٌ يَستَمِعُ مُخاطِباً الأعشى: "يا أبا بصير. أهذه الربابُ التي ذكرَها المُخبَّلُ السعديُّ هي ربابُك التي ذَكَرتَها في قولِكَ:

بِعاصـــي العــواذِلِ طَلْــقِ اليَديــنِ يُعْطــي الجَزيلَ ويُرخــي الإزارا[1]
فَمــا نَطَــقَ الديــكُ حتــى مــلأ تُ كــوبَ الربــاب له فاسْــتَدارا[2]
إذا انْكَــبَّ أَزْهَــرُ بيــن السُّــقاةِ تَرامَــوْا به غَرَبــاً أو نُضــارا؟"[3]

فيقولُ الأعشى أبو بصير: "قد طالَ عُمْرُك يا أبا ليلى. وأحسِبُكَ قد أصابَكَ الخَرَفُ وضَعْفُ العقلِ وبقيتَ على خَرَفِك إلى اليومِ. أما علِمتَ أنَّ اللواتي يُسَمَّيْنَ بالرباب أكثرُ مَنْ أنْ يُحْصَيْن؟ أفَتظنُّ أنَّ الربابَ هذه هي التي ذكرَها القائلُ:

1- الجار والمجرور (بعاصي العواذل): متعلقان بفعل محذوف تقديره (التقيتُ) أو (نزلت بساحة رجل عاصي العواذل). و(عاصي العواذل): الذي لا يَسمع اللائمات. (يرخي الإزارا): يمشي متبختراً.

2- (نطق الديك): أذَّن الصبح.

3- (انكبَّ): وقع على وجهه. (الأزهر): قدح الخمر. (الغَرَب): الفضة. (النُّضار): الذهب. ومعنى الأبيات أنه نزل بساحة رجل لا يسمع لوم اللائمات. وهو كريم يعطي الكثيرَ ويمشي متبختراً. فإذا ظهر الصبحُ ملأتُ له الكوبَ. وإذا انقلبت الأكوابُ ترامى بها الشاربون وهي من الفضة أو الذهب.

مـا بـالُ قَـومِـكِ يـا ربـابُ خُـزْراً كـأنَّـهُـمُ غِـضـابُ[1]

غـاروا عـلـيـكِ وكـيـفَ ذا ك ودونَـكِ الخَـرْقُ الـيَـبـابُ؟[2]

أو التي ذكرَها امرؤُ القيس في قولِهِ:

دارٌ لِهنـدٍ والـربـابِ وفرتَنـى ولميـسَ قبـلَ حـوادثِ الأيـامِ

ولعل أمَّها (أمُّ الرباب) المذكورةُ في قولِه:

وجـارتُها أمُّ الربـابِ بِمَأْسَـلِ"[3]

فيقولُ (نابغةُ بني جعدة): "أتكلِّمُني بمثلِ هذا الكلامِ يا خَليعَ بني ضُبَيْعَةَ وقد مُتَّ كافراً، وأقْرَرْتَ على نفسِكَ بالفاحشةِ، وأنا لَقيتُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأنشدتُه كلمتي التي أقولُ فيها:

بَلَغْنـا السـماءَ مَجدَنـا وسَـناءَنا وإنِّـا لنبغي فـوقَ ذلـك مَظْهَرا[4]

فقال لي عليه الصلاةُ والسلامُ: "إلى أينَ يا أبا ليلى؟"[5] فقلتُ: "إلى الجنةِ بك يا رسولَ الله". فقالَ: "لا يَفْضُضِ اللهُ فاك".

أغَرَّك أنْ عَدَّك بعضُ الجُهَّالِ رابعَ الشعراءِ الأربعةِ؟[6] وكَذَبَ مَنْ يُفَضِّلُك. وإنِّي

1- (الخُزْر): ج أَخْزَر وهو الضيق العينين. والمعنى أنَّ قوم الرباب غضبوا فضيَّقوا عيونهم.

2- (الخَرْق): الأرض الواسعة. (اليباب): الصحراء التي لا يسكنها أحد. والمعنى: لماذا يغضب مِنَّا قومُك يا رباب حتى ضاقت عيونهم؟ إنهم يغارون عليك وكيف يمكن الوصول إليك ودونك الصحراء والأرض الواسعة التي تحميك؟

3- تمام البيت:

كدأبك من أم الحُوَيرِثِ قبلها وجـارتِها أمِّ الربـاب بمأسلِ

و(مأسل): اسم مكان.

4- (السناء): المجد والرفعة. (المَظهر): المكان الذي نصعد إليه. و(مجدَنا وسناءنا): بدل من (السماءَ). والمعنى أننا بلغنا المجد والرفعة بالإسلام. ونطلب فوق ذلك أرفع الأمكنة.

5- يقصد النبي: إلى أين تريد أن تصعد؟

6- الشعراء الثلاثة المقَدمون هم: امرؤ القيس وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني. وجعل ابن سلام الجُمحي الأعشى رابعهم في كتابه (طبقات فحول الشعراء). وهو الذي عده أبو العلاء – على لسان النابغة الجعدي- مِنَ الجهلاء.

لَأطولُ مِنْك نَفَساً، وأكثرُ تَصَرُّفاً. وقد بَلَغْتُ بعددِ الأبياتِ ما لم يَبْلُغْه أحدٌ مِنَ العربِ قَبْلي. وأنت لاهٍ بخُبثك ومَكْرِك وتَفتري على كَرائمِ قومِكَ. فإن صَدَقْتَ فخِزْياً لك ولِمَنْ أقرَّك على ما فعلتَ. وقد وُفِّقَتْ زوجتُك التي مِن بني هِزِّان في تركِكَ وتَطليقِكَ. لأنها عاشرَتْ منك الكلبَ النابِحَ الذي أمسى فطافَ على البيوتِ القذرةِ يَبحثُ عن العِظامِ المَرميَّة، وحَرَصَ على نَبْشِ القبورِ المنفردةِ".

فيغضب الأعشى أبو بصير فيقول: "أتقولُ هذا وإنَّ بيتاً مِمَّا بنيتُ لَيُعْدَلُ بمئةٍ من بنائِكَ؟ وإنْ أسهَبْتَ في قَصائدِكَ، فإنَّ المُسْهِبَ كَحاطِبِ الليلِ[1]. يَخلُطُ الغثَّ بالثمينِ. وإنِّي في الصَّميمِ مِنْ (ربيعةِ الفَرَس). وإنَّكَ لَمِنْ بني جعدة. وهل تزيدُ أفعالُ (جَعدَةُ) عن صيدِ ذَكَرِ النَّعامِ؟ أَتُعَيِّرني مَدْحَ الملوكِ؟ ولو قَدَرْتَ على مَدْحِ الملوك لأخذْتَ إليهم أهلَك وولدَك. ولكنك خُلِقْتَ جَباناً ضَعيفاً في الحربِ. لا تجرؤُ على السَّيرِ في الليلِ الداجي ولا تقدِرُ على السفرِ في حَرِّ الظهيرةِ. وذكَرتَ لي طلاقَ زوجتي الهَزَّانية. ولعلها بانتْ عني وهي تُسِرَّ الحزنَ والكمَدَ. والطلاقُ ليس بِمُستَنْكَرٍ لدى العامة ولا لدى المُلوكِ".

فيقولُ الجعدي: "اسكُتْ يا ضُلَّ بنَ ضُلٍّ. وأقسِمُ أنَّ دَخولَك الجنةَ مِنَ المُنْكَراتِ. ولكنَّ الأقضِيَةَ جَرَتْ كما شاءَ اللهُ. وحَقُّك أنْ تكونَ في الدَّرَكِ الأسفَلِ مِنَ النارِ. وقد صَلِيَ بها مَنْ هو خيرٌ منك. ولو جازَ الغلطُ على ربِّ العِزَّةِ لقلتُ إنك غُلِطَ بك. ألستَ القائلَ:

فَدَخَلْتُ إذْ نامَ الرقي ... بُ فَبِتُّ دونَ ثِيابِها
حتى إذا ما استَرْسَلَتْ ... للنَّوْمِ بعدَ لِعابِها[2]
قسَّمْتُها نِصفَين كلُّ ... مُسَوَّدٍ يُرْمى بِها[3]

1- (حاطِبُ الليل): هو الذي يجمعُ الحطبَ في الليل. فلا يعرف ماذا ينتقي. و(حاطِبُ الليل) وصفٌ يُطلَق على مَنْ يجمع في أقواله وأفعاله الغثَّ والثمين.

2- (اللِّعاب): الملاعبة.

3- (قسَّمتُها نصفين): طويتها تحتي. (كل مُسَوَّد يُرمى بها). فعلتُ بها كما يفعل كل سيد بخليلته التي تحوم حوله الظنون من أجلها.

فَـثَـنَـيْـتُ جِـيـدَ غَـريـرةٍ ولَمَسْـتُ بَطْـنَ حِقابِهـا[1]
كالحُـقَّـةِ الـصَّـفْراءِ صـا كَ عَـبـيـرُهـا بِـمَلابِهـا[2]
وإذا لـهـا تـامـورةٌ مَـرْفـوعـةٌ لِـشَـرابِها؟[3]

واستقلَلْتَ ببني جعْدة. وإنَّ يوماً مِنْ أيامهم يَرجَحُ بكل أيامِ قومِك. وزَعمتَ أني جَبانٌ فَكذَبْتَ. فأنا أشجعُ مِنْكَ ومِنْ أبيكَ، وأصْبَرُ على السيْرِ في الظُّلْمَةِ ذاتِ البَرْدِ، وأشدُّ إيغالاً مِنْكَ في حَرِّ الهاجرةِ".

ويثِبُ (نابغةُ بني جعدة) على (الأعشى أبي بصير). فيضْرِبُه بِكوبٍ مِنْ ذَهَبٍ. فيقولُ الشيخُ – أصْلَحَ اللهُ بِهِ وعلى يديهِ –: "لا عَرْبَدَةَ في الجِنانِ. إنَّما يُعرَفُ ذلك في الدارِ الفانيةِ بين الحَمْقى والسَّفَلةِ. وإنَّك يا أبا ليلى لَمُتَسَرِّعٌ. وقد رُوِيَ في الحديثِ أنَّ رجلاً صاحَ بالبصرةِ: (يا آلَ قيس). فجاء (النابغةُ الجعدي) بعصا له. فأخذه شَرِطَةُ (أبي موسى الأشعري) فجلدتْه لأنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: (مَنْ تَعَزَّى بِعَزاءِ الجاهليةِ فليسَ مِنَّا). ولولا أنَّ في الكتابِ الكريمِ: (لا يُصَدَّعونَ عنها ولا يُنْزِفون)[4] لَظَنَنَّاكَ أصابَكَ نزْفٌ في عقلِك وضَياعٌ. فأما أبو بصيرٍ، فما شَرِبَ في الجنةِ إلا اللبنَ والعسلَ. وإنَّه لَوقورٌ في المَجْلِسِ، ويظلُّ على وقارِه في الشَّدائدِ. وإنَّما مَثَلُه معنا مَثَلُ (أبي نواس)[5] في قولِه:

أَيُّهـا العـاذِلان فـي الـراحِ لُومـا لا أَذوقُ الـمُـدامَ إلا شَـمـيـمـا
نـالَـني بِـالعِـتـابِ فـيها إِمـامٌ لا أرى لـي خِـلافَـه مُـسـتَقيـما
إنَّ حظِّـَي منهـا إذا هـي دارتْ أنْ أراهـا وأنْ أشُـمَّ النَّسـيما
فاصْرِفاهـا إلـى سِـوايَ فإنِّـي لسـتُ إلا علـى الحَديـثِ نَديمـا

1- (الغَريرة): الجميلة. (الحِقاب): وسط الجسم. والمعنى أنه عانقها ولمس بطنَها ووركَها.
2- (الحُقَّة): هو الحُقُّ. وعاء من خشب أو عاج. (صاكَ): امتزج. (المِلاب): نوع مِنَ العطور. شبه المرأة بوعاء اختلط فيه المسك بالعبير.
3- (التامورة): وعاء للشرب. (مرفوعةٌ لشرابها): مهيأةٌ لكي تشربها.
4- من سورة (الواقعة): الآية 19. و(نزف الرجل نزْفاً): ذهب عقله أو سكِر.
5- مرت ترجمته.

فكأني وما أُحَسِّنُ منها قَعَدِيٌّ يُحَسِّنُ التَّحْكيما
لم يُطِقْ حَمْلَهُ السلاحَ إلى الحر بِ فأَوْصى المُطِيقَ ألاَّ يُقيما"[1]

فيقولُ (نابغةُ بني جَعدة): "قد كانَ الناسُ في أيامِ الدنيا الخادِعَةِ يَظهَرُ عنهم السَّفهُ بشربِ اللبن وليس عندَ شُربِ الخمرِ. لا سيما إذا كانوا أَرِقَّاءَ لِئاماً كما قالَ الراجِزُ:

يا ابنَ هشامٍ أَهْلَكَ الناسَ اللَّبنْ فكُلُّهُمْ يَغدو بِسيفٍ وقَرَنْ[2]

وقالَ آخرُ:

ما دَهْرُ ضَبَّةَ فاعلَمْ نَحْتُ أَثْلَتِنا وإنَّما هاجَ مِنْ جُهَّالِها اللبنُ[3]

وقيلَ لبعضِهم: "متى يُخافُ شرُّ بني فلان؟ قال: إذا أَلْبَنوا". أيْ إذا شربوا اللبَنَ.

فيريدُ الشيخُ – بَلَّغَه اللهُ إرادتَه – أنْ يُصْلِحَ بين النُّدماءِ فيقولُ: "يَجِبُ أنْ نَحذَرَ مِنْ مَلَكٍ يعبُرُ فيرى هذا المَجْلِسَ فيرفَعَ حديثَه إلى الجَبَّارِ الأعظمِ. فلا يَجُرُّ ذلك إلا إلى ما تَكْرَهان، مع أنَّ ربَّنا استَغْنى أنْ تُرْفَعَ الأخبارُ إليه. ولكني أَذْكُرُ ذلك لأنَّ نَقْلَ الحديثِ هكذا جرى في الدارِ العاجلةِ. أما عَلِمْتُما أنَّ (آدم) خَرَجَ مِنْ الجنةِ بذنْبٍ حَقير؟ فمِنْ غيرِ المَأمونِ أنْ يَجْرِيَ هذا المقدَّرُ لِمَنْ وُلِدَ مِنْ آدمَ. فسألتُك يا أبا بصير باللهِ: "هل يَهجِسُ لك تمنِّي المُدامِ؟".

1- هذه الأبياتُ قالها أبو نواس عندما نهاه الخليفةُ الأمين عن شرب الخمر. فهو يشمُّها ولا يذوقها. ويعترف أن الخليفةَ عاتبه فيها. ويطلبُ أنْ يصرفاها إلى غيره. فلن يكون إلا نديماً في الحديث. وبما أنه يحثُّ عليها ويحسِّن منها، فقد شبه نفسه بـ (القَعَدِيِّ). وهو الذي لم يُشارك في الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. وهؤلاء رَضُوا بالتحكيم الذي جرى بعد معركة صفين. وهذا القَعَدِيُّ لا يستطيع حملَ السلاح في الحرب. فأوصى القادرَ على الحرب ألا يقعد مثله. والشاعرُ مثلُه. فهو لا يستطيع أن يشرَبَ الخمر. ويوصي مَن يستطيع شُرْبَها أنْ يشربها.

2- (القَرَن): جعبة السهام. والمعنى أن شرب اللبن أهاج الناس فجعلهم يذهبون إلى الحرب بالسيفِ والسهام.

3- (الأُثلة): شجر خشبه صلب. والمعنى أنَّ أصل ضبة قوي كالشجر الصلب. ولكن شرب اللبن هاج الناسَ.

فيقولُ أبو بصير: "كلا واللهِ. إنَّها عندي مِثْلُ المُرِّ أو السُّمِّ. لا يخْطِرُ ذِكْرُها في خَلَدي. فالحمدُ للهِ الذي سَقانيَ السَّلْوى عنها ونِسْيانَها. فما أَحْفِلُ بالخَمرِ آخِرَ الدهرِ".

وينهض نابغة بني جعدةَ مُغْضَباً. فيكرهُ الشيخ – جّنَّبَه الله المَكارِهَ – انصرافَهُ على تلك الحالِ. فيقولُ له: "يا أبا ليلى. إنَّ اللهَ جَلَّتْ قدرتُه مَنَّ علينا بهؤلاءِ الحُورِ العينِ اللواتي حُوِّلْنَ عن خَلْق الإوزِّ. فاختَرْ لك واحِدةً مِنْهُنَّ فلْتَذْهَبْ معك إلى مَنزِلِكَ. تُسْمِعُك أرقَّ الغِناءِ، وتعزِفُ لك ضُروبَ الألحانِ".

فيقولُ لبيدٌ: "إنْ أخذَ أبو ليلى قَيْنَةً، وأخذَ غيرُهُ مثلَها، أليسَ ينتشرُ خبرُها في الجنةِ، فلا يُؤْمَن أنْ يُسمّى ذلك (أزواجَ الإوز)؟". فَتُضْرِب الجماعةُ عن اقْتِسامِ أولئك القِيان.

مع حسانَ بنِ ثابت[1]

ويمرُّ (حسانُ بنُ ثابتٍ). فيقولون: "أهلاً أبا عبدِ الرحمن. ألا تَتَحدَّثُ معنا ساعةً؟". فإذا جَلَسَ إليهم قالوا له: "أين خَمْرُ الجَنةِ هذه التي نشربُها مِنْ سَبِيئَتِكَ التي ذَكَرتَها في قولِكَ:

كأنَّ سَبيئَةً مِنْ بَيْتِ راسٍ يكونُ مزاجَها عسلٌ وماءُ[2]
على أنيابِها، أو طَعْمَ غَضٍّ مِنَ التُّفاحِ هَصَّرَهُ اجْتِناءُ[3]

1- (حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي). كنيته أبو عبد الرحمن. وولده عبد الرحمن مِنْ زوجته (سيرين) أختِ مارية القبطية. ولد في يثرب. وعاش فيها في الجاهلية والإسلام. مدح المناذرة والغساسنة. وبالغ في مدح الغساسنة حتى إنهم لم يُنكروه بعد إسلامه رغم نصرانيتهم. بعد هجرة النبي إلى المدينة أسلم. وصار يمدح النبي ويهجو خصومه. كان جباناً في الحرب. لكنه كان جيد الشعر. توفي عام 54 هـ 674 م في خلافة معاوية.

2- (السبيئة): الخمر. (بيت راس): قرية قرب حلب كانت مشهورة بصنع الخمر الجيدة.

3- (على أنيابِها): الجار والمجرور متعلقان بخبر (كأن سبيئة). والتقدير: كأن خمراً ممزوجةً بالعسل والماء موجودةٌ على أنياب الفتاة.

علــى فيهــا إذا مــا الليــل قَلَّــتْ كَواكِبُــهُ ومــالَ بهــا الغِطــاءُ[1]
إذا مــا الأشــرِباتُ ذُكِــرْنَ يومــاً فهُــنَّ لطَيِّــب الــراحِ الفِــداءُ[2]

ويحك. أما استَحْيَيْتَ أن تذكُرَ مثلَ هذا في مَدْحِك رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم؟".

فيقولُ: "إنه كان أسْمَحَ خُلُقاً مِمَّا تَظُنون. ولم أقُلْ إلا خيراً. لم أذْكُرْ أنِّي شَرِبْتُ خَمْراً، ولا رَكِبْتُ مِمَّا مُنِعَ وحُظِرَ أمراً. وإنَّما وصَفْتُ ريقَ امرأةٍ يجوز أنْ يكونَ حِلاًّ لي، ويُمكنُ أنْ أقولَه على الظنِّ. وقد شفَعَ صلى اللهُ عليه وسلَّم في أبي بصيرٍ بعدما كذِبَ وافترى وجاوزَ الحدَّ في مواطِنَ كثيرةٍ. وزَعَمَ أنه يَسْري في الليل وهو يَفتري على الناسِ أو لا يَفتري. وما سُمِعَ بأكرمَ مِنْهُ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ. لقد شاركتُ في حَديثِ الإفْكِ فجَلَدَني مع مِسطَحٍ[3]. ثم وَهَبَ لي (سيرينَ) أختَ ماريَةَ[4] فولَدَتْ لي عبدَ الرحمنِ. وهي خالةُ ولدِه إبراهيمَ".

ملاحظة نحوية على شعر حسان

والشيخُ – زَيَّنَ اللهُ الآدابَ ببقائِهِ – يَخطِرُ في ضميرِهِ أشياءُ يريدُ أنْ يذكرَها لــ (حسانَ) وغيرِهِ. ثم يخافُ أنْ يكونوا لِما طَلَبَ غيرَ مُحْسِنين. فَيُضْرِبُ عنها إكراماً لهم. وذلك مثلُ قولِ حسان:

يكونُ مِزاجَها عسلٌ وماءُ

1- (على فيها): أيضاً متعلقان بالخبر المحذوف. والتقدير: كأن الخمر المعصورة من التفاح المعصور بعد اجتنائه موجود على فمها. وذلك إذا أقبل الليل وقلَّت كواكبه حتى احتجبت.

2- إن جميع أنواع المشروبات فداء للخمر الطيبة.

وهذه الأبيات الأربعة من قصيدة طويلة قالها حسان في هجاء أبي سفيان الذي هجا محمداً قبل فتح مكة. وجاء فيها:

هجوْتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند اللهِ في ذاك الجــزاءُ
أتــهجوه ولستَ له بكُفْءٍ فشَــرُّكما لِخيْــرِكما الفداءُ

3- (مِسْطَح بنِ أُثاثة) بنِ عَبَّاد بن المطَّلب بن عبد مناف. شهد بدراً ثم خاض في حديث الإفك. فجلده الرسول (ص). توفي عام 34 هـ 654 م.

4- (مارية وسيرين): أهداهما المقوقس المصري عظيم القبط. فاتخذ محمدٌ لنفسه مارية، ووهب سيرين لحسان بن ثابت. فولدت له عبد الرحمن الذي كان شاعراً وتوفي عام 104 هـ 722 م.

إذ يَعْرِضُ أنْ يقولَ: "كيفَ قلتَ يا أبا عبدِ الرحمنِ: أيكونُ مِزاجَها عسلٌ وماءُ على أنَّ (مِزاجَها) خبرٌ مُقَدَّمٌ و(عسلٌ وماءُ) مُبتدأٌ مُؤَخَّرٌ، أم (مِزاجُها عسلاً وماءُ) على أنَّ (مِزاجَها) اسمُ يكون و(عسلاً) خبرُ يكون، أم (مزاجُها عسلٌ وماءُ) على الابتداء والخبر؟

وقوله:

فمَنْ يهجو رسولَ اللهِ مِنْكُمْ ويَمدَحُه وينصرُه سواءُ

يذهبُ بعضُهم إلى أنَّ (مَنْ) اسمَ الموصول محذوفةٌ مِنْ قولِكَ: (ويمدحُه وينصرُه). والتقديرُ (ومَنْ يمدحه وينصره) وتكون (يمدحه وينصره) صلةَ اسم الموصول.

عودةٌ إلى السياق

ويقولُ قائلٌ مِنَ القومِ: "كيف جُبنْكَ يا أبا عبدِ الرحمنِ؟".

فيقولُ حسانُ: "ألي يُقالُ هذا وقومي أشجعُ العرب؟ أرادَ سِتَّةٌ مِنْهم أنْ يَميلوا على أهلِ المَوْسمِ بِأسْيافِهم[1]. وأَجاروا النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّم على أنْ يُحارِبوا معه كُلَّ مُعانِدٍ له. فرمَتْهُم رَبيعةُ ومُضَرُ وجميعُ العربِ عن قَوْسِ العَداوةِ، وأضْمَروا لهم ضَغينةَ المُبْغِضِينَ الكارِهين. وإنْ ظَهَرَ مِنِّي تَحَرُّزٌ في بعضِ المَواطنِ، فإنَّما ذلك على طريقةِ الحَزْمِ كما جاءَ في الكتابِ الكريمِ: (ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو مُتَحَيِّزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ مِنَ اللهِ ومأواهُ جهنمُ وبئسَ المَصيرُ)[2]".

***

ويفترقُ أهلُ ذلك المجلسِ بعد أنْ أقاموا فيه كعُمْرِ الدنيا أضعافاً كثيرةً.

1- يشير حسان هنا إلى (بيعة العقبة الثانية) التي تعاقدَ فيها أهل يثرب على نصرة النبي (ص). فإنه لمَّا انتهى الاجتماع قال لهم: (ارفضُّوا إلى رحالكم). فقال له سعدُ بن عبادة: (والذي بعثك بالحق. إنْ شئتَ لَنميلَنَّ على أهلِ منىً غداً بأسيافنا). فقال لهم النبي: (لم نُؤْمَر بذلك).

2- سورة الأنفال الآية 16.

مع عُورانِ قَيْس

فبينما هو يطوفُ في رياضِ الجنةِ لَقِيَهُ نَفَرٌ راكبينَ على خَمْسِ نوقٍ. فيقولُ: "ما رأيتُ أحسَنَ مِنْ عُيونِكم في أهلِ الجِنانِ. فمن أنتم جعلَ اللهُ النعيمَ عليكم خالداً؟".

فيقولونَ: "نحن عُورانُ قَيْسٍ: (تَميمُ بنُ مُقبِلٍ العْجْلاني[1])، و(عَمروُ بنُ أحْمرَ الباهلي[2])، و(الشَّمَّاخُ مَعْقِلُ بنُ ضِرار[3]) أحَدُ بني ثعلبةَ بنِ سعدِ بن ذُبيان، وراعي الإبلِ (عُبَيْدُ بنُ الحُصَيْنِ النُّمَيْريُّ[4])، و(حُمَيْدُ بنُ ثَوْرٍ الهِلالي[5])".

فيقولُ الشيخُ للشَّماخِ بنِ ضِرارٍ: "لقد كانَ في نفسي أشياءُ مِنْ قَصيدتِك التي على الزاي، وقصيدتِك التي على الجيم. فأنْشِدْنيهما زلتَ مُخَلَّداً كريماً".

فيقولُ الشَّماخُ: "لقد شَغَلَني عنهما النعيمُ الدائمُ. فما أذكُرُ مِنْهما بيتاً واحداً".

فيقولُ الشيخُ – لفَرْطِ حُبِّه الأدبَ وإيثارِه الإشادةَ بالفضلِ –: "لقد غَفَلْتَ أيها المُؤمنُ

1- (تميم بن مُقْبِل العجلاني): ويقال له: (تميم بن أُبَيٍّ). أوْصَفُ العربِ لقدحِ الخمر. وفيه يُقال: "قدحُ ابن مُقبِل". وهو شاعر مخضرم ومَعدود في الفحول. عندما أدرك الإسلام صار يبكي أهلَ الجاهلية. عاش 120 سنة. ولا تُعرفُ سنةُ ولادته ووفاته.

2- (عمروُ بن أحمر الباهلي): شاعر مخضرم. ولد ونشأ في نجد. أدرك الجاهلية والإسلام. شارك في حروب الفتح فأصيبت إحدى عينيه. قال في الإسلام شعراً كثيراً. مدح عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعثمان بن عفان. نزل في الشام ومات في خلافة عثمان بعد أن عُمِّر طويلاً. و قيل توفي في عهد عبد الملك بن مروان عام 75 هـ 694 م.

3- (الشَّمَّاخ مَعْقِلُ بنُ ضِرار الغطفاني): من بني ذبيان. شاعر مخضرم. قال عنه الحطيئة: (أبلِغوا الشماخَ أنه أشعرُ أهلِ غطفان. أسلم وشارك في فتح العراق. وغزا أذربيجان مع سعيد بن العاص. توفي في زمن عثمان بن عفان.

4- (راعي الإبل عُبَيْدُ بن الحُصَيْن) من بني الحارث بن نُمَيْر. الشاعر الأموي المشهور. وغلب عليه لقب (الراعي النميري) لكثرة ما وصف الإبل. وكان فحلَ مضر حتى غلبه جرير. شهد القادسية. وتوفي في عهد عثمان بن عفان في إحدى الغزوات.

5- (حُمَيْد بن ثور الهلالي). من بني هلال بن عامر بن صعصعة. شاعرٌ مخضرم. شهدَ غزوة (حُنين) مع المشركين ثم أسلم. ووفد على النبي (ص) في المدينة. مات في خلافة عثمان. ويُعَدُّ من الشعراء الصحابة.

وأَضَعْتَ. أما علمتَ أنَّ قصيدتيك أنفعُ لك مِنَ ابنتيكَ؟ ذُكِرْتَ بِهما في المَواطِنِ وشُهِرْتَ عندَ الراكِبِ المسافِرِ وعند القاطِنِ. وإنَّ القصيدةَ مِنْ قصائدِ النابغةِ لأنفعُ له مِنَ ابنتِه (عَقْرَبَ). ولعلَّ ابنتَه تلك شانَتْهُ وما زانَتْهُ. فقد أصابَها في الجاهليةِ سَبْيٌ ولم يوفِّرْ لها الفِدْيةَ مِنَ السَّبي. وإنْ شِئتَ أنْ أُنشِدَك قصيدتيك فإنَّ ذلك ليس بمُتَعَذِّرٍ عليَّ". فيقولُ الشَّماخُ: "أَنْشِدْني جعلَ اللهُ نعمتَه عليك ضافيةً واسعة". فَيُنْشِدُه:

"عَفا مِنْ سُـلَيمى بَطْـنُ قَوٍّ فعالِزُ فَذاتُ الغَضا فالمُشْرِفاتُ النَّواشِزُ"[1]

فيجدُه غيرَ عَليمٍ بها. ويسألُه عن أشياءَ مِنْها. فيصادِفُه بها غيرَ بَصيرٍ. فيقول الشَّماخُ: "شَغَلَتني لذائذُ الخُلودِ عن تَعَهُّدِ هذه المُنْكَراتِ. (إنَّ المُتَّقين في ظِلالٍ وعُيونٍ. وفواكِهَ مِمَّا يَشْتَهون. كُلُوا واشْرَبوا هَنيئاً بِما كُنتُم تَعْمَلون[2]). إنَّما كنتُ أقولُ هذا الشِّعرَ حتى يُعيرَني بها أحدٌ ناقةً، أو أُعْطى مَؤونةَ عيالي سنةً، كما قال الراجِزُ:

لو شـاكَ مِنْ رأسِـكَ عَظْـمٌ يابِسُ لَآلَ مِنْـكَ جَـمَـلٌ حُمـارِسُ[3]
سَـوَّى عليـكَ الكَيْـلَ شـيخٌ بائِسُ مِثلَ الحَصا يَعْجَبُ مِنْه اللامِسُ[4]

وأنا الآنَ في تَفَضُّلِ اللهِ وكَرَمِه. أَغْرِفُ بالأقداحِ مِنْ أنهارِ اللبنِ: فتارةً أغرفُ ألبانَ الإبلِ، وتارةً ألبانَ البقرِ. وإنْ شئتُ لبنَ الضأنِ فإنَّه كثيرٌ جَمٌّ. وكذلك لبنُ المَعِيز. وإنْ أحببتُ أنْ أَرِدَ اللبنَ مِنْ غَنَمِ الجِبالِ، فمِنْه نهرٌ كأنَّه (دِجلةُ) أو (الفُراتُ). ولقد كنتُ في دارِ الشقاءِ أَحْلِبُ ضروعَ شياهٍ قليلاتِ اللبنِ لا يَمتلِئُ مِنْهنَّ القدحُ".

1- البيت مطلع قصيدته في وصف القوس. وفيها يقول الأصمعي: (ما قيلت قصيدة على الزاي أجودُ من قصيدة الشماخ. و(بطن قو) و(مالز) و(ذات الغضا): مواضع في الجزيرة العربية. (المُشرِفات): المرتفعات العالية. من (شَرُف المكان): ارتفع. (النواشز): المرتفِعات. من (نشز المكان): ارتفع.

2- سورة المُرسلات. الآيات 41 – 43.

3- الشاعر في هذا البيت والذي يليه ينذُبُ حظه. (شاكَ): ظهرت حِدَّتُه وشوكته. (الحُمارِس): الأسد. والمعنى أنه لو ظهرت مِنْ عظامك شوكة، لتحولت إلى جمل مثل الأسد لا نفع منه.

4- فإذا ملأ كيلَك شيخٌ بائس، كان ما ملئ به كيلُك يشبه الحصا الذي يعجَبُ اللامِسُ من قسوته.

فيقولُ الشيخُ – لا زال قَوَّالاً للخيرِ –: "فأينَ عمروُ بنُ أحمرَ[1]؟". فيقولُ عمروٌ: "ها أنا ذا". فيقولُ له الشيخُ: "أَنْشِدْني قولَك:

بـانَ الشـبابُ وأخْلَـف العَمْـرُ وتَـغَـيَّـرَ الإخْـــوانُ والـدَّهْـرُ

وقد اختلفَ الناسُ في تفسير (العَمْر). فقيلَ: إنكَ أردتَ البقاءَ. وقيل إنك أردتَ الواحِدَ مِنْ عُمورِ الأسنانِ وهو اللحْمُ الذي بينها".

فيقولُ عمروٌ مُتَمَثِّلاً:

"خذا وجهَ هَرشـى أو قَفاها فإنَّه كلا جانبي هَرْشـى لهُنَّ طَريقُ[2]

ولم تَتركْ فيَّ أهوالُ القيامةِ بَقيةً مِنْ قوةٍ لِلإنشادِ. أما سمعتَ الآيةَ: (يومَ تَرَونَها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أرْضَعَتْ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُكارى وما هم بِسُكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ[3]). وقد شَهِدْتَ الموقِفَ. فالعجبُ لك إذْ بَقِيَ معك شيءٌ من روايتك".

فيقولُ الشيخُ: "إني كنتُ أُخلِصُ الدعاءَ في أعقابِ الصلواتِ، قبل أن أنتقلَ مِنْ تلك الدارِ، أنْ يُمْتِعَنيَ اللهُ بأدبي في الدنيا والآخرةِ. فأجابَني إلى ما سألْتُ وهو الحَميدُ. ولقد يُعْجِبني قولُك:

ولقد غَـدَوْتُ ومـا يُـفَـزِّعُـني خَـــوْفٌ أحـــاذِرُه ولا ذُعْـــرُ[4]
رُؤْدَ الـشـبـابِ كـأنـني غُـصُـنٌ بِحَـرامِ مَـكَّـةَ نـاعِـمٌ نَـضْرُ[5]
كـشـراب قَـيْـلٍ عنْ مَـطِـيَّـتِـهِ ولِـكُـلِّ أَمْـــرٍ واقِـــعٌ قَـــدْرُ[6]

1- (عمرو بن أحمر الباهلي): مرت ترجمته.

2- (هَرْشى): ثَنِيَّةٌ في طريق مكة. ولها طريقان يمكن السير فيهما. و(القفا): آخر الطريق. ويقصد المعري مِنْ إيراد البيت أنَّ كلا تفسيري معنى (العَمْر) صحيح.

3- سورة (الحج) الآية 2.

4- الأبيات مِنْ قصيدته التي مرت والتي مطلعها: (بان الشباب وأخلف العَمْرُ). والمعنى أنه قد صار لا يفزعه خوف ولا ذعر.

5- (رؤْدُ الشباب): طراوته. و(رؤْدَ) هنا تعرب حالاً. والمعنى: غدوت رؤدَ الشباب.

6- (القَيْلُ): المَلِكُ. وجمعه (أقيال). و(عن مطيته): جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره (وقع).

مَـدَّ الـنَّهـارُ لـــه وطـالَ عليـــ ... هِ اللَّيْـلُ واسْـتَنْعَتْ بـه الخمـرُ[1]

ومُـسِـفَّـةٌ دَهْـمـــاءُ داجِـنـةٌ ... رَكَـدَتْ وأُسْـبِلَ دونهـا السِّـتْرُ[2]

وجَـــرادَتـــان تُـغَـنِّـيـانِـهُـمُ ... وتـلألأ المَرْجانُ والـشَّـذْرُ[3]

ومُـجَـلْـجَـلٌ دانٍ زَبَـرْجَـدُه ... حَـدِبٌ كمـا يَتَحَـدَّب الدَّبْـر[4]

ونَّـــانِ حَـنَّـانـانِ بَـيْـنَـهُـمـا ... وَتَـــرٌ أَجَـــشُّ غِـنـاؤُه زَمْـــرُ[5]

وبَـعـيـرُهُـم ســـاجٍ بِـجَـرَّتـهِ ... لم يُـــؤْذِه غَـــرْثٌ ولا نَـفْـرُ[6]

فـــإذا تَـــجَـــرَّرَ شَـــقَّ بـــازِلُـــهُ ... وإذا أَصـــاخَ فإنَّـــه بَـكْـرُ[7]

خَلُّـوا طَريـقَ الدَّيْـدَبـونِ فقـد ... ولّـى الصِّبا وتفـاوتَ النَّجْـرُ"[8]

وبعدما أنشدَ الشيخُ القصيدةَ سألَ عمروَ بنَ أحمرَ:

"ماذا أردتَ بقولِكَ (كشرابِ قَيْلٍ)؟ ألواحدٍ مِنَ الأقيال أم (قَيْلَ) ابنَ عِتْرٍ مِنْ عادٍ[9]؟".

1- (استنعى): تمادى واستشرى. و(استنعت به الخمرُ): تملَّكته وتحكَّمت به.

2- (الدَّهْماء): السحابةُ السوداء لكثافتها. (المُسِفَّة): القريبة من الأرض. والمقصود هنا – كما سيأتي – هي القِدْرُ التي فيها الخمر. وقد رَكَدت حتى استقرَّت الخمرة فيها وأُسْدِل الغطاء عليها.

3- (الجرادتان): مغنيتان كانتا في مكة. أو هما (المغنيتان) بشكل عام. (الشَّذْر): قِطَعُ الذهب. واحدتها شَذْرة.

4- (المُجَلْجَل): العود. (الزبرجد): في الأصل نوع مِنَ الحجارة الكريمة. وهنا يقصد الشاعر (ما حَسُنَ منه). فهذا العود القريب مَصنوعٌ من خشبٍ من نوع جيد. وهو مُحَدَّبُ الظهر. (الدَّبْر): خلف كل شيء.

5- (ونَّان): مثنى (وَنّ). وهو الصنج الذي يُضْرَب بالأصابع. (حَنَّانان): مثنى (حَنَّان): وهو الصوتُ المُطرِب. (الوتر الأجش): الوتر الغليظ الصوت. (الزَّمْر): ما يشبه الناي. والشاعر في هذه الأبيات يصف العود والصنج المرافِقَيْن للمغنيتين.

6- (ساجٍ): ساكنٌ هادئ. (الجرة): هيئة الجَرِّ. أي أنَّ بعيرهم هادئ ساكن وهو في هيئة المستعد للجر. (الغرث): الجوع. (النفْر): الاستنفار.

7- (تجرَّر): صار قادراً على الانفصال عن أمه. (البازل): السِّنُ في أول طلوعه. ويُقال للجمل الذي طلعت أسنانُه (بازِلاً).

8- (الدَّيْدَبون): الموت. (النَّجْر): اللون. والمعنى: افتحوا الطريق للموت فقد ولى الشباب وتغيرت ألوان الجسم.

9- بعدما ظهر الماء في بئر زمزم على يدي هاجر زوجة إبراهيم وولدها إسماعيل، جاءت قبيلة جُرهُم =

فيقولُ عمرو: "إنَّ الوَجْهيْنِ مَقبولان".

فيقولُ الشيخُ – بلَّغَهُ اللهُ الأماني –: "مِمَّا يدُلُّ على أنَّ المُرادَ (قَيْلُ بنُ عِتْر) قولُك: (جرادتان تُغَنِّيانِهم). لأنَّ الجرادَتَيْنِ – فيما قيل – مُغَنِّيَتان غَنَّتا لِوفدِ (عادٍ) عند (الجُرهُمي[1]) بِمكةَ. فشغُلوا عن الطَّوافِ بالبيتِ وسؤالِ اللهِ سبحانه وتعالى فيما قَصَدوا إليه. فهَلَكَت (عادٌ) وهم مُتَحيِّرون مَبْهوتون.

ولقد وجدتُ في بعضِ نُسخِ كتابِ (الأغاني) صوتاً يُقالُ إنه غَنَّته الجرادتان. فتعجَّبتُ لذلك. والصوتُ هو:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِه المَصيفُ ... فَبَطُنُ عَرْدَةَ فالغَريفُ[2]

هلْ تُبْلِغَنِّي ديارَ قَومي ... مَهْرِيَّةٌ سَيْرُها تَلْقيفُ[3]

يا أمَّ عُثْمانَ نَوِّلِيني ... هَلْ يَنْفَعُ النَّائِلُ الطَّفيفُ؟[4]

وهناك شعرٌ على هذا الغِرارِ وهو:

أَقْفَر من أهله مَلْحوبُ[5]

ومَنِ الذي نَقلَ إلى المُغَنينَ في عَصرِ (هارون الرشيد)[6] أنَّ هذا الشعرَ الذي نقله كتابُ (الأغاني) غنَّتْه الجرادتان عند الجُرهُمِيِّ في مكةَ؟ إنَّ ذلك لَبعيدٌ في المَعْقولِ. وما أجدرَه أنْ يكونَ مَكذوباً".

= وسكنت مكة. فجاء وفد مِنْ مدينة (عاد) يطلبون القمحَ مِنْ (جُرْهُم). وكان (قَيْل بن عِتْر) واحداً مِنْ رؤوس الوفد. فغنتهم (الجرادتان) اللتان كانتا لمعاوية بن بكر الجُرْهُمِيِّ سيدِ مكة وكان أهل عاد أصهارَه وأخوالَه. فلمَّا غنتهم الجرادتان انشغلوا باللهو عن طلب القمح ونسوا قومهم. فهلكت عاد.

1- (الجُرهُمي): هو معاوية بن بكر. أحد العماليق. كان سيدَ مكة حين وفدت (عاد) تستقي في قحطها. وكانوا أصهاره وأخواله. فأقاموا عنده مُكَرَّمين لاهين ونسوا قومهم.

2- (المَصيف): مكان الاصطياف. والمعنى أنَّ هذه الأمكنة أَقْفَرَتْ مِنْ أهلها. فلا بد أنْ يرحل.

3- (المَهْرِيَّة): الفرس السريعة. (السير التلقيف): السير بخبط الأيدي والأرجل خبطاً شديداً.

4- (النائِل): العَطاء. (الطفيف): القليل. وهو يطلب مِنْ أم عثمان أنْ تواصِلَه على أنْ يكون وِصالُها كبيراً لأنَّ العطاء القليل لا ينفع.

5- هذا مطلع قصيدة لعَبيد بن الأبرص. وتمامه: (فالقَطيِّباتُ فالذّنوبُ).

6- بويع هارون الرشيد بالخلافة عام 170 ومات عام 193 ه.

ويتابعُ الشيخُ سؤالَ عمروِ بنِ أحمرَ فيقولُ له:

"وقولُك: (ومُسِفَّةٌ دَهماءُ داجِنةٌ) ما أردتَ به؟ وقولُك: (ومُجَلْجَلٌ دانٍ زَبرجَدُه) ماذا أردتَ به أيضاً؟".

فيقولُ ابنُ أحمرَ: "أما ذِكْرُ الجرادتين فلا يدلُّ على أني خَصَصْتُ (قَيْلَ بنَ عِتْر) وإنْ كانَ في الوَفْدِ الذي غنته الجرادتان. لأنَّ العربَ صارت تُسمي كلَّ قَيْنَةٍ (جَرادةً) حَمْلاً على أنَّ مُغنيةً في الدهرِ الأولِ كانت تُدعى: الجَرادة. قال الشاعرُ:

تُغَنِّينا الجَرادُ ونحن شَربٌ نَعُلُّ الراحَ خالَطَها المَشُورُ[1]

وأما (المُسِفَّةُ الدَّهماءُ) فإنَّها القِدْرُ. وأما (المُجَلْجَلُ الداني زَبَرْجَدُه) فهو العود. و(زبرجَدُه): ما حُسِّن منه. أما تَسمعُ القائلَ يُسمِّي ما تَلَوَّنَ مِنَ السَّحابِ (زَبْرَجاً)؟ ومَنْ روى (مُجَلجِل) بكسر الجيم الثانية، فقد أراد السَّحاب".

فيَعْجَبُ الشيخُ مِنْ هذه المَقالةِ فيقولُ لابنِ أَحمرَ:

"كأنك أيها الرجلُ وأنت عربيٌّ صَميمٌ يُسْتَشْهَدُ بألفاظِك وقَريضِك تَزعُمُ أنَّ (الزبرجَدَ) مِنَ (الزِّبْرِجِ). فهذا يُقَوِّي ما ادَّعاهُ صاحبُ كتابِ (العَيْن)[2] مِنْ أنَّ الدالَ زائدةٌ في قَولِهم (صَلَخْدَم). وأهلُ البصرةِ يَنفِرونَ مِنْ ذلك".

فَيُلْهِمُ اللهُ القادرُ (ابنَ أحمرَ) علمَ الصَّرفِ ليُرِيَ الشيخَ بُرهانَ القُدْرَةِ. فيقول: "وما الذي جَعَلَك تُنْكِرُ أنْ يكون (الزَّبْرَجُ) مِنْ لفظِ (الزبَرْجد)؟ فكأنَّ فِعلاً اشْتُقَّ مِنَ (الزَّبرجَدِ). فلم يُمكنْ أنْ يُؤتى بحروفِهِ كلِّها لأنَّ الأفعالَ في العربيةِ لا يكونُ فيها (المُجَرَّدُ) مِنْ خمسةِ أحرفٍ. فقيلَ (يُزَبْرِجُ الشيءَ) إذا حسَّنه وزَيَّنه. ثم اشتَقُّوا مِنْ فعلِ (زَبْرَجَ) اسماً فقيل (زِبْرِج). ألا ترى أنهم إذا صغَّروا (فرزدقاً) قالوا (فُرَيْزِد). وإذا جَمعوه قالوا (فَرازِد)؟ وليس ذلك دليلاً على أنَّ (القاف) زائدة".

1- (الشَّرب): الشاربون. (نَعُلُّ الراح): نُسقى الخمر مرة بعد مرة. (المَشور): العسل. أي أن الخمر مَمزوجة بالعسل.

2- صاحب (العَيْن) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي مرت ترجمته. و(العَيْنُ) مُعجمه المشهور. ومواده مرتبة حسب مخارج الحروف. وأولها حرف العَيْن.

فيقول الشيخُ – خَلَّدَ اللهُ ألفاظَه في ديوانِ الأدبِ -: "إذا زَعَمتَ أنَّ فِعْلاً اشْتُقَّ مِنَ (الزبرجد) ثم بُنِيَ مِنْهُ (الزَّبرج)، فقد لَزَمَك على هذا أنْ ترى أنَّ الأفعالَ وِجدَتْ قبلَ الأسماءِ".

فيقولُ (ابنُ أحمرَ): "لا يَلْزَمني ذلك. فقد جعلتُ (زَبَرْجداً) أصلاً. وأمكنَ أنْ نَشتقَّ مِنْهُ فروعاً ليس حُكْمُها كحُكْمِ الأصولِ. والمثالُ على ذلك أنَّهم يقولونَ: (إنَّ الفعلَ مُشتَقٌّ مِنَ المَصدرِ). فهذا أصلٌ وقاعدةٌ. ثم يقولونَ (إنَّ اسمَ الفاعِلِ مُشتقٌّ مِنَ الفعلِ كالضاربِ والكريم وما كان على نَحوِهما. فليسَ صحيحاً قولُهم (إنَّ الفِعلَ مشتقٌّ مِنَ المَصدرِ) بدليلِ أنَّ الصفةَ مشتَقَّةٌ مِنَ الفعلِ إذا كانت اسماً. وحَقُّ الأسماء أنْ توجَدَ قبلَ الأفعالِ. ويمكنُ للواحِدِ أنْ يَدَّعِيَ بأنَّ الفعلَ مُشتقٌّ مِنَ المَصدرِ لأنَّ الفعلَ فَرْعٌ مِنَ المصدرِ. والصِّفَةُ فَرْعٌ آخرُ مِنَ المصدرِ. فيجوزُ أنْ يتقدَّم أحدُ الفَرْعَيْنِ على صاحِبِهِ".

ثم يذكرُ له الشيخُ أشياءَ مِنْ شعرِهِ. فيجدُهُ عاجِزاً عن الجوابِ. فإنْ نَطَقَ، تَلجلجَ في الكلامِ.

حكايةُ تميم بن أبي[1]

ثم يقولُ الشيخُ: "أيُّكُمْ (تميمُ بنُ أُبَي)؟".

فيقولُ رجلٌ منهم: "ها أنا ذا".

فيقولُ الشيخُ: "أَخْبِرْني عن قولِكَ:

يـا دارَ سـلمى خَـلاءً لا أُكَلِّفُهـا إلا المَرانَـةَ حتـى تَسْـأَمَ الدِّينا[2]

ماذا أردتَ بالمَرانة؟ فقد قيلَ: إنَّك أردتَ اسمَ امرأةٍ. وقيل: هي اسمُ ناقةٍ. وقيل: هي العادةُ".

1- هو (تميم بن مُقبل العجلاني). وقد مرت ترجمته.

2- سيأتي عند المعري معاني (المَرانة) المتعددة. و(الدين) هنا: هو العهد والميثاق. وعلى كل حال فإنَّ معنى البيت أنه يخاطب دار سلمى ولا يطلب منها إلا وقوفَ ناقته في ديارها حتى تسأم مِنْه ومِنْ ميثاقه وعهده.

فيقولُ تميمٌ: "واللهِ ما دخلتُ مِنْ بابِ الفِرْدَوْسِ ومعي كلمةٌ مِنَ الشعرِ ولا الرجزِ. وذلك أنِّي حُوسِبْتُ حساباً شديداً، وقيلَ لي: (كنتَ فيمَنْ قاتلَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ). وانبرى لي (النجاشيُّ الحارثيُّ[1]) يَهْجوني. فما أفْلَتُّ مِنَ اللهبِ حتى سَفَعَني سَفَعاتٍ. وأرى أنَّ حِفْظَك بَقِيَ لك. كأنَك لم تَشْهَدْ أهْوالَ الحِسابِ حين كانَ مُنادي الحَشْرِ يقولُ: (أين فلانُ ابنُ فلان؟) وكان الجَبابِرَةُ المُتَكَبِّرونَ مِنَ المُلوكِ تَجْذِبُهم الزبانِيَةُ إلى الجَحيمِ. وكانت النِّسوةُ ذواتُ التيجانِ تُسْحَبْنَ بألسِنَةٍ مِنَ النارِ المُوقَدَةِ. فتأخذُ النارُ تَسري في شُعورِهِنَّ وفي أَجْسادِهِنَّ. فيَصِحْنَ: (هل مِنْ فِداءٍ؟ هل مِنْ عُذْرٍ يُقْبَلُ؟). وكان الشبابُ مِنْ أولادِ الأكاسِرَةِ يَتصايَحون في سَلاسِلِ النارِ ويقولونَ: (نحن أصحابُ الكُنوزِ. نحن أربابُ الدنيا. وقد كانَتْ لنا إلى الناسِ أيادٍ بيضاءُ وأفعالُ مَعروفٍ. واليومَ لا فادِيَ ولا مُعينَ). فهتفَ داعٍ مِنْ قِبَلِ العرشِ: (أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكم ما يتذَكَّرُ فيه مَنْ تَذكَّرَ وجاءَكُمُ النَّذيرُ فذُوقُوا فَما لِلظالمينَ مِنْ نَصير)[2]. لقد جاءَتكُمُ الرُّسُلُ في الزَّمانِ بعدَ الزمانِ. وبَذَلُوا لكم ما أُكِّدَ مِنَ الإيمانِ الذي يُؤدِّي إلى الأمانِ. وقِيلَ لكم في كتابِ اللهِ: (واتَّقُوا يوماً تُرْجَعونَ فيه إلى اللهِ ثم تُوَفَّى كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَت وهم لا يُظْلَمون)[3]. فكنتُمْ في لذَّاتِ الدنيا الساخِرة مُوغِلين، وعن أعمالِ الآخرة مُتَشاغلين. فالآنَ ظَهَرَ النبأُ. لا ظُلْمَ اليومَ إنَّ اللهَ قد حَكَمَ بينَ العباد".

1- (النَّجاشي الحارثي): هو قيسُ بن عمرو بن مالك من بني الحارث. شاعر مخضرم. أصله من نجران في اليمن. انتقل إلى الحجاز. ثم استقرَّ في الكوفة. اشتُهِر في الجاهلية والإسلام. وكان هَجَّاءً. وهِجاؤه لبني العجلان قوم تميم مشهور.

2- سورة فاطر الآية 37. ومعنى الآية: ألم نمدَّ في أعماركم مقداراً طويلاً حتى يتذكَّر مَنْ أراد أن يتذكر. ثم جاءكم النذير فلم تستجيبوا. فذوقوا العذاب لأنَّ الظالمين ليس لهم نصير.

3- سورة البقرة الآية 281.

الفَصْلُ الثاني

يومُ المَوْقِفِ[1] مع ابنِ القارح

حكايةُ ابنِ القارح

فيقولُ الشيخُ – أنطقَه اللهُ بكُلِّ فضلٍ إنْ شاءَ ربُّه أنْ يقولَ –: "أنا أقصُّ عليك قِصَّتي".

فيقولُ تميمٌ: "هاتِ يا شيخُ".

فيقولُ الشيخُ: "لمَّا نهضْتُ مِنَ القبرِ، وحضَرْتُ حَرَصاتِ القيامة – والحَرَصاتُ مثلُ العَرَصات وهي الساحاتُ بعدما أُبْدِلَت الحاءُ مِنَ العينِ – ذكرتُ قولَهُ تعالى: (تَعْرجُ الملائِكَةُ والروحُ إليهِ في يومٍ كان مِقْدارُه خَمسينَ ألفَ سنةٍ. فاصْبِرْ صَبْراً جَميلاً)[2]. فطالَ عليَّ الأمدُ واشتدَّ الظَّمَأُ والوَمَدُ – والوَمَدُ شِدَّةُ الحَرِّ وسُكونُ الريحِ كما قال أخوكم النُّميري:

كأنَّ بَيْـض نَعـامٍ فـي مَلاحِفِهـا جَـلاهُ طَـلٌّ وقَيْـظٌ لَيْلُـهُ وَمِـدُ[3]

1- (يوم الموقف) أو (يوم الموقف العظيم): هو يوم القيامة حين تُمحَّصُ أعمالُ الإنسان. وهو يومٌ (تعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كان مِقدارُه خمسين ألفَ سنة). سورة المعارج. الآية 4.

2- سورة المعارج الآيتان 4 و 5.

3- البيت للراعي النميري أحد عوران قيس. وقد مرت ترجمته. والشاعر يصِفُ فراشَ امرأةٍ بأنه حار. فكأنَّ في أغطيةِ فراشها بيضَ نعام كَشَفَ عنه الطَّلُّ والقيظ في ليلٍ وَمِد.

وأنا رجلٌ سريعُ العطشِ. فافتكرت. فرأيتُ حالةً لا قُدرةَ لواحِدٍ مِثلي بها. ولَقِيَني المَلَكُ الذي حَفِظَ في الدنيا ما كُتِب لي مِنْ أفعالِ الخيرِ. فوجَدْتُ حَسَناتي قليلةً كالنباتاتِ القليلةِ المُتفرِّقَةِ في الأرضِ التي قَلَّ عليها المَطرُ. إلا أنَّ التوبةَ ظهرتْ في آخرِها كأنها مِصباحُ راهبٍ رفعَهُ لسالكِ السبيل.

حديث ابن القارح مع رضوان

فلمَّا أقمتُ في الموقفِ زُهاءَ شهرٍ أو شهرين، وخِفْتُ أنْ أغرقَ في عَرَقي، زَيَّنتْ لي النفْسُ الكاذِبَةُ أنْ أنظِمَ أبياتاً في مَدحِ رِضوانَ خازِنِ الجِنانِ. وهذه الأبياتُ عَمِلتُها على وزنِ:

قفا نَبْكِ من ذِكْرى حبيبٍ وعِرفانِ[1]

ووضعتُ كلمةَ (رِضوان) بدلَ كلمةِ (عِرفان). ثم زاحمتُ الناسَ حتى وقفْتُ مِنْهُ بحيثُ يَسمعُ ويرى. فما حَفِلَ بي ولا أظنه اهتمَّ لِما أقولُ.

فمكثتُ برهةً نحوَ عشرةِ أيام مِنْ أيامِ الدنيا الفانيةِ. ثم عَمِلْتُ أبياتاً في وزنِ:

بان الخَليطُ ولــو طُووِعْتُ ما بانا وقَطَّعوا مِنْ حِبالِ الوَصْلِ أَقْرانا[2]

ووضعت (رِضوانا) بدلَ (أقرانا). ثم دنَوْتُ منه ففعلْتُ كفِعليَ الأولِ. فكأنني أُحرِّك جبلاً، وألتَمِسُ مِنَ الطينِ مِسْكاً. فلم أزل أَتَتَبَّعُ الأوزانَ التي يُمكِنُ أنْ أضعَ فيها كلمةَ (رِضوان) حتى استوفيتُها. وأنا لا أجِدُ عنده إغاثةً، ولا ظَننتُه فَهِمَ ما أقولُ. فصِحْتُ بأعلى صوتي: (يا رِضوان. يا أمينَ الجبارِ الأعظَمِ على الفراديس. ألم تَسْمَعْ نِدائي بك واستغاثتي إليك)؟.

فقال: (لقد سمعتُك تَذْكُرُ رضوان. وما عَلِمتُ ما مَقْصَدُك. فما الذي تطلبُ أيها

1- تمام البيت (ورسْمٍ عَفَت آياتُه منذ أزمانِ). وهو لامرئ القيس.

2- البيت لجرير. وهو مطلع قصيدته التي على النون التي هجا بها الأخطل. و(الخَليط): الجماعة. (الأقران): ج قَرَن. وهو الحَبل الذي كانوا يجمعون به بعيرين. والمقصودُ أنهم قطعوا أسباب الوصال بينه وبين حبيبته.

المسكين؟). فأقول: (أنا رجلٌ لا صبرَ لي على العطشِ. وقد استطَلْتُ مُدَّةَ الحسابِ ومعي صَكٌّ بالتوبةِ. وهي للذنوبِ كُلِّها ماحِيَةٌ. وقد مدَحتُك بأشعارٍ كثيرةٍ وضعتُ فيها اسمَك).

فقالَ رضوانُ: (وما الأشعارُ؟ فإني لم أسمَعْ بهذه الكلمة قَطُّ إلا الساعةَ).

فقلتُ: (الأشعارُ جَمْعُ شِعر. والشعرُ كلامٌ موزونٌ تقبَلُهُ الغريزةُ على شروطٍ وقواعدَ. إنْ زادَ واحدٌ مِنْ هذه الشروطِ والقواعِدِ أو نقَصَ، أدركَه الحِسُّ. وكان أهلُ الدنيا العاجِلَةِ يتقرَّبونَ به إلى المُلوكِ والساداتِ. فجئتُ بشيءٍ مِنه إليك لعلَّك تأذَنُ لي بالدخولِ إلى الجنةِ مِنْ هذا البابِ. فقد استَطَلْتُ ما الناسُ فيه وأنا رجلٌ ضعيفٌ. ولا ريبَ أني مِمَّنْ يرجو المغفرةَ. وهي تَصِحُّ لي بمشيئةِ اللهِ تعالى).

فقالَ: (إنَّك لَضعيفُ الرأيِ. أتأْمَلُ أنْ آذنَ لك بغيرِ إذنٍ من ربِّ العِزَّة؟ هيهاتَ هيهات. (وأنى لهم التناوشُ مِنْ مَكانٍ بعيدٍ)[1].

حديثه مع زُفَر

فتركتُهُ وانصرفتُ بأملي في دخولِ الجِنانِ إلى خازنٍ آخرَ يقال له: (زُفَرُ). فعمِلْتُ قصيدةً ووضعتُ فيها اسمَه في وزنِ قولِ لبيدٍ:

تَمَنَّــى ابنتــايَ أن يَعيــشَ أبوهُما وهــلْ أنا إلا مــن رَبيعــةَ أو مُضَرْ

واقتربتُ منه فأنشدتُها. فكأني أخاطِبُ جبلاً غليظاً لأجعلَ الوحشَ الذي فيه يَنْزِلُ. ولم أتركْ وزناً يَجوزُ أنْ يُوضَعَ فيه اسمُ (زُفَر) إلا عمِلْتُ عليه شِعراً. فما نجحَ فِعلي ولا غيَّرَ زُفَرُ موقفَه مِنِّي. فقلتُ له: (رَحِمكَ اللهُ. كنا في الدارِ الذاهبةِ نتَقَرَّبُ إلى الرئيسِ والملكِ بالبيتين أو الثلاثةِ. فنجدُ عنده ما نُحِبُّ. وقد نظمتُ فيك ما لو جُمِعَ لَكانَ ديواناً. وكأنك ما سمِعْتَ لي كلمةً).

فقال: (لا أشعرُ بالذي قَصَدْتَ. وأحْسَبُ هذا الذي تَجيئني به قرآنُ إبليسَ المُتَمرِّدِ. وهذا الكلامُ لا يَروجُ عندَ الملائكةِ. إنما هو للجانِّ. وقد عَلَّموه لولدِ آدم. فما بُغْيَتُك؟).

1- من الآية 52 من سورة سبأ. و(التناوش): التناول.

فذكرتُ له ما أريدُ.

فقالَ: (واللهِ ما أقدِرُ على نفعٍ. ولا أملِكُ لِخلْقٍ شفاعةً. فَمِنْ أيِّ الأُمَمِ أنت؟).

فقلتُ: (مِنْ أُمَّةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبد المطلب".

فقالَ: "صدقتَ. ذلك نبيُّ العربِ. ومِنْ تلك الجهةِ أَتَيْتَني بالقَريض. لأنَّ إبليسَ اللعينَ نفَثَهُ في إقليمِ العربِ فتعلَّمَهُ نساءٌ ورجالٌ. وقد وجَبَ عليَّ نُصْحُك. فعليك بصاحبِك لعله يَتَوصَّلُ إلى ما ابْتَغَيْتَ).

لقاؤه مع حمزةَ بنِ عبد المطلب

فيئستُ مِمَّا عند زُفَر. فجعلتُ أتجَوَّلُ في العالَمِ. فإذا أنا برجلٍ عليه نورٌ يتلألأ. وحَواليه رِجالٌ تأتَلِقُ منهم أنوارٌ.

فقلتُ: (مَنْ هذا الرجلُ؟).

فقيلَ: (هذا حمزةُ بنُ عبدِ المطلب)[1] صريعُ وَحْشِي[2]. وهؤلاء الذين حولَه هم مَنِ اسْتُشْهِد في "أُحُد".

فقلتُ لِنفسي الكَذوبِ: (الشعرُ عند هذا أكثرُ رواجاً مِنْه عند خازنِ الجِنانِ لأنه شاعرٌ وإخوتُه شعراءُ. وكذلك أبوه وجَدُّه. ولعله ليس بين أولادِ معدِّ بنِ عدنانَ إلا مَنْ قد نَظَمَ شيئاً مِنْ مَوْزون).

فعَمِلْتُ أبياتاً على منهجِ أبياتِ (كعبِ بنِ مالك)[3] التي رثى بها حمزةَ وأولُها:

1- (حمزةُ بنُ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. عم النبي (ص) ومن الصحابة. قتله وحشي في غزوة أُحُد في السنة الثالثة للهجرة.

2- (وحشي بن حرب). من سودان مكة. كان مولى لطعيمة بن عدي. وقد وُعِد بالإعتاق إذا قتل حمزة. وكان مشهوراً برمي الحربة. وفي غزوة أحد تحيَّن من حمزة مقتلاً فرماه بحربته فأصابه في عانته. ورجع إلى مكة ولم يحارب. ثم أسلم. واشترك في حروب الردة. وقتل بحربته نفسها مسيلمةَ الكذاب. فكان يقول: (قتلت خيرَ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قتلت شَرَّ الناس).

3- (كعب بن مالك بن عمرو) الخزرجي الأنصاري. كان في الجاهلية من كبار الشعراء. فلما جاء الإسلام صار من كبار الصحابة ومن شعراء النبي (ص). وشهد معه الغزوات. ثم كُفَّ بصرُه في أواخر أيامه. وعاش سبعة وسبعين عاماً.

صَفِيَّـةُ[1] قُومـي ولا تَـعْجَـزي وبَكِّـي الـنسـاءَ علـى حـمـزةِ

وجئتُ حتى اقتربتُ منه فناديتُ: (يا سيدَ الشهداءِ. يا عمَّ رسولِ الله صلى اللهُ عليه. يا ابنَ عبدِ المطلب).

فلمَّا أقبلَ عليَّ بوجهِهِ أنشدتُه الأبياتَ. فقالَ: (ويحكَ. أفي مثلِ هذا المَوْطنِ تَجيئني بالمديحِ؟ أما سمعتَ الآيةَ: (لكل امرئٍ يومئذٍ شأْنٌ يُغنيه[2]؟).

فقلتُ: (بلى قد سمعتُها. وسمعتُ ما بعدها: "وجوهٌ يومئذٍ مُسْفِرَة. ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرة. ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَة. تَرْهَقُها قَتَرَة. أولئك هم الكَفَرَة الفَجَرة").[3]

فقال: (إني لا أَقْدِرُ على ما تطلبُ. ولكني أُرسِلُ معك رسولاً إلى ابنِ أخي عليِّ بنِ أبي طالبِ ليخاطبَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّم في أمرِك).

فبعثَ معي رجلاً. فلما قصَّ الرسولُ قصتي على أميرِ المؤمنينَ قالَ لي: (أينَ بَيِّنَتُك التي هي صَحيفةُ حَسناتِك؟)

مع أبي علي الفارسي

وكنتُ قد رأيتُ في المَحْشَرِ شيخاً لنا كان يُدَرِّسُ النحوَ في الدارِ العاجلةِ يُعرَفُ بـ (أبي علي الفارسي[4]). وقد أحاطَ به قومٌ يُطالبونَه ويَقولون: "تأَوَّلْتَ علينا وظَلَمْتنا".

فلما رآني أشارَ إليَّ بيده. فجئتُه فإذا عنده طبقةٌ منهم (يزيدُ بنُ الحَكَمِ الكِلابي[5]) وهو يقولُ: (ويحك. أنشدتَ عني هذا البيتَ برفع "الماء"). يعني قوله:

1- (صفية بنت عبد المطلب) أخت حمزة. وقد أمر النبي ألا ترى أخاها حمزة بعد قتله وبقر بطنه. فأبت إلا أن تراه.

2- سورة (عبس) الآية 37.

3- سورة عبس. الآيات 38-42.

4- مرت ترجمته.

5- (يزيد بن الحكم الكلابي): شاعر إسلامي أموي. أمه (بكرة بنت الزبرقان بن بدر). ولاه الحجاجُ ولاية فارس. وطلب منه أن يمدحه. فأنشده قصيدة فخر. فغضب منه الحجاج. فلحق بسليمان بن عبد الملك.

فليـتَ كَفافـاً كان شَـرُّك كُلُّـهُ وخيرُك عني ما ارتوى الماءُ مُرْتَوي

ولم أقل إلا (الماءَ). وكذلك زَعَمتَ أني فتحتُ الميمَ في قولي:

تَبَـدَّلْ خليلاً بي كشـكلِكَ شَـكلُهُ فإني خليـلاً صالحاً بك مَقْتَوي[1]

وإنما قلتُ (مُقتوي) بضمِّ الميم".

وإذا هناكَ راجزٌ يقولُ لأبي عليٍّ الفارسي:

"افتريتَ عليَّ أني قلتُ

يـا إبلـي مـا ذَنْبُـهُ فَتَأبَيَـهْ مـاءٌ رُواءٌ ونَصِّـيٌّ حَوْليَـهْ[2]

فحَرَّكتَ الياء في (تأبَيَه). ووالله ما فعلتُ ولا غيري مِنَ العرب".

وإذا رجلٌ آخر يقولُ: "ادَّعيتَ عليَّ أنَّ الهاءَ راجِعةٌ على (الدَّرْس) في قولي:

هـذا سُـراقةُ للقـرآنِ يَدْرُسُـهُ والمرءُ عند الرَّشا إنْ يَلْقَها ذِيبُ[3]

وتعني أنَّ سراقة يدرسُ الدرسَ لا يدرسُ القرآنَ. أمجنون أنا حتى أعتقدَ ذلك؟".

وإذا جماعةٌ مِنْ هذا الجنس كُلُّهم يلومون أبا عليٍّ على تأويلِه وإعرابِه لأشعارِهم. فقلت:

"يا قومُ. إنَّ هذه أمورٌ هيِّنةٌ. فلا تُضايِقوا هذا الشيخَ. فإنَّه ذكرَ ذلك في دراستِه للقرآنِ في كتابِهِ المعروفِ (كتابُ الحُجَّة في القراءات). وإنه ما سَفَكَ لكم دماً، ولا سَرَق لكم مالاً. فتَفَرَّقوا عنه".

1- البيتان من قصيدته الواوية المشهورة. وفيها يخاطب ابن عمه. و(مُقتوي): مُبَدِّل. ومعنى البيت الأول: اكْفُفْ عني شَرَّك وخيرَك مادام العطشان يشرب ماءً. ويعني أبد الدهر. ومعنى البيت الثاني: اخْتَرْ لك صاحباً يشبهك وتشبهه. فإني مستبدلٌ بك صديقاً صالحاً.

2- (الماء الرواء): الماء الطيب. (النَّصِّيُّ): نبات يُعدُّ من أفضل المراعي. والشاعر يخاطب إبله بأنها ترفض هذا الكلأ فما ذنبُ هذا الكلأ؟ فهو ماء طيب ونبات طيب حولي. واعتراضُ الشاعر على أبي علي أنه قال بتسكين الياء. (تأبِيهْ حوْلِيهْ)

3- (الرَّشا): صغار الظِّباء. أي أنَّ المرء يصبح ذئباً إذا لقي الظباء الصغيرة لأنها لا تستطيع الهرب منه. ويقصد المعري أنَّ مِنَ الخطأ أن يكون الضمير في (يدرسه) عائداً على المصدر. بل يجب أن يعود إلى (القرآن). فيصبح المعنى أنَّ سراقة يدرس القرآن.

وشُغِلْتُ بِمخاطبتِهم والنظرِ في مُحاوَرَتِهم. فسقطَ مِنِّي الكتابُ الذي فيه ذِكْرُ التوبة. فرجعتُ أطلبُه فما وجدتُه. فأظهرتُ الولَهَ والجزَعَ. فقالَ أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالبٍ: "لا عليك. ألك شاهدٌ بِالتوبةِ؟".

فقلتُ: "نعم. قاضي حلبَ والرجالُ العُدولُ فيها وهم الذين تُقبَلُ شَهادتُهم". فقالَ: "مَنْ هو هذا الرجلُ؟".

فأقولُ: "(عبدُ المُنْعِم بنُ عبدِ الكريم) قاضي حلب – حرسها اللهُ – في أيامِ (شِبْلِ الدولة)[1].

فأقامَ هاتفاً يَهتِفُ في المَوقِفِ: "يا عبدَ المُنْعِم بنَ عبد الكريم قاضيَ حلبَ في زمانِ شِبْلِ الدولة. هل معك علمٌ عن توبة عليِّ بن منصور بنِ طالبٍ الحلبيِّ الأديبِ؟".

فلم يُجِبْهُ أحدٌ. فأخَذَني الهَلَعُ والجَزَعُ والرِّعْدةُ. ثم هَتَفَ الثانيةَ فلم يُجِبْهُ مُجيبٌ. فصُرِعتُ إلى الأرضِ. ثم نادى الثالثةَ. فأجابَه قائلٌ يقولُ: "نعم. قد شَهِدْتُ توبةَ عليِّ بنِ منصورٍ. وذلك في آخِرِ عُمْرِه. وحضَرَتْ توبتَه عندي جماعةٌ مِنَ العُدولِ الذين تُقبَلُ شَهادتُهم. وأنا يومئذٍ قاضي حلبَ وتوابِعِها واللهُ المُسْتَعانُ".

فعندها نَهَضْتُ وقد عادتْ إليَّ بقيةُ الروحِ. فذكرْتُ لأميرِ المؤمنينَ عليه السلامُ ما ألتَمِسُ. فأعْرَضَ عني وقالَ: "إنك تَطلبُ مَمْنوعاً مُمْتَنِعاً. ولكَ أُسْوةٌ بولدِ أبيكِ آدمَ.

وُرودُهُ الحَوْضَ[2]

وهممْتُ بالحوْضِ فكِدْتُ لا أصِلُ إليه. ثم جَرَعْتُ مِنْه جُرُعاتٍ لا ظَمَأَ بعدها. وإذا

1- (عبد المنعم بن عبد الكريم) كان قاضياً لحلب عام 420 هـ 1029 م. و(شِبْلُ الدولة نصر بن صالح بن مِرداس). وليَ حلبَ بعد مقتل أبيه. وظل عليها حتى قتله جيشُ مصر الفاطمي في موقعة حاسمة على نهر العاصي عام 429 هـ 1038 م.

2- الحَوْضُ في الأصل (مَجْمع الماء). والحوضُ يومَ القيامة هو مَجْمَعُ الماء الذي يضعه الله تعالى للمؤمنين بعد تمكُّن الشمس منهم. وجعل الله لكل نبي حوضاً يشرب منه أتباعه. وجاء في الحديث النبوي: (إنَّ لكل نبي حوضاً. وإنهم يَتَباهَوْن أيُّهُم أكثرُ وارِدَةً. وإني أرجو أنْ أكونَ أكثرَهم واردةً). والواردة هم الواردون إلى الشرب.

الكَفَرَةُ يَحمِلون أنفُسَهم على الوِرْد. فتذودهُمُ الزَّبانِيَةُ بِعِصِيٍّ تَضْطَرِمُ ناراً. فيرجِعُ أحَدُهُمْ وقد احْتَرَقَ وجهُهُ أو يدُهُ وهو يَدْعو بِويلٍ وثُبورٍ.

لقاؤُه مع فاطمةَ الزهراءِ

فطُفْتُ على العِتْرَةِ المُنْتَجَبين[1]. فقلتُ لهم: "إنِّي كنتُ في الدارِ الذَّاهِبةِ إذا كَتَبتُ كتاباً وفَرَغْتُ مِنْهُ، قلتُ في آخِرِهِ: (وصلى اللهُ على سيدِنا محمدٍ خاتَمِ النبيين وعلى عِتْرَتِه الأخْيارِ الطَّيِّبينَ). وهذه حُرْمَةٌ لي وَوَسيلَةٌ). فقالوا: "ما نَصْنَعُ بك؟".

فقلتُ: "إنَّ مولاتَنا فاطمةَ[2] عليها السلامُ قد دَخَلَتِ الجنةَ منذ دَهرٍ. وإنَّها تَخْرُجُ في كلِّ حين مِقدارُه أربعٌ وعشرونَ ساعةً مِنْ توقيتِ الدنيا الفانيةِ. فتُسَلِّمُ على أبيها وهو قائمٌ لِشهادةِ القَضاءِ. ثم تَعودُ إلى مُسْتَقَرِّها مِنَ الجِنانِ. فإذا هي خَرَجَتْ كالعادةِ فاسْألوها في أَمْري بِأَجْمَعِكُمْ. فلعلَّها تَسْألُ أباها فيَّ".

فلمَّا حانَ خُروجُها ونادى الهاتِفُ: "أنْ غُضُّوا أَبْصارَكم يا أَهْلَ المَوْقِف حتى تَعبُرَ فاطمةُ بنتُ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ"، اجْتَمَعَ مِنْ آلِ أبي طالبٍ خَلْقٌ كثيرٌ مِنْ ذُكورٍ وإناثٍ مِمَّنْ لم يشْرَبْ خمراً ولا عَرَفَ قطُّ مُنْكَراً. فلَقُوها في بعضِ السَّبيلِ. فلمَّا رَأَتْهم قالتْ: "ما بالُ هذه الجَماعةِ مِنَ الناسِ؟ ألَكُمْ مَطْلَبٌ يُذْكَرُ؟".

فقالوا: "نحنُ بِخيْرٍ. إنَّا نَلْتَذُّ بِمُشاهدةِ أهلِ الجنةِ. غيرَ أنَّنا مَحبوسونَ لِلكلمةِ السابقة[3]، ولا نُريدُ أنْ نَتَسَرَّعَ إلى الجنةِ قبلَ الميقاتِ. إذْ كُنَّا آمِنينَ ناعِمينَ بِدليلِ قولِهِ تعالى: (إنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنى أولئك عنها مُبْعَدون. لا يَسْمَعونَ

1- (العِتْرة): نسلُ الرجل ورهطه وعشيرته. وحينما تُطلَقُ وحدها فالمقصود أهل بيت النبي. و(المُنتَجَبُ): الذي اصْطِفِيَ واختير. ومن المتداول أن يوصف آلُ بيت النبي بأنهم (العِتْرَةُ المُنتجَبون).

2- (فاطمة الزهراء): بنت محمد (ص)، وزوجة الإمام علي بن أبي طالب وأم الحسن والحسين وزينب. و(الزهراء) وصف لها. مذكرها: (الأزهر): وهو الأبيض الصافي المُشرِقُ المُضيء. توفيت عام 11 هـ 632 م.

3- المقصود بالكلمة السابقة الآيةُ التي ستأتي. فهم لن يُحاسَبوا. ولا يريدون استعجال دخولهم إلى الجنة قبل أنْ يحين موعد دخولهم.

حَسيسَها وهمْ فيما اشتهتْ أَنْفُسُهم خالِدون. لا يَحْزُنُهُمْ الفَزَعُ الأكبرُ وتَتَلَقَّاهُمُ الملائِكَةُ هذا يومُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدون[1]).

وكانَ فيهم (عليُّ بنُ الحُسَيْنِ)[2] وابناه (محمدٌ[3]) و(زيدٌ[4]) وغيرُهم مِنَ الأَبْرارِ الصَّالِحين. ومع فاطمةَ عليها السلامُ امْرأةٌ أُخْرى تَجري مَجْراها في الشَّرَفِ والجَلالَةِ. فقِيلَ: "مَنْ هذه؟".

فقيلَ: "خَديجةُ ابنةُ خُوَيْلِدِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزّى"[5]. ومعها شَبابٌ على أفْراسٍ مِنْ نورٍ. فقيلَ: "مَنْ هؤلاءِ؟".

فقيلَ: "عبدُ اللهِ والقاسِمُ والطَّيِّبُ والطَّاهِرُ وإبراهيمُ بنو محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلّمَ"[6].

1- سورة الأنبياء. الآيات 101 – 103. و(الحُسنى): الرحمة. (الحَسيس): الحريق. والمعنى أن هؤلاء الذين سبقت لهم الرحمةُ يمرون على الصراط دون حساب. وهم مُبْعَدون عن النار. وتتلقاهم الملائكةُ ويقولون لهم: هذا يومكم الذي وعدكم الله به.

2- (علي بن الحسين) زين العابدين. ويقال له (علي الأصغر). أمه (سُلافة بنت يزدجرد) آخر ملوك فارس. كان ورعاً تقياً. وليس للحسين بن علي عقب إلا من ذريته. وهو أحد الأئمة الاثني عشر. ولد عام 38 هـ 658 م وتوفي عام 92 هـ 711 م ودفن في المدينة.

3- (محمد بن علي): الملقب بالباقر. وهو والد جعفر الصادق. وهو أحد الأئمة الاثني عشر. ولد عام 57 ه. وتوفي بين 113 هـ 731 م و118 هـ 736 م على خلاف. ودفن في المدينة في البقيع.

4- (زيد بن علي): أقام في الكوفة. وأخذ عن واصل بن عطاء علم المعتزلة. روى عن أبيه وجده. ثار على هشام بن عبد الملك داعياً إلى العمل بالكتاب والسنة. فقاتله يوسف بن عمر والي العراق يومئذ. وقتله وحمل رأسه إلى دمشق عام 126 هـ 744 م. وإليه تنتسب فرقة (الزيدية) التي ماتزال باقية في اليمن إلى اليوم.

5- (خديجة بنت خويلد): هي زوجة النبي الأولى وأم أولاده. توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات. وسمي عام وفاتها (عام الحزن).

6- يرى كامل الكيلاني شارح رسالة الغفران أنَّ أولاد النبي الذكور ثلاثة هم: عبد الله والقاسم وإبراهيم. أما (الطيب) و(الطاهر) فلقبان. ويعتبر الكيلاني ذلك سهواً من المعري. وتؤكد بنت الشاطئ أنَّ ما قاله المعري ليس سهواً. فقد روى بعضُ علماء السيرة أن خديجة ولدت له ثمانية هم: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وولدت له مارية القبطية إبراهيم. أما الذكور فماتوا صغاراً. وأما الإناث فتزوجن وأنجبن.

فقالتْ تلك الجَماعةُ التي سألتُها لِفاطمةَ عني: "هذا وَلِيٌّ مِنْ أوليائِنا. قد صَحَّتْ توبتُه. ولا ريبَ أنَّه مِنْ أهلِ الجنةِ. وقد تَوسَّلَ بنا إليك صلى اللهُ عليكِ، في أنْ يُراحَ مِنْ أهْوالِ المَوْقِفِ وأنْ يَصيرَ إلى الجنةِ فيتَعَجَّلَ الفوزَ.

فقالتْ فاطمةُ لأخيها إبراهيمَ صلى اللهُ عليه: "دونَك الرجلَ".

فقالَ لي: "تَعَلَّقْ بِركابي".

وجعلتْ تلك الخيلُ تتخَلَّلُ الناسَ وتَنْكَشِفَ لها الأممُ والأجْيالُ. فلمَّا عَظُمَ الزِّحامُ، طارتْ في الهواءِ وأنا مُتَعلِّقٌ بالرِّكابِ.

حديثه مع النبي (ص)

فوقفتُ عند محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم. فقالَ: "مَنْ هذا الغريبُ؟".

فقالتْ فاطمةُ له: "هذا رجلٌ سألَ فيه فلانٌ وفلانٌ". وسَمَّتْ جَماعَةً مِنَ الأئِمَّةِ الطَّاهِرين. فقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلمَ: "يَنتَظِرُ حتى يُنظَرَ في عَمَلِهِ".

فسألَ عن عَمَلي فوُجِدَ في الديوانِ الأعظمِ وقد خُتِم بالتوبةِ. فشفعَ لي. فأُذِنَ لي في الدُّخولِ. ولمَّا انصرَفَتِ الزهراءُ عليها السلامُ، تعلَّقتُ بِركابِ إبراهيمَ صلى اللهُ عليه.

عبورُ الصراط[1]

فلمَّا خَلَصْتُ مِنْ جماعاتِ الناسِ قيلَ لي: "هذا الصِّراطُ فاعبُرْ عليهِ". فوجَدتُهُ خالِياً لا أحدَ عندهُ. فجرَّبْتُ نَفْسي في العُبورِ. فوجدتُني لا أَتَماسَكُ. فقالتِ الزهراءُ صلى الله عليها لِجاريةٍ مِنْ جَواريها: "يا فُلانة. ساعِديهِ في العُبورِ". فجَعَلَتِ

1- (الصِّراط) في الأصل هو الطريق. و(الصراط) يوم القيامة جسرٌ أدقُّ من الشعرة. تحته نار جهنم. يعبر عليه المرء حاملاً حسناته وسيئاته. فإنْ كان تقياً عبره بسرعة البرق. وفي آخره يجد النبيَّ باستقباله. وإنْ كانت ذنوبه كبيرة وقع في جهنم وبقي فيها بمقدار ذنوبه.

الجاريةُ تُعالِجُني وأنا أتساقطُ عن يمينٍ وشمالٍ. فقلتُ: "يا هذه. إنْ أردتِ سَلامتي، فاسْتَعمِلي معي قولَ القائلِ في الدارِ العاجِلةِ:

سِـــتٍّ[1] إنْ أَعْـيـــاكِ أَمْـــري فـاحْـمِـلـيـنـي زَقَـــفـــونـــةْ"

فقالتْ: "وما زَقَفونة؟".

قلتُ: "أنْ يَطرَحَ الإنسانُ يديهِ على كَتِفَي الآخَرِ. ويُمْسِكُهُ الحامِلُ ويَحْمِلُه بِجَعْل بَطْنِ المَحمولِ على ظَهْرِهِ. أما سَمِعْتِ قولَ (الجَحْجَلول)[2] من أهلِ كَفْرِ طاب[3]:

صَلَحَتْ حالتي إلى الخلفِ حتى صِرتُ أمشي إلى الورى زَقَفونةْ"

فقالتْ: "ما سمعتُ بزقفونة ولا الجَحْجَلول ولا كفر طاب إلا الساعةَ".

فتحمِلُني وتَجوزُ بي كالبرقِ. فلمَّا جُزتُ الصِّراطَ قالتِ الزَّهْراءُ عليها السلامُ: "قد وهبْنا لك هذه الجاريةَ. فخُذْها كي تَخدُمَكَ في الجِنانِ".

حديثه مع رضوان ودخوله الجنةَ

فلمَّا صِرتُ إلى بابِ الجنةِ قال لي (رِضوانُ): "هلْ مَعَكَ مِنْ جَوازٍ؟". فقلتُ: "لا". فقالَ: "لا سبيلَ لك إلى الدُّخولِ إلا به".

فاحْتَرْتُ في أَمْري. ورأيتُ على بابِ الجنةِ مِنَ الداخِلِ شجرةَ صَفْصافٍ. فقلتُ له: "أَعْطِني ورقةً مِنْ هذه الصفصافةِ حتى أَرجِعَ إلى المَوْقِفِ فآخذَ عليها جَوازاً".

فقالَ: "لا أُخْرِجُ شيئاً مِنَ الجنةِ إلا بإذنٍ مِنَ العليِّ الأعلى تَقَدَّسَ وتَبارَكَ".

فلمَّا حِرْتُ بِأمري وبِما وَقَعَ لي قلتُ: "إنا للهِ وإنا إليه راجِعون. لو أنَّ لِلأمير (أبي المُرَجَّى[4]) خازِناً مثلَكَ ما وَصَلْتُ أنا ولا غيري إلى دِرْهَمٍ مِنْ خِزانتِهِ".

1- سِتٍّ: يا سيدتي. وكلمة (ست) تستعمل حتى اليوم بمعنى السيدة. وفي أكثر بلدان بلاد الشام تُستعمل بمعنى (الجَدة). وما نزال في كل الوطن العربي نطلق على السيدة أم كلثوم لفظ (الستّ).

2- (الجَحْجلول): شاعر مجهول. ونُرجِّحُ أنه اسم اخترعه المعري للفكاهة.

3- (كفر طاب): قرية بين المعرة وبين مدينة حلب. وهي قليلة الماء.

4- (أبو المُرَجَّى): لا ترجمة له. ويبدو أنه أحد الأمراء في عصر أبي العلاء.

والتفَتَ (إبراهيمُ) صلى اللهُ عليه فرَآني وقد تَخَلَّفْتُ عنه. فرجَعَ إليَّ فجَذَبني جَذْبَةً حَصَّلني بها في الجنةِ.

وكان مُقامي في المَوْقِفِ مُدَّةَ سِتةِ أَشْهُرٍ مِنْ شُهورِ العاجلةِ. فلذلك بَقِيَ عليَّ حِفظي. ما أَذْهَبَتْه الأهْوالُ. ولا أَنْقَصَهُ تَدْقيقُ الحِسابِ.

الفَصْلُ الثالث

نَعيمُ الفِرْدَوْس

مع حُمَيْد بن ثور[1]

وبعدما رويتُ لعوران قيسٍ قِصةَ دُخولي إلى الجنةِ قلتُ: "فأيُّكم (راعي الإبلِ عَبيد بنُ الحُصَيْن النُّمَيْرِيُّ؟". فيقولون: "هذا".

فيسلِّمُ عليه الشيخُ ويقولُ: "أرجو أنْ لا أَجِدَك مثلَ أصْحابِك صِفْراً مِنْ حِفظِك وعربِيَّتِك". فيقولُ راعي الإبلِ: "أرجو ذلك. فاسْألْني ولا تُطيلّنَّ". فيقولُ الشيخُ: "أَحَقٌّ ما روى عنك سيبويه في قصيدتِكَ اللاميةِ التي تَمدحُ بها (عبدَ الملك بنَ مروان) مِنْ أنَّك تَنصِبُ كلمةَ (الجماعةَ) في قولك:

أيــامَ قومــي والجماعــةَ كالــذي لَــزِمَ الرِّحالــةَ أنْ تَميــلَ مَميــلا[2]

فيقولُ: "حَقٌّ ذلك".

***

1- عودة إلى حديث ابن القارح مع عوران قيس. وهو الحديث الذي قطعه بقصة دخوله إلى الجنة. و(حُمَيْد بن ثور) مرت ترجمته.

2- (أيامَ) مفعول به لفعل محذوف تقديره (اذْكُرْ). و (الجماعةَ): إنْ قلتَها بالفتح كانت معطوفة على أيامَ. وإن قلتَها بالجَرِّ فهي معطوفة على قومي. وقد وردت الروايتان في هذا البيت.

ويَنصرِفُ عنه رشيداً إلى (حُمَيْد بنِ ثَوْرٍ الهِلالي) أحدِ عورانِ قيسٍ ويقولُ له: "إيهِ يا حُمَيْدُ. لقد أَحْسَنْتَ في قولِكَ:

أرى بَصَري قـد رابَني بَعْدَ صِحَّةٍ وحَسْـبُكَ داءً أنْ تَصِـحَّ وتَسْـلَما
ولـنْ يَلبَثَ العَصْـرانِ: يـومٌ وليلةٌ إذا طَلَبـا أنْ يُـدْرِكا مـا تَيَمَّمـا[1]

فكيف بصرُك اليومَ؟".

فيقولُ (حُمَيْد): "إنِّي لَأَكونُ في مَغاربِ الجنةِ. فألمَحُ الصَّديقَ مِنْ أَصْدِقائي وهو بِمَشارِقِها. وبيني وبينَه مَسيرَةُ ألوفِ أَعوامٍ للشَّمْسِ التي عَرَفْتَ سُرْعَةَ مَسيرِها في الدارِ العاجلةِ. فتعالى اللهُ القادِرُ على كُلِّ بَديع".

فيقولُ الشيخُ: "لقد أَحْسَنْتَ في (الدالية) التي أَوَّلُها:

جِلِبَّانَـةٌ وَرْهـاءُ تَخْصـي حِمارَها بِفي مَنْ بَغى خَيْراً لدَيْها الجَلامِدُ[2]
إزاءُ مَعـاشٍ لا يـزال نِطـاقُهـا شَديداً وفيها سَـوْرَةٌ وهي قاعِدُ[3]
تَتابَـعَ أَعْـوامٌ عـليهـا هَزَلْـنَهـا وأَقْبَلَ عامٌ يَنْعَـشُ الناسَ واحِدُ[4]

فيقول حُمَيْدٌ: "لقد ذَهَلْتُ عنْ كلِّ ميمٍ ودالٍ، وشُغِلْتُ بِمُلاعَبَةِ الحُورِ ذواتِ السيقانِ المُمْتلئة.

فيقول الشيخ: "أَمِثْلُ هذه (الداليةُ) تُرْفَضُ وفيها:

1- (اليوم والليلة): الليل والنهار. والمقصود بهما الزمن. (تيمَّم): قصد. والمعنى: إنني أعيش بين الصحة والمرض. ولن يلبث الزمنُ أنْ يدرك ما يطلبه مِنْ فناء الإنسان.

2- (الجِلِبَّانة): الكثيرةُ الكلام والضوضاء. من (الجَلَبة). (وَرْهاء): حَمْقاء. (الجَلامد): الصخور. (تخصي حمارها): مصطلح يُستَخْدَمُ لقلة الحياء. والمعنى أنَّ هذه المرأة الحمقاء الكثيرة الكلام تُقلِّل الحياء. ومَنْ يبغي لديها خيراً فلن يحصل في فمه إلا الصخور. يقالُ لِمَنْ خاب في مسعاه: (في فمه حجر).

3- يقال عن البخيل: (إزاءُ مال) لأنه يرعى ماله ويُنَمِّيه. و(إزاءُ) من فعل: (أزى يأزى): إذا تقبَّضَ وتَجمَّع. (لا يزال نِطاقُها): تُبقي نِطاقها مَشدوداً لكي تعمل وتكسب المال. (السَّوْرَةُ): بقية الشباب. (قاعد): ممتنعةٌ عن الزواج. ولفظ (قاعد) يطلق على المذكر والمؤنث. والمعنى أنها بخيلة لا تحُلُّ كيسها حتى لا تُنفِقَ مالاً ولا تتزوج رغم أنها ما تزال شابة.

4- (عام يَنعَشُ الناسَ) يُخصِبهم ويُحييهم. والمعنى أنه مرَّ عليها أعوامٌ جعلتها هزيلة. ولم تستفد مِنْ عام الخصب.

عَضَمَّـرةٌ فـيهـا بَـقـاءٌ وشِـدةٌ ووالٍ لها بادي النَّصيحةِ جاهِدُ[1]
إذا ما دعـا: أَجْيادَ، جـاءت خَناجِرٌ لَهامِيـمُ لا يَمْشـي إليهِـنَّ قائِدُ[2]
فجـاءت بِمَعْيوفِ الشَّـريعةِ مُكْلَعٍ أَرَشَّـتْ عليـهِ بالأَكُفِّ السَّـواعِدُ[3]

وفيها وَصْفُ المرأةِ البخيلةِ الذي ظَنَنْتَ القَطاميَّ[4] أخذَهُ مِنْكَ. وقد يَجوزُ أنْ يَكونَ سَبَقك لأنكما في عَصْرٍ واحِدٍ. وذلك قولُك:

تَأَوَّبَهـا فـي لَيـلِ نحْـسٍ وقَـرَّةٍ خليلي أبو الخَشْخاشِ والليلُ بارِدُ[5]
فقـام يُصاديهـا فقالـت: تُريدُني على الزادِ؟ شَـكْلٌ بَيْننـا مُتَباعدُ[6]
إذا قـال: مَهْلاً أَسْـجِحي لَمَحَتْ لهُ بِزَرْقاءَ لم تَدْخُـلْ عليها المَراوِدُ[7]

1- (العَضَمَّر): البخيل السيء الخُلُق. (والٍ): زوج. والمعنى أنها بخيلة وقوية ولها زوج ينصحها ويجتهد في الحفاظ على أموالها.

2- (أجياد): اسم شاة. (الخناجر): ج خَنجرة. وهي الناقة الكثيرة اللبن. (اللهاميم): ج لَهموم. وهي مثلها أي الناقة الكثيرة اللبن. (لا يمشي إليهن قائد): أي أنهن مطيعات يأتين بالنداء دون أن يذهب إليهن مَنْ يقودهن.

3- (المَعْيوف): المكروه. ويقصد هنا القَدَحَ الكريه. (الشريعة): موضع انحدار الماء. (المُكْلَع): الذي تلبَّد عليه الوسخ. (أرشَّت): أفرزت الرشَّ. يقال: (أرشَّت الطعنةُ الدمَ) و(أرشَّت العينُ الدمعَ). و(الرشُّ) كلمة ما تزال تستخدم في عامية كثير من الأقطار العربية. يقال: (رشه بالماء). (السواعد): مجاري اللبن في الضرع. والمعنى أنها جاءت بقدَحٍ وسخٍ مكروهٍ ترشُّه ضروعُ الناقة حين حلبها.

4- (القَطامي): عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي. و(عمير) تصغير عمر. و(شُيَيْم) تصغير أَشْيَم. وله لقبان: (القطامي): وهو الصقر. و(صريع الغواني) لقوله:

صَريـعُ غَـوانٍ راقَـهُـنَّ ورُقْـنَـهُ لَدُنْ شَبَّ حتى شابَ سودُ الذوائبِ

وهو ابن أخت الشاعر الأخطل. كان نصرانياً فأسلم. مات في خلافة عبد الملك بن مروان بعد سنة 70 هـ 689 م.

5- (تأوَّب الماءَ): وَرَدَهُ ليلاً، (القَرَّة): البرد. (أبو الخشخاش): صديق حُمَيد بن ثور. والمعنى أنَّ صديقي أبا الخشخاش ذهب إليها في ليلة منحوسة باردة.

6- (صاداه): داراه وهو يتصدى له. والمعنى أنَّ أبا الخشخاش داورها فقالت له: أتريد زاداً؟ هذا أمر مُتباعِدٌ بيني وبينك.

7- (أَسْجَحَ): أحسنَ العفوَ ولان وسَهُلَ. (الزرقاء): العين ذات الزُّرقة. (المَراوِد): ج مِرْوَد. وهو مِيلُ الكُحْل. أي أنها نظرت إليه بعين زرقاء حادة لم تعرف الكحل يوماً.

كأن حِجاجَيْ رأسِـها فـي مُلَتَّـمٍ مِنَ الصَّخْرِ جَوْنٌ أَخْلَقَتْهُ الموارِدُ[1]

وهذا الوصْفُ نَحوٌ مِنْ قَولِ القَطامِيِّ:

تَلَفَّعْـتُ فـي طَـلٍّ وريـحٍ تَلُفّني وفي طِرْمِسـاءٍ غَيْرِ ذاتِ كَواكِبِ[2]

إلـى حيزَبـونٍ تُوقِـدُ النـارَ بَعدَما تَصَوَّبَتِ الجَوزاءُ قَصْدَ المَغارِبِ[3]

فمـا راعَهـا إلا بَغـامُ مَطِيَّـةٍ تَروحُ بِمَحْسورٍ مِنَ الصوتِ لاغبِ[4]

وجُنَّـتْ جُنونـاً مِـنْ دِلاثٍ مُناخَـةٍ ومِنْ رَجُلٍ عاري الأشاجِعِ شاحِبِ[5]

تقـولُ وقـد قَرَّبتُ كُـوري وناقَتي إليـكَ فـلا تَذْعَـرْ علـيَّ ركائبي[6]

والأبياتُ مَعروفَةٌ.

فإذا عُدْنا إلى قَصيدتِكَ (الداليةِ) فقد قُلْتَ فيها:

فجـاءَ بـذي أَوْنَيْـن أُعْبِـرَ شـأْنُهُ وعُمِّـرَ حتى قيلَ: هل هـو خالِدُ[7]

1- (الحِجاجان): منبتا شعر الحاجبين. (المُلَتَّم): المجروح. يقال (لَتَمَتِ الحجارةُ رِجْلَ الماشي): إذا جرَّحَتْ قدميه. (المَوارِد): مكان نزول الماء على الصخر. والمعنى أنها صلبة قاسية. فكأن حاجبيها نبتا في صخر جَرَحَهُ مَسيلُ ماءِ المطر عليه.

2- الأبيات من قصيدة طويلة له. ويصف فيها سَيْرَه في الليل ونزولَه على عجوزٍ بخيلة من بني محارب. نزل عندها ولم تُكرمه. و(الطِّرْمِساء): الظُّلْمة الشديدة. والمعنى أنه تلَفَّف في الندى والريح. وسار في ليلةٍ ذات ظلامٍ شديدٍ وليس فيها كواكب.

3- (الحيزبون): العجوز. (تَصَوَّبَتْ): انحَدَرَت. (المغارِب): ج المَغرِب. وهو الغُروب. والمعنى أنه قصد إلى حيزبون توقِدُ النارَ بعدما اتَّجَهت النجوم تحو المغيب.

4- (البَغام): صوت الناقة. (المَحْسور): المُتْعَب الكليل. (اللاغِب): الضعيف المُتعب. والمعنى أنَّ هذه العجوز التي كانت تُشعِل النار، فاجأها صوتُ ناقةٍ تحمل رجلاً مُتعباً ضعيفاً.

5- (الدِّلاث): السريع. (المُناخَة): مِنْ أناخ الناقةَ. إذا جعلها تبرك. (الأشاجِع): أصولُ الأصابع المتصلة بالكفِّ. والمعنى أن هذه العجوز جُنَّت من الناقة السريعة، ومن رؤيتي وأنا رجل شاحب عاري الأصابع.

6- (الكُور): رَحْلُ البعير. (ذَعَرَه): أفزعه. والمعنى أنَّ هذه العجوز وقد رأتني وقد قرَّبتُ رَحْلي وناقتي، تقول لي: لا تُفْزِعْ إبلي.

7- الأبيات تأتي بعد قول حميد بن ثور:

كأن حِجاجَيْ رأسِـها في مُلَـتَّم مِنَ الصَّخْرِ جَوْنٌ أَخْلَقَته الموارِدُ

(الأوْنان): مثنى الأوْن: الخاصِرة. (أُعْبِرَ شانُه): لم يُجَزَّ صوفه. والمعنى أنه أتى بتيس تُرِكَ شعرُه وطال عُمْرُه حتى سئل: هل هو خالد؟

فــعَــزَّاه حتى أسْــنَــداهُ كأنــه على القَرْوِ عُلْفوفٌ مِنَ التُّرْكِ سانِدُ[1]

وفيها ذِكْرُ الزُّبْدَة:

فلمَّا تَجَلَّــى الليلُ عنها وأسْــفَرتْ وفي غَلَسِ الصُّبْحِ الشُّخوصُ الأباعِدْ[2]

رَمــى عينَــه مِنْهــا بِصفــراءَ جَعْدَةٍ عليهــا تُعانيــهِ وعنهــا تُــراودُ[3]

فيقول حُمَيْد: "لقد شُغِلْتُ عن الزُّبْدِ والصَّيْدِ بِما وَهبَ رَبيَ الكريمُ. ولا خَوْفَ عليَّ ولا حَزَنَ. ولقد كانَ الرجلُ مِنَّا يُعْمِلُ فِكرَهُ السنةَ أو الأشْهُرَ لِيمْدَحَ رجلاً آتاه اللهُ الشَّرفَ والمالَ. وربما رَجَعَ بالخَيْبَةِ. وإنْ أَعْطِى فالعَطاءُ زهيدٌ. لكنَّ النظمَ فَضيلَةُ العربِ.

مع لبيد بن ربيعة

ويَعرِضُ للشيخِ ولِعورانِ قَيْسٍ الخمسةِ (لبيدُ بنُ ربيعةَ[4]). فيدعوهُمْ إلى منزِلِهِ. ويُقسِمُ عليهم أنْ يَذهبوا معه. فيَمْشونَ قليلاً. فإذا هم بِثلاثةِ بيوتٍ من الشَّعْرِ ليس في الجنةِ نَظيرٌ لها بَهاءً وحُسْناً. فيقولُ لبيدٌ: "أتعرفُ أيها الأديبُ الحلبيُّ المَعْروفُ بابنِ القارحِ لِمَنْ هذه البيوتُ؟"

فيقولُ الشيخُ: "لا والذي حَجَّتْ القبائلُ إليه".

فيقولُ لبيدٌ: "أما البيتُ الأولُ فقولي:

إنَّ تَقْــوى رَبِّنــا خَيْــرُ نَفَــلْ وبــإذن اللــهِ ريْثِــي وعَجَــلْ[5]

1- (عزَّاه): غَلَباه. (أسنداه): جعلاه يميل. (القَرو): حوض تَرِدُه الإبل. (عُلفوف): كبير السن. والمعنى أنَّ خاصرتَيْ هذا التيس لاكتنازهما جعلاه يميل على حوض الماء كأنه رجل كبير السن من التُّرْكِ مستندٌ على الحوض.

2- (غَلَسُ الصبح): آخر الليل. (الشخوص الأباعد): الأشخاص البعيدون.

3- (الجَعْدة): غير المنبسطة. والمقصود هنا أول حليب الناقة أو الغنمة. ويكون لونه أصفر. والمعنى أنه عندما انجلى الليل وظهر الأشخاص البعيدون رأى أول حليب الغنمة. وكانت هذه المرأة تراوده حتى لا يرى اللبن.

4- مرت ترجمته.

5- (النَّفَل): الغنيمة. و(الرَّيْثُ): السَّيْرُ المُتَمهِّلُ. والمعنى أنَّ تقوى الله خير الغنائم. وأنا أسير متمهلاً أو مستعجلاً بإذن الله.

وأما الثاني فهو قولي:

أَحْـمَـدُ الـلـهَ فـلا نِـدَّ لهُ بِيَدَيْـهِ الخيـرُ مـا شـاءَ فعـلْ

وأما الثالث فقولي:

مَـنْ هـداهُ سُـبُلَ الخَيْـرِ اهْتَـدى ناعِـمَ البـالِ ومَـنْ شـاءَ أضَـلّ

وهذه الأبياتُ الثلاثةُ صَيَّرها ربي اللطيفُ الخبيرُ بيوتاً في الجنةِ التي أسكُنُها إلى آخِرِ الأبدِ، وأنْعمُ فيها نَعيمَ المُخَلَّدِ.

فيعجَبُ هو وأولئك القومُ ويقولون: "إنَّ اللهَ قَديرٌ على ما أرادَ".

مأدُبةٌ في الجنةِ

ويخطِرُ له – أيَّد اللهُ مجدَه بالتأييدِ – أنْ يَصنَعَ مأدُبَةً في الجِنانِ، يَجْمَعُ فيها مَنْ أَمْكَنَ مِنْ شعراءِ الخضرَمِةِ والإسلامِ، والذين أَصَّلوا كلامَ العربِ، وجَعلوهُ مَحفوظاً في الكتبِ، وغيرَهم مِمَّنْ يَستأنِسُ بقليلِ الأدبِ. ويخطِرُ له أنْ تكونَ كمآدبِ الدارِ العاجلةِ. إذْ كانَ الباري – جَلَّت عَظَمَتُه – لا يُعْجِزُه أنْ يأتيَهم بِجميعِ الأغراضِ، مِنْ غير كُلْفةٍ ولا إبطاءٍ. فتُنْشَأُ طَواحينُ على نهرِ الكوثرِ، تُجَعْجِعُ لِطحنِ بُرٍّ مِنْ بُرِّ الجنة. وإنَّه لَأفضَلُ من بُرِّ الهُذَلي[1] الذي قالَ فيه:

لا دَرَّ دَرِّيَ إنْ أَطْعَمْـتُ رائدَهُـمْ قِرْفَ الحَتِيِّ وعندي البُرُّ مَكْنوزُ[2]

وبُرُّ الجنةِ أفضلُ من بُرِّ الهذلي بمقدارِ ما يكونُ عليه فضلُ السماواتِ على الأرَضين. فيقترحُ – أمضى القادرُ له اقتراحَهُ – أنْ تَحْضُرَ بين يديه جَوارٍ مِنَ الحُورِ العِينِ يَعمَلْنَ بِطواحينِ اليدِ. فطاحونٌ مِنْ دُرٍّ. وطاحونٌ مِنْ عَسْجَدٍ. وطواحينُ لم

1- هو أبو ذؤيب الهذلي. وقد مرت ترجمته.

2- (لا درَّ دري): لا بارك الله بي. ويقال في الرجل الكريم (لله دَرُّه). (القِرْف): القشر. (الحَتِيّ): القشر الرديء من شجر الدوم. والمعنى أنه لا بارك الله بي إذا أطعمتُ النازل عندي من قشور الأشجارِ وعندي قمح مكنوز.

يَرَ أهلُ العاجِلةَ شيئاً مِنْ شَكْلِ جَواهِرِهُنَّ. فإذا نظرَ إليهِنَّ حَمِدَ اللهَ سُبحانَه على ما مَنَحَ، وذكرَ قولَ الراجزِ:

أَعْدَدْتُ لِلضيـفِ وللجيرانْ حَـرِيَّـتَـيـنِ تَـتـعـاورانْ
لا تَـرْأَمـان وهُما ظِـئْـرانْ[1]

وهذا الراجزُ يصِفُ رَحى اليدِ.

ويَبتسِمُ الشيخُ إلى الجَواري الطَّاحِناتِ ويقولُ لهنَّ: "اطْحَنَّ شَزْراً وبَتَّا".

فيقُلْنَ: "ما شَزْرُ وما بَتُّ؟".

فيقول: "الشَّزْرُ ما هو من البُرِّ على أَيْمانِكُنَّ. والبتُّ ما هو من البُرِّ على شَمائِلِكُنَّ. أما سَمِعتُنَّ قولَ القائل:

ونُصْبِـحُ بالغَـداة أَتَـرَّ شـيءٍ ونُمسـي بالعَشـيِّ طَلَنْفَحينـا[2]
ونَطْحَـنُ بالرحـى شَـزْراً وبَتَّـاً ولـو نُعطَـى المَغـازلَ مـا عَيِينا"

ويقالُ إنَّ هذا الشعرَ لرجلٍ أُسِرَ فكتبَ إلى قومِه بذلك.

ويَهْجُس في صَدرِه – عَمَّرَهُ اللهُ بالسرورِ – طواحينُ تدور فيها البهائمُ. فيَمْثُلُ بين يديه ما يشاءُ اللهُ مِنَ الطواحينِ. فيها أحجارٌ مِنْ جَواهِرِ الجنة. تُديرُ بَعضَها جِمالٌ تَمشي على هواها في أشجارِ الفردوس، وأَيْنُقٌ ليس لها أولادٌ تَنْشَغِلُ بها وتَعطِفُ عليها، وصُنوفٌ مِنَ البِغالِ والبقرِ وحُمُرِ الوحشِ. فإذا اجتمعَ مِنَ الطَّحينِ ما يُظَنُّ أنه كافٍ للمَأْدَبَة، تَفرَّقَ خَدَمُهُ مِنَ الوِلْدانِ المُخَلَّدين، فجاؤوا بِصِغارِ الماعِزِ وأنواعِ الطيرِ التي جرت العادةُ بأكْلِها كفِراخِ الحَمامِ والطواويسِ، والسَّمينِ مِنَ الدَّجاجِ والفِراخِ. وسيقَتُ البقرُ والغنَمُ والإبلُ لِتُنْحَرَ. فارتَفَعَ رُغاءُ الإبلِ وأصْواتُ

1- (الحريَّة): التي تطحن برحى اليد. (تتعاوران): تتبادلان خدمة الضيوف. (رئِمه): أحبه. يقال: (رئمت الناقةُ ولدها): عطفت عليه. ومنه (الرؤوم). (الظِّئْر): المُرْضِعَة. والمعنى: إنه أعدَّ لضيوفه وجيرانه فتاتين تتناوبان طحنَ الطحين. وهما لا عملَ لهما إلا الخدمةُ رغم أنهما شبيهتان بالمرضعة. وهذا المعنى الذي ذكرناه مَحَّصناه بعد مراجعة لكتب اللغة ولاجتهادات فقهاء اللغة في معنى (حَرِيَّتَيْن).

2- (تَرَّ الرجلُ): سَمِنَ واسترخى. (الطَّلَنْفح): الخالي الجوف.

الغنمِ والماعِزِ وصياحُ الدِّيَكةِ لِمشاهدةِ السَّكاكين والمُدى. وذلك كُلُّه بِحَمْدِ اللهِ لا أَلَمَ فيه. وإنَّما هو جِدٌّ مثلُ اللعبِ. فلا إلهَ إلا اللهُ الذي ابتدَعَ خَلْقَه مِنْ غير مَشقَّة، وصَوَّره بِلا مِثالٍ.

فإذا وُضِعَتِ اللحومُ فوقَ الأوْضامِ، قالَ الشيخُ – أنفذَ اللهُ أوامِرَهُ –: "أَحْضِروا مَنْ في الجنةِ مِنَ الطُّهاةِ الساكِنين في (حلبَ) على مَمَرِّ الأزمانِ".

فتحضُرُ جَماعةٌ كبيرةٌ. فيأمُرُهم باتِّخاذِ الأطْعِمَةِ. وتلك لَذَّةٌ يَهَبُها اللهُ عزَّ سُلْطانُه بدليلِ قولِه تعالى: (وفيها ما تَشْتَهيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعينُ وأنتم فيها خالِدون. وتلك الجنَّةُ التي أُورِثْتُموها بِما كنتُمْ تَعْمَلون. لكم فيها فاكِهَةٌ كثيرةٌ مِنْها تأكُلون)[1].

فإذا أتت الأطعِمَةُ، افترقَ غِلْمانُه الذين كأنَّهم اللؤلؤُ المَكنونُ لإحضارِ المَدْعُوِّين. فلا يتركونَ في الجنةِ شاعراً إسلامياً ولا مُخَضرَماً ولا عالِماً بشيءٍ مِنْ أصنافِ العلومِ ولا مُتَأَدِّباً إلا أَحْضَروه. فيجتمع بَجْدٌ عظيم. والبجْدُ: الخَلْقُ الكثيرُ. قالَ الشاعرُ:

تَـطـوفُ الـبُجـودُ بأبـوابِـــهِ مِـنَ الضُّـرِّ فـي أَزَمـاتِ السِّـنِينا

فتوضَعُ المَوائِدُ مِنَ الذهبِ والفِضَّةِ. ويجلِسُ عليها الآكِلون. وتُنْقَلُ إليهم الصِّحافُ. فتكونُ الصحْفةُ عندهم وهم يأكلونَ مِمَّا فيها.

مَجْلِسُ أُنسٍ وغِناءٍ

فإذا قَضَوْا الأربَ مِنَ الطَّعامِ، جاءَ السُّقاةُ بأصنافِ الأشربةِ، وجاءتِ المُسْمِعاتُ بالأصواتِ المُطْرِبةِ.

ويقولُ الشيخُ – لا فَتِئَ ناطِقاً بِالصَّوابِ –: "عليَّ بِمَنْ في الجنة مِنَ المُغَنين والمُغَنِّيات مِمَّنْ كان في الدارِ العاجلةِ فَقُضِيتْ له التوبةُ".

فتحْضُرُ جماعةٌ كثيرةٌ مِنْ رجالٍ ونساءٍ. فيهم (الغَريضُ) و(مَعبَدٌ) و(ابنُ مِسْجَح)

1- سورة (الزخرف) الآيات 71 – 73.

و(ابنُ سُرَيْج)[1]، إلى أنْ يَحضُرَ (إبراهيمُ المَوْصِلِيُّ)[2] وابنُهُ (إسْحقُ)[3]. فيقولُ قائلٌ مِنَ الجماعةِ وقد رأى أَسْرابَ قِيانٍ قد حَضَرْنَ مثلَ (بَصْبَص[4]) و(دنانير[5]) و(عِنان[6]): "مِنَ العجب أنَّ (الجَرادتين) في أقاصي الجنةِ". فإذا سَمِعَ الشيخُ ذلك – لا بِرِحَ سَمْعُه مَطروقاً بِما يُبْهِجُه – قال: "لا بدَّ مِنْ حُضورِهما".

مع الجَرادَتَيْن

فيركبُ بعضُ الخَدَمِ ناقةً مِنْ نوقِ الجنةِ ويذهبُ إليهما على بُعْدِ مَكانِهما. فَتُقْبِلانِ على نَجيبَيْنِ أسرعَ مِنَ البرقِ اللامِعِ. فإذا وَصَلَتا إلى المَجْلِسِ، حَيَّاهُما ورحَّبَ بهما وقالَ: "كيفَ خَلَصْتُما إلى دارِ الرحْمةِ بعدما عِشْتُما في الضلالِ؟".

فتقولانِ: "قُدِّرتْ لنا التوبةُ ومُتْنا على دينِ الأنبياءِ والمُرسَلين".

فيقولُ: "أحسنَ اللهُ إليكُما. أَسْمِعانا شَيئاً مِنَ (القصيدةِ الحائيةِ) التي تُروى لـ

1- (الغَريض) و(معبد) مرت ترجمتهما. (ابن مِسْجَح): سعيد بن مسجح. مولى بني جُمَح. مكي أسود. كنيته أبو عيسى. مِنْ فحول المغنين وأكابرهم. نقل غناءَ الفرس إلى العرب. ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم. وهو الذي علَّم ابن سريج والغريض الغناء. عاش إلى ما بعد موت عبد الله بن الزبير في مكة.

2- (إبراهيم الموصلي). فارسي من بيت شريف في الفرس. نزل أبوه ميمون في الكوفة في بني دارم. وولد ابنه إبراهيم سنة 125 هـ 743 م. وحينما أنكرَ عليه أهلُه الغناءَ هرب إلى الموصل. فلما عاد منها قال له الناس (مرحباً بالموصلي). فلصق به هذا الاسم. كان كبير المغنين في عصر الرشيد. وكان مع الغناء كاتباً وشاعراً وخطيباً. توفي في بغداد عام 188 هـ 804 م.

3- هو (إسحق بن إبراهيم). كنيته أبو محمد. أخذ الأدب عن الأصمعي وغيره. وتعلم الغناء فغلب عليه. ولم يكن له فيه نظير. توفي عام 235 هـ 849 م في خلافة الواثق.

4- (بَصْبَص): جارية من مولدات المدينة. حلوة الوجه حسنة الغناء. كانت مولاة لـ (يحيى بن نفيس). وكان صاحب قِيان يأتي إليه الأشراف ويسمعون غناء جواريه. اشتراها المهدي وهو ولي عهد بسبعة عشر ألف دينار. فولدت له ابنته (عُلية).

5- (دنانير): مغنية مُجيدة كانت من جواري يحيى بن خالد البرمكي. اشتهرت بالغناء والأدب ورواية الشعر حتى صارت أشهر مغنيات العصر العباسي. وكانت تغني غناء إبراهيم الموصلي. توفيت عام 210 هـ 825 م.

6- من مغنيات العصر العباسي.

(عَبيد بنِ الأبرص) مرةً ولـ (أوسِ بنِ حَجَرٍ[1]) أخرى". وهما ما سَمِعتا قطُّ بِعَبيدٍ ولا بأوسٍ. فتُلْهَمان أنْ تُغَنِّيا بِالمطلوبِ. فتُلَحِّنان:

وَدِّعْ لَميـَس وَداعَ الوامِقِ اللاحي ... قد فَنَّكتْ في فَســادٍ بعد إصلاحِ[2]
إذْ تَســتَبيكَ بِمَصْقــولٍ عوارِضُــه ... حَمْــشِ اللِّثاتِ عِذابٍ غَيْرِ مِمْلاحِ[3]
كأنَّ ريقَتَهــا بعــدَ الكَــرى اغْتُبِقَتْ ... مِنْ ماءِ أدْكَنَ في الحانوتِ نضَّاحِ[4]
ومِــنْ مُشَعشَــعَةٍ وَرهــاءَ نَشْــوَتُها ... ومِــنْ أنابِيــبِ رُمَّــانٍ وتُفَّــاحِ[5]
هَبَّتْ تَلومُ وليسَــتْ ســاعةَ اللاحي ... هلاَّ انتظَرْتِ بِهذا اللومِ إِصْباحي[6]
قاتَلَهــا اللــهُ تَلْحانــي وقــد عَلِمَتْ ... أنِّي لِنَفْسِيَ إِفْسادي وإِصْلاحي[7]
إنْ أشــرَبِ الخَمْــرَ أو أُرْزَأْ لها ثَمَناً ... فــلا مَحالَــةَ يومــاً أنَّنــي صــاحِ[8]
ولا مَحالَــةَ مِــنْ قَبْــرٍ بِمَحْنِيَــةٍ ... أو في مَليعٍ كظهرِ التُّرْسِ وضَّاحِ[9]

1- (أوس بن حجر الأسدي التميمي). ولد عام 530 م. كان مِنْ كبار شعراء تميم في الجاهلية. وكان زوج أم زهير بن أبي سلمى. وكان كثير الأسفار. وأكثر إقامته كانت عند (عمرو بن هند) في الحيرة. عمر طويلاً (90 سنة). وكان فحل مضر حتى ظهر النابغة وزهير فأخملاه. توفي عام 620 م.

2- (الوامِق): المُحِبُّ. من وَمَقَه: أحبه. (اللاحي): اللائم. (فَنَك في الأمر فُنوكاً): لجَّ فيه وألحَّ.

3- (المَصْقول): الناعم. (العَوارض): ج عارض. وهو صفحة الخد. (لُثَّةُ حَمِشَة): قليلة اللحم. وهي صفة مستحبة. (عِذاب): ج عَذْب. (المِلاح): المالح. والمعنى أنَّ لميس هذه تأسرك بوجه مصقول العوارض. وهي ذات فم لثته قليلة اللحم. وهو عذب غير مالح.

4- (الريقة): الريق. (اغْتبقَ الخمرَ): شربها ليلاً. ومنه (الغَبوق): شُرْبُ الليل. (أدكَن): داكن. والمعنى أنَّ ريقها بعد النوم خمر شُرِبَ في الليل مِنْ خمارة تنضح الخمر.

5- (الوَرهاء): الحمقاء. والمقصود هنا أثرها الشديد في الشارب. والمعنى أنَّ الشاعر يتابع وصفَ الخمرة التي شبَّه بها ريقَ محبوبته بأنها مُشعشَعَةٌ تُورِثُ السكرَ الشديد، وكأنَّ ريقها من الرمان والتفاح.

6- (اللاحي): اللائم. والمعنى أنَّ هذه الفتاة هبَّت تلومه على شرب الخمر. فطلب منها أنْ تنتظر في لومه حتى الصباح لأنه مشغول في الليل بشرب الخمر.

7- (تَلْحاني): تلومني. والمعنى أنها تلومه وهي تعلم أنَّ فساده وإصلاحه إنما هو لنفسه.

8- (أُرْزَأْ): مِنَ الرُّزء): وهو المصيبة. والمعنى هنا أنه يرزَأُ بثمنها. ومعنى البيت أنه مهما شرب الخمر ودفع ثمنها فلا بد أن يصحوَ منها.

9- (المَحْنِيَةُ) أو (المحنُوَة): منحنى الوادي ومكان انعطاف الطريق. (المَليع): الطريق الضيقة. والمعنى أنه لا بد للإنسان أنْ يموتَ ويُدفَنَ في قبر يكون في أحد الأودية أو في طريق ما. وهذه الطريق واضحة كأنها ظهر الترس.

فتُطْرِبانِ مَنْ سَمِعَ. وتَسْتفِزَّانِ الأفْئدةَ بِالسرورِ. ويَكثُرُ حَمْدُ اللهِ سبحانه لأنَّه أنعمَ على المُؤمنينَ والتائبينَ، وخَلَّصَهم مِنْ دارِ الشقاءِ إلى مَحَلِّ النعيمِ.

ويَعرِضُ للشيخِ – أدامَ اللهُ الجمالَ ببقائه – الشوقُ إلى النظرِ إلى سَحابٍ كالسَّحابِ الذي وَصَفَه قائلُ هذه القصيدةِ في قولِه:

إني أَرِقْتُ ولم تَأرقْ معي صاحِ ... لِمُسْتَكِفٍّ بُعَيْدَ النَّوْمِ لَمَّاحِ[1]

قد نِمْتَ عني وباتَ البَرْقُ يُسهِرُني ... كما اسْتَضاءَ يَهوديٌّ بِمِصْباحِ

تَهْدي الجَنوبُ بِأُولاهُ وناءَ بِهِ ... أعْجازُ مُزْنٍ يَسُوقُ الماءَ دَلاَّحِ[2]

كأنَّ رَيِّقَهُ لما عَلا شُطَباً ... أقْرابُ أَبْلَقَ يَنْفي الخَيْلَ رَمَّاحِ[3]

كأنَّ فيه عِشاراً جِلَّةً شُرُفاً ... عُوذاً مَطافيلَ قد هَمَّتْ بإرشاحِ[4]

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأرضِ هَيْدَبُه ... يَكادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قامَ بالرَّاحِ[5]

فَمَنْ بِنَجْوَتِه كَمَنْ بِعَقْوَتِه ... والمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشي بِقِرْواحِ[6]

1- (صاحِ): يا صاحبي. (المستكِفُّ): مِنْ (استكفَّ الشيءَ): وضع كفه على حاجبه ليدقق النظر. (اللمَّاح): القوي البصر. مِنْ (لَمَحَ الشيءَ): صوَّب إليه نظرَه. والمعنى أنه يعاتب صاحبه لأنه لم يسهَرْ معه منتظراً البرق والمطر.

2- (الجَنوب): ريح تأتي بالمطر الغزير. (المُزْن): السحابُ ذو الماء. (الدَّلاَّح): المُثقَل بالماء. مِنْ (دَلَحَ): مَشى مُثقلاً بما يحمل. والمعنى أنَّ ريح الجنوب تُرسِلُ أولَ ما يأتي به البرق. وهو سحابٌ ثقيل لكثرة ما فيه مِنَ المطر.

3- (الريِّق مِنْ كل شيء): أوله. يقال (ريِّق الشباب): أول الشباب (الشُّطَب): اسم جبل في وادي بني تميم. (الأبْلَق): ما كان فيه بياضٌ وسواد. ويقصد هنا حصاناً. (أقْراب): جوانب الحصان. (ينفي): يسبِقُ. والمعنى أنَّ أول هذا السحاب لَمَّا ارتفع فوق جبل شُطَب، يشبه جوانبَ حصانٍ أبلقَ يسبق الخيل وهو يرمَحُ.

4- (العِشار): ج عَشْراء. وهي التي أتى على حَمْلِها عشرةُ أشهر وقاربت الولادة. (الجِلَّةُ): الكبيرة السن. (الشُّرُف): كبار السن. (الإرشاح): مِنْ (رَشَحَت الأم): إذا مشى ولدها إلى جانبها. ويقصد هنا الولادة. والمعنى أنَّ هذا الحصان السمين يشبه ناقة اكتمل حملها وهمت بوضع ولدها ليسير إلى جانبها.

5- (المُسِفُّ): الشديد الدنوِّ مِنَ الأرض. (الهَيْدَبُ): ما تدلى منه. والمعنى أنَّ هذا السحاب قريبٌ من الأرض. وأطرافه يكاد الواقف أنْ يدفعها بيديه.

6- (النَّجْوَةُ): المُرتفَعُ من الأرض. (العَقْوَةُ): الساحة. (المُستَكِنُّ): الواقف الهادئ. (القِرْواح) الأرض المستوية. والمعنى أنَّ هذا المطر يجرِف كل شيء. فالذي على المرتفع كالذي في الوهدة، والواقف كالسائر.

وأصبحَ الروضُ والقِيعانُ مُمْرِعَةً مــا بَيْنَ مُنْفَتِــقٍ مِنْــهُ ومُنْصاحِ[1]

فيُنشِئُ اللهُ – تعالتْ آلاؤه – سحابةً كأحْسَنِ ما يكونُ مِنَ السُّحُبِ. مَنْ نظرَ إليها شَهِدَ أنَّه لم يَرَ قَطُّ شيئاً أحْسَنَ منها. فهي مُحَلاَّةٌ بالبرقِ في وَسَطِها وأطْرافِها. تُمْطِرُ بِماءِ وردِ الجنةِ مَطَراً خَفيفاً ومَطَراً كثيفاً. وتَنْشُرُ حَصى الكافورِ كأنه صِغارُ البَرَدِ. فَعَزَّ إلهُنا القديمُ الذي لا يُعْجِزُه تَصويرُ الأماني وتكوينُ الهواجِسِ مِنَ الظُّنونِ.

مع جِران العَوْد النُّمَيْري[2]

ويلتفتُ فإذا به يرى (جِرانَ العَوْد النميري). فَيُحَيِّيهِ ويُرَحِّبُ به. ويقولُ لبعضِ القِيانِ: "أَسْمِعينا قولَ هذا الشاعرِ المُحْسِنِ:

حَمَلْنَ جِرانَ العَــوْدِ حتى وضَعْنَهُ بِعَلْياءَ في أرجائِها الجِنُّ تَعْزِفُ[3]
وأَحْــرَزْنَ مِنَّــا كُلَّ حُجْــزَةِ مِئْــزَرٍ لَهنَّ وطاحَ النَّوْفَلــيُّ المُزَخْرَفُ[4]
وقُلْــن: تَمَتَّــعْ ليلــةَ النَّــأيِ هــذه فإنَّــك مَرْجومٌ غــداً أو مُسَــيَّفُ[5]

1- (القِيعان): ج قاع. وهو الأرض السهلة بين مرتفَعَيْن. (المُنْفَتِقُ): المنفرج.(المُنْصاح): المنشق. والمعنى أن هذا المطر جعل الأرض مُمْرِعَةً في كل نواحيها، مِنَ القيعان إلى المنفرجات في الجبل.

2- (جِران العَوْد النميري): هو عامر بن الحارث. اختلفوا في زمنه. فقيل هو جاهلي. وقيل أموي. والأرجح أنه إسلامي. وكانت وفاته عام 68 هـ 687 م. و(جِران العود): لقبه. وهو مأخوذ من قوله يخاطب امرأته:

خُــذا حــذراً يــا جارتَــيَّ فــإنني رأيتُ جِرانَ العَوْدِ قد كاد يَصلُحُ

و(الجِران): عنق البعير. (العَوْد): المُسِنُّ. والمعنى أنه يحذِّرُ جارتيه من ضَرْبِهما بسوطٍ مصنوع من عظم بعير مسن.

3- (العَلْياء): رأس الجبل. (تَعْزِف): تُصَوِّت. والمعنى أنهن وضعنَ هذا السوط في رأس جبل تُصوِّتُ فيه الجِنُّ. وقد فعلن ذلك حتى لا يصل إليه.

4- (الحُجْزة): موضِعُ شَدِّ الحِزامِ من الوسط. (المِئْزر): الثوب. (طاحَ): سقط. (النوفلي): الحُلي التي تضعها النساء تحت الخِمار. والمعنى أنهن أسقطن مآزرَ ثيابهن. فسقطت الحُليُّ المزخرفةُ. أَي أنهن قدَّمْنَ أنفسهن إليه.

5- (المَرْجوم): المَرمِيُّ بالحجار. (مُسَيَّف): مقتولٌ بالسيف. والمعنى أنهن طلبن منه أن يتمتَّع في هذه الليلة لأنه قد يموت غداً برجم الحجارة أو بالسيف.

ملاحظة

وهذه الأبياتُ تروى لــ (سُحَيْم).

عودةٌ إلى السياق

فَتُصيبُ تلك القَيْنَةُ وتُجيدُ. فإذا عَجِبتِ الجَماعةُ مِنْ إحسانِها وإصابتِها، قالت: "أتَدرونَ مَنْ أنا؟".

فيقولون: "لا واللهِ المَحْمودِ".

فتقولُ: "أنا أمُّ عمروٍ التي يقولُ فيها القائلُ:

تَصُــدُّ الــكأسَ عنَّــا أمُّ عمــروٍ وكانَ الــكأْسُ مَجْراهــا اليَمينــا[1]

ومــا شَــرُّ الثلاثــةِ أمَّ عمــروٍ بصاحِبِــكِ الــذي لا تَصْبَحينــا[2]

فيزدادون بها عَجَباً ولها إكراماً ويقولون: "لِمَنْ هذا الشعرُ؟ ألــ (عَمروِ بنِ عديٍّ اللخْمِيِّ) أم لــ (عمروِ بنِ كُلثوم التغلبي)؟".

فتقول: "أنا شَهِدْتُ نَدمانَيْ جَذيمةَ: مالِكاً وعَقيلاً، وصَبَحتُهما الخمرَ الممزوجةَ بالماءِ لَمَّا التقيا بعمروِ بنِ عدي. فكنتُ أصرِفُ الكأسَ عنه. فقالَ هذين البيتين. فلعل عمروَ بن كلثوم حسَّنَ بهما كلامَه واستزادَهما في أبياته".

رقصُ الحُور

ويذكُرُ الشيخُ – أذْكَرَه اللهُ بالصالحاتِ – الأبياتَ التي تُنْسَبُ إلى الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيدي[3] – والخليلُ ساعتَها مَوْجودٌ في الجَماعةِ –، كما يذكرُ أنها تَصلُح لِأنْ

1- البيتان نسبهما التبريزي في شرحه للمعلقات إلى معلقة (عمرو بن كلثوم). ولهما حكاية. فإنَّ رجلين كانت أم عمرو تسقيهما الخمر. وهما مالك وعقيل. فجاء عمرو بن كلثوم وطلب الخمر فصدَّتها عنه مع أن الخمر تجري في يمينها.

2- (صَبَحَه): سقاه الصَّبوحَ وهي خمر الصباح. والشاعر يدافع عن نفسه بأنه ليس أسوأ الثلاثة. وأنتِ لا تسقينه الخمر في الصباح.

3- مرت ترجمته.

يُرْقَصَ عليها. فيُنشئُ اللهُ القادرُ بِلُطْفِ حِكْمتِه، شجرةً مِنَ الجَوْزِ. فتُونِعُ لِوقتِها. ثم تنفُضُ مِنْ ثَمرِها عَدداً لا يُحصيه إلا اللهُ سبحانه. وتنشقُّ كلُّ واحِدَةٍ مِنْها عن أربعِ جوارٍ يَرُقْنَ الناظِرينَ، مِمَّنْ قَرُبَ ومِنَ النائين. ويَرقُصْنَ على تلك الأبياتِ المَنسوبَةِ إلى الخليلِ وأولُها:

إنَّ الـخَـلـيـطَ تَـصَـدَّعْ ... فَـطِـرْ بِـدائِـك أو قَـعْ[1]

لـولا جَـوارٍ حِـسـانٌ ... مِثْلُ الـجَـآذِرِ أربَـعْ[2]

أمُّ الـرَّبـابِ وأسـمـا ... ءُ والـبَـغـومُ وبَـوْزعْ

لَـقُـلـتُ للظاعِـنِ اظْـعَنْ ... إذا بـدا لك أو دَعْ[3]

فتهتزُّ أرجاءُ الجنةِ. ويقولُ الشيخُ – لازال مُنْطَقاً بِالسَّدادِ –: "لِمَنْ هذه الأبياتُ يا أبا عبدِ الرحمن؟".

فيقول الخليلُ: "لا أعلمُ".

فيقولُ الشيخُ: "إنَّا كُنا في الدارِ العاجلةِ نروي هذه الأبياتَ لك".

فيقولُ الخليلُ: "لا أذكُرُ شيئاً مِنْ ذلك. ويَجوزُ أنْ يكونَ ما قيلَ حَقّاً".

فيقولُ الشيخُ: "أنسيتَ يا أبا عبد الرحمن وأنت أذْكَرُ العربِ في عَصْرِكَ؟".

فيقولُ الخليلُ: "إنَّ عُبورَ السِّراطِ يُفْرِغُ الخَلَدَ مِمَّا استُودِعَ فيه".

ويخطِرُ له ذِكْرُ شرابِ (الفُقَّاع)[4] الذي كان يُعمَلُ في الدارِ الخادِعةِ. فيُجْري اللهُ بِقدرتِه أنهاراً مِنْ فُقَّاعٍ، الجُرْعَةُ مِنْه لو قُورِنتْ بلذَّاتِ الدارِ الفانيةِ منذ خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ إلى يومِ تُطوى آخِرُ الأُمَمِ، لَكانت هذه الجُرعةُ أفضلَ وأَشَفَّ.

1- (الخَليط): الأصحاب الذين يخالطهم المرء. (تصدَّعَ): تفرَّق. والمعنى أنَّ الشاعر يخاطب نفسه بأنَّ أصحابه تفرقوا. فإما أنْ يقبل بذلك أو فليقع في داء الحزن.

2- (الجَآذر): ج جُؤْذُر. وهو ولد البقرة الوحشية. وتُشبَّه بها الحِسانُ لجمال عينيها.

3- (ظَعَنَ): رَحَلَ. ومعنى الأبيات: لقد تفرَّق الجمعُ. فماذا أنت صانعٌ بعد سفرهن. ولو خلا الركبُ مِنْ هؤلاء الحسان لتساوى عندي إقامةُ الأهل ورحيلُهم.

4- (الفَقَّاع) شراب يُصْنَعُ من الشعير. وهو يشبه البيرة اليوم. وسُمِّيَ بهذا الاسمِ للزبد الذي يَعْلوه. وهو يُشبِه الفقاعات. و(الفَقَّاعِيُّ) بائع الفَقَّاع.

فيقولُ في نفسِه: "قد عَلِمْتُ أنَّ الله قَديرٌ. والفُقَّاعُ الذي أريدُهُ يُشبِهُ ما كنتُ أراهُ مع البائعينَ الطَّوَّافينَ في الدارِ الذاهبةِ".

فلا تَكْمُلُ هذه المَقالةُ في خاطِرِهِ حتى يَجمعَ اللهُ كلَّ فُقَّاعيٍّ في الجنةِ مِنْ أهْلِ العراقِ والشامِ وغيرِهما مِنَ البلادِ. بين أيديهم الوِلْدانُ المُخَلَّدون يَحمِلونَ السِّلالَ إلى أهْلِ ذلك المَجلسِ. فيقولُ – حَفِظَ اللهُ على أهلِ الأدبِ نفوسَهم – لِمَنْ حَضَرَ المَجْلِسَ مِنْ أهلِ العلمِ: "ما تُسَمّى هذه السِّلالُ بالعربيةِ؟". فيَسْكتونَ. ويقولُ بعضُهم: "هذه تُسمى (البَواسِنَ). واحِدتُها باسِنة".

فيقولُ قائلٌ مِنَ الحاضِرينَ: "مَنْ ذَكَرَ هذا مِنْ أهلِ اللغةِ؟".

فيقولُ الشيخُ – لا انفكَّتِ الفوائدُ واصلةً مِنْه إلى الجُلَساءِ –: " قد ذكرها ابنُ دَرَسْتويه"[1] – وابنُ درستويه يومئذٍ في المَجْلِسِ –.

فيقولُ له الخليلُ: "مِنْ أينَ جِئتَ بهذه الكلمةِ؟".

فيقول ابنُ دَرَستويه: "وجدتُها في كُتُبِ النَّضْرِ بنِ شُمَيْل[2]".

فيقولُ الخليلُ للنَّضْرِ: "أَتُقِرُّ بهذا يا نَضْرُ؟ فأنت عندنا الثِّقةُ".

فيقولُ النَّضْرُ: "قد التَبَسَ عليَّ الأمرُ. ولم يَحْكِ ابنُ دَرَسْتَويه إنْ شاءَ اللهُ إلا حَقًّا".

***

ويَعْبُرُ بين تلك الجماعاتِ طاووسٌ مِنْ طواويسِ الجنةِ يروُقُ مَنْ رَآه حُسناً. فيَشتَهيهِ (أبو عبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المُثنى)[3] مَنْقوعاً في الخَلِّ ومَطْبوخاً. فيتكوَّنُ كذلك في صَحْفَةٍ مِنَ الذهبِ. فإذا أُكِلَ، انضمَّتْ عِظامُه بعضُها إلى بَعْضٍ. ثم صارتْ

1- (ابن دَرَسْتَويه): أبو محمد. عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي. أحد أئمة النحو والأدب. توفي في بغداد عام 347 هـ 958 م.

2- (النَّضْر بنُ شُمَيْل): هو أحدُ أربعةٍ ظهروا من بين أصحاب الخليل الفراهيدي. أقامَ في البادية أربعين عاماً. توفي عام 243 هـ 857 م في خلافة المأمون.

3- مرت ترجمته.

طاووساً كما كانَ. فتقولُ الجماعةُ: "سبحانَ مَنْ يُحيي العظامَ وهي رَميمٌ. هذا كما جاءَ في الكتابِ الكريمِ: (وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ أرِني كيف تُحيي المَوْتى قالَ أَوَ لَمْ تُؤمِنْ قال بلى ولكنْ لِيطمَئِنَّ قلبي قالَ فَخُذْ أربعةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إليكَ ثم اجْعَلْ على كُلِّ جبلٍ مِنْهُنَّ جُزءاً ثم ادْعُهُنَّ يَأتينكَ سَعْياً واعْلَمْ أنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيم)[1].

ويقولُ الشيخُ – آنسَ اللهُ بِحياتِهِ – لِمَنْ حَضَرَ: "ما مَوْضِعُ (يَطْمئِنَّ) في الآيةِ؟".

فيقولونَ: "نَصْبٌ بِلام كي".

فيقولُ: "هل يَجوزُ غيرُ ذلك؟".

فيقولونَ: "لا يَحْضُرُنا شيءٌ".

فيقولُ: "يَجوزُ أنْ يكونَ في مَوْضِعِ جَزمٍ بلامِ الأمرِ. ويكونُ مَخْرَجُ الكلام مَخْرجَ الدُّعاءِ كما يُقالُ: (يا ربِّ اغْفِرْ لي). ومثلُ ذلك قولُه تعالى عن (عازَر) (قالَ أَعْلَمُ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قَدير)[2]. فقد قُرِئَتِ الآيةُ بِرفعِ الميمِ في (أَعْلَمُ) وبِسكونِها. فالرفعُ على أنه يُخبِرُ عن نفسِهِ. والسكونُ (اعْلَمْ) على أنَّه أمرٌ مِنَ اللهِ جلَّ سُلْطانُه. وأجازَ أبو عليٍّ الفارسيُّ[3] أنْ يكونَ (اعْلَمْ) مُخاطَبَةً مِنْ عازر لِنفسِه. لأنَّ هذا مَعروفٌ. يقولُ القائلُ وهو يعني نفسَهُ: ويحَكَ ما فعلتَ وما صَنَعْتَ. ومنه قولُ (الحادِرَةِ الذبياني)[4]:

بكَـرَت سُـمَيَّةُ غُـدْوةً فَتَمَتَّـعِ وغَدَتْ غُـدُوَّ مُفارقٍ لـم يَرْبَعِ"[5].

وتمُرُّ إوزَّةٌ تَمْشي مُخْتالةً مثلَ الناقةِ الشامِخَةِ الرأسِ. فيتمنَّاها بعضُ القومِ

1- سورة البقرة الآية 260.

2- (عازر): قيل هو الذي نزلت فيه الآية 259 من سورة البقرة: (أَوْ كالذي مَرَّ على قريةٍ وهي خاوِيَةٌ على عروشها قال أنَّى يُحيي هذه اللهُ بعد موتها.. إلى قوله: (فلمَّا تَبَيَّنَ له قالَ أَعْلَمُ أنَّ اللهَ على كل شيءٍ قَديرٌ).

3- الحسن بن أحمد. وقد مرت ترجمته.

4- (الحادِرة الذبياني): قُطبة بن أوس من بني ثعلبة. شاعر جاهلي مُجيد مُقِلٌّ. ولُقِّبَ بهذا اللقب (الحادرة) لضخامة جسمه. توفي عام 5 هـ 626 م.

5- المعري يأتي بهذا البيت شاهداً على أنَّ الشاعر يخاطب نفسه.

شِواءً. فتُصبِحُ مشويةً ومَوْضوعةً على خِوانٍ مِنَ الزُّمُرِّدِ. فإذا قُضِيت الحاجةُ مِنْها، عادَتْ بإذن اللهِ إلى هيئتِها السابقةِ مِنْ ذواتِ الجناحِ. ويَختارُها البعضُ كَباباً. وبعضُهم مَطْبوخةً بالسُّماقِ. وبعضُهم مَطْبوخةً بلَبَنٍ وخَلٍّ وغيرَ ذلك. وهي تَكونُ على ما يُريدونَ. فإذا تكرَّرتْ بينهم هذه الحالةُ قالَ (أبو عثمانَ المازنيُّ)[1] لـ (عبدِ الملكِ بنِ قُرَيْبٍ الأصمعيِّ): "يا أبا سعيد. ما وَزْنُ (إِوَزَّة)؟

فيقولُ الأصمعي: "أتقصُدُني بهذا السؤالِ وتعَرِّضُ لي أيها العقربُ الصَّغيرُ كأنِّي لا أَعْرِفُ وأنت كنتَ تَأتيني في مَجْلِسي في البَصْرةِ حين كُنتَ لا يُرْفَع بك رأسٌ؟ وزن إِوَزَّة: (إِفَعْلَةٌ). ووزنُها في الأصلِ (إِفْعَلَة). والهمزةُ في كلا الحالين زائِدةٌ".

فيقولُ (المازنيُّ): "ما الدليلُ على أنَّ الهمزةَ فيها زائِدةٌ، وأنَّها ليستْ أصليةٌ ووزنُها ليس فِعَلَّة؟".

فيقولُ (الأصمعيُّ): "أمَّا زيادةُ الهَمْزةِ في أولِها، فيدلُّ عليه قولُهم: وَزٌّ. وهو الإوز".

فيقولُ (أبو عثمان المازني): "ليس ذلك بِدليلٍ على أنَّ الهمزةَ زائدةٌ. لأنَّهم قد قالوا: (ناسٌ) وأصلُه (أُناس). وقالوا لِجُدَريِّ الغنمِ (مَيْهَة). وإنما هو (أُمَيْهَة)".

فيقولُ (الأصمعي) لأبي عثمان: "ما مَثَلي ومَثَلُك إلا كما قالَ الشاعرُ:

أُعَـلِّـمُـهُ الـرِّمـايـةَ كـلَّ يـومٍ فلمَّـا اشْـتَدَّ سـاعِدُه رَمانـي".

وينهضُ (الأصمعي)كالغاضِبِ. ويفترق أهلُ ذلك المجلسِ وهم ناعِمون.

مع الحُورِيَّتَيْن

ويَخلو الشيخُ – لا أخلاه اللهُ مِنَ الإحسانِ – بِحُورِيَّتَيْنِ مِنَ الحُورِ العِين. فإذا بهَرَهُ ما يراهُ مِنَ الجَمالِ قالَ: "يَعِزُّ عليَّ هلاكُ امرئِ القيسِ الكِنْدِيِّ. إنِّي لأذكُرُ بِكُما قولَه:

1- (أبو عثمان المازني): بكر بن محمد من بني مازن. مِنْ نُحاة البصرة وعلمائها. وكان ورعاً تقياً فقيهاً. توفي حوالي عام 298 هـ 911 م.

كدأبِـكَ مِـنْ أمِّ الحُوَيْـرِث قبلَهـا وجارتِهـا أمِّ الرَّبـاب بِمَأْسَـلِ
إذا قامتـا تَضَـوَّعَ المِسْـكُ مِنْهمـا نسـيمَ الصَّبا جاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ[1]

وقولَه:

هُمـا نَعْجَتـانِ مِـنْ نِعـاجِ تَبالَـةٍ على جُؤْذرينِ أو كَبعضِ دُمى هَكَرْ
إذا قامَتـا تَضَـوَّعَ المِسْـكُ منهمـا وأَصْـوِرَةٌ مِـنَ اللَّطيمَـةِ والقُطُرْ[2]

وأينَ صاحِبتاهُ مِنْكما؟ لا كرامةَ لهما ولا تَسُرانِ العَيْنَ. وإنَّ جَلْسةً معكما بِمقدارِ دقيقةٍ مِنْ دقائقِ ساعاتِ الدنيا، خيرٌ مِنْ مُلْكِ بني آكِلِ المُرارِ وبني نَصْرٍ بِالحيرةِ وآلِ جَفْنَةَ ملوكِ الشامِ.

ويُقبلُ على كلٍّ واحِدةٍ مِنْهما يترَشَّفُ رُضابَها ويقولُ: "إنَّ امرأَ القيس لَمسكينٌ مِسْكينٌ. تَحْتَرِقُ عظامُه في السَّعيرِ وأنا أتمثَّلُ بِقولِه:

كأن المُـدام وصَـوْبَ الغَمـامِ وريـحَ الخُزامـى ونَشْـرَ القُطُـرْ
يُـعَـلُّ بـه بَـرْدُ أنْـيـابِـهـا إذا غَـرَّد الطائِـر المُسْـتَحِرْ[3]

وقولِه:

أيـامَ فُـوهـا كُلَّـما نَـبَّـهْـتُـهـا كالمِسـكِ باتَ وظَـلَّ فـي الفَدَّامِ
أُنُـفٌ كَلَـونِ دَمِ الغَـزالِ مُعَتَّـقٌ مِنْ خَمْـرِ عانَةَ أو كُرومِ شَـبامِ"[4]

1- (الدأْب): العادة. (مَأْسَل): اسم مكان. (تضوَّع): فاحَ. ومعنى البيتين: عادَتُكَ في حُبِّ هذه الفتاة كعادتك من قبل في حُبِّ أم الحويرث وأم الرباب. وقد كانتا يضوعُ المسكُ منهما عندما تمشيان. كما ينتشر عِطْرُ القَرَنْفُل الزكي الذي حملته ريحُ الصَّبا.

2- (النَّعْجة): الفتاة الجميلة. (الجُؤذر): ولد البقرة الوحشية الجميلة العيون. (تبالة): اسم مكان في اليمن. و(هَكِر): اسم موضع. (الدُّمى): ج دُمْية. وهي الفتاة الجميلة. (الأَصْوِرَة): ج صارة. وهي وعاءُ المسك. (اللطيمة): نافحةُ المسك. (القُطُر): عود البخور.

3- (الخُزامى): نباتٌ زهرُه طيبُ الرائحة. (علَّ): شرب مرة بعد مرة. (المُسْتَحِرُ): الذي يُغرِّدُ وقتَ السَّحَر. والمعنى: كأن الخمر والمطر وريح الخزامى والبخور يُسقى بها فمُها حين يُغرِّدُ الطائرُ وقتَ السحر.

4- (الفدَّام): مِصفاةٌ صغيرة في فم الإبريق. (الكأسُ الأُنُف): التي لم يُشْرَب بها من قبل. و(عانة): بلدة مشهورة بصنع الخمر. و(شبام): بلدة في الشام مشهورة بالخمر. والمعنى أنه يتذكَّر أيامَ كانت =

فتستغربُ إحداهما ضَحِكاً. فيقولُ: "مِمَّ تضحكين؟".

فتقولُ: "أضحَكُ فرَحاً بتفَضُّلِ اللهِ الذي وَهَبَ نعيماً وكان بالمَغْفِرَةِ زَعيماً. أتدري مَنْ أنا يا عليَّ بنَ منصور؟".

فيقولُ: "أنت مِنْ حُورِ الجِنانِ اللواتي خلقَكُنَّ اللهُ للمُتَّقينَ وقال فيكُنَّ (كأَنَّهُنَّ الياقوتُ والمَرْجان)".

فتقولُ: "أنا كذلك بِإنْعامِ اللهِ العظيم. على أنَّي كنتُ في الدار العاجلةِ أُعْرَفُ بـ (حَمْدونَةَ). وأسكنُ في بابِ العراقِ بحلب[1]. وأبي صاحِبُ طاحون. وتزوَّجَني رجلٌ يَبيعُ المَتاعَ الرَّديءَ. فطلَّقني لرائحةٍ كَرِهَها في فَمي. وكُنتُ مِنْ أَقْبَحِ نِساءِ حلبَ. فلمَّا عرفتُ ذلك زَهِدتُ في الدنيا الغَرَّارةِ، وانْقَطَعْتُ إلى العبادةِ. وأكَلْتُ مِنْ مِغْزَلي ومِردَني. فصَيَّرَني ذلك إلى ما ترى".

وتقولُ الأُخرى: "أتدري مَنْ أنا يا عليَّ بنَ منصور؟ أنا (تَوفيقُ السوداءُ) التي كانت تَخدُمُ في (دارِ العِلْمِ ببغدادَ) على زَمَنِ أبي مَنْصورٍ (محمدِ بنِ عليٍّ الخازنِ)[2]. وكنتُ أُخرِجُ الكُتَبَ إلى النُّساخِ".

فيقولُ الشيخُ: "لا إلهَ إلا اللهُ. لقد كُنتِ سوداءَ فصِرْتِ أنْصَعَ مِنْ وِعاءِ طَلْعِ النَّحلِ".

فتقولُ: "أتَعْجَبُ مِنْ هذا والشاعرُ يقولُ لِبعضِ الناسِ المَخْلوقينَ:

لو أنَّ مِنْ نورِه مِثْقالَ خَردَلَةٍ في السودِ كُلِّهِمُ لابيضَّتِ السُّودُ".

حدائقُ الحُور

ويمُرُّ مَلَكٌ مِنَ المَلائكةِ فيقولُ له الشيخُ: "يا عبدَ اللهِ. أَخْبِرْني عن الحُورِ

= رائحةُ فمها حين يوقظها من النوم تشبهُ المسكَ حين يبيت في فم الإبريق. وهذا المِسْكُ مَسكوبٌ في كؤوسٍ لم يشرب بها أحدٌ قبلي. وهو يشبه دمَ الغزال. وهي خمرة معتَّقَة من عانة أو (شبام). ومن المعروف أن بعض أنواع المسك كانت تُستَخْرَج من دم الغزال.

1- هو أحد أبواب حلب الأربعة.

2- (أبو منصور محمد بن علي): خازن دار العلم في بغداد. توفي عام 418 هـ 1027 م.

العِينِ. أليس في الكتابِ الكريمِ: (إنَّا أنشأناهُنَّ إِنْشاءً. فجعلناهنَّ أَبْكاراً. عُرُباً أتراباً. لِأَصْحابِ اليمينِ)[1]؟".

فيقولُ المَلَكُ: "هُنَّ على ضَرْبَيْن: ضَرْبٌ خَلَقَهُ اللهُ في الجنةِ لم يَعرِفْ غيرَها، وضَرْبٌ نقَلَه اللهُ مِنَ الدارِ العاجِلةِ لِما عَمِلَ مِنَ الأعْمالِ الصَّالِحةِ".

فيقولُ الشيخُ وقد عَجِبَ مِمَّا سَمِعَ: "فأينَ اللواتي لم يَكُنَّ في الدارِ الفانيةِ؟ وكيف يَتَمَيَّزنَ مِنْ غيرِهِنَّ؟".

فيقولُ المَلَكُ: "اتْبَعْني لترى البديعَ مِنْ قُدرةِ اللهِ".

فيَتبعُهُ فيَجيءُ به إلى حَدائقَ لا يَعرِفُ كُنهَها إلا اللهُ. فيقولُ المَلَكُ: "خُذْ ثَمَرةً مِنْ هذا الثَّمرِ فاكسِرْها فإنَّ هذا الشجرَ يُعرَفُ بشجَرِ الحُورِ".

فيأخذُ سَفَرْجَلةً أو رمانةً أو تفاحةً أو ما شاءَ اللهُ مِنَ الثِّمار فيكسِرُها، فتخرُجُ مِنْها جاريةٌ حَوراءُ عيناءُ[2] تندَهِشُ لِحُسْنِها حُورياتُ الجِنان. فتقولُ: "مَنْ أنت يا عبدَ اللهِ؟".

فيقولُ: "أنا فلانُ بنُ فلان".

فتقولُ: "إني أُمنَّى بِلقائِك قبلَ أنْ يَخلُقَ اللهُ الدنيا بأربعةِ آلافِ سنة".

فعندَ ذلك يسجُدُ إِعْظاماً للهِ القديرِ ويقولُ: "هذا كما جاءَ في الحديثِ: (أَعْدَدْتُ لِعبادِيَ المُؤمنينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، بَلْهَ ما أَطْلَعتُهُمْ عليه". و(بَلْهَ) بمعنى: دَعْ.

ويَخطِرُ في نفسه وهو ساجدٌ أنَّ تلك الجاريةَ – على حُسنِها – نَحيلةٌ. فيرفعُ رأسَه مِنَ السُّجودِ وقد صارَ مِنْ ورائِها رِدْفٌ يُضاهي كُثبانَ (عالِجٍ) ورِمالَ (الدهناءِ[3]).

1- سورة الواقعة. الآيات 35 – 38. ومعنى الآيات: إننا أعدْنا خلقَهن في الجنة صبايا أبكاراً بعد أن كُنَّ في الدنيا عجائزَ غيرَ أبكار. و(العُرْب): المُتَعشِّقاتُ المُتَحَبِّبات. (أتراباً): في سن واحدة.

2- (العَيْناء): هي التي تكون عينها سوداءَ وواسعة. وجمعها (عِين). والمذكَّر منها (أَعْيَن).

3- (عالج): رمالٌ على طريقِ مكة. و(الدهناء):رمالٌ في اليمامة لا يُعرَفُ طولُها. يقال في المثل: (أوسَعُ من الدهناء).

فيصيبُه الهَوْلُ مِنْ قُدرةِ اللهِ الخبيرِ ويقولُ: "يا رازِقَ الشمسِ المُشرِقَةِ سَناها، ويا مُبْلِغَ السائِلَةِ مُناها، والذي فَعلَ ما أعْجَزَ وهالَ، ودَعا إلى الحِلْمِ الجُهَّالَ، أسألُكَ أنْ تَقْصُرَ مَسافَةُ هذه الحورِيَّةِ على مِيلٍ في ميلٍ. فقد جاوزَ ما قدَّرتَهُ لها حَدَّ التَّأْميلِ".

فيقالُ له: "أنت مُخَيَّرٌ في تَكوينِ هذه الجاريةِ كما تَشاءُ".

فيقتصِرُ مِنْ مَسافتِها على ما يريدُ.

الفَصْلُ الرابع

جنةُ العفاريت

ويبدو للشيخِ أنْ يَطَّلِعَ إلى أهلِ النارِ فينظُرَ إلى ما هُمْ فيه لِيَعْظُمَ شُكْرُه على النِّعَمِ، بدليلِ قولِه تعالى: (قالَ قائلٌ منهم إني كانَ لي قرينٌ. يقولُ أَئِنَّك لَمِنَ المُصَدِّقين. أئِذا مِتْنا وكُنا تُراباً وعِظاماً أَئِنَّا لَمَدينُون. قالَ هَلْ أنتم مُطَّلِعون. فاطَّلَعَ فرآهُ في سَواءِ الجَحيمِ. قالَ تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدين. لولا نِعْمَةُ ربي لَكنتُ مِنَ المُحْضَرين)[1].

فيركَبُ بعضَ دوابِّ الجنةِ ويَسيرُ. فإذا هو بِمدائِنَ ليستْ كَمَدائنِ الجنةِ، ولا عليها النورُ الشعَشعانِيُّ. وفيها خَزَّاناتٌ لِمياهِ المَطَرِ ووُديانٌ مُعْتِمَةٌ. فيقولُ لِبعضِ الملائكةِ: "ما هذه يا عبدَ اللهِ؟".

فيقولُ المَلَكُ: "هذه جنةُ العفاريتِ الذين آمنوا بمحمدٍ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ وذُكِروا في سُورةِ (الأحقاف[2]) وفي سورةِ (الجِنّ) وهم عَددٌ كثيرٌ".

فيقولُ الشيخُ: "لأذهَبنَّ إلى هؤلاءِ فلنْ أخْلوَ لديهم مِنْ أُعْجوبةٍ".

فيتَّجِهُ إليهم فإذا هو بِشيخٍ جالسٍ على بابِ مَغارةٍ. فيُسَلِّمُ عليه فيُحسِنُ الردَّ ويقولُ: "ما جاءَ بك يا إِنْسِيُّ؟ إنَّك بخيرٍ في مَكانِك، وليسَ لك عندنا نَظيرٌ وشَبيهٌ".

1- سورة الصافات. الآيات 51 – 57.

2- في سورة (الأحقاف) الآيات 29 – 32. وفي سورة (الجن) الآيات -1 16.

فيقولُ الشيخ الجليلُ: "سَمِعْتُ أنكم جِنٌّ مُؤمنون. فجِئْتُ ألتَمِسُ عندكم أخبارَ الجِنِّ وأطَّلعُ على ما لديكم مِنْ أشعارِهم".

فيقولُ ذلك الشيخُ الجالسُ على بابِ المغارةِ: "لقد وجدتَ العالِمَ بحقيقةِ الأمرِ، والمتوغِّلَ فيه. فهو كالقمرِ في وَسْط هالَتِهِ، وليس بعيداً عنه. فاسألْ عَمَّا بدا لك".

أشعارُ الجن وحكاياتُ (أبي هدرش)

فيقولُ: "ما اسمُكَ أيها الشيخُ؟".

فيقولُ: "أنا (الخَيْتَعورُ) أحدُ بني (الشَّيْصَبانِ). ولسنا مِنْ ولدِ إبليسَ. ولكننا مِنَ الجِنِّ الذين كانوا يَسكُنونَ الأرضَ قبلَ ولدِ آدمَ صلى اللهُ عليه".

فيقولُ له: "أَخْبِرْني عَنْ أشعارِ الجِنِّ. فقد جَمَعَ مِنْها المَعْروفُ باسمِ (المَرْزُباني)[1] كَمِّيَّةً وافِرَةً".

فيقولُ ذلك الشيخُ: "إنَّ ذلك هَذَيانٌ لا يُعْتَمدُ عليه. وهل يَعرِفُ البشرُ مِنَ النظمِ إلا كما تَعرِفُ البَقَرُ مِنْ عِلْمِ الفلكِ ومَساحةِ الأرضِ؟ وإنَّ للبشرِ خمسةَ عَشَرَ جِنساً مِنَ الوَزْنِ قلَّما يَتجاوزُها القائِلونَ. وإنَّ لنا آلافَ أوْزانٍ ما سَمِعَ بها الإنسُ. وما قاله الإنسُ مِنَ النظمِ هو ما كانَ يَخطِرُ ببالِ أَطْفالٍ مِنَّا شَرِسين. فينفُثونَ مِنْهُ إلى الإنسِ مِقدارَ شَظِيَّةٍ مِنْ سِواكٍ مِنْ شجرِ الأراكِ الذي في وادي (نَعمانَ) الواقعِ في الحجازِ بين مكةَ والطائفِ. ولقد نظمتُ الرَّجزَ والقصيدَ قبل أنْ يَخلُقَ اللهُ آدمَ بمئتين أو ثلاثمئة سنة. وقد بلغَني أنكم مَعشرَ الإنسِ تلهَجونَ بِقصيدةِ امرئِ القيسِ:

قِفا نَبكِ مِنْ ذكرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ

وتُحَفِّظونها فِتْيانَكُم في المَكاتِبِ. وإنْ شِئْتَ أمْلَيتُ عليك ألفَ قصيدةٍ على هذا الوزنِ على مثلِ (منزلٍ وحوملِ)، وألفاً على ذلك الوزن يَجيءُ على (منزلٌ وحوملٌ)،

1- (المرزُباني): هو محمد بن عمران بن موسى. أبو عبد الله الإخباري الراوية المؤرخ. خُراساني الأصل بغدادي المولد. ولد في بغداد عام 297 هـ 910 م وتوفي فيها عام 384 هـ 994 م. وله كتاب اسمه (في أشعار الجن). وهو الذي يشير إليه المعري.

وألفاً على (منزلاً وحوملاً)، وألفاً على (مَنزلَهْ وحوملَهْ)، وألفاً على (منزلُهْ وحوملُهْ)، وألفاً على (منزلِهْ وحوملِهْ). وكلٌّ ذلك لشاعرٍ مِنَّا وهو كافِرٌ وهو الآنَ في أَطْباقِ الجَحيم".

فيقولُ الشيخُ – وصلَ اللهُ أوقاتَه بالسعادةِ –: "أيها الشيخُ. لقد بَقِيَ عليك حِفْظُك".

فيقولُ: "لسنا مثلَكم يا بني آدمَ يغلِبُ علينا النِّسيانُ والرُّطوبَةُ، لأنكم خُلِقتُم مِنْ حَمَأٍ مَسْنونٍ وهو الطينُ الأسودُ، وخُلِقْنا مِنْ مارِجٍ مِنْ نارِ أي مِنْ شُعْلةٍ ذاتِ لهبٍ شديدٍ".

فتحمِلُه الرغبةُ في الأدبِ أنْ يقولَ لذلك الشيخِ الذي على بابِ المَغارةِ: "فهل تُملي عليَّ شيئاً مِنْ تلك الأشعار؟".

فيقولُ شيخُ المغارةِ: "إذا شِئْتَ أملَيْتُ عليك ما لا تَحْمِلُه الرِّكابُ مِنْ خَيلٍ وجِمالٍ، وما لا تَسَعُه صُحُفُ دُنياك".

فيهُمُّ الشيخُ – لا زالت هِمَّتُه عاليةً – أنْ يَكتَتِبَ مِنْه. فيقولُ: "لقد شَقِيتُ في الدارِ العاجلةِ بجَمْعِ الأدبِ ولم أَحْظَ مِنْهُ بِطائِلٍ، وإنَّما أتقرَّبُ به إلى الرؤساءِ فأَحْتَلِبُ منهم مِقْدارَ ما تُعطيه ناقةٌ بخيلةٌ بِلبِنِها. فكأني أحلُبُ ضُروعَ ناقةٍ لا ينزِلُ حليبُها إلا ببطءٍ. ولا أكونُ موَفَّقاً إنْ تركتُ لذَّاتِ الجنةِ وأقبلتُ أنْسخُ آدابَ الجِنِّ، ومعي مِنَ الأدبِ ما هو كافٍ لا سيما وقد شاعَ النِّسْيانُ في أهلِ أدبِ الجنةِ. فصِرْتُ مِنْ أكثرِهم رِوايةً وأوسعِهم حِفْظاً ولله الحَمْدُ".

ويقولُ لذلك الشيخِ: "ما كِنيتُك لأُكْرِمَك بالتَّكْنِيَةِ؟".

فيقولُ: "كِنْيتي أبو هَدْرَش. أنجبتُ مِنَ الأولادِ ما شاء اللهُ فهم قبائلُ. بعضُهُم في النارِ المُوقَدَةِ وبعضُهُم في الجِنانِ".

فيقولُ الشيخُ: "يا أبا هَدْرش. ما لي أراك أشْيَبَ وأهلُ الجنةِ شَبابٌ؟".

فيقولُ أبو هدرش: "إنَّ الإنسَ أُكْرِمُوا بذلك وحُرِمْنا مِنْه لأنَّا أُعْطينا القدرةَ على

(الحُولَةِ) أي التحوُّلِ في الدارِ الماضيةِ. فكان أحدُنا إنْ شاءَ صارَ حَيَّة رَقْشاءَ، وإنْ شاءَ صارَ عُصفوراً، وإنْ شاءَ صارَ حَمامَةً. فَمُنِعْنا التحوُّلَ في الدارِ الآخِرَةِ، وتُرِكْنا على خَلْقِنا لا نَتَغيَّرُ. وعُوِّضَ بنو آدمَ بتكوينِهم فيما حَسُنَ مِنَ الصُّوَرِ. وكان قائلُ الإنسِ يقولُ في الدارِ الذاهبةِ: (أُعْطِينا الحيلةَ وأُعْطِيَ الجِنُّ الحُولَةَ). ولقد لَقيتُ مِنْ بني آدمَ شراً، ولَقُوا مِنِّي كذلك. مِنْها:

صَرْعُ فتاةٍ

دخلتُ مرةً دارَ أُناسٍ أريدُ أن أَصْرَعَ فتاةً لهم. فتصوَّرتُ في صُورَةِ جُرَذٍ. فأحْضَروا لي السِّنَّوْرَ الذي يلتذُّ بأكلِ الجُرذان. فلمَّا أرهقَني السِّنَّوْرُ تَحَوَّلتُ صِلاًّ أرقَمَ وهو أخبثُ الحيَّاتِ. ودخلتُ في جِذْعِ نَخْلَةٍ مَقْطوعٍ هناك. فلمَّا عَلِموا ذلكَ صاروا يَنشُرون الجِذْعَ. فلمَّا خِفتُ القتلَ صرتُ ريحاً هفْهافةً فدخلتُ في أَخْشابِ السقفِ. فنَقَضوا تلك الأخشابَ فلم يَرَوْا شيئاً. فجَعَلوا يَتعجَّبون ويقولونَ: (ليس ها هنا مَكانٌ يُمكِنُ أن يَسْتَتِرَ فيه). فبينما هم يَتذاكرونَ ذلك، عَمَدْتُ إلى فَتاتِهم في النَّاموسِيَّةِ. فلمَّا رأتْني أصابها الصَّرَعُ. واجتمعَ أهلُها مِنْ كل صَوْبٍ. وجَمَعوا لها الرُّقاةَ. وجاؤوا بالأطباءِ. وبذلوا لها كلَّ نَفيسٍ. فما تَرَكَ راقٍ رُقيَةً إلا عَرَضَها عليَّ وأنا لا أُجيبُ. وأخذَ الأطباءُ يَسقونَها الأدويةَ الشَّافِيَةَ وأنا مُلْتَصِقٌ بها لا أزولُ. فلمَّا أصابَها الموتُ طلبتُ لِنفسي سِواها صاحِبةً. وبقيتُ كذلك حتى رَزَقَنيَ اللهُ التوبةَ، وأثابني على توبتي. فلا أفتأُ له مِنَ الحامِدينَ وقلتُ:

حَمِدتُ مَنْ حَطَّ أوزاري ومزَّقَها ... عنـي فأصبـحَ ذنْبـي الآنَ مَغْفورا
وكُنـتُ آلَـفُ مِـنْ أَتْـراب قُرطُبَـةٍ ... خُوداً وبالصين أخرى بِنتَ يَغْبورا[1]
أزورُ تِلْـك وهـذي غيـرَ مُكتَـرِثٍ ... في ليلـةٍ قبـلَ أنْ أسْـتَوْضِحَ النُّورا
ولا أمُـرُّ بِـوَحْـشـيٍّ ولا بَـشَـرٍ ... إلا وغـادَرْتُـه وَلْهـانَ مَـذْعـورا

1- (الخُود): مفردها خَوْد. وهي الفتاة الناعمة الحسنة الخَلْق. و(يَغبور): اسم ملك الصين.

أُرَوِّعُ الزَّنْجَ إِلْماماً بِنِسْوتِها ... والرومَ والتُّركَ والسُّقلابَ والغُورا[1]

وأركَبُ الهيقَ في الظَّلْماءِ مُعْتَسِفاً ... أو لا، فَـذَبَّ رِيـادٍ بـاتَ مَقْـرورا[2]

وأحْضُـرُ الشَّـرْبَ أُغْريهـم بِآبـدةٍ ... يُزجونَ عُوداً ومِزمـاراً وطُنْبورا[3]

فَـلا أُفارقُهـم حتـى يكـونَ لهُـمْ ... فِعْـلٌ يَظَـلُّ بـه إبليـسُ مَسْـرورا

وأَصْرِفُ العَـدْلَ خَتْلاً عـن أَمانتِه ... حتى يَخونَ وحتى يَشْـهَدَ الزُّورا[4]

وكم صَرَعْتُ عَواناً في لظى لَهبٍ ... قامَتْ تُمارِسُ لِلأطفالِ مَسْـجورا[5]

وذادَنـي المـرءُ نوحٌ عن سَـفينَتِهِ ... ضَرْباً إلى أنْ غدا الظُّنبوبُ مَكْسورا[6]

وطِرتُ في زَمنِ الطوفان مُعْتَلِياً ... في الجوِّ حتى رأيتُ الماءَ مَحْسورا[7]

وقـد عَرَضْتُ لِموسـى فـي تَفَرُّده ... بالشـاءِ يُنتِـجُ عُمْروسـاً وفُرْفـورا[8]

لم أُخْلِهِ مِنْ حَديثٍ ما ووَسْوَسَةٍ ... إذْ دَكَّ ربُّـك فـي تَكليمِـهِ الطُّـورا[9]

1- كنت أروِّع الزنج حينما أُلِمُّ بنسائهم. و(السِّقلاب): الشعب الذي كان يتاخم بحر الحزر. ومن هناك انتشروا في عدد من الأقطار. و(الغور): بلد بساحل بحر الهند. وإليها ينسب السلطان قانصوه الغوري.

2- (الهيق): الظليم وهو ذكر النعام. (ذبُّ الرياد): الثور الوحشي. (المَقْرور): البردان. والمعنى أنني أركب ذكرَ النعام أو الثورَ الوحشيَّ الذي يصبح بارداً مقروراً.

3- (الشَّرب): مجموعة شاربي الخمر. (الآبِدة): الإثم المُنْكَرُ. (يُزجون): يَدفعون برفق. والمعنى أنه يُغْري الشاربين بسماع العزف والغناء.

4- (الرجلُ العَدْلُ): هو الأمين العادل الصادق. أي أنه يُخاتل الرجل الأمين حتى يصرفَه عن أمانته ويجعلَه يشهد بالزور.

5- (العَوان): المرأة في منتصف العمر. (المَسجور): المتقد. وهو هنا (التنور). (تمارس المسجور): تخبز الخبز. والمعنى أنه صرع المرأة وهي تخبز الخبز لأطفالها. وهو أسوأ الأفعال.

6- (الظُّنبوب): عظمُ الساق من جهة القدم. والمعنى أنَّ نوحاً منعه مِنْ ركوب سفينته وظل يضربه حتى كسر له عظم ساقه.

7- (مَحْسور): مُنْحَسِر. والمعنى أنه في زمنِ طوفان نوح طار في الجو وظل فيه حتى انحسر الماء.

8- (الشاء): ج شاة. وهي الواحدة من الغنم للذكر والأنثى. (العُمروس): الخَروف. (الفُرفور): ولدُ النعجة والماعز والبقرة الوحشية. والمعنى أنه عرض لموسى عندما كان وحده يرعى غنم النبي شعيب.

9- المعنى أنه وسوس لموسى حين كان الله يدكُّ جبلَ الطور. وهو هنا يشير إلى الآية 143 من سورة (الأعراف): ولَمَّا جاءَ موسى لِميقاتِنا وكلَّمه ربُّه قال ربِّ أَرِني أنظرْ إليك قالَ لنْ تراني ولكن انظُرْ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ مكانه فسوف تراني فلمَّا تجلى ربُّه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صَعِقاً...)

أَضْلَلْتُ رأيي (أبي ساسانَ) عن رَشَدٍ ... وسِرْتُ مُسْتَخْفِياً في جَيْشِ سابورا[1]

وسادَ (بَهرامُ جُورٍ) وهو لي تَبَعٌ ... أيَّامَ يَبْنـي علـى عِلاَّتِه (جـورا)[2]

فَتـارةً أنـا صِـلٌّ فـي نَكارَتِـهِ ... وربَّمـا أبْصَرَتني العيـنُ عُصفورا[3]

تلوحُ لي الإنـُس عُوراً أو ذوي حَوَلٍ ... ولـم تَكُـن قَـطُّ لا حُـولاً ولا عُـورا

ثـم اتَّعَظْتُ وصـارت توبتـي مَثَلاً ... مِنْ بَعدِ ما عِشْتُ بِالعِصْيانِ مَشْهورا

حتى إذا انفَضَّت الدنيا ونودِيَ: إسرا ... فيـلُ وَيْحَـك هـلاَّ تَنفُخُ الصُّـورا[4]

أَماتَنـي اللـهُ شـيئاً ثـم أيْقَظنـي ... لِمَبْعَثـي فَرُزِقْـتُ الخُلْـدَ مبـرورا".

عن لغة الجن

فيقولُ الشيخُ: "لِلهِ دَرُّك يا أبا هدرَش. لقد كنتَ تُمارِسُ ما يَنْدى له الجَبينُ. فكيف ألسِنتُكُمْ؟ أيكونُ فيكم عَرَبٌ لا يَفْهَمون عن الرومِ، وروميٌّ لا يَفْهَمونَ عن العربِ، كما نَجِدُ في أجيالِ الإنسِ؟".

فيقولُ أبو هدرش: "هيهاتَ أيها المَرْحومُ. إنَّا أهلُ ذكاءٍ وفِطْنَةٍ. ولا بدَّ لأحدِنا أنْ يكوَنَ عارِفاً بِجميعِ الألْسُنِ الإنسِيَّةِ. ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يَعرِفُه الإنسُ. وأنا الذي أنذَرْتُ الجِنَّ بالكتابِ المُنزَلِ. سِرْتُ في الليلِ مع أصْحابٍ لي في وادي (خابل) نُريدُ اليمنَ. فمَرَرْنا بيثربَ في وقْتِ نُضْجِ الرُّطَبِ. فسَمِعْنا قُرآناً عَجَباً (يَهدي إلى الرُّشْدِ فآمنَّا به ولن نُشْرِك بربِّنا أحدا).[5] وعُدْتُ إلى قومي فذكَرْتُ لهم ذلك. فأسرَعَتْ مِنهم

1- (أبو ساسان): والد أسرة الأكاسرة الساسانيين. والمعنى أنه جعل الأكاسرة يَضِلُّون برأيهم الرشيد، (سابور): حفيد ساسان بن بابك ثاني ملوك الدولة الساسانية. أي أنه سار متخفياً في جيش سابور.

2- (جور): مدينة في فارس. وإليها يُنسَبُ الورد الجوري. (بَهرام): هو ابن يزدجرد ملك الفرس. وكان له تاريخ مليء بالأعمال العظيمة. وهو الذي بنى مدينة جور. والمعنى أنه جعل هذا الرجل العظيم تابعاً له.

3- (الصِّل): أخبث أنواع الحيات. (النكارة): الدهاء والفطنة. والمعنى أنه يكون صلاً أحياناً ويكون عصفوراً أحياناً أخرى.

4- (إسرافيل): منادى بأداة النداء المحذوفة. والتقدير: يا إسرافيل.

5- سورة الجن. الآية 2.

طَوائِفُ إلى الإيمانِ. وحثَّهم على ما فَعلوهُ أنهم رُجِموا بِكواكبَ مُحرِقاتٍ حتى لا يَسْترِقوا السَّمعَ.[1]".

فيقولُ الشيخُ: "يا أبا هدرش. أخْبِرْني – وأنت الخَبيرُ – هل كانتِ الشياطينُ تُرجَمُ بالنجومِ في الجاهِلِيةِ؟ فإنَّ بعضَ الناس يقولونَ إنَّه حدثَ في الإسلامِ".

فيقول أبو هدرش: "هيهاتَ أن يَحْدثَ ذلك. إنَّما كانَ الشُّعراءُ يجعلون الرَّجْمَ تشبيهاً وكِنايةً. أما سمعتَ قولَ (الأوْدِيِّ)[2]:

كَشِهابِ القذفِ يرميكُمْ بهِ فارسٌ في كفِّه للحربِ نارُ[3]

وقولِ (أوس بن حجر) في وصفِ ثورٍ وحشي:

فانصاعَ كالدُّرِيِّ يَتْبَعُه نَقْعٌ يَثورُ تَخالُه طُنُبا[4]

ولكن الحديثَ عن أنَّ النجومَ صارت رُجوماً زادَ في أوانِ مَبْعَثِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلمَ. وإنَّ الكَذِبَ لَكثيرٌ في الإنسِ والجِنِّ. وإنَّ الصِّدْقَ قليلٌ. وهنيئاً في العاقِبَةِ للصَّادِقينَ.

وفي قِصَّةِ الرَّجْمِ أقولُ:

مَكةُ أَقْوَتْ من (بني الدردبيسْ) فَما لِجِنِّيٍّ بِها مِنْ حَسيسْ[5]

وكُسِّرتْ أَصْنامُها عَنْوةً فكُلُّ جِبْتٍ بِنَصيلٍ رَديسْ[6]

1- يشير إلى الآية 9 من سورة الجن: (وأَنَّا كُنا نقعدُ منها مَقاعدَ لِلسَّمْعِ فمَنْ يَستمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهاباً رَصَدا).

2- (الأفوه الأوْدي): صلاءة بن عمرو من بني أَوْد. من كبار شعراء الجاهلية. وكان سيد قومه وقائدهم في حروبهم. ويعدُّه العربُ من حكمائهم.

3- يصف الشاعر سهماً يرميه فارسٌ بأنَّه يشبه الشِّهابَ المَقذوف. ويرميكم به فارس في كفه نار في أثناء الحرب.

4- (انصاع): أسرع. (الدُّرِّي): الكوكب. (النقع): الغبار. (الطُّنُب): حبل طويل يُشَدُّ به سُرادق الخيمة. أي أنَّ هذا الثورَ سريع كأنه نجم. وعندما يُسرِعُ يتبعه غبارٌ مستطيل تظنه حبلاً طويلاً.

5- (أَقْوَتْ): فَرَغَت. (بنو الدردبيس): قومٌ من أقوام الجن. (الحَسيس): الصوت الخفي. أي أنَّ مكة خَلَتْ مِنَ الجن مع مجيء النبي.

6- (الجِبْتُ): الصنم. (النَّصيل): الفأس. (رَديس): من رَدَسَه بالصخرة: رماه بها.

وقـامَ فـي الصَّفْـوةِ مِنْ هاشِـمٍ أَزْهَـرُ لا يُغْفِـلُ حَـقَّ الجَليـسْ[1]
يَسْـمَعُ مـا أُنْـزِلَ مِـنْ ربِّـهِ الـ قُدُّوسِ وَحْياً مِثْلُ قَرْعِ الطَّسيسْ[2]
يَجْلِـدُ فـي الخَمْرِ ويَشْـتَدُّ في الـ أمْـرِ ولا يُطْلِقُ شُـرْبَ الكَسـيسْ[3]
ويَـرْجُـمُ الـزَّانيَ ذا الـعِـرسِ لا يَقْبَـلُ فيـه سُـؤْلَةً مِـنْ رَئيـسْ[4]

***

وكَـمْ عَـروسٍ بـاتَ حُرَّاسُـها كَجُرْهُـمٍ فـي عِزِّهـا أو جَديـسْ[5]
زُفَّـتْ إلـى زَوْجٍ لهـا سَـيِّدٍ مـا هـوَ بالنِّكْـسِ ولا بالضَّبيسْ[6]
غِـرْتُ عَـلَـيْـها فَـتَخَلَّجْـتُـها بِواشِـكِ الصَّرْعَةِ قبلَ المَسـيسْ[7]
وأَسْـلُـكُ الـغـادَةَ مَـحْجـوبَـةً في الخِـدْرِ أو بَيْنَ جَـوارٍ تَميسْ[8]
لا أَنْتَهـي مِـنْ غَرَضـي بالرُّقـى إذا انتهـى الضَّيْغَمُ دونَ الفَريسْ[9]
وأُدْلِـجُ الـظَّـلْـماءَ فـي فِـتْـيَـةٍ مِلْجِنٍّ فـوقَ الماحِلِ العَرْبَسـيسْ[10]
فـي طاسِـمٍ تَـعْـزِفُ جِـنَّـانُـهُ أَقْفَـرَ إلا مِـنْ عَفاريـتَ لِيـسْ[11]

1- (الأَزْهَرُ): المُشْرق الوجه. مؤنثه (زهراء). والمقصودُ به النبي (ص) الذي لا يُهمِلُ جلساءه.

2- (الطَّسيس) و(الطَّسوس): ج طَسّ. وهو إناءٌ من نحاس كالطست. وهو لفظ دخيل على العربية.

3- (الكَسيس): نوع من النبيذ. قيل هو نبيذ التمر.

4- (العِرس): الزوجة. (السؤلة): الشفاعة.

5- (جُرهُم): قبيلة كانت في جهات مكة. وفيها نزل إسماعيل وتزوج منها. (جديس): قبيلة كانت في اليمامة. وكلتاهما يضرب بهما المثل في القوة.

6- (النِّكس): الضعيف. (الضَّبيس): الثقيل الروح والجسم والأحمق.

7- (تخلَّجْتُها): جعلتها تَخْتَلِجُ. (واشِكُ الصَّرْعَة): الصَّرْعَةُ العاجلة. (المَسيس): المسُّ. أيْ أنَّه صَرَعَ هذه الزوجةَ قبل أنْ يَمَسَّها زوجها.

8- (أَسْلُكُ الغادةَ): أدخُلُ فيها. (مَحْجوبة): مستورة في خِبائها. أو هي بين نساء تتمايل.

9- (الرُّقى): ج رُقْيَة. وهي التعويذة التي يُطرَد بها الجن. (الضَّيْغَم): الأسد. (الفَريس): الفريسة. والمعنى أنه لا ينتهي مما يبغيه بالتعاويذ. وقد ينتهي الأسد من أكل فريسته وأنا لا أنتهي.

10- (أُدلِجُ الظلماءَ): أسيرُ في الليل. (مِلْجنٍّ): من الجن. وهي لهجة عند العرب. يقولون: وقفتُ عالماءِ: أي وقفت على الماء. وهذه اللهجة مُستخْدَمة في عامية كثير من الأقطار العربية. (الماحِل): الأرضُ المُجدبةُ مِنَ المَحْل. (العَرْبَسيس): الأرض الجافة الغليظة. والمعنى أنه يسير في الليل مع فتية مِنَ الجن في الأرض المُمْحِلة الغليظة.

11- (الطاسِم): المفازة لا أثر فيها فهي خالية. (تعزف): تُصوِّت. (الجِنَّان): الجان. (لِيس): ج أَلْيَس. =

بـيـضٍ بَـهاليـلَ ثِـقالٍ يَـعَـا ... ليـلَ كِـرامٍ يَنْطِقـونَ الهَسـيسْ[1]

تَحْمِلُنـا فـي الجُنْـحِ خَيْـلٌ لهـا ... أَجْنِحَـةٌ ليسـتْ كخَيْـلِ الأنيـسْ[2]

وأَيْـنُـقٌ تَـسْـبِـق أَبْـصـارَكـمْ ... مَخْلوقَـةٌ بَيْـنَ نَعـامٍ وعيـسْ[3]

تَقْطَـعُ مِـنْ (عَلْـوةَ) فـي لَيْلِهـا ... إلى قُرى (شاسٍ) بِسَـيْرٍ هَميسْ[4]

لا نُـسْـكَ في أيّـامِـنـا عِـنْدَنـا ... بـل نُكِسَ الديـنُ فمـا إنْ نَكيسْ[5]

فالأَحَـدُ الأَعْظَـمُ والسـبْتُ كالـ ... إثْنَيْـنِ والجُمْعَـةُ مِثْـلُ الخميـسْ

لا مُـجُّـسٌ نَـحْـنُ ولا هُـودٌ ... ولا نَصـارى يَبْتَغـون الكَنيـسْ[6]

نُـمَـزِّقُ الـتَّـوراةَ مِـنْ هُونِها ... ونَحْطِـمُ الصُّلْبانَ حَطْـمَ اليَبيسْ[7]

نُـحـارِبُ الـلـهَ جُـنـوداً لإب ... ليسَ أَخـي الرأي الغَبينِ النَّجيسْ[8]

نُـسَـلِّـمُ الـحُـكْـمَ إِلـيْـه إذا ... قـاسَ فَنَرْضى بالضَّـلال المَقيسْ[9]

= وهو الشجاع. والمعنى أنه سار في هذه المفازة التي لا أحد فيها إلا الجان والعفاريت الشجعان الذين يصوِّتون.

1- (البهاليل): ج بُهلول. وهو السيد الجامع لكل خير. (اليعاليل): السحب البيضاء. وليس لها واحد. (الهَسيس): الكلام الخفي. والمعنى أنه يصف الفتية الذين يسير بهم أنهم بيض سادة كرام وهم كالسحب لا يتكلمون إلا بهسيس الجن.

2- (الجُنح): الليل. يقال: سِرت في جُنح الليل. (الأنيس): الإنس.

3-(أيْنق): النوق. (العيس): كِرامُ الإبل. أي أنه وأصحابه تحملهم خيلٌ ليست كخيل البشر، ونوقٌ سريعة لا تلاحقها الأبصار لسرعتها. وهي مخلوقة على شكلٍ بين النعام والإبل.

4- (عَلْوَة): طريق بين مكة والمدينة. (شاس): مدينة في بلاد الترك. (الهَميس): السير الخفي. أي أنها تقطع في ليلة واحدة هذه المسافة بسير خفيٍّ سريع.

5- (نُكِسَ الرجل): ضَعُفَ وعجز. (ما إنْ): إن زائدة للتوكيد. (نَكيس): فعل مضارع مِنْ كاس يَكيس. صار فطناً. ومنه الكِياسة. والمعنى أننا لا نعرف النسك والزهد. بل ضَعُفَ الدينُ عندنا ولا نعرف الكياسة.

6- (المُجُّس): المَجوس. (الهُود): اليهود. (الكنيس): الكنيسة. أي أننا بلا دين. فلسنا مَجوساً أو يهوداً أو نصارى نرتاد الكنيسة.

7- (الهُون): الهوان. (العشب اليبيس): اليابس.

8- (أخو الرأي): صاحبُ الرأي. (الغبين): المَغبون الفاسد. (النجيس): النجس.

9- (المَقيس): المأخوذ بالقياس. أي أننا سلَّمنا الحكمَ لإبليسَ ونرضى بأحكامه الضالة.

نَزِيـنُ للشـارخِ والشـيْخِ أنْ يُفْـ ... رِغَ كِيسـاً فـي الخَنا بَعْـد كِيسْ[1]

ونَـقْـتَـري جِـنَّ سُـلَيمانَ كـي ... نُطْلِـقَ مِنْهـا كُلَّ غـاوٍ حَبيـسْ[2]

صُـيَّـرٌ فـي قـارورةٍ رُصِّـصَـتْ ... فلـم تُغـادِرْ مِنْـه غَيْرَ النَّسـيسْ[3]

ونُـخْـرِجُ الـحَسـنـاءَ مَـطْرودةً ... من بَيْتِها عن سُـوءِ ظَـنٍّ حَديسْ[4]

نَـقـولُ: لا تَـقْـنَـعْ بِـتَطـليقـةٍ ... واقْبَلْ نَصيحاً لم يَكُنْ بالدَّسـيسْ[5]

حتـى إذا صـارتْ إلـى غَـيْـرِه ... عـادَ مـن الوَجْـدِ بِجَـدٍّ تَعيـسْ[6]

نُـذْكِـرُه مِـنْـها، وقـد زُوِّجَـت، ... ثَغْـراً كَـدُرٍّ فـي مُـدامٍ غَريـسْ[7]

ونَخْـدَعُ القِسِّـيسَ فـي فِصْحِـهِ ... مِـنْ بَعْـدِ مـا مُلِّـئَ بالأَنْقَليـسْ[8]

أصْـبَـحَ مُـشـتـاقـاً إلـى لَـذَّةٍ ... مُعَلَّـلاً بِالصِّـرفِ أو بِالخَفيـْس[9]

أَقْـسَـمَ لا يَـشـربُ إلا دُوَيـ ... ـنَ السُّـكْرِ والبازِلُ تالي السَّـديسْ[9]

قُـلْنـا لـهُ: ازْدَدْ قَـدَحـاً واحِـداً ... مـا أنـت أنْ تَـزْدادَه بالوَكيـسْ[9]

1- (الشارخ): الشاب. ومنه (شرخ الشباب). (الخنا): الأعمالُ الفاسدة. والمعنى أننا نزين للشاب والشيخ أن يُفْرِغا أكياسهما في الآثام.

2- (نقتري): نَتتبَّع. من (اقترى فلاناً) تتبعه. (الحبيس): المحبوس. أي أننا نتتبع جن النبي سليمان لنطلق منها كل الغواة الآثمين الذين حبسهم سليمان.

3- (النسيس): بقية الروح. وفي هذا البيت يتابع المعري وصف الجني المحبوس في قارورة سُدَّت بالرصاص فلم يبق منه إلا بقية روح.

4- (الحَديس): بالحدس والظن لا باليفين. أي أننا نطرد الحسناء من بيتها بإقناع أهلها بظن السوء فيها من غير يقين.

5- (الدَّسيس): من الدسِّ والكذب. والمعنى أننا نقول لزوجها لا تقنع بتطليقة واحدة بل طَلِّقها ثلاثاً.

6- (الجَد): الحظ. أي حتى إذا تزوجها واحدٌ آخرُ بعد تطليقها، عاد بالحظ العاثر من شوقه إليها.

7- (غريس): مغروس. أي أننا نجعله يتذكر بعدما تزوجت غيره، ثغرها الذي يشبه الدر في الخمر.

8- (الأنقليس): سمكة نهرية وبحرية كالحية. وهي التي تحضَّرُ في فِصْحِ المسيحيين.

9- (الخفيس): السريع الإسكار. أي أننا بعدما خدعنا القسيس في عيد الفصح صار مشتاقاً إلى شرب الخمرة السريعة الإسكار.

10- (السديس): البعير الذي بلغ ستة أعوام. (البازل): البعير الذي انشقَّ نابه. والبازل يكون بعد السديس. أي أنَّ القسيس يشرب كأساً تلو كأس.

11- (الوكيس): الخاسر.

يُحْمِـكَ في هـذا الشَّـفيفِ الذي ... يُطْفِـئُ بالقُـرِّ التِهـابَ الحَميسْ[1]

فَـعَـبَّ فـيـهـا فـوَهـى لُـبُّـهُ ... وعُـدَّ مِـنْ آلِ اللَّعيـنِ الرَّجيـسْ[2]

حتَّـى يَفيـضَ الفَـمُ مِنْـهُ علـى ... نُـمْرُقَتَيْـهِ بـالشَّـرابِ القَليـسْ[3]

وأُعْـجِـلُ السِّـعْلاةَ عـن قُوتِهـا ... فـي يَدَيْهـا كَشْـحُ مَهـاةٍ نَهيسْ[4]

لا أَتَّـقـي الـبَـرَّ لأَهْـوالـهِ ... وأركَـبُ البَحْـرَ أوانَ القَريـسْ[5]

نـادَمْـتُ قـابيـلَ وشـيثاً وهـا ... بيـلَ علـى العاتِقَـةِ الخَنْدَريـسْ[6]

وصاحِبَيْ (لَمْكٍ) لدى المِزْهَرِ الـ ... مُعْمَـلِ لـم يَعْـيَ بِزيرٍ جَسـيسْ[7]

ورهْـطَ لُـقْـمـانَ و(أَيْـسـارَهُ) ... عاشـرتُ مِنْ بَعْدِ الشبابِ اللَّبيسْ[8]

***

ثُمَّـتَ آمَنْـتُ ومَـنْ يُـرزَقِ الـ ... ـإيمـانَ يَظْفَـرْ بِالخَطيـرِ النَّفيـسْ

جاهَدْتُ في بَدرٍ وحامَيْتُ في أُحُدٍ ... وفـي الخَنْـدَقِ رُعْـتُ الرئيـسْ[9]

1- (القُر): البرد. (الحَميس): من حَمِسَ: غلى وهاج. (يَحمِك): مجزوم بجواب الطلب في البيت السابق. والمعنى: اشربْ قدحاً حتى يَحميَك مِنْ هذا القُرِّ الشفيف من البرد لحرارته.

2- (وهى): ضعُفَ. (الرجيس): الذي أصابه الرِّجس. أي أن هذا القسيس ظل يشرب حتى ضعفت همته وصار يُحْسَبُ من آل إبليس النجس.

3- (النمرُقة): الوسادة. (القَليس): من قَلَسَ الرجلُ: أكثر من شرب النبيذ وتقيأ.

4- (السِّعْلاة): أنثى الغول. (الكَشْح): الردف. (المَهاة): البقرة الوحشية. (نَهَسَ): بمعنى نهش. والمعنى أنني أشغل السعلاة عن أكلها مع أن بين يديها كَشْحَ بقرة وحشية قابلة للنهش.

5- (القَريس): البرد الشديد القارس.

6- (شيث): النبي شيث. (العاتقة): المعتقة. (الخندريس): الخمر.

7- (لَمْك): جده السادس آدم. قيل إنه أول مَنْ صنع العود. إذ مات ابنٌ له يحبه. فعلَّقه على شجرة فتقطَّعت أوصالُه حتى بقي الفخذ والساق والقدم. فأخذ خشباً ورتقه وألصقه. فجعل صدر العود كالفخذ. وجعل عنقه كالساق. ورأسه كالقدم. والملاوي كالأصابع. والأوتار كالعروق. ثم ضرب به وناح عليه. وصاحباه هما ابنه (توبل) وابنته (ظلال). وقد اتخذ الابنُ الدفوفَ والطبولَ. وعملت ابنتُه الألحان. و(الزير): الدقيق من الأوتار. (الجَسيس): الذي يُجَسُّ بالضرب عليه.

8- (اللَّبيس): المهترئ من كثرة اللُّبس. و(رهط) مفعول به مقدم لفعل عاشرت. و(أيساره): أصحابه. وهي معطوفة على لقمان. والمعنى أنه قد عاشر هؤلاء بعد مضي الشباب.

9- يشير إلى غزوة بدر وأُحُد والخندق. و(رُعتُ): خوَّفت. و(الرئيس): يقصد أبا سفيان.

وراءَ (جِبْريـلَ) و(ميـكالَ) نَخْـ ... لي الهامَ في الكَبَّةِ خَلْيَ اللَّسيسْ[1]

حينَ جُيوشُ النَّصْرِ في الجوِّ والـ ... طاغوتُ كالـزَّرْعِ تَناهـى فَدِيسْ[2]

عَلَيْهِمـو فـي هَـبَـواتِ الـوَغـى ... عَمائـمٌ صُفْـرٌ كَلَـوْنِ الوَريـسْ[3]

صَهيـلُ (حَيْـزومٍ) إلـى الآنَ فـي ... سَـمْعِيَ أَكْرِمْ بالحِصانِ الرَّغيسْ[4]

لا يَتْبَـعُ الصَّيْـدَ ولا يألُـفُ الـ ... ـقَيْدَ ولا يشـكو الوَجى والدَّخيسْ[5]

فَلَم تَـهَـبْـني حُـرَّةٌ عـانـسٌ ولا ... كَـعـابٌ ذاتُ حُـسـنٍ رَسـيـسْ[6]

وأيْـقَـنَـتْ زيـنَـبُ مِـنِّي التُّقى ... ولـم تَخَـف مِـنْ سَـطَواتي لَميسْ

وقُـلْـتُ للجِنِّ ألا يـا اسـجُـدوا ... للـهِ وانقـادوا انْقِيـادَ الخَسـيسْ

فـإنَّ دُنـيـاكُـم لها مُـدَّةٌ ... غـادِرةٌ بالسَّـمْحِ أو بالشَّـكيسْ[7]

(بلْقيـسُ) أَوْدَتْ ومضـى مُلْكُهـا ... عنها فما في الأذْنِ مِنْ هَلْبَسـيسْ[8]

وأسـرةُ المُنْـذِرِ حـاروا عـن الـ ... ـحِيـرةِ كلٌّ فـي تُـرابٍ رَميـسْ[9]

إنـا لَـمَسـنا بَـعْدَكمْ فـاعْـلَـموا ... بِرْقِـعَ فاهْتاجَـتْ بِشَـرٍّ بَئيـسْ[10]

1- (ميكال): ميكائيل. (نَخلي): من خلى النباتَ يَخليه: جزه وحصده. (اللسيس): العشب الخشن. يقال: (لسَّت الدابةُ العشب): أكلته. والمعنى أنه كان مع جبريل وميكائيل في هذه الغزوات وكانوا يحصدون الرؤوس كما يُحصَد الزرع. والمعري هنا يشير إلى ما ورد في سورة الأنفال: (إذْ تستغيثون ربَّكم فاستجابَ لكم أني مُمِدُّكُم بألفٍ من الملائكة).

2- المعنى أنَّ ذلك حدث حين كان الجيش الإسلامي يطير في الجو بينما جيش الطاغوت كأنه الزرع استطال فداسته الأقدام.

3- (الهبَوَات): ج هبْوة. وهي غبار المعركة. (الوَريس): المصبوغ بالوَرْس. وهو نبات كانوا يصبغون به اللون الأصفر.

4- (الحيزوم): فرس جبريل. (الرغيس): المُبارك. من الرَّغَس. وهو النعمة والبركة.

5- (الوجى): ضعف القدم. (الدَّخيس): عظم في جوف الحافر. وهو هنا يصف فرس جبريل بأنه لا يتبع الصيد ولا يألف القيد وهو قوي العظام.

6- (الرسيس): المحجوب. والمعنى أنني بعد توبتي لم تعد تخافني النساء.

7- (الشَّكيس): المُشاكس.

8- (بلقيس): ملكة سبأ. وقصتها مع النبي سليمان في سورة (النمل). و(الهلبسيس): الشيء اليسير.

9- (حاروا): زالوا. (الرَّميس): المدفون. ومنه (الرَّمْس): القبر.

10- (البِرْقِع): اسم للسماء. وهي هنا مفعول به لفعل (لمسنا). (البئيس): البائس. أي أنه قال للجن إننا لمسنا السماء فما كان منا إلا أنها اهتاجت علينا وأصابتنا بشرٍّ بائس.

تَـرمي الشـياطـينَ بنـيـرانِـها حتى تُـرى مِثْلَ الرَّمـادِ الدَّريسْ[1]
فـطاوَعَـتْـنـي أمَّـةٌ مِـنْـهُـمـو فارَتْ وأُخـرى لَحِقَـتْ بالرَّكيسْ[2]

***

وطـارَ في (اليرموكِ) بي سـابِحٌ والقـومُ في ضَربٍ وطَعْنٍ خَليسْ[3]
حتـى تَجَلَّـتْ عنـيَ الحـربُ كالـ ـجَمْـرةِ فـي وَقْـدَةِ ذاك الوَطيـسْ
و(الجَـمَـلُ) الأنْـكَـدُ شـاهَدْتُـهُ بئـسَ نَتيـجُ الناقـةِ العَنْتَريـسْ[4]
بَيْـنَ (بنـي ضَبَّـةَ) مُـسْـتَقْدِمـاً والجَهْـلُ فـي العالَـمِ داءٌ نَجيـسْ
وزُرْتُ صِـفِّـيـنَ على شَـطْـبَـةٍ جَـرْداءَ مـا سائِسُـها بِالأريـسْ[5]
مُـجَـدِّلاً بالـسـيْـف أبـطـالَهـا وقاذِفـاً بالصَّخْـرَةِ المَرْمَريـسْ[6]
وسِـرْتُ قُـدَّامَ عَـلـيٍّ غـدا ةَ (النَّهْـرِ) حتى فُلَّ غَربُ الخَميسْ[7]
صـادفَ مِـنـي واعـظٌ تـوبَـةً فكانـت اللَّقْـوةُ عِنْـدَ القبيـسْ"[8]

1- (الدَّريس): البالي. من (درسته الريح): تكررت عليه حتى مَحَت أثره. أي أنَّ السماء رمَتِ الشياطينَ بالشهابِ وأحرقتهم حتى صاروا مثلَ الرماد الدارس.

2- (الركيس): الضعيف. والمعنى أنه بعدما خاطب الشياطين، فإن بعضاً منهم طاوعوه بالإيمان ففازوا، وبعضهم لم يطيعوه فلحقوا بالموقف الضعيف.

3- (اليرموك): معركة اليرموك الشهيرة بين المسلمين والروم. (السابِح): الحصان الذي يجري كأنه يسبح. (الطعن الخليس): طعنٌ شجاعٌ وحَذِرٌ.

4- (الجمَل): يشير إلى معركة الجمل النكداء التي جرت بين عائشة وعلي بن أبي طالب. (العنتريس): الناقة الغليظة. والمعنى أنه حضر معركة الجمل. وما أسْوأ نِتاجَ هذه الناقةِ التي ولدت هذا الجملَ المشؤوم.

5- (صِفِّين): موقعة صفين التي جرت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سُفيان. وهي قرب مدينة الرقة في شمال شرق سورية. (الشَّطْبة): الفرس الكبيرة الجسم. (الأريس): الفلاح الذي يحرث الأرض. يعني أن سائسها ليس غِراً في الحرب.

6- (مُجَدِّلاً بالسيف): رامياً الأبطالَ بالسيف. (الصخرة المَرمريس): الملساء الشديدة.

7- (النهر): معركة النهر. (فُلَّ): أصبح مفلولاً أي مهزوماً ومثَّلماً. (الغَرْب): حَدُّ السيف. (الخَميس): الجيش. وسمي كذلك لأنه مؤلف من خمسة أقسام: المقدمة – المؤخرة – الميمنة – الميسرة – القلب. والمعنى أنه حاربَ مع علي في معركة النهر حتى انهزم الجيش.

8- (اللَّقوة): اللقاء. (القَبيس): الفحل القوي السريع الإلقاح. والمعنى أنَّ الوعظَ صادف عنده هوى وهو القوي. فتاب عما كان فيه من الضلال.

وبعدما انتهى أبو هدرش مِنْ قصيدته، عَجِبَ الشيخُ – لا زال في الغبطةِ والسرورِ – مِمَا سمعَه مِنْ ذلك الجِنِّيِّ. ويَكْرهُ الإطالةَ عنده، فيُوَدِّعُه.

حديث الأسد

ويسيرُ الشيخُ. فإذا هو بأسدٍ يَفترسُ قُطعانَ البقرِ الوحشيِّ التي في الجنةِ وأولادَها. فلا تَكفيه مئةٌ أو مئتان. فيقولُ في نَفْسِهِ: "لقد كانَ الأسدُ يفترسُ الشاةَ العَجْفاءَ، فيبقى أياماً لا يأكلُ سواها شيئاً".

فيُلْهِم اللهُ الأسدَ أنْ يتكلَّمَ وقد عَرَفَ ما في نفسِ الشيخِ فيقولُ: "يا عبدَ اللهِ. أليس أحَدُكم في الجنةِ تُقَدَّمُ إليه الصَّحْفَةُ وفيها الأرزُّ والعَسَلُ مع الزبدةِ فيأكلُ مِنْها مثلَ عُمْرِ السمواتِ والأرضِ، يَلتذُّ بِما أصابَ مِنَ الطَّعامِ فلا هو مُكْتَفٍ مِنْهُ ولا الطعامُ فانٍ؟ كذلك أنا أفترسُ ما شاءَ اللهُ. فلا تتأذَّى الفَريسةُ بِظُفْرٍ ولا نابٍ. ولكنْ تَجِدُ مِنَ اللذةِ كما أجِدُ بِلُطْفِ ربِّها العزيز. أتدري مَنْ أنا أيها الفتى الظريفُ؟ أنا أسدُ (وادي القاصِرةِ) الذي كانَ في بلادِ الشامِ في الطريقِ إلى مصرَ. فلمَّا سافرَ (عُتبةُ بنُ أبي لَهَبٍ[1]) يُريدُ تلك الجِهَةَ وقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ (اللهم سَلِّطْ عليه كلباً مِنْ كِلابِك)، أُلْهِمْتُ أنْ أتَجَوَّع له أياماً. وجِئْتُهُ وهو نائمٌ بين أصْحابِه. فتَخَلَّلْتُ الجماعةَ إليه. وأُدخِلتُ الجنةَ بِما فَعَلْتُ".

ويمرُّ بِذئبٍ يَقتنِصُ ظِباءً فيُفني السِّرْبَ منها بعدَ السِّرْب. وكلما فَرَغَ مِنْ ظَبيٍ أو ظَبيةٍ، عادت بالقدرةِ إلى الحالِ المَعْهودةِ. فيعلَمُ أنَّ شَأْنَه شَأْنُ الأسدِ. فيقولُ الشيخُ للذئبِ: "ما خبرُك يا عبد الله؟".

1- (عُتبةُ بن أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم). فهو ابنُ عم النبي. وقد تزوج رُقية بنت محمد (ص) قبل البعثة. فلما بُعِث جاءه عتبة وقال له: (يا محمد. أشهد أني قد كفرت بربك وطلَّقتُ ابنتَك). فدعا الرسولُ ربَّه أنْ يسلِّطَ عليه كلباً من كلابه. ثم خرج إلى الشام في قافلة. حتى إذا كانوا في وادي القاصرة – وهو موطنُ السباع – نزلت القافلة ليلاً. فافترشوا صفاً واحداً. فبات في وسطهم خوفاً من السباع. فجاءهم سبع يشمهم واحداً واحداً. حتى إذا وصل إليه أنشب أنيابه في صدغيه. فصاح: (يا قوم. قتلتني دعوة محمد).

فيقولُ الذئبُ: "أنا الذئبُ الذي كلَّم (الأسْلميَّ[1]) على عهدِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّم. كُنتُ أُقيمُ عَشْرَ لَيالٍ أو أَكثرَ. لا أقْدِرُ على أرنبٍ أو أرنبةٍ. وكنتُ إذا هَمَمْتُ بصغيرٍ مِنْ صِغارِ الماعِزِ، نَبَّهَ الراعي كِلابَه حتى تَصيرَ كالأسودِ. فإذا رَجَعْتُ إلى صاحِبتي مُجرَّحَ الجِلْدِ قالتْ: (لقد أخطأتَ في أفكارِكَ. وما اختَرْتَ الخَيْرَ في ابْتكارِكَ الهجومَ على الشِّياهِ. وربما رُميتَ بالسِّهامِ التي تَنْشُبُ في خاصِرَتَيْكَ). فبِتُّ تلك الليلةَ وأنا على آخِرِ نَفَسٍ مِمَّا أصابَني. وكانت الذئبةُ صاحِبتي تَنْتَزِعُ السِّهامَ التي أَصابَتْني. فلَحِقَتْني بَرَكةُ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلمَ لِما أَصابَني ولأني لم أفترس الشاةَ".

مع الحطيئة[2]

فيذهبُ – عرَّفَه اللهُ الغِبْطَةَ في كلِّ سبيلٍ – فإذا هو بِبيتٍ في أقصى الجنةِ كأنه كوخُ أَمةٍ راعيةٍ. وفيه رجلٌ ليسَ عليه نورُ سُكَّانِ الجنةِ. وعندَهُ شَجَرةٌ قميئةٌ ثمرُها ليس طيبَ المَذاقِ فيقولُ له الشيخُ: "يا عبدَ اللهِ. لقد رَضيتَ بالحَقيرِ القَليلِ".

فيقولُ الرجلُ: "واللهِ ما وصلتُ إلى هذا الكوخِ إلا بعدَ هِياطٍ ومِياطٍ[3] وعَرَقٍ مِنْ شَقاءٍ وشَفاعَةٍ مِنْ قُريش وَدِدْتُ أنَّها لم تَكُن".

فيقولُ الشيخُ: "مَنْ أنت؟".

فيقولُ الرجلُ: "أنا الحُطَيئةُ العبسيُّ".

1- (الأسلمي): هو أهبان بن أوسٍ الأسلمي. أبو عقبة. أسلم ومات في الكوفة في صدر أيام معاوية. يُعرَفُ بلقب (مُكلِّم الذئاب). وذلك أنه كان في غنم له. فقبض الذئبُ على شاةٍ منها. فصاح عليه فأقعى على ذَنَبه. فخاطبه الأسلمي قائلاً: (تَحُول بيني وبين رزقٍ ساقه الله إلي؟).

2- (الحطيئة): هو جرول بن أوس من بني عبس. وكنيته (أبو مُلَيْكَة). شاعرٌ مخضرم متينُ الشعر ضليعٌ في الهجاء. وهو من الفحول. وسمي (الحطيئة) لأنه كان قصيراً دميماً. وقد هجا كثيراً من كبار الناس كما هجا أمه وأباه ونفسه. توفي عام 59 هـ 679 م.

3- (الهِياط والمِياط): الاضطراب والذهاب والمجيء والزجر والدفع. وقد حافظنا على هاتين الكلمتين لأنهما مشهورتان عن الحطيئة.

فيقولُ الشيخُ: "بِمَ وصلتَ إلى الشفاعةِ؟".

فيقولُ الحطيئةُ: "بالصِّدقِ".

فيقولُ الشيخُ: "في أيِّ شيءٍ؟".

فيقولُ الحطيئةُ: "في قولي:

أَبَتْ شفتايَ اليومَ إلا تَكَلُّما بِهُجْرٍ فما أدري لِمَنْ أنا قائلُهْ[1]
أرى لِيَ وَجْهاً شَوَّهَ اللهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ".

فيقولُ الشيخُ: "ما بالُ قولِكِ:

مَنْ يفعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَم جَوازِيَهُ لا يَذهَبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والناسِ

ألم يُغْفَرْ لك به؟".

فيقولُ الحطيئة: "سَبَقني إلى مَعناهُ الصالحون. ونَظَمتُه ولم أَعْمَلْ بِهِ. فَحُرِمْتُ الأجرَ عليه".

فيقولُ الشيخُ: "ما شأنُ الزِّبْرِقانِ بنِ بَدْرٍ[2]؟".

فيقولُ الحطيئةُ: "هو رئيسٌ في الدنيا والآخِرَةِ. انْتَفَعَ بِهِجائي ولم يَنْتفِعْ غَيرُهُ بِمديحي".

1- (الهُجْرُ): الكلام الفاحش بالشتائم.

2- (الزِّبْرِقان بن بدر): هو الحُصَيْن بن بدر التميمي. والزِّبرِقان لقب له لجمال وجهه. كان سيداً في الجاهلية عظيمَ القدْرِ في الإسلام. صحابي ولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله. هجاه الحطيئة.

الفَصْلُ الخامس

الجحيم

مع الخنساء

فيتركُه الشيخُ ويَمضي. فإذا هو بِامرأةٍ في أقصى الجنةِ قَريبةٍ مِنَ المَطْلَعِ إلى النارِ. فيقولُ لها: "مَنْ أنتِ؟".

فتقولُ المرأةُ: "(أنا الخنساءُ السُّلَمِيَّةُ[1]). أَحْبَبْتُ أنْ أَنْظُرَ إلى أخي صَخْرٍ. فاطَّلَعْتُ فرأيتُه كالجبلِ الشَّامِخِ والنارُ تَضْطَرِمُ في رأسِهِ". فقال لي: "لقد صَحَّ قولُك فيَّ:

وإنَّ صخْـراً لَتَأتَـمُّ الهُـداةُ بـه كأنَّـه عَلَـمٌ فـي رأسِـهِ نـارُ".

حديث إبليس

فيَطَّلِعُ على النارِ فيرى (إبليسَ) – لَعنهُ اللهُ – وهو يَضْطَرِبُ في الأغْلالِ

1- (الخنساء): تماضُر بنت عمرو بن الحارث السُّلمي. شاعرة اشتُهِرتْ برثائها لأخويها صخر ومعاوية. أسلمت وهي في طلائع شيخوختها عام 8 هـ. وفدت على النبي (ص) وأنشدته شعرها فأُعجِب به. والخنساءُ لقبٌ غلبَ عليها. ومعناه الظبية. رافقت أولادها الأربعة في الحرب أيام عمر بن الخطاب. فلما استشهدوا قالت كلمتها المشهورة (الحمدُ لله الذي شرَّفني باستشهادهم. وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقَرِّ رحمتِه. وكان عمر بن الخطاب يُعطيها أرزاقَ أولادها الأربعة. توفيت عام 24 هـ 645 م.

والسَّلاسلِ، ومَقامِعُ الحَديدِ تأخذُه مِنْ أيدي الزبانيةِ. فيقولُ: "الحَمْدُ للهِ الذي أَمْكَنَ مِنْكَ يا عَدوَّ اللهِ وعدوَّ أولِيائِه. لقد أَهْلَكْتَ مِنْ بني آدمَ طَوائِفَ لا يَعلَمُ عَدَدَها إلا اللهُ".

فيقولُ إبليسُ: "مَنِ الرجلُ؟".

فيقولُ الشيخُ: "أنا فلانُ ابن فلان مِنْ أهلِ (حلبَ). كانت صِناعتي الأدبَ أتقرَّبُ بِه إلى المُلوكِ".

فيقولُ إبليسُ: "بِئسَ الصِّناعَةُ. إنها تهب بُلْغَةً مِنَ العيشِ لا يَتَّسِعُ بِها العِيالُ. وإنها مَزَلَّةٌ بالقدَمِ. وكم أَهْلَكَتْ مِثْلَك. فهنيئاً لك إذْ نَجَوْتَ. فأوْلى بك أنْ تَشْكُرَ اللهَ ثم أولى. وإنَّ لي إليك حاجَةً. فإنْ قَضَيْتَها شَكَرتُك أبدَ الدهرِ".

فيقولُ الشيخُ: "إنِّي لا أَقْدِرُ لك على نفعٍ. فإنَّ الآية سَبَقَتْ في أهلِ النارِ. أَعني قولَه تعالى: (ونادى أَصْحابُ النارِ أَصْحابَ الجنةِ أنْ أَفِيضوا علينا مِنَ الماءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالوا إنَّ اللهَ حرَّمَهُما على الكافِرين)".[1]

فيقولُ إبليسُ: "إنِّي لا أسألُك في شيءٍ مِنْ ذلك. ولكنْ أسألُك عن خَبَرٍ تُخبِرُني به. إنَّ الخَمْرَ حُرِّمَتْ عليكم في الدنيا وأُحِلَّتْ في الآخِرةِ. فهلْ يَفعَلُ أهلُ الجنةِ بالوِلْدانِ المُخَلَّدينَ فِعْلَ قومِ لوطٍ؟".

فيقولُ الشيخُ: "عليك اللعنةُ. أما شَغَلَك ما أنت فيه؟ أما سَمِعْتَ قولَه تعالى: (ولَهمْ فيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وهمْ فيها خالِدون[2])؟".

فيقولُ إبليس: "وإنَّ في الجنةِ أَشْرِبَةً كثيرةً غيرَ الخمرِ. فما فعلَ بشارُ بنُ بُردٍ؟ فإنَّ له عِندي يَداً ليستْ لِغيرِهِ مِنْ وَلدِ آدمَ. كان يُفضِّلُني دونَ الشعراءِ. وهو القائلُ:

إبليسُ أفْضَلُ من أبيكُم آدم ... فَتَبَيَّنوا يا مَعْشَرِ الأشْرارِ
النَّارُ عُنْصُرُه وآدمُ طِينَةٌ ... والطِّينُ لا يَسمو سُمُوَّ النارِ

لقد قالَ بشارٌ الحقَّ. ولم يزلْ قائِلُه من المَمْقوتين".

1- سورة الأعراف. الآية 50.

2- سورة البقرة. من الآية 25.

مع بشارِ بنِ بُرْد[1]

فلا ينتهي إبليسُ مِنْ كَلامِهِ إلا ورجلٌ واقِعٌ في أَصْنافِ العذابِ يُغْمِضُ عينيه حتى لا يَنظُرَ إلى ما نزلَ به مِنَ التَّعْذيبِ. فيفْتَحُهما الزَّبانِيةُ بِكلاليبَ مِنْ نارٍ. وإذا هو (بشارُ بنُ بُردٍ) قد أُعْطِيَ عَيْنَيْنِ بعدَ العَمى لِينظُرَ إلى ما نَزَلَ به مِنَ التَّنْكيلِ.

فيقول له الشيخُ – أعلى اللهُ دَرَجَتَه –: "يا أبا مُعاذٍ. لقد أَحْسَنْتَ في قَولِك وأَسَأْتَ في مُعْتَقَدِك. ولقد كنتُ في الدارِ العاجلةِ أذكُرُ بعضَ أشعارِك فأترحَّمُ عليك ظَنًّاً مِنِّي أنَّ التوبَةَ ستلْحَقُك، مثلَ قولِك:

ارْجِعْ إلى سَكَنٍ تعيشُ بِهِ ذَهَبَ الزمانُ وأنت مُنْفَرِدُ
تَرجو غَداً وغَدٌ كَحامِلةٍ في الحَيِّ لا يَدرون ما تَلِدُ

وقولِك:

واهاً لأسْماءَ ابْنَةِ الأَشَدِّ قامَت تَراءى إذْ رأتني وَحْدي
كالشَّمْسِ بين الزِّبْرِجِ المُنْقَدِّ ضَنَّتْ بِخَدٍّ وحَلَتْ عن خَدِّ[2]
ثم انْثَنَتْ كالنَّفَسِ المُرْتَدِّ وصاحِبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ[3]
أَرْقُبُ مِنهُ مثلَ حُمَّى الوِرْدِ حَمَلْتُهُ في رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي[4]
الحُرُّ يُلْحى والعصا لِلعَبْدِ وليسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ[5]

1- (بشار بن برد): فارسي الأصل. ولد في البصرة أعمى. وكان جاحظ العينين يغشاهما لحم أحمر. وكان ضخم الجثة. يُعَدُّ مِنْ فحول الشعراء ومتَّهماً بالزندقة. ولِد عام 96 هـ 715 م. وقتل عام 168 هـ 784 م وهو في الثمانين مِنَ العمر. عاصر العصرين الأموي والعباسي. وكان غزير الشعر جيد القريحة.

2- (الزِّبرِجُ المنقَدُّ): حجارة كريمة قُدَّت وصُنِّعت حتى تصبح للزينة.

3- (النفس المرتد): هو الشهيق. (الدُّمَّلُ المُمَدُّ): الخَرَّاج المتقيِّح. أي أنها بعدما ضَنَّت بخدها ارتدت عني كأنها الشهيق أو كأنها المصاب بخرَّاج متقيح.

4- (الوِرد): الحُمَّى التي تعود مرة بعد مرة. والشاعر في هذا البيت يتابع وصف صاحب الدمل بأنه يراقب معاودة الحمى له ويحمله في كساء من الجلد.

5 (يُلحى): يُلام. من (لَحاهُ): لامه. (المُلْحِف): الكثير الإلحاح في طلباته. والمعنى أن الحُرَّ إذا أخطأ يُلام. أما العبد فيُضْرَبُ بالعصا. والكثير الإلحاح ليس له أن يردعوه ويردوه.

وأرى الآنَ أنِّي أيأسُ مِنْ تَوْبتِكَ. وإني سائِلُك عن بَعْضِ ما جاءَ في أُرْجوزَتِكَ هذه.

لقد جاءَ في بعضِ قَوافيكَ فيها: (السُّبْدِ). فإنْ كنتَ أردتَ جَمْعَ (سُبَد) وهو طائرٌ، فإنَّ أصلَ الكلمةِ (سُبَد). ووزن (فُعَل) لا يُجْمَعُ على وزن (فُعْل). أيْ أنَّ تسكينَ الباءِ في (سُبْد) خطأٌ لأنَّ تَسْكينَ الباءِ في هذه الكلمةِ غيرُ مَعروفٍ. ولا حُجَّةَ لك في قولِ (الأخطَل):

وما كُلُّ مَغْبونٍ إذا سَلْفَ صَفْقَةً بِـراجِـعِ مـا قـد فـاتَـه بـرَدادِ

فقد سكَّنَ اللامَ في (سَلَفَ) فقال (سَلْف).

ولا حجة لك أيضاً في قولِ الآخَرِ:

وقالـوا: تُرابِـيٌّ فقلـت: صَدَقْتُمُ أبـي مـن تُـرابٍ خَلْقَـه اللـهُ آدَمـا

فهو قد سَكَّن اللامَ في (خَلَقه) فقال: (خَلْقَه). لأن هذه شَواذٌّ.

فيقولُ بشار: "يا هذا. دَعْني مِنْ أباطيلك. فإني لَمَشغولٌ عنك".

مع امرئِ القيس[1]

ويسألُ الشيخُ عن (امرئِ القيسِ بنِ حُجْر) فيُقالُ له: "ها هو ذا بحيثُ يَسمعُكَ". فيقولُ له: "يا أبا هند. إنَّ رُواةَ الشعرِ البغداديين يُنْشِدونَ في مُعلَّقتِكَ (قِفا نَبْكِ) هذه الأبياتَ بزيادةِ الواوِ في أولِها. أعني قولَك:

وكأن ذُرى رأسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً مِنَ السَّـيْلِ والغُثَاءِ فَلْكَـةُ مِغزَلِ[2]

1- مرت ترجمته.

2- (الذُّروة): من كل شيء أعلاه. والجمع (ذُرى). (المُجَيْمِر): أكَمَةٌ كانت معروفةً عندهم. (الغُثاء): ما يحمله السيل من الأغصان والتراب والأحجار وغير ذلك. (فُلكة المِغْزل): استدارةُ المِغْزل. والمعنى أن ذرى هذه الأكمة محاطةٌ بغثاءِ السيل كما يلتفُّ الغزل في المغزل. ومن الواضح أن الواو في أول البيت زيادة يستنكرها المعري.

وكذلك قولك:

وكأن مَكاكـيَّ الجِـواء غَـدِيَّـةً صَبَحْنَ سُـلافاً مِنْ رَحيقٍ مُفَلْفَلِ[1]

وكذلك قولُك:

وكأنَّ السِّـباعَ فيـه غَرْقى عشـيَّةً بِأرجائه القُصْوى أنابيشُ عُنْصلِ"[2]

فيقولُ امرؤُ القيس: "أبعَدَ اللهُ أولئك. لقد أساؤوا الروايةَ. وإذا فعلوا ذلك فأيُّ فَرْقٍ بين النظمِ والنثرِ؟ وهذه الزيادةُ إنَّما فَعَلَها مَنْ لا غَريزَةَ له في مَعْرِفَةِ وزنِ القَريضِ. فظنَّه المتأخِّرونَ أَصْلاً في المنظومِ. وهيهاتَ أنْ يَصِحَّ ذلك هيهاتَ".

فيقولُ له الشيخُ: "أَخْبِرْني عن قَولِكَ:

كَبِكْـرِ المُقاناةِ البَيـاضَ بِصُفْرَةٍ غَذاهـا نَميـرُ المـاءِ غيـرَ مُحَلَّلِ[3]

ماذا أردتَ بـ (البِكْر)؟ فقد اختلف المُفَسِّرونَ في معناها. فقالوا: هي البيضةُ. وقالوا: الدُّرَّةُ. وقالوا: الرَّوضَةُ. وقالوا: الزهرةُ. وكيف تُنْشِدُ: البياضِ أم البياضَ أم البياضُ؟.

فيقولُ امرؤُ القيس: "كلٌّ ذلك حسنٌ. وأختارُ البياضِ بالكَسْرِ".

1- المُكاء): نوع من الطير. والجمع (مَكاكي). (الجِواء): الجَوُّ. (الغديَّة) والغدوة والغداة بمعنى واحد. (صَبَحْنَ سُلافاً): شربن الخمر في الصباح. و(السُّلاف) أجود أنواع الخمر. (المُفَلْفَل): المَخلوط بالفلفل. والمعنى أنَّ هذا النوع مِنَ الطيور يُغنِّي في الصباح كأنه شرب خمرة مفلفلة مما يجعل تغريده حاداً وقوياً لأن الفلفل يزيد مِنْ حِدَّة تأثيرِ الخمر.

2- (القُصوى): مؤنث الأقصى وهو البعيد. (الأنابيش): أصولُ النبات في الأرض. وسُمِّيَت بذلك لأنه يُنْبَش عنها. (العُنصُل): البصل البري. والمعنى أن السباع غرقت في السيل في هذا الوادي. فكأنها في أنحائه البعيدة تشبه جذور البصل البري.

3- (البِكر) من كل شيء هو ما لم يسبقه مثله. ومنه تأتي (الفتاة البكر): التي لم يلمسها رجل. و(الأرض البكر): التي لم تُزرع من قبل. (المقاناة): الخَلْطُ. من (قانى الشيءَ بشيء): خلطه. وهو يصف امرأةً يختلط فيها البياض بالصُّفرة. وهي صفة كان العرب يستحبونها في المرأة. وشبَّه اختلاطَ بياضها بالصفرة ببيض النعام الذي يختلط بياضُه بالصفرة. و(البياضَ): مفعول به للمصدر (المقاناة). (النَّمير) هنا ماء الجِسْم. أي أن هذه الفتاة غذاها ماء غير كثير. لأن الحلول زيادة في الماء..

فيقولُ الشيخُ – فرَّغَ اللهُ ذِهنَه للآدابِ –: لو شَرَحْتُ لك ما قالَ النَّحْويون في ذلك لَعَجِبتَ. وبعضُ المُعَلِّمينَ يُنشِدُ قولَك:

مِنَ السَّيلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

فيشدِّدُ الثاءَ".

فيقولُ امرؤُ القيس: "إنَّ هذا لَجَهولٌ. وهو نقيضُ الذين زادوا الواوَ في أوائلِ الأبياتِ. أولئك أرادوا النَّسقَ فأفسدوا الوزنَ. وهذا البائِسُ أرادَ أنْ يُصَحِّحَ الوزنَ فأفْسدَ اللفظَ. وكذلك قولي:

فجِئْتُ وقد نَضَتْ لِنَومٍ ثيابَها لدى السِّتْرِ إلا لُبسَةَ المُتَفضِّلِ

فمِنْهم مَنْ يُشَدِّدُ الضادَ في (نَضَتْ) ومَعناها (خَلَعَتْ) فيقولُ (نَضَّت). ومِنْهم مَنْ يُنشِدُ بتخفيفِ الضادِ فيقولُ (نَضَتْ). والوجهان مِنْ قولِكَ: (نَضَوْتُ الثوبَ). إلا أنَّك إذا شَدَّدْتَ الضادَ، صارَ الفعلُ مَأْخوذاً مِنَ (النَّضيضِ). وهو القليلُ. يُقالُ (هذه نَضيضَةٌ مِنَ المَطَرِ). أي قليلٌ مِنَ المَطرِ. والتخفيفُ أَحَبُّ إليَّ. وما حَمَلَهم على التخفيفِ إلا كَراهةُ الزِّحافِ مع أنَّ الزِّحافَ ليس بِمَكروهٍ".

فيقولُ الشيخُ – لا بَرِحَ ناطِقاً بالحِكَمِ –: "فأَخْبِرْني عن قصيدتِك (النونية) التي أولُها:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُه فَشَجاني كَخَطِّ زَبورٍ في عَسيبِ يَمانِ[1]

لقد جئتَ فيها بِأشياءَ يُنْكِرُها السَّمْعُ كقولك:

فإن أُمْسِ مَكْروباً فيا رُبَّ غارةٍ شَهِدْتُ على أَقَبَّ رِخْوِ اللَبانِ[2]

1- (الطَّلَل): ما بَقِيَ مِنْ آثار الديار. (شجاني): أهاجني وأحزنني. (الزَّبور): الكتاب. (العَسيب): سعف النخل. (اليَمان): من اليمن. والمعنى أن الشاعر يسأل عن الأطلال التي شاهدها فأحزنته لأنه لم يبقَ منها إلا القليل. فكأنها كتابٌ خُطَّ على سَعَفِ نخل.

2- (الغارة): الهجومُ على إحدى القبائل في الصباح. (الأقبّ): الفرسُ الضامر. (اللَّبان): صدر الحصان. (الرِّخو): اللين. والمعنى أنه إذا أمسى مكروباً داوى كَرْبَه بغارةٍ صباحية على ظهر فرس ضامر رخو الصدر لأنه عتيق. والبيت من البحر الطويل وفيه زحافات من مثل: (اللبان). فالتفعيلة الأخيرة فعولن بدل مفاعلن. وكذلك البيتان التاليان.

وكذلك قوْلُك في قصيدتِك (الصاديَّة):

علــى نِقْنِــقٍ هَيْــقٍ لــه ولِعِرْسِــه بِمُنْقَطِعِ الرَّعْساءِ بَيْضٌ رَصيصُ[1]

وقولُك في قصيدِتك (الضادية):

فَأَسْقي به أُختي ضَعيفَةَ إذْ نأتْ وإذْ بَعُــدَ المُــزْدارُ غَيْــرَ القَريضِ[2]

فهل كانَتْ غَرائِزُكُم لا تُحِسُّ بِهذهِ الزِّيادةِ؟ أم كُنتم مَطبوعينَ على إتيان نَواقصِ الكلامِ وأنتم عالِمون بِما يقعُ فيه؟ كما أنَّه لا ريبَ أنَّ (زهيرَ بن أبي سُلمى) كانَ يَعْرِفُ مَكانَ الزِّحافِ في قوْلِهِ

يَطْلُبُ شــأْوَ امْرأين قَدَّما حَسَــباً نالا المُلــوكَ وبــذَّا هذهِ السُّــوَقا[3]

فإنَّ الغرائِزَ تُحِسُّ بهذه المَواضِعِ. فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين".

فيقولُ امرؤُ القيسِ: "أدركْنا الأوَّلينَ مِنَ العَربِ لا يَحفِلونَ بِمَجيءِ هذه الزِّحافاتِ. ولا أدري ما مَنَعَنا عن الوقوعِ فيه. فأمَّا أنا وطَبَقَتي مِنَ الشعراءِ فكُنا نَسْرُدُ البيتَ حتى نأتيَ إلى آخِرِهِ. فإذا انْتَهينا مِنْهُ تَبيَّنَ أمرُه لِلسَّامِعِ".

فيقولُ الشيخُ – ثَبَّتَ اللهُ تعالى الإحسانَ عليه –: "أَخْبِرْني عن قولِكَ

ألا رُبَّ يــومٍ لــك منهُــنَّ صالِــحٍ ولا ســيما يــومٌ بــدارةِ جُــلْجُــلِ

1- (النِّقْنِقُ): الظليم وهو ذكر النعام. (الهَيْق): فِرُخ النعام. (الرَّعْساء): رابيةُ الرمل. (الرَّصيص): المَوضوعُ بعضُه إلى جانب بعض. والمعنى أنه شبَّه حصانه بذَكَرِ النعام الفتي الشديدِ العَدْوِ. وقد أسرع هذا الظليم مع زوجته إلى بيضهما الموضوع في رابية رملية.

2- (أسقي): أدعو لها بالسُّقيا أي أن ينزل المطرُ في أرضها. (ضعيفة): بدل من أختي. أي أختي الضعيفة. (المُزدار): المَزار. (القريض): الشعر. والمعنى أنه يدعو لأخته بالسقيا بعدما بعُدتْ عنه فلا يبقى لها عنده إلا أن يقول لها الشعر.

3- البيت من قصيدته التي مطلعها:

إنَّ الخليط أجــدَّ البينَ فانفرقــا وعُلِّقَ القلبُ مِنْ أسماءَ ما عَلِقا.

وهي في مدح هرم بن سِنان. و(الشَّأْو): الغاية. والمرءان هما والداه. وهما قد سبقا الملوكَ بأفعالهما وبذَّا عامَّةَ الناس.

فوقعتَ في الزحاف في (لك منهن صالحٍ). أم تُنشِدُه على الرواية الأخرى لهذا البيت وهي:

ألا رُبَّ يـومٍ صالِـحٍ لـك مِنْهمـا ولا سـيما يـومٌ بـدارةِ جُلْجُـلِ؟

ثم إنَّ كلمةَ (يوم) التي في الشطرِ الثاني يجوزُ فيها النصبُ والجرُّ والرفعُ. فأما النصبُ فعلى أنَّ (يوماً) ظرفُ زمانٍ متعلقٌ بفعل مُضْمَرٌ تقديره (تَمَتَّعتُ). وأما الرفعُ فعلى أنه خبرُ سيَّ واعتبارِ (ما) في (سيما) كافَّةً. والتقديرُ (هو يومٌ). وأما الجرُّ فعلى اعتبار (ما) في (سيما) زائدة. و(يومٍ) مضاف إليه لسيٍّ.

فيقولُ امرؤُ القيس: "أنا ما قلتُ في الجاهلية إلا بزحافٍ:

لـك مـنهنَّ صـالِـحٍ

وأما المعلِّمون في الإسلام فغَيَّروهُ على حَسَبِ ما يريدونَ. والوجوهُ في (يومٌ) متقارِبَةٌ.

ويقولُ له الشيخُ: "أَخْبِرْني عن التَّسميطِ المَنْسوبِ إليك. أهو صحيحٌ عنك؟".

فيقولُ امرؤُ القيس: "ما هو التَّسميطُ؟".

فيقولُ الشيخُ: "التَّسميطُ نوعٌ مِنَ الشعرِ يُنظَم مُسَمَّطاً. أي مُقَسَّماً على أجزاءٍ قوافيها ليستْ على القافيةِ الأصليةِ".

فيقولُ امرؤُ القيس: "أسمِعْني بعضَ هذا الشعرِ".

فيُنشِدُه الشيخُ ما يرويه بعضُ الناسِ:

يـا صَحْـبَـنـا عَـرِّجـوا تَـقِـفْ بـكُـمْ أُسُـجُ[1]

مَـهْـرِيَّـةٌ دُلُـجُ فـي سَـيْـرِهـا مُـعْـجُ[2]

طـالَـتْ بِـهـا الـرِّحَـلُ

1- (الأُسُج): النوق السريعات.

2- (المَهرية): الإبل المنسوبة إلى (مَهْرة بن حَيدان) من عرب اليمن. وكانت سريعة جداً. (دُلُج): ج دَلوج. وهي السارية في الليل. (المَعَج): من (مَعَجَ الفرسُ): سار مُسرعاً بسهولة.

فَـــعَـــرَّجـــوا كُـــلُّـــهـــمْ والـــهَـــمُّ يَـشـغَـلُـهـمْ
والـعِـيـــسُ تَـحْـمِـلُـهُم لـيـســت تُـعَـلِّـلُـهـمْ
وعـــاجَـــتِ الـــرُّمُـــلُ[1]
يـــا قَـــوْمِ إنَّ الـهـوى إذا أصـــابَ الـفَـــتـى
فـي الـقَـلْـبِ ثـم ارتقى فَـهَـدَّ بَـعـضَ الـقُـوى
فـقـد هـــوى الـرَّجُـــلُ

فيقول (امرؤ القيس): "لا واللهِ ما سَمِعْتُ هذا قَطُّ. وإنها لَطريقةٌ لم أَسْلُكْها. وإنَّ الكذِبَ لكَثيرٌ. وأحسَبُ هذا لبعضِ شعراءِ الإسلامِ. ولقد ظلمني وأساءَ إليَّ مَنْ نَسَبَ إليَّ هذا القولَ. وهل بعد قصيدتي التي أولُها:

ألا انْعِم صَباحاً أيها الطَّلَلُ البالي وهل يَنْعَمَن مَنْ كانَ في العُصُر الخالي[2]

وقولي:

خَليلَيَّ مُرَّا بي على أمِّ جُنْدُبٍ لأقضِـيَ حاجـاتِ الفـؤادِ المُعَذَّبِ

يقالُ لي مِثْلُ ذلك؟ والرجزُ مِنْ أضعفِ الشعرِ. وهذا الوزنُ مِنْ أضعفِ الرجزِ".

فيعجبُ الشيخُ – ملأ اللهُ فؤادَه بالسُّرورِ – لِما سمعَه من (امرئ القيس). ويقولُ له: "كيفَ يُنْشَدُ:

جالَتْ لِتَصْرَعَني فقُلْتُ لها اقْصِري إني امـرؤٌ صَرْعـي عليك حَـرامِ[3]

أتقولُ: (حرامُ) فتَقَعُ في الإقْواءِ، أم تقولُ: (حرامِ) على وزن (حَزامِ) وقَطامِ)

1- (الرُّمُل): الرمال. و(عاجت): التفتت.

2- (أنعِم صباحاً وعِمْ مساءً وعِم ليلاً) وأمثالها، من التحيات في الجاهلية. واستبدلها الإسلام بـ (السلام عليكم). (العُصُر)ج عَصْر. والشاعر يُسلِّم على الأطلال ثم يتساءل: هل يُمكن أن يتمَّ السلامُ على مَنْ كان في العصور الماضية؟

3- (جالت): تحرَّكت بسرعة ونشاط. (اقْصِري): توقفي واهدئي. من فعل (قَصَر): توقف وهدأ. والشاعر يخاطب ناقته بعدما تحركت لتَرمِيَه على الأرض فيقول لها: توقَّفي عن ذلك فإن رَمْيي حرامٌ عليك.

على أنَّ (حرامِ) اسمُ ناقتك؟ وقد كانَ بعضُ عُلَماءِ الدولةِ العباسيةِ يَجعلُك مِمَّنْ لا يقعُ في الإقْواءِ.

فيقولُ (امرؤُ القيس): "لا استنكارَ عندنا في الإقواءِ. أما سمعتَ البيتَ في هذه القصيدةِ:

فـكأنَّ بَـدْراً واصِـلٌ بِكُـتَـيْفَـةٍ وكأنَّـمـا مِـنْ عـاقِـلٍ إرمـامُ"[1]

فيقولُ الشيخُ: "لقد صدقتَ يا أبا هند. لأنَّ (إرماماً) هنا ليس صفةً لعاقلٍ. فيصبحُ مجروراً لأنَّ الصفةَ تتبعُ الموصوفَ وهو (عاقلٍ). ولا يمكنُ تقديرُ (ياءِ المُتكلمِ) في (إرمامِ) لتصبحَ (إرمامي). لأنَّ هذا التقديرَ يُضعِفُ المعنى. بل هو تابعٌ لـ (كأنما الكافَّةِ المَكْفوفَةِ التي لا عملَ لها). فهو مبتدأ مُؤَخَّرٌ. والجارُّ والمجرورُ (من عاقِلٍ) مُتَعلِّقانِ بالخبرِ المُقَدَّمِ. وقد ذهبَ بعضُ الناس إلى تقديرِ إضافةِ ياءِ المتكلمِ في قول الفرزدق:

فمـا تَـدري إذا قَعَـدَتْ عليـهِ أَسَـعْـدُ اللهِ أكـثرُ أم جُـذامِ

فعدُّوا التقديرَ (جُذامي). والمعنى: هل الأكثرُ (سعدُ الله أم جُذامي؟). وذلك التقديرُ بدليل قول جرير:

تِلكُمُ قُريشيَ والأنصارُ أَنْصاري

وكذلك قولُهُ

وإذا غَضِبْـتُ رَمَـتْ ورائي مازِنٌ أولادُ جَـندَلتـي كَخَيْـرِ الجَنْـدَلِ

وبعضُهم يروي:

أولادُ جَـنْدَلَـةٍ كخيـرِ الجنـدلِ"

و(جندلةُ) هذه هي أمُّ (مازن بن مالك) مِنْ نساءِ قريش.

***

1- (بدر وكُتَيْفة وعاقل وإرمام): أسماء جبال كانت معروفة لديهم. والمعنى كأن هذه الجبال متصلة ببعضها البعض.

ويُتابِعُ الشيخُ فيقولُ لامرئ القيس: "يا أبا هند. إنا لَنَروي لك بيتاً ما هو في كلِّ ما رُوِيَ عنك. وأظنُّهُ مَنْحولاً عليك لأنَّ فيه ما لم تَجْرِ عادتُك بِمثْلِه وهو قولُك:

وعمروُ بنُ دَرْماءَ الهُمامُ إذا غدا بِصارِمِهِ يَمشـــي كَمَشـــيَةِ قَسْورا[1]

فيقول امرؤ القيس: "أبْعَدَ اللهُ هذا الكاذبَ. فقد كذبَ وما أَحْكَمَ الكَذِبَ. وإنَّ نسبةَ هذا البيتِ إليَّ أعدُّه إحدى الوَصَماتِ. فإنْ كانَ مَنْ فَعَلَهُ جاهلياً فهو مِنَ الذين صاروا إلى النارِ يَصلَوْنَها. وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الإسلامِ فقد تخبَّطَ في الظلامِ".

وقد أنكرَ (امرؤ القيس) نسبةَ هذا البيتِ إليه لأنه أَنْكَرَ حذفَ التاءِ المَربوطةِ مِنْ (قَسْوَرَة). وقلَّ ما نجدُ مثلَ ذلك في أشعارِ العربِ. فأما قولُ القائلِ:

إنَّ ابنَ حارِثَ إنْ أَشْتَقْ لِرؤيتِه أو أمْتَدِحْـــهُ فـــإنَّ الناسَ قـــد عَلِموا

فليس مِنْ هذا النَّحْوِ. فقد حَذَفَ الشاعرُ الهاءَ مِنْ (حارثة). ومِنَ المَعْروفِ أنَّ هذا جائِزٌ في أسماءِ الأعلامِ. وأما النَّكِراتُ مثلُ (قَسْوَرَة)، فلا يَجوزُ فيها حَذْفُ حَرْفٍ مِنْها.

مع عنترةَ بنِ شَدَّاد

ويَنظُرُ الشيخُ فيرى (عَنترةَ العبسيَّ)[2] مُتَقَلِّباً في السعيرِ. فيقولُ: "ما لَك يا أخا عَبْسٍ؟ كأنك لم تَنْطِقْ بقولِك:

ولقد شَرِبْتُ مِنَ المُدامةِ بَعدَما رَكَدَ الهَواجِرُ بالمَشـــوفِ المُعْلَمِ[3]
بِزُجاجَةٍ صَفْراءَ ذاتِ أسرَّةٍ قُرِنَـــتْ بِأَزْهَرَ في الشِّـــمالِ مُفَدَّمِ[4]

1- (الصارم): السيف. (القَسْوَر): الأسد. وهي خطأ لأنَّ الأصل (قسورة).

2- مرت ترجمته.

3- البيتان من معلقته. و(الهَواجِرُ): ج هاجِرَة وهو وقتُ الظهيرة. (المَشوف): الذي يَشِفُّ عما فيه. (المُعْلَم): المَنْقوش. وقيل: (المشوف المعلم): هو الدينار. والمعنى أنني أشرب الخمر بعد ركود الحر بكأس شفاف مُزخرف.

4- (ذات أسرَّة): لها خطوطٌ للتزيين. (الأزهَر): الإبريق. (مفدَّم): مُغَطَّى بمِصفاة.

وإني إذا ذكرتُ قولَك:

هلْ غـادَرَ الـشعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ[1]

لَأقولُ: إنما قُلْتَ ذلك وديوانُ شعرِ العربِ قَليلٌ مَحفوظٌ. فأمَّا الآنَ فقد كثُرَتِ الطَّرائِدُ لِمَنْ يُريدُ الصَّيْدَ، وعَرَفَ آلافُ الناسِ ما كانوا يَجْهلونَهُ، وجاؤوا بِموضوعاتٍ ما عَرَفَ الجاهِليونَ مِثْلَها. ولو سَمِعْتَ ما قيلَ بعدَ مَبْعثِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الشعرِ، لَعاتبتَ نَفْسَك على ما قُلْتَ، وعَلِمْتَ أنَّ الأمرَ كما قالَ أبو تمامٍ حَبيبُ بنُ أوس[2]:

فلوْ كانَ يَفْنى الشِّعْرُ أَفْناهُ ما قَرَتْ ... حِياضُك مِنْهُ في العُصورِ الذَّواهبِ[3]

ولكنَّه صَـوْبُ العقـولِ إذا انْجَلَتْ ... سَـحائِبُ مِنْـهُ أُعْقِبَـتْ بِسـحائِبِ[4]

فيقولُ عنترةُ: "ما حَبيبُكُم هذا؟".

فيقولُ الشيخُ: "شاعرٌ ظَهَرَ في الإسلامِ".

ويُنْشِدُه شيئاً مِنْ نَظْمِهِ.

فيقولُ عنترةُ: "أمَّا الأَصْلُ فعربيٌّ. وأمَّا الفَرْعُ فنَطَقَ به غبيٌّ. وليس هذا الأسلوبُ مِمَّا تعرِفُهُ قَبائلُ العربِ".

فيقولُ الشيخُ وهو ضاحِكٌ مُستبشِرٌ: "إنَّما يُنْكَرُ عليه استِخْدامُهُ الاستعارةَ. وقد جاءتِ الاستعارةُ في أشْعارِ كثيرٍ مِنَ المُتقدِّمين. إلا أنها لا تَجتَمِعُ كاجْتِماعِها فيما نظمَهُ حبيبُ بنُ أَوْسٍ.

والآنَ أَخْبِرْني يا عَبْسيُّ. ماذا أردتَ بـ (المَشوفِ المُعلَم) الدينارَ أم الكأسَ؟".

1- (المُتَرَدَّم): مكان الرَّدم. والمقصودُ أنَّ الشعراء لم يتركوا موضوعاً إلا طرقوه.

2- مرت ترجمته.

3- (قَرَّتْ): جَمَعَتْ. (الحِياض): ج حَوْض. والمعنى أنه لو كان الشعر يفني لأفناه ما جمعتْه حياضُك منه. أي ما حفظتَه منه. والشاعر يُشبِّه الشعرَ بالماء.

4- (الصَّوْب): المطر. والمعنى أن الشعرَ مَطَرُ العقول. كلما فرغت سحابة من مطرها جاءت سحابةٌ جديدة.

فيقولُ عنترةُ: "أيَّ الوجهين أردتَ فهو حسنٌ".

فيقولُ الشيخُ – جَعَلَ اللهُ سَمْعَهُ مُسْتَوْدَعاً لِكلِّ الصالِحاتِ –: "لقد شقَّ عليَّ دخولُ مِثْلِك إلى الجحيمِ. وكأنَّ أذني مُصْغِيَةٌ إلى مُغَنِّياتِ (الفُسطاطِ) وهي تُغَرِّد بِقولِك:

أَمِنْ سُميَّةَ دَمْعُ العينِ تَذريفُ؟ لـو أنَّ ذا مِنْكِ قبلَ اليومِ مَعْروفُ[1]
تجَلَّلَتْنِـي إذْ أهْـوَى العصـا قِبَلي كأنَّهـا رَشَـأٌ في البيـتِ مَطْروفُ[2]
العَبْـدُ عَـبدُكُـمُ والمـالُ مالُكُـمُ فهل عَذابُكِ عني اليومَ مَصْروفُ؟[3]

وإني لَأَتَمثَّلُ بقولِك:

ولقـد نَزَلْـتِ فـلا تَظُنـي غيـرَه منـي بِمنزِلَـةِ المُحَـبِّ المُكْـرَمِ[4]

وقد وُفِّقْتَ في قولك: (المُحَب) لأنك جِئتَ بِلفظِ اسمِ المفعولِ على ما يَجِبُ أنْ يَكونَ عليه مِنْ فِعْلِ (أَحْبَبْتُ). وعامةُ الشعراءِ يقولون (أَحْبَبْتُ). فإذا صاروا إلى اسمِ المَفْعولِ قالوا (مَحْبوب). قال زهيرُ بنُ مَسعودٍ الضبِّيُّ[5]:

واضِـحَـةُ الـغُـرَّةِ مَـحْـبـوبـةٌ والـفَـرَسُ الـصَّالِـحُ مَـحْـبـوبُ

وقال بعضُ العلماءِ: لم يُسْمَع بـ (مُحَبٍّ) إلا في بيتِ عنترة".

ملاحظة

وإنَّ الذي يقول: (أَحْبَبْتُ) يجبُ عليه أنْ يقولَ (مُحَبٌّ). إلا أنَّ العربَ اختارتْ (أَحَبَّ) في الفعل، و(مَحْبوب) في اسمِ المَفْعولِ".

وكان (سيبويه) يُنْشِدُ البيتَ التالي بِكسرِ همزة (أُحبُّ):

1- (سُمَية): امرأة أبيه. وكان يحبها. فحرَّضت أباه عليه بأنه راودها عن نفسها. فضربه أبوه ضرباً مبرحاً. فأشفقت عليه وحمته وجَلَّلَتْه بغطاء وبكت. فقال هذه الأبيات.

2- (الرشأ): ولد الظبية. (المَطروف): الباكي العين.

3- (العبد) يقصد نفسه. أي أني عبدكم ومالكم. فهل تصرفون عني عذابكم؟

4- البيت من معلقته. و(المُحَب): المحبوب.

5- شاعر جاهلي من بني ضبة. وهو في البيت يصف فرسه. و(الغُرَّةُ): مُقدِّمة الشعر.

إِحُـبُّ لِحُبِّهـا السُّـودانَ حتـى إِحِـبَّ لِـحُـبِّـهـا سـودَ الكـلابِ

وقد جاءَ (حَبَبْتُ) في قولِ أحدِ الشعراءِ:

واللـهِ لـولا تَمْـرُهُ مـا حَبَـبْـتُـهُ ولا كان أدنـى مِنْ عُبَيْدٍ ومُرْشَـقِ[1]

ويُقالُ إنَّ (أبا رجاءٍ العُطارِدِيُّ[2]) قرأَ الآيةَ مِنْ سورةِ (آل عمران): (فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ[3]) بفتحِ الياءِ بدلَ ضَمِّها: (فاتَّبِعوني يَحْبِبْكُمُ اللهُ).

والقاعدةُ في الفعلِ إذا كان مضاعفَ الحرفِ الأخيرِ أنْ تأتيَ عينُه في المضارعِ مَضْمومةً إذا كانَ مُتَعَدِّياً. كقولك: (عَدَدْتُ – أَعُدُّ) وقولك: (رَدَدْتُ – أَرُدُّ).

وإذا كان غيرَ مُتَعَدٍّ فتكون عينُ الفعلِ في المُضارعِ مَكسورةً مثلُ قولِك: (حَلَّ – يَحِلُّ)، وقولِك (جَلَّ – يَجِلُّ).

وضَمُّ عينُ الفعلِ في المضارعِ في غيرِ المُتَعَدِّي أكثرُ مِنَ الكَسْرِ كقولِهم: (شَحَّ – يَشُحُّ ويَشِحُّ) و(شَبَّ الفرسُ – يشُبُّ ويشِبُّ).

عودةٌ إلى السياق

مع عَلْقَمَةَ الفَحْل[4]

وينظرُ الشيخُ فإذا (عَلْقَمَةُ بنُ عَبْدَةَ). فيقولُ له: "أَعْزِزْ عليَّ بِمَكانِكَ. ما أغنى عنك سِمطا لؤلؤِك[5]".

1- (حَببتُه): أحببته. وقد استنكر اللغويون هذا اللفظ. وعَدُّوا قائِلَه غيرَ فصيح.

2- (أبو رجاء العُطاردي): عمران بن تميم. البِصري التابعي الحافظ. الإمام الكبير. شيخ الإسلام. ولد قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة. أسلم قبل فتح مكة وأدرك النبي (ص) ولم يره. وعرض القرآن على ابن عباس. عاش حوالي 120 سنة. توفي عام 107 هـ 725 م.

3- سورة (آل عمران) الآية 31.

4- مرت ترجمته.

5- (السِّمْط): العِقْد المنظوم بخيط. وقد سَمَّتْ قريش قصيدتي علقمة البائية والميمية – وسوف تأتي – سِمْطَي اللؤلؤ.

يَعني قصيدتَه التي على الباءِ:

طَحا بِك قلبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مَشيبُ[1]

والتي على الميمِ:

هل ما عَلِمْتَ وما اسْتُودِعْتَ مَكْتومُ أم حَبْلُها إذ نَأَتْكَ اليومَ مَصْرومُ

ثم يقولُ الشيخُ له: "أُحلِّفُكَ باللهِ الذي يقدِرُ على تَخليصِكَ، ماذا أَردتَ بِقولِك:

فلا تَعْدِلي بَيْني وبين مُغَمَّرٍ سَقَتْكِ رَوايا المُزْنِ حينَ تَصوبُ[2]

وما القلبُ أمْ ما ذِكْرُها رَبَعِيَّةٌ يُخَطُّ لها مِنْ ثَرْمَداءَ قَليبُ[3]

أَعَنَيْتَ بالقليبِ الحَوْضَ الذي يَرِدُهُ الناسُ لِلشُّرْبِ، أم القبرَ؟ واعلَمْ أنَّ لكلٍّ وجهٌ حسنٌ".

فيقولُ علقمة: "إنك تَسْتَضْحِكُ عابِساً. وتُريدُ أنْ تَجنِيَ الثمرَ مِنَ الشَّجَرِ يابساً. فعليك شُغْلَك أيها السَّليمُ".

فيقولُ له الشيخُ: "لو شَفَعَتْ لأحدٍ أبياتٌ صادقةٌ ليسَ فيها ذِكْرُ اللهِ سبحانه، لَشَفَعَتْ لك أبياتُك في وصفِ النساءِ. أعني قولَك:

فإنْ تسأَلوني بالنساءِ فَإنني بَصيرٌ بِأَدْواءِ النِّساءِ طَبيبُ

إذا شابَ رأسُ المَرْءِ أو قَلَّ مالُه فليسَ لَهُ في وُدِّهِنَّ نَصيبُ

يُرِدْنَ ثَراءَ المَرْءِ حيث عَلِمْنَهُ وشَرْخُ الشَّبابِ عِندهُنَّ عجيبُ[4]

1- (طحا): أطاح. والمعنى أن قلبه أطاح به العشق بعدما راح الشبابُ وحانَ وقتُ المَشيب.

2- (المُغَمَّر من الرجال): الغِر. (سقتكِ): دعاءٌ لها بأن يسقيها المطر. (تَصُوبُ): مِنْ (صابَ المطرُ): انصبَّ ونزل.

3- (رَبَعِيَّة): من بني ربيعة. (ثرمداء): اسم قرية. (القليب): البئر أو القبر. والمعنى أن قلبه متعلق بهذه الربعية التي سيحفر لها في ثرمداء بئراً لتشرب منها، أو أنها ستبقى في ثرمداء حتى تموت وتدفن فيها.

4- الأبيات تعبر عن رأي أبي العلاء في النساء. فقد كان كارهاً لهن.

ولو صادفتُ مِنْكَ راحَةً لَسألتُك عن قولِكَ:

وفــي كل حَــيٍّ قــد خبــطَّ بِنِعْمَةٍ فَحُــقَّ لشــاسٍ مِنْ نَــداكَ ذَنــوبُ[1]

أهكذا قُلتَ (خبطَّ) بطاءٍ مُشَددَّةٍ، أم قلتَها (خبطتَ)، فما قالَها عربي سِواكَ بالطَّاءِ المُشَدَّدَةِ؟ فقد يَجوزُ أنْ يقولَ الشاعرُ كلمةً، ويغيِّرها الرواةُ عن حالها؟.

وإنَّ في نفسي حاجةً مِنْ قولِك:

كأسُ عَزيــزٍ مِــنَ الأَعْنــابِ عَتَّقها لِبعْــضِ أَرْبابِهــا حانِيَّــةٌ حُــومُ[2]

فقد اختلفَ الناسُ في (حُوم): بعضهم قالَ أرادَ الشاعرُ (حُمَّاً) أي سُوداً. فأبدلَ إحدى الميميْنِ واواً. وقيل: (حَوْمٌ) أي كَثيرٌ. وبعضهم قال (حُومٌ) وهي الخمرةُ التي يُطافُ بها على الشَّاربين.

وكذلك قولُك:

يَهْذي بها أَكْلَفُ الخدَّينِ مُخْتَبَرٌ مِنَ الجِمــالِ كثيرُ اللحــمِ عَيْثومُ[3]

فقد رُوِيَ البيتُ بالذالِ المُعْجَمَةِ (يَهذي)، وبالدالِ المُهْمَلَةِ (يَهدي).

وقيلَ إنَّ (مُخْتَبَر) مِنَ الاخْتِبارِ. وهو اخْتِبارُ الناقةِ إنْ كانت حامِلاً. وقيلَ هو مِنَ (الخَبير). أي الزُّبْدَةُ. وقيلَ هو (اللحمُ). وقيل هو (الوَبَرُ)".

فلا يلتفت إليه علقمة.

1- هذه القصيدة قالها علقمة في مدح (الحارث بن شَمْرٍ الغساني) متشفِّعاً لأخيه (شاس) الذي كان الغساني قد أسره. فلما أنشده القصيدة أطلق سراح شاس. و(الذَنوب): الدلو العظيمة. ويقصد بها عطاياه وكرمه. والمعنى أنَّ لكل حي عندك نعمة. وعلى هذا فإنَّ لشاسٍ عندك عطاء.

2- (الحانية): الحانة. (حُوم): ج حائم. والمعنى أنَّ صاحبَ الحانة الذي يحوم حول الشاربين، عتَّقَ خمرته لبعض مَنْ يُجيد شربَ الخمر.

3- (أكلف الخدين): من الكَلَف. وهو النمش. (العَيثوم): الضبع. للذكر والأنثى.

مع عمرو بن كلثوم[1]

ويقولُ الشيخُ: "ليتَ شِعْري. ما فعلَ (عمروُ بنُ كُلثوم)؟".

فيُقالُ: "ها هو ذا مِنْ تحتِكَ. إنْ شِئتَ أنْ تُحاوِرَه فحاوِرْهُ".

فيقولُ له الشيخُ: "كيفَ أنت أيها المُصْطَبِحُ بِصَحْنِ الغانِيَةِ[2]، والمُغْتَبِقُ[3] مِنَ الدنيا الفانِيَةِ؟ لَوَدِدْتُ أنَّك لم تُغَيِّرْ نَسَقَ القافيةِ في مُعَلَّقَتِكَ حين قلتَ:

كأنَّ مُتونَهُنَّ مُتونُ غُدْرٍ تُصَفِّقُها الرياحُ إذا جَرَيْنا".[4]

فيقولُ عمروٌ: "إنَّك لَقريرُ العَيْنِ لا تَشْعُرُ بِما نحن فيه. فاشغَلْ نَفْسَك بِتَمْجيدِ اللهِ واترُكْ ما ذهبَ فإنَّه لا يَعودُ. وأمَّا ما ذَكَرْتَه مِنْ تَغييرِ نَسَقِ القافيةِ فإنَّ الإِخْوَةَ يكونونَ ثلاثةً أو أربعةً. ويكونُ فيهم الأَعْرجُ أو الأعورُ فلا يُعابونَ بذلك. فكيفَ إذا بَلغوا المئةَ في العَددِ".

فيقولُ الشيخُ: "يَعِزُّ عليَّ أنك تُجبَرُ على شُربِ الحَميمِ، وأنَّك أُخِذْتَ بعَملِك الذَّميمِ مِنْ بعد ما كانت تُشْتَرى لك الخمرةُ مِنْ حَوانيتِ الخمَّارين".

ويتابعُ الشيخُ حديثَه مع ابنِ كُلثوم فيقولُ له: "لقد انْشَغَلَ النُّحاةُ والرواةُ بِقولِك (سَخينا) مِنَ البيتِ الثاني في مُعَلقتك. وهو:

1- (عمرو بن كلثوم) التغلبي. أبوه كلثوم بن مالك. وأمه (ليلى) بنت المهلهِل أخت كُليب. وكانت عزيزةَ النفس كما كان ابنها سيد قومه. وحكايته مع عمرو بن هند ملك المناذرة مشهورة. فقد قال ابنُ هند يوماً لندمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: (نعم. ليلى أم عمرو بن كلثوم). فطلب ابنُ هند مِنَ ابن كلثوم أن يزوره. وجلست هند مع ليلى إلى الطعام. وطلبت هند من ليلى أن تُناولها طبقاً فرفضت. فلما كررت الطلب صاحت (ليلى): واذُلاَّه. فسمعها ابنها فتناول سيفاً معلقاً لابن هند وضرب به رأسه. وكان التغالبة في الفناء. وقال عمرو بن كلثوم بعدها قصيدته المشهورة:

ألا هُبِّي بصَحْنِك فاصْبَحينا ولا تُبقي خُمورَ الأنْدرينا

وهي من المعلقات. وقد توفي عام 600 م.

2- يشير المعري إلى مطلع المعلقة. (ألا هبي..)

3- (المُصطَبِحُ): مَنْ يشربُ الخمرَ في الصباح. والمُغْتَبِق): مَنْ يشربُ الخمر في المساء.

4- الشاعر يصف الدروع. و(الغُدْر): ج غدير. وهو يشبِّه سطوحَ الدروعِ بالماء حين تحركه الرياح فيصبح شبيهاً بالزرد.

مُشَعْشَعَةً كأن الحُصَّ فيها إذا ما الماءُ خالطها سَخينا[1]

فكان لهم في تفسيرِها قولان:

أحدهُما أنَّه على وزنِ (فَعِلْنا) مِنَ السَّخاءِ. والنون هي (نا) المُتكلِّمين وتكونُ في محلِّ رفعِ فاعلٍ.

والآخرُ أنَّه مِنَ الماء السَّخين أي (السَّاخِنِ) لأنَّ قريَتَيْ (الأندرين) و(قاصِرين) كانتا مَوجودتين في زمَنِ الرومِ. وكان أهلُهما يَشْرَبونَ الخمرَ مَمْزوجاً بالماءِ السَّاخِنِ في الصَّيفِ والشِّتاءِ.

أما قولُك في المعلقة:

فما وَجَدَتْ كَوَجْدي أمُّ سَقْبٍ أَضَلَّتْهُ فرَجَّعَتِ الحَنينا[2]

ولا شَمْطاءُ لم يَتْرُكْ شَقاها لها مِنْ تِسْعَةٍ إلا جَنينا[3]

فقد سُئِلَ عنه بعضُ الأدباءِ في (مدينةِ السلامِ) وقالوا له: (هل يَجوزُ نَصْبُ شَمْطاءَ)؟ فلم يُجِبْ بشيء. ويَجوزُ النَّصْبُ عِندي على أنَّه مَفعولٌ به لِفعلٍ مَحذوفٍ يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وتقديرُه (لا أذْكُرُ شَمْطاءَ). أو (لا تنسَ شَمْطاءَ) أي أنَّ حَنينها شديدٌ. فالفعلُ المحذوفُ مشهورٌ فاستغنى الشاعرُ عن ذكرِه لاشْتِهارِ صاحبِه. كقولك: (إنَّ فلاناً جَوادٌ ولا حاتِماً). والتقديرُ: (ولا أذكر حاتماً). فاستغنيتَ عنْ ذِكْرِ الفعلِ لأنَّه مَشْهورٌ بِكَرَمِهِ.

1- (مُشَعْشَعَةً): مَخلوطةً بالماء. و(الحُص): نبات الورس الأصفر اللون. والمعنى أن الخمرة تصبح صفراء اللون عندما تُمزج بالماء. و(الحُص): اسم كأن. و(فيها) الجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف.

2- (السَّقب): ولد الناقة الذكر. فهو بِمَقام الصبي. و(أم سقب): الناقة ذات الوليد الذكر. (رجَّعت الصوتَ): رددته مرة بعد مرة. ويكون غالباً في الحزن. والمعنى أن حُزن هذه الناقة التي ضيَّعت ولدَها ليس مثل حُزني لأنَّ حزني أكبر.

3- (الشمطاء): التي ابيضَّ شعرها. (الجنين): المدفون في القبر. والمعنى أنَّ امرأة فقدت أولادها التسعة ودفنتهم في القبور لا يكون حزنها على فراقهم أكبر من حزني على فراق محبوبتي.

مع الحارثِ اليَشْكُري

وينظر الشيخُ فإذا (الحارثُ بنُ حِلِّزةَ اليَشْكُرِيُّ)[1] فيقولُ له: "لقد أَتْعَبْتَ الرُّواةَ في تفسيرِ قولِك في المُعَلَّقَةِ:

زَعَمــوا أنَّ كُلَّ مَــنْ ضَــرَبَ العَيْــ ـرَ مُــوالٍ لَــنــا وأنَّــا الــوَلاءُ[2]

فقد قيل إن (العَيْرَ) هو الحمارُ. وقيلَ هو (الوتدُ). وما أَحْسَبُك أردت بـ (العَيْر) إلا الحِمارَ.

ولقد أسأتَ إلى قصيدتِكَ هذه بِالإقواءِ في هذا البيتِ لأنَّ الرَّوِيَّ أنْ تَكونَ الهمزةُ مكسورةً. ويَجوزُ أنْ تَكونَ لُغَتُكَ أنْ تقِفَ على آخرِ البيتِ ساكِناً. وإذا فعلتَ ذلك صارتْ شَبيهةً بِقَوْلِ الراجِزِ:

دارٌ لِــظَــمْــيــا وأيــنَ ظَــمْــيــا أهَــلَكَــتْ أم هي بَــيْــنَ الأَحْــيــا؟

وبعضُ الناس يُنْشِدُ قولَك:

فَــعِــشَــنْ بِــخَــيْــرٍ لا يَــضِر كَ النُّــوكُ مــا أُعْطِيــتَ جَــدَّا[3]

فيَجْمَعُ بين تَحريكِ الشِّين وحَذْفِ الياءِ مِنْ (عاش يعيش). والأصل (فَعِشْ). وهذا قَليلٌ رديءٌ. ومِنْهُ قولُ الآخَرُ:

متى تَشَئي يا أُمَّ عُثْمانَ تَصْرِمي وأُوذِنْكِ إيــذانَ الخَليــطِ المُزايِلِ[4]

1- من شعراء المعلقات. توفي عام 580 م.

2- البيت من معلقته التي أولها:

آذَنَــتْنــا بِبَيْنِها أســماءُ رُبَّ ثاوٍ يَمَلُّ منه الثَّواءُ

و(العَيْر): قيل هو الوتد. وقيل الحمار. ويقال لسيد القوم (العَير). وقيل إنه أراد بالعَير (كُلَيباً). ويختار أبو العلاء هنا معنى (الحمار). و(أنَّا الولاء): أي نحن ولاتُهم على هذا. ومعنى البيت أنهم زعموا أنَّ كل بدوي في الصحراء يضرب أوتاد الخيمة أو يضرب حميره هو مُوالٍ لنا. فإذا كان تفسير معنى البيت ما ذكرناه – ولا دليلَ على غيره – فإنَّا نرى أن تفسير (العَيْر) بالوتد أصحُّ لأنه يشمل سكان البادية جميعاً.

3- (النُّوك): الحُمْق. (الجَدُّ): الحظُّ. والمعنى: عِشْ بخير فلا يَضِرْك أنَّك أحمقُ ما دمتَ قد أُعْطِيتَ الحظَّ.

4- (تَصْرِمي): مِنْ صَرَمَ الحبلَ أو الوُدَّ: قطعه. (المُزايِلُ): المُفارق. والمعنى: تستطيعين أن تقطعي حبل الوصال بيننا يا أم عثمان. وعندها أوذِنُك بالفراق كإيذان الصديق المفارق.

والواجبُ أنْ يَكونَ الكلامُ (متى تشائي).

ولقد أحسنتَ في قولِك:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأَغبارِها إنَّك لا تدْري مَنِ النَّاتِجُ[1]

وقد كانوا في الجاهلية يَكْسَعونَ – أي يَربِطونَ – ناقةَ المَيِّتِ على قبره. ويَزْعُمونَ أنَّه إذا نَهَضَ يومَ الحَشْرِ وَجَدَها قد بُعِثَت له فيركَبُها. وهيهاتَ. فقد حُشِرَ الناسُ عُراةً حُفاةً غيرَ مَختونين".

وتلك الناقةُ المَتْروكَةُ عندَ قَبرِ المّيِّتِ هي (البَلِيَّةُ) التي ذَكَرْتَها في قولِك:

أتلهَّى بها الهواجِرَ إذ كلُّ ابنِ هَمٍّ بَلِيَّةٍ عَمْياءُ"[2]

مع طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ[3]

ويَرى طَرَفَةَ بنَ العبدِ. فيعمِدُ لِسؤالِه فيقولُ له: "يا ابنَ أخي يا طَرَفة. خفَّفَ اللهُ عنك. أتذكُرُ قَوْلَكَ:

كَريمٌ يُرَوِّي نَفْسَه في حَياتِهِ سَتَعْلَمُ إنْ مُتْنا غَداً أَيُّنا الصَّدي[4]

أرى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخيلٍ بِمالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ في البَطالةِ مُفْسِدِ[5]

1- (كَسَع الناقةَ بغُبْرِها): ترك في ضرعها بقية لبن ليصبحَ غزيراً ولكي يتحسن نسلها. (الشَّوْل): الناقة التي حُلِب لبنها فلم يبق منه إلا قليل. (الأغبار): ج غُبْر. وهو بقية اللبن. (الناتِجُ): مَنْ يتولى نِتاج الناقة. والمعنى: احْلِبْ ناقتَك جيداً ولا تَتْرُكْ في ضرعها بقيةً لأنك لا تدري ماذا تخبِّئ لك الأيام ومن سيتولى نتاج ناقتك.

2- (البلِيَّة): الناقة التي يموت صاحبها فيربطونها عند قبره فلا يُطعِمونها ولا يَسقونها حتى تموت جوعاً وعطشاً. لأنهم كانوا يقولون إنه يُحشَرُ معها. فيركبها يوم حشره. وإذا لم تُربَط له ناقة فيُبعَثُ ماشياً.

3- (طَرَفة بن العبد): اسمه عمرو. و(طرفة) لقب غلب عليه. قبيلته بكر بن وائل القيسي. كان سِكِّيراً لاهياً. هجا ملكَ الحيرة. فأمَرَ عامِلَه على البحرين بقتله فقتله وهو في السادسة والعشرين من العمر. وكان ذلك عام 550 م. وهو من أصحاب المعلقات.

4- (الصَّدي): العطشان. يَصفُ نفسَه بأنه كريم يَرْوي نفسَه في الحياة. فلن تعرفَ من هو العطشان بعد الموت.

5- (النحَّام): البخيل الذي يكثرُ سُعالُه إذا طالبتَه بشيء. (الغَوِيُّ): صاحب الغِواية.

وقولَك:

متــى تَأْتِني أَصْبَحْك كأســاً رَوِيَّةً وإنْ كُنْتَ عنها غائِباً فاغْنَ وازْدَدِ[1]

فَكَيْفَ صَبوحُكَ وغَبوقُك؟ إنِّي لَأحسَبُهما حَميماً، لا يَفْتأُ مَنْ شَرِبَهما ذَميماً.

أما قولُك:

وأصْفَــرَ مَضْبوحٍ نَظَــرْتُ حَويرَه على النارِ واسْتَوْدَعْتُه كَفَّ مُجْمَدِ[2]

فقد تنازعَ فيه الرواةُ. فنَسبَهُ قومٌ إليك. ونسبَهُ آخَرونَ إلى (عدِيِّ بنِ زيدٍ). وأرى أنَّه بكلامِك أشبهُ.

وشَدَّ ما اخْتَلَفَ النُّحاةُ في قولك:

ألا أيُّهذا الزَّاجري أَحْضُرَ الوغى وأنْ أَشْهَدَ اللَّذاتِ هلْ أنت مُخْلِدي؟

وأما (سيبويه)، فيكْرَهُ نَصْبَ (أَحضُرَ) لأنَّ (أنْ) الناصبة لا تُضْمَرُ قبلَ الفِعْلِ. وكانَ الكوفيون يَنْصِبون (أَحْضُرَ) بــ (أنْ) الناصبة المُقَدَّرة. ويُقَوِّي ذلك قولُك (وأنْ أَشْهَدَ اللذاتِ) فجئتَ بــ (أنْ).

وتقديرُ (أنْ) الناصِبةَ المحذوفةَ، يُشْبِهُ حَذْفَ (الباءِ) في خَبَرِ (ليس) في قولِ الشاعرِ:

مشائيمُ ليسوا مُصْلِحين قبيلةً ولا ناعِــبٍ إلاّ بِبَيْــنٍ غُرابُهــا[3]

1- (أَصْبَحَه): سقاه الخمرة في الصباح. و(غَنِي في المكان): أقام. والمعنى أنه متى جئتني سقيتُك الخمر. وإذا كنت غائباً فتعال وأقِم عندي وازدَدْ منها.

2- (الأصفر): القدح. (المَضْبوح): من (ضَبَحْتُ الشيءَ): قرَّبته مِنَ النار. (نظرت): انتظرت. (حَويرَه): أن يصبح أبيضَ مثل (الحوَّار).. (المُجْمَد): الشحيح. والمعنى أنني أَقَرِّبَ القدحَ الأصفر إلى النار منتظراً حتى يبيضَّ. ثم أضعه في كفٍّ شحيح. ويذكر الرواة أنه كان من عادتهم أن يُوقِدوا النارَ في الليل وينحرون الجزور بانتظار الضيوف حتى لو كان الضيف شحيحاً.

3- (ناعبٍ): معطوفة على (مصلحين). وهي الشاهد على الحرف المقدَّر المحذوف. والتقدير (ليسوا بناعبٍ). ويسمى هذا: العطف على التوهم. وقد أنشد سيبويه البيت بروايتين: بالنصب (ناعِباً) عطفاً على مصلحين، وبالجر على توهم الباء في خبر ليس. ورفض المبرد إلا النصب لأن حرف الجر لا يُضْمَر. و(نعب الغراب) نَعْباً ونُعاباً: صاح وصوَّت. ومعنى البيت أن هؤلاء القوم أصحاب شؤم. فلا يُصلحون بين القبائل إذا اختصمت. ولا يصيح غرابهم إلا بالفراق.

وقد حكى (المازنيُّ)[1] عن (عليِّ بن قُطْرُبٍ)[2] البِصريِّ أنَّه سَمِعَ أباه قُطرُباً يَنصِبُ (أحضُرَ). أي أنَّ بعضَ البِصريين كانوا ينصُبون (أحضُرَ) مثلَ الكوفيين.

ولقد جئتَ بأعجوبةٍ في قولك:

لـو كـان فـي أمـلاكِـنا مَـلِـكٌ يَعْصِـرُ فينـا كالـذي تَعْصِـرْ[3]
لاجْتَبْـتُ صَحْنَـي العـراقِ علـى حَـرْفِ أَمُـونٍ دَفُّـهـا أَزْوَرْ[4]
مَـتَّـعَـنـي يـومَ الـرَّحيـلِ بهـا فَـرْعٌ تَـنَـقَّـاهُ القِـداحُ يَـسَـرْ[5]

وذلك بأنَّك جِئْتَ بالرويِّ ساكِناً. ولكنك سَلَكتَ مَسالِك العربِ. فجِئتَ بطريقة (المُرَقَّش)[6] في تسكينِ الرَّوِيِّ في قولِه:

هـل بالديـارِ أنْ تُجيـبَ صَمَـمْ لـو كـانَ حـيَّـاً نـاطِـقـاً كَـلَّـمْ

وقولِ (الأعشى):

أَقْصِـرْ فـكُلُّ طالـبٍ سَـيَـمَـلْ إذْ لـم يَكُـنْ علـى الحَبيـبِ عَـوَلْ[7]

ولقد كَثُرَتْ في أمْرِكَ أقاويلُ الناسِ. فمِنْهُمْ مَنْ يَزعُمُ أنك قُتِلْتَ في مُلْك (النعمانِ بنِ المُنذر بنِ ماءِ السَّماءِ[8]) مَلِكِ الحيرة.

1- مرت ترجمته.

2- (قُطْرُب): أبو علي محمد بن المستنير. من نحاة البصرة ومن تلاميذ سيبويه. سماه أستاذه (قُطرُب) وهي دُوَيبية تدبُّ لأنه كان يجده عند السحر على بابه. فكان يقول له: (إنما أنت قُطرُب ليل).

3- (الأمْلاك): ج مَلِك.

4- (اجْتاب): جاب وسار. (الأَمُون): الناقة. (الدَّفُّ): نوع من سير الناقة. (الأزْوَر): السريع. والمعنى أنه لو كان لدينا مَلِكٌ يعصر لنا الخمرة كما تعصرها لجُبت العراقَ على ظهر ناقة سريعة.

5- (اليَسَر): الموسِر.

6- (المُرَقَّش الأكبر): عمرو بن سعد من بكر بن وائل. وسمي المرقش لقوله:

الـدارُ قَفْرٌ والرسـومُ كما رقَّشَ في ظهر الأديم قلمْ

وهو شاعر جاهلي من عشاق العرب المشهورين. أحبَّ أسماء بنت عوف بن مالك. توفي عام 552 م.

7- (أقْصِرْ): قَلِّلْ من إلحاحك. (العَوَل): التعويل. والمعنى تمهَّلْ في طلبك فإن كل مَنْ يطلب المودة سيمَلُّ إذا لم يكن يُعوِّلُ على مَحبوبته.

8- مرت ترجمته.

وقال قومٌ: بل الذي فَعَلَ بك ما فعلَ (عمروُ بنُ هند بن المنذر بنِ ماءِ السماءِ[1]).

ولو لم يَكُنْ لك أَثَرٌ في الدارِ العاجِلةِ إلا مُعلَّقتك التي على الدَّالِ، لَكُنتَ قد أبقيتَ أثراً حَسَناً".

فيقولُ طَرَفةُ: "وَدِدْتُ أنِّي لم أَنْطِقْ مِصْراعاً وعَدِمتُ في الدارِ الزائلةِ مالاً وخِصباً، ودَخَلتُ الجنةَ مع الرُّعاعِ والحُثالةِ ولم يُعْمَدْ لِوَضْعِ الرَّسَنِ في عُنُقي وإرغامي بِالعَذابِ في الجَحيمِ. وكيفَ لي أنْ أَهْدَأَ في الجحيمِ وأركَنَ إلى ما أنا فيه بعضَ الرُّكونِ وقد جاءَ في القرآنِ: (وأمَّا القاسِطونَ فكانوا لِجهنَّمَ حَطَبا[2]).

مع أوس بن حَجَر[3]

ويَلفِتُ الشيخ عُنَقَه فإذا هو بــ (أوسِ بنِ حَجَرٍ). فيقولُ له: "يا أوسُ. إنَّ أَصْحابَكَ لا يُجيبونَ السَّائِلَ. فهل لي عندكَ مِنْ جوابٍ؟ فإنِّي أُريدُ أنْ أسألَك عن هذا البيتِ:

وقارفَتْ وهي لم تَجْرَبْ وباعَ لها مِنَ الفَصافِصِ بالنُّمِّيِّ سِفْسيرُ[4]

فإنَّ هذا البيتَ في قصيدتِك التي أولُها:

هل عاجِلٍ مِنْ مَتاعِ الحيِّ مَنْظورُ أم بَيْتُ دَوْمَةَ بعدَ الوَصْلِ مَهجورُ

ويُروى في قصيدةِ النابغةِ الذبياني التي أولُها:

وَدِّعْ أُمامَةَ والتَّوديعُ تَعْذيرُ وما وَداعُكَ مَنْ قَفَّتْ بهِ العِيرُ[5]

1- (عمرو بن هند بن المنذر بن ماء السماء): ملك الحيرة قبل النعمان بن المنذر. ويُنْسَبُ إلى أمه (هند بنت الحارث بن عمرو). وقد قتله (عمرو بن كلثوم) في الحادثة المشهورة. والمعروف أنه هو الذي أمر بقتل طرفة والمُتَلَمِّس لأنهما هَجَواه.

2- سورة النور الآية 15. و(القاسِطون): من قَسَطَ: عدل عن الحق.

3- مرت ترجمته.

4- (قارفَتْ): خالَطَتِ الدوابَّ المصابةَ بالجَرَبِ. (الفَصافِص): نبات تأكله الحيوانات. (النُّميُّ): المال. (السِّفسير): السائق الحاذق. والمعنى أنَّ فرسه خالطت الحيوانات الجربى فلم يُصِبْها الجربُ لأنَّ سائسها الحاذِقَ يشتري لها النبات الجيد ليطعمها.

5- (قَفَّت به): ذهبت به. (التعذير): هو أقصى ما يقوم به المُحِبُّ. والمعنى أنه يطلب مِنْ نفسه أن يودع أمامة والتوديع هو أقصى ما يمكن أن تقوم به. وما قيمة وداعك لِمَنْ سافرت به الإبل؟

وكذلك البيتُ الذي قَبلَه:

قَدْ عُرِّيَت نِصْفَ حَوْلٍ أَشْهُراً جُدُدا تَسْفي على رَحْلِها في الحِيرَةِ المُورُ[1]

وكذلك قولُه:

إنَّ الرَّحيلَ إلى قومٍ وإنْ بَعُدوا أَمْسَوْا ومِنْ دونِهِمْ ثَهلانُ فالنيرُ[2]

فلماذا الإقواءُ عندك وعند النابغةِ وكلاكما مَعْدودٌ في الفُحولِ؟ وعلى أيِّ شيءٍ يُحمَلُ ذلك؟

ولم تزلْ تُعْجِبُني قصيدتُك (اللاميةُ) التي ذَكَرتَ فيها (الجُرْجَة) وهي الخريطةُ مِنَ الجلدِ. فقلتَ لمَّا وَصَفْتَ القَوْسَ:

فَجِئْتُ بِبَيْعي مُولِياً لا أزيدُه عليهِ بِها حتى يَؤوبَ المُنَخَّلُ[3]

ثلاثَةُ أَبْرادٍ جِيادٍ وجُرْجَةٍ وأَدْكَنُ مِنْ أَرْيِ الدَّبورِ مُعَسَّلُ[4]

فيقولُ أوسٌ: "قد بَلَغَني أنَّ (نابغةَ بني ذبيان) في الجنةِ. فاسألْهُ عمَّا بدا لكَ فلعلَّه يُخبِرُكَ. فإنَّه أَجْدَرُ بأنْ يَعِيَ هذه الأشياءَ. أمَّا أنا فقد ذَهَلْتُ: نارٌ تُوقَدُ وبَنانٌ يُعْقَدُ. إذا غَلَبَ عليَّ الظمأُ رُفِعَ لي شيءٌ كالنَّهرِ. فإذا اغْتَرَفْتُ مِنْهُ لِأشربَ، وَجَدْتُهُ سَعيراً مُضْطَرِماً. ولقد دخَلَ الجنةَ مَنْ هو شَرٌّ مِنِّي. ولكنَّ المَغْفِرةَ أرْزاقٌ كأنَّها المالُ في الدارِ العاجِلةِ".

فيقولُ الشيخُ – صار وَلِيُّه مِنَ المَتْبوعينَ وشانئُه مِنَ الخائفين –: "إنَّما أردتُ

1- (الحَوْل): العام. (يَسفي): يتناثر ويتفرق. (المُور): التراب. والمعنى أنَّ آثارهم ظلت الرياح تغَطِّيها بالتراب نصف عام شهراً بعد شهر.

2- (ثهلان والنير): جبلان. والمعنى أنَّ الرحيل إلى قوم يصبح صعباً بعد أنْ صار بيننا وبينهم جبلا ثهلان والنير.

3- (المُنَخَّل): هو المُنَخَّلُ اليَشْكُرِي الذي ضاع أثره. و(حتى يعود المنخل): مثلٌ يُضرب للدلالة على استحالة حدوث الشيء. والمعنى أنه عرض شراء هذه القوس بسعر لا يزيده حتى يعود المنخل. وعَرَضَ السعرَ في البيت التالي وهو: (ثلاثة أبراد جيادٍ...).

4- (الأدكن): الزق. (الأري): العسل. (الدبور): النحل. أي أن السعر هو ثلاثة أجياد قويةٍ وخُرجاً وزِقٌّ مِنْ عسلِ النحل.

أنْ آخذَ عنك ألفاظاً أُتْحِفُ بِها أهلَ الجنةِ فأقولُ: قال لي أوسُ بنُ حَجَر، وأخبرني أبو شُرَيْحٍ.

وكان في عزمي أنْ أسألك عمَّا حَكاهُ (سيبويه) في قولِك:

تُواهِـقُ رِجْلاهـا يـداه ورأسُـهُ لهـا قَتَبٌ خَلْـفَ الحَقيبَـةِ رادِفُ[1]

فقد رفع سيبويه (رِجْلاها ويداه). وأنا لا أختارُ ذلك ولا أرى في ذلك ضَرورةً. لأنك لو قلتَ (تُواهِقُ رِجْلاها يَديه) لما اختلَّ الوزن. ولعل سيبويه أرادَ المشابهَةَ بين (رِجلاها) وبين (يداه). ولعلك أنت قد طلبتَ المشابهةَ إنْ صحَّتْ هذه الروايةُ عنك. ولو قلتَ (تواهق رِجليها يداه) لكان ذلك مقبولاً. أما هذا القولُ: (تواهق رجلاها يداه) فليس مَقبولاً.

وإنِّي لَكارِهٌ قولَكَ:

والخيلُ خارِجَةٌ مِنَ القَسطالِ

والقَسطالُ هو (الغبار). وإنَّما كَرِهْتُ هذا القولَ لأنك أتيتَ بوزنِ (فَعلال) الذي لا يكونُ إلا في الفِعْلِ المُضاعَفِ لكنْ على وزنِ (فِعلال) كفعلِ (زَلْزَلَ) التي نأتي منه بـ (زِلزال). ولم تُعْرَف كلمةٌ على وزن (فَعلال) إلا قولهم: (ناقةٌ بها خَزعال). أي ظَلَعٌ.

مع أبي كبير الهذلي[2]

ويرى الشيخُ رجلاً في النارِ لا يُمَيِّزُه مِنْ غيرِه. فيقولُ له: "مَنْ أنتَ أيها الشقيُّ؟". فيقولُ الرجلُ: "أنا أبو كَبيرٍ الهُذَليُّ عامرُ بنُ الحُلَيْس".

1- الشاعر يصف مطاردة أنثى حمار الوحش. (المُواهَقة): أنْ تسير مثل سير صاحبك. (الحقيبة): مؤخرة الرحل. (القَتَبُ): الرَّحْلُ. (الرادِفُ): مَنْ تُردِفه وراءك. والمعنى أنَّ رِجْلَيْ الأتان الوحشية ويَدَيْ المطاردِ لها متوافقان في السير. ورأسُهُ مُنْحَنٍ على الرَّحْلِ فكأنه رَحْلٌ يقع وراء مؤخِّرةِ الرَّحْلِ وهو مُرْدَف وراء الحقيبة.

2- (أبو كبير الهذلي): هو عامر بن الحُلَيْس. شاعر جاهلي حماسي. تزوج أم الشاعر تأبط شراً وهي أكبر منه. قيل إنه أدرك الإسلام وأسلم. له أربع قصائد مطالعها واحدة. وهو شيء لم تعرفه العرب. وليس له إلا هذه القصائد الأربع. توفي عام 10 هـ 631 م.

فيقولُ له الشيخُ: "إنك مِنْ أعْلامِ هُذَيْلٍ. لكني لم أُوثِرْ قولَك:

أزُهَيْرُ[1] هلْ عن شَيْبَةٍ مِنْ مَعْدَلِ أم لا سبيلَ إلى الشَّبابِ الأولِ

وقلتَ في الأخرى:

أَزهيرُ هل عن شيبةٍ مِنْ مَصْرَفِ أم لا خلودَ لِعاجِزٍ مُتَكَلِّفِ

وقلتَ في الثالثة:

أزهيرُ هل عن شيبةٍ مِنْ مَعْكَمِ أم لا خُلودَ لِبازِلٍ مُتَكَرِّمِ[2]

و(المَعْكَمُ) هو المَحْبَسُ. فهذا يدُلُّ على ضيقِ مَساحتِكَ وقُدْرتِكَ في القَريضِ. فهلاَّ ابتدأتَ كلَّ قصيدةٍ بِفنٍّ؟ و(الأصمعيُّ)[3] لم يَرْوِ لك إلا هذه القصائدَ الثلاثَ. وقد حُكِيَ أنَّه يَرْوي عنك (الرائيةَ) التي أولُها:

أزهير هل عن شيبةٍ مِنْ مَقْصَرِ[4] أم لا سبيلَ إلى الشبابِ المُدْبِرِ

وقد أحسنتَ بقولك:

ولقد وَرَدْتُ الماءَ لم يَشْرَبْ به بين الشتاءِ إلى شُهورِ الصَّيِّفِ[5]
إلا عَواسِلُ كالمِراطِ مُعيدَةً بالليلِ مَوْرِدَ أَيِّمٍ مُتَغَضِّفِ[6]
زَقِبٍ يَظَلُّ الذِّئْبُ يَتْبَعُ ظِلَّه فيه فيسْتَنُّ اسْتِنانَ الأخْلَفِ[7]

1- (زُهَيْرُ): أي فتاته زُهَيْرَة.

2- (مَعْكَم): ضُبِطت في ديوان الهذليين (مَعْكِم) بمعنى مَرجِع أو رجوع. (البازِلُ): الجمل الكبير الذي نبتت أسنانه. ويشبِّه الشاعر نفسه بهذا الجمل.

3- مرت ترجمته.

4- (مَقْصَر): من فعل قَصُرَ. أي هل أظل قصيراً حتى لا أشيب؟

5- (الصَّيِّف): مطر الصيف.

6- (العَواسِل): ج عَوْسَل. وهو الذئب. (الأمْرَطُ): المَنتوفُ الشعر. والسهم الأمرط: الذي لا ريش له. (الأيِّم): مَنْ فقد زوجته. (المتغضِّف): المتكسِّر. من (تغَضَّف): تكسَّر وتَثَنَّى. والمعنى أنه شرب مِنَ الماء الذي لم يشربْ منه إلا الذئابُ المنتوفةُ الشَّعرِ كأنها السهام التي لا ريش لها. وقد وردت هذه الذئابُ الماءَ وهي تتكسر كأنها أرملُ ضعيفُ السَّيْر.

7- (الزَّقِب): الضَّيِّق. (الاستِنان): العَدْو والجري. (الأخْلَف): المُعْوَجُّ. أي أنَّ الذئب يمشي في هذا الوادي بشكل معوج لِضيق المكان.

فَصَـدَدْتُ عنـه ظامِئـاً وتركتُـه يَهتَـزُّ غَلْفَقُـهُ كأنْ لـم يُكْشَـفِ[1]

فيقولُ أبو كبيرٍ الهذليُّ: "كيفَ لي أنْ أتخلَّصَ مِنْ أكلِ الجَمْرِ المُحْرِقِ لأشربَ مِنَ الماءِ الذي ذكرتَه؟ وإنَّما كلامُ أهلِ سَقَرٍ وَيْلٌ وعَويلٌ. ليسَ لهم أنْ يَتَحَوَّلوا عن ذلك. فاذْهبْ في حالِ سَبيلِك. واحْذَرْ أن تُشْغَلَ عن مَطِيَّتِك".

فيقولُ الشيخُ: "كيفَ لا أفرحُ وقد ضُمِنَتْ لي الرحْمَةُ الدائِمَةُ؟ ضَمِنَها مَنْ يَصْدُقُ ضَمانُه، ويَعُمُّ الخائفين أمانُه؟".

ثم يقولُ الشيخُ: "ما فَعلَ صَخْرُ الغَيِّ"[2]؟.

فيُقالُ: "ها هو ذا حيثُ تَراهُ".

فيقولُ له: "يا صَخْرَ الغَيِّ. ما فَعَلَتْ حَبيبتُك دَهْماءُ؟ ما بَقِيَتْ لها أرضُكَ ولا سَماؤك. كانتْ في أيامِكَ وشبابُها في أوْلِهِ. ويأخذُك مِنْ رُؤيتِها وحُبِّها الفزعُ. فلذلك قلتَ:

إنِّـي بِـدَهْـمـاءَ عَـزَّ مـا أَجِـدُ يَـعـتـادني مِـنْ حِـبـابِها زُؤُدُ[3]

فأينَ مالُكُ وعِزُّك الذي كنت تَفْتَخِرُ به؟ لقد شَغَلَك عنه تَخليدُك في النار. وحُقَّ لك أنْ تَنْساهُ وتَذْهَلَ عنه.

مع الأخطل[4]

ويلتفتُ الشيخُ عن صَخْرِ الغَيِّ فإذا هو بِرجلٍ يتضوَّرُ مِنَ الوَجَعِ. فيقولُ: "مَنْ هذا؟".

1- (الغَلْفَق): الطحالب. أي أنه صدَّ عن هذا الماءِ ولم يشرب منه. وطحالبُه تهتز كأنها لم تُكْشَف.

2- (صَخْرُ الغَي): صخر بن عبد الله الهذلي. شاعر جاهلي. و(الغَيُّ): لقبٌ غلب عليه لخلاعته وشدةِ بأسِه وشرِّهِ. توفي بين 530 و535 م.

3- (الزُّؤْدُ): الفزع. والمعنى أنه يشعر بالوجد لدهماء. فإذا رآها أصابه الفزع.

4- (الأخطل) هو غِياث بن غَيْثِ بنِ الصَّلْت. كنيته أبو مالك. موطنه الحيرة. وقبيلته تغلب. دينه النصرانية. اختصَّ بمدح بني أمية. وكان مُكرَّماً عند عبد الملك بن مروان. وانشغل بهجاء جرير الذي بادله الهجاء. توفي وهو في السبعين من العمر عام 92 هـ 710 م.

فيُقالُ: "الأخطلُ التغلبي".

فيقولُ له: "مازلتَ تَصِفُ الخمرَ حتى تَركتْكَ طَعاماً للجَمْرِ. كم طَرِبَ السادةُ على قولِكَ:

أناخُـوا فجَـرُّوا شـاصِياتٍ كأنها ... رِجالٌ مِنَ السُّـودانِ لم يتسَرْبَلوا[1]

فقُلْـتُ اصْبَحونـي لا أبـا لأبيكمُ ... ومـا وَضَعوا الأَثْقـالَ إلا لِيفعلوا[2]

فصَبُّـوا عُقـاراً فـي الإنـاءِ كأنَّها ... إذا لَـمَحـوهـا جُـذْوةٌ تَـتَـأكَّـلُ[3]

وجـاؤوا بِبَيْسـانِيَّةٍ هـي بَعْدَمـا ... يَعُـلُّ بها السـاقي ألـذُّ وأسْـهَلُ[4]

تَمُرُّ بهـا الأيدي سَـنيحاً وبارحاً ... وتُوضَع بـ (اللهُمَّ حَيِّ) وتُحمَـلُ[5]

فتُوقَـفُ أحيانـاً فيفْصِـل بَيْننـا ... غِنـاءُ مُغَـنٍّ أو شِـواءٌ مُرَعْبَـلُ[6]

فلَـذَّتْ لِمُرْتـاحٍ وطابَتْ لِشـاربٍ ... وراجَعَنـي منهـا مِـراحٌ وأَخْيَـلُ[7]

فمـا لَبَّثْتنـا نَشْـوَةٌ لَـحِقَـتْ بِنـا ... تَوابِعُهـا مِمَّـا نُـعَـلُّ ونُـنْهَـلُ[8]

1- الشاصِيات: زِقاق الخمر المَمْلوءة. والمعنى أنَّ قومَه أناخوا إبلهم وهم يجُرُّون زقاقَ الخمر السوداء اللون والتي تشبه رجالاً سوداً لم يلبسوا ثياباً.

2- (اصبَحوني): اسْقُوني خمرَ الصباح. والمعنى أنه قال لهم اسقوني خمر الصباح. وهم ما وضعوا أثقالَهم وأحمالهم إلا ليفعلوا ذلك.

3- (العُقار): مِنْ أسماء الخمر. سُمِّيَتْ بذلك لأنها (تعقِرُ العقلَ). (الجُذْوة): جَمْرةُ النار. (تتأكَّل): تَلْتَهِب.

4- (البَيْسانِية): خمرةٌ مصنوعةٌ في مدينة بَيْسان في غور الأردن. (يَعُلُّ): يسقي مرةً بعد مرة. وفي تحقيق بنت الشاطئ لرسالة الغفران وفي شرح كامل الكيلاني وفي تحقيق الشيخ إبراهيم اليازجي وردت كلمة (يَعُلُّ) التي أوردناها على صيغة المجهول (يُعَلُّ). ووجدنا ذلك خطأً لأن الساقي يسقي ولا يُسقى. وأكد رأينا ضبطُ ديوان الأخطل للكلمة كما ضبطناها بالبناء للمعلوم.

5- (السانِحُ والبارِحُ): طائران اعتقدت العرب أنَّ أولهما نذيرُ فأل وخير. وهو يمرُّ من اليمين. وأنَّ الثاني فألُ شر وشؤم. وهو يَمرُّ من الشمال. ويقصد الشاعر أن الخمر كانت تمر عليهم من اليمين والشمال. (اللهُمَّ حيِّ): أي أنها كانت تحمل إليهم باسم الله قبل شربها.

6- (المُرَعْبَل): قِطَعُ اللحم المُعَدِّ للشِّواء.

7- (المِراح): المَرَح. (الأخْيَل): الخُيَلاء.

8- (توابِعُ الخمرة): ما يتلو شُربَها مِنَ السُّكْر. أي أنهم لحقت بهم توابعُ الخمر مِنْ كثرةِ ما عَبُّوه ونَهَلوه منها.

تَـدِبُّ دَبيبـاً فـي العِظـامِ كأنَّـهُ ... دَبيـبُ نِمـالٍ فـي نَقـاً يَتَهَيَّـلُ[1]
رَبَتْ وربـا في كَرْمها ابـنُ مَدينةٍ ... مُكِـبٌّ علـى مِسْـحاتِه يَتَـرَكَّلُ[2]
إذا خـافَ مِـنْ نَجْمٍ عليهـا ظَماءةٌ ... أَدَبَّ إليهـا جَـدْولاً يـتَـسلْسَـلُ[3]
فقُلْـتُ: اقْتُلوهـا عنكُـمُ بِمِزاجِهـا ... وحُبَّ بِهـا مَقْتولَةً حيـنَ تُقْتَلُ".[4]

فلمَّا انتهى الشيخُ مِنْ إنشادِ الأبياتِ قالَ الأخطلُ التغلبي: "لقد هَجَرْتُ الآثامَ المُنْكَرَةَ، ورجَوْتُ أنْ تُدعى نفسي: النفسَ العابِدَةَ. ولكنْ أبى القضاءُ إلا ما أنا فيه".

فيقولُ الشيخُ – أحَلَّ اللهُ الهلاك بِمُبْغِضيهِ –: "أخْطأتَ في أُمورٍ: جاءَ الإسلامُ فعَجِزْتَ أنْ تَدْخُلَ فيه، ولَزِمتَ أخلاقَ سَفيهٍ فعاشَرْتَ (يزيدَ بنَ مُعاوية[5])، وأطعْتَ نَفْسَك الغاوِيَةَ. وآثَرتَ ما فَنِيَ على ما بَقِيَ. فكيفَ لك بالهَرَبِ والفِرارِ مِمَّا فعلت؟".

فيزْفِرُ الأخطلُ زفرةً تَعْجَبُ لها الزَّبانِيَةُ ويقولُ: "آهٍ على أيامِ يزيدَ. كُنْتُ أشمُّ عِندَهُ العَنْبَرَ ولا أَفْتَقِدُ لديه الرَّيْحانَ. وأمْزِحُ معه مَزْحَ خَليلٍ، فيحْتَمِلُني احْتِمالَ رجلٍ جَليلٍ. وكم أَلْبَسَني الثيابَ المُوشَّاة أَخْتالُ بها في الصباحِ والمَساءِ. وكأني بالمُغنياتِ بين يديه تُغَنِّينَه بقولِه:

ولـها بـالـمـاطِـرونَ إذا ... أَكَلَ النَّمْـلُ الـذي جَمَعـا[1]
خِلْفَةٌ حتـى إذا ارْتَـبَـعَـتْ ... سَـكَنَتْ مِـنْ جِلَّـقٍ بِيَعا[2]

1- (النَّقا): القطعة من الرمال. (يتهيَّلُ الترابُ أو الرملُ): يتساقطُ وينهال.

2- (ربا ورَبَتْ في كرمِها): نشأ ونشأت في كرمها رجلٌ عالِمٌ بصنعِ الخمر. و(ابنُ مَدينة): صفةٌ تُطْلَقُ على الحاذقِ بالشيء. يقال: (كابن بَلدتها). (المِسْحاة): أداة لجَرْفِ التراب. (يتركَّل): يُفَتِّتُ الرملَ بقدميه حين يزرع الكرم.

3- (النَّجْم): الشمس أو غيرها مما يُحْرِقُ الزرعَ. (الظَّماءة): الظمأ. (أدبَّ): أجرى إليها جدولَ الماء.

4- (قتلَ الخمرةَ): كسرَ حِدَّتَها بالماء. و(حُبَّ بها مقتولة): ما أحبها إلينا وهي مقتولة بالماءِ.

5- (يزيد بن معاوية بن أبي سفيان): ولد عام 26 هـ 647 م. صار خليفة بعد أبيه عام 60 ه. وبقي فيها إلى أن مات عام 63 هـ 683 م.

6- (الماطِرون): موضع قرب دمشق. و(أكلَ النملَ الذي جمعا) كناية عن انقضاء فصل الشتاء لأنَّ النمل يأكل في الشتاء ما جمعه في فصل الصيف.

7- (خِلْفَةً): اختلافاً. وهي (مبتدأ مؤخر. والجار والمجرور (ولها) في البيت الأول متعلقان بالخبر المقدم. (ارتبعت): جاءها فصل الربيع. (جِلَّق): موضع قرب دمشق. وقيل هي دمشق. (البِيَع): البيوت.

فـي بُيـوتٍ حَـوْل دَسْـكَرةٍ حَوْلَها الزَّيتونُ قـد يَنَعا[1]
وَقَـفَـتْ لِـلـبَـدرِ تَـرقُـبُـهُ فـإذا بالبَـدْرِ قـد طَلَعـا[2]

ولقد مازَحْتُهُ في بعضِ الأيامِ وأنا سكرانُ مُخْتَلِطُ الكلامِ فقلتُ:

اسْـلَـمْـتَ سَـلِـمْـتَ أبـا خـالـدٍ وحَـيَّـاك ربُّـك بـالـعَـنْـقَـزِ[3]
أَكَـلْـتَ الـدجـاج فـأفَـنَـيْـتَـها فهـل فـي الخَنانيصِ مـن مَغْمَزِ[4]

فما زادَ عن ابتسامٍ. ووصَلَني بِالعَطاءِ".

فيقولُ الشيخُ – أدامَ اللهُ تَمكينَه -: "ومِنْ هنا وقَعْتَ في الجحيمِ. أما عَلِمْتَ أنَّ ذلك الرجلَ مُخالِفٌ مائلٌ عن طريقِ السَّواءِ، وأنَّه يَرْتقي حِبالَ المَعْصِيةِ؟ فهلْ اطَّلَعتَ على ما في نفسِهِ؟ هل كانَ مُؤمناً مُوحَّداً أم وَجَدْتَه مُلْحِداً؟

فيقولُ الأخطلُ: "كانت تُعْجِبُه هذه الأبياتُ:

أخالـدَ هاتـي خَبِّريـنـي وأَعْلِنـي حَديثَـك إنِّـي لا أُسِـرُّ التَّناجِيـا[5]
حديـثَ أبي سُـفيانَ لمّا سَـما بها إلـى أُحُـدٍ حتـى أقـامَ البَواكِيـا[6]
وكيـفَ بَغَـى أمـراً (عَلـيٌّ) فَفاتَهُ وأورَثَـهُ الجَـدُّ السـعيدُ مُعاويـا[7]

1- (الدسكرة): القطعة من الأرض. (يَنَعَ): نضج.

2- الشاعر يصف امرأة تنتقل من مكان إلى مكان في الشتاء والربيع. فهي تسكن في مكان. فإذا جاء الربيع سكنت في الماطرون. فإذا جاء الربيع سكنت في جلق لأنَّ لها فيها بيوتاً. وهذه البيوت حولها أشجار الزيتون اليانعة. وهي تراقب البدر حين يطلع البدر.

3- (العَنْقَز): نبات طيب الرائحة كالنعناع.

4- (الخنانيص): ج خَنُّوص. وهو ولد الخنزير. (المَغْمَز): العيب. ووجهُ المِزاح هنا أنَّ الأخطل يدافع عن أكل لحم الخنزير الذي حرَّمه الإسلام أمام خليفة المسلمين. ولم يعترض عليه الخليفة بل تبسَّم له.

5- (أَعلِني: جاهِري. (أسرَّ الحديث): كتمه. والشاعر يطلبُ من (خالدة) أن تتحدث بصراحة لأنه لا يحبُّ كتم الأسرار.

6- (حديث): بدل من (حديثك) في البيت السابق. ويشير هنا إلى معركة أُحُد التي قادها أبو سفيان وجعل نساء المسلمين تبكي.

7- يشير إلى أن علي بن أبي طالب طلب الخلافة ففاتته. والحظُّ السعيدُ بها كان لمعاوية بن أبي سفيان.

وقُومـي فَعُلِّيني علـى ذاك قَهْوَةً تَحَلَّبَهـا العيسـيُّ كَرمـاً شـآمِيا
إذا مـا نَظَرنـا فـي أُمـورٍ قَديمةٍ وجَدْنـا حَـلالاً شُـربَها المُتَوالِيـا
فَلا خُلْفَ بينَ الناسِ أنَّ مُحَمداً تَبَـوَّأ رَمْسـاً فـي المَدينـةِ ثاوِيـا

فيقولُ الشيخُ – جعل اللهُ أوقاتَهُ كلَّها سعيدةً -: "عليك اللعنةُ. قد ذَهَلَتِ الشعراءُ مِنْ أهلِ الجنةِ والنارِ عن المَدْحِ والنَّسيبِ، وما شُغِلْتَ عن كُفْرِك ولا عن إساءَتِكَ؟".

وإبليسُ يسمعُ ذلك الخِطابَ كلَّه فيقولُ للزَّبانيةِ: "ما رأيتُ أعجَزَ مِنْكُمْ يا إخوانَ مالكٍ يا خازِنَ النارِ".

فيقولونَ: "كيف زَعَمتَ ذلك يا أبا مُرَّة؟".

فيقولُ لهم: "ألا تَسمعونَ هذا الرجلَ – ويقصُدُ الشيخَ – المتكَلِّمَ بأُمورٍ لا تَعنيهِ؟ قد شَغَلَكُم وشَغَلَ غيرَكم عن عَمَلِهِ؟. فلو أنَّ فيكم صاحِبَ طَبيعةٍ قَويَّةٍ لَوثبَ عليه وَثْبَةً حتى يَلْحَقَ به فيَجْذِبَه إلى سَقرَ".

فيقولونُ: "ليس لنا على أهلِ الجنةِ سبيلٌ".

فإذا سمعَ الشيخُ – أَسْمَعَهُ اللهُ كلامَ مُحبيه – ما يَقولُه إبليسُ، أَخَذَ في شتمِهِ ولَعْنِهِ وإظهارِ الشَّماتَةِ به. فيقولُ إبليسُ عليهِ اللعنةُ: "ألم تُنْهَوْا عن الشَّماتَةِ يا بني آدمَ؟ ولكنكم بِحَمْدِ اللهِ ما مُنِعتُم عنْ شَيءٍ إلا وفَعَلْتُموهُ".

فيقولُ الشيخُ – واصلَ اللهُ الإحسانَ إليه -: "أنتَ بدأتَ آدمَ بالشَّماتَةِ. والبادِئُ أَظْلَمُ".

ثم يعودُ الشيخُ إلى الكلامِ مع الأخطلِ فيقولُ له: "أأنت القائلُ هذه الأبياتَ:

ولسـتُ بِصائـمٍ رمضـانَ طَوْعاً ولسـتُ بـآكِلٍ لَحْـمَ الأضاحـي
ولسـتُ بِقائـمٍ كالعَيْـرِ أدعـو قُبَيْـلَ الصبـح حَيَّ علـى الفلاحِ[1]
ولكـني سـأشـربُـهـا شَـمـولاً وأَسْـجُدُ عنـدَ مُنْبَلَـجِ الصَّبـاحِ".

1- (العَيْر): الحمار.

فيقول الأخطل: "أجل. وإني نادمٌ على ما قُلتُ. وهل أَغْنَتِ النَّدامَةُ عن الكُسَعيِّ[1]؟".

ويَمَلُّ الشيخُ مِنْ خِطابِ أهلِ النارِ. فينْصَرِفُ إلى قَصْرِهِ المُشَيَّدِ. فإذا صارَ على بُعدِ ميلٍ أو ميلَيْنِ، ذكَرَ أنَّه ما سألَ عن بعضِ الشعراءِ. فيرجِعُ على أدْراجِه. فيقفُ حيثُ كانَ يقفُ ويُنادي: "أينَ عَدِيُّ بنُ ربيعةَ؟"

فيُقالُ: "زِدْ في البيانِ".

فيقولُ: "الذي يَستشهدُ النَّحْويونَ بِقَوْلِهِ:

ضَرَبَتْ صَدْرَها إليَّ وقالتْ يا عَدِيَّاً لقد وقتك الأواقي[2]

فهذا البيتُ مِنْ شَواهِدِ النُّحاةِ. فقد قالَ: (يا عدياً) فأخطأَ ولم يَقُلْ (يا عديُّ) لأنه منادى مُفْرَدٌ عَلَمٌ.

وقد اسْتَشْهَدوا له بِأشياءَ كَقولِه:

ولقد خَبَطْنَ بيوتَ يشْكُرَ خَبْطَةً أخوالَنا وهُمُ بنو الأَعْمامِ[3]

وقولِه:

ما أُرَجِّي بالعيشِ بعد نَدَامَى كُلَّهُمْ قد سُقُوا بِكَأْسِ حَلاقِ[4]

1- هو (غامد بن الحارث): من كُسَع وهو حي من اليمن. اشترى قوساً وخمسة سهام. وكَمَنَ ليلاً في مخبأ ليصطاد. فمرَّ قطيعٌ من حُمُرِ الوحش. فرمى سهماً وظنَّ أنه أخطأ. فرمى الثاني والثالث والرابع والخامس وهو يظن أنه أخطأ المرمى. فكسر قوسه. فلما أصبح الصباحُ وجد أنَّه أصاب بسهامه الخمسة. فندِمَ وقطع إصبعه ثم قال:

نـدِمْتُ نـدامةً لـو أنَّ نـفـسي تُـطاوِعُـني لَـقَطَعْتُ خَمْـسي

تَـبَـيَّـن لي سَـفاهُ الرأيِ مني لَعَمْرُ أبيك حين كَسَرْتُ قَوْسي

2- (الأواقي): ج واقية. وهي ما يُتَّقى به. والمعنى أنها تدعو له أنْ لا يصيبه مكروه.

3- (أخوالَنا): هي موضع استشهاد النحويين بهذا البيت. فهي منصوبة على التَّرَحُّم. أي (رحم الله أخوالَنا).

4- (الحَلاق): المَنِيَّة. والمعنى أنه لا خير في العيش بعد موت نداماي. و(حَلاقِ): هي موضع استشهاد النحويين بهذا البيت. فهي اسم للمذكر والمؤنث. فإذا كانت اسماً مؤنثاً وجب أن تكون ممنوعة مِنَ الصرف. وجاءت هنا غير ممنوعة مِنَ الصرف مع أنها اسم مؤنث.

فيُقالُ: "إنك تُعَرِّفُ صاحِبَك بِأَمْرٍ لا مَعرِفَةَ عندنا به. فما النَّحْوِيُّون؟ وما الاسْتِشْهادُ؟ وما هذا الهَذَيانُ؟ نحنُ خَزَنَةُ النارِ. فَبَيِّنْ غَرَضَك حتى تُجابَ إليه.

مع المُهَلْهِل

فيقولُ الشيخُ: "أريدُ المَعْروفَ باسْمِ (مُهَلْهِل التغلبي[1]) أخي كُلَيْبِ وائلٍ الذي كان يُضْرَبُ به المَثَلُ".

فيُقالُ: "ها هو ذا يَسْمَعُ حِوارَك. فقُلْ ما تَشاءُ".

فيقولُ: "يا عديَّ بنَ ربيعة. يَعِزِّ عليَّ دُخولُكَ هذا المَكانَ. لو لم آسَفْ عليك إلا لِأَجْلِ قَصيدتِكَ التي أولُها:

أَلَيْلَتَنا بِذي حُسْمٍ أَنيري إذا أنتِ انقَضَيْتِ فلا تَحُوري[2]

لَكانتْ جَديرةً أنْ تُطيلَ الأسفَ عليك. فأَخْبِرْني: لِمَ سُمِّيتَ مُهَلْهِلاً؟ فقد قيلَ: إنَّكَ سُمِّيتَ بِذلك لأنَّكَ أولُ مَنْ هَلْهَلَ الشعرَ أي رَقَّقه".

فيقولُ المُهَلْهِلُ: "إنَّ الكَذِبَ كَثيرٌ. وإنِّما كانَ لي أَخٌ يُقالُ له (امرؤُ القيس). فأغارَ علينا (زُهيرُ بنُ جَنابٍ الكَلْبِيُّ[3]). فتَبِعَه أخي في جَماعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ. فقالَ في ذلك:

لمَّا تَوَقَّلَ في الكُراعِ هَجينُهمْ هَلْهَلْتُ أثأرُ مالِكاً أو صِنبَلا[4]

1- (مهلهِل التغلبي): اسمه عدي. واسم أبيه ربيعة. يعزو إليه المؤرخون أنه أول مَنْ جعل القصائد طويلة. وأول من تغنَّى المُغَنون بشعره. كان لاهياً عابثاً حتى سماه أخوه كليب (الزير أبو ليلى). والمقصود بهذا اللقب أنه كان زير نساء. فلما قُتِل كليبٌ قصَّ شَعْره وقصَّر ثيابه وامتنع عن الخمر والنساء والقمار، وتفرَّغ لحربِ بكر التي قتلت أخاه. وقد دامت هذه الحربُ أربعين عاماً. ثم اصطلحوا بعد ذلك. توفي عام 531 م.

2- (حُسْم): اسم مكان. (انقضَيْتُ): انتهيتُ. (تَحُوري): ترجِعي.

3- (زهير بنُ جَناب الكلبي): هو خطيب قبيلته قضاعة وسيدها وشاعرها ومبعوثها إلى ملوك الجاهلية. وهو الذي كان يسمي الكهان. قيل إن وقائعه تُناهز المئتين. وأشهرها مع بكر وتغلب. كان مُسرفاً في شرب الخمر. توفي عام 564 م.

4- (توقَّل): صَعَد. (كُراعُ الطريق): أوله. (الهَجين): اللئيم أو مَنْ أبوه عربي وأمه أَمَة. والمعنى أنه لمَّا صعد هجينهم في أول الطريق أسرعتُ لأثأر لِمالك أو لصِنبل.

و(هَلْهلْتُ) أي قارَبْتُ. ويُقالُ: تَوَقَّفْتُ. ويعني بالهَجينِ زهيرَ بنَ جَنابٍ الكلبي. فسُمِّيَ (مُهَلْهِلا). فلمَّا ماتَ شُبِّهْتُ به فقيلَ لي: مُهَلْهِل".

فيقولُ الشيخُ: "الآنَ شَفَيْتَ صَدْري بِحقيقةِ اليَقينِ. فأخْبِرني عن هذا البيتِ الذي يُروى لك:

أرعَـدوا سـاعَةِ الهِيـاجِ وأبْرَقْـــ نا كمـا تُوعِـدُ الفَحُـولُ الفُحُولا[1]

فإنَّ الأصمعيَّ كانَ يُنْكِرُه ويقولُ إنَّه ليس لك وإنَّما هو مَنْحُولٌ عليك. وكان (أبو زيد[2]) يَستشْهِدُ به ويُثْبِتُه لك".

فيقولُ المهَلهِلُ: "طالَ عليَّ الزمنُ. وقد نَسيتُ ما قلتُ في الدارِ الفانيةِ. فما الذي أنكرَ مِنْه الأصمعيُّ؟".

فيقولُ الشيخُ: "زَعَمَ الأصمعيُّ أنَّه لا يُقالُ: (أرْعَدَ وأبْرَقَ) في الوَعيدِ ولا في السَّحابِ.

فيقولُ المُهلهِلُ: "إنَّ قولَ الأصمعيِّ خطأ. وإنَّ هذا البيتَ لم يَقُلْهُ إلا رجلٌ مِنْ جَذرِ الفَصاحَةِ وأصْلِها، إمَّا أنا وإمَّا سواي. فخُذْ به وأعْرِضْ عن قَوْلِ السُّفهاءِ".

مع المُرَقَّشِ الأكبر

ويسألُ الشيخُ عن (المُرَقَّشِ الأكبرِ[3]). فإذا هو في أَطْباقِ العذابِ. فيقولُ له: "خَفَّفَ اللهُ عنكَ أيها الشَّابُّ المَظلومُ المَقْهورُ[4]. فلم أزَلْ في الدارِ العاجِلةِ

1- (أرعدوا): من الرعد. أي أن أعداءهم جاؤوا بقوةٍ ساعةَ الحرب فكأنهم الرعد. (أبرقنا): من البرق. أي أننا جاوبنا رعدَهم ببرق. و(الفحول): الأقوياء من كل جنس. أي أننا وإياهم كنا فحولاً تتوعَّدُ فحولاً.

2- (أبو زيد): سعيد بن أوس الأنصاري. من أعلام النحاة واللغويين. وكان يعني سيبويه حين يقول: (سمعتُ الثقة). توفي في خلافة المأمون. ولد عام 122 هـ 740 م، وتوفي عام 215 هـ 830 م.

3- مرت ترجمته.

4- يشير المعري هنا إلى قصة معروفة. وخلاصتها أن المرقش خرج مع أجير له من قبيلة غُفَيْلَة. يريد =

حَزيناً لِما أَصابَكَ به الرجلُ الغُفَلِيُّ أحدُ بني غُفَيْلَةَ بنِ قاسِطٍ. فعليه لعنةُ اللهِ.

وإنَّ قوماً مِنْ أهلِ الإسلامِ كانوا يَسْتَهْزِئون بِقصيدِتِك (الميميةِ) التي أولُها:

هل بالديارِ أنْ تُجيبَ صَمَمْ لــو كانَ حَيَّــاً ناطِقــاً كَلَّــمْ

وإنَّها عندي لَمِنَ المُفْرَداتِ الجّيِّداتِ. وكانَ بعضُ الأدباءِ يرى أنَّها و(الميميةَ) التي قالَها (المرقَّشُ الأصغرُ) ناقصتان عن (القصائدِ المُفَضِّليّات[1]). وقد وَهِمَ صاحبُ هذه المَقالَةِ.

وبعضُ الناس يَرْوي هذا الشعرَ لك، مع أنَّ بعضَهم نَسَبَه إلى عمرَ ابنِ أبي رَبيعةَ:

تَخَيَّــرتُ مِــنْ نَعْمانَ عُــودَ أراكةٍ لِهنــدٍ ولكــنْ مَــنْ يُبَلِّغُــه هِنــدا[2]

خَليلــيَّ جُــورا بــارِكَ اللــهُ فيكُما وإنْ لم تكنْ هِندٌ لأرضِكُما قَصْدا[3]

وقُــولا لها ليــسَ الضَّــلالُ أَجارَنا ولكنَّنــا جُرْنــا لِنَلْقاكُــمُ عَمْــدا[4]

ولم أجِدْها في ديوانِكَ. فهلْ ما حُكِيَ عنك صَحيحٌ؟".

فقالَ المرقَّشُ الأكبرُ: "لقد قلتُ أشياءَ كثيرةً. مِنْها ما نُقِلَ إليكم ومِنْها ما لم يُنقَلْ. ويَجوزُ أنِّي قُلتُ هذه الأبياتَ. ولكنِّي نَسيتُها لِطولِ الزَّمَنِ. ولعلك تَسْتَنْكِرُ أنِّي

= ابنة عمه (أسماء) التي زوجها أبوها من رجل من قبيلة (مراد). فلما صار في بعض الطريق مرض. فتركه الغُفْلي هناك في غار وانصرف إلى أهله وأخبرهم أنه مات. ويقال إن أسماء علمت بما جرى له فأرسلت من حمله إليها وقد أكلت السباع أنفه.

1- (المفضِّليات): قصائد اختارها المفضَلُ الضبي. وهي مختاراتٌ من الشعر العربي. واسمه (المفضَّل بن محمد الضبي الكوفي اللغوي. كان علامة راوية للأخبار والآداب وأيام العرب. ولد في العشر الأول من القرن الثاني الهجري. وتوفي بعد عام 176 هـ 792 م.

2- (نَعْمان): اسم وادٍ. (الأراكة): شجرة طيبة الرائحة.

3- (جارَ عن الطريق): انحرف ومال. يطلب مِنْ صاحبيه أنْ ينحَرِفا عن طريقهما ليوصِلا عودَ الأراك لهند وإنْ لم يكونا يقصدان أرض هند.

4- (أجارَنا): جعلنا نَميل عن طريقنا. و(جُرنا): انحرفنا ومِلْنا عن طريقنا. أي أننا انحرفنا عن طريقنا ليس بقصد الضلال. بل انحرفنا لكي نلقاكم متعمدين ذلك.

أتغزَّلُ فيها بهندٍ مع أنَّ صاحِبتي (أسماءُ). فلا تَنْفِرْ مِنْ ذلك. فقدْ يَنْتقِلُ المُتَغَزِّلُ مِنِ اسْمٍ إلى اسْمٍ. ويكونُ في بعضِ عُمرِهِ مُولَعاً بِشخْصٍ مِنَ الناسِ، ثم يَنْصرِفُ إلى شخصٍ آخرَ. ألم تَسْمَعْ قولي:

سَــفَهٌ تَــذَكُّــرُهُ خُوَيْلَــةَ بعدَمــا حالَــتْ ذُرا نَجْــرانَ دونَ لِقائِهــا".

مع المرقَّشِ الأصغر[1]

ويَنْعَطِفُ الشيخُ إلى (المُرقَّشِ الأصْغرِ). فيَسْأَلُه عن شأنِهِ مع (بِنْتِ المُنذِر) و(بنتِ العَجْلانِ)[2]. فيَجِدُهُ غيرَ خَبيرٍ. قد نَسِيَ لِتَوالي الأَزْمانِ. فيقولُ له: "ألا تَذْكُرُ ما صَنَعَ بك صَديقُك وابنُ عَمِّكَ (جَنابُ بنُ عوفِ بنِ مالك) الذي تَقولُ فيه:

فآلَــى جَنــابٌ حِــلْفَــةً فأطعْتَــهُ فنفْسَــك ولِّ اللومَ إنْ كُنــتَ لائِما[3]

فيقولُ المرقشُ الأصغرُ: "وما صَنَعَ جَنابٌ؟ لقد لقيتُ هنا الدَّواهِيَ وسُقِيتُ الأَمَرَّيْنِ. فكيف أتذكَّرُ عذاباتِ الدارِ العاجلةِ؟".

1- هو (ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك). وهو ابن أخ المرقَّش الأكبر وعم طرفة بن العبد. يُعَدُّ من عشاق العرب وفرسانهم. وكانت له مواقع مع بكر بن وائل. وكان جميلاً. عشق فاطمة بنت الملك المنذر. وكان لدى فاطمة جارية اسمها هند. وقد أحبته هند كما أحبته فاطمة. توفي حوالي عام 563 م.

2- يشير المعري هنا إلى قصته مع فاطمة بنت المنذر وخادمتها هند بنت عجلان. وكانت هند تحمله على ظهرها لتجمعه بفاطمة حتى لا يرى الحراسُ آثارَ قدميه. فألحَّ عليه (جَناب) صديقُه وابنُ عمه أن يَخلُفَه ليلةً عند فاطمة. فلما رأت فاطمة جَناباً أنكرت المرقَّش وأبعدته عنها . فندم وهام على وجهه حياءً وخجلاً.

3- (الحِلْفَة): اليمين. والشاعر يخاطب نفسَه بأنه أطاع ابنَ عمه فيما أراد. فعليه أن يلوم نفسَه إنْ كان سيلوم أحداً.

مع الشَّنْفرى الأزْدي[1] وتأبَّطَ شَراً

فلمَّا لم يَجِدْ عندَ المرقشِ الأصْغَرِ طائِلاً تَركَهُ، وسألَ عن (الشَّنفَرى الأزدِيِّ). فوَجَدَهُ قَليلَ التَّشَكِّي والتألُّمِ لِما هو فيه. فيقولُ لهُ: "إنِّي لا أراك قَلِقاً مِثْلَ قَلَقِ أصْحابِكَ".

فيقولُ: "إنِّي قُلتُ بَيْتاً في الدارِ الخادعَةِ. فأنا أتأدَّبُ به أبدَ الدهرِ. وذلك قَولي:

غَوَى فَغَوَت ثم ارْعَوى بعدُ وارعَوتْ ... ولَلصَّبْرُ إنْ لم يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ".

ويَنظرُ الشيخُ فيرى الشَّنْفَرى قريناً مع تأبَّطَ شراً كما كانَ في الدنيا الغَرَّارةِ. فيقولُ – زادَ اللهُ حظَّه مِنَ المَغْفِرةِ –: "أحَقٌّ ما رُوِيَ عنك مِنْ نِكاحِ الغيلان؟".

فيقولُ: "لقد كُنا في الجاهليةِ نتَقَوَّلُ ونَكذِبُ. فما جاءك عنا مِمَّا يُنْكِرُه العَقْلُ فإنَّه مِنَ الأَكاذيبِ. والزَّمنُ كله على سَجِيَّةٍ واحِدَةٍ والناسُ مُتَشابِهونَ. فالذي شاهدَهُ مَعَدُّ بنُ عدنانَ، كالذي شاهدَهُ آخرُ أولادِ آدمَ".

فيقولُ الشيخُ – أَجْزَلَ اللهُ عَطاءَه مِنَ الغُفرانِ –: "نُقِلَتْ إلينا أبياتٌ تُنسَبُ إليك:

أنا الـذي نَكَحَ الغِيلانَ فـي بَـلَدٍ ... مـا طَلَّ فيـه سِـماكِيٌّ ولا جـادا[2]

في حيثُ لا يَعْمِتُ الغادي عَمايَتَهُ ... ولا الظَّليـمُ بـه يَبْغـي تِهِبَّـادا[3]

1- (الشنفرى الأزدي): اسمه (ثابت بن أوس الأزدي). موطنه اليمن. وهو شاعر الأزد. ومن أشهر عدَّائي العرب. ومعنى (الشنفرى): العظيم الشفتين. توفي عام 540 م.

و(تأبط شراً): اسمه ثابت بن جابر القيسي. وهناك عدة روايات لتسميته بهذا الاسم. أصحُّها أنه كان يحمل سيفه تحت إبطه كلما ذهب إلى الحرب. وهو من الشعراء الصعاليك. وكان من أشهر عَدَّائي العرب وأحدِّهم بصراً. كان إذا جاع ينظر إلى الظباء فيعدو وراء أسمنها حتى يأخذه ويذبحه ويشويه ويأكله. وكان عدّاؤو العرب خمسة: تأبط شراً. والشنفرى والسُّلَيْكُ بنُ السُّلَكَة وعمرو بن بُراق وأسير بن جابر. توفي عام 530 م. وقد روي عنه أنه كان يلقى الغيلان وينكحها ويحاربها. ورَوَوْا في ذلك له أشعاراً وأخباراً هي من الأساطير.

2- (طَلَّ): من (الطَّلِّ) وهو المطر الخفيف. (السِّماكي): من فعل (سَمَكَ): أي علا وارتفع. (جاد) أي نزل المطر. (جاد المطر): نزل بكثافة. والمعنى أنه نكح الغيلان في بلد لا ينزِل فيها المطر القليل أو الكثير من أعاليه.

3- (عَمِتَ الرجلُ): ضرب بعصاه دون أن يَهتمَّ بمن أصاب. (العَماية): مَنْ أصابه الذي يعمِتُ. (الظليم): =

وقد لَهَـوتُ بِمَصْقـولٍ عَوارِضُها بِكْـرٍ تُنازِعُنـي كَأْسـاً وعِنْقـادا[1]
ثم انْقَضى عَصْرُها عني وأعْقَبَهُ عَصْرُ المَشـيبِ فقلْ في صالِحٍ بادا

فاستدلَـلْتُ على أنَّها لك لمَّا قلتَ (تِهِبَّادا)، على مَصدرِ فِعْلِ (تَهَبَّدَ الظليمُ) إذا أكلَ (الهَبيدَ). فقلتُ هذا مِثْلُ قولِه في قصيدتِهِ (القافية):

طَيْفُ ابْنةِ الحُرِّ إذ كُنَّا نُواصِلُها ثـم اجْتُنِثْـتُ بهـا بعـدَ التِّفِـرَّاقِ

فمصدر (تَفَرَّقوا) (تِفِرَّاقاً). وهذا مُطَّرِدٌ في (تَفَعَّلَ) وإنْ كانَ قليلاً في الشعرِ". فلا يُجيبُه تأبَّطَ شراً بِطائلٍ.

= ذكر النعام. (التِّهِبّاد): نبات مر. والمعنى أنه نكح الغيلان في تلك الأرض التي لا يعرف الرجلُ فيها مَنْ يضرب، والتي لا يفتش فيها الظليم عن نبات الهبيد. والمقصود بهذا البيت والذي قبله أن يصور غرابةَ المكان الذي نكح فيه الغيلان.

1- (مصقولٌ عَوارِضُها): ملتمعةُ صفحتي الخد. (العِنقاد): العنقود. والمعنى أنه لَها بفتاةٍ بِكرٍ مصقولةِ العوارضِ، وتتبادل معه الكأسَ والعنقود.

الفَصْلُ السادس

العودةُ إلى الفردوس

حديثهُ مع آدم

فإذا رأى الشيخُ قِلَّةَ الفَوائِدِ لدى هؤلاءِ الشعراءِ، تركهم في الشَّقاءِ السَّرْمدِيِّ. وعَمَدَ إلى مَحَلِّهِ في الجِنانِ. فيلقى آدمَ عليه السلامُ في الطريقِ فيقولُ لهُ: "يا أبانا صلى اللهُ عليك. قد رُوِيَ لنا عنك شِعرٌ منه قولُك:

نحـن بَـنـو الأرضِ وسُـكَّانُـها مِـنْها خُـلِـقْـنا وإلـيـها نَـعـودْ
والسَّـعْدُ لا يَـبْـقـى لِأصْحابِـه والنَّحْـسُ تَمْحُوهُ ليالي السُّـعودْ".

فيقولُ آدمُ: "إنَّ هذا القولَ حَقٌّ. وما نَطَقَهُ إلا بعضُ الحُكَماءِ. ولكنِّي لم أَسْمَعْ به حتى الساعةِ".

فيقولُ الشيخُ – زادَ اللهُ قِسْمَهُ في الثوابِ –: "فلعلكَ يا أبانا قُلْتَه ثم نَسيتَ. فقد عَلِمْتَ أنَّ النِّسْيانَ مُتَسَرِّعٌ إليك. وحَسْبُك شهيداً على ذلك الآية المَتْلُوَّةُ في فُرقانِ مُحمدٍ صلى اللهُ عليه وسلمَ: (ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ مِنْ قبلُ فنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْما)[1]. وقد زَعَمَ بعضُ العُلَماءِ أنَّك إنَّما سُمِّيتَ إِنْساناً لِنِسْيانِك. واحْتَجَّ هؤلاءِ على ذلك بِقولِهم في التصغير: (أُنَيْسِيان). وفي الجَمْعِ: (أَناسِيّ). وقد رُوِيَ أنَّ

1- سورة طه. الآية 115.

الإنسانَ مِنَ النِّسْيانِ عن ابنِ عَباسٍ[1]. وقالَ أبو تَمَّام حَبيبُ بنُ أوسٍ الطائي[2]:

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ وإنَّما سُمِّيتَ إنْساناً لأنَّك ناسِ

وقرأَ بعضُهم الآيةَ في سورةِ البقرةِ: (ثم أَفيضُوا مِنْ حيثُ أفاضَ الناسِ[3]) بِكَسْرِ السين، يريدُ (النَّاسي) فحَذَفَ الياءَ كما حُذِفَتْ في قَولِه تعالى في سورةِ الحَجِّ: (سَواءٌ العاكِفُ فيه والبادِ[4]). فأمَّا البِصريون فيَعْتَقِدونَ أنَّ الإنسانَ من (الأُنسِ)، وأنَّ قولَهم في التَّصْغيرِ (أُنَيْسِيان) شاذٌّ، وأنَّ قولَهم في الجمع (أَناسيُّ) أصلُه (أناسين). فأُبْدِلَتِ الياءُ مِنَ النونِ. والقولُ الأولُ أحسنُ".

فيقولُ آدمُ صلى اللهُ عليه: "أبيتُم إلا عُقوقاً وأذِيَّةً. إنَّما كنتُ أتكلَّمُ بِالعربيةَ وأنا في الجنةِ. فلمَّا هَبَطْتُ إلى الأرضِ نُقِلَ لِساني إلى السُّريانيةِ. فلم أنطِقْ بغيرِها إلى أنْ هَلَكْت. فلمَّا رَدَّني اللهُ سبحانه وتعالى إلى الجنةِ، عادتْ إليَّ العربيةُ. ففي أيِّ حينٍ نَظَمتُ هذا الشعرَ؟ في العاجلةِ أم الآجِلةِ؟ والذي قال ذلك يجبُ أن يكونَ قالهُ وهو في الدارِ الماكرةِ. ألا ترى قولَه:

مِنْها خُلِقْنا وإليها نعودْ

فكيفَ أقولُ هذا المَقالَ ولِساني في الدنيا سُريانِيٌّ؟ ولم أكُنْ أدري بِالموتِ وأنا في الجنةِ قبلَ أنْ أخْرُجَ منها وأنَّ المَوْتَ مِمَّا حُكِم به على العِبادِ وأنَّه لَزِمَهمُ في أعْناقِهم كأطْواقِ الحَمامِ، وأنَّه لا نَجاةَ لأحدٍ مِنْهُ. وأمَّا بعدَ رُجوعي إلى الجنةِ فلا مَعْنى لِقولي: (وإليها نَعود) لأنَّه كَذِبٌ لا مَحالَةَ. ونحن، معاشرَ أهلِ الجنة، خالِدون مُخَلَّدون".

فيقولُ الشيخُ – قُضِيَ له بِالسَّعْدِ الدائمِ –: "إنَّ بعضَ أهلِ السِّيَرِ يَزعُمُ أنَّ هذا

1- (ابن عباس): هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم. فهو ابن عم محمد (ص). كان فقيهاً إماماً. دعا له النبي (ص) وهو صغير أن يكون عالماً فكان. توفي عام 68 هـ 687 م في الطائف. ومن نسله تأسست الدولة العباسية عام 132 هـ 749 م.

2- مرت ترجمته.

3- سورة البقرة. من الآية 199. وقراءة الجمهور (الناسُ).

4- سورة الحج من الآية 25.

الشعرَ وَجَدَهُ (يَعرُبُ) في الصُّحُفِ القَديمةِ الأولى بِالسُّريانِيَّةِ. فنَقَلَهُ إلى لِسانِهِ. وهذا لا يَمْتَنِعُ أنْ يكونَ.

وكذلك يَرْوون لك – صلى اللهُ عليك – أنَّك قُلْتَ لمَّا قَتَلَ قابيلُ هابيلَ:

تَـغَـيَّـرتِ الـبـلادُ ومَـنْ عليـها فَـوَجْـهُ الأرضِ مُـغْـبَـرٌّ قَـبـيحُ
وأَوْدى رَبْـعُ أَهْـلـيـها فَـبـانوا وغُـودِرَ في الثَّـرى الوَجْـهُ المَليحُ

وبعضُهم يُنشِدُ

وزال بشاشةُ الوَجْهِ المَليحِ

على الإقواءِ. وفي حكايةٍ مُلَخَّصُها على ما أذكرُ أنَّ رجلاً مِنْ بعضِ ولدِك يُعْرَفُ بـ (ابنِ دُرَيْد)[1] أنشدَ هذا الشعرَ وكانت روايتُه:

وزال بشاشَةُ الوجهِ المليحِ

وقال عنك: (أقوى). وكان في المَجْلِسِ (أبو سَعيدٍ السيرافيُّ)[2] فقالَ: (يَجوزُ أنَّه قالَ:

وزال بشاشةَ الوجهُ المليحُ

بنصب (بشاشةَ) على التمييزِ. وحَذَفَ النونَ مِنْ (بَشاشةً) لِالتقاءِ الساكنَيْنِ كما قالَ شاعرٌ مِنْ قريشٍ:

عمروُ الذي هَشَـمَ الثَّريـدَ لِقَوْمِهِ ورجـالُ مكةَ مُسْـنِتونَ عِجـافُ[3]

فحذفَ التنوينَ في (عمروٌ).

فقلتُ: هذا الوجهُ الذي قالَه أبو سعيدٍ السيرافي أقبحُ مِنْ إقواءِ عَشْرِ مَراتٍ في القصيدةِ الواحِدَةِ.

1- (ابن دريد): هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأزدي. ولد في البصرة عام 223 هـ 838 م. من أكبر علماء اللغة. توفي في بغداد عام 321 هـ 933 م.

2- (أبو سعيد السِّيرافي): الحسن بن عبد الله بن المَرزُبان. فارسي الأصل ومولده في سيراف. من أكابر النحاة البِصريين وعلماءِ العربية. ولد عام 284 هـ 897 م وتوفي عام 368 هـ 973 م.

3- (مُسْنِتون): من (أَسْنَتَ القومُ): إذا أصابتهم سَنَةٌ مُجْدِبَة.

فيقولُ آدمُ – صلى اللهُ عليه –: "يعِزُّ عليَّ ما جرى لَكُم يا مَعْشَرَ أَبنائي. إنَّكم في الضَّلالَةِ واقِعونَ ومُتَحَيِّرون. أَخْبَرتُكم أنِّي ما نَطَقْتُ هذا النَّظْمَ، ولا نُطِق في عَصْري. وإنَّما نَظَمَهُ بعضُ الفارِغينَ مِنْكُمْ. فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللهِ. كَذَبْتُم على خالقِكم وربِّكم. ثم على آدمَ أبيكم. ثم على حواءَ أُمِّكُم. وكَذَبَ بعضُكم على بَعضٍ. ومآلُكم بعد ذلك إلى الأرضِ".

مع الحَيَّةِ ذاتِ الصفا

ثم يَضرِبُ الشيخُ سائِراً في الفِرْدَوْسِ، فإذا هو بِرَوْضَةٍ مُونِقَةٍ. وإذا هو بِحيَّاتٍ يَلْعبنَ ويرشُّ بعضُهُن بالماءِ بعضَهنَّ الآخرَ، ويَسِرْنَ مرةً بخِفَّة ومرةً بتثاقُلٍ. فيقولُ: "لا إلهَ إلا اللهُ. وما تَصْنَعُ حَيَّةٌ في الجنةِ؟". فيُنْطِقُها اللهُ – جَلَّتْ عَظَمَتُهُ – بعدَما أَلْهَمَها المَعْرِفَةَ بِهاجِسِ النَّفْسِ فتَقولُ: "أما سمعتَ في عُمرِك بِالحَيَّةِ ذاتِ الصَّفا؟ الوافِيَةِ لِصاحِبٍ ما وَفى؟ كانَتْ تَنْزِلُ في وادٍ خَصيبٍ. وما كانت عِيشتُها جَديبَةً. وكانَتْ تَصْنَعُ لِصاحبِها الجَميلَ فتورِدُ له إبلَه مرةً كلَّ نِصْفِ نَهارٍ ومرةً كلَّ يَومَيْن. فلما ثَمَّرَ بِإخلاصِها مالَه وأَمَّلَ أن يُحَقِّقَ آمالَه، ذَكَرَ أنَّ له عِنْدَها ثَأراً، وأرادَ الانْتِقامَ مِنْها بالقِصاصِ لأنَّ أخاه مِمَّنْ قتلتْهم. فأكبَّ على فأسِهِ يَسُنُّ حَدَّها. ووقفَ لِهذه الحَيَّةِ على صَخْرةٍ وضربَها. لكنَّها نَجَتْ مِنْ ضَرْبَةِ فَأسِهِ. فأمْسَكَ الحِقْدُ بِأنفاسِه وغَضِبَ لأنَّه لم يُصِبْها. فقالَ لِلحيَّةِ مُخادِعاً وهو يَكتمُ ما في نَفْسِهِ: (هلْ لكِ أنْ نَكونَ صاحِبَيْنِ أو خَليلَيْنِ؟). ودعاها إلى حِلْفٍ بينَهُ وبَيْنَها وهو يَنْوي الغَدْرَ بها. فقالتْ له: (لا أَفْعَلُ وإنْ طالَ الدَّهْرُ. إنِّي أجِدُك فاجِراً خادِعاً. وأجِدُ في صَداقَتِكَ الهَلاكَ. ويأبى لي هذه الصَّداقَةَ ضربةٌ فوقَ رأسي وقبرٌ أراهُ أمامي).

وتُتابِعُ الحيةُ كَلامَها فتقول: "وقد وَصَفَ نابغةُ بني ذبيان[1] ذلك فقالَ:

1- الأبيات التالية من قصيدة له أولها:

ألا أَبْلِغا ذُبيان عني رسالةً فقد أصبحتْ عن منهجِ الحقِّ جائرَهْ

وإنِّي لَأَلْقى مِنْ ذوي الضِّغْنِ مِنْهُمُ ... وما أَصْبَحَتْ تَشْكو مِنَ الوَجْدِ ساهِرَهْ[1]

كما لَقِيَتْ ذاتُ الصفا مِنْ خَليلِها ... وكانَتْ تَديهِ المالَ غِبَّاً وظاهِرَهْ[2]

فلَمَّا رأى أنْ ثَمَّرَ اللهُ مالَهُ ... فأصبَحَ مَسروراً وسَدَّ مَفاقِرَهْ[3]

أَكَبَّ على فَأسٍ يَحُدُّ غُرابَها ... مُذَكَّرَةٍ مِنَ المَعاوِلِ باتِرَهْ[4]

وقامَ على جُحْرٍ لها فوقَ صَخْرةٍ ... لِيَقْتُلَها أو تُخْطِئَ الكَفُّ بادِرَهْ

فَلَمَّا وقاها اللهُ ضَرْبةَ فأسِهِ ... ولِلْبَرِّ عَيْنٌ لا تُغَمَّضُ ناظِرَهْ[5]

فقالَ تَعالَيْ نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنا ... على ما لَنا أو تُنْجِزي لِيَ آخِرَهْ[6]

فقالتْ مَعاذَ اللهِ أَفْعَلُ إنَّني ... رأَيْتُكَ مَسْحوراً يَمينُكَ فاجِرَهْ[7]

أبى لِيَ قَبْرٌ لا يزالُ مُقابِلي ... وضَرْبَةُ فأسٍ فوقَ رَأسيَ فاقِرَهْ[8]

وتقولُ حَيَّةٌ أُخرى: " إنِّي كُنْتُ أسكُنُ في دارِ (الحَسَنِ البِصْريِّ[9]). فكان يتلو القرآنَ ليلاً. فتلقَّيْتُ مِنْهُ الكِتابَ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ".

فيقولُ الشيخُ – لا زال الرَّشَدُ قَريناً لمَحَلِّهِ –: "فكيفَ سَمِعْتِه يقرأُ: (فالِقُ الإِصْباحِ)[10]؟ فإنه يُروى عنه بفتحِ الهمزةِ (الأَصْباحِ) كأنَّه جَمْعُ (صُبْح). وكذلك

1- (الضِّغْن): الضغينة.

2- (تديه): تدفع دِيَتَه. من (وَدى فلانٌ فلاناً). (غِباً وظاهِرَه): في السر والعلن. والمعنى أنها كانت تدفع دية أخيه الذي قتلته في الظاهرِ والعلن.

3- (المَفاقِر): وجوهُ الفقر.

4- (غُراب الفأس أو السكين): حَدُّها. (يَحُدُّ): يشحذُ حدَّها.

5- (البَرُّ): مِنْ أسماء الله. وتعني الحافظ والمعين للناس. (ناظرة): صفة للعين.

6- أي نجعل الله شاهداً على تحالفنا حتى تُنجِزي لي كلَّ ما نتفق عليه.

7- (المَسحور): المخادع المُفسِد.

8- (الضربة الفاقرة): الضربة القوية. والمعنى أنَّ الذي يَمنعني من الاتفاق معك قبرٌ حفرتَه لي ما يزال أمامي، وضربةُ فأسك القوية على رأسي.

9- (الحسن البصري): هو الحسن بن أبي الحسن يسار. أبو سعيد. مولى زيد بن ثابت. كان زاهداً متصوفاً. وكان إماماً وعالماً من علماء أهل السنة والجماعة. ولد عام 21 هـ 642 م قبل وفاة عمر بن الخطاب بعامين. وتوفي في البصرة عام 110 هـ 728 م.

10- من الآية 96 من سورة الأنعام. (فالِق الإصْباحِ وجَعَلَ الليلَ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسباناً).

(بالعَشِيِّ والأَبكار[1]) كأنه جَمْعُ (بَكَرٍ) مِنْ قولِهم: (لَقيتُه بَكَراً). ويَجوزُ أنْ تكونَ (الأبْكارُ) جَمْعَ بُكْرَةٍ. فيكونُ الحالُ على قولنا (بُكرٌ وأبكارٌ) كما يُقال (جُنْدٌ وأَجْنادٌ).

فتقولُ تلك الحيةُ: "لقد سَمِعْتُه يَقْرأُ هذه القِراءةَ. وكنتُ عليها بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ. فلمَّا تُوُفِّيَ رَحِمَه اللهُ، انْتَقلْتُ إلى جِدارٍ في دارِ (أبي عمروِ بنِ العَلاءِ[2]). فسَمِعْتُه يَقْرأُ. فرَغِبتُ عن حُروفٍ مِنْ قِراءةِ (الحَسَنِ) كهذينِ الحَرْفَيْنِ، وكقولِهِ (الأنجيل) بِفتحِ الهمزَةِ. فلمَّا توفِّيَ (أبو عمرو) كَرِهتُ المَقامَ. فانْتَقَلْتُ إلى الكوفةِ. فأقَمْتُ في جِوارِ (حَمزةَ بنِ حَبيبٍ[3]). فسَمِعْتُه يَقرأُ بأشياءَ يُنكِرُها عليهِ أصحابُ العربية. كجَرِّ كلمةِ (الأَرْحامِ) في قولِهِ تعالى (واتَّقُوا اللهَ الذي تَساءَلونَ به والأرحامِ[4])، وكَسْرِ الياءِ في قولِه تعالى (وما أنتم بِمُصْرِخِيِّ[5]). وكذلك تَسْكينُ الهَمْزةِ في قولِهِ تعالى (استكباراً في الأرض ومَكْرَ السيِّئْ[6]). وهذا تَغييرٌ لِقواعِدِ العربيةِ لأنَّ (الفُرقانَ) ليس مَوْضِعاً للضَّروراتِ النَّظميَّة. وإنَّما حُكِيَ مِثْلُ هذا في الشعرِ المَنْظومِ. وقد رُوِيَ أنَّ امرأَ القيس قالَ:

فاليـومَ أشْـرَبْ غيـرَ مُسْـتَحْقِبٍ إثْـمـاً مِـنَ اللـهِ ولا واغِـلِ[7]

وبعضُهم يَروي (فاليومَ أُسْقى). وإذا رُوِيَ (فاليومَ أشربْ) فهي إشارةٌ إلى (الضَّمَّةِ) التي لا موقعَ لها في الوزن. وقد زعَم سيبويه أنَّهم يفعلون ذلك في قولِ الراجزِ:

1- من الآية 41 من سورة (آل عمران): (واذكُرْ ربَّك كثيراً بالعَشِيِّ والإبكار).

2- مرت ترجمته

3- (حمزة بن حبيب الزيات). أبو عِمارة الكوفي. أحد القراء السبعة. مولى آل عِكرِمة بن ربعي التيمي. لقب بالزيات لأنه كان يجلب الزيت مِنَ الكوفة إلى حلوان، ويأتي مِنْ حلوان إلى الكوفة بالجبن والجوز. ولد عام 80 هـ 699 م. وتوفي عام 156 هـ 773 م في حلوان عن ستة وسبعين عاماً.

4- من الآية 1 من سورة النساء. وقراءة الجمهور بنصب الأرحام.

5- من الآية 22 من سورة إبراهيم (وما أنتم بِمُصْرِخِيَّ).

6- من الآية 43 من سورة فاطر. وهي (استكباراً في الأرض ومَكْرَ السيِّئِ).

7- (مُسْتَحقِب): من (حقَبَ الشيءَ): حمله. ويقال: (استحقب الإثمَ): حمله. (الواغِل): من (وغَلَ في الشيء): أمعن فيه. والمعنى هنا أنه يشرب الخمر غير حامل إثماً ولا موغلاً فيه.

متــى أنــامُ لا يُؤَرِّقُنــي الكـرى ليــلاً ولا أَسْــمِعُ أصــواتَ المَطِــيْ

فأَبْطَلَ عمل (متى) الشَّرْطِيَّةِ التي تَجْزِمُ فِعْلَيْ الشرطِ وجَوابِ الشَّرْطِ. وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يَكونوا يَحْفِلون بالإعرابِ. فأمَّا قولُ الراجزِ:

إذا اعْوَجَجْــن قلتُ صاحِــبْ قَوِّمِ في الدَّوِّ أَمْثــالَ السَّــفينِ العُوِّمِ[1]

فإنَّهُ مِنْ عَجيبِ ما جاءَ. وقد غَفِلَ قائِلُهُ عن أنْ يقولَ: (صاحِ قَوِّمِ) فلا يَختلُّ الوزنُ. ولكنَّ الذين يَحْتَجُّون له يَزعُمونَ أنَّه أرادَ أنْ يُوازِنَ بين جُزئَيْ آخرِ الشَّطْريْنِ. لأنَّ قولَه: (حِبْ قَوِّمِ) يُعادلُ وزنَ (نِلْ عُوَّمِ). وهذا يُشْبهُ ما ادَّعَوْه في قولِ المُتَنخِّل الهُذَلِي:

أَبيــتُ علــى مَعــارِيَ فاخِــراتٍ بهِــنَّ مُــلَــوَّبٌ كَــدَمِ الــعِــبــاطِ[2]

إذْ يَزْعُمُ النَّحويونَ أنَّه كانَ يَجِبُ أنْ يقولَ (مَعارٍ). لكنَّه جاءَ بِالياءِ مُخالِفاً القاعدةَ كَراهةَ الزِّحافِ. وهذا قولٌ مَرفوضٌ يَنْقُضُهُ أنَّ في هذه القصيدةِ أبياتاً كثيرةً لا تَخلو مِنَ الزِّحافِ. ومِنْها زِحافُه في أولِ بيتٍ مِنْ هذه القصيدةِ:

عَرَفْــتُ بأجْــدُثٍ فَنِعــافِ عِــرْقٍ عَــلامــاتٍ كــتَحْبــيــرِ الــنِّــماطِ[3]

فإنَّ فيه زِحافين من هذا الجِنْسِ. ثم يجيء في كُلِّ الأبياتِ إلا ما نَدَرَ.

وقد رُوِيَ عن الأصمعيِّ أنَّه لم يسمِعِ العربَ تُنشِد إلا

أبــيــتُ عــلى مَــعــارٍ

1- (اعْوَجَجْن): عاجوا بالإبل. (الدَّوُّ): الفَلاة الواسعة. (العُوِّم): العائمة. والمعنى أنه قال لصاحبه عندما مالت الإبل نحو الديار أن يجعل الإبل تمشي في الصحراء كأنها السفن العائمة.

2- (المَعاري): ج مَعرى ومَعراة. وهي الفُرش. (المُلَوَّب): المَخْلوطُ بالمِلاب. وهو نباتٌ طيبُ الرائحةِ كالزعفران. (العِباط): ج عَبيط. وهي الذبيحة السمينة التي تُذْبَح مِنْ غير عيب فيها. والمعنى أنه ينام على فراش فاخر. وهذا الفراش مطيَّبٌ بالمِلاب الذي يشبه دم الذبيحة ذاتِ العافية.

3- (أجدث ونعاف عرق): موضعان. (العلامات): آثار الأطلال. (التَّحْبير): الوشيُ والتزيين. (النِّماط والأنماط): نوعٌ من البُسُط. والمعنى أنه عَرَفَ في هذه الأماكن آثارَ الديار التي تشبه وَشْيَ البُسُط. والبيت على وزن (الوافر).

بالتنوينِ على القاعدةِ.

فيعجبُ الشيخُ – جَعَلَهُ اللهُ مع الأبْرارِ المتَّقينَ – مِمَّا سَمِعَه مِنْ تلك الحيةِ. فتقولُ له: "ألا تُقيمُ عندنا بُرهَةً مِنَ الدَّهْرِ؟ فإني إذا شِئْتُ انْتَفَضْتُ مِنْ إهابي فَصِرْتُ مثلَ أَحْسَنِ غَواني الجنةِ. لو تَرشَّفْتَ رُضابي لَعَلِمْتَ أنَّه أفضَلُ مِنَ الدِّرْياقَةِ التي ذَكَرَها (تَميمُ بنُ مُقْبِلِ العَجْلانِيِّ)[1] في قولِه:

سَـقَـتْـني بِـصَهْـبـاءَ دِريـاقَةٍ متـى مـا تُلَيِّـنْ عِظامـي تَلِـنْ[2]

ولو تنفَّسْتُ في وجهِك لَأَعْلَمْتُك أنَّ (عبلةَ) صاحِبةَ (عنترةَ بنِ شداد) مُنْتِنَةُ الرائحةِ. وإنَّما أَعْني قولَ عنترة:

وكـأنَّ فـارةَ تـاجِـرٍ بِقَسـيمةٍ سَـبَقَتْ عوارضَها إليك مـن الفَمِ[3]

ولو أَدْنَيْتَ وِسادَكَ إلى وِسادي لَفَضَّلتَني على التي يَقولُ فيها مجنونُ ليلى:

باتَتْ رَقوداً وسـارَ الرَّكْبُ مُدَّلِجاً ومـا الأوانِـسُ في فِكْرٍ لِسـارينا[4]

كأنَّ ريقَتَهـا مِسْـكٌ علـى ضَـرَبٍ شـيبَتْ بِأَصْهَبَ مِنْ بَيْعِ الشآمينا[5]

يـا ربِّ لا تَـسْـلُبَنِّي حُبَّهـا أبـداً ويرْحـمُ اللـهُ عَبْـداً قـالَ: آمينـا".

فيخافُ منها الشيخُ – جَعَلَ اللهُ أَمْنَه متَّصِلاً وجَعَلَ مَنْ يَطلبُ اللَّحاقَ بشأوِه خاسِراً –، ويَذهبُ مُهَروِلاً في الجنةِ ويقولُ في نفسِهِ: "كيف يُرْكَنُ إلى حيَّةٍ شرفُها السُّمُّ، ولها بِالَقتْلِ هَمٌّ". فتُناديهِ الحيةُ: "هَلُمَّ إنْ شئتَ اللذةَ. فإنِّي أَفْضَلُ مِنْ (حيَّةِ ابنةِ مالِك) التي ذَكَرَها (عنترةُ العبسيُّ) في قولِه:

1- مرت ترجمته

2- (الدِّرياقة): هي الترياق. ويقصد بها الخَمرة التي تَشفي. (تُلَيِّن عظامي): تَجعلها لينة. والمقصودُ أنها تُطَرِّيه وتُعيده إلى الشباب.

3- (الفارة): رائحةُ المسك. (القَسيمة): سوق المسك. (العوارِض): منابت الأضراس. والمعنى أنَّ رائحة المسك تسبق إليك من رائحة فمها.

4- (الرَّقود): النائم. للتذكير والتأنيث. (المدَّلج): من (أدلج): سار ليلاً.

5- (الضَّرَب): العسل الأبيض. (شيبت): خُلِطَت. من (شاب). (من بيع الشآمينا): مِمَّا يُباع في الشام.

مـا وَلَدَتْنـي حَيَّـةُ ابْنَـةُ مالـكٍ سِـفاحاً ولا قَوْلـي أَحاديـثُ كاذِبِ

وأنا أَطْيَبُ مَعْشَراً من (حَيَّةَ ابنةِ أزهَرَ) التي يقول فيها القائلُ:

إذا مـا شَـرِبْنا مـاءَ مُـزْنٍ بِقَهْوةٍ ذَكَرْنـا عليهـا حَيَّـةَ ابنـةِ أزْهَـرا

ولو أقَمتَ عندنا إلى أنْ تختبرَ وُدَّنا وإنْصافَنا، لَنَدِمتَ إنْ كنتَ في الدارِ العاجلةِ قتلتَ حَيةً أو ثعباناً.

فيقولُ وهو يَسْمَعُ خِطابَها الرقيقَ ويَمْضي عنها: "لِيُضَيِّقِ اللهُ عليَّ مَراشِفَ الحُورِ الحِسانِ إنْ رَضيتُ بتَرَشُّفِ هذه الحيةِ".

عَوْدَةٌ إلى حُورِيَّتِهِ

فإذا ضَربَ في غِيطانِ الجنة، لَقِيتْه الجاريةُ التي خَرَجَتْ مِنْ تلك الثَّمَرةِ فتقولُ له: "إنِّي أنتظرُكَ منذُ حينٍ. فما الذي مَنَعَكَ عنْ زِيارتِنا؟ ما طالتْ إقامتي مَعك فأُمِلُّ بالمُحاوَرَةِ مَسْمَعَك. فقد كانَ يَحِقُّ لي أنْ أَجِدَ لديك ما تَنْفَرِدُ به العَروسُ ليلةَ عُرْسِها. إذْ يَخُصُّها الرجُلُ بشيءٍ دونَ بَقِيَّةِ زَوْجاتِه".

فيقولُ لها: "كانَتْ في نفسي رَغْبةٌ في مُخاطَبَةِ أهلِ النارِ. فلمَّا قَضَيْتُ مِنْ ذلك وَطَراً، عُدْتُ إليكِ. فاتْبَعيني بينَ كُثبانِ العَنبرِ ورِمالِ المِسْكِ".

فيمشي بها في هِضابِ الفِرْدَوْسِ ورِمالِ الجِنان. فتقولُ: "أيها العبدُ المَرْحومُ. أظنُّك تَفعلُ مِثلما فَعَلَ امرؤُ القيس الكِنْدِيِّ في قولِه:

فَقُمـتُ بها أَمْشـي تَجُـرُّ وراءَها علـى إثْرِنـا أذيـالَ مِـرْطٍ مُرَحَّلِ[1]

فلمَّا أَجَزْنا سـاحَةَ الحـيِّ وانْتَحى بنا بطْـنُ خَبتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ[2]

1- (المِرْط): كل ثوب غير مَخيط. (المُرحَّل): المُوَشَّى.

2- (أَجَزْنا): اجْتَزْنا. (القِفاف): ج قُف. وهو الحجارةُ الغليظة. (بطن خَبت): مكان. (العقنقل): المعَقَّد. والمعنى أنه بعدما اجتازوا ساحةَ الحي وأرضَ خَبت ذاتَ الحجارة الغليظة المعقدة، هَصَرتُ بفودي رأسها.

هَصَـرْتُ بِفَوْدَيْ رأسِـها فتَمايَلَتْ عليَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلخَلِ[1]

فيقولُ لها: "العَجَبُ لِقدرةِ اللهِ. لقد أَصَبْتِ ما خَطَرَ في البالِ. فمِنْ أينَ لكِ عِلْمٌ بـ (امرئ القيس الكِنْديِّ) وأنتِ نشأتِ في ثَمَرةٍ تُبْعِدُك عن الجِنِّ والإنسِ؟".

فتقولُ له: "إنَّ اللهَ على كل شيءٍ قَديرٌ".

ويَعْرِضُ له حَديثُ امرئ القيس في (دارةِ جُلْجُلٍ) وما جرى له مع بنتِ عمِّهِ فاطمةَ وصُوْيْحِباتِها مِمَّا ذكرهُ في معلقتِهِ. فيُنْشِئُ اللهُ، جَلَّتْ عَظَمَتُه، حُوراً عِيناً يَتَمايَلْنَ في نَهرٍ من أنهارِ الجنةِ. وفيهن واحِدةٌ أَجْمَلُ مِنْهُنَّ كأنَّها صاحِبةُ امرئ القيس. فيترامَيْنَ بأَغْصانِ الطِّيبِ. ويَعقِرُ لَهُنَّ الراحِلَةَ. فيأكلُ ويأكُلْنَ مِنْ لَحْمِها ما لا يُمكِنُ وصفُهُ مِنَ المِتعةِ واللذةِ.

جَنَّةُ شُعَراءِ الرجزِ

ويَمُرُّ ببيوتٍ ليس لها ارْتِفاعُ بيوتِ الجنةِ. فيسألُ عنها فيُقالُ: "هذه جَنةُ شعراءِ الرجزِ مِمَّنْ غُفِرَ لهم تبارَكَ العزيزُ الوهَّابُ.

فيقولُ لهم: "لقد صَدَقَ الحَديثُ المَرْوِيُّ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعالِيَ الأمورِ ويَكْرَهُ سَفْسافَها). وإنَّ الرجزَ مِنْ سَفْسافِ الشعرِ. لقد قَصَّرتُم عن بَقِيَّةِ الشعراءِ أيها النَّفَرُ. فقُصِّرَ بكم".

ويَعرِضُ له (رُؤْبة[2]) فيقولُ له: "يا أبا الجَحَّافِ. ما أشدَّ وَلَعَكَ بِقَوافٍ ليستْ مُعْجِبَةً. تَضَعُ رَجَزاً على الغَيْنِ ورجَزاً على الطاءِ وعلى الظاءِ وعلى غيرِ ذلك مِنَ الحروفِ النافِرةِ. ولم تَكُنْ صاحِبَ قَوْلٍ يذهبُ عند الناسِ مَذْهبَ المَثَلِ، ولا صاحِبَ لَفظٍ عَذْبٍ يُسْتَحْسَنُ".

1- (هصرتُ): جذبتُ وثَنَيْتُ. (الهَضيم): النحيل. (الكَشْح): الخِصْر. (الريَّا): المُمتلئ. (المُخَلْخَل): موضِعُ الخَلْخال. أي أنها ممتلئة الساقين.

2- (رؤبة بن العجَّاج): هو رؤبة بن عبد الله البِصري التميمي. والعجَّاج لقب أبيه. اشتُهِرَ بالرجز هو وأبوه. توفي عام 145 هـ 762 م.

فيغضَبُ رؤبةُ ويقولُ: "ألي تَقولُ هذا وعني أَخَذَ (الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيدي)؟ وكذلك (أبو عمرِو بنُ العلاءِ)؟ وقد كنتَ في الدارِ السَّالِفَةِ تَفْتَخِرُ إذا وَقَعَتْ إليك لَفْظَةٌ مِمَّا نَقَلَهُ أولئك عني وعن أَشْباهي؟".

فإذا رأى الشيخُ – لازالَ خَصْمُه مغلوباً – ما في (رؤبةَ) مِنْ نَخْوةِ الغَضَبِ قالَ له: "لو جُمِعَ رَجَزُك ورجَزُ أبيك، لم تَخْرُجْ مِنْهُ قَصيدةٌ مُسْتَحْسَنةٌ. ولقد بَلَغَني أنَّ (أبا مُسْلِمٍ الخُراسانِيَّ) كلَّمكَ بِكلامٍ وَرَدَتْ فيه كلمة (ابن ثَأْداد) أي ابنُ الأمَةِ، فلمْ تَعْرِفْها حتى سَألتَ عنها في الحيِّ. ولقد كنتَ تأخذُ جَوائزَ المُلوك بغيرِ اسْتِحْقاقٍ. وإنَّ غيرَك أولى مِنْكَ بالأُعْطِياتِ والصِّلاتِ".

فيقولُ رؤبةُ: "أليسَ رئيسُكم (الخليلُ بنُ أحمد) في القديمِ، والذي تَرجِعون إليه لأنَّه وَضَعَ مقاييسَ اللغةِ كانَ يَسْتَشْهِدُ بِقولي ويَجْعَلُني له كالإمامِ؟".

فيقولُ الشيخُ – وهو ناطِقٌ بالقولِ الفَصيحِ –: لا فَخْرَ لك إنِ اسْتُشْهِدَ بِكلامِكَ. فقد وَجَدْناهُمْ يَسْتَشْهِدونَ بكلامِ أَمَةٍ حَقيرةٍ لَئيمةٍ تَحْمِلُ الحَطَبَ إلى النارِ المُوقَدَةِ في الصَّباحِ الباردِ الذي جَعَلَها تَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ. فهي تَحْمِلُ الحَطَبَ إلى المَوْقِدِ كي يتدفَّأ النَّائِمونَ. وإنَّ أَعْظَمَ أيامِها أنْ تَجنِيَ كَمْأَةً تأكلُها وتَعُدُّ ذلك مِنَ النِّعَم. وإنَّ زوجَها في عَملِهِ لا يعرفُ كيف يعتذرُ عن سوءِ أفعالِهِ، وهو بعيدٌ عن الفَهمِ والفطنةِ. وكم روى النُّحاةُ عن طفلٍ ما له في الأدبِ موضِعٌ، وعن امْرأةٍ لم يكنْ لها يوماً حليبٌ في صدرِها".

فيقولُ رؤبةُ: "أَجِئْتَ لِمُخاصَمَتِنا في هذا المَنْزِلِ؟ فامْضِ في طَريقِكَ. فقد أخذتَ من كلامِنا ما شاءَ لك اللهُ".

فيقولُ الشيخُ – أَسْكَتَ اللهُ مُجادِلَه –: "أَقْسَمْتُ ما يَصْلُحُ كلامُكُمْ لِلمَديحِ. وهو ليس أفضلَ مِنَ القَطْرانِ. تَصُكُّونَ مَسامعَ المَمْدوحِ بِالصَّخْرِ وهو لا يَطْرَبُ إلا بِالكلامِ الطريِّ الذي يُشبِهُ العِطرَ. وهل خَرَجْتُمْ عن وَصْفِ جَمَلٍ تَرثون له مِنْ طولِ العَمَلِ إلى وَصْفِ فَرَسٍ سابِحٍ أو وَصْفِ كلبٍ لِلصَّيْدِ نابِحٍ؟ فإنَّكم غيرُ راشِدين".

فيقولُ رؤبةُ: "إنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى قالَ: (يَتَنازَعونَ فيها كَأْساً لا لَغوٌ فيها ولا تَأثيمٌ)[1]. وإنَّ كلامَكَ مِنَ اللَّغْوِ. وأنت لا تَعْرِفُ الإنْصافَ".

فإذا طالتِ المُخاطبةُ بين الشيخِ وبين رؤبةَ، سَمِعَ (العجَّاجُ) ما قيلَ، فجاءَ يطلبُ الحَجْزَ بينهما.

متعةُ الجنة

ويَعرِضُ لِلشيخِ – أذكرَهُ اللهُ بالصالحاتِ – ما كانَ يَلْحَقُ شاربَ الخمْرِ مِنْ فُتورٍ في الجَسَدِ. فيختارُ أنْ يَلْحَقَ به ذلك مِنْ غيرِ أنْ يَضِيعَ له عَقْلٌ ولا يَخْفى عليه طَريقٌ مِنْ شِدَّةِ السُّكْرِ. فإذا هو يَشْعُرُ في عِظامِهِ النَّاعِمَةِ دَبيبَ نَمْلٍ سارَ في الليلةِ المُقْمِرَةِ على رملٍ. فيترنَّم بقولِ (إياسِ بنِ الأرتِّ)[2]:

أعاذلَ لو شَربتِ الخمرَ حتى ... يَظَلَّ لِكُلِّ أُنْمُلَةٍ دَبيبُ
إذن لَعَذَرتِني وعَلِمتِ أني ... لِما أتْلَفْتُ من مالي مُصيبُ

ويتَّكئُ على مَفْرَشٍ مِنَ السُّنْدُسِ، ويأمُرُ الحُورَ العِينَ أنْ يَحْمِلْنَ ذلك المَفرشَ، فيضَعْنَه على سريرٍ مِنْ أسرَّةِ أهلِ الجنةِ. وهو سريرٌ مِنْ زبرجدٍ أو عَسْجَدٍ. ويُكوِّنُ البارئُ لِذلك السريرِ حَلَقاتٍ مِنَ الذَّهبِ تُربَطُ به مِنْ كُلِّ الأنْحاءِ. فيأخُذُ كلُّ واحِدٍ مِنَ الغِلْمانِ وكلُّ واحدةٍ مِنَ الجَواري الشَّبيهَةِ بالجُمانِ واحِدةً مِنْ تلك الحَلَقاتِ. فيُحمَلُ على تلك الحالِ إلى مَحَلِّهِ المُشَيَّدِ بِدارِ الخُلودِ. وكُلَّما مَرَّ بِشَجَرةٍ رَشَّتْهُ أَغْصانُها بِماءِ الوَرْدِ قد خُلِطَ بِماءِ الكافورِ، وبِمِسْكٍ ما جُنِيَ مِنْ دِماءِ الظِّباءِ، بل هو بِتَقْديرِ اللهِ الكَريمِ. وتُناديهِ الثَّمَراتُ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ وهو مُسْتَلْقٍ على ظَهْرِهِ: "هل لك يا أبا الحسن، هل لك"؟ فإذا أَرادَ عُنقوداً مِنَ العِنَبِ أو غَيرِهِ، قُطِفَ مِنَ الشَّجَرةِ بِمشيئةِ اللهِ، وحَمَلَتْهُ القدرةُ إلى فَمِهِ. وأهلُ الجنةِ يَلْقَونَهُ بأصْنافِ التحيةِ وهم يَقولونَ: (وآخِرُ دَعْواهُم أنِ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمين[3]).

1- سورة (الطور) الآية 23.

2- مرت ترجمته.

3- سورة يونس. من الآية 10.

ولا يزالُ الشيخُ كذلك أبداً سَرْمَداً، ناعِماً في الوقْتِ المُتَطاوِلِ مُنَعَّماً. لا تَجِدُ تَغَيُّراتُ الدهرِ إليهِ طَريقاً.

وقد أَطَلْتُ في هذا الفَصْلِ. ونعودُ الآنَ إلى الإجابةِ عَنِ الرسالةِ.

الجزء الثاني

الإجابةُ على رسالةِ ابنِ القارح

وفاء ابن القارح

فَهِمْتُ أنَّ قولَ الشيخِ: (جَعَلَنيَ اللهُ فِداءَهُ) لا يَذهَبُ به إلى النِّفاقِ، ولا يَبتَعِدُ به بُعْدَ ابنِ آدمَ عن الوِفاقِ. والوفاءُ غريزةٌ خُصَّ بها الشيخُ دونَ غيرِهِ. فإنَّ الناسَ يَتَعايَشونَ بِخِداعٍ، وأضْحَوْا مِنَ الكَذِبِ في إبْداعٍ.

شيرين وكسرى[1]

لو قالتْ شيرينُ المَلِكَةُ لِكسرى: "جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ في إقامَةٍ أو سَفَرٍ"، لَخَدعَتْهُ في ذلك ونافَقَتْهُ وإنْ كانتْ قد راقتْهُ وهيَ مِنْ غيرِ زينةٍ، ووافَقَتْهُ لأنه أَخَذَها مِنْ حالٍ دَنِيَّةٍ فجَعَلَها في النُّعمى والمَرْتبةِ السنِيَّةِ. فَعاتَبَهُ في ذلك الأَحِبَّاءُ، وجَرَتْ لهم في ذلك قِصَصٌ وأنباءٌ. وقيلَ له فيما ذُكِرَ – واللهُ العالمُ بِمَنْ عابَها أو اسْتحْسَنَها –: "كيفَ تَطيبُ نَفْسُ المَلِكِ لِهذهِ المُومَسِ وهي الغارِقةُ في الدَّنَسِ".

فضَرَبَ لهم المَثَلَ بِالقَدَحِ. فإنَّ الغانِيَةَ إذا حَظِيَتْ بمُعْجَبٍ بها لم تَفتقرْ إلى مَنْ يُدافعُ عنها. فقد جاءَ كِسرى بقَدحٍ وجَعَلَ فيه الشَّعْرَ والدَّمَ وقالَ لِلحاضرِ: "أَتَسْتَجيبُ نفسُك لِشُربِ ما في هذا القَدَحِ، أم تَجْنَحُ إلى الابتعادِ عنه والتَّخَلُّصِ مِنْهُ؟".

1- (كسرى): هو كسرى أبرويز بن هرمز بن أنو شروان. مِنْ مُلوكِ الدولة الساسانية. و(أبرويز) لقب أطلق عليه. ومعناه (المُعَظَّم). حكم بين 590 و 628 م. وفي عهده وقعت حربُ (ذي قار) التي انتصر فيها العربُ على الفرس. وقد غزا بلادَ الشام وآسيا الصغرى. وكادت جيوشه أن تدخل القسطنطينية. وغزا مدينة القدس وأخذ الصليب الذي عُلِّق عليه المسيح. و(شيرين): زوجة كسرى أبرويز. اشتُهِرتْ بالجَمال. كانت خادمة في بيت أحد الأشراف. فرآها كسرى وعشقها. وكانت نصرانية. فأَحْسَنَ زوجُها معاملة النصارى إكراماً لها. وكان لها عليه سلطانٌ عظيم. ومع قوة مكانتها في البلاط الفارسي فإنَّ حكايتها يَحوطها الغموض. ويُوجَد على الحدود العراقية الإيرانية قصر باسمها. وحولها كُتِبَ شِعرٌ كثيرٌ في عدة لغات.

فقالَ له: "إنَّها لا تطيبُ. فهي مزيجٌ مِنْ أنواعِ النَّجَاساتِ".

فأراقَ المَلِكُ ذلك الشيءَ وغسلَ القدحَ وهذَّبَهُ ثم دَهَنَهُ بالعَسَلِ. ثم جَعَلَ فيه مُداماً وعَرَضَها على النَّدامى. فكلُّهم تَمَنَّى أنْ يَشْربَ. ومَنْ يَعافُ الخَمرَ المُعَتَّقَةَ؟ ثم قالَ لهم: "هذا مَثَلُ شيرين. فلا تَكونوا في السَّفَهِ سائِرين".

حديثٌ عن النِّفاق

كم مِنْ شِبْلٍ نافَقَ أسداً، وأَضْمرَ له غِلاًّ وحَسَداً. وكم مِنْ لَبوةٍ تُداجي أسداً قوياً وتُخْفي له الكُرْهَ والبُغْضَ. وكم مِنْ ضَيْغَمٍ نَقَمَ على فُرهودٍ، وودَّ لو دفَنَه في الوُهُودِ. والفُرْهودُ ولدُ الأسدِ في لغةِ بعضِ العربِ. والوُهُود هي الوِهادُ.

ملاحظة

إن الشيخَ الجليلَ – آنسَ اللهُ الإقليمَ بِقُرْبِه – أَجَلُّ مِنْ أنْ يُشْرَحَ له معنى الفُرهود والوُهود. وإنَّما أَخافُ مِنْ وُقوعِ هذه الرسالةِ في يَدِ غُلامٍ ناشئٍ مُتَرعْرِعٍ ليس إلى الفَهْمِ بِمُسْرِعٍ. فتَستَعجِمُ عليه اللفظةُ. فيظلُّ معها كأنه مربوطٌ في قَيْدٍ. لا يقْدِرُ على المُضِيِّ عنها ويظلُّ واقِفاً عندها.

عودةٌ إلى الحديث عن النفاق

وكم خَدَعَتِ الذئابَ بالمَودَّةِ إناثُها، وعلى الكُرْهِ تَنْطوي ضَمائِرُها.

وكم مِنْ مَلِكٍ رَفَعَ مَكانةَ مَلِكَةٍ ولايَنَها، فدبَّرَتْ له مَهْلَكةً. وقد يَقولُ القائِلُ لِصاحِبِهِ: "بأبي أنتَ. إنك جادٌّ في عَمَلِكَ ومُتْقِنٌ له". ولو استطاعَ هذا القائلُ أَنْ يَقْطَعَ عُنُقَ صاحبِهِ لَفعلَ. وإنَّما جامَلَ وكَذَبَ.

ولعل بعضَ الدُّيوك يُلْقي إلى الدَّجاجةِ البائِضةِ حَبَّةَ البُرِّ، ويأنسُ بِها في حَرٍّ وقَرٍّ. وفي فؤادِه مِنَ الحِقْدِ عليها أَعاجيبُ. وفي الحياةِ تكثُرُ وتَقِلُّ المَناجيبُ.

ملاحظة

و(المَناجيب) هَهُنا تَحْتَمِلُ مَعْنَيين: أحدُهما مِنَ النَّجابَةِ. والآخَرُ مِنْ قولِهم

(مَناجيبُ): أي ضِعافٌ. وهذا المَعنى مَأخوذٌ مِنْ قولِ أبي خَراشٍ الهُذَلي[1]:

بَعَثْتُهُ في سَوادِ الليلِ يَرْقُبُني إذْ آثَـرَ النَّـوْمَ والـدِّفْءَ المَناجيـبُ

ومعنى (تكثر وتقلُّ المَناجيبُ) أنَّ المَناجيبَ مِنَ النَّجابة قليلون، وأنَّ المَناجيبَ مِنَ الضَّعْفِ والوَهَنِ كثيرون.

عودةٌ إلى الحديثِ عن النفاق

ولعل ذلكَ الديكَ الكذابَّ يَرقُبُ لِلدجاجَةِ حِماماً، ولا يَرعى لها ذِماماً. وهو يقولُ في نفسهِ: "أتَمَنَّى أنَّ الذابحَ يُبَكِّرُ على تلك الدَّجاجةِ لأنَّها مُبْغِضَةٌ لي". أو يقولُ: "لو أنِّي طُبِخْتُ في القِدْرِ، لتزوَّجَتْ هذه الدجاجةُ مِنَ الدِّيَكَةِ شاباً يُقدِّمُ إليها حُبَّاً وقُبَلاً".

مذاكرة لغوية

وأنا أُذاكِرُ الشيخَ بِكلمةِ (جعلني اللهُ فداءَه) إذْ كانَ قد بدأَ مُخاطَبتي بالإيناسِ وتَرَكَ مَكايِدَ الناسِ. وفي هذه المُذاكرةِ أسألُه: "ألا يَعْجَبُ مَولايَ الشيخُ مِنْ قولِ العربِ (فداءٍ لك) بالكسرِ والتنوينِ كما قالَ الراجِزُ:

ويهـاً فِـداءٍ لـك يـا فَضالـهْ أَجِـــرَّهُ الـرُّمْـحَ ولا تُـبـالَـهْ[2]

ويذكر (أحمدُ بنُ عُبَيْدِ بنِ ناصح) – وهو المَعْروفُ بأبي عَصِيدَةَ[3] – أنَّ قولَهم (فداءٍ لك) بالكسر والتنوين لا يَجوز فيها الكسرُ إذا كانَ لها ما يَجْعلُها مَرفوعةً. وهو يَنْقُلُ ذلك عن العلماءِ الكوفيين. ودليلُه في ذلك قولُ (النابغةِ الذبياني):

مَهْـلاً فِـداءٌ لـكَ الأقـوامُ كلُّهـمُ ومـا أُثَمِّـرُ مِـنْ مـالٍ ومِـنْ ولَـدِ

1- (أبو خَراش الهذلي): هو خويلد بن مرة من تميم بن سعد بن هذيل. شاعر صحابي مخضرم. توفي في خلافة عمر بن الخطاب.

2- (أَجِرَّه الرمحَ): فعل أمر مِنْ (أجَرَّه الرمح): طعنه به. والمعنى أن الشاعر يطلب مِنْ فَضالة أنْ يطعن خصمه بالرمح وأن لا يبالي به.

3- (أحمد بن عُبيد بن ناصح): البغدادي المعروف بأبي عصيدة. مولى بني هاشم. ديلمي الأصل. نحوي ومُحَدِّث. توفي في بغداد وهو في التسعين من عمره عام 278 هـ 891 م.

أما العلماءُ البِصريون فقد رَوَوْا في هذا البيتِ (فِداءٍ لك).

تَصحيحاتٌ في المعاني

كيفَ يقولُ الشيخُ المُخْلِصُ البعيدُ عن الهِجرانِ: "إنَّ حَنينَه حَنينُ والهٍ مِنَ النوقِ[1]" وهي التي تَذْهَلُ عن كُلِّ شيءٍ إذا حُمِل عليها بعضُ الأحْمالِ الثقيلةِ؟ إنَّها تَتَأوَّهُ حَنيناً إلى ولدِها ثلاثَ مراتٍ أو أربعاً ثم تَنساه.

فأمَّا الحمامةُ الوالِهَةُ بِغنائِها لفَقْدِ أولادِها، فقد رزقَها اللهُ في هذا الشأنِ صِيتاً شائِعاً، وظلَّ وصفُها الكاذبُ هذا ذائِعاً. فهي تَنْهَضُ إلى الْتِقاطِ الحَبِّ وتَعود إلى فَرْخِها. فإنْ أكلَهُ صَقرٌ أو شاهينٌ، كانَتْ عن فَرخِها مِنَ اللاهين. فشأنُها شَأنُ الحَيَوانِ. تَمَلُّ حالَها في أقصَرِ أوانٍ.

وقد زَعَمَ زاعِمٌ لا يُصَدَّق أنَّ الحَمائِمَ في هذا العَصْرِ يَبكينَ طَيْراً صَغيراً هَلَكَ في عَهْدِ نوحٍ. ويُقالُ إنَّ دَوامَها على ذلك دَليلُ الوَفاءِ. ولو صحَّ ذلك فهل هناك عِوَضٌ عن خَليلِ الصَّفاءِ حين يُفْقَدُ؟ وأقولُ إنَّه لا عِوَضَ عنه ولا نائبَ له إلا فيه. فإذا تَفرَّقَ الخِلانُ فهل يُعاتَبُ الزمنُ على تَجافيه؟ وإنَّما الزمنُ حُشِيَ بالشرِّ والغَدْرِ.

وأما الظبيةُ، فإنها لا توصَفُ بحَنينٍ[2]. ولكنَّها تَبحَثُ عن طعامِها مِنَ البُقولِ ومِنَ الثَّمَرِ اليانعِ مِنْ شَجَرِ الأراكِ. ولا تقولُ لِفارسِ الخَيْلِ الضامِرةِ أنْ يبتعدَ عنها إذا أرادَ صيدَها. ومَنْ كانَ في المَخلوقاتِ يغيبُ وَجْدُهُ وحزنُه وحَنينُه عن الخاطرِ والبالِ، فإنَّه إذا اشْتاقَ إلى ولدِه المَفْقودِ، فسوف تَجعلُهُ الأيامُ ناسِياً له كأنَّه ما جَزِعَ عليه.

وما أقلَّ صدقَ الأصحابِ والخِلانِ حتى لو قَدَّرْنا أنهم يُساوون الذهبَ لوفائِهم. وقد قالَ (كُثَيِّر عزة)[3]:

1- يشير المعري هنا إلى قولِ ابن القارح في رسالته: (ولو حَنَنْتُ إليه أدامَ الله تأييده حَنينَ الناقة الوالهة إلى بكرها)

2- يشير إلى قول ابن القارح (أحنُّ إليه حنين الغزالة إلى ولدها).

3- مرت ترجمته.

وليـس خَليلي بالمَلـولِ ولا الذي إذا غِبْـتُ عـنـه باعَـنـي بِخليـلِ

وأحسِبُ أن (كثيِّراً) تفوَّه بهذه المقالةِ مَخْدوعاً لِأنَّه ما عَرَفَ الشرَّ مِنَ الأصْحابِ. فكأنَّه عاشَرَ مَلَكاً أو كأنَّه يَطيرُ بينَ الأفلاك ولا يَمْشي على الأرضِ. وهل يُقدَرُ على إخاءِ مَلَكٍ، أم كيف يُرْتَفَعُ إلى الفَلَك؟

تواضعُ المعري وتبرُّؤُه مِنْ شُهرتِه بالعلمِ

وأمَّا ما ذكرَهُ الشيخُ مِنْ حالي في العلمِ – أسألُ اللهَ أنْ لا تُصيبَهُ حوادثُ الدهرِ، وأن يُمتَّعَ بمالٍ حِيَرٍ – و(الحِيَرُ) هو الكثيرُ. قال الراجِزُ:

يـا ربَّنـا مَـنْ سَـرَّه أنْ يَكْبُـرا فَسُـقْ لـهُ يـا ربِّ مـالاً حِـيَـرا

فشأني[1] في هذهِ المكانةِ المُدَّعاةِ لي مِنَ العِلمِ، شَأنُ الوثنِ الذي أُعْطِيَ حَظَّاً وسُعوداً، فصارَ حُضورُه عند الجهَلَةِ مَوْعوداً. فإنْ سُرِرْتُ بِشُهرةِ العلمِ الباطِلَةِ، فكأني أُسَرُّ إنْ اشْتُهِرْتُ بِشُرْبِ الخمرِ. وليس لي إلا أنْ أصْبِرَ على هذه الشُّهْرَةِ الباطِلَةِ. فالصابِرُ مَأْجورٌ. ولا ريبَ أنَّها سَتَنْجَلي عني لأنَّ حالي سينكَشِفُ عند الناسِ كما يَكْتَشِفُ المُسافِرُ أنَّه لا ماءَ حيثُ نَزَلَ إذا نَزَلَ في ماءٍ يَجِفُّ في الصيفِ.

وأحْلِفُ إنِّي لَمَكذوبٍ عليه في العِلْمِ كما حَلَفَ (امرؤ القيس) عندما رَغِبَ في الإقامةِ عندَ المَحبوبةِ ولم يَخَفْ مِنْ أَحَدٍ:

فقلـتُ: يَميـنَ اللـه أَبْـرَحُ قاعداً ولو قطَّعوا رأسي لَديكِ وأَوْصالي

وأُقْسِمُ أيضاً بالكعبةِ التي أقسمَ بها (زهيرُ بنُ أبي سُلمى) مادِحاً (الحارثَ بنَ عَوْفٍ) و(هَرِمَ بنَ سِنان) بعدما سَعَيا في الصُّلْحِ بين الفريقين المُتحاربينِ حتى أكلتهما الحربُ:

فأَقْسَمْتُ بِالبيتِ الذي طافَ حَوْلَهُ رِجـالٌ بَنَـوْه مِـنْ قُرَيْـشٍ وجُرهُمِ

1- (فشأني): واقعة في جواب أما.

يَمينـاً لَنِعْـمَ السِّـيِّدانِ وُجِدْتُمـا على كُلِّ حالٍ مِنْ سَـحيلٍ ومُبْرَمِ[1]

وأُقسِمُ أيضاً باليمينِ القاطِعَةِ التي نَطقَ بها (ساعِدةُ[2]) ورُوحي إلى خالقِها صاعِدةٌ، فقالَ:

حِلْـفَ امـرئٍ بَـرٍّ سَـرِفْتِ يَمينَهُ ولَكُلُّ مَنْ ساسَ الأمورَ مُجَرَّبُ[3]

وأحلِفُ كما حَلَفَ (الفرزدقُ)[4] عندما أهداهُ رجلٌ باهلِيٌّ زِقَّ سَمْنٍ وطلبَ مِنْهُ أنْ لا يَهجوَ قومَه فقالَ:

ألـم تَرَنـي عاهـدْتُ ربـي وإنَّني لَـبَـيْـنَ رِتـاجٍ قـائِـماً ومَـقـامِ
على حِلْفَةٍ لا أشْـتُمُ الدَّهْرَ مُسْـلِماً ولا خارِجـاً مِـنْ فِـيَّ زُورُ كَلامِ[5]

إني أقسمُ كما أقسمَ هؤلاء بأنني مَكذوبٌ عليه بالعِلْمِ كما كذَبَتِ العربُ على الغولِ الذي لا يَعْرِفُ ما قيلَ على لِسانِه، وكما تَقَوَّلتِ الأمثالَ السَّائِرَةَ على (الضَّبِّ) وهو مُقيمٌ في الأرضِ الصلبةِ ومُتَعلِّقٌ بها ولا يَدري عمَّا يُنسَبُ إليه شيئاً، وكما تكلَّمتْ العربُ أيضاً على لِسانِ الضِّباعِ وهي خَرْساءُ، ما أَطْلَقَ لِسانَها الصباحُ أو المَساءُ.

1- البيتان مِنْ معلقته التي يمدح بها (الحارث بن عوف) و(هرِم بن سنان) بعدما سعيا في الصلح بين عبس وذبيان اللتين تحاربتا زمناً طويلاً. و(البيت): الكعبة. و(جُرْهُم): قبيلة كانت ترعى شؤون الكعبة قبل قريش. و(السَّحيل): خيطٌ واحد. و(المُبْرَم): خَيْطان فُتِلا حتى صارا خيطاً واحداً مُبْرَما. والمعنى أنهما سيِّدان اتفقا على فعلِ الصلح فكأنهما خيط واحد.

2- (ساعِدة بن جُؤبة الهُذَلي): شاعر جاهلي مُجيد.

3- (حِلْفَ): مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (أحلف). (سَرِفْتِ): أخطأتِ. مِنْ (سَرَف): أخطأ ولم يَعْرِف. والمعنى أنني أحلف يميناً لم تعرفيه مع أن كل من يتولى أمورَ الناس معروف مُجَرَّب. أي أنه ليس من حقك أنْ تجهلي صدقَ يميني لأنك تعرفين مَنْ أنا.

4- (الفرزدق): هو هَمَّام بن غالب بن صعصعة التميمي. أبو فِراس. سُمِّيَ الفرزدق لضخامة وجهه. و(الفرزدق) هو الرغيف. اشتُهِرَ بالمدح والفخر والهجاء. ولد عام 38 هـ 658 م. وتوفي عام 110 هـ 728 م.

5- (الرِّتاج): يقصد به رِتاجَ باب الكعبة. و(المَقام): مقام إبراهيم. أي أنه أقسم اليمين وهو في جوار الكعبة، بأنه لن يشتم مسلماً ولن يقول كذِباً. والنحاة يُعربون (خارجاً) على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف. والتقدير: (يخرج خروجاً). ورأينا أنه مفعول به ثان أو حال بتقدير: (لن تراني خارجاً مِنْ فيَّ زورُ كلامٍ).

يُظَنُّ أنَّني مِنْ أهلِ العِلْمِ. وما أنا بِصاحبِ عِلْمٍ ولا بِصاحبِ حِلْمٍ. وتلك بَلِيَّةٌ تَضيعُ معها الحقيقةُ. فالعلومُ تَقْتَضي المِراسَ والدرسَ وقراءةَ الكتبِ.

ويُقالُ إنَّني مِنْ أهلِ الدينِ. ولو ظَهَرَ ما أُخْفي مِنْ حَقيقتي، لَما اكتفى مَنْ وَصَفَني بالدينِ بِشَتْمي، بل لَوَدَّ أنْ يَسْقِيَني السُّمَّ. وكيف يُدَّعَى لِحِمارِ الوحشيِّ الذي يَسْرَحُ في الأرضِ القَفْرِ أنَّ تَغْريدَه في السَّحَرِ أشْعارٌ مَوْزونةٌ تَطْرَبُ لها الأذنُ المَحْزونةُ؟ وهل يُصَوَّرُ لِعاقِلٍ لَبيبٍ أنَّ الغُرابَ الناعِقَ صَدَحَ بِشِعْرِ الغَزَلِ والتَّشْبيبِ، وأنَّ العصافيرَ الطائرةَ بِأجْنِحَةٍ، تشبهُ نُوقَ (النعمانِ بنِ المنذرِ) التي كانت تُسمَّى (العصافيرَ)؟ وكيف يَظُنُّ الظانُّ أنَّ لِلطائرِ أغاريدَ حَمامةٍ؟ فلْيَسْكُتْ مَنْ زَعَمَ أنَّ الحَجَرَ مُتَكلِّمٌ وأنَّه عندَ الضَّرْبِ مُتأَلِّمٌ. ولْيَسْكُتْ أيضاً مَنِ التَمَسَ مِنِ زبَدِ أَفْواهِ الإبلِ ثِياباً تَكْسوه.

ولو كنتُ لا أَشْعُرُ بِما يُقالُ عني، لَاسْتَرَحْتُ مِنْ إِنْكاري لِما قيلَ، وكُنتُ كالوثنِ: سواءٌ عليه إنْ وُقِّرَ مِنَ الوقارِ، أو رُمِيَتْ عليه الأقذارُ، وكالأرضِ السَّبْخَةِ لا تَحفِلُ إنْ قيلَ عنها إنَّها خَصْبَةٌ يملؤها الزرعُ أو قيلَ لها إنَّها لا تُنبِتُ الزرعَ، ولَكُنتُ كالخروفِ المَذْبوحِ لا يأبَهُ لِقوْلِ مَنْ يأكُلُه إنه يَسِحُّ بالدُّهنِ أو إنَّه بالدهْنِ شَحيحٌ. وأنا أسْتَنْصِرُ باللهِ على البَرْقِ الخُلَّبِ الكاذِبِ.

وكيف أغْتبِطُ إذا افْتُرِيَ عَليَّ وعُزِيَتِ المَعرِفَةُ إليَّ؟ ولستُ آمِناً في العاقِبَةِ فَضيحةً غيرَ مناسِبة لي. ومَثَلي – إنْ فرحتُ بذلك – مَثَلُ مَنْ اتُّهِمَ بأنَّه صاحِبُ مالٍ، فاعْتَقَدَ أنَّ ما ذاعَ مِنْ خبرِ مالِه يَأتيه بِجَمالِ الأُحْدوثَةِ عنه في سيرَتِه. فَسرَّهُ قولُ الجَهَلَةِ عنه: (إنه حَليفُ الغنى واليَسارِ، وإنَّ الذهبَ في يمينِه واليسارِ). فطلبَ مِنْه بعضُ السلاطينِ أنْ يَحمِلَ إليه مِنْ مالِهِ جُمْلَةً وافِرةً. فصادَفَ السلطانُ مِنْهُ أكذوبةً سافِرةً. فضَرَبَه كي يُقِرَّ بِمالِهِ. فقُتِل بِسببِ العُقوبةِ في نهايةِ الأمرِ.

وشهِدَ اللهُ أنَّي أَفْرَحُ بِمَنْ عابَني لأنَّه صَدَقَ فيما أعرِفُ مِنْ أمْري وحالي. فإنِّي أَحْزَنُ لِثَناءِ مَكْذوبٍ يَتْرُكُني مِثْلَ الطَّريدةِ التي تبحثُ عن طعامِها. ولو نَطَحَتْني بَقَرَةٌ بِقَرْنَيْها لامْتَنَعْتُ عن الردِّ بكاملِ إرادتي. فغَفَرَ اللهُ لِمَنْ ظنَّ ظَنّاً حَسَناً بالمُسيءِ

وأطالَ عُمرَه. وأنا أكْرَهُ الحُضورَ بين الناسِ، وأُوثِرُ أنْ أَموتَ وَحيداً مِيتَةَ ظَبْيٍ في مَنزلِهِ مُسْتَتِراً بين الأشْجارِ. ولو اجْتَمَعَ معي أولئك الذين ظَنُّوا فيَّ العلمَ لَعَرفوا أنَّهم عن الرُّشدِ مائِلونَ، وأنَّهم لِلحَقِّ طامِسونَ، وأنَّهم لا يقبِضون مِنِّي إلا على ثَمَرٍ هو مِنَ الأشواكِ.

عودةٌ إلى ابن القارح

أمَّا وُرودُ الشيخِ حلبَ[1] – حَرَسَها اللهُ – فلو كانتْ تَعقِلُ لفرِحَتْ بِهِ فَرَحَ الإبِلِ التائِهَةِ المُهْمَلَةِ المَتروكةِ بِعَوْدَةِ راعيها الذي ابتعدَ عنها. فهو مُنقذُها الواحِدُ، وما هو لِحقِّها جاحدٌ. وقد قدِمَ إليها بعدَ أعوام، فارتوتْ به بعدَ طولِ عطشٍ. فكانت معه مثلَ البقرةِ الوحْشِيَّةِ ذاتِ الولدِ. رَتَعَتْ بولدِها في الأصيلِ في مكانٍ آمِنٍ مِنْ موتِهِ. وهو يحاولُ أنْ يَطَأَ الكلأَ. فلم تَخَفْ عليه مِنَ الذئبِ الكامِنِ لها. وانْبَسطَتْ في مرتَعِها الواسِعِ وأرضعَتْه ما في ثديِها. وقالتْ للهِ الصَّمَدِ: (لا تُتْعِبْ ولدي. فإنْ كانَ قد وَقَعَ في مَخالِبِ الذِّئبِ وأصابَهُ التعذيبُ، فأنت القادرُ يا ربِّ على حِمايةِ الأطْفالِ وأنت العالِمُ بِنتيجةِ الفألِ الحَسَنِ وبالتَّطَيُّر).

وكان حالُ حلبَ بِرجوعِهِ كحالِ الظبيةِ التي فَقَدَتْ وَلَدَها. وإذا بها، وهيَ بَينَ الحُزْنِ على وَلَدِها وبينَ الشَّوْقِ إليه، تَراهُ وقد ناداها وصوَّتَ لها وهو في كومةٍ مِنَ الرِّمالِ اتَّخَذَها مَرْبَضاً له وقد نَجا مِنَ الصَّيَّادين. فاطْمأنَّ بعدما شبِعَ مِنْ إطْعامِها له. فما ساءَهُ القَدَرُ ولا افترسَتْهُ السِّباعُ. فغَمَرَ فؤادَها البَهْجَةُ بعدما تبيَّنَ لها عَوْدَتُه.

ولو رجع (القارظُ العَنَزِيُّ) الذي يُضْرَبُ به المَثَلُ في امْتِدادِ غَيبتِهِ واليأسِ مِنْ عَودتِهِ إلى قَبيلتِهِ عَنَزَة، وطَرِبَ لعودتِهِ أهلُه، لَما كان فَرَحُهم إلا دونَ ما أنا مُضْمِرٌ مِنَ المَسَرَّةِ بعودةِ الشيخِ الجليلِ إلى الديارِ وإلقائِهِ عَصا التَّسْيارِ. فالحَمْدُ لِلهِ الذي أعادَ ضوءَ البَرْقِ إلى الغَمامِ الوَسْمِيِّ، (والوسْمِيُّ هو المطَرُ الذي يكونُ في أولِ الربيعِ)، وأعادَ البريقَ إلى الحُلِيِّ. وإنَّ حلبَ المَنْصورةَ تَحتاجُ إلى مَنْ يَعرِفُ قليلاً

1- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح في رسالته: (وردتُ حلب حماها الله تعالى).

مِنْ عِلْمٍ، في أيامِ الحربِ وأيامِ السِّلْمِ. فما بالُها بعودتِه وهو العالِمُ؟ وأدعو اللهَ أنْ يُشَيِّدَ الآدابَ بِأنْ يَزيدَ في عُمُرِهِ. لأنَّه رُبَّانُ سفينةِ الآدابِ.

الانتحارُ ورجوعُ المعري عنه

وإنِّي لَأعجبُ مِنْ تَوافُقِ جَماعةٍ على أمْرٍ ليس بالحَسَنِ ولا يَدُلُّ على طاعةِ اللهِ. وهو أمرٌ لم يَثبتْ له دَليلٌ يبلغُ حَدَّ اليقينِ فيُقدِمُ عليه المَرْءُ إقْدامَ مَنْ يبلغُ الصَّوابَ فيما يعمَلُ. وهو قتْلُ النفسِ. وقد كِدْتُ أَلْحَقُ بفعلِ هذه الجَماعةِ وأبلغُ العدَمَ مِنْ غير أسفٍ ولا نَدمٍ. ولكنَّما خِفتُ أنْ أُقدِمَ على اللهِ الجَبَّارِ ولم أُصْلِحْ حالي في الدنيا. فكنتُ شَبيهاً بصاحبِ النَّخلِ الذي أَهْمَلَ تَأْبيرَ نخلِهِ. وقيلَ لبعضِ الحُكَماءِ: "إن فلاناً تلَطَّفَ حتى قَتَلَ نَفْسَه ولم يُطِقْ في الدارِ الخاليةِ بقاءَهُ، وكَرِهَ أن يُمارِسَ بدائعَ الشُّرورِ وأحَبَّ الانتقالَ إلى مَنازِلِ السُّرورِ".

فقالَ الحكيمُ قولاً معناهُ: "أَخْطَأَ ذلك الشابُّ. هلاَّ صَبَرَ على صُروفِ الزمانِ وإنْ ابتلاهُ القَدَرُ بالبلاءِ؟ فإنه لا يعرِفُ عَلامَ يُقدِمُ وأيَّ بيتٍ يهدِمُ؟ وحِكْمَةُ اللهِ، جَلَّتْ قدرتُه، اقْتَضَتْ أنْ يُمْنَعَ الناسُ عن قتلِ النفسِ. وذلك بِتخويفهم مِنَ الهَلَعِ ومِنْ تَرْكِ الدنيا. ولولا ذلك لَرغِبَ كلُّ مَنِ احْتَدَمَ غضبُه أنْ يُترِعَ لنفسِهِ كأسَ الموتِ. واللهُ يعلمُ ما يُواسي الإنسانَ".

أبو القَطْرانِ الأسَدِيُّ[1]

وأما أبو القَطْرانِ الأسَديُّ – وأيُّ البشَرِ يَنْجو مِنَ الخُطوبِ والمَصائبِ – فصاحبُ غَزَلٍ وتَبَطُّلٍ، وتوفُّرٍ على النساءِ وتَعَطُّلٍ. وما أشكُّ أنَّ الشيخَ – أقرَّ اللهُ عينَ الأدبِ بالزيادةِ في عُمرِهِ – أشدُّ شوقاً إلى (ثعلبٍ أحمدَ بنِ يحيى)[2] مع صَمَمِهِ، وإلى (أبي

1- (أبو القطران الأسدي): المَرَّار بن سعيد بن حبيب الفَقْعَسيِّ الأسدي. شاعر إسلامي مُكثِر. ويشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن (أبي القطران) الذي أحب ابنة عمه (وحشية) فتزوجها رجل رحل بها إلى الشام. فما جنى أبو القطران إلا الألمَ.

2- مرت ترجمته.

الحسنِ الأثْرَمِ[1]) مع تَخَلُّعِ أسنانِه، مِنْ شوقِهِ إلى (أبي القطرانِ المَرّارِ بنِ سعيد) عند رجاءِ المَوعودِ والخَوفِ مِنَ الوَعيدِ. فأبو القطرانِ هذا هو المتيَّمُ الهائمُ بفتاتِهِ (وَحْشِيَّةَ) وإنْ فقدَ لفراقِها عقلَه، وتذكَّرَ ثغراً كأنه الوردُ وخداً يُشبِهُ حَبَّ العُصْفُر. وإنَّما وُدُّ الغانيةِ غُشٌّ وخِداعٌ، ولا يُوصِلُ إلا إلى الحُزْنِ والكَمَدِ. ولو ماتَتْ تلك المرأةُ وأبو القطرانِ على قيدِ الحياةِ، لَظنَّ أنَّه بموتِها يَموتُ ويُحمَلُ على النعشِ لا سيما وهو كبيرُ السنِّ ضعيفُ الهَمَّةِ. ولعلَّ أبا القطرانِ لو مُتِّعَ بفتاتِه (وحشيةَ) هذه زمناً مقدارُه مئةُ حِقْبةٍ دونَ خوفٍ مِنْ شيءٍ ودونَ أنْ يُراقِبَه ويترصَّدُه أحدٌ، لَجازَ أنْ يَمَلَّ مِنَ الوِصالِ حتى إذا علمَ أنَّ حَبْلَه معها على تَواصُلٍ واتِّصالٍ. ولو نزلَ بها شيءٌ يَجْعَلُها تتغيَّرُ به عن حبِّها له، لَتَمنَّى أنْ تُقْذَفَ إلى الأرضِ المُهْلِكةِ لأنَّ ابنَ آدمَ بَخيلٌ مَلولٌ، تَسيرُ به إلى الموتِ ناقةٌ قويةٌ ذَلولٌ. ولو أصابَ فتاتَه العَوَرُ بعد أنْ كانتْ عينُها ذات حَوَرٍ، لَظَنَّ أنَّ ذلك نتيجةُ ذنبٍ لا يُغْفَرُ ولا يُكَفَّر.

ومِنْ أينَ لأبي القطرانِ الأسديِّ ما وهبهُ اللهُ لِلشيخِ مِنْ وفاءٍ؟ وهو وفاءٌ لو علِمَ به (السَّمَوْءَلُ[2]) لَاعْتَرَفَ أنَّه مِنَ الغادِرينَ. ولو علمَ به (الحارثُ بنُ ظالمٍ[3]) لَشَهِدَ أنَّه مِنَ اللاَّهينَ السَّادِرينَ.

ملاحظة

كلمة (السادرين): من قولِهم (فعل كذا سادِراً). أي لا يهتمُّ لشيءٍ.

1- (أبو الحسن الأثرم) علي بن المغيرة الأثرم. العالم اللغوي النحوي. أخذ عن الأصمعي، وأخذ عنه ثعلب. توفي عام 232 هـ 846 م.

2- (السموءَلُ بنُ عاديا): الشاعر اليهودي الجاهلي. كان مضربَ المثل في الوفاء. فقد استودعه امرؤُ القيس دروعَه وسلاحَه. فأبى أنْ يسلِّمها ويفتديَ بها ابنَه الذي أُخِذَ رهينة. وإليه تُنْسَب القصيدة اللامية التي مطلعها:

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤم عِرْضُه فكـلُّ رداءٍ يَـرْتَـديـهِ جـمـيـلُ

توفي عام 560 م.

3- (الحارث بن ظالم) المُرِّيِّ من بني مُرَّةَ الذبياني. تَضرِبُ به العربُ المثلَ في الفتك فيقال: (أفتكُ من الحارث بن ظالم). أغار (خالد بن جعفر الكلابي) على قومه في طفولته. فلما كبر قتل خالداً هذا وهو في جوار (الأسود بن المنذر). والمعري يضرب به مثلاً عن الوفاء لأنه وفى عهدَ قومه بالانتقام لهم. توفي حوالي عام 600

عودةٌ إلى السياق

وأبو القطران بدوي في صحراء. فما عاشَرَ إلا إماءً وعَبيداً تَعْتَني بالإبِلِ. وما نَظَرَ إلا إلى عَقِبِ قَدَمَيْهِ الدامِيَيْنِ بِسببِ ما يَطَؤُهُ مِنَ الأشْجارِ ذاتِ الشَّوْكِ في مسكنه وأرضِه. على عكسِ الشيخِ الذي عاشرَ السَّادةَ وسارَ في الأرضِ اللَّيِّنَةِ. فمِنْ أينَ لأبي القطرانِ أنْ يُجارِيَ الشيخَ؟ وهل يَتَوازى مَنْ لا يعرفُ إلا أَكْلَ (الفَراسِ) أي التمرِ الأسْودِ كأبي القطران هذا، بِأهلِ الحضارةِ كالشيخِ؟

ملاحظة

وقد وَرَدَتْ كلمةُ (الفَراسِ) في قول الشاعر:

إذا أَكَلوا الفَراسَ رأيْتَ شاماً ... على الأنْيابِ مِنْهُمْ والغُيوبِ[1]

فَما تنْفَكُّ تَسمَعُ قاصِفاتٍ ... كَصوْتِ الرَّعْدِ في العامِ الخَصيبِ[2]

عودةٌ إلى السياق

ولعلَّ (أبا القَطْرانِ) لو صادفَ غانيةً تَزيدُ على حَبيبتِه (وحشيةَ) في الجَمالِ بمقْدارٍ صغيرٍ لَنَسِيَها وهَجرَها. ولأنَّ (أبا القطران) هذا يَنْتَمي إلى البداوةِ، فعادتُه وعادةُ نُظَرائِهِ أنْ يَصِفوا ناقةً أو أطلالاً أو الأشْجارَ المَغْروسَةَ قُربَ النبعِ. فإذا جَنى الكَمْأَةَ تبجَّحَ وظنَّ أنَّه قد أَفْلَحَ ونجحَ. ولو حَضَرَ مَآدِبَ الطَّعامِ التي حَضَرَها الشيخُ لَأكلَ بِنَهَمٍ حتى يَصيرَ كما قالَ القائلُ:

فلو كنتَ عُذريَّ العَلاقَةِ لم تَبِتْ ... بَطيناً وأنساكَ الهوى كثرةَ الأكْلِ

عودةٌ إلى ابن القارح وحُبِّه للأدب

والشيخُ – قَدَّر اللهُ له ما أَحَبَّ – قد جالَسَ مُلوكَ مِصْرَ التي قالَ فيها (فِرعَوْن):

1- (الفَراس): التمرُ الأسود الرديء. (الشام): جمع شامة. وهي بُثْرَة سوداءُ في الجسد. (الأنباث): ج نَبْث. وهو الترابُ الذي يخرج من البئر. (الغُيوب): ج غَيْب. وهو ما اطمأنَّ مِنَ الأرض. والمعنى أنهم إذا أكلوا التمر الأسود رأيتَ على أسنانهم وعلى التراب والأرض آثار التمر ونواته كأنها شامات الجسم.

2- يتابع الشاعر وصف أكلهم للتمر الأسود. فأنت تسمع صوتَ مَضغِهم لهذا التمر كأنك تسمع قصفَ الرعد في عام المطر، وذلك لشدة قساوته.

(أَليس لي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنْهارُ تَجْري مِنْ تَحْتي أفَلا تُبْصِرون[1]). وقد أقامَ في العراقِ زَمَناً طَويلاً. وداومَ على دِراسَةِ الأدبِ. وفي العراقِ مَمْلَكَةُ فارِسٍ. وهم أهلُ الشَّرَفِ والظَّرْفِ. يَفوقُ إنْفاقُهم على الأطْعِمَةِ كُلَّ إنْفاقٍ. ولا ريبَ أنه قد جالسَ بَقاياهُمْ. واخْتَبَرَ في المُعاشَرَةِ سَجاياهُمْ. وتَعاطى معهمُ الشُّرْبَ في الكؤوسِ ذاتِ التَّصاويرِ على عادةِ المَرازِبَةِ[2] السَّادَةِ كما قال (أبو نواس الحَكَمِيُّ):

تَدورُ علينا الكأسُ في عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْها بأنواع التَّصاويرِ فارِسُ
قَرارتُها كِسرى وفي جَنَباتِها ... مَهاً تَدَّرِيها بِالقِسِيِّ الفَوارِسُ[3]

و(أبو القطرانِ) – لِبداوتِهِ – كانَ يَسْتَقي الماءَ مِنَ البئرِ بالحبْلِ، ويَسْكبُه في الأقداحِ الصغيرةِ أو في العُلَبِ. وإذا أكلَ كانَ طعامُهُ العَصيدةَ الرِّخوةَ. وإذا أخْصَبتْ أرضُهُ اكتفى بِأكْلِ الزبدةِ.

وما أشكُّ أنَّ الشيخَ – أمتعَ اللهُ الأدبَ ببقائِه – لو أُتيحَ له مُحاورةُ (أبي الأسود الدؤلي) على عَرَجِه وبُخْلِه الذي يتندَّرُ به الناسُ في مَجالسِهم فيضيقُ بِهذا التَّنَدُّرِ، لَكان حبُّه له أبلغَ مِنْ حُبِّ مجنونِ ليلى لِمَعشوقتِهِ، وأبلغَ مِنْ حُبِّ (رؤبةَ بنِ العَجاج) لِمَحْبوبَتِهِ. ولو أدْرَكَ الكلامَ مع (الأخْفَشِ الأكبرِ[4] أبي الخَطَّابِ)، لَكانَ بِمرضِ عَيْنَيْهِ أشدَّ شَغَفاً به مِنَ الشاعِرِ (الحادِرَةِ)[5] بِعيونِ حَبيبته (سُميةَ)، وأشدَّ شَغَفاً مِنْ (ذي الرمَّةِ)[6] بِمَحبوبته (مَيَّة) التي قال فيها:

1- سورة (الزخرف) من الآية 51.

2- (المرازبة): ج مَرْزُبان. وهو الرئيس أو القائد عند الفرس.

3- (المَها): ج مَهاة. و(تَدَّريها): تُخاتِلُها. أي أنَّ في قَعْرِ الكأس صورة كسرى. وعلى جنباتِ الكأس صورةُ ظباءٍ تُخاتِلُها الفوارسُ حتى تصيدَها.-

4- (أبو الخطاب): عبد المجيد بن عبد الحميد. وشهرته (الأخفش الأكبر). مِنْ علماء اللغة العربية. أخذ عن سيبويه. توفي عام 177 هـ 793 م.

5- (الحادِرة الذبياني): قُطبة بن أوس الغطفاني. شاعر جاهلي مُجيدٌ مُقِلٌ. ولُقِّبَ بهذا اللقب لضخامة جسمه. توفي عام 5 قبل الهجرة 626 م.

6- (ذو الرمة): هو غَيلان بن عقبة من بني عدي. شاعر إسلامي وأحد عشاق العرب. وصاحبته (مية). كان قصيراً دميماً يَضرِبُ لونُه إلى السواد. أكثرُ شعرِه في الغزل ووصف الأطلال. ولد عام 77 هـ 696 م. وتوفي عام 117 هـ 735 م.

وعَيْنــانِ قــالَ اللــهُ كُونــا فكانَتا فَعولانِ بِالألْبــابِ ما تَفْعَــلُ الخَمْرُ

وهو، بِتَشَوُّهِ فَمِ (أبي الحَسَنِ سعيدِ بنِ مَسْعَدَةَ)[1] أشدُّ إعجاباً مِنْ (كُثَيِّرٍ)[2] بِفَمِ (عَزَّة)، وأشدُّ إعْجاباً مِنْ (جميلِ بن مَعْمَرٍ[3]) بريقِ (بثينةَ). ولو كان (أبو عبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المُثنى) كريهَ رائحةِ الفمِ، لَما استغربتُ مِنَ الشيخِ أنْ يُقبِّلَهُ (شَقَّ التينةِ) بلا استكبارٍ، لأنه مُحِبٌّ للأخبارِ.

وفي الحديثِ عن عائشةَ رحمةُ اللهِ عليها: "كانَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم يُقَبِّلُني شَقَّ التينةِ". وروى بعضُهم: "شَقَّ التمرة". وذلك أنْ يأخُذَ الشفةَ العُليا بيدِه، والسُّفْلى بيدِهِ الأُخرى. ويُقَبِّلُ ما بين الشَّفَتَيْنِ.

فضلُ الموت

وأمَّا مَنْ فَقَدَهُ مِنَ الأصْدقاءِ لمَّا دخلَ حلبَ حَرَسَها الله[4]، فتلك عادةُ الزمنِ. ليس السَّالِمُ منه بمُؤْتَمَنٍ. فهو يُبدِّلُ مِنَ البُيوتِ المَسْكونَةِ قُبوراً، ولا يُداوي العَثْرَةَ بالتَّجْبيرِ. وإنَّ قَبرَ المَيِّتِ هو بيتُ الحَقِّ مع أنَّ ما أصابَهُ مِنَ المَوْتِ هو الأصْعَبُ والأشقُّ. على أنَّ القبر يُسكِنُ النائمَ فيه بعدَ الموتِ. ويُغْنيه عن مؤونةِ العَيْشِ رغمَ تَطاولِ الزمَنِ عليه وهو في القبرِ. وإنَّ الجَسَدَ فيه يَحتَمي مِنَ الشَّرِّ. فلا يضُرُّهُ شيءٌ بعده. قالَ أحدُ الشعراءِ:

ولقــد عَلِمْتُ بــأنَّ قَصــري حُفْرَةٌ ما بَعْدَها خوفٌ عَليَّ ولا عَدَمْ[4]

1- (سعيد بن مسعدة): الأخفش الأوسط وقد مرت ترجمته.

2- مرت ترجمته.

3- (جميل بن معمر): هو جميل بن عبد الله بن مَعْمَر القُضاعي. نشأ في وادي القُرى قرب المدينة المنورة. أحبَّ بثينةَ بنتَ حيَّان بنِ ثعلبة وهو غلام صغير. فلما كبر خطبها من أبيها فردَّه وزوَّجها مِنْ رجلٍ آخر. فازداد هُياماً بها. كان في بداية أمره جامعاً للشعر. وهو شاعر فصيح ومن عشاق العرب. توفي عام 82 هـ 701 م.

4- إشارة إلى قول ابن القارح: (فلما دخلتُها وقبل أن أستقر في الدار، أنكرتُها لأني فقدتُ فيها معارفي وجيراني).

5- (القَصْر) هنا هو الغاية والقصد. أي أنني أعلمُ أن غاية حياتي أنْ أنتهي إلى القبر. وفي القبر لا خوفٌ علي ولا فقر.

فـأزورُ بيـتَ الحَـقِّ زَوْرَةَ ماكِثٍ فعلامَ أحْفِلُ ما تَقَـوَّضَ وانْـهَدَمْ؟

وما زالت العربُ تُسمي القبرَ بيتاً وإنْ كان المُنْتَقِلُ إليه مَيْتاً. قالَ الراجِزُ (دُوَيْدُ بن نَهْدٍ[1]) وهو يُحتَضَرُ:

الـيومَ يُـبـنى لِـدَويْـدٍ بـيـتُـهْ يـا رُبَّ بـيـتِ حَسَـبٍ بَـنَـيْـتُـهْ
ومِـعْـصَـمٍ ذي بُـرَةٍ لَـويـتُـهْ لـو كـانَ للدَّهْـرِ بِلـىً أبليتُـه[2]
أو كانَ قِـرني واحـداً كَـفَـيْـتُـهُ[3]

مادِحُ أبي العلاء

فأمَّا الفَصْلُ الذي ذَكَرَ فيه أحدُهم أنني (أعْلَمُ بالنحوِ مِنْ (سيبويه)، وأعلَمُ بِاللغةِ والعَروضِ مِنَ (الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيدي)، فقد سَقَطَ مِنْه اسمُ الرجلِ الذي غالى في مَدْحي. فقَرَنَ النُّجومَ بالأرضِ. وكائناً مَنْ كانَ هذا المادِحُ فليغْفِرِ اللهُ جَرائِمَهُ، ولْيَحفَظْ له مَكارِمَهُ. فقد أَخْطَأَ على نَفْسِهِ وعليَّ فيما زَعَمَ، ونَسَبَ إليَّ ما لا أَسْتَحِقُّ. وأراني أَعْتذِرُ وأَتَنَصَّلُ مِنْ ذَنبٍ لم أَقْترِفْهُ. وإنِّي لَأكْرَهُ، بِشَهادةِ اللهِ، تلك الدعوى المُبطِلَةَ، كَراهَةَ (المَسيحِ) مَنْ جَعَلَهُ ربَّ العِزَّةِ. ولِأنَّهُ كَرِهَ ذلك فلم يترُكْ للفِتَنِ طريقاً. وقد رفَضَ المَسيحُ ادِّعاءَ الرُّبوبيةِ بِدليلِ قولِهِ تعالى: (وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قُلْتَ لِلناسِ اتَّخِذوني وأمي إلهَيْنِ مِنْ دونِ اللهِ قال سُبحانَكَ ما يَكونُ لي أنْ أَقولَ ما ليس لي بِحَقٍّ إنْ كنتُ قلتُه فقد علِمْتَه تَعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنَّك أنتَ علَّامُ الغيوبِ[4]).

1- (دويد بن نهد): دُوَيْد بن زيد بن نهد. شاعر جاهلي عُمِّرَ طويلاً. أدرك الإسلامَ مُسِناً لا يعقِلُ.

2- (البُرَةُ): الخَلْخال. أي أنه يَلْوي مِعصمَه بعد الموت. و(البِلى): الموتُ والفَناء. أي أنه لو كان الدهر يَبْلَى لأهلكته.

3- (القِرن): الخصمُ المُكافئ. أي أنه لو كان الدهرُ رجلاً مكافئاً لي لقضيت عليه.

4- سورة المائدة الآية 116.

أبو الفَرَجِ الزَّهَرْجي

وأمَّا (أبو الفرَجِ الزَّهرجِيُّ[1]) الذي أرسلَ إليَّ رِسالةً فسُرِقَتْ، فمَعْرِفتُه بالشيخِ تُوحي أنَّه لِلأدبِ حَليفٌ، وأنَّه لِلمرءِ خيرُ صاحبٍ وأَليفٍ.

وَوَدِدْتُ أنَّ (الرسالةَ) وصلَتْ إليَّ. ولكنْ ما أنصَفَ ذلك الجارُ السارِقُ. فليُبْعِدهُ اللهُ ما تغنَّى طائرٌ بهديلٍ. هلاَّ اقتنعَ بسرقةِ مالٍ أو ثوبٍ وتركَ صُحُفَ الرسالةِ مُستَبْدِلاً المالَ بها؟ وإنِّي أدعو اللهَ أنْ يفشلَ في مَقاصِدِهِ، وأن يَضِلَّ في سَيْرِهِ فلا يهتَدي بالنجومِ في مَسْراهُ.

لو أنه أحدُ لُصوصِ العربِ الذين رُوِيَتْ لَهُمُ الأمثالُ السائِرةُ وتَحَدَّثَ عنهم الناسُ في حِلِّهِمْ وتَرحالِهِمْ، لَما غَفَرْتُ له ما سَرَقَ بِسببِ ما نَظَمَ مِنْ شِعْرٍ أو ما قالَهُ مِنْ نَثْرٍ، لأنَّه أتى فِعْلاً عَظيماً وقَطَعَ قولاً نَظيماً.

وقد وُفِّقَ (أبو الفرج) وولدُهُ وصارَ عِلْمُهُ غَزيراً لَمَّا درسَ عندَ الشيخِ الكتبَ، وحَفِظَ عنه الآدابَ وغرائِبَ الألفاظِ. فكأنَّ الشيخَ سلَّمَ القَوْسَ إلى مَنْ يُحسِنُ الرميَ بها، وكأنه سَلَّمَ الرُّمْحَ الأطْولَ إلى فارِسِ قيسٍ (عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ). فكان كَمَنْ ألقى أَعِنَّةَ الخَيْلِ إلى فُرْسانِها.

نهر قُوَيْق

وإذا كانَ الشيخُ قد لَقِيَ الأهْوالَ حتى وصلَ إلى حلبَ، فقد جَدَّدَ شبابَه الأولَ بنهرِ قُوَيْقٍ[2]. وإنَّه لَنِعْمَ النهرُ. لا يُغْرِقُ السَّابِحَ فيه ولا يُتعِبُه. وبناتُهُ الأسماكُ المَرْغوباتُ صِغارٌ، يؤخَذْنَ مِنْهُ ولا يَغارُ. والنهرُ يُغذِّيهِنَّ والقدَرُ يَغْتالُهُنَّ. سَتَرْنَ أنفُسَهُنَّ فما تَبَرَّجْنَ. وعلى الرغمِ مِنَ استِتارِهِنَّ بماءِ النهرِ فمِنْهُ خَرجْنَ. تَزورُهُنَّ الشِّباكُ وما

1- مرت ترجمته. ويشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن إرسال الزهرجي رسالة إلى المعري فسُرِقتْ مع ما سُرِق من حوائجِ ابن القارح.

2- (نهر قُوَيْق): نهر حلب. اشتهر بعذوبة مائه. وقد تغنى به شعراء حلب. وهو ينبع في الأراضي التركية. وهو اليوم جافٌّ. فلم يبق منه إلا مَجْراه.

يَشْعُرُ بذلك قُوَيْقٌ المِسكينُ. أعَرَبٌ سَبَتْ أولادَهُ أم رومٌ. وهو لا يَحْفِلُ بالصائِدِ وما يَرومُ.

ولقد ذَكَرَه (البُحتُرِيُّ)، ووصفَه في قصيدتِهِ التي مَطْلَعُها:

يا بَرْقُ أَسْـفِرْ عن قُويـقٍ فَطُرَّتي حلبٍ بأعلى القصر مِنْ بِطياسِ[1]

ووصفَهُ (الصَّنَوبَريُّ[2]) الحلَبيُّ بِقصيدتِه (القافِيَّةِ) التي مَطْلَعُها:

قُويْـقٌ لـه عَهْـدٌ لدينـا ومِيثـاقُ وهـذي العهـودُ والمَواثيـقُ أَطواقُ

وبقصيدتِه (الضَّادِيَّةِ) التي مَطْلعُها:

ريـاضُ قُوَيْـقٍ لا تـزال مَروضَةً يُحـاوِرُ فيها أَحْمـرُ اللـونِ أبيضَهْ

وأظنُّ أنَّ نهرَ (دجلةَ) وفروعَه أفسدَ على الشيخِ التَّمَتُّعَ بنهرِ (قُوَيْقٍ). وكذلك نهرُ الفراتِ.

أمثالُ العرب

وأما حلبُ – حَماها اللهُ – فإنَّها الأمُّ البَرَّةُ، تُعْقَدُ بها المَسَرَّةُ. وما أَحْسَبُها، إنْ شاءُ اللهُ، تُظاهِرُ بذميمِ العُقوقِ، وتُغْفِلُ الواجِبَ مِنَ الحُقوقِ.

و(وحشيةُ) أبي القطران التي تمثَّلَ بها الشيخُ – آنَسَ اللهُ الآدابَ ببقائِهِ – يُحتَمَلُ أنه جَعَلَها نائِبَةً عَمَّنْ فَقَدَهُ مِنَ الإِخْوانِ الذين لا نَظيرَ لهم في هذا الأوانِ. وكذلك تَجْري أَمْثالُ العربِ: يُكَنُّونَ باسمٍ عن جميعِ الأَسْماءِ. مثالُ ذلك أنْ يقولَ القائِلُ:

فـلا تَشْـلَلْ يَـدٌ فَتَكَـتْ بعمـرٍو فإنَّـك لـن تَـذِلَّ ولـن تُـضـامـا

يَجوزُ أنْ يرى الرجلُ رجلاً فَتَكَ بمَنِ اسمُه (حسانُ) أو (عُطارِدُ) أو غيرُ ذلكَ. فيتمثَّلُ بهذا البيتِ. فيكونُ (عمروٌ) فيه واقِعاً على كُلِّ مَنْ يُتَمَثَّلُ له به. وكذلك قولُ الراجِزِ:

1- (طُرَّتا حلب): جانبا واديها. (بِطياس): قرية كانت قريبة من حلب.

2- (البحتري) و(الصنوبري) مرت ترجمتهما.

أوْرَدَهـا سَـعْدٌ وسَـعْدٌ مُشْـتَمِلْ مـا هكـذا تُـورَدُ يا سَـعْدُ الإبـلْ[1]

صارَ ذلك مَثَلاً لكُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لم يُحْكِمْهُ. فيَجوزُ أنْ يُقالَ لِمَنِ اسمُهُ (خالدٌ) أو (بَكرٌ) أو ما شاءَ اللهُ مِنَ الأَسْماءِ. ويَضَعونَ في هذا البابِ المؤنَّثَ مَوْضِعَ المذكَّرِ، والمُذكَّرَ مَوْضِعَ المُؤنَّثِ. فيقولون للرجلِ: (أَطِرِّي فإنك ناعِلَةٌ[2]). وهو يُقالُ لكُلِّ مَنْ يُؤمَرُ بالأمرِ الشَّديدِ لاقْتِدارِهِ عليه. وكذلك قولُهم: (الصيفَ ضيَّعَتِ اللبنَ[3]). يُقالُ لكلِّ مَنْ أهْمَلَ أمرَهُ حتى ضاعَ منه. وكذلك قولُهم (مُحْسِنةٌ فهَيْلى). وأصْلُ المَثَلِ أنَّ امرأةً كانت تُفرِغُ طَعاماً مِنْ وِعاءِ رجُلٍ في وِعائِها. فجاءَ الرجلُ وهي تفعلُ ذلك. فخافَتْ وأخذَتْ تُفرِغُ مِنْ وِعائِها في وِعائِهِ. فقال لها: "ماذا تَفعلين"؟

فقالت: "أُهيلُ مِنْ هذا في هذا".

فقال لها: "مُحسنةٌ فهيلى". أي تابِعي عَمَلَكِ.

ويُضْرَبُ هذا المثلُ للرجلِ الذي يعملُ عملاً صائِباً. وكذلك قولُهم: (ابدئيهِنَّ بِعَفالٍ سُبِيتِ). وأصلُ المثلِ أنَّ (سعدَ بنَ زيدِ مَناةَ) تزوَّجَ (رَهْمَ بنتَ الخزرج). وكانت مِنْ أجملِ النساءِ. وكانت ضَرائرُها يَقُلْنَ عند السُّبابِ: (يا عَفْلاء). فقالتْ لها أمُّها: "ابدئيهن بعَفالِ سُبيت". فهي تدعو عَليهِنَّ بالسَّبْيِ. وإذا أَرادوا أنْ يُخبِروا بأنَّ المَرأةَ كانت تفعلُ الخيرَ ثم ماتَتْ فانقطَعَ ما كانت تفعلُهُ، جازَ أن يقولوا: "ذهبَ الخيرُ مع (عَمْرِو بن حُمَمَة)". وأصلُ المثلِ أنَّ (عمرو بنَ حُمَمَةَ) الأنصاريَّ الدَوْسِيَّ أنْقَذَ قومَهُ مِنَ الذُّلِّ. فقد كانت عليهم أتاوةٌ يُؤدُّونها لبني عامِرِ بنِ يَشْكُرَ. فجاء عمروٌ وثارَ مع قومه فعاشوا كِراماً. وجائزٌ أنْ يَقولوا لِمَنْ يُحَذِّرونَه مِنْ قُرْبِ النساءِ: "لا تَبِتْ مِنْ بَكريٍّ قريباً". ويُقالُ أيضاً: "والبكريُّ أخوك فلا تأمنْهُ". ومثلُ هذا كثيرٌ.

1- (مُشْتَمِل): من (اشتملَ بثوبه): إذا التفَّ به حتى لا يمكنُ أن تخرجَ يدُه منه. والمعنى أنه أوردَ إبلَهُ الماءَ دون أن يتحرك. وأتبعها بأنَّ الإبلَ لا تورَدُ الماءَ بهذا الشكل.

2- (أَطِرِّي): مِنْ (طرَّ الطريقَ): ركبه وسار عليه. (الناعِلَة): التي تلبس النعل.

3- هكذا ورد المثل بفتح الفاء في (الصيف) على خلافِ القاعدة بأن تكون مرفوعة. ومثلُ ذلك قولُهم: (مُكرَهٌ أخاك لا بطل). فالواجب أن يقال (مكره أخوك). لكن المثل ورد هكذا.

وأما شَكْواهُ إليَّ[1]، فإنَّني وإياه كما قيلَ في المَثَلِ: "(الثَّكلى تُعينُ الثَّكْلى)". وعلى ذلك حَمَلَ (الأصمعيُّ) قولَ (أبي دُواد[2]):

ويُصيخُ أحياناً كما اسـ ـتَمَعَ المُضِلُّ دُعاءَ ناشِدْ[3]

كلانا – أنا والشيخُ الجليلُ – بِحَمْدِ اللهِ مُضِلٌّ. – والمُضِلُّ هو المُضَيَّعُ – فمِنْ أجْلِ أيِّ شيءٍ نَرْكبُ المطيةَ ونسافرُ لِنبحثَ، وعمَّنْ نَبحثُ؟ أمَّا المَطِيةُ فبطيئةٌ مُقَصِّرةٌ. وأما الزَّوادةُ فخاليةٌ. فأنا وأنتَ كما قالَ الشاعرُ:

يَشكو إليَّ جَمَلي طولَ السُّرى صَبْرٌ جميلٌ فكلانا مُبْتَلى

إنِ اشتكتِ الناقةُ مِنْ عصا راكِبِها إلى الشَّجَرَةِ التي قُطِعَتْ منها تلك العَصا، فإنها تشكو المُصيبةَ إلى مَنْ يشكو مِنْها. والصِّدْقُ أفْضَلُ مِنَ الكَذِبِ.

ولا أرتابُ أنَّ الشيخَ يَحْفَظُ قولَ (الفَزاريِّ[4]) منذ أكثرَ مِنْ خمسينَ سنةً أو أكثرَ:

أ(عُيَيْنَ) هلاَّ إذْ بُليتَ بِحُبِّها كُنْتَ استَعَنْتَ بِفارِغِ العقلِ[5]
أقْبَلْتَ تَبْغي الغَوْثَ مِنْ رجُلٍ والمُسْتَغاثُ إليه في شُغْلِ

ولم يزلْ أهلُ الأدبِ يَشْكُونَ مَصائبَ الدهرَ في كُلِّ جيلٍ. والأيامُ تَخُصُّهم بِعجائِبِ المَصائِبِ. والشيخُ يَعْرِفُ حِكايةَ أنَّ (مَسْلَمةَ بنَ عبدِ المَلِكِ بن مروانَ[6]) أوصى لأهلِ

1- يشير إلى قول ابن القارح في رسالته: (فكتبتُ هذه الرسالة أشكو أموري وأبثُّ همومي).

2- (أبو دُواد): شاعر جاهلي مشهور. يَعُدُّونَه أحدَ وصَّافي الخيل في الجاهلية. والآخران هما: طُفَيْل الغنوي والنابغة الجعدي.

3- (المُضِلُّ): مَنْ ضلَّ بمعنى فُقِدَ. فهو المُضَيِّع. و(الناشد): مَنْ يطلبُ شيئاً ضيَّعه.

4- (الفزاري): مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن. من أشراف قبيلة فزارة. وأخته (هند) زوجةُ الحجاج بن يوسف الثقفي. أحب أخوه (عُيَيْنَةُ) جاريةً لأخته (هند). فاستعان بأخيه مالك على أخته. وكان مالك يحبها أيضاً. توفي حوالي عام 100 هـ 718 م.

5- (فارغ العقل) هنا: تعني غير المشغول بشيء يُضَيِّع له عقلَه.

6- (مَسْلَمَةُ بنُ عبد الملك بن مروان بن الحكم). إخوته الوليد وسليمان ويزيد وهشام تولوا الخلافة. =

الأدبِ بجُزءٍ مِنْ مالهِ وقالَ: "إنَّهم أهلُ صِناعةٍ فقيرةٍ". وأحسَبُ أنَّهم والفَقْرَ خُلِقا تَوْأَمين. وإنِّما يَنْجَحُ بعضُهُمْ مُدةً، ثم لا يلبَثُ أنْ تَزِلَّ قَدَمُه، ويتقشّرَ بِصُروفِ الدَّهْرِ جِلْدُه. وإذا كانَ الأدبُ على عهدِ بني أميةَ يوصَفُ أهلُهُ بالفقرِ، فكيفَ يَسلَمونَ مِنَ الشِّدَّةِ والبأْسِ والفقرِ عند مَمْلَكَةِ بني العباسِ؟ وإذا كانوا قد أصابتْهُمُ المِحَنُ في مُدَّةِ حُكْمِ (هارونَ الرشيدِ)، فكيف يُطمَعُ لهم بِالحَظِّ بعدَهُ؟ أليسَ (مَعْمَرُ بنُ المُثنى أبو عبيدةَ) قَدِمَ مع (الأصمعي[1] عبدِ الملكِ بنِ قُرَيْب) إلى بغدادَ وكلاهما يُريدُ الغنى ويَنْوِيانِ أنْ لا يرجِعا إلى البصرةِ، فبقي فيها (الأصمعي) ورُدَّ (مَعْمَر أبو عبيدة) وهو لا يعلمُ بِما تُخفي لهُ الأيامُ؟

ومَنْ قَصَدَ أنْ يتَكَسَّبَ بفنٍّ الأدبِ، كان كَمَنْ وضَعَ شَرابَه في قِرْبَةٍ مَثْقوبةٍ لا تُؤْتَمنُ على الشَّرابِ وتَخْدعُ صاحِبَها. وقد رُوِيَ أنَّ (سيبويه[2]) لمَّا اخْتَبَرَ ما عِندَهُ مِنَ العِلْمِ وتَفَحَّصَ قُدُراتِه، رَغِبَ في وِلايةِ المَظالمِ في مَدينةِ (شيراز) في فارسَ، وأنَّ (الكِسائيَّ) شعرَ بالإثمِ والذنبِ وهو يتذكَّرُ ما جرى في مَجْلِسِ البرامكةِ حينَ أمرَ (الرشيدُ) له بِعَشْرةِ آلافِ درهمٍ وأمرَ بِصَرْفِ (سيبويه). فأعانَ (سيبويه) على أن يشتدَّ في طلبِهِ ولايةَ المَظالمِ. فأمَّا (أبو تمام حبيبُ بنُ أوس)، فقد ماتَ وهو مسؤولٌ عن البريدِ في المَوْصِلِ. والخُلاصَةُ أنَّ صاحِبَ الأدبِ حليفُ العطاءِ القليلِ.

***

وأما الذين ذكرهُمُ الشيخُ مِنْ أصْحابِ الأغلاط المُصَحِّفين[3]، فهم غيرُ البَرَرةِ. وليسوا مِنَ المُنْصِفينَ. وما زال الثعلبُ يَسْعى لإيذاءِ الأسدِ، وهو لا يدرِكُ أنَّ ما يَدفعُهُ

= اشتهر مسلمة بانتصاره في محاربته آل المهلب، وبقيادته لحملة الأناضول على الروم. ولد عام 66 هـ 685 م، وتوفي عام 121 هـ 738 م.

1- مرت ترجمتهما

2- مرت ترجمته.

3- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح في رسالته: (وما لَقيتُ في سفري مِنْ أُناسٍ يدَّعون العلمَ والأدبَ وهم أصْفارٌ منها جميعاً. ولهم أغلاطٌ كنت إذا رددتُها عليهم وصَحَّحْتُها لهم، نَسبوا الغلطَ إليَّ واجتَمعوا في العداوة عليَّ).

إلى إيذاءِ الأسدِ هو شعورُه بِالحَسَدِ. فإنَّ الأسدَ الذي تَخافُ مِنْه الناقةُ سواءٌ أكانت سمينةً أم غيرَ سَمينهٍ، إذا سارَ في الليلِ، تَرصَّدَ له الثعلبُ كأنه سيفترسُهُ. لكنَّ الأسدَ لا يراه مَوْضِعاً للاهْتِمامِ ولا لِلْخوفِ مِنْ إصابتِهِ لهُ:

مـا يضـرُّ البحـرَ أمسـى زاخِراً أنْ رمـى فـيـه غُـلامٌ بحَـجَـرْ

أو كما قالَ الآخَرُ:

أوَ كُلَّمـا طـنَّ الذُّبـابُ أَرُوعُـه؟ إنَّ الـذُّبـابَ إذنْ عـلـيَّ كـريـمُ

وما زالَ العامةُ يَتَحَدَّثونَ عن الأفْعالِ العظيمةِ ولا يَسْتَطيعونَ القِيامَ بها. ويريدونَ إتيانَ المَكارِمِ فلا يقْدِرون. وهم عن كل ما هو بارعٌ وأصيلٌ متثاقِلون. وأمَّا طُلاَّبُ الأدبِ فإنَّهم يَصعَدونَ جِبالَهُ ويتوغَّلونَ فيها. ومَنْ انْفرَدَ بفضيلةٍ أثيرةٍ، فإنَّه يَتَقَدَّمُ على الناسِ بِمناقِبَ كثيرةٍ. ومثلُ هذا النوعِ مِنَ البارعينَ يَكثُرُ حُسَّادُهم كما قال (الفرزدقُ):

فـإن تَهْـجُ آلَ الزِّبرِقـانِ فَإنَّمـا هَجَوْتَ الطِّوالَ الشُّمَّ مِنْ آلِ يَذْبُلِ

وقد يَنْبَـحُ الكلبُ النُّجـومَ ودونَها فَراسِـخُ تُقْصـي ناظِـرَ المُتَأَمِّـلِ

وقد قيلَ: "يَعْدو على الحاسِدِ حَسَدُهُ، ويَذوبُ من كَمَدٍ جَسَدُه":

فهـل ضَرْبَةُ الرُّومـيِّ جاعِلَةٌ لكم أبـاً عـن كُلَيْبٍ أو أبـاً مثـلَ دارِمِ[2]

عن المتنبي والزندقة

وأمَّا ما ذكرَهُ الشيخُ مِنْ قولِ أبي الطِّيبِ المتنبي:

أذمُّ إلـى هـذا الـزمـانِ أُهَيْلَـه فأعْلمُهُـم فَـدْمٌ وأحْزَمُهـم وَغْـدُ

فقد كانَ الرجلُ مولَعاً بالتَّصغيرِ. لا يقنَعُ مِنْه بالقليلِ. كقوله:

1- البيت للفرزدق يهجو فيها جريراً. و(ضربةُ الرومي) هي ضربةُ جرير للأسيرِ الرومي فأخطأه. والمعنى: هل ضربتك الخاطئة للرومي تجعل لك أبا مِنْ كُلَيْبٍ أو مِنْ دارم؟

مَنْ لي بفهمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدَّعي أنْ يُحسَبَ الهِنْدِيَّ فيهم باقِلُ[1]

وقولِه:

إذا عَذَلوا فيها أَجَبْتُ بأنَّةٍ حُبَيِّبَتا قلبي فُؤادي هيا جَمْلُ[2]

وقولِهِ في هِجاءِ كافور:

أَخَذْتُ بِمَدْحِهِ فرأيتُ لَهْواً مَقالي للأُحَيْمَقِ يا حَليمُ

وقولِه مِنْ قصيدتِه التي يَذْكُرُ فيها خُروجَه مِنْ مصرَ ويهجو كافوراً:

ونام الخُوَيْدِمُ عن لَيْلِنا وقد نامَ قَبْلُ عمىً لا كَرى

وقولِه:

أفي كُلِّ يومٍ تحْتَ ضِبني شُوَيْعِرٌ ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ[3]

وغيرُ ذلك مِمَّا هو مَوجودٌ في ديوانِهِ. ولا مَلامَةَ عليه. إنَّما هي عادةٌ صارتْ كالطبعِ. فما قَبِلَ بها أهلُ الزمان. لكنها تُغْتَفَر إذا جاءتْ في مَواضِعِها الحَسَنَةِ. فالشامَةُ قد تظهَرُ على الخَدِّ.

وهذا البيتُ الذي أوَّلُهُ:

أذُمُّ إلى هذا الزمانِ أُهَيْلَهُ

قاله أبو الطيبِ في مَدْحِ (عليِّ بنِ محمد بنِ سَيَّارِ بنِ مُكْرِم[4]) في أنطاكية

1- (باقل): يُضرَب به المثل في العِيِّ والبلادة. و(الهندي): إشارة إلى عِلْم أهل الهند بالحساب. والمعنى: كيف لي أنْ أفهم أهلَ هذا العصر الذين يظنون أنَّ باقل الأبله هو الهندي؟

2- (حُبيِّبتا): منادى بأداة النداء المحذوفة. والألفُ في آخر الكلمة هي ياء المتكلم قلبها ألفاً. فكأنه قال: (يا حُبيِّبتي). و(قلبي): بدل مِنْ حُبَيِّبَتا. و(فؤاداً): بدل من قلبي. و(هيا): أداة نداء. والمعنى: إذا لاموني بحبها أجبتهم بالأنين وأنا أقول: يا حبيبتي يا قلبي يا فؤادي يا جُمْلُ.

3- (الضِّبْن): الإبط. والمعنى: أفي كل يوم يظهر شويعر ضعيف يدَّعي القوةَ عليَّ، وقصيرٌ يدَّعي أمامي أنه طويل؟

4- (علي بن محمد بن سيار بن مُكْرِم): مدحه المتنبي عام 335 هـ 927 م حين نزل عنده في أنطاكية وهو في طريقه إلى دمشق. وهو رجل كريم نبيل.

قبلَ أنْ يُكْرِمَهُ الزمانُ بِلقاءِ سيفِ الدولةِ (عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ حَمْدان[1]). والشعراءُ مَسْموحٌ لهم أنْ يَقولوا ما يَشاؤونَ لأنَّ الآيةَ شهِدَتْ عليهم بالكَذِبِ وقولِ الأباطيلِ: (ألم تَرَ أنَّهم في كُلِّ وادٍ يَهيمون، وأنَّهم يَقولون ما لا يَفْعَلون[2]).

ملاحظة

وكلمةُ (أهلٌ) التي صَغَّرها أبو الطيبِ إلى (أُهَيْل)، وُضِعَتْ في الأصلِ لِلجَماعةِ. يقال: (ارْتَحَلَ أهلُ الدارِ). فيعلمُ السَّامِعُ أنَّ المُتكلِّمَ لا يَقصُدُ واحِداً بِما قالَ بل يَقْصُدُ (جماعةَ الدارِ). إلا أنَّ هذه الكلمةَ قد استُعْمِلَتْ للآحادِ فقيلَ: (فلانٌ أهلُ الخيرِ وأهلُ الإحسانِ. قالَ حاتِمُ الطائيُّ[3]:

ظلَّـتْ تَلومُ على بَكْرٍ سَـمَحْتُ به إنَّ الرزيئة في الدنيا ابنُ مَسعودِ[4]
غـادَرَهُ القَـومُ بِالمَعْـزاءِ مُنْجَـدِلاً وكانَ أهلَ الندى والحَزْمِ والجُودِ[5]

وكأنَّ لفظةَ (أهل) أصلُها أنْ تكونَ لِلجَمْعِ. ثم نُقِلَتْ إلى الواحِدِ. كما أنَّ (صَديقاً وأميراً) ونَحْوَهُما، إنَّما وُضِعْنَ في الأصْلِ لِلأفرادِ ثم نُقِلْن إلى الجمعِ على سبيلِ التَّشبيهِ. وكذلك قولُهم: (بنو فلانٍ أخٌ لنا). ويُقال: (أهلٌ وأهْلَةٌ وأهْلاتٌ) في الجمع. قالَ الشاعرُ:

فهـم أَهَلاتٌ حولَ قيسِ بنِ عاصمٍ إذا أَدْلَجوا بِالليلِ يَدعوُنَ كَوثَرا[6]

1- مرت ترجمته.

2- سورة (الشعراء): الآيتان 225 – 226.

3- (حاتم الطائي): هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي. أبو سَفَّانة وأبو عدي الشاعر الجواد المشهور الذي تُروَى عن كرمه الأعاجيب. توفي عام 46 قبل الهجرة 605 م.

4- (البَكْر): الفتيُّ من الإبل. والمعنى أنها تلومني بأنْ سمَحْتُ بذبح جمل فتي. وهذا ليس مُصيبة. لأن المُصيبة في فقد ابن مسعود الذي كان أهلَ الكرم والجود.

5- (المَعزاء): الأرض الصلبة. (مُنْجَدِلاً): مقتولاً.

6- (قيس بن عاصم بن سنان بن خالد المَنقري): سيد في الجاهلية والإسلام. وفد على النبي في بني تميم عام 9 هـ 630 م. فقال النبي (ص): (هذا سيدُ الوبر). واستعمَلَه على صَدَقات بني سعد. و(كوثر): شِعارٌ لهم. والمعنى أنَّ هؤلاء القوم مجتمعون حول قيس بن عاصم. وإذا ساروا في الليل تَنادَوْا بنداء (كوثر) حتى لا يتفرَّقوا.

وقالَ بعضُ النَّحويين في تَصغيرِ (آلِ الرجلِ): يجوزُ (أُوَيْل وأُهَيْل). كأنه يذهبُ إلى أنَّ الهاءَ في (أَهْل) أُبْدِلَتْ مِنْها همزةً. فلما اجْتمعتِ الهمزتان جُعِلَت الثانيةُ أَلِفاً. ومِثْلُ هذا لا يَثْبُتُ. والأشْبَهُ أنْ يكون (آلُ الرجل) مأخوذاً من: (آلَ يؤول) إذا رَجَعَ. كأنهم يَرجِعونَ إليهِ أو يَرجِعُ إليهم.

عودةٌ إلى السياق

وأما ما ذكره الشيخُ مِنْ حكايةِ (القُطْرُبُّلِي) و(ابنِ أبي الأزهر)[1] فقد يجوز مثلُه. لكنْ ما وَضَحَ أنَّ المتنبي حُبِسَ في العراقِ. فأما حبْسُه في الشامِ فمَشهورٌ.

وحُدِّثْتُ أنَّ المُتنبي كانَ إذا سُئِلَ عن حَقيقةِ هذا اللقبِ قالَ: "هو مِنَ (النَّبْوَة)". أي المُرتفِعُ مِنَ الأرضِ. وكان قد طَمِعَ في شيءٍ قد طَمِع فيه مَنْ هو دونه. وإنَّما هي مَقاديرُ. يُديرها في العُلُوِّ مُدير. يَظْفَرُ فيها مَنْ وُفِّقَ. ولا يُسْتَغْرَبُ فيها لِلمُجْتهِدِ أنْ يُخْفِقَ.

وقد دلَّتْ أشياءُ في ديوانه أنَّه كانَ متألِّهاً. فمِنْ ذلك قولُه:

تَغَـرَّب لا مُسْـتَعْظِماً غيرَ نفسِـهِ ولا قـابـلاً إلا لِـخـالِـقِـهِ حُكْـما

وقولُه:

مـا أَقْـدَرَ اللـهَ أنْ يُخْـزِي بَرِيَّتَهُ ولا يُصَـدِّقَ قَومـاً في الـذي زَعَموا

ملاحظة

وإذا رُجِعَ إلى حَقائِقِ النفسِ، فإنَّ نُطْقَ اللسانِ لا يُنْبِئُ عن اعتقادِ الإنسانِ، لأنَّ العالَمَ مجبولٌ على الكَذِبِ والنفاقِ. ويُحْتَمَلُ أنْ يُظْهِرَ الرجلُ بِالقولِ تَدَيُّناً، وإنَّما يَجْعَلُ ذلك تَزَيُّناً. يُريدُ أنْ يَصِلَ به إلى ثَناءٍ أو غَرَضٍ مِنْ أغراضِ الدنيا الخاليةِ أمِّ الفناءِ. ولعله قد مَضى جَماعةٌ مِنَ الناسِ هم في الظَّاهِرِ مُتَعَبِّدون، وهم فيما بَطَنَ مُلْحِدون. والمِثالُ على ذلك (دِعْبلُ الخزاعي) و(أبو نواس).

1- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح (حكى القطربلي وابن أبي الأزهر في كتاب اجتمعا على تصنيفه أن المتنبي أُخْرِج مِنْ مجلس أبي الحسن علي بن عيسى وضُرِبَ بالخُفِّ..). و(القطربلي وابن أبي الأزهر) مرت ترجمتهما.

فما يَلحَقُني الشكُّ في أنَّ (دِعْبِلَ بنَ علي الخُزاعيَّ) لم يكنْ له دينٌ. وكانَ يَتظاهرُ بالتَّشَيُّعِ. وإنما غَرَضُه التَّكَسُّبُ. وكم أثبتَ لِنفسِهِ نسَباً بالادِّعاءِ. ولا أرتابُ أنَّ (دِعْبِلاً) كانَ على رأيِ (أبي نُواسٍ الحَكَمِيِّ) وطَبَقَتِهِ وأصْحابِهِ. والزَّنْدَقَةُ فيهم فاشِيَةٌ، ومِنْ ديارهم ناشِئَةٌ.

أما (أبو نواس) فقد اخْتُلِفَ فيه.

بعضُهُم ادَّعى له التألُّهَ، وأنَّه كانَ يَقضي صَلَواتِ نهارِهِ في لَيلِهِ. والصَّحيحُ أنَّه كانَ على مَذْهَبِ غيرِهِ مِنْ أهلِ زمانِهِ.

وذلك أنَّ العربَ جاءَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وهي تُجيدُ الشعرَ وتَقْصُرُ هِمَّتَها عليه، وتَعجَزُ عن غيره. فاتَّبَعَهُ مِنْها مُتَّبِعونَ، واللهُ أَعْلَمُ بِما يُضْمِرونَ. فلمَّا اتَّسَعَ الإسلامُ واتَّسَقَ مُلْكُهُ على أركانِ الدنيا، مازجَ العربُ غيرَهُم مِنَ الطَّوائفِ، وسَمِعوا كلامَ الأطِبَّاءِ وأصْحابِ الفلسفةِ وأهلِ المَنْطِقِ، فانحَرَفَتْ مِنْهُم طائِفةٌ كبيرةٌ ومالَتْ إلى الإلْحادِ.

ولم يزلِ الإلحادُ في (بني آدمَ) على مَمَرِّ الدُّهورِ. حتى إنَّ أصحابَ السِّيَرِ والتاريخِ يَزْعُمونَ أنَّ آدمَ صلى اللهُ عليهِ، بُعِثَ إلى أولادِه فأنذَرَهُمْ بالآخِرةِ، وخوَّفَهم مِنَ العَذابِ. فكذَّبوه وردُّوا قولَه. ثم ظَلُّوا على ذلك المِنْهاجِ حتى اليومِ.

وبعضُ العُلماءِ يَقولُ إنَّ ساداتِ (قُريشٍ) كانوا زَنادقةً. وما أَجْدَرَهُمْ بذلك. وقد قال شاعِرُهم يَرْثي قَتْلى (بدر) – وتُروى لـ (شدَّادِ بنِ الأسودِ الليثي)[1]

أَلَمَّتْ بالتَّحيَّةِ أمُّ بَكرٍ ... فَحَيُّوا أمَّ بَكْرٍ بِالسَّلامِ
وكائِنْ بالطَّوِيِّ طَوِيِّ بَدرٍ ... مِنَ الأحْسابِ والقومِ الكِرامِ[2]
وكائِنْ بالطَّوِيِّ طَوِيِّ بَدرٍ ... مِنَ الشِّيزَى تُكَلَّلُ بالسَّنامِ[3]

1- (شَدَّاد بن الأسود الليثي): أبو بكر. شاعر جاهلي. ثم صار صحابياً

2- (الطَّوِيُّ): البئر. والمعنى: سَلِّموا على مَنْ رُمِيَ في بئر بدر من أهل الحسب والكرم.

3- (الشِّيزى): الصحون والقدور. وقد سميت باسم الشجَرِ الذي تُصنَعُ مِنْ خشبه. وقد كانوا يُطعِمون الناسَ منها بعد أن يُقَدِّمَها كِبارُ القومِ للطاعِمين. و(السَّنام): كبارُ القوم تشبيهاً لهم بسنام الجمل المرتفع. وقد قُتِلَ هؤلاء يومَ بدر.

ألا يـا أُمَّ بَـكْـرٍ لا تُـكِـرِّي علـيَّ الـكَأسَ بَعْـدَ أخـي هِشـامِ
وبَعْـد أخـي أبيـهِ وكان قَرْمـاً مِـنَ الأقْـوام شُـرَّابِ الـمُـدامِ[1]
ألا مَـنْ مُبْلِـغُ الرَّحْمَـنِ عَـنـي بأنِّـي تـاركٌ شَـهْـرَ الصِّـيـامِ
إذا مـا الـرَّأْسُ زايَـلَ مِنْكَـبَـيْـهِ فقـد شَـبِعَ الأنيـسُ مِـنَ الطَّعـامِ
أيوعِدُنـا (ابنُ كَبْشَـةَ) أنْ سَـنَحْيا وكيـفَ حَـيـاةُ أَصْـداءٍ وهـامِ[2]
أتَتْـرُكُ أن تَـرُدَّ المَـوْتَ عَنِّـي وتُحْييـنـي إذا بَـلِـيَـتْ عِظامـي؟

ولا يَدَّعي مثلَ هذه الدعاوى إلا مَنْ يستبسِلُ بعدها ويستعدُّ للموتِ. ولا يأسفُ له إذا أصابَه.

وحُدِّثْتُ أنَّ (أبا الطيب) أيامَ كانَ في إِقْطاعِهِ الذي وَهَبَهُ له (سيفُ الدولةِ) في ضاحِيةِ (معرةِ النعمان) شوهِد يُصَلِّي في مَوْضِعٍ في (معرةِ النعمان) يُقالُ له (كَنيسةُ الأعرابِ)، وأنَّه صلى رَكْعَتين. وذلك في وقتِ العصْرِ. فيجوزُ أنْ يكونَ رأى أنَّهُ على سَفَرٍ، وأنَّ القَصْرَ له جائِزٌ.

وحدَّثَني رجلٌ ثِقَةٌ حَديثاً مَعناه: (أنَّ المتنبي لمَّا دخَلَ في بني عَدِيٍّ وحاوَلَ أنْ يَثورَ فيهم، قالوا له وقد تَبَيَّنوا دَعْواهُ: " هَهُنا ناقةٌ صَعْبةٌ. فإنْ قَدَرْتَ على رُكوبِها أقْرَرْنا أنك مُرْسَلٌ". وأنَّه مَضى إلى تلك الناقةِ وهي بينَ الإبِلِ. فتَحايَلَ عليها حتى وَثَبَ على ظَهرِها. فنَفَرَتْ ساعةً وجَمَحَتْ بُرهَةً. ثم سَكَن نِفارُها ومَشَتْ مَشْيَ السَّمْحةِ، وأنَّه وَرَدَ بها إليهم وهم مُجْتَمِعونَ وهو راكِبٌ عليها. فعَجِبوا له كلَّ العَجَبِ. وصارَ ذلك مِنْ دَلائِلِهِ عِندَهم).

وحُدِّثْتُ أيضاً أنَّه كانَ في ديوانِ (اللاذقيةِ)، وأنَّ بعضَ الكُتابِ انْقَلَبتْ على يدِهِ

1- (القرم): السيد العظيم. والمعنى أنه يطلب من أم بكر أن لا تسقيه الخمر بعد أخيه هشام وبعد عمه الذي كان سيداً ومِمَّنْ يشرب الخمرَ

2- (أبو كبشة): كان يعبد الأصنام. ثم هجرها. فاستعار الشاعر هذا الاسم للنبي (ص) الذي ترك دين آبائه. (الأصداء): الجُثث الهامدة. و(الهام): الرؤوس. والمعنى: إن محمداً لا يردُّ الموتَ عني في الدنيا، ويُخبِرني أنه سيُحيي عِظامي بعد الموتِ حين نكون جُثثاً ورؤوساً هامدة.

سِكِّينُ الأقلامِ فجَرَحَتْهُ جُرحاً بليغاً، وأنَّ (أبا الطيب) تَفَلَ عليها مِنْ ريقِهِ ورَبطَها ربطاً مُحْكَماً غيرَ مُنْتَظِرٍ ما يقولُ هذا المَجروحُ. ثم قالَ له: "لا تَحُلَّها في هذا اليومِ". وعَدَّ له أياماً ولياليَ، وأنَّ ذلك الكاتبَ قبلَ مِنْه ما قالَه له. فبَرِئَ الجُرحُ. فصاروا يَعتقِدونَ في (أبي الطيبِ) أعْظَمَ اعْتِقادٍ ويقولون: "هو كَمُحْيي الأمْواتِ".

وحَدَّث رجلٌ – كانَ (أبو الطيبِ) قد استَخْفى عِندَه في (اللاذقيةِ) أو في غيرِها مِنَ السواحِلِ – أنَّه أرادَ الانتقالَ مِنْ مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ. فخَرَجَ في الليل ومعه ذلك الرجلُ. ولقِيَهما كلبٌ ألحَّ عليهِما في النُّباحِ ثم انصرفَ. فقالَ (أبو الطيب) لذلك الرجلِ وهو عائِدٌ: "إنَّك ستجِدُ ذلك الكلبَ قد ماتَ". فلما عادَ الرجلُ وجدَ الأمرَ على ما ذكرَهُ (أبو الطيب). ولا يَمتَنِعُ أنْ يكونَ أعَدَّ له شيئاً مِنَ الطَّعامِ مَسموماً، وألقاه له وهو يُخفي عن صاحبِه ما فعلَ. ونباتُ (الخَرْيَق) معروفٌ أنه سُمُّ الكلابِ.

اختلافُ الأفكار والخواطر

وأما (القُطْرُبُّلِيُّ) و(ابنُ أبي الأزهرِ)، فَمِنَ العَجيبِ اجْتِماعُهما على تأليفِ كتابٍ. وقَلَّ ما يُعْرَفُ مِثْلُ ذلك. ونحوٌ مِنْهُ قصَّةُ (الخالِديَّيْن[1]) اللذين كانا في (المَوْصِلِ) وهما شاعران. وقد كانا عندَ (سيفِ الدولةِ)، وانصرفا على حَدٍّ مُغاضَبَةٍ. ولهما (ديوان) يُنْسَبُ إليهما لا ينفردُ فيه أحدُهُما بشيءٍ دونَ الآخرِ إلا في أشياءَ قليلةٍ. وهذا مُتَعَذِّرٌ في ولدِ (آدمَ). إذْ كانَ الإنسانُ مَجْبولاً على الخِلافِ وقِلَّةِ المُوافَقَةِ. فأمَّا أنْ يَعمَلُ الرجلُ شيئاً في كتابٍ ثم يُتِمَّهُ الآخرُ فهو أسْرعُ في المَعْقولِ مِنْ أنْ يجتمعَ عليه الرجلان.

والبغداديونَ يَحْكون أنَّ (أبا سعيدٍ السيرافيَّ[2]) عَمِلَ في كِتابِه المَعْروفِ باسمِ

1- (الخالديَّان): هما أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد. ابنا هاشم. الشاعران المعروفان باسم (الخالديان). كانا من قرية من قرى الموصل تسمى (الخالدية). واشتُهِرا بالأدب والحفظ. وكانا من شعراء سيف الدولة. ولهما ديوان شعر مشترك. توفي أبو بكر عام 380 هـ 990 م. وتوفي أبو عثمان عام 371 هـ 981 م.

2- مرت ترجمته.

(المُقْنِع أو الإقناع) في النحوِ حتى وصلَ إلى (بابِ التصغير). ثم تُوفيَ فأتمَّه بعدَه ولَدُهُ (أبو محمد[1]). وقد يَجوزُ مثلُ هذا. وليس عِنْدَهُم فيه رَيْبٌ. وحَكى لي رجلٌ ثِقَةٌ أنَّ (أبا عليٍّ الفارسيَّ[2]) كانَ يَذكُرُ أنَّ (أبا بكر بنَ السرَّاجِ[3]) عَمِلَ مِنْ كِتابِهِ (الموجَزُ في النحو) النصْفَ الأولَ لرجلٍ بزَّازٍ. ثم تقدَّم إلى (أبي علي) بإتْمامِهِ. وهذا الكتابُ لا يُقالُ عنه إنَّه مِنْ تأليف (أبي علي) لأنَّ تمامَ الكتابِ مَنْقولٌ مِنْ كلامِ (ابنِ السرَّاج في (الموجَز) وفي كتاب (الأصول). فكأنَّ (أبا علي) أتمَّه على سبيلِ النَّسْخِ والنقلِ. ولم يَبتدعْ شيئاً مِنْ عنده.

عودةٌ إلى المتنبي وشَكْواهُ مِنَ الزمان

والذين روَوْا ديوانَ (أبي الطيب) يَحْكون أنه وُلِدَ سنةَ ثلاثٍ وثلاثمئةٍ. وكانَ طُلوعُه إلى الشامِ سنةَ إحدى وعشرين وثلاثمئة. فأقامَ فيه بُرْهَةً ثم عادَ إلى العراقِ. ولم تَطُلْ مُدَّتُه هنالك. والدليلُ على صِحَّةِ هذا الخبرِ أنَّ مَدائِحَهُ في صِباهُ إنَّما هي في أهلِ الشامِ إلا قولَه:

كُفِّــي أرانــي ويْـكِ لَومَـكِ أَلْوَما هَــمٌّ أقــامَ علــى فــؤادي أَنْجَمــا[4]

أما شكوى المتنبي مِنْ أهلِ الزمانِ، فإنَّه سلَكَ في ذلك مِنهاجَ المُتَقَدِّمين. وقد كثُرَ المقالُ في ذَمِّ الدَّهْرِ حتى جاءَ في الحديثِ النبويِّ: (لا تَسُبُّوا الدهرَ فإنَّ اللهَ هو الدَّهْرُ). وقد عُرِفَ معنى هذا الحديثِ وأنَّ باطِنَه ليس كظاهِرِهِ. إذ أنَّ الأنبياء

1- (أبو محمد): هو يوسف بن أبي سعيد السيرافي. مِنْ لغويي القرن الرابع. ولد عام 330 هـ 941 م. توفي عام 385 هـ 995 م.

2- مرت ترجمته.

3- (أبو بكر بن السراج): محمد بن السَّرِي المعروف بابن السرَّاج البغدادي. من أئمة النحو وعلماء اللغة. أخذ عن المُبَرِّد وانتهت إليه رئاسةُ النحو وأخذ عنه (السيرافي) و(أبو علي الفارسي) توفي عام 316 هـ 928 م.

4- (كُفِّي): دَعي واتركي. (ويكِ): ويحك. (الألْوَمُ): الذي يستحق اللومَ أكثر. (هَمٌّ): خبر لمبتدأ محذوف. و(أنجَمَ): أقلع. يقال: (أنجمت السماءُ): إذا توقف المطر. والمعنى: (كُفُّي عن لومي فإني أراك تستحقين اللومَ أكثر مني. وعندي هّمٌّ أقام على فؤاد أقلع عن حبك).

عليهم السلامُ لم يذهبْ أحدٌ مِنْهم إلى أنَّ الدهرَ هو الخالقُ ولا المَعبودُ. وقد جاءَ في (الكتاب الكريم): (وما يُهْلِكُنا إلا الدَّهرُ[1]).

وقولُ بعضِ الناسِ[2] (الزمانُ حرَكةُ الفلكِ) لفظٌ لا حقيقةَ له. وفي (كتاب سيبويه) ما يدلُّ على أنَّ الزمانَ عنده هو (مُضِيُّ الليلِ والنهارِ) وقد انتقدَ الكثيرون هذه العبارةَ.

وقد وضَعْتُ تعريفاً للزمانِ. وقد يكونُ أحدٌ سبقَني إليه. لكني لم أسمَعْهُ. وهو أنْ يُقالَ: (الزمانُ شيءٌ يشتَمِلُ أقلُّ جُزءٍ مِنْه على جميعِ المُدْرَكاتِ. وهو في ذلك ضِدُّ المَكانِ. لأنَّ أقلَّ جُزءٍ مِنَ المَكانِ لا يُمكنُ أنْ يشتملَ على شيءٍ كما تشتَمِلُ عليه ظروف الزمانِ. فأمَّا الكونُ فلا بدَّ مِنْ تَشَبُّثِهِ بِما قلَّ وكَثُرَ).

والذين قالوا: "وما يُهْلِكُنا إلا الدهرُ" وغيرَ ذلك مِنَ الأقوالِ مثلَ البيتِ المَنْسوبِ إلى الأخطلِ ونسبَهُ (أبو تمام حبيبُ بن أوس[3]) لـ (شَمْعَلَةَ التغلبي[4]) وهو:

الـدَّهْـرُ لاءَمَ بـيـن أُلْـفَـتِـنـا وكـذاكَ فـرَّقَ بَـيْـنَـنـا الـدهـرُ

وقولِ أبي صخر الهذلي[5]

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْني وبينها فلمَّا انقضى ما بيننا سَكَنَ الـدَّهْرُ

لم يُذْكَرْ أنَّ أَحَداً منهم كان يُقَرِّبُ القرابينَ للأفلاكِ، ولا يَزعمُ أنها تَعْقِلُ. وإنَّما ذلك شيءٌ تتوارثُه الأُممُ في زمانٍ بعدَ زمانٍ.

1- سورة (الجاثية). من الآية 24.

2- يُشير المعري هنا إلى قول ابن القارح: (ولا يجب أنْ يشكوَ المتنبي عاقلاً وهم أهل الزمان، إلى غير عاقل ولا ناطقٍ لأن الزمان حركات الفلك).

3- مرت ترجمة الأخطل وترجمة أبي تمام.

4- (شَمْلَةَ التغلبي) سماه البعض (شملة بن فائد بن هلال بن عفان) مِنْ تغلب. وسماه البعض (شملة بن عمرو بن أبي بكر أخو بني فائد). وسماه المبرد: (شمل التغلبي). وهو شاعر ذو شأن في البادية. وكان نصرانياً. فطالبه هشام بن عبد الملك بالإسلام لِما رأى من فضله وجماله فأبى.

5- (أبو صخر الهذلي): من الشعراء الهذليين. له شعر رقيق نسبوا إلى مجنون ليلى بعضه. وقد مرت ترجمته.

وكان في قبيلةِ (عبدِ القيس) شاعِرٌ يُقالُ له (شاتِمُ الدهرِ). وهو القائلُ:

ولمَّـا رأيْـتُ الدَّهْـرَ وَعْراً سَـبيلُهُ وأبْـدى لنـا وَجْهـاً أَزَبَّ مُجَدَّعـا[1]

وجَبْهَـةَ قِـرْدٍ كالشِّـراكِ ضَئيلـةً وأنْفـاً ولَـوَّى بالعَثانيـن أَخْدَعا[2]

ذَكَرتُ الكِرامَ الذاهبينَ أُولي النَّدى وقلـتُ لعَمْـروٍ والحسـامِ: ألا دَعـا

الزندقةُ والزنادقةُ ونوادِرُهُمْ

وأما غيظُ الشيخِ على الزنادِقَةِ والمُلْحِدين، فأَجَرَه اللهُ عليه كما أَجَرَهُ على الظَّمَأِ في طريقِ مكةَ، واصطلاءِ الشَّمْسِ في (عَرَفَةَ)، ومَبيتِهِ في (المُزْدَلِفَة).

ولا ريبَ أنَّه ابتهلَ إلى اللهِ سبحانَه في أيامِ الحجِّ المَعْدوداتِ والمَعلوماتِ أنْ يُثَبِّتَ هِضابَ الإسلامِ، ويُقيمَ لِمَنِ اتَّبَعَهُ النَّيِّرَ مِنَ الأعلامِ.

ولكنَّ الزندَقَةَ داءٌ قديمٌ، طالما رَغِبَ به أهلُ الأرضِ. وقد رأى بعضُ الفقهاءِ أنَّ الرجلَ إذا ظهرتْ زندَقَتُه ثم تابَ فَزَعاً مِنَ القتلِ لم تُقْبَلْ توبتُه. وليس كذلك غيرُ الزنادقةِ مِنَ الكُفَّارِ. لأنَّ المُرتَدَّ إذا رجَعَ عن ارتدادِهِ قُبِلُ مِنْهُ الرُّجوعُ.

ولا مِلَّةَ إلا ولها قومٌ مِلْحِدون. وهؤلاء يُحاولونَ أنْ يُبَيِّنوا لأصحابِ شَريعَتِهم أنَّهم لهذه الشريعةِ مُؤيدونَ، وهم في باطنِهم مُخالِفونَ. ولا بدَّ مِنْ أنْ ينفضِحَ أمرُ المُخادِعِ، وأنْ تَظهرَ مَنازعُ الشرِّ عنده.

وقد كانت ملوكُ فارسَ تَقْتُلُ على الزندقةِ. والزنادقةُ هم الذين يُسَمَّوْنَ (الدَّهْرِيَّةَ). فلا يقولونَ بنُبَوَّةٍ ولا بكتابٍ.

1- (الأزبّ): الكثيرُ شعرِ الوجه والأذنين. (المُجَدَّع): المُجَرَّح والمُقَطَّع. دلالة على سوء الخِلْقة.

2- (الشِّراك): سَيْرُ النعل على ظهر القدم. جَمْعُهُ: أَشرُك وشُرُك. (العثانين): ج عُثْنون. وهو اللحية. (الأخدَع): عِرْقٌ في صفحة العنق. أي أنه لوى عنقه بشعره الكثيف. والشاعر هنا يزيد من تقبيح وجه الدهر.

بشارُ بنُ بُرد

و(بشارُ بنُ بُردٍ) إنَّما أخذَ الزندقةَ عن غيرِهِ. وقد رُوِيَ أنَّه وُجِدُ في كتبِهِ رُقعَةٌ مكتوبٌ فيها: (إني أردتُ أنْ أهْجُوَ فلانَ بنَ فلانٍ الهاشميَّ. فصفَحْتُ عنه لِقرابتِه مِنْ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ). وزَعَموا أنَّه كان يُخاصِمُ (سيبويه)، وأنه حَضَرَ يوماً حَلْقَةَ (يونس بن حبيب الضَّبِّيِّ[1]) فقال: "هل هنا مَنْ ينقُلُ خبراً؟".

فقالوا: "لا". فأنشدَ:

بَنــي أُمَيَّــةَ هُبُّــوا مِــنْ رُقادِكُــمُ إنَّ الخَليفَــةَ يعقــوبُ بــنُ داودِ[2]
ليس الخليفةُ بالمَوْجودِ فالتَمِسوا خَليفــةَ اللــهِ بَيــنَ النــايِ والعــودِ

وكان في الحَلْقةِ (سيبويه). فادَّعى بعضُ الناسِ أنَّه وشى به. و(سيبويه) فيما أحسَبُ، كان أجَلَّ موضِعاً مِنْ أنْ يَدخُلَ في هذه الدَّنِيِّات. بل يَعْمِدُ لأمورٍ سَنِيَّاتٍ.

وحُكِيَ عن (سيبويه) أنه عابَ على بشارٍ قولَه:

على الغَزَلَى مِنِّي السلامُ فطالَ ما لَهوْتُ بها في ظِلِّ مُخْضَرَّةٍ زُهْرِ[3]

فقال له (سيبويه): "لم تستعمِلُ العربُ (الغَزَلى)".

فقالَ بشار: "هذا مِثْلُ قولِهم: "(البَشَكى) وهي الناقة السريعة. و(الجَمَزى) وهو نوع من العَدْوِ ونحوِ ذلك".

وجاء (بشارٌ) في شعره بـ (النِّينان) جمع (نون) مِنَ السَّمَكِ وهو الحوتُ. ويقالُ إنَّ (سيبويه) أنكرَهُ عليه. وهذه أخبارٌ لا تَثْبُتُ. وفيما رُوِيَ في (كتاب سيبويه) أنَّ (النون) يُجْمَعُ على (نينان). فهذا ينقضُ الخبرَ.

1- مرت ترجمة سيبويه ويونس بن حبيب.

2- (يعقوب بن داود بن طَهمان): كان وزيرَ (المهدي). وقد صارت أمورُ الخلافة كلها إليه. ثم أفسدت الوشايةُ بينهما فسُجِن. وظل في سجنه أعواماً حتى شَفَعَ فيه (يحيى بن خالد البرمكي) عند الرشيد. فأطلقه وقد ذهب بصرُه. وسكن مكة حتى توفي فيها عام 187 هـ 803 م.

3- (الغزَلى): يقصد بها الشاعرُ الفتاةَ التي يُتَغَزَّلُ بها. و(المُخْضَرَّة الزُّهْر): الأرض الخضراء المُزْهِرة.

ويَذكُرُ مَنْ نقلَ أخبارَ (بشار) أنه تَوَعَّدَ (سيبويه) بالهِجاءِ، وأنَّ (سيبويه) داراهُ واستشهَدَ بشعرِه. ويجوزُ أنْ يكونَ اسْتِشهادُه به على نحوِ ما يَذْكُرُه المُتَذاكِرونَ في المَجالسِ ومَجامعِ القَوْمِ. وأصْحابُ (بشار) يَروون له هذا البيتَ:

وما كُلُّ ذي لُبٍّ بِمُؤْتيكَ نُصْحَه وما كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَه بلَبيبِ

وفي (كتابِ سيبويه) الشطرُ الأولُ من هذا البيت. وهو في (باب الإدغام). والمَقصودُ (لُبٍّ بِمُؤتيك).ولم يُسَمِّ قائلَه. وزعمَ غيرُه أنَّ هذا البيتَ لـ (أبي الأسود الدؤلي[1]).

***

ويُقالُ إنَّ (يعقوبَ بنَ داودَ) وزيرَ (المَهديِّ) تَحامَلَ على (بشارٍ) حتى قُتِلَ. واخْتُلِفَ في عُمْرِ بشار حين قُتِلَ. فقيلَ كان يومئذٍ ابنَ ثمانينَ سنةً. وقيلَ أكْثَرَ. واللهُ العالِمُ بحقيقةِ الأمرِ.

ولا أحْكُمُ عليه بأنَّه مِنْ أهلِ النارِ. وإنَّما ذكرتُ ما ذكرتُ من لقاءِ ابنِ القارحِ به في الجَحيمِ لأني جَعلتُ رِحلَتَهُ تلك إلى الجنةِ والجحيمِ بمشيئةِ اللهِ. وإنَّ اللهَ حليمٌ وهَّابٌ.

وذكَرَ (محمدُ بن داودَ بنِ الجراحِ[2]) صاحبُ (كتاب الورقة) جَماعةً مِنَ الشعراءِ في طبقةِ (أبي نواس) ومَنْ قَبْلَه ووصفَهُمْ بالزندقةِ. لكن سَرائرَ الناسِ مُغَيَّبَةٌ. وإنَّما يعلمُ بها علاَّمُ الغيوبِ. وكانت تلك الحالُ تُكْتَمُ في ذلك الزمانِ خوفاً مِنَ السيفِ. فالآنَ ظهرَ ما يُخفيهِ هؤلاء الزنادِقَةُ. فقد فَقَسَتِ البيضةُ عن أخبثِ ولدِ النَّعامِ.

وفي عَصْرِ كِتْمانِ الزنادقةِ ما عندهم خوفاً مِنَ السيفِ، كان رجلٌ له أَصْدِقاءُ مِنَ الشيعةِ وصديقٌ زِنديقٌ. فدعا المُتَشَيِّعَةَ في بعضِ الأيامِ إلى مأدُبَةٍ. فجاءَ الزنديقُ فقَرَعَ حَلْقَةَ البابِ وقالَ:

1- مرت ترجمته.

2- (محمد بن داود بن الجراح): أبو عبد الله. ولد عام 243 هـ 857 م. توفي عام 296 هـ 909 م. أديب من أهل بغداد. له عدة كتب منها: (الورقة) و(الشعر والشعراء).

"أصبحتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدرِ مُتَقَسِّمَ الأشجانِ والفِكْرِ"

فقالَ له صاحبُ المَنزِلِ: "ويحكَ. مِمَّ ذا؟". فتركه الزنديقُ ومضى. ثم لَقِيَهُ الرجلُ صاحِبُ المَأدُبَةِ فقال له: "يا هذا. أردتَ أن تُوقِعَني فيما أكرهُ؟"، خوفاً مِنْ أنْ يَظُنَّ أصدقاؤه أنَّه زنديقٌ. فقالَ له الزنديقُ: "ادْعُهُمْ ثانيةً وأعْلِمْني بمكانِهم". فلما جاؤوا عنده جاء الزنديقُ فقال:

"أصبَحْتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ مُتَقَسِّمَ الأشجانِ والفِكْرِ"

فقالوا: "ويحك. ممَّ ذا؟". فقال:

مِمَّا جناه على (أبي حسنٍ) عُمرٌ وصاحِبُهُ أبو بكرِ".

وانصرفَ. ففرح الشيعةُ بذلك.

ولَقِيَهُ صاحبُ المنزلِ فقالَ له: "جُزيتَ عني خَيْراً. فقد خَلَّصْتَني مِنَ الشُّبْهَةِ".

وكان يجلسُ في مجلسِ البصرةِ جماعةٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ. وكان فيهم زنديقٌ له سَيْفان. وقد سَمَّى أحدَهما: (الخيرَ). والآخرَ: (الفَلَحَ). فإذا سلَّمَ عليه رجلٌ من المسلمين قالَ له:

"صَبَّحَكَ الخَيْرُ ومَسَّاكَ الفَلَحْ"

ثم يلتَفِتُ إلى أصحابِه الذين قد عرفوا مكانَ السَّيْفَيْن فيقولُ:

"سيفانِ كالبرْقِ إذا البرْقُ لَمَحْ"

أبو نواس

فأما قولُ الحَكَمِيِّ أبي نُواسٍ:

تِيهُ مُغَنٍّ وظَرْفُ زنديقِ[1]

1- يشير المعري هنا إلى غضب ابن القارح مِنَ الزنادقة الذين يتظرَّفون بمذهبهم ويتباهَوْن به. ويستشهِدُ بقول أبي نواس هذا في وصف الزنديق المُتظارف..

فقد عِيبَ عليه هذا المعنى. وقيل إنه أرادَ رجلاً من بني الحارثِ كان مَعروفاً بالزندقَةِ والظَّرْفِ. وكان له مَوْضِعٌ مِنَ السلطانِ.

وأما قولُهُ في صَدْرِ هذا البيتِ:

نـديـمُ كـأسٍ مُـحَـدِّثُهْ مَـلِكٌ

بإضافةِ (الهاءِ الساكنةِ) في (محدثُهْ)، فهو نَحْوٌ مِنْ قولِ امرئ القيس:

فاليـومَ أشـربْ غيـرَ مُسْـتَحْقِبٍ إثْـمـاً مِـنَ الـلـهِ ولا واغِـلِ

بتسكينِ (الباء) في (أشربْ).

ولا يُحْمَلُ (مُحَدِّثُهْ) على قولِ مَنْ يقفُ على (الهاءِ) كما قالَ:

يا بَيْذَره.. يا بَيْذَرهْ... يا بَيْذَرهْ

وكما قالَ الآخَرُ:

يـا رُبَّ أبَّـازٍ مِـنَ العُصْـمِ صَدَعْ تَقَبَّـضَ الظِّـلُّ عليـهِ فاجْتَمَـعْ[1]

لَمَّـا رأى ألا دَعَـهْ ولا شِـبَـعْ مالَ إلى أرْطاةِ حِقْفٍ فاضطجَعْ[2]

لأنَّ تسكينَ الهاء في (دَعَهْ) لا يكون حسناً إلا إذا كانَ الكلامُ تاماً يَحْسُنُ عليه السكوتُ كما في (يا بيذره). أما قولُه (محَدِّثُهْ مَلِكٌ)، فمضافٌ ومضافٌ إليه. فلا يَحْسُنُ فيه السكوتُ لأنَّ المضافَ والمضافَ إليه كاسمٍ واحدٍ.

وأما (صالحُ بنُ عبدِ القُدُّوسِ)، فقد شُهِرَ بالزندقة. ولم يُقْتَلْ – ولله العِلْمُ – حتى

1- (الأبَّاز): الذي يقفِزُ فهو القفَّاز. مِنْ (أبزَ الظبي يأبِزُ): وثبَ وقفز. (العُصْم): ج أعْصَم. وهو الحيوان الذي سائِرُه أسودُ وعلى ذراعيه بياضٌ. (صَدَعَ): سار. مِنْ (صَدَعَ الحيوانُ الصحراءَ): قطعها. (تقبَّضَ الظلُّ): نقَصَ الظلُ بِميلِ الشمس إلى وقتِ الظهيرة. (اجتمع): انكمش على نفسه. والمعنى أنَّ هذا الظبي ذا اللونين الأسودِ والأبيضِ سار في الصحراء. فلما نقص الظل عليه قلَّص نفسَه.

2- (الدَّعَهْ): هي الدعةُ. وهي العيش الهانئ. ونقل الشاعر التاء المربوطةَ إلى (هاء). (الأرطاة): شجر غَضُّ تأكله الإبل. (الحِقْف): ج (الأحقاف): وهو ما استطال من الرمال. والمعنى أنَّ هذا الظبي عندما رأى أنه ليس له راحة، مال إلى شجرةِ أرطاةً في الصحراء ونام تحتها. والمعري يأتي بهذا البيت شاهداً على الخطأ في تسكين الهاء كما في قول أبي نواس.

ظهرتْ عنه أقوالٌ توجِبُ ذلك. ويُروَى لأبيه (عبدِ القدوس) – وهو شاعر عباسي –:

كـم أَهْلَكَـتْ مكَّـةُ مِـنْ زائـرٍ خَـرَّبَـهـا الـلـهُ وأبْـيـاتَـهـا
لا رزقَ الـرَّحـمـنُ أحـيـاءَهـا وأَشْـوَتِ الـرحْـمـةُ أمـواتَـهـا[1]

وقد كان لـ (صالح) ولدٌ حُبِسَ على الزندقةِ حبْساً طويلاً. وهو الذي يُروَى له:

خَرَجْنا مِنَ الدُّنْيا ونحنُ مِنْ أَهْلِها فما نحنُ بالأحياءِ فيها ولا المَوْتى
إذا مـا أتـانـا زائـرٌ مُـتَـفَـقِّـدٌ فَرِحْنـا وقُلْنـا: جاءَ هذا مِـنَ الدنيا

وأما رجوعُ (صالح) عن الزندقةِ لَمَّا أحسَّ بالقتل، فإنَّما ذلك على سبيلِ الخِداعِ. فصلَّى اللهُ على محمدٍ. فقد رُوِيَ عنه أنه قالَ: "بُعِثْتُ بالسيفِ. والخيْرُ في السيفِ. والخيرُ بالسيفِ". وفي حديثٍ آخرَ: "لا تزالُ أمتي بخيرٍ ما حَمَلَتِ السيوفَ". والسيفُ حَمَلَ (صالحَ بن عبد القدوس) على التصديقِ، وردَّه عن رأيِ الزِّنديقِ. والسيفُ آيةٌ مِنْ آياتِ الله. إذا هو ظَهَرَ للنفسِ الكافِرةِ، فقد رَدَّها عن أقوالِها. لكن لا يُقْبَلُ إيمانُها لأنَّها باللسانِ لا بالجَنانِ. وكما قالَ تعالى: "لم تكنْ آمَنَتْ مِنْ قبلُ"[2]. وللسَّفَهِ صَوْلةٌ وجَوْلةٌ.

القَصَّارُ والصَّناديقي[3]

وأما (القصَّارُ) فهو الجهلُ كله. ولو اشتغلَ راعياً للإبل ولم يَتحوَّلْ إلى الزندقةِ، لَما شربَ السُّمَّ. ولكنَّ غرائزَ الإنسانِ أعداؤُه. ولا بدَّ للمرءِ مِنْ لِقاءِ الموتِ.

وأما (الصناديقيُّ) المَنسوبُ إلى الصناديقِ، فإنه يُحْسَبُ مِنَ الزناديق. وأحسَبُهُ

1- (أشوى): السهمُ. أخطأ هدفه. والشاعر يدعو على مكة بالخراب وأنْ لا يرزقَ اللهُ الأحياءَ مِنْ سكانها وأنْ لا تصيبَ الرحمةُ الأمواتَ فيها.

2- سورة (الأنعام). من الآية 158.

3- (القصَّار الأعور): اسمه عطاء. وقيل: حكيم. واسم أبيه غيرُ معروف. كان في أول أمره قصَّاراً من أهل (مرو). و(القصَّار): مُبَيِّضُ الثياب ومَنْ يغسلها بعد الانتهاء مِنْ نسجِها. وكان مُشوَّهَ الخِلْقَةِ أعورَ قصيراً. فتن الناسَ بزندقته. فلما حوصِر جمع نساءه وسقاهن سُماً. ثم شرب منه فمات في عهد المهدي عام 163 هـ 780 م. و(الصناديقي) مرت ترجمته.

الذي كان يُعرَف باسم (المَنصور). ظهرَ سنةَ سبعين ومئتين. وأقام بُرْهَةً في (اليمنِ). وفي زمانِهِ كانت المُغنياتُ تلعبُ بالدُّفِّ وتقولُ:

خُـذي الـدُّفَّ يـا هـذه والْعَبي ... وبُـثِّـي فـضائِـلَ هـذا الـنَّـبـي
تَـوَلَّـى نَـبِـيُّ بَـنـي هـاشِـمٍ ... وقـــامَ نَـبِـيُّ بَـنـي يَـعْـرُبِ
فمـا نَبْتَغي السـعيَ عِنـدَ الصفا ... ولا زَوْرَةَ الـقَـبْـرِ فـي يَـثـربِ
إذا القـوْمُ صَلَّـوْا فـلا تَنْهَضـي ... وإنْ صَـوَّمُـوا فكُلـي واشْـرَبـي
ولا تَحْرِمـي نفسَـكِ المُؤْمنيـ ... ـنَ مِـنْ أَقْرَبيـنَ ومِـنْ أجْنَبـي
فكَـيْـفَ حَلَلْـتِ لـذاك الغريـ ... ـبِ وصِـرْتِ مُـحَـرَّمَـةً للأبِ
أليسَ الـغِـراسُ لِـمَـنْ ربَّـهُ ... وروَّاهُ فـي عـامِـهِ الـمُـجْـدِبِ
ومـا الخَمْـرُ إلا كَمـاءِ السـحا ... بِ طِلْـقٌ فَـقُـدِّسْـتَ مِـنْ مَذْهَـبِ

فعلى مَنْ يَعتقدُ بهذه المَقالةِ لعنةُ المؤمنين.

وهذه الطبقةُ – لعنها اللهُ – تستعبِدُ عامَّةَ الناسِ بأشكالٍ مُخْتَلِفَةٍ. فإذا طَمِعتْ في ادِّعاءِ الرُّبوبِيَّةِ فإنها لا تخجَلُ مِنْ إعلانِها. وهي لا تَرعوي عن أيِّ قبيحٍ.

وقد كانَ في (اليمنِ) رجلٌ يَحْتَجِبُ في حِصْنٍ له. ويكونُ الواسِطَةُ بينه وبين الناسِ خادِماً له أسودَ قد سمَّاهُ (جِبريلَ). فقتله الخادمُ في بعضِ الأيامِ وانصرفَ. فقال بعضُ الماجِنينَ:

تـبـارَكَ الـلـهُ فـي عُـلاهُ ... فـرَّ مِـنَ الـفِـسْـقِ جِـبـرئـيـلُ
وظَـلَّ مَـنْ تَـزْعُـمـونَ ربـاً ... وهـو عـلـى فِـراشِـهِ قـتـيـلُ

ويُقال إنَّه حَمَلَ الخادمَ على قتلِهِ ما كان يُكَلِّفُه به مِنْ أفعالِ الفِسْقِ.

وإذا اشتدَّ الطمَعُ ببعضِ هؤلاءِ، فإنه لا يَقْتَنِعُ بالإمامَةِ ولا النُّبَوَّةِ. ولكنه يرتقي عالياً في الكذبِ حتى يدَّعي الربوبيةَ.

***

ولم تكن العربُ في الجاهليةِ تُقْدِمُ على هذه العظائمِ والأمورِ غيرِ الصحيحةِ. بل

كانت عقولُهم تجْنَحُ إلى رأيِ الحُكَماءِ وما سَلَفَ مِنْ كُتُبِ القدماءِ. فإنَّ أكثرَ الفلاسفةِ لا يقولونَ بظهورِ نبيٍّ. ويَنظرونَ إلى مَنْ زَعَمَ ذلك على أنه غبي.

ربيعةُ بنُ أميةَ بنِ خَلَفٍ الجُمَحي[1]

وكان (ربيعةُ بنُ أُميَّةَ بنِ خَلَفٍ الجُمَحِيِّ) جرى له مع (أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ) رحِمَهُ اللهُ خطْبٌ. فلَحِقَ بالرومِ. ويُروى أنه قالَ:

لَحِقْتُ بـأرضِ الرومِ غَيْـرَ مُفَكِّرٍ ... بِتَـرْكِ صـلاةٍ مِـنْ عِشـاءٍ ولا ظُهْرِ
فـلا تَتْرُكونـي مِنْ صَبـوحِ مُدامَةٍ ... فما حَرَّمَ اللهُ السُّلافَ مِنَ الخمْرِ[2]
إذا أُمِّـرَتْ (تَيْـمُ بـنُ مُـرَّةَ) فيكُمُ ... فلا خَيْرَ في أرضِ الحجازِ ولا مِصْرِ[3]
فإن يَكُ إسلامي هو الحقُّ والهُدى ... فإنِّـي قـد خَلَّـيْـتُـهُ لأبـي بَكْـرِ

***

وقد افْتَنَّ الناسُ في الضلالَةِ حتى وصَلوا إلى (ادِّعاءِ الربوبيةِ). فكان ذلك تأَنُّقاً في الكُفْرِ كما يتأَنَّقُ الناسُ في الثيابِ. وكان ذلك أيضاً جَمْعاً للمَعْصِيةِ مِنْ كُلِّ أنواعِها. وإنَّما كان أهلُ الجاهليةِ يُنْكِرونَ النُّبَوَّةَ ولا يُجاوِزونَ ذلك إلى ما سِواهُ.

سُمَيْرُ بنُ أَدْكن

ولما أجلى (عمرُ بنُ الخطاب) رَحِمَهُ اللهُ، أهلَ الذِّمَّةِ عن جزيرةِ العربِ، شَقَّ ذلك على الجالين. فيقالُ إنَّ رجلاً مِنْ يهودِ (خيبرَ) يُعرَف بـ (سُمَيْرِ بنِ أَدْكَنَ) قالَ في ذلك:

1- (ربيعة بن أمية بن خلف الجُمَحي): أسلم يوم الفتح. وشهد حجة الوداع. والمشهور أن عمر بن الخطاب جلده على شرب الخمر. فالتحق بالروم وارتدَّ عن الإسلام ومات نصرانياً. والبعض ينفي صحة ارتداده عن الإسلام.

2- (السُّلاف): ما تحلَّبَ وسال قبل عصر العنب. وهو أفضلُ أنواع الخمر.

3- (أُمِّرَتْ): صارت أميراً عليكم. ويقصد بهذا القول (أبا بكر) لأنه من (تيم بن مرة).

يَصــولُ عَلَيْنا أبــو حَفْصٍ بِــدُرَّةٍ رُوَيْــدَكَ إنَّ المرءَ يَطْفو ويَرسُبُ
كأنَّــك لــم تَتْبَــع حَمولَــةَ ماقِــطٍ لِتَشْــبَعَ إنَّ الــزَّاد شــيءٌ مُحَبَّــبُ[1]
فلَوْ كان موسى صادِقاً ما ظَهَرتُمُ عَلَيْنــا ولكــنْ دَوْلَــةٌ ثــم تَذْهَــبُ[2]
ونحنُ سَبَقْناكُمْ إلى المَيْنِ فاعْرِفوا لنا رُتْبَةَ البادي الذي هو أكْذَبُ[3]
مَشَــيْتُمْ علــى آثارِنا فــي طَريقِنا وبُغْيَتُكُمْ في أنْ تَسُودوا وتُــرْهَــبوا

***

وإذا كان (الصناديقي) قد ظهرَ في (اليمنِ)، فإنَّ (اليمنَ) ما زالَ منذ كانَ، موطِناً للمُتَكَسِّبينَ بالتَّدَيُّنِ، وموطِناً للمُحْتالينَ على الجَشَعِ بالتَّزَيُّنِ بِزِيِّ المُتديِّنين. وحدَّثَني مَنْ سافَرَ إلى تلك الناحِيَةِ أنَّ فيه اليومَ جماعةً كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أنه القائِمُ المُنْتَظَرُ. فلا يَعْدَمُ جِبايَةً مِنْ مالٍ يصلُ بها إلى خَسيسِ الآمالِ.

القرامِطة

وحُكِيَ لي أنَّ لــ (القرامطةِ) في (الأَحْساءِ[4]) بيتاً يَزْعُمونَ أنَّ إمامَهم يَخْرُجُ منه. ويُقيمونَ على بابِ ذلك البيتِ فَرَساً بِسَرْجٍ ولِجامٍ. ويقولونَ للناسِ: "هذا الفرسُ لِرِكابِ (المَهديِّ). يركبُهُ متى ظهرَ بالحقِّ الواضِحِ".

وإنَّما غَرَضُهم مِنْ ذلك الخداعُ والتضليلُ تَوَصُّلاً إلى التَّمَلُّكِ.

ومِنْ أعجَبِ ما سَمِعْتُ أنَّ بعضَ رؤساء القرامطة في الدهرِ القديمِ، لمَّا حضَرتْهُ

1- (الماقِط): اسم فاعل من (أَقِطَ اللبن): إذا جُمِعَ وتُرك حتى ييبس ويصير كالحجر. ثم يُطْبَخ. والشاعر هنا يُعيِّرُ ابنَ الخطاب بما كان عليه قبل أن يصيرَ خليفة. فأنت تَهْوي بالدرة على الناس كأنك لم تركض وراء مَنْ يحملُ هذا اللبنَ لتشبع.

2- المعنى أنه لو كان موسى نبياً صادقاً لكانت لنا السيادةُ ولما غلبتمونا. ولكن الأيام تدور وتذهب. وحُكْمُكُمْ هكذا. اليومَ أنتم الحكام. ثم تذهبون.

3- (المَيْن): الكذِبُ. (رتبةَ): مفعول به لفعل (اعرِفوا). بمعنى اعترفوا وأقِرُّوا. والمعنى أننا سبقناكم إلى الكذب بادعاء النبوة. فاعترِفوا بأننا لنا رتبة البادئ بالكذب الذي هو أكذبُ منكم.

4- (الأحساء): مدينة في البحرين. اتخذها أبو طاهر الجنَّابي القرمطي قاعدةً له. وكان أولَ مَنْ حصَّنها.

المنِيَّةُ جمعَ أصحابَه وجعل يقولُ لهم لمَّا أحسَّ بالموتِ: "إنِّي قد عَزَمْتُ على النُّقْلَةِ. وقد كنتُ بَعَثْتُ موسى وعيسى ومحمداً. ولا بدَّ لي أنْ أبعَثَ غيرَ هؤلاء". فعليه اللعنةُ. لقد كفرَ أَعْظَمَ الكُفْرِ، في الساعةِ التي يجبُ أنْ يُؤمِنَ فيها الكافِرُ، ويَؤوبَ إلى آخِرَتِه المسافرُ.

الوليدُ بن يزيد[1]

وأما (الوليدُ بن يزيد)، فكانَ عقلُهُ عقْلَ وليدٍ مع أنه بلغَ سِنَّ الكُهولةِ. ما أغْنَتْهُ نِيَّتُه في المَلذَّاتِ، ولا نفعتْه أوعيَةُ الذهبِ[2]. وقد شُغِل عن (الباطيَّة) في جهنمَ بجريرةِ النفسِ الخاطِيَةِ. فرماه إلى الجحيمِ فِسْقُه.

وقد رُوِيَتْ له أشعارٌ يَلْحقُ به مِنْها العارُ. كقولِه:

أَدْنِيا منِي خَليلَيَّ ... عَبْدلاً دونَ الإزارِ[3]
فلقدْ أيْقَنْتُ أنِّي ... غَيْرُ مَبْعوثٍ لنارِ
واتْرُكا مَنْ يطْلُبُ الجنَّـ ... ـةَ يسعى في خَسارِ
سأسوسُ الناسَ حتى ... يَركبوا دينَ الحِمارِ

فالعجَبُ لِزمانٍ صَيَّرَ مِثْلَهُ إماماً، ويُعطيه مِنَ الحُكْمِ ما يشاءُ. ولعل غيرَه مِمَّنْ مَلَكَ يعتقِدُ مِثلَ ما يعتقِدُ أو قريباً منه. ولكنه يستُرُ ما في نفسِهِ خوفَ اللومِ والتثريبِ.

ومما يُرْوى له:

أنا الإمامُ الوَليدُ مُفْتَخِراً ... أجُرُّ بُرْدي وأسمَعُ الغَزَلا
أسْحَبُ ذَيْلي إلى مَنازِلِها ... ولا أُبالي مَنْ لامَ أو عَذَلا
ما العَيْشُ إلا سَماعُ مُحْسِنَةٍ ... وقَهْوَةٌ تَتْرُكُ الفتى ثَمِلا

1- مرت ترجمته.

2- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح في رسالته: (وأحضر الوليدُ وعاءً مِنْ ذهبٍ فيه جوهرةٌ جليلةُ القدْرِ فيها صورةُ رجل. فسجدَ له وقَبَّلَه).

3- (عبدل): اسم فتاة. و(دون الإزار): عاريةً من غير ثوب.

لا أَرتَجــي الحُورَ في الخلودِ وهلْ يأمُـلُ حـورَ الجِنـانِ مَـنْ عَقَـلا
إذا حَـبَـبْـتْـكَ الـوِصـالَ غـانِـيَـةٌ فَـجـازِهـا بَـذْلَهـا كَمَـنْ وصَـلا

ويُقالُ إنه لَمَّا حوصِرَ، دخَلَ القصرَ وأغلقَ بابَه وقال:

دَعُوا لـيَ هِنداً والربـابَ وفَرْتَنى ومُسْـمِعَةً حَسْـبي بـذلـك مـالا
خُـذوا مُلْكَكُم لا ثَبَّتَ اللـهُ مُلْكَكُمْ فـلـيـس يسـاوي بعـدَ ذاك عِقـالا
وخَلُّوا سبيلي قبلَ عَيْرٍ وما جرى ولا تَحْسُـدوني أنْ أَمـوتَ هُـزالا[1]

فَطُرِد عن مَنزلةِ الخلافةِ أيَّ طَرْدٍ. وشوهِد رأسُه في فمِ كلب. كذلك نقلَ بعضُ الرُّواةِ. واللهُ هو الذي يقومُ بمعاقبةِ الغُواةِ. ولا حيلةَ في تقلُّباتِ الدنيا. فقد أعيَتِ الناسَ جميعاً مِنَ البدو والحضَرِ. وإنَّ مِنْ حقِّ الخِلافَةِ أنْ تُعطى إلى مَنْ هو بالنُّسْكِ مَعْروفٌ. ولا تصْرِفُه عن الرُّشْدِ صُروفٌ. ولكنَّ المصائبَ خُلِقَت مع خَلْقِ الشمسِ. فهل يتخلَّصُ مِنْها مَنِ انتهى مِنَ الحياةِ وصارَ في الرَّمْسِ؟

أبو عيسى بنُ الرشيد[2]

وأما (أبو عيسى بنُ الرشيدِ)، فإنَّه ليس برشيدٍ. وإنْ صَحَّ ما رُوِيَ عنه فقد بايَنَ بذلك أسلافَه، وأظهرَ لأهلِ الدينِ مخالفتَه لهم. وإنْ صحَّ أنه لا يصومُ فإنَّ اللهَ لا يَحفِلُ بعبادِهِ إنْ كانوا مِنَ الصائِمين عن خوفٍ ولا مِنَ المُفْطِرين. ولكن البشرَ صاروا في الضَّلالَةِ واقِعين. وربَّما كان الجاهِلُ أو المُتَجاهِلُ ينطِقُ بالكلمةِ وخاطِرُه يُفكِّرُ بضدِّها. وإنَّما أقولُ ذلك راجِياً أنَّ (أبا عيسى) ونُظَراءَه لم يَتَّبِعوا أصحابَ الغَيِّ والضَّلالِ، وأنهم يَبيتون على غيرِ ما سُمِعَ عنهم. فقد وَعَظَهمُ المَيِّتونَ.

1- (العَيْر): رفة العين. والمعنى: خَلُّوا سبيلي في الحال قبل رفة العين وقبل ما جرى لي.

2- (أبو عيسى بن الرشيد): هو محمد بن هارون الرشيد. أمه أم ولد. كان من أحسن الناس وجهاً ومَعْشراً. شُغِفَ به أخوه المأمون. فلما مات قبله عام 209 هـ 824 م، امتنع عن الطعام أياماً حزناً عليه. وقد اشتُهِر عيسى برقة الدين وترك الصيام وأكل لحم الخنزير.

ورأى بعضُهم (عبدَ السلام بنَ رَغبان[1]) المعروفَ بـ (ديكِ الجِنِّ) في النومِ وهو بأحْسَنِ حالٍ. فذكرَ له الأبياتَ (الفائِيَّةَ) التي فيها:

هــي الدنيــا وقــد نَعِمــوا بأخرى وتســويفُ الظُّنونِ مِنَ السُّــوافِ[2]

و(السُّواف) هو (الهلاك). فقال: "إنَّما كنتُ أتلاعب بالزندقةِ ولم أكن أعتقِدُها.

ولعل كثيراً مِمَّنْ شُهِروا بِجَهالاتِ الزندقةِ تَكونُ طويتُه إقامةَ الشريعةِ والتَّنَزُّهَ في رياضِها اليانِعَةِ. لكنَّ اللسانَ طَمَّاعٌ بالكلامِ ومُسارِعٌ إلى التلذُّذِ بقولِ الزُّورِ.

و(أبو عيسى) المذكورُ يُسْتَحْسَنُ شِعْرُه في البيتين والثلاثةِ. وأنشدَ له (الصولي[3]) في (نوادِرِه):

لِــســانــي كَــتــومٌ بــأســرارِه ودَمْعــي نَــمــومٌ بِسِــرِّي مُــذيــعُ
ولــولا دُموعــي كَتَمــتُ الهــوى ولــولا الهــوى لم يكــنْ لــي دُموعُ

فإنْ كان (أبو عيسى) قد فَرَّ مِنْ صيامِ شَهرٍ، فلعله لا يقعُ في التعذيبِ أبدَ الدهرِ. وقد قالَ تعالى: (إنه لا يَيْأس مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافِرون[4])

الجَنَّابيُّ[5]

وأما (الجَنَّابِيُّ) فلو عوقِبَ بلدٌ بِمَنْ يَسْكُنُه لجازَ أنْ تُعاقَبَ مدينتُه (جَنَّابة) ولا

1- (عبد السلام بن رَغبان): أبو محمد. ديك الجن الحمصي. مِنْ شعراء الدولة العباسية المُجيدين. ولد في حمص عام 161 هـ 777م. وظل في الشام لا يفارقها. وكان متشيعاً. وله مَراثٍ في الإمام الحسين. واشتهر بالخلاعة والمجون. توفي عام 235 أو 236 هـ 849 م.

2- (التسويف): التأخير. ومعنى البيت أن الإنسان ينعمُ في الآخرة. وتأخيرُ الاعتراف بذلك هو الهلاك. والمعري يأتي بهذا البيت تأكيداً للفكرة التالية التي يأتي بها وهي أن كثيراً من الناس يؤمنون بالله ويظهرون الزندقة.

3- (الصُّولي): هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصُّولي. كان أهله ملوكاً في جُرجان. عالم راوية. حاذق بأخبار الملوك والخلفاء وبتأليف الكتب. من كتبه المشهورة: (أخبار أبي تمام) و(الأوراق) و(النوادر). لا يُعرفُ عام ولادته. توفي عام 335 هـ 946 م.

4- سورة (يوسف): من الآية 87.

5- مرت ترجمته.

يُقْبَلُ منها توبةٌ ولا إنابةٌ. ولكنَّ حُكْمَ الكِتابِ المُنْزَلِ أحْرى بالاتِّباعِ. فالله تعالى يقولُ: (ألاَّ تَزِرَ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى[1]).

وقد اختلفَتِ الأقوالُ في سببِ أَخْذِهِ للحَجَرِ الأسودِ مِنَ الكعبةِ. فزعمَ مَنْ يَدَّعي الخِبْرَةَ به أنه أخذَه لِيَعْبُدَهُ ويُعَظِّمَه لأنه بلغَهُ أنه يدُ الصنمِ الذي جُعِلَ على شكلِ (زُحَل). وقيلَ إنه جَعلَهُ مَوْطِئاً لقدمِه على مُرتفَعٍ مِنَ الأرضِ. وهذا تناقضٌ في الحديثِ. وأيٌّ ذلك كانَ فعليه اللعنةُ أبدَ الدهرِ.

العَلَويُّ البِصْريُّ[2]

وأما (العلويُّ البِصْريُّ) فذكَرَ بعضُ الناسِ أنه كان قبلَ خُروجِه يَذْكُرُ أنه مِنْ (عبدِ القيسِ). ثم مِنْ (أَنْمارٍ). وكان اسمه (أحمد). فلما خرجَ تَسمَّى (علياً). والكَذِبُ كثيرٌ كأنه عندَ النظرِ إلى كثرتِهِ يشبهُ الجبلَ. والصدقُ قليلٌ كأنه الحَصاةُ أمام الجبلِ. وحَصاةُ الصدقِ تدوسُها الأقدامُ.

وتلك الأبياتُ المَنسوبةُ إليه مشهورةٌ وهي:

أيــا حِرْفَــةَ الزَّمَنى أَلَمَّ بِــكِ الرَّدى ... أما لي خلاصٌ مِنْكِ والشمْلُ جامِعُ[3]
لَئِــنْ قَنِعَتْ نفســي بِتَعْليم صِبْيَةٍ ... يَــدَ الدَّهْــرِ إنِّــي بالمَذَلَّــةِ قانِــعُ
وهــل يَرْضَيَنْ حُــرٌّ بتعليم صِبْيةٍ ... وقد ظُنَّ أنَّ الرزقَ في الأرضِ واسعُ؟

وما أَنْفي أنْ يكونَ حَمَلَهُ حُبُّ الدنيا وحُطامِها على أنْ غَرِقَ في بحرها الواسِعِ يسبحُ فيه كما يسبحُ الناسُ في حُبِّ الدنيا (ما دامتِ السَّمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ ربُّك إنَّ ربَّكَ فَعَّالٌ لِما يُريدُ[4]).

1- سورة (النجم) الآية 38.

2- مرت ترجمته وهو زعيم الزنج.

3- (الزَّمَنى): ج زَمين. وهو المريضُ المصاب بالضعف أو العاهة. ويقصُدُ أنَّ تعليم الصبية هي مهنة المرضى والضعفاء.

4- سورة (هود). من الآية 107.

وقد رُوِيَتْ له أبياتٌ تدلُّ على تَألُّهٍ. وما أَنْفي أنْ تكونَ قِيلتْ على لسانِهِ. لأنَّ مَنْ خَبِرَ هذا العالَمَ حَكَمَ عليه بالفجورِ والكذبِ وبالأخلاقِ الفاسدةِ التي تَبْعُدُ عن كلِّ ما هو حَسَنٌ. والأبياتُ هي:

قَتَلْتُ الناسَ إِشْفاقاً ... على نَفْسيَ كي تَبقى
وحُزتُ المالَ بالسَّيْفِ ... لِكي أَنْعَمَ لا أَشْقى
فَمَنْ أَبْصَرَ مَثْوايَ ... فلا يَظْلِمْ إذنْ خَلْقا
فوا ويلي إذا ما مُـ ... ـتُّ عِنْدَ اللهِ ما أَلْقى
أَخُلْداً في جوار اللـ ... ـهِ أم في نارِهِ أُلْقى

وأنشدني بعضُهُم أبياتاً (قافيَّةً) طويلةَ الوزنِ. وقافِيتُها مِثْلُ هذه القافيةِ قد نُسِبَت إلى (عَضُدِ الدولة[1]). وقيلَ إنه أفاقَ في بعضِ الأيامِ فكتبها على جِدارِ المَوْضِعِ الذي كان فيه، فجاءتْ على نحوِ أبياتِ العَلَويِّ البِصْريِّ. وأشهدُ أنَّ الأبياتَ المنسوبةَ إلى (عضُدِ الدولةِ) مُتَكَلَّفَةٌ صَنَعَها رَقيعٌ مِنَ القومِ، وأنَّ (عضُدَ الدولةِ) ما سَمِعَ بها قَطُّ.

وأما الحكايةُ عن أصحابِ الحديثِ أنهم صَحَّفوا (رَخْمة) فقالوا (رَحْمة)[2]. فلا أَصَدِّقُ مَجْراها. والكذِبُ غالِبٌ ظاهِرٌ. والصِّدْقُ خَفِيٌّ مُتَضائلٌ. فإنا لله وإنا إليه راجِعون. والكذبُ أيضاً واضِحٌ في ادِّعاءِ مَنْ يَدَّعي أنَّ (عليَّ بن أبي طالبٍ) عليه السلامُ قال: "تهلِكُ البصرةُ بالزَّنْجِ". وأنا لا أومِنُ بشيءٍ مِنْ ذلك. ولم يكن (عليٌّ) عليه السلام ولا غيرُه مِمَّنْ يُكْشَفُ له عِلْمُ الغيب. وفي الكتابِ العزيزِ (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السماواتِ والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ[3]). وفي الحديثِ المَأثورِ أنه سَمِعَ جَوارِيَ يُغَنِّينَ في عُرْسٍ ويَقُلْنَ:

1- (عضد الدولة البويهي) أبو شجاع (فنا بن خسرو). ثاني ملوك بني بويه. استولى على بغداد عام 367 هـ 977 م. وخُطِبَ له على منابرها بعد الخليفة العباسي. ولد عام 937 وتوفي عام 983 م.

2- المعري يشير هنا إلى قول ابن القارح: (.. سمعت قائلاً يقول لغلام أسود غليظ: "يا رخمة. اقْلَعْه وأسْرِعْ". وأصلُ الاسم (رحمة)

3- سورة (النمل)من الآية 65.

وأهـــدى لنا أَكْـبُـشـاً تُـبَـحْـبِـحُ فـي الـمِرْبَـدِ
وزوجُـكِ فـــي الـنـــادي ويَـعْـلَـمُ مـا فـي غَـدِ

فقال: "لا يَعْلَم ما في غَدٍ إلا اللهُ".

ولا يجوزُ أن يُخْبِرَ مُخْبِرٌ منذ مئةِ سنةٍ أنَّ أمير (حلبَ) – حرسَها اللهُ – في سنةِ أربعٍ وعشرينَ وأربعمئةٍ[1] اسمُهُ فلانُ بنُ فلان، وصِفَتُه كذا. فإنْ ادَّعى ذلك مُدَّعٍ، فإنما هو مُتَخَرِّصٌ كاذبٌ.

وأما (النجومُ) فإنَّما لها تلويحٌ لا تصْريحٌ. وحُكِيَ أنَّ (الفضلَ بنَ سهل[2]) كان قبل مَقْتَلِه يتَمَثَّلُ كثيراً بقولِ الراجِزِ:

لَئِـنْ نَجَـوْتُ ونَجَـتْ ركائِبـي مِـنْ غالـبٍ ومِـنْ لَفيـفِ غالـبِ
إنـي لَـنَـجَّـاءٌ مِـنَ الكَـرائِـبِ

وأنَّ (غالباً) كان فيمن قَتَلَهُ. فهذا يَتَّفِقُ مِثْلُه وليس عِلْماً بالغيبِ. وأَجْدِرْ بهذه الحكايةِ أنْ تكونَ مَصْنوعةً. فأما تَمَثُّلُهُ بالشعرِ فغيرُ مُسْتَنْكَرٍ. وربما اتَّفقَ أنْ يكون في ذلك الوقتِ جماعةٌ يُسَمَّوْنَ باسم (غالبٍ). فيمكِنُ أنْ يقترنَ معنى الشاهدِ بلفظِهِ. على أنَّ في الأيام عجائِبَ. وفوق كلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ.

وحُكِيَ أنَّ (إياسَ بنَ معاويَة[3]) القاضيَ كان يَظنُّ الأشياءَ فتكونُ كما ظَنَّ. ولهذا السبب قالوا: (رجلٌ نِقابٌ وأَلْمَعِي). و(النِّقابُ) هو المُتفرِّسُ بالأشياءِ المُتحدِّثُ عن الغائبِ العالِمُ بالأمورِ. قال أوسُ بنُ حَجَرٍ[4]:

1- هذه العبارة تدل على أنَّ المعري أملى (رسالةَ الغفران) عام 424 هـ 1033 م.

2- (الفضل بن سهل): أبو العباس السرخسي. سليلُ ملوك الفرس. ذو الرياستين. وزير المأمون. ولد عام 154 هـ 771 م. قُتِلَ عام 202 هـ 818 م وله من العمر 48 سنة.

3- (إياسُ بن معاوية بن قُرَّةَ) الضَّبِّيِّ. مضربُ المثلِ في الذكاءِ والفصاحة. وكان ألمعياً صادِقَ النظر. ولد في نجد عام 46 هـ 666 م. انتقلَ إلى البصرة وتعلَّم فيها. وتردَّدَ على دمشق والتقى الصحابةَ والتابعين. زارَ عبدَ الملك بن مروان وهو فتى. ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة. توفي عام 121 أو 122 هـ 739 أو 740 م وعمره 76 سنة.

4- مرت ترجمته.

الألمعـيُّ الـذي يظـنُّ لـك الظَّـ ـنَّ كأن قـد رأى وقـد سَـمِعا

وقالَ:

نِـقابٌ يُـحَـدِّثُ بـالغائـبِ

الحَلاج[1]

فأما (الحسينُ بنُ منصورٍ) الحلاجُ، فمَعْروفٌ مَشْهورٌ. وإذا كان بعضُ الناسِ يعبُدونَ الحَجَرَ، فكيف يأمَنُ الرجلُ الحصيفُ على نفسه مِنْ أنْ يُطْعَنَ فيه وأنْ تُلْصَقَ العيوبِ به؟

لقد أرادَ الحلاجُ أنْ يردَّ الناسَ عن الضلالةِ. فتركَ معالجةَ القُطْنِ وحَلْجَه. ولو بقِيَ يعمَلُ في حلْجِ القطنِ لَما بَقِيَ له ذِكْرٌ بين الناسِ. ولكنها المَقاديرُ التي تُعْمي وتُضَيِّعُ مَنْ يعترضُها وتسخَرُ مِنْه. وكونُ ابنِ آدمَ حَصاةً أو صَخرَةً أحسنُ له مِنْ أنْ يكونَ مَحَلاً للسُّخْرِيَةِ.

والناسُ يُسرِعونَ إلى الباطلِ، ويُهَرولونَ إلى الفِتَنِ. فكم افْتُرِيَ على (الحلاج[2]). والكذبُ سريعُ الانتشارِ. وجميعُ ما يُنْسَبُ إليه مِمَّا لم تَجْرِ العادةُ بمِثْلِه. وما قيلَ عنه هو الكَذِبُ الصُّراحُ. ولا أصدِّقُ بهذا الكذبِ حتى في النومِ وغَفْلَةِ الذِّهْنِ. ومِمَّا افْتُرِيَ عليه أنَّه قالَ للذينَ قَتَلوهُ: "أتظُنونَ أنكم إيايَ تَقتُلونَ؟ إنما تَقْتُلون بغلةَ رجلٍ اسمُه المادِرانِيُّ"، وأنَّ البغلةَ وُجِدتْ في إصطبلها مقتولةً.

وفي الصوفيةِ إلى اليومِ مَنْ يرفَعُ شأنَهُ ويَجعلُ مع النجمِ مكانَه. وبَلَغَني أنَّ في بغدادَ قوماً ينتظِرونَ خُروجَه، وأنَّهم يَقِفونَ حيثُ صُلِبَ على نهرِ (دِجْلَة) يتوقَّعونَ ظُهورَه. وليس ذلك بغريبٍ على جهْلِ الناسِ. ولو عبد عابدٌ ظبياً، لنَزَلَ على قِرْدٍ حظٌّ مِنْ ذلك فظفِرَ بأعظمِ تَبجيلٍ، وقالت العامةُ: "اسجُدْ للقِردِ في زمانه".

1- مرت ترجمته.

2- المعري هنا ينفي ما اتهمه به ابن القارح.

إجلالُ القِرْد

قِردُ زبيدةَ وقِردُ يزيد

وأنا أتحرَّجُ مِنْ ذِكْرِ القردِ الذي يُقالُ عنه: إنَّ القُوَّادَ في زمن (زبيدة[1]) كانوا يَدخلونَ للسلامِ عليه، وإنَّ (يزيدَ بن مَزْيَد الشيباني[2]) دَخَلَ في جُمْلَةِ المُسَلِّمينَ فقتله.

وقد رُوِيَ أنَّ (يزيدَ بنَ معاوية[3]) كان له قِرْدٌ يحمِلُهُ على أتانٍ وحشيةٍ ويرسِلُها مع الخيلِ في الحَلَبةِ.

عودةٌ إلى الحلاج

وأما أبياتُ الحلاجِ التي على الياء:

يـا سِـرُّ سِـرُّ يَـدقُّ حَتى ... يَجِلُّ عن وصْـفِ كُـلِّ حـيّ[4]

وظـاهِـراً بـاطِـنـاً تَـبَـدّى ... مِـنْ كُـلِّ شـيءٍ لـكـلِّ شَـيْ

يـا جُمْلَـةَ الـكلِّ لـسـتَ غـيـري ... فَـمـا اعْـتِـذاري إذن إلـيّ؟

فلا بأسَ بِنَظْمِها في القوةِ. ولكنَّ قولَه: (إليّ) عاهةٌ في الأبيات. لأنَّ تسكينَ الياءِ في مثلِ هذا الوزنِ لا يجوزُ عند بَعْضِ الناسِ. وإنَّ كَسْرَ الياءِ على غِرارِ (حَيٍّ وشيٍّ) رديءٌ قبيحٌ.

وأصحابُ العربيةِ مُجْمِعون على كراهةِ قِراءةِ (حمزةَ بنِ حَبيبٍ[5]): (وما أنتم

1- (زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور): زوجة هارون الرشيد وأم الأمين. تزوجها الرشيد عام 165 هـ 781 م. وتوفيت عام 216 هـ 831 م في عهد المأمون.

2- (يزيد بن مزيدَ بنِ زائدةَ الشيباني). أبو خالد. أحدُ قواد الدولة العباسية الشجعان. وهو الذي حارب الوليد بن طريف عندما خرج على الرشيد واستفحل أمرُه. توفي عام 185 هـ 801 م.

3- مرت ترجمته.

4- مر معنا ضبطنا للنص في رسالة ابن القارح.

5- مرت ترجمته.

بِمُصْرِخِيِّ[1]) بكسرِ الياء لأنَّ جُمهورَ القُرَّاءِ على أنها (مُصْرِخِيَّ) بفتحِ الياءِ. وقد رُوِيَ أنَّ (أبا عمروِ بنِ العلاءِ[2]) سئِلَ عن قراءةِ (حمزةَ) فقال: "إنَّ ذلك لَحَسَنٌ. تارةً إلى فَوْق. وتارةً إلى أسفل". يعني فتحَ (مُصْرِخيَّ) وكسرَها. والذين نقلوا قولَ (أبي عمرو بن العلاء) هذه يحتَجُّون بها لــ (حمزةَ). ويذهبونَ إلى أنَّ (أبا عمروٍ) أجازَ الكسرَ لالتقاءِ الساكنين. وإنْ صَحَّت الحكايةُ عنه فما قالَها إلا مُسْتَهْزِئاً على معنى العكسِ. وذلك كما قال (الغنويُّ[3]) وهو (سَهْمُ بنُ حنظَلَةَ):

لا يَمنَــعُ النــاسُ مِنِّي ما أردتُ ولا أُعْطيهُــمُ مــا أرادوا حُسْــنَ ذا أدبا

أي: ليس حسناً في الأدبِ أنْ يُعطيَني الناسُ ما أريدُ ولا أُعطيهِمْ ما يُريدونَ. وهذا كما يقول الرجلُ لِولَدِهِ إذا رآه قد فعل فِعْلاً قبيحاً: "ما أحسنَ هذا". وهو يُريدُ ضِدَّ الحَسَنِ.

ولم يأْتِ كَسرُ الياءِ في شِعرٍ فصيحٍ. وقد طعَنَ (الفرَّاءُ[4]) على البيتِ الذي أنشَدَهُ:

قــالَ لهــا: هَلْ لك يــا (تــا) فِيِّ؟ قالــتْ لــه: مــا أنــتَ بالمَرْضِــيِّ[5]

وقد سَمِعْتُ في أشعارِ المُحْدَثينَ: (إليِّ وعليِّ) ونحوَ ذلك. وهو دليلٌ على ضَعْفٍ في العِلْمِ وركاكةٍ في الشاعِرِيةِ.

وإدخالُ الحلاجِ الألفَ واللامَ في قوله (يا جُملَةَ الكلِّ) مكروهٌ. فكلمة (كُلّ) لا تُعَرَّف. وكانَ (أبو عليٍّ الفارسيُّ) يُجيزُ إدخالَ الألفِ واللامِ على لفظةِ (كُلّ). ويدَّعي

1- سورة (إبراهيم) من الآية 22.

2- مرت ترجمته.

3- (الغَنَوِيُّ): هو سهم بن حنظلة الغنوي. شاعر فارسٌ مُخضرم. أدرك الجاهليةَ والإسلام. وتوفي في عهد عبد الملك بن مروان.

4- (الفرَّاء): هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي الكوفي. مولى بني أسد. أميرُ المؤمنين في النحو. ولد في الكوفة عام 144 هــ 761 م. وتوفي فيها عام 207 هــ 822 م.

5- (تا) هنا اسم فتاة. ولعله منادى مُرخَّم من اسم يبدأ بــ (تا). ومعنى البيت: هل تَقْبَلينَني يا تا؟ فقالت له: لا أرضاك.

إجازَةَ هذا الإدخالِ على (سيبويه). لكنَّ كلامَ العربِ القدماءِ ليس فيه إدخالٌ للألِفِ واللامِ على لفظتي (كُلّ وبعض). وقد أنشدوا بيتاً لـ (سُحَيْم[1]):

رأيْـتُ الغَنِـيَّ والفَقيـرَ كِلَيْهِمـا إلى الموتِ يأتي الموتُ للكُلِّ مَعْمَدا[2]

الحُلولُ[3]

ويُنْشَدُ لفتىً كان في زمنِ (الحلاج):

إنْ يَكُنْ مَذْهَـبُ الحُلولِ صَحيحاً فإلهـي فـي حُـرْمَـةِ الزَّجَّـاجِ[4]
عَـرَضَـتْ فـي غِـلالـةٍ بـطِـرازٍ بَيْـنَ دارِ الـعَـطّـارِ والـثَّـلاجِ[5]
زعَمـوا لـي أمْـراً وما صَـحَّ لكِنْ هـو مِـنْ إفْـكِ شَـيْخِنا الحـلاجِ

وهذه المذاهِبُ قديمةٌ. تنتقِلُ في عَصْرٍ بعدَ عصرٍ. ويُقالُ إنَّ (فِرعَونَ) كانَ على مذهبِ الحُلوليةِ. فلذلك ادَّعى أنه ربُّ العِزَّة.

وحُكِيَ عن رجلٍ مِنْهم أنه كانَ يقولُ في تسبيحِهِ:

سُـبحـانَـك سُـبـحـاني غُـفْـرانَـكَ غُـفْـرانـي

وهذا هو الجُنونُ الغالِبُ. إنَّ مَنْ يقولُ هذا القولَ معْدودٌ في الأنعامِ وما عَرَفَ كُنْهَ الإنعامِ.

1- (سُحَيْم): كان أسود نوبياً أعجمياً. وكان رقيقَ الشعر. اشتراه بنو الحَسْحاس وهم بطن من بني أسد. فسُمِّيَ عبدَ بني الحَسْحاس. أدرك الإسلام.

2- (المَعْمَدُ): القَصْدُ. مصدر ميمي بمعنى (العَمْد).

3- مذهب (الحُلول) أو (الحلولية): هو القول بأنَّ الله يَحُلُّ في الأشخاص. وأصحابُ هذا المذهبِ كثيرون ويذهبون إلى أنَّ الله حَلَّ في جميع الأنبياء. كما حلَّ في (محمد ابن الحنفية بن علي بن أبي طالب). ويرى بعضُهم أنَّ الله يحلُّ في الصورِ الحسنةِ. فإذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها لأن الله حلَّ فيها. ويرى الحلاج أنَّ مَنْ هذَّبَ نفسه مِنَ اللذات والشهوات يظل يرتقي حتى يحُلَّ اللهُ فيه.

4- (الحُرْمَة): الزوجة. ويقصد أنه إذا صحَّ مذهب الحلول فقد حلَّ اللهُ في زوجة صانع الزجاج.

5- (الغِلالة): ثوب رقيق تلبسه المرأةُ على لحمها تحت الثياب. ويقصُدُ أن زوجة الزَّجاج التي حل فيها الله تمشي بين دار العطار ودار الثلاج بثيابها الداخلية.

وقالَ بعضُهُم:

أنـــا أنْـــتَ بِـــلا شَـــكٍّ فسُـــبحـانَك سُـبـحـاني
وإسـخـاطُـكَ إسْـخـاطي وغُـــفْـرانَـكَ غُـــفْـرانـي
ولِـــمَ أُجْـلَـــدُ يـا رَبِّـــي إذا قِـيـلَ هـو الـزانـي؟

وبنو آدمَ بلا عُقولٍ. وهذا أمرٌ يَلْقَنُهُ صغيرٌ عن كبيرٍ. فيودي بنفسِهِ إلى الهلاكِ. وقد قالَ تعالى: (أمْ تَحْسَبُ أنَّ أَكْثَرَهُم يَسْمَعونَ أو يَعْقِلون إنْ هُمْ إلا كالأنعامِ بل هُمْ أضَلُّ سَبيلا[1])

ويُروى لبعضِ أهلِ هذه النِّحْلَةِ:

رأيـتُ ربِّـي يَمشـي بمَأْلَكَـةٍ[2] فـي سـوقِ يَحيـى فَكِـدْتُ أَنْفَطِرُ
فقلـتُ: هَـلْ فـي اتِّصالِنـا طَمَعٌ فقـالَ: هَيْهـاتَ يَـمْـنَـعُ الحَـذَرُ
ولـو قضـى اللـهُ أُلْفَـةً بهـوىً لـم يَـكُ إلا الـسُّـجودُ والـنـظـرُ

التَّناسُخُ ومَذهبُهُ في الهند[3]

وتَصِلُ هذه النِّحْلَةُ إلى التَّناسُخِ. وهو مذْهَبٌ عتيقٌ يقولُ به أهلُ الهندِ. وقد كَثُرَ في جماعةٍ مِنَ الشيعةِ. نسألُ اللهَ التوفيقَ والكِفايةَ.

ويُنْشَدُ لرجُلٍ مِنَ النُّصَيْرِيَّةِ:

اعْجَبـي أُمَّنـا لِصَـرْفِ الليالـي جُـعِلَـتْ أُخْـتُنـا سـكـينـةُ فـارهْ
فازجُـري هـذه السَّـنانيرَ عنهـا واتْـرُكيهـا ومـا تَضُـمُ الغِـرارَهْ[4]

1- سورة (الفرقان) الآية 44.

2- (المألكة): الرسالة.

3- (التناسُخ): هو مذهبُ القائلين بانتقالِ الأرواح بعد مغادرةِ أجسادها إلى أجسادٍ أخرى ولو لم تكن الأجسادُ الجديدةُ من نوع الأجسادِ القديمة. ويرى هؤلاء أنَّ التناسُخَ نوعٌ من الثواب والعقاب. فالفاسقُ السيئ الأعمالِ تنتقلُ روحُه إلى أجسادِ البهائم الخبيثة أو المُعَدَّةِ للذبح.

4- (السنانير): ج سِنَّوْر. وهو القط. (الغِرارة): وعاءٌ لتخزين الطعام.

وقال آخرُ منهم:

تبـارَكَ اللـهُ كاشِـفُ الـمِحَـنِ فقد أرانـــا عَـجـائِـبَ الـزَّمَـنِ
حِمـارُ شَـيْبانَ شَـيْخُ بـلدَتِنـا صُيِّـرَهُ جـارُنـا أبـو السَّـكَـنِ[1]
بُـــدِّلَ مِـنْ مَـشْـيِـه بِحُـلَّـتِـهِ مِشْـيَـتَـهُ فـي الحِـزام والرسـنِ

ويُصَوِّرُ لهم الرأيُ الفاسدُ الشرورَ والأباطيلَ. فيسلُكونَ في ظلامِ الأمورِ السخيفةِ.

وحُكِيَ عن بعضِ ملوكِ الهندِ – وكان شاباً حسناً – أنه أُصيبَ بالجُدَريِّ. فنظر إلى وجهِهِ في المِرآةِ وقد تغَيَّرَ. فأحرقَ نفسَه وقال: "أريدُ أنْ يَنْقُلَنيَ اللهُ إلى صورةٍ أحسنَ مِنْ هذه".

وحدَّثني قومٌ مِنَ الفقهاءِ – وما هم في الحكايةِ بكاذبين ولا في أسبابِ الافتراءِ راغبين – أنَّهم كانوا في بلادِ (محمودِ بن ناصرِ الدولةِ[2]). وكان معه جماعةٌ مِنَ الهندِ قد وَثِقَ بصفائِهم، ويُفيضُ عليهم الأعطِياتِ لوفائِهم، ويكونونَ أقربَ الجُنْدِ إليه إذا حَلَّ وإذا ارتَحَلَ، وأنَّ رجلاً مِنْهم سافرَ في جيشٍ جَهَّزَهُ (محمود). فجاء خبرُ الرجلِ أنه قد هَلَكَ بموتٍ أو قتلٍ. فجمَعَتْ امرأتُه لِنفسها حطباً كثيراً، وأوقَدَتْ ناراً عظيمةً، واقتحمَتْها والناسُ ينظُرون. وكان ذلك الخبرُ باطِلاً. فلما قَدِمَ الزوجُ أوقدَ لنفسِه ناراً جامِحَةً لِيُحْرِقَ نفسَه حتى يَلْحَقَ بصاحِبتِهِ. فاجتمع خلقٌ كثيرٌ للنظرِ إليه. وكان أصحابُه مِنَ الهندِ يجيئون إليه فيوصونَه بأشياءَ إلى أمواتِهم: هذا إلى أبيه، وهذا إلى أخيه. وجاءه إنسانٌ مِنْهم بوردةٍ وقالَ له: "أَعْطِ هذه فلاناً". يعني ميتاً له.

1- المعنى أن حمار شيبان صار شيخَ البلدة، وشيخَ البلدة صار حماراً. ويتابعُ الوصفَ في البيت التالي: فالشيخُ السابقُ استبدل ثيابَه بالحِزامِ والرسن.

2- (محمود بن ناصر الدولة سبكتكين الغزنوي): أبو القاسم. ولد عام 360 هـ 971 م. تم له مُلْكُ خراسان. فأرسل إليه الخليفة العباسية (القادر) بلقب السلطنة وسماه (يمين الدولة وأمين المِلَّة). وقام بغزوات كثيرة بلغ بها رايةَ الإسلام إلى أماكن بعيدة. توفي عام 421 هـ 1030 م.

وقذف نفسَه في تلك النارِ.

وحدَّثَ مَنْ شاهدَ إحراقَهم نفوسَهم أنهم إذا لذعَتْهُمُ النار، أرادُوا الخروجَ منها. فيدفعُهم مَنْ حضرَ إليها بالعِصِيِّ والأخْشابِ. فلا إله إلا اللهُ: (لقد جِئتُمْ شيئاً إدًّا[1]).

ابنُ هانئ الأندلسي[2]

وفي الناس مَنْ يتظاهَرُ بهذا المذْهَبِ ولا يَعتَقِدُه. يتوصَّلُ به إلى الدنيا الفانيةِ وهي أغْدَرُ من المرأةِ الخَرْقاءِ الزانيةِ.

فقد كان في المغرب رجلٌ يُعْرَف بـ (ابن هانئ). وكان مِنْ شعرائهم المُجيدين. لكنه كان يُغالي في مَدحِ (المُعِزِّ أبي تميم مَعَدٍّ[3]) مغالاةً عظيمةً حتى قال يخاطِبُ حاملَ المِظَلَّةِ:

أَمُديرَهـا مِـنْ حَيْـثُ دار لَشـدَّما زاحَمْـتَ تحـتَ رِكابِـه جِبْريـلا[4]

وقال في (المُعِزِّ) وقد نزل في موضِعٍ يقال له (رَقَّادة[5]):

حَـلَّ بِـرقَّـادَةَ الـمَـسـيـحُ حـلَّ بـهـا آدمٌ ونـوحُ
حـلَّ بـهـا اللهُ ذو الـمَـعـالـي وكُـلُّ شـيءٍ سِـواهُ ريـحُ

1- سورة (مريم) الآية 89. و(الإدُّ): الأمر المُنْكَر.

2 (ابن هانئ): أبو القاسم وأبو الحسن. محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي الشاعر المشهور. ولد في إشبيلية عام 326 هـ 938 م. ونشأ وتعلم فيها. واتصل بملكها فلقي الحظوة عنده. ثم ساءت أخباره وأخبار الملك بسببه. فأشار عليه الملك بالرحيل حيناً مِنَ الزمن. فاتصل بـ (جوهر الصقلي) ثم بـ (المعز لدين الله الفاطمي). وقال فيهما مدحاً كثيراً. وهو في المغرب مشهور كأنه (المتنبي) في المشرق. قُتِل في برقة عام 362 هـ 973 م. فحزن عليه المعز.

3- (المُعِز): هو أبو تميم مَعَدُّ بن المنصور العُبَيدي الملقب بـ (المعز لدين الله الفاطمي). ولد عام 320 هـ 932 م. بويع بعد أبيه (المنصور بن القائم بن المهدي) عام 341 هـ 952 م. ثم فتح مصر والشام والحجاز. وتوفي في القاهرة عام 365 هـ 973 م.

4- (أمديرَها): الهمزة للنداء. و(المدير) هنا هو الذي يحمل المظلة ويحركها حيث يتحرك الأمير. وقد كان منصب حامل المظلة عند الفاطميين منصباً خطيراً لأنه يرافق الأمير في سيره.

5- (رَقادة): بلدة كانت في إفريقية. قريبة من القيروان. بناها إبراهيم بن الأغلب عام 263 هـ 877 م.

وحَضَرَ شاعرٌ يُعرَفُ بـ (ابن القاضي) بين يدي (ابن أبي عامر[1]) صاحِب الأندلس. فأنشده قصيدةً أولُها:

ما شـئتَ لا مـا شـاءتِ الأقـدارُ فاحْكُـمْ فـأنـت الواحِـدُ الـقَـهَّارُ

فأنكرَ عليه (ابنُ عامرٍ) قولَه وأمرَ بِجَلْدِه ونفيِهِ.

وأَصحُّ مرتبةٍ للحلاجِ أنْ يكون مُشَعْوِذاً. وليس ثاقِبَ الفَهْمِ ولا حاذِقاً. على أنَّ الصوفيَّةَ تُعَظِّمُهُ مِنْهُمْ طائفةٌ لم تَكشِفْ أمرَهُ وحقيقتَهُ.

ابنُ أبي عَوْن[2]

وأما (ابنُ أبي عَون)، فإنه تقلَّبَ في الأفكارِ والمُعتَقَداتِ حتى كأنه ينتقلُ مِنْ لونٍ إلى لونٍ. فقد اغتَرَّ بـ (أبي جعفرَ الشَّلْمغاني[3]) وتَبِعَهُ في عقيدتِهِ. فما فازَ فيما فعلَ. وقد تَجِدُ الرجلَ حاذِقاً في الصناعةِ، بَليغاً في النظرِ والحُجَّةِ. فإذا رجَع إلى الديانةِ أُلْفِيَ كأنه دابَّةٌ تُقادُ. فهو يَتْبَعُ ما عَرَفَ مِنَ الدينِ وما اعْتادَ.

والإيمانُ باللهِ مَوجودٌ في الغرائزِ. وهو يُعَدُّ حِصْناً ومَلْجأً للإنسانِ. ويَلْقَنُ الطِّفْلُ ما سَمِعَهُ مِنَ الكبارِ. فيبقى ما يَعتقِدُهُ حتى آخرِ عُمُرِه. والذين يَسكُنونَ في الصَّوامِعِ، والمتَعَبِّدونَ في الجَوامِعِ، يأخُذونَ ما يَعتقدونه كما ينتقِلُ الخَبَرُ عَمَّنْ أَخْبَرَ به. فهم لا يُميِّزون الصِّدْقَ مِنَ الكَذِبِ لدى مَنْ أخبرَهم. فلو أنَّ بعضَهم عاشَ

1- (ابنُ أبي عامر): الحاجب المنصور بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر المعافري. ولد في الأندلس عام 327 هـ 938 م. وَلِيَ القضاءَ ثم الوزارة لـ (الحَكَم المستنصر بالله الأموي). الذي كان يحتضر. فلما مات (الحكم) استقلَّ بالأمر حتى غلب على ابنه (المؤيد) وهو صبي. ولُقِّبَ بالملك الأعظم. وكان حكيماً عالماً ذا رأي. واشتهر ببلائه الصادق في الجهاد. بلغت مدة حكمه ستة وعشرين عاماً. توفي في إحدى غزواته عام 392 هـ 1002 م.

2- (ابن أبي عَون): أبو إسحاق. إبراهيم بن محمد بن أحمد بن أبي عون. صاحب (أبا جعفر الشَّلْمَغاني) الذي ادَّعى أنه إله. عرض عليه الخليفةُ (الراضي) أنْ يتبرَّأ من الشلمغاني فرفض. فأُخِذَ معه وضُرِبت عنقُه بعده عام 322 هـ 934 م.

3- (أبو جعفر) محمد بن علي الشَّلْمَغاني المعروف بـ (أبي العزاقِر). كان مستقيم الطريقة. ثم ادَّعى الألوهية فصلبه الخليفة في بغداد. له عدة كتب.

في أُسْرةٍ مِنَ المَجوسِ لَخرجَ مَجوسياً، أو مِنَ الصابئةِ[1] لأصبحَ منهم. وإذا خرجَ المُجتهِدُ المُفَكِّرُ عن هذا التقليدِ، فما يظفَرُ بغيرِ التَّنْديدِ.

وإذا جعلَ الإنسانُ العقلَ هادياً، نَفَعَ الناسَ ورَواهُمْ بعدَ عَطَشٍ. ولكن أين مَنْ يصبِرُ على أحكامِ العقلِ، ويصْقُلُ فَهْمَهُ أبلغَ صَقْلٍ؟ هيهاتَ. لا تَجِدُ مثلَ هذا الرجلِ في مَنْ تَطْلُعُ عليهم الشمسُ، أو مِمَّنْ ضَمَّهم الرَّمْس. إلا أنْ يَشِذَّ رجُلٌ في الأممِ. فَيُخَصُّ بالفضلِ العَميمِ.

المُخادِعونَ الضَّالُّون

ربما لَقينا مَنْ نَظَرَ في كُتُبِ الحُكَماءِ، وتَبِعَ بعضَ آثارِ القدماءِ. فألفيناهُ يَسْتَحْسِنُ قبيحَ الأمور، ويصبحُ مفكِّراً بعقلٍ ضعيفٍ. إنْ قَدَرَ على أمرٍ فظيعٍ رَكِبَهُ. وإنْ عرفَ أمراً واجِباً عليه تنكَّبَ عنه. كأنَّ الناسَ يَسْعَوْن إلى تضييعِه. فهو يعتقدُ فيهم شَرَّ اعتقاد. فإنْ أُودِعَ وديعةً خانَ. وإنْ سُئِلَ عن شهادةٍ كذبَ. وإنْ وَصَفَ لِمريضٍ دواءً فما يَحْفِلُ إنْ قتله أو ضاعفَ عليه المرضَ. وكلُّ غَرَضِه أنْ يكسَبَ. مع أنَّه يعرفُ الحِكْمةَ ويَنتسبُ إليها.

وربَّ مُتَّهمٍ لأهلِ مِلَّةٍ بالجَهالة. ومِلَّتُهُ التي يُبْطِنُها أسوأُ دينٍ. وإنَّ البشرَ لَكما في الكتابِ العزيزِ: (كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحونَ[2]).

و(الإماميةُ) تَقَرَّبوا إلى اللهِ بتعْفيرِ وجوهِهِمْ بالتُّرابِ. فَعَدَّه بعضُ المُتَدَيِّنين

1- (الصابئة): أحد الأديان الإبراهيمية. وهم يؤمنون بالأنبياء من آدم عليه السلام. ويعتبرون (يحيى) نبيهم. و(الصابئة) من (صبا) في اللغة المَنْدائية. وتعني الاغتسال في الماء. فهم يتعمَّدون في الماء الجاري. ويَعدُّون ذلك تمسُّكاً بالنور الحق. وهم يعتقدون بإله واحد. وقد كَرَّمهم القرآن في عدة آيات منها الآية 69 من سورة المائدة: (إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمَن باللهِ واليومِ الآخِرِ فلا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون). وكذلك في الآية 62 من سورة (البقرة)، والآية 17 من سورة (الحج). وبسبب هذه الآيات فهم يعتمدون التقويم الهجري. وكانت مواطنهم في فلسطين والعراق. وما زال بعض أتباعهم في العراق حتى اليوم.

2- سورة الروم. من الآية 32. وسورة (المؤمنون) من الآية 53.

ذنباً لا يُغْتَفَرُ. ويحضُرُ مَجالسَ العلمِ أُناسٌ فاسِقون كأنهم يطلبونَ الهدايةَ. وأولئك – عَلِمَ اللهُ – هم أصحابُ البِدَعِ والمَكْرِ.

كم مُتظاهِرٍ بالاعْتِزال. وهو مخالِفٌ لأهلِ مذهبِه حتى كأنَّه معهم في نِزالٍ. يزعُمُ أنَّ ربَّهُ يُخَلِّدُ الإنسانَ في النارِ على الأمرِ الصغيرِ التافِهِ فضلاً عن تخليدِه في النارِ بسبب درهمٍ أو دينارٍ. وهو مع ما يدَّعي يرتكبُ عظائمَ المآثِمِ التي ترميه في جهنمَ. ويَنهَمِكُ في العُهْرِ والفِسْقِ. يَحمِلُ على ظهرِه الأوزارَ كأنها حِملٌ ثقيلٌ، ويدَّعي الطاعةَ والقُنوتَ. ويُسْنِدُ ما يقولُ به إلى الفقيهِ (عبدِ الجبار[1]). يُطيلُ الفسوقَ في النهارِ والليلِ، ويُضْمِرُ أنَّ شيخَ المُعتَزِلَةِ غيرُ طاهرِ الثوبِ أو الذيلِ. قد صَيَّرَ علمَ الكلام مَصْيدَةً يَصلُ بها إلى الغَيِّ والفسادِ.

وحُدِّثْتُ عن إمامٍ بين هؤلاءِ المتظاهِرينَ بالاعتزالِ – وهو بينهم مُوَقَّرٌ مُتَّبَعٌ لكنه جاهلٌ كالخروفِ الصغيرِ – أنَّه كانَ يَجلسُ بين الشَّاربين. حتى إذا دارَتْ عليهم الخمرُ المُسْكِرَةُ واستوفى منها أقداحَهُ، أشْهَدَ مَنْ حَضَرَهُ أنه تابَ عَمَّا اقترفَهُ.

و(الأشعريُّ)[2] إذا كُشِفَتْ حقيقتُه، ظهرَ كأنه دِرْهَمٌ مَغْشوشٌ. تلعنُه الأرضُ الراكدةُ والسَّماءُ. إنَّما مَثَلُه مَثَلُ الراعي القاسي العنيفِ. يَخْبِطُ بغَنمِهِ في الليلِ المُظْلِمِ. لا يَحْفِلُ إلى أين يهجُم بالغنمِ، أو أنْ تَرعى أسوأَ نباتٍ. والأجدرُ به أنْ يَجعلها تَسْرحُ في مرعىً طَيِّبٍ يَضْمنُ لها جميعاً أنْ تَشبعَ. فمَنْ له أقلُّ حظٍّ مِنَ العقلِ يَعرفُ

1- (عبد الجبار) هو ابن أحمد بن عبد الجبار الهمداني أبو الحسن. كان يذهب مذهب الشافعي في الفروع. ويذهب مذهب المعتزلة في الأصول. ولِيَ القضاء في مدينة (الري). ومات فيها حوالي عام 415 هـ 1024 م.

2- (الأشعري): هو المنتسب إلى (الأشاعِرة). ويعود هذا المذهب إلى الإمام (أبي الحسن الأشعري). وقد اتخذ الأشاعرةُ الدلائلَ العقليةَ والكلامية في مُحاجَجَةِ خصومهم. ويفترقون عن أهل السنة في أنهم جعلوا للهِ سبع صفات هي: (الحياة – العلم – القدرة – الإرادة – السمع – البصر – الكلام). ورَدُّوا بقية أوصافه إلى هذه الصفات السبع. ويختلفون عن مذهب أهل السنة أيضاً في أنَّ واجبَ الإنسان بعد بلوغه سن التكليف عند السنة هو (التوحيد). أما الأشاعرة فيرون أن واجب الإنسان بعد سن التكليف هو النظرُ والتفكير وصولاً إلى الإيمان. ويلخِّصون ذلك بقولهم: (أنْ يَشُكَّ الإنسان أولاً، ثم يعتقد). وواضحٌ أن المعري يهاجمهم.

أنَّ هذا الأشعري كمَنْ وُضِعَ في الظَّلْماءِ. ولنْ يُدرِكَ ذلك إلا مَنْ عصَمَهُ اللهُ باتِّباعِ السَّلَفِ، وتَحَمُّلِ ما شَرَعَه اللهُ مِنَ التكاليفِ:

وإنَّــا، ولا كُفْــران للــهِ ربِّنــا، لَكالبُدْنِ لا تَدري متى حَتْفُها البُدْنُ[1]

وإنْ تَحوَّلَ واحدٌ إلى الأشعرية، قَلَّدَ سواهُ. فإنَّما وَثَقَ بمَنْ بِهذا المذهبِ أغْواهُ.

عبدُ الله بنُ ميمونٍ القدَّاح[2]

والشيعةُ يَزعُمونَ أنَّ (عبدَ الله بنَ ميمونٍ القدَّاحَ) – وهو باهِلِيٌّ – كان مِنْ عِلْيَةِ أصحابِ (جعفرَ بنِ محمد الصادقِ[3]) عليه السلامُ. وروى عنه شيئاً كثيراً. ثم ارتَدَّ بعدَ ذلكَ. وقد حَدَّثَني بعضُ شيوخِهم أنهم يَروُون عنه ويقولون: "حَدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ ميمونِ القداح كأحسَنِ ما كانَ". أيْ قبلَ أن يرتَدَّ. ويروون له:

هــاتِ اسْــقِني الخمْــرةَ يا سَــنْبَرُ فــليــس عِــنْــدي أنَّنــي أُنْشَــرُ[4]

أمــا تَــرى الشــيعَةَ فــي فِــتْــنَــةٍ يَــغُــرُّهــا مِــنْ ديــنِــها جــعــفــرُ

قــد كُــنْــتُ مَغْــروراً بــه بُرْهــةً ثــم بَــــدا لــي خَــبَــرٌ يُــسْــتَــرُ

ومِمَّا يُنسَبُ إليه:

مَــشِيتُ إلى جَــعْــفَــرٍ حِــقْــبَــةً فَــألــفَــيْــتُــه خــادِعــاً يَــخْــلُــبُ

يَــجُــرُّ الــعَــلاءَ إلــى نَــفْــســهِ وكُـــلٌّ إلـــى حَــبْــلِــه يَــجْــذِبُ

1- (البُدْنُ): ج بَدَنَة. وهي المُعدَّةُ للذبح. والشاعر يشبِّهُ الناسَ بالبُدْن التي لا تدري متى يكون موعدُ ذبحها.

2- (عبد الله بن ميمون القدَّاح): ادَّعى النُّبَوَّةَ. وذكر أن الأرضَ تُطوى له. فيمضي في أقرب مدة إلى حيث أراد. وكان له أعوان أرسلهم في مختلف الأقطار. ولد عام 190ه 806 م وتوفي حوالي عام 260 هـ 874 م. وهو أشهر دعاة الإسماعيلية.

3- (جعفر بن محمد الصادق): بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ولد عام 80 هـ 699 م. وتوفي عام 184 هـ 765 م. كان عالماً جليلاً وعابداً. وكان أستاذاً لكبار الفقهاء. ومنهم (أبو حنيفة النعمان).

4- (السَّنْبَر): العالمُ بالشيء. وفسرها بعض محققي رسالة الغفران بأنها اسم الساقي. و(أُنْشَر): أُبْعَثُ يوم النشور وهو يوم القيامة.

فـلـو كـان أمْـرُكُـمُ صـادِقـا لَـما ظـلَّ مَـقْـتـولُكُمْ يُـسْحَـبُ
ولا غَـضَّ مـنكم (عَـتـيـقٌ) ولا سَـما (عـمرٌ) فوقَـكـم يخطُـبُ[1]

عودةٌ إلى التناسخ

و(الحُلولِيَّةُ) قريبةٌ مِنْ مَذهبِ التَّناسُخِ. وحُدِّثْتُ عن رجلٍ مِنْ رؤساءِ المُنَجِّمين مِنْ أهلِ (حَرَّان[2]) أقامَ في بلدِنا زماناً. فخرجَ مرَّةً مع قومٍ يتنَزَّهون. فمرُّوا بثورٍ يفلحُ الأرضَ. فقالَ لأصحابِهِ: "لا أشكُّ في أنَّ هذا الثورَ رجلٌ كان يُعرَف بـ (خَلَف) في حرانَ". وجعل يصيحُ به: "يا خلف". فيتَّفِق أنْ يَخورَ ذلك الثَّوْرُ. فيقولُ لأصحابِهِ: "ألا تَرَوْنَ إلى صِحَّةِ ما أخْبَرتُكُمْ به؟".

وحُكِيَ لي عن رجُلٍ آخَرَ مِمَّنْ يقولُ بالتناسُخِ أنَّه قالَ: "رأيتُ في النومِ أبي وهو يقولُ لي: (يا بني. إنَّ روحي قد نُقِلَتْ إلى جَمَلٍ أعورَ في قطيع إبلِ فلان. وقد اشتهيتُ بَطيخةً)". قالَ: "فأخذتُ بطيخةً وسألتُ عن ذلك القطيعِ. فوجدتُ فيه جملاً أعورَ. فدنوتُ مِنْهُ بالبطيخةِ. فأخذها أخْذَ مَنْ يُريدُها ويَشتهيها".

أفلا يرى مولاي الشيخُ إلى ما رُمِيَ به هذا البَشَرُ مِنْ سوءِ التمييزِ، وتَحَيُّزِهم إلى ما يمتنعُ عن التَّصْديقِ؟

ابنُ الراوندي[3]

وأما ابنُ الراوندي[4] فلم يكُنْ إلى الصلاحِ بمَهْدِيٍّ. وأما (تاجُه) فلا يَصْلُحُ أن

1- (عتيق): هو أبو بكر الصديق. فقد كان يسمى (ابن أبي عتيق) ولد عام 50 ق هـ 573 م وتوفي عام 13 هـ 634 م. و(عمر): هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى. ولد بين عامي 580 و590 م قبل الهجرة بأربعين سنة. قتل عام 23 هـ 644 م.

2- (حران): مدينة في ديار مضر في منطقة الجزيرة السورية قرب منابع نهر (البليخ). عمرها 3000 سنة. وجعلها (مروان بن محمد) آخر خلفاء بني أمية عاصمة له. وهي اليوم في أقصى جنوب تركيا.

3- (ابن الراوندي): هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق. ولد عام 210 هـ 825 م. عالم مشهور. بدأ معتزلياً. ثم هجر المعتزلة وكتب كتابه (فضيحة المعتزلة). له كتب في علم الكلام منها (التاج). وهو الذي علَّق عليه المعري. ثم مال إلى الإلحاد والزندقة. توفي 250 هـ 864 م وعمره أربعون سنة.

4- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن ابن الراوندي وكتبه.

يكون نَعْلاً. وكل ما فيه لغوٌ. وهل يزيدُ عن قولِ الكاهنةِ (أُفٍّ وتُفٍّ)؟ ولنْ يجِدَ مِنْ عذابِه وَعْلاً أيْ ملجأً.

شاهدٌ على كلمة (وَعْل):

قال ذو الرمة[1]

حتى إذا لم يَجِدْ وَعْـلاً ونَجْنَجَها مَخافـةَ الرَّمْيِ حتـى كُلُّهـا هِيمُ[2]

عودةٌ إلى السياق عن ابن الراوندي

ويجوزُ أنْ يُنْظَمُ تاجُه عَقارِبَ. فما كان المُحْسِنَ ولا للحُسْنِ بالمُقارِبِ. فكيفَ به إذا كانَ له إبَرٌ وأشواكٌ كإبَرِ العقْرَبِ؟ وهل يُبْعِدُه كتابُه ذاك عن الضَّلالاتِ؟

ما (تاجُهُ) بتاجِ مَلِكٍ. ولكنه دُعِيَ بـ (المُهْلِكِ). ولا اتُّخِذَ (تاجُهُ) مِنَ الذَّهبِ. وسوف يوصَفُ بأنَّه من اللَّهبِ. ولم يُنْظَم مِنَ الدُّرِّ، بل وقعَ بَسبَبِهِ في المصائبِ فكأنه صابَ بِقُرٍّ. ومعنى (صابَ بِقُرٍّ): وقعَ في الشَّدائدِ.

شاهدٌ على (صاب بقُرٍّ):

قال الشاعرُ عديُّ بن زيد:

تُرَجِّيهـا وقـد صـابـت بِـقُـرٍّ كمـا تَرجـو أصاغِرَهـا عَتيـبُ[3]

عودةٌ إلى السياق عن كتاب ابن الراوندي

ما تُوِّجَ (تاجُه) مِنَ الفضَّةِ. ولا يَليقُ به إلا أنْ يُدفَنَ في الرملِ والحصا. ما هو كتاجِ (كسرى). لكنه سلكَ سوءَ الطريق والمَسْرى. وما هو بتاجِ (أنو شِروان[4]).

1- مرت ترجمته.

2- (الوعْل): الملجأ. (نَجْنَجَ الإبلَ): حبسها عن الرعي. (الهِيم): ج أَهْيَم وهو العطشان. والمعنى أنه حبس إبله ومنعها عن الشرب مخافة أن يرميها أحد. فصارت كلها عطشى.

3- (عَتيب): حيٌّ من اليمن. أغار عليهم بعضُ الملوك فأسروهم واستعبدوهم. فكانوا يقولون: (إذا كبر صِبيانُنا لم يتركونا). فلم يزالوا كذلك حتى هَلَكوا. ويُضربُ بهم المَثَلُ لَمَنْ ماتَ وهو مغلوبٌ على أمره. والمعنى أنك ترجو منها خيراً وهي واقعة في المصائب. وحالك كحال عتيب التي ترجَّت صِغارَها فخابت.

4- (أنو شروان): بن قباذ. من ملوك الدولة الساسانية الفارسية. وقد قتل (مزدك) زعيم (المزدكية).

ولكنه جرَّ على صاحبِه الهَوانَ. فتاجُ أنو شِروان قَطَعَ رأسَ مَزْدكَ[1]. وليس (تاجُه) كتاجِ (المُنْذِر بنِ امرئ القيسِ) ملكِ الحيرةِ. ولكنه الكلمةُ المُخْجِلَةُ التي قالها ضالٌّ. وليس (تاجُه) كخَرَزاتِ تاجِ (النعمانِ بنِ المنذرِ[2]). بل هو عملٌ مُشينٌ على مرِّ الأزمانِ. ولا يحتاج مِثْلُه أنْ يُنْقَضَ. ويَستحِقُّ صاحبُه بسببه أنْ يتهَدَّمَ ويَتَقوَّضَ.

وأما كتابُه (الدامِغُ) الذي طَعَنَ فيه على نظْمِ القرآنِ، فما أظنُّه دَمَغَ إلا مَنْ أَلَّفَه. فلم يتركْ له إلا سيِّءَ الذكرِ. وفي العربِ رجلٌ يُعْرَفُ بـ (دَميغِ الشيطانِ). ثم صارتِ العربُ تَعُدُّه اسْماً تُطْلِقُه على كلِّ ضالٍّ. وابنُ الراوندي هذا يشبِهُ مَنْ يرعى قُطْعانَ النَّعامِ المريضةِ الذابلةِ. والأمرُ المُنْكَرُ المُسْتَنْكَرُ أنَّ لقبَ (دَميغُ الشيطانِ) صارَ في هذا الأوان يُذْكَرُ بالمَدْحِ والتقديرِ. وقد دلَّ مَنْ يَستعيدُهُ على ضَعْفِ التفكيرِ. فهل يُصْغَى لصوتِ الهِرَرَة؟ فكانَ شأنُ مَنْ يَعيبُ على القرآنِ وفيه العيبُ، كشأنِ الشاعرِ الذي قالَ:

رمانــي بأمرٍ كنــتُ مِنْــهُ ووالدي بريئــاً ومِنْ جُولِ الطَّــوِيِّ رماني[3]

ولئن عابَ (ابنُ الراونديِّ) القرآنَ، فقد رَجَعَ عليه حَجَرُه الذي رمى به. وسوف تطولُ في الآخِرةِ صَفْحَةُ سيئاتِه. فبئستْ نِسْبَتُه إلى مدينةِ (راوند). فهل أخذَ خُرافَةً مِنْ خُرافاتِ مدينةِ (دُباوَند) التي يَزعُمُ أهلُها أنَّ (أفريدون) ملكَ الفُرْسِ ما يزال حياً تصعدُ أنفاسُهُ مِنَ الجِبالِ دخاناً؟ وكلُّ ما فَعَلَه (ابنُ الراوندي) أنه فَضَحَ نفسَهُ وأظْهَرَ للناظِرِ في كتابِهِ جَهْلَهُ.

1- (المزدَكية): دين ثَنَوي مُشتقٌّ من المانوية. مؤسِّسُه (مزدك) المتوفى عام 528 م. ولد مزدك في فارس. وقاد حركة اشتراكية مناهضة للزرادشتية السائدة في عصره. وجوهرها أنه ناقض قضية الظلمة والنور. وقال إن امتزاجهما هو الذي تمخَّضت عنه الدنيا. ودعا إلى المشاركة في المال والنساء. وانتشر مذهبه خاصة بعدما اعتنقه ملك الفرس (قُباذ الأول). لكن كهان الزرادشتية والنبلاء الفرس ثاروا عليه فقُتِلَ هو وأتباعه.

2- (النعمان بن المنذر): من ملوك الحيرة.

3- (الطَّوِيُّ): البئر. و(الجُول): التراب. والمعنى أنه اتهمني بأمر أنا ووالدي بريئان منه. كما رماني بالطين.

القرآنُ الكريمُ

وقد أجمَعَ مُلْحِدٌ ومُؤْمِنٌ، وضالٌّ عن الهداية ومُهْتَدٍ، أنَّ هذا (الكتابَ) الذي جاء به مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ كِتابٌ بَهَرَ بالإعجازِ. وجعل عَدوَّه يَرتعِدُ لأنَّه أتى كصوتِ الرعدِ. ما جاءَ على مِثالٍ في الكتابةِ يُحْتَذى. ولا شابَهَ الأقوالَ والأمْثالَ. ما هو مِنَ الشِّعْرِ المَوْزونِ، ولا هو مِنَ الرجزِ السَّهْلِ أو الصعبِ. ولا شابهَ خُطَبَ العربِ أو سَجْعَ الكُهَّانِ. وجاءَ كالشمسِ الساطِعَةِ نوراً للنفوسِ والعقولِ. لو فَهِمَهُ الجبلُ الراسي لتصدَّعَ. ولو أدركتْ ألفاظَه الوعولُ المعتصِمَةُ في رؤوسِ الجبالِ لَراقَها، مِنَ المُسِنِّ مِنْها إلى الفَتِيِّ. "وتِلكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها للناسِ لعلهم يتَفَكَّرون"[1]. وإنَّ الآيةَ مِنْه أو بعضَ الآيةِ إذا جاءتْ في أفصَحِ كلامٍ يَقدرُ عليه المَخْلوقون، كانتْ فيه كالشِّهابِ المُتَلألئ في جُنْحِ الليلِ، وكالزهرةِ اليانِعةِ في الأرضِ المُجْدِبَةِ. "فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالِقين[2]".

عودةٌ إلى ابنِ الراوندي

أما كتابُ ابنِ الراوندي (القَضيب) الذي حاولَ فيه إثباتَ أنَّ اللهَ مُحْدَثٌ، وكان غيرَ عالِمٍ ثم أثبتَ لنفسِهِ عِلْماً، فإنَّ مَنْ كتبهُ خَسِرَ الدنيا والآخِرةَ. وخيرٌ له مِنْ تأليفِهِ أنْ يركبَ ناقةً تقذِفُ به عن رَحْلِها حتى تُنْتَزَعَ أعضاؤُهُ وتَتمزَّقَ.

وشأنُنا مع ابنِ الراوندي في عيبِهِ على القرآنِ كشأنِ الفرزدقِ حين استهانَ بالشاعرِ الطِّرِمّاحِ[3] فقال:

إنَّ الطِّرِمَّــاحَ يَهْجونــي لِأشــتُمَه هيهاتَ هيهاتَ عِيلَتْ دونَه القُضُبُ[4]

1- سورة (الحشر) من الآية 21.

2- سورة (المؤمنون) من الآية 14.

3- (الطرمَاح): هو ابن حكيم من بني الغوث بن طيئ. شاعر إسلامي كان يُكثِرُ من الغريب في شعره. والطرماح من شعراء الخوارج الأزارقة ومن شعراء الحماسة. توفي عام 125 هـ 743 م.

4- (القُضُب): ج قَضيب. وهي الناقة التي لم تُروَّض. والمعنى أن الطرماح يهجو الفرزدق ليشتمه ويرد عليه. لكن هذا أمرٌ صعب تحول دونه الصعاب كما يصعبُ ترويضُ الناقة القضيب.

ولماذا لم يُمْنَعْ عن النُّطْقِ بهذا الكلامِ وهو يافِعٌ؟ لأنه ليس له في عاقبةِ الأيامِ شافِعٌ. ولعله يودُّ لو أنه جَذْرُ نباتٍ يؤكَلُ أو يختفي في الأرضِ. ويَمتنعُ عليه أنْ يكون مِثْلَ القائلِ:

ورَوْحَــةِ دُنيــا بين حَيَّيْــنِ رُحْتُها أسيرُ عَروضاً أو قضيباً أروضُها[1]

ملاحظة

و(قضيب) وادٍ كانت فيه وقعةٌ في الجاهليةِ بين (كِنْدةَ) وبين (بني الحارثِ بنِ كعبٍ).

عودةٌ إلى السياق

وكتاب (القضيب) للراوندي الأحمقِ، أسوأُ عليه مِنْ قضيبِ الشجرةِ التي تُضْرَبُ به الإبلُ. لكنه لن يظفرَ بِمَنْ يَنعاه أو يندُبُهُ.

لقد أنزلَ اللهُ به مِنَ النَّكالِ والعذابِ ما لا يَمْسَحُ به ذنوبَه بعد طولِ العِقابِ. فهو كما قالَ الشاعرُ:

فلــم أرَ مغْلوبَيــنِ يَفــري فَرِيَّنــا ولا وقْعَ ذاك السيفِ وقْعَ قضيبِ[2]

ملاحظة

هذا البيت يُسْتَشْهَدُ به – كما يعلمُ مولاي الشيخُ – لأنَّه قالَ: (مَغْلوبَيْنِ يفري). وإنِّما يجبُ أنْ يُقالَ: (يَفْرِيانِ). ولكنَّه أجرى الاثنين مَجْرى الجمْعِ. ومِثْلُه قولُ الراجِزِ:

مِثْلُ الفِراخِ نُتِقَت حَواصِلُهْ

1- (العَروض): الذهاب إلى الصيد. و(القضيب): الناقة. (أروضُها: أُروِّضُها. ومغنى البيت أنه يروح روحة للصيد أو لترويض ناقة. ويقصد المعري بإيراد هذا البيت أن الراوندي لم يقم بفعل يُحمَد عليه كشأن ذاك الذي يمضي بين الحَيَّيْنِ للصيد أو لترويض ناقة. كما يقصد المعري أيضاً تقليب معنى (القضيب).

2- (يَفري): يمزِّقُ ويُفَتِّتُ. (القضيب): السيف القاطع الصارم. والمعنى أنه لم يَجِدْ مَغْلوبَيْنِ مثلَه ومثلَ صاحبِه اللذين انتقما بتمزيق أعدائهما، ولم يجِدْ سيفاً يضرب كسيفهما.

وإنَّما يجبُ أنْ يَقولَ (حَواصِلُها). و(الحَوصَلةُ) عند الطائرِ كالمعدةِ عند الإنسانِ. و(نُتِقَت): سَمِنَتْ.

عودةٌ إلى السياق

وأما كتابُ ابنِ الراوندي (الفريد) الذي طعنَ فيه على النبي عليه الصلاةُ السلامُ، فقد أَبعدَه عن كلِّ صاحِبٍ وخليلٍ، وألبسَهُ في الأبدِ ثوبَ الذليلِ.

ومَنِ انْفردَ بالعِزَّةِ لهيبتِه ووقارِهِ، فإنَّ (فريدَ) ذلك الجاحِدِ يتَفَرَّد وحدَهُ بحقارتِهِ. فكأنَّه الأجرَبُ إذا طُلِيَ بأبوالِ الإبلِ التي تُعالَجُ بها الإبلُ الجَرْبى، والتي يَبتعِدُ عنها مَنْ يرغَبُ عن المَكْروهاتِ. وإذا فَرِحتِ الغانِيةُ بالعِقدِ الفَريدِ المَنظومِ، فكتابُه قِلادَةُ الآثامِ المَنظومَةِ.

وذكر (أبو عبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المثنى) أنَّ في ظَهْرِ الفرسِ فَقَرةً يُقالُ لها (الفريدةُ). وهي أعظَمُ فَقَراتِ الفَرَسِ. فلو حُمِلَ (فريد) ذلك المُتَمَرِّدِ على جَوادٍ لَحَطَمَ (فريدةَ) ذلك الجوادِ. ولو زَيَّنَ به المُحِبُّ الغانيةَ التي يُحبُّها لَأَهْلَكَها.

وأما (المَرجانُ) فإذا قيلَ إنَّه صِغارُ اللؤلؤِ، فمَعاذَ اللهِ أنْ يكونَ كِتابُهُ (المَرجان) الذي ذكَرَ فيه اختلافَ أهلِ الإسلامِ مِنْ صِغارِ الحَصا. بل هو أَخَسُّ مِنْ أنْ يُذْكَرَ بين الكتبِ المُختارةِ. وإذا قيلَ إنَّ (المَرجانَ) هو ذاك الشيءُ الأحمرُ الذي يجيء من المَغْرِبِ، فإنَّ ذلك الشيءَ له قيمةٌ. وخسارةُ كتابِهِ دائمةٌ مُقيمة. وإنَّما هو (مَرَجانٌ) مِنْ (مَرَجْتُ الخيلَ) أي جَمَعْتُ بعضَها مع بَعْضٍ، وتركتُها في الأرضِ كالمُهمَلَة أو المُضَيَّعَة. أو لعله (مُرٌّ جانٍ) مِنْ (جَنى الشجَرَةِ). فهو ثَمَرٌ مُرٌّ يَجنيه مَنْ كتبَ هذا الكتابَ. أو (مَرَّ جانٌ مِنَ الشياطين الفَجَرَةِ)، أو (جانٌّ) مِنَ الحَيَّاتِ المقتولةِ بأيسرِ الوسائلِ. والتي يكرُهُها الناسُ الواحِدُ منهم والجَمِعُ.

ابنُ الرومي والتَّطَيُّر[1]

وأما ابنُ الرومي، فهو أحدُ مَنْ يُقالُ عنه: "إنَّ أدبَهُ كانَ أكثرَ من عقْلِهِ". وكان

1- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن ابن الرومي وتَطَيُّرِه.

يَتَعاطى عِلْمَ الفلسفَةِ. واستَعارَ مِنْ (أبي بَكْرِ بنِ السرَّاجِ[1]) كِتاباً. فطلبه مِنْه أبو بكر استرجاعَه. فقالَ له ابنُ الرومي: "لو كانَ المُشْتَري حَدَثاً لكان عَجولاً". أي أنَّ ابنَ السَّراجِ استَعْجَلَ عليهِ في طَلَبِ الكتابِ لأنه لا يَستعجِلُ الشيءَ إلا الفِتْيانُ.

والبغداديون يدَّعونَ أنَّه مُتَشَيِّعٌ. ويَستشهِدونَ على ذلك بقصيدتِهِ (الجيميةِ) التي رثى بها (أبا الحسين يحيى بنَ عُمَرَ بنِ حسينِ بن زيدِ بنِ علي[2]) وأولُها:

أمامَـكَ فانظُرْ أيَّ نهجيْـكَ تنهَجُ طريقــان شــتى: مُسْــتَقيمٌ وأعوجُ

وما أراه إلا على مذهبِ غيرِه من الشعراءِ مِنَ التقلُّب بين المذاهبِ. فهم في كُلِّ وادٍ يَهيمونَ.

وكان ابنُ الروميُّ مُتَطَيّراً. ومَنْ أُولِع بالطِّيَرَةِ لم يَرَ في الحياةِ خَيْراً. وإنما هي عنده شَرٌّ عاجِلٌ وللأنْفُسِ أجلٌ آجِلٌ. وكلُّ ذلك حَذَرٌ مِنَ الموتِ الذي هو قيدٌ في أعناقِ المَخْلوقاتِ مِنَ الناسِ والحيوانِ. ومِنَ الناسِ مَنْ يَظُنُّ أنَّ الشيءَ إذا قيلَ جازَ أنْ يقعَ. ولذلك قالتِ العامَّةُ: "الإرجافُ أولُ الكونِ". أي أنَّ ذِكْرَ الأخبارِ السيئةِ يَجعلُها تقعُ. ويُقالُ إنَّ النبي صلى الله عليه وسلَّمَ تمثَّلَ بأولِ هذا البيت ولم يُتْمِمْهُ:

تفــاءَلْ بمــا تهــوى يَكُــنْ فَلَقَلَّما يُقــالُ لشــيءٍ: كان، إلا تَــحَــقَّقــا

ومهما ذَهبَ إليه اللبيبُ وفكَّر به، فالخيرُ في هذه الدنيا قليلٌ جِداً. والشَّرُّ يزيدُ عليه بأجزاءَ لا تُحصى. وأهْلُ التُّقى يُشبِهُون العُصاةَ. فكُلُّهم إلى التَّلَفِ يُساقونَ. يَلْقَوْنَ ما كُرِهَ ولا يُحْمَوْنَ عنه. ولعل اللهَ يُمَيِّزُ أهلَ التقوى في الآخِرةِ، ويُسْعِفُ بالنُّعمى مَنْ طَلَبَها في الدنيا.

1- (أبو بكر ابن السراج): هو محمد بن السَّرِيِّ بن سهل. النحوي المشهور المعروف بابن السراج. كان أحد أئمة النحو والأدب. وكان يلثغ بالراء ويجعلها غيناً. له كتب كثيرةٌ منها (أصولُ العربية) و(شرح سيبويه) و(احتجاج القراء). توفي عام 316 هـ 928 م.

2- (يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي بن أبي طالب): خرج في أيام الخليفة العباسي المتوكل إلى خراسان. فردَّه عبد الله بن طاهر. فسجنه المتوكل ثم أطلقه. فخرج إلى الكوفة. وأظهر العدل وحسن السيرة إلى أن قُتِلَ.

وقال (علقمةُ الفحلُ بنُ عَبدة[1]):

ومَـنْ تَعَـرَّضَ لِلغِربــانِ يَزْجُرُها على ســلامَـتِـهِ لا بُـدَّ مـشـؤومُ

وكان (ابنُ الروميِّ) معروفاً بالتَّطَيُّرِ. ومَنْ مِنَ الناسِ قُدِّرَ له أنْ يَختارَ ما يُريدُ؟ وقد جاءَتْ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم أخبارٌ كثيرةٌ تَدُلُّ على كراهَةِ الاسْمِ الذي ليس بِحَسَنٍ مثلِ (مُرَّة) و(شِهاب) و(الحُباب) لأنَّ مِنْ معاني (الحُباب) الحَيَّة.

ونحوٌ من حكايةِ (ابن الرومي) التي حكاها (الناجِمُ[2]) ما حُكِيَ عن امرأةٍ مِنَ العربِ أنَّها قالت للأخْرى: "سمَّاني أبي (غاضِبة). وإنَّما تلك نارٌ مِنْ شجَر الغضى[3]. فالحمْدُ لربِّي على ما قضى. وتزوجتُ مِنْ (بني جَمْرَةَ) رجُلاً أَحْرَقَ – أي كثيرَ الشَّتْمِ والسُّبابِ – وما أمْرَقَ – أي لم يَكْثُرْ مَرَقُه وطَعامُه – وكان اسمُه (تَوْرَباً) وإنما ذلك تُرابٌ. فَشَمِتَت بي الأترابُ. وكان أبوه يُدعى (جَنْدَلَةَ). فَعَضَضْتُ عِندَه بالجندَل – وهو الصَّخْرُ –. وما شَمَمْتُ رائِحَةَ مَنْدَلٍ – الرائحة الطيبة–. وكان اسمُ أُمِّه (سَوَّارةَ). فلم تزلْ تُساوِرُني في الخِصامِ، ولا تنْفَعُني بِعِصامٍ وهو الكُحْلُ".

فقالتِ الأخرى: "لكنَّ أبي سَمَّاني (صافِيةَ). فصَفَوْتُ مِنْ كُلِّ قذىً. وجُنِّبْتُ مَواقِعَ الأذى. وزوَّجَني في (بني سَعدِ بن بَكْرٍ). فَبُكِّرَ عليَّ بالسَّعْدِ وأُنْجِزَ لِيَ الوعْدُ. واسمُ زوجي (مُحاسِنٌ) جُزِيَ الصالِحَةَ. فقد حاسَنَ وما لاسَنَ. واسمُ أبيه (وَقَّافٌ) رعاهُ اللهُ. فقد وَقَفَ عليَّ خَيْرَهُ وأكثَرَ لديَّ مَيْرَه. – والمَيْرُ هو القمحُ –. واسمُ أمِّه (راضِيَةُ). رَضِيَتْ أخلاقي، ولم تَجْنَحْ إلى طَلاقي".

وإذا كان الرجُلُ مُتَطَيِّراً، لم يكنْ أكلُهُ إلا الترابَ والحصا. إذا رأى طَيْراً يسمى (السِّمامَ) حَسِبَه سُمَّاً. وإذا رأى حمامةً خافَ مِنَ الحِمامِ كما قال أبو تمام الطائيُّ:

1- مرت ترجمته.

2- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن دخول (أبي عثمان الناجم) على (ابن الرومي) في علته التي مات فيها وكيف أراد الانتقال مِنَ الكرخ إلى باب البصرة فشاور صديقه أبا الفضل وهو مشتقٌّ من الإفضال.. تتمة الحكاية.

3- (الغضى): شجر تبقى نارُ خشبه طويلاً.

هُــنَّ الحَمامُ فــإن كَسَــرْتَ عِيافةً مــن حائِهــنَّ فإنَّــهُــنَّ حِمــامُ[1]

وإذا عرضَتْ له امرأة خَنساءُ مِنَ البشرِ – والخنساء مَنْ نزلت قَصَبَةُ أنفِها – فإنَّه لا يأمَنُ مِنَ الشرَ. يقِولُ: "أخافُ مِنْ رفيقٍ يَخْنِسُ – أي يتأخَّرُ- وأَمْرٍ يُدْنِسُ". وإنْ كانت الخنساءُ مِنْ الوحوشِ، فإن رآها تمرُّ مِنْ يمينِه هّزَّ الرعبُ جوانِحَه لأنَّ العربَ القدماءَ كانوا يتطيَّرون إنْ مرَّ عن يمينهم طيرٌ أو ظبيٌ. يقولُ: "إنَّ أَصْحابَ العقْلِ الوافِرِ مِنْ أربابِ المالِ وأصحابِ الغنمِ والبقرِ والإبلِ كانوا يتطَيَّرون بالقادمِ مِنْ جِهةِ اليمينِ. ويرهَبونَ ذهابَ الحظِّ الحسن". وإذا صادَفَ أنْ مرَّ به ظَبْيٌ مِنْ يمينِهِ إلى يَسارِهِ اعتقدَ أنه ستصيبُه طعنةٌ نجلاءُ تَجرحُه. يقول: "ألم يكنْ أصحابُ الخيل والسُّروجِ يخشَوْن المَصائبَ مِنَ البروج؟". وإذا لَقِيَ رجلاً يُدعى (أَخْنَسَ)، فكأنما لَقِيَ أسداً يتبختَرُ أمامَهُ. يقولُ: "ما يَحميني أنْ يكون كأخنَسِ بني زُهرَةَ الذي كان اسمُهُ ابنَ شُرَيق الثقفي، والذي رَجَعَ بحُلَفائِهِ عن قريشٍ مِنْ (بدرٍ) حين قالوا له إنَّ قافِلَةَ أبي سُفيان نَجَتْ. فسُمِّيَ (الأخنسَ) لأنه فرَّ ورجَعَ بِمَنْ معه. فهُزِمَتْ قُرَيشٌ وطُرِح قتلاها في بئر (بدر)؟". وإنِ استقبلَ مِنَ الظِّباءِ النوعَ الذي يُسمَّى (أَعفَرَ)، فإنه ينتظِرُ أنْ يُعَفَّرَ بالترابِ. وإنْ بصُرَ بنوعِ الظِّباءِ الذي يُسمى (الأدماءَ)، أيقَنَ بِسَفْكِ الدماءِ. وإنْ فاجَأَهُ ذِئْبٌ طويلُ الذيلِ حتى كأنه الأسدُ المتبختر يقول: "ما أقربني مِنَ الإذلال الذي يُبْطِلُ كلامَ العُذَّالِ". وإنْ آنسَ نعامةً في قَفْرٍ وهو مع الركْبِ المُسافِرِ، فما يذكُر كلمةَ (النعيمِ)، بل يقولُ بسببِ ضَعْفِهِ: "النَّعامَةُ أولُها (نَعى). وإنَّما ذلك مِنَ (النَّعْيِ)". وإنْ رأى مِنْ ثُقْبٍ في الحائطِ ولدَ النعامةِ الذي يُسَمَّى (الظَّليمَ)، فذلك عندهُ العَذابُ الأليمُ. فيقول: "ليت شِعْري مَنِ الذي يَظْلِمُني؟ أيأخذُ مالي أم يَجْرحُني؟". وإنْ نظرَ إلى عُصْفورٍ قالَ: "هذا دليلُ المَصائبِ الكثيرةِ". فالمُتَطَيِّرُ طولَ عُمْرِه في عَناءٍ. ولا بدَّ له ،كبني آدمَ، في نهايةِ الأمرِ مِنَ الفَناءِ.

وبسببِ هذه الطَّوِيَّةِ في نفسِ (ابنِ الروميِّ)، فقد جَعلَ (جَعْفَراً) من الجوعِ

1- (العِيافَةُ): زجْرُ الطير. و (الحِمام): الموت. والمعنى أنك إن أخذت في زجر الحمام فسوف يصبح موتاً.

والفِرارِ. ولو هُدِيَ إلى الصوابِ، لصرف (جعفراً) إلى النهرِ الجَرَّارِ لأنَّ (الجعفرَ) هو النهرُ الكثيرُ الماءِ. ولكنَّ أصحابَ التَّطَيُّرِ لا يحمِلونَ الأشياءَ الواردةَ على الحقيقةِ.

وأرادَ بعضُهم السفرَ في أولِ السنةِ. فقالَ: "إنْ سافرْتُ في شهرِ (المُحَرَّمِ)، كنتُ جديراً أن أُحْرَمَ. وإنْ رحلتُ في شهرِ (صَفَر) خشيتُ على يدي أنْ تَصفَرَّ". فأخَّرَ سفرَهُ إلى شهر (ربيع). فلما سافر مَرِضَ ولم يَحْظَ بالشفاءِ فقال: "ظننتُهُ مِنْ ربيعِ الرياضِ. فإذا هو مِنْ رِبْعِ الأمراضِ". وهي الحُمَّى التي تأتي كُلَّ أربعةِ أيام.

وأما إعدادُ (ابن الرومي) الماءَ المَثلوجَ[1] فهو تعلُّقٌ بالحياةِ. ولا ينفعُ التحايُلُ على الموتِ. وتقريبُه الخِنْجَرَ ليَنْحرَ نفسَه إنْ زادَ عليه الألمُ، إنَّما هو خَوفُ الجبانِ. ولكنَّ القضاءَ ينقضُ ما يرتِّبُه الإنسانُ. وربَّ رجُلٍ حفرَ لنفسِهِ قبراً في الشامِ، ثم رماهُ القدَرُ في أرضٍ بعيدةٍ. فيموتُ في اليمنِ أو في الهندِ. والموتُ يأتي في السهلِ أو الجبلِ. (وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تَموتُ إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ[2]).

وكما أنَّ النفسَ تجهَلُ مَدْفَنَ عِظامِها، فهي تجهلُ سببَ موتِها. فكم واحدٍ ظنَّ أنه يَهْلِكُ بسيفٍ. فهلَكَ بحَجَرٍ سقَطَ عليه مِنْ جبلٍ. وكم واحدٍ ظنَّ أنه سيموتُ على فراشِهِ، فرمته الرماحُ على الأرضِ.

ملاحظة

والبيتانِ اللذانِ رواهُما الناجِمُ عن ابنِ الروميِّ وهما:

أبــا عثمــان أنــتَ قريــعُ قومِــكْ وجــودُكَ للعشــيرة دون لَوْمِــكْ[3]

تَــمَــتَّــعْ مِــنْ أخيــك فــمــا أراه يَــــراكَ ولا تــــراهُ بــعــدَ يــومِــكْ

مُقَيَّدان. أي أنَّ الحرفَ الأخير - وهو الرَّوِيُّ - فيهما ساكنٌ. وما عَلِمْتُ أنه جاءَ

1- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح في حكاية الناجم عن ابن الرومي حين دخلَ عليه وعند رأسه ماءٌ مثلوجٌ وخنجر.

2- سورة (لقمان) من الآية 34.

3- (قريعُ القومِ): سيدُهم. والمعنى أنك سيد قومك وأنك تجود على قومك ولا تلومهم.

عن الفصحاءِ وزنُ البحر الوافر مُقَيَّداً ساكِنَ الحرف الأخير إلا في بيتٍ واحدٍ لذي الرمةِ يتداوَلُهُ رواةُ اللغةِ. والبيتُ هو:

كأنَّ القـومَ عُشُّـوا لَحْـمَ ضَـأْنٍ فَهُـمْ نَعِجونَ قـد مالـتْ طُلاهُمْ[1]

لكن هذا البيت مُؤَسَّسٌ. أي أنّ الحرفَ الأخيرَ جاء قبلَهُ حرفُ الألفِ الممدودةِ. وبيتا ابن الرومي بغيرِ تأسيسٍ. إذ لا يوجَدُ حرفُ ألفٍ ممدودةٍ قبلَ الحرفِ الأخيرِ الذي هو الرَّوِيُّ.

عودةٌ إلى السياق

وما يدري أبو عثمانَ الناجمُ شيئاً عن ابن الرومي ذاك. هل صارَ في الجنةِ أم في السعيرِ. ولعل الناجِمَ يرجُمُ بالغيبِ عنه. وما أثقلَ ما يحملُه الإنسانُ مِنْ أفكارٍ.

أبو تمام

وأما (أبو تمام)، فما أمْسَكَ مِنَ الدينِ بِزِمامٍ. والحكايةُ عن ابن رجاءٍ مشهورةٌ[2]. والنفسُ بِعَيْبِها مبهورةٌ. فإنْ قُذِفَ في النارِ أبو تمامٍ حبيبٌ، فما نفَعَهُ المدحُ أو التشبيبُ. ولو أنَّ القصائدَ لها عِلمٌ وتَأَسَفُ لِما يشكو مِنْه الصديقُ، لأقامتْ عليه قصيدتاه (الممدودتان[3]) اللتان في أولِ ديوانِه مَأْتَماً حزيناً لضلالِهِ. فَناحتا عليهِ

1- (عُشُّوا): أُطْعِموا طعامَ العَشاء. (نَعِجون): مفردها (نَعِجٌ): صار ثقيلاً مِنْ أكل لحمِ الضأن. (الطُّلى): الأعناق. واحدها طِلْية. والمعنى أنَّ القوم أُتْخِموا مِنْ أكل اللحم فارتخت أعضاؤهم ومالت أعناقُهم.

2- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن حكاية (الحسن بن رجاء) حين جاءه أبو تمام إلى خراسان فوجده لا يصلي أبداً. فعاتبه في ذلك فقال له: (لو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني وتركَها يضُرُّني ما تركتها).

3- يقصد المعري قصيدةَ أبي تمام التي يمدح بها (خالد بن يزيد الشيباني) ومطلعها:

يا مُوضِعَ الشَّدَنِيَّةِ الوجناءِ ومصارِعَ الإدلاجِ والإسراءِ

(المُوضِع): مَنْ يجعل الناقة تسير (الوضْعَ) وهو نوع من السير. (الشَّدَنية): نوع من الإبل. (الوجناء): ذات الوجنة العالية. (الإدلاج والإسراء): بمعنى واحد وهو السير في الليل. والمعنى أنه يخاطب راكبَ الناقة الوجناء وهو يسير في الليل.

والقصيدة الثانية التي يمدح بها (يحيى بن ثابت) ومطلعُها:

ويكَ اتَّئِبْ أرْبيتَ في الغُلَواءِ كم تعذُلون وأنتمُ سُجَرائي. =

كما ناحَتِ ابنتا (لبيدِ بنِ ربيعةَ) على أبيهما بِحُزنٍ شديدٍ كما قالَ أبوهما عنهما:

وقــولا هو المَيْتُ الــذي لا حَريمَهُ أضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ[1]

إلى الحَوْلِ ثم اســمُ السلامِ عليكُما ومَنْ يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعْتذَرْ[2]

وكأني بِبَيْتَيْ أبي تمام المَمْدوديْنِ لو أمكن ذلك، لاجتمعتْ إليهما القصائدُ (المَمْدوداتُ) كما تجتمعُ في المآتِمِ نساءٌ مَعْدوداتٌ تندبُ صاحِبَها[3]. فيجِئنَ مِنْ كل صَوْبٍ، ويتواعَدْنَ على الالتقاءِ في أوقاتٍ معلومةٍ. ولو فعلْنَ ذلك لبارَتْهُنَّ القصائدُ (البائياتُ) بمَأْتَمٍ لأبي تمامٍ أعظمَ رنيناً، وأشدَّ في الليلِ حَنيناً كما قالَ أحدُ الشعراءِ:

يُجاوِبْــنَ الــكِلابَ بِــكُلِّ فَجْــرٍ فقد صَحَلَتْ مِنَ النَّوْحِ الحُلوقُ[4]

وإذا كان مَأْتَمُ (المَمْدوداتِ) في مئةٍ مِمَّنْ تَسْعَدُ بلقاء النَدْبِ وتُظاهِرُ عليه، وجبَ أنْ يكونَ مأتمُ (البائياتِ) في آلافٍ تُعْلِنُ عن الندبِ وتُجاهِرُ به. لأنَّ (الباءَ) رويٌّ مَطروقٌ مَركوبٌ. و(المَدُّ) في القصائد قليلٌ لا يُقْدِم عليه الكثيرون.

وما نَظَمَه أبو تمام على (التاء)، فإنه لا يُعْجِزُ الشعراءَ على الإيتاءِ بمثلِهِ.

وقصيدتاه (الثائيتان) ليس في ديوانِه على (الثاءِ) غيرُهما.

والأولى قالَها في مدحِ (مالك بن طوقٍ) ومطلعُها:

قِــفْ بالطُّلــولِ الدارِســاتِ عُلاثا أضحَــتْ حِبــالُ قَطِينِهِــنَّ رِثاثــا[5]

= (ويك): ويحك. (اتئب) استحِ. (أربيت): زِدْتَ. (الغُلْواء): الإسراف في اللوم. (السُّجَراء): الأصدقاء مفردها سَجْر. والمعنى أنه يطلب مِنْ أصدقائه أنْ يُكفكفوا مِنْ غلوائهم في اللوم. ثم يقول لهم إنكم تلومونني وأنتم أصدقائي.

1- (وقولا): الخطاب من لبيد لابنتيه. (حريمَه): مفعول به مقدم لفعل (أضاعَ). أي ما أضاع حريمَه.

2- أي: احْزَنا عليَّ عاماً. ثم السلامُ عليكما لأنكما وفيتُماني حقي. ومَنْ يحزنْ عاماً فقد وفّى ما عليه. والبيتان قالته البنتان على لسان والدهما.

3- يتمَثَّلُ المعري قصائدَ أبي تمام نسوةً تندبُ مُنْشِئها. فهو يبدأ بالهمزة التي لم يُكثِرْ مِنَ البناء عليها. ثم يُتْبِعُ ذلك بحرف الباء. ثم بالتاء. وهكذا.

4- (صَحَلَت): بُحَّت. (النَّوْح): النواح. (الحُلوق): جمع حَلْق. والمعنى أن النوق تجاوب بأصواتها نباح الكلاب عند كل فجر. مما يؤدي إلى أن تُبَحَّ حلوقها.

5- (عُلاث): ترخيم لاسم (عُلاثة). ويقال إنَّ غلام أبي تمام كان اسمه (عُلاثة). (القَطين): ساكنُ الدار =

والثانيةُ قالَها في (أبي المُغيثِ موسى بنِ إبراهيم) ومَطلعُها:

صَـرْفُ النَّـوى ليـس بالمَكيـثِ يَـنْبُـثُ مـا لـيـس بالـنَّـبـيثِ[2]

وكلتا (الثائيَّتَيْنِ) تُشبهان ابنةَ النهارِ – وهي الشمس - التي تُفْتَقَدُ في حالكِ الليلِ لِجمالِهما. ولو صُوِّرَتا مِنَ الآدَمياتِ، لزادتا على مُغَنِّيَتَيْ (ابنِ خَطَلٍ[2]) في جمالِ المنظرِ.

وإنَّ (الثاءَ) قليلةٌ في شعرِ العربِ. إلا أنَّ بيتي أبي تمام تسندُهما ثائيةُ (كُثَيِّر عزة[3]):

حِـبـالُ سَـلامةَ أضحـتْ رِثاثـا فَسُـقْياً لهـا جُـدُداً أو رِمـاثـا[4]

كما تسندُهما أراجيزُ (رؤبةَ بنِ العَجَّاجِ) وما كان نحوَها مِنَ القوافي المُتَكَلَّفَةِ والأشعارِ المُتَعَسَّفَةِ. ولهما فيما نظمَ (ابنُ دريد الأزدي) اللغوي أعوانٌ وأنصارٌ.

فأما (الداليَّاتُ) و(الرائِيَّاتُ) وما بُنِيَ على الحروفِ السَّهلَةِ كالميمِ والعينِ واللامِ وما جرى مَجْراهُنَّ، فلو اجتمعُ كلُّ قسمٍ منهنَّ - وهو كثيرٌ – لَضاقَ عنهن العدُّ والإحصاءُ، وزِدْنَ على ما اجتمعَ في جنازةِ (أحمدَ بنِ حنبل[5]) مِنَ النساءِ

= الذي يقطنها. (الرَثاث): الرثَّة. والمعنى: قف معي يا عُلاثةُ على الأطلالِ الدارساتِ. فقد أصبحت حبالُ الساكنين رثَّةً بعدما هجروها.

1- (صَرْفُ النوى): مصائبُ الفِراق. (المَكيث): البطيء الذي لا يأتي سريعاً. (يُنْبِثُ): يَسْتَخْرِج. والمعنى أنَّ مصائب الفراق تأتي سريعاً لأنها ليست بطيئة. وتَستخرجُ مِنَ القلبِ الحزنَ والقلقَ اللذين لا يُستَخْرَجان.

2- (ابن خَطَل): هو عبد الله بن خَطَلٍ. كان له مغنيتان تغنِّيانه بهجاء النبي (ص). وهو أحد الذين أمر النبي بقتلهم يوم فتح مكة هو ومغنيتاه حتى لو تعلقوا بأستار الكعبة. وقد قُتِلَ (ابنُ خطل) وإحدى المغنيتين. وجاءت الثانيةُ متنكِّرَةً وأسلمت.

3- مرت ترجمته.

4- (سلامة): اسم فتاة. (الجُدُد): الجديدة. (الرِّماث): ج رَمْث وهو العتيق البالي. والشاعر يُحيِّي حبالَ سلامة الجديدة والعتيقة.

5- (أحمد بن محمد بن حنبل): الإمام أبو عبد الله الشيباني. أحد الأئمة الأربعة. وهو الفقيه العالم المحدِّثُ الحافِظُ. نشأ في بغداد. وكان مِنْ خواصِّ أصحاب الشافعي. ثم استقلَّ بنفسه وأسس مذهباً في =

والرجالِ. فقد ذُكِرَ أنه لم يجتمِعْ في الجاهليةِ والإسلامِ جمعٌ أكثَرُ مِمَّا اجتمَعَ في موتِهِ. وقد قُدِّرَ العددُ بألفِ ألفٍ مِنَ الرجال، وبستِّمئةِ ألفٍ مِنَ النساءِ. والله العالمُ بيقينِ الأشياءِ.

وإنْ كانَ (أبو تمام) ضَيَّعَ صلواتِهِ، فإنه فريدٌ في أشعارِهِ. فلا يَلْحقُ به كَيْدُ أعدائِه. فكم مِنْ خَصْمٍ له حاولَ مجاراتَهُ فتخلَّفَ عنه مَبْهورَ الأنفاسِ. وليس كذلك صلاةُ الظهر. فإنْ تركَها فإنها تَشهَدُ عليه وتَشكوهُ يومَ القيامةِ وتجعلُه مِنَ الخاسِرين. فكم مِنْ قَصْرٍ في الجنة يُشَيَّدُ بِصلاةِ العصرِ، وكم مِنْ مِسْكٍ يُنشَرُ لِمَنْ يُصلِّي المَغْرِبَ. وكم مِنْ حُورٍ أُنْشِئنَ ببديعِ الإنشاءِ لِمَنْ حافظَ على صلاةِ العِشاءِ. وقد جاءَ في الحديثِ النبويِّ النهيُ عن تسميةِ صلاةِ العِشاءِ (صلاةَ العَتَمَةِ). فإنَّ الأعرابَ كانوا يُسمُّونَ صلاةَ العِشاءِ (صلاةَ العَتَمَة) تسميةً بوقتِها في الليلِ. فنهاهم النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم عن هذه التسميةِ. وقد رُوِيَ أنه قالَ: (لا تُخْدَعوا عن اسمِ صلاتِكم. فإنما يُعْتَمُ بِحِلابِ الإبلِ). أي أنَّ حَلْبَ الإبل يكون في العَتَمةِ. وفي حديثٍ آخرَ: (إن العَتَمَةَ اسمُ بِنتِ الشيطانِ).

وإنَّ مَنْ يَعجَزُ عن أداءِ تلك الرَّكَعاتِ، فإن له نِيَّةَ ضالٍّ. فليتَ (أبا تمامٍ) قَرَنَ بين صلاتَي الظهرِ والعصْرِ كما قالَ القائلُ

قَـرَنَ الظُّهْـرَ إلـى العَصْـرِ كمـا تُقْـرَنُ الحِقَّـةُ بالحِـقِّ الذَّكَـرْ[1]

وإني لأَضِنُّ بأوصالِ أبي تمامٍ أنْ يظلَّ جَسدُها في النارِ الموقَدَةِ لأنه كانَ صاحبَ طريقةٍ مُبْتَدَعَةٍ ومعانٍ كاللؤلؤِ يَتَتَبَّعها القارئُ حتى يدرِكَها. وأبو تمامٍ يَستخرِجُها مِنْ عُمْقِ البِحارِ، ويَفُضُّ عنها المَكينَ مِنَ المَحارِ.

وإنْ تلقَّاهُ خازنُ النارِ (مالكٌ)، فقد أُلْقِيَ في المهالكِ. فليته كانَ مثلَ (النابغةِ

= الفقه. وقد اشتُهِرَ بالمِحْنة التي وقع فيها أيام المأمون والمعتصم والواثق. فالمعتزلة يقولون إنَّ القرآن مُحْدَثٌ مخلوق. وأهل السنة يقولون إنه قديم. ورفض ابن حنبل أن يقول برأي المعتزلة. فسُجِنَ وعُذِّبَ. ولد عام 164 هـ 780 م. وتوفي عام 241 هـ 855 م.

1- (الحِقَّةُ): الناقة التي استحقت الحمل. و(الحِقُّ): ذكر الإبل.

الجعدي) أو سُلِكَ به مَسْلَكَ (عدِيِّ بنِ زيدٍ)[1]. أو كان مذهبُهُ مذهبَ (حاتم الطائي[2]) الذي كان متألِّهاً، ومِنْ خَشْيَةِ اللهِ مُتَوَلِّهاً. وقالَ:

وإنــي لَمَجْــزِيٌّ بِمــا أنــا عامِــلٌ وإنــي وإنْ طــالَ الــثَّــواءُ لَمَيِّــتُ

أو ليته لَحِقَ بـ (زَيدِ بنِ مُهَلْهِلٍ[3]). فقد وفَدَ على النبي صلى الله عليه وسلَّمَ وطَرَح عنه ثوبَ الغبيِّ.

المازِيار وبابك الخُرَّمي وأبو مسلم الخراساني

وأما (المازِيارُ[4])، فقد سارَ بالسَّفَهِ والخِلافِ. وحَسْبُه ما يتجَرَّعُ مِنَ الحَميمِ وما يَلْقاهُ مِنَ المَقالِ الذميمِ. وقد خَلَدَ له في الكُتُبِ ما يوجِبُ لَعْنَه إلى يومِ الدينِ.

ورَحِمَ اللهُ (ابن أبي دُواد[5]) مستشارَ المعتصمِ. فلقد كشفَ حالَ الإفشين حين قالَ للمعتصمِ عنه: (أغْرَلُ ويَطَأُ امرأةً عربيةً). فشفى الأنفسَ مِنْ عَطشِها إلى الحقِّ والعدلِ.

(وبابك الخُرَّميُّ[6]) فتح بابَ الطُّغيانِ. فكانَ مِنْ أشرارِ الرُّعيانِ الذين كانَ واحداً منهم وأجيراً عندهم. وأظنُّ أنَّ مُحارَبتَهُ ومُجاهدَتَهُ – عليه اللعنةُ – أفضلُ حربٍ ومُجاهدَةٍ. فذنبُه أكبرُ ذَنْبٍ اقْتُرِفَ. ولعله يَوَدُّ في الآخرةِ أنه ذُبِحَ مئةَ مرةٍ عن كلٍّ

1- يشير المعري هنا إلى وَضْعِهِ (النابغةَ الجعدي) الجاهلي في الجنة لأنه كان حنيفياً. وإلى (عدي بن زيد) الذي أدخله الجنة أيضاً لأنه كان يتبع الأنبياء.

2- مرت ترجمته.

3- (زيد بن مُهَلْهِل) الطائي. كان يسمى في الجاهلية (زيد الخيل). فلما وفد على النبي (ص) سماه (زيد الخير). كان مِنْ أجمل الرجال وجهاً وأطولهم قامة. فكان إذا ركب الفرس لامست رجلاه الأرضَ.

4- مرت ترجمته. والمعري هنا يشير إلى ما ذكره ابن القارح عن تمرده على المعتصم.

5- مرت ترجمته.

6- (بابِك الخرمي بن بهرام): صاحبُ الفتنة الكبرى في عهدي المأمون والمعتصم. اتصل أولَ أمره بـ (جاويدان) رئيس الخُرَّمِيَّة. فلما توفي سيدُه زعمت زوجته أنه أخبرها عند موته أنَّ روحه تدخُل في جسد غُلامه (بابك). فتزوجها وخرجَ على الدولة. وظل يهزم جيوش الخلافة 20 سنة. ثم ظفر به الإفشين عام 223 هـ 838 م. والمعري يشير هنا إلى ما ذكره ابن القارح عنه.

واحدٍ مِمَّنْ قتلهم في زمانِهِ مُقابِلَ أنْ يتخلَّصَ مِنَ العذابِ المُطْبَقِ عليه، وأنْ يُنقِذَ عنقَهُ مِنْ حِبالِ الكرْبِ والعقابِ.

والعجَبُ مِنْ (أبي مُسْلِمٍ الخراساني[1]). فقد خَبَطَ في الظلامِ المُدلَهِمِّ، وظنَّ أنه قادِرٌ على تَحقيقِ ما يُريدُ بِما عنده مِنْ أعوانٍ. فكان كالمُعْتَمِدِ على الأشباحِ والظلالِ. أشْعَلَ ناراً لِغيرِهِ فأكلتهُ. وقَتَلَ في طاعةِ مولاهُ أبي جعفرَ المنصورِ الذي قَتَلَهُ. وهو ليس أولَ واحِدٍ عَمِلَ لغيره ثم أغْواهُ الطَّمَعُ كما أغوى غيرَهُ. وكُلُّ أمْرِهِ أنه اشتغلَ لِدنياهُ فكانَ كمَنْ تَبِعَ سَراباً في الصحراءِ. فاقترفَ ذنباً غيرَ مُغْتَفَرٍ عند صاحبِ الدولةِ (أبي جعفر).

وكلُّ مَنْ يَسْعى إلى الفانيةِ لا بدَّ له مِنَ الندمِ حينَ الموتِ. ونحن نَذُمُّ الدُّنيا، ولكننا نَسْعى إليها. فذَمُّها مع الرغبةِ فيها يُحْسَبُ مِنَ الضلالِ. وحالُ مَنْ يذُمُّ الدنيا ويسعى إليها، كحالِ الفقيرِ الذي يَتمنَّى القناعةَ بِما قُسِمَ له ولا يَقْتنِعُ. وهذا الحالُ زيادةٌ للإنسانِ في التَّعَبِ.

أعباءُ الفقيرِ وأحْزانُ الغَنِيِّ

نحن نذُمُّ الدنيا على غير جِنايَةٍ مِنْها نحونا. وهي لم تَخُصَّ أحداً مِنَّا بالعنايةِ. بل أبناؤُها في المِحَنِ سواءٌ. لا تُسايِرُ عندَهُمُ الأهْواءَ. فربَّ رجُلٍ حامِلٍ حُزْمَةَ حطبٍ، وثوبُهُ مِنْ سَقْطِ المَتاعِ، وثمنُ ما يَحْمِلُهُ لا يسدُّ القوتَ، ويكابِدُ شَظَفَ عيشٍ مَمْقوتٍ. تدخلُ الأشواكُ في قدمِهِ فتخرجُ منها بدمِهِ، وهو أقلُّ أحزاناً مِنَ النائمِ على السريرِ وإلى جانِبِهِ امرأةٌ جميلةٌ. يُجْمَعُ له الذهبُ الحَرامُ بِظُلْمِ الناسِ والأهْلِ. وإذا مَلأَ بطنَهُ مِنَ الطَّعامِ وسَبَحَ في التَّرَفِ، كان الطَّعامُ واللَّذائذُ سَبباً في أذِيَّتِه. يَختطِفُهُ الموتُ على غَفلةٍ مِنْه. فغايةُ كُلِّ مُسافِرٍ أنْ يَعودَ إلى بيتِهِ. ونهايةُ كُلِّ حَيٍّ أنْ يَموتَ.

1- (أبو مسلم الخراساني): عبد الرحمن بن مسلم الخراساني. صاحبُ الدعوة العباسية في خراسان. سياسيٌّ وقائد عسكري. وهو – حسب بعض الرواة – مِنْ آخر أحفاد الأكاسرة. ولد في بلخ في أفغانستان اليوم. حاول التمرد على أبي جعفر المنصور. فقتله عام 137 هـ 754 م وعمره 35 سنة.

وما يدري العاقِلُ إذا فكَّرَ أيُّ الشَّخْصيْنِ أفضلُ: أشابٌّ نشأَ في النعيمِ، أم أفعى تأكُلُ طَعامَها في ظِلِّ شجرة؟ فكلاهُما يَنالُ مِنَ الحياةِ ما يُريدُ. وكذلك الناسُ. واحِدٌ مِنْهم يأكُلُ تراباً، والثاني يُسْقى الراحَ ويُجْتَهَدُ له ليُكَمِّلوا له الأفراحَ.

وما عَلِمنا أنَّ النُّسْكَ يَقي صاحِبَهُ مِنَ الموتِ، ولا يرفَعُ شأنَهُ في الدنيا. والناسُ تُسَيِّرُهم أقدارُهم. ولا يَنالون ما يَأْمَلونَ. ولا أعْجَبُ أنْ تكونَ الآخِرَةُ بِحُظوظٍ تُشبِهُ حُظوظَ الدنيا. وإذا بالنفسِ التي غُفِرَ لها تَسقُطُ في الجحيم. على أنَّ سِرَّ الدنيا غائبٌ. وكلُّ واحدٍ مِنَّا فيما يريدُ خائبٌ. وكلُّ مَنْ يدَّعي معرفَةَ ما سوف ينالُه الإنسانُ جاهلٌ وأكثرُ مِنْ جاهلٍ. واللعنةُ على الكاذِبين.

عليُّ بنُ أبي طالب

أما الذين يدَّعون في (عليِّ بنِ أبي طالبٍ[1]) عليه السلامُ، ما يدَّعونَ، فتلك ضَلالةٌ قديمةٌ. وسَحابةٌ مِنَ الضَّلالِ والغِوايَةِ اتصلتْ بها سحابةٌ. وقد رُوِيَ أنه أحرَقَ (عبد الله بن سبأٍ[2]) عندما جاهرَ بهذا القولِ.

والكَيْسانِيَّةُ يَنتسِبون إلى (كَيْسانَ) مولى الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلامُ. وهو تلميذُ ابنِهِ (محمدِ بنِ الحنفيةِ[3]). وقالَ عنه إنه أحاطَ بالعلومِ كُلِّها باطِناً وظاهِراً.

واعتقادُ الكَيْسانِيَّةِ في (محمدِ بنِ الحنفيةِ) عَجيبٌ لا يُصَدِّقُ بمثلِه نَجيبٌ. وقد

1- يشير المعري هنا إلى ما يدَّعيه البعضُ من الألوهية لعلي بن أبي طالبٍ.

2- (عبد الله بن سبأ): ابنُ السوداء. من غُلاة الشيعة. وهو يهودي الأصل من صنعاء. جاء إلى الحجازِ في عهدِ عثمان وأسلم. وقيل إنه أولُ مَنْ قالَ إن (علياً) وصيُّ الرسول، وإنَّ حقه في الخلافة شرعي سماوي. وتحدث بذلك في الأمصارِ بُغْيَةَ الإساءةِ إلى الإسلَام. وهو الذي سبَّبَ الثورةَ على عثمان بن عفان وما جرى بعد مقتله. وكثير من المؤرخين ينفي وجود هذه الشخصية.

3- (محمد بن الحنفية): أبو القاسم. محمد بن علي بن أبي طالب من أمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة. وقد تزوجها عليٌّ بعد موت زوجته فاطمة بنت محمد (ص). وهو من فقهاء التابعين. وتعتقد الكيسانية بإمامته. ولد عام 26 هـ 646 م. وتوفي عام 81 أو 82 هـ حوالي 700 م.

رُوِيَ أنَّ (أبا جعفر المنصور) رُفِعَت له نارٌ في طريقِ مكةَ في الليلةِ التي ماتَ فيها فقالَ: "قاتل اللهُ الحِمْيَرِيَّ. لو رأى هذه النارَ لظنَّ أنها نارُ (محمد بن الحنفية)". وما قالَ أبو جعفر ذلك إلا لأنَّ (الحِمْيَرِيَّ[1]) يقولُ بأنَّ (ابنَ الحنفيةِ) ما يزال حياً، وعنده في جبل (رِضوى) عسلٌ وماءٌ.

وقد بلغني أنَّ رجلاً في (البصرة) يُعْرَفُ باسم (شاياس) – وهو مِنْ غُلاةِ الشيعةِ – تزعُمُ جَماعةٌ كثيرةٌ أنه ربُّ العِزَّةِ، وتُجْبى إليه الأموالُ الجَمَّةُ، ويَحْمِلُ إلى السلطانِ منها قِسْماً وافِراً لِيَسكُتَ عنه. وهو، في حقيقتِهِ، ساقِطٌ. وأفضلُ منه رجلٌ يؤجِّر الدوابَّ مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ.

وحُدِّثْتُ أن امرأةً في (الكوفة) يُدَّعى لها مِثْلُ ذلك.

عودةٌ إلى ابنِ الراوندي

وقد سمِعتُ مَنْ يُخبِرُ أنَّ لـ (ابنِ الراونديِّ) أصحاباً يَذكرونَ أنَّ الألوهيةَ سكنتْهُ، وأنَّها مِنَ العِلْمِ مَكَّنتْهُ. ويختَرِعونَ له فَضائلَ يَشْهَدُ الخالِقُ وأهلُ العقْلِ أنَّ كَذِبَها مَكشوفٌ مَفضوحٌ. وهو في هذا الادِّعاءِ أحدُ الكَفَرَةِ. ولا يُعَدُّ بين الكِرامِ البررةِ. وقد أنشدَ له مُنشِدٌ ليسَ مِنَ الأتقياءِ:

قَسَّمْتَ بين الورى مَعيشَتَهُمْ ... قِسْمَةَ سَكْرانَ بَيِّنِ الغلطِ
لو قَسَمَ الرزقَ هكذا رجلٌ ... قُلْنا له: قد جُنِنْتَ فاسْتَعِطِ[2]

ولو صُوِّرَ هذان البيتان، لكانَ فيهما مِنَ الذُّنوب ما هو أطوَلُ وأكبَرُ مِنْ أهراماتِ مصرَ. فلو ماتَ الفَطِنُ كَمَداً مِمَّا يَسمعُ لَما عَتَبَ عليه أحدٌ. وإلى أين يهربُ العاقِلُ

1- (الحِمْيَري): لقبه السيد. واسمه إسماعيلُ بن محمد بن يزيد الحميري. شاعر متقدم. كان في شبابه من غُلاة الشيعة ومن الكيسانية. يقول بإمامة (محمد بن الحنفية). ثم التقى بجعفر الصادق وصار يقول بالإمامية. ولد عام 105 هـ 723 م. وتوفي عام 173 هـ 789 م.

2- (استَعَطَ): أدخل الدواءَ في أنفه. ومنه جاءت كلمة (السُّعوط). وهو نوع من المخدِّر يتعاطاه الناس في أنوفهم.

مِنْ شقاءِ هذه الأقاويلِ؟ أكُلَّما ظَهَرَ خادعٌ مُخادعٌ، أُطْلِقَت سِهامُ الكُفْرِ؟ وما حَظِيَتِ الأفكارُ السوداءُ برجلٍ سفيهٍ، إلا وَجَدَ جَهولاً مُؤيِّداً لِدعواه.

أبو جَوْف

وقد ظهر في الضيعةِ المَعْروفةِ بـ (النَّيْرَبِ) القريبةِ مِنْ (سَرْمينَ[1]) رجلٌ يسمى (أبا جَوْفٍ) لا يَسْتَتِرُ مِنَ الجَهْلِ بثوبٍ. وكان يَدَّعي النبوَّةَ، ويُخبِرُ بأخبارٍ مُضْحِكةٍ. ويؤكِّدُ على ذلك بإلْحاحٍ ولَجاجةٍ. مِنْ ذلكَ أنه كانَ عنده قُطْنٌ في بيتِهِ. فقالَ: "إنَّ قُطْني لا يَحْترِقُ". ثم أمَرَ ابنَه أنْ يُقَرِّبَ السِّراجَ مِنْه. فاشتعلتِ النارُ في القُطْنِ. وصرخَتِ النساءُ. واجتمعَ الجيرانُ بغَرَضِ إطفاءِ النارِ. وحدَّثني مَنْ شاهدَ ما جرى أنه كان يُكْثِرُ الضَّحِكَ مِنْ غير سبب مُوجِبٍ. فقيلَ له: "مِمَّ تضحكُ؟". فقالَ كلاماً معناهُ: (إنَّ الإنسانَ يفْرَحُ بالهَيِّنِ القليلِ. فكيف إذا وصلَ إلى العَطاءِ الجليلِ؟). وكان بَيِّنَ الجُنونِ، وليس جنونُه بالمَخفيِّ. فاتَّبَعَهُ الأغبياءُ. وكَذَّبَ ما يقولُهُ الأنبياءُ، حتى قَتَلَهُ والي حلبَ حرسَها اللهُ. وذلك بعدَ مَقتل (البِطْريقِ) المَعْروفِ بـ (الدَّوْقَس[2]) في بلدةِ (أفامية[3]). وكان الذي حَثَّ على قتلِه (جَيْشُ بنُ محمد بنِ صَمْصامَة[4]) والي دمشقَ لأنَّ خَبَرَهُ رُفِعَ إليه. فأرسلَ إلى سلطانِ (حلبَ) حرسَها اللهُ يقولُ له: "اقْتُلْهُ وإلا أنفذْتُ إليه مَنْ يقتُلُه". وكان السلطانُ يتَهاوَنُ مع (أبي جَوْفٍ) لأنه حَقيرٌ. فقتله. وبذلك قامَ السلطانُ بفعْلٍ حَسَنٍ رغم حقارتِه. فربَّ شاةٍ واحدةٍ نَتَجَ منها قَطيعُ غَنَمٍ.

1- (النيرب) اليوم حي من أحياء حلب. و(سَرمين): قرية مجاورة لها.

2- (البطريق) ملك الروم.

3- (أفامية): كانت بلدة حصينة في بلاد الشام. ولم يبق منها اليوم إلا أطلال.

4- (جيش بن محمد بن صمصمة): قائدٌ مشهور. وَليَ إمرةَ دمشق ثلاث مرات لصاحب مصر. وهو الذي حارب البِطريقَ المعروف بـ (الدوقس).. فلما قُتِلَ (الدوقس) عظيم الروم عام 368 هـ 978 م سار (جَيشٌ) إلى أنطاكية فغَنِمَ وسبى وقتل. وعاد إلى دمشق فأحسنَ السيرةَ حيناً. ثم غدر واستبدَّ حتى مرض ومات عام 390 هـ 1000 م.

عودةٌ إلى عليِّ بنِ أبي طالب

وبعضُ الشيعَةِ يُحدِّثُ أنَّ (سَلْمانَ الفارسي[1]) في نَفَرٍ معه جاؤوا يَطلبونَ (عليَّ بنَ أبي طالبٍ) سلامُ اللهِ عليهِ. فلم يجِدوهُ في مَنزِلِهِ. فبينما هم كذلك جاءَ بَرْقٌ تَبِعَه رَعْدٌ. وإذا (عليٌّ) قد نزلَ على سطحِ البيتِ في يدِهِ سيفٌ مُخَضَّبٌ بالدَّمِ وقالَ: "وقع خِلافٌ بينَ فئتين مِنَ الملائكةِ. فصعدتُ إلى السماءِ لأُصْلِحَ بينهما".

والذين يَقولونَ هذه المَقالةَ يَعتقدون أنَّ (الحسنَ والحُسَيْنَ[2]) ليسا من ولدِهِ. فحاقَ بهم العذابُ الأليمُ.

أفلا يُرى إلى هذهِ الأمةِ كيف افتَتَّتْ في الضَّلالةِ كافتِنانِ الربيعِ في إخراجِ الأعْشابِ، وكافْتِنانِ الوحوشِ الراتِعَةِ في إنْجابِ صغارِها؟ ولِلكَذِبِ سوقٌ رائجةٌ ليستْ للصِّدقِ. وهو يجعلُ الأسدَ مِنْ أبناءِ الغنمِ.

***

وأما الذي ذكَرَهُ الشيخُ الجليلُ عن بُلوغِه سنَّ الثمانين[3]، فإن اللهَ سبحانَه وتعالى خَلَقَ المُرَّ والعَسَلَ. وخَلَقَ في العاجلةِ الرغبةَ بها والزُّهْدَ عنها. وإذا أَنْعَمَ اللبيبُ النَّظَرَ، لم يَرَ في الحياةِ إلا أنها تَسوقُهُ إلى الضَّيْرِ، وتَحُثُّ جَسَدَهُ على السَّيْرِ. فالمُقيمُ كالمُرتَحِلِ. ولا تثبُتُ أحوالُ الاثنينِ على حالٍ. صُبْحٌ يتبسَّمُ وإمْساءٌ يَضيعُ معهما العُمْرُ. فكأنَّ الصُّبْحَ والمَساءَ ذِئْبان، وكأنَّ العُمْرَ قَطيعُ غَنَمٍ يلحقُ به هذان الذئبان. فيُغيرانِ على قَطيعِ الغَنَمِ حتى يُفْنِياهُ.

1- (سلمان الفارسي): أبو عبد الله. كان عبداً أصلُه من فارس. اشتراه النبي (ص) وأعتقه. شهد سلمان (الخندق)، وهو الذي أشار بحفره، ولم تفُتْه معركة بعد ذلك. وكان تقياً زاهداً. شوهِدَ وهو أمير على (المدائن) يعمل بالخوص بيده، ويتصدَّق بعطائه. توفي آخر خلافة عثمان بن عفان.

2- (الحسن والحسين): سِبطا النبي (ص). أبوهما علي بن أبي طالب، وأمهما (فاطمة الزهراء). ولد الحسن في السنة الثالثة للهجرة 625 م، وبويع بالخلافة بعد مقتل أبيه في العراق. ثم تنازل عنها لمعاوية بشروطٍ حسماً للفتنة. توفي حوالي عام 50 هـ 670 م. والمشهور أنه مات مسموماً.
ولد (الحسين) في السنة الرابعة للهجرة 626 م. وامتنع في الحجاز عن مبايعة (يزيد بن معاوية). وخرج بأهله إلى العراق فقُتِلوا في مذبحة (كربلاء) عام 61 هـ 681 م.

3- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن بلوغِه سِنَّ الثمانين وما يرافق ذلك من الهَلَعِ والجَزَعِ.

وإذا كانَ الشيخُ الجليلُ – مَكَّنَ اللهُ الأدبَ ببقائِهِ – قد فارَقَ الشَّبابَ، فقد أَنْفقَهُ في طَلَبِ العُلومِ والآدابِ. ولو كانَ للدُّنْيا أنْ تُبقِيَ على أحدٍ، لَأَبْقَتْ عليهِ وتشبَّثَتْ به. ولكنَّ الدنيا عَرَضٌ مِنْ أعراضِ الكونِ. لا تَشعُرُ بِحياةِ أَحَدٍ ولا بِموتِ أَحَدٍ.

وإذا كُنَّا على ذمِّ هذه الدنيا مُجْمِعينَ، وعلى فِراقِها مُزمِعِينَ، فَلِمَ نأسَفُ على فِراقِها وهي الخوَّانَةُ؟ إنَّ النَّخْلَةَ الصَّغيرَةَ أصلُ النَّخلةِ الطَّويلَةِ. فالموتُ أصلُ الولادةِ. ومتى أَخْلَصَ الإنسانُ الغافِلُ توبةً، فإنها لا تَترُكُ لهُ ذُنوباً. تَغْسِلُها مرات ومرات. كما تغْسِلُ الغَسَّالَة صُوفَ الغنمِ المَقْصوصِ بماءِ السَّحابِ الغَزيرِ. فهذا الصوفُ يكونُ فيه الأقذار الدنِسةُ. وإذا بالماءِ يُزيلُها. وهذا الصوفُ القذرُ كانَ قد أُخِذَ عن ظُهورِ الأغْنامِ البِيضِ وقد اجْتَمَعَتْ في مراعيها. فتُصبِحُ بعدَ الغَسْلِ كأنها كافورُ الطِّيبِ. فهكذا تَغْسِلُ التوبةُ الذنوبَ.

***

فأما الغانياتُ بعدَ السبعينَ[1]، فالعَجوزُ الذي شابَ شَعرُه عندهُنَّ كالذئبِ الذي يَفْترِسُ صغارَ البقَرِ الوحْشِيِّ. وقد حُكِيَ أنَّ (أبا عمرِو بنِ العلاءِ) كان يصبُغُ شَعْرَهُ. فمَرِضَ في بعضِ الأيامِ. فزارَهُ أحدُ أصْحابِهِ وقالَ له: "تَشفى إنْ شاءَ اللهُ مِنْ عِلَّتِك". فقالَ له ابنُ العلاء: "ما آمُلُ بالشفاءِ بعدَ ستٍّ وثمانين". فلمَّا تَماثَلَ للشِّفاءِ قالَ لِصاحبِهِ ذاك: "لا تتحدَّثْ بِما قلتُ لك". وهذا مِنْ طَريفِ ما رُوِيَ عن ابنِ العَلاءِ. فقد رغِبَ في تَخْضيبِ شعره، ليُخْفِيَ عن الأصحابِ سِنَّه.

الزواج

وقد تحدَّثَ بعضُ طلابِ الأدبِ أنَّ الشيخَ الجليلَ – أدامَ اللهُ تَزْيينَ المَحافِلِ بِحضورِه – ذكَرَ الزِّواجَ بقَصْدِ أنْ تأتِيَ زوجةٌ لتخدُمَه. فَسرَّني ذلك لأنهُ يَدُلُّ على رغبتِهِ بالإقامةِ في الوطنِ. فإنَّ في القُربِ مِنْه الفَرْحَةَ لذوي الفِطَنِ. فهو كالشجرةِ

1- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح: (فمِمَّ أرتاعُ وقد بلغتُ هذه السنَّ؟ أمِنْ صُدوفِ الغواني عني؟).

الوارِفَةِ الظِّلالِ في الحرِّ الشديدِ، وذاتِ الهواءِ الباردِ في شُهورِ الصَّيْفِ، وذاتِ الثَّمَرِ الطيِّبِ لِمَنْ يَذوقُها، وذاتِ الرائحةِ الطَّيِّبَةِ لِمَنْ يَشمُّها.

وهو يَعرِفُ ما رواهُ (الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديُّ[1]) عن العَرَبِ حين قالوا: "إذا بلغَ الرجلُ الستينَ فإياهُ والشَّابَّاتِ مِنَ النِّساءِ. كما أنه لا خَيْرَ في العَجائزِ. ولكن عليه بِمَنْ هُنَّ (النَّصَفُ) أي في مُنتصَفِ العمر. وذلك كما قالَ تعالى: (لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ بين ذلك فافْعَلُوا ما تُؤْمَرون[2]):

لا تَنْكِحَنَّ عَجوزاً إنْ أُتيتَ بها ... واخْلَعْ ثيابَك عنها مُمْعِناً هَرَبا

وإنْ أَتَوْكَ وقالوا: إنها نَصَفٌ ... فإنَّ أَطْيَبَ نِصْفَيْها الذي ذَهَبا

ولعلَّ الشيخَ الجليلَ إذا نوى الزواجَ أنْ تُقَدَّرُ له امرأةٌ كصاحبةِ (أبي الأسود الدؤلي) (أمِّ عمروٍ) حين وصَفَها فقالَ عنها:

كَثَوْبِ اليماني قد تقادمَ عَهْدُهُ ... ورُقْعَتُه ما شِئْتَ في العينِ واليدِ

أو كما قال الآخَرُ:

ضِناكٌ على نِيرَيْنِ أمْسَتْ لِداتُها ... بَلِينَ بِلى الرَّيْطاتِ وهي جديدُ[3]

وحُكِيَ عن (أبي حاتمٍ سهل بن محمدٍ السَّجِسْتانيِّ[4]) أنه قرأَ على (الأصمعيِّ[5]) شِعْرَ (حسانَ بن ثابتٍ[6]). فلما انتهى إلى قولِه:

1- مرت ترجمته.

2- سورة (البقرة) من الآية 68. تصف الآيةُ البقرةَ المُوصى بها. (الفارِضُ): الهَرِمَةُ. (البِكر) الصغيرة التي لم تتزوج بعد. فهي وسطٌ بين الهرمة وبين الصغيرة.

3- (الضِّناك): الضَّخْمة من النساء. (النيرَيْنِ): المرأة التي فيها بقية. والمفرد منها (نير): وهي هُدْبُ الثوب. فإذا كان للثوب نيران كان أجمل. و(الرَّيْطات): ج (ريْطة): وهي الملاءة. والمعنى أن هذه المرأة الضخمة ذات العجيزة شاخَ وبَلِيَ مَنْ هو في عمرها كما يبلى الثوب. وبقيت هي شابة.

4- (أبو حاتم السجستاني): هو سَهل بن محمد. فارسي الأصل. سكن البصرة فصار من علمائها في النحو واللغة والأدب. توفي عام 250 هـ 864 م.

5- مرت ترجمته.

6- مرت ترجمته.

لــم تَفُتْها شــمسُ النهارِ بشــيءٍ غيــرَ أنَّ الشــبابَ ليــس يــدومُ[1]

قال الأصمعي: "وصفَها واللهِ بالكِبَرِ". وقد يجوزُ ما قالَ الأصمعيُّ. والمُمْكِنُ أنَّ ابنَ ثابتٍ قال هذا وهي شابةٌ على سبيلِ التأَسُّفِ. أي أنَّ الأشياءَ لا بقاءَ لها. كما قالَ الآخرُ:

أنــتَ نِعْــمَ المتاعُ لو كنــتَ تبقى غَــيْــرَ أنْ لا بَــقــاءَ لِلإنــسانِ

ولو نَشِطَ الشيخُ الجليلُ لغايةِ الزِّواجِ، لَتنافستْ فيه العجائزُ والمُكتَهِلاتُ، ورَغِبَتْ فيه قَليلاتُ العقلِ. لأن العاقِلَةَ الحَصيفَةَ تَميلُ إلى مُعاشَرَةِ مَنْ هو في مِثْلِ عُمرِها. وهل الشيخُ إلا كما قالَ الأولُ:

يــا عَزُّ هل لكِ في شَــيْخٍ فتىً أبداً وقــد يكــونُ شَــبابٌ غَيْــرَ فِتيانِ؟

وإذا طلبَ الشيخُ الجليلُ الزواجَ فهو ليس أولَ مَنْ تَزوجَ على السنِّ عجوزاً كما قال قائلٌ:

إذا مــا أعــرَضَ الفتيــاتُ عنــي فَمَــنْ لــي أن تُســاعِفَني عجــوزُ؟
كأنَّ مَجــامِــعَ اللَّحْيَيْــن مــنــهــا إذا حَسَــرَتْ عــن العِرْنيــنِ كــوزُ[2]

ويُرْوى لــ (الحارثِ بنِ حِلِّزة[3]) ولم أجِدْهُ في ديوانه:

وقالوا: مــا نَكَحْتَ؟ فقلــتُ خيراً عَجــوزاً مــن عُرَيْنَــةَ ذاتَ مــالِ[4]
نَكَحْــتُ كبيــرةً وغَرِمْــتُ مــالاً كــذاكَ الــبَــيْــعُ مُــرْتَخَــصٌ وغالِ

وأعوذُ باللهِ مِمَّا قالَ الآخَرُ:

1- أي أنها ماتزال شابة كأنها شمس النهار. غير أن الشباب لا يدوم.

2- (اللَّحيان): مُثَنَّى لَحْي. وهو مَنْبتُ اللِّحيةِ في أسفلِ الوجه. (العِرنين): الأنف. ومعنى البيتين: إذا رفضَتْني الفتياتُ فمَنْ يُساعِدُني على الزواج مِنْ عجوز؟ وذَقْنُ هذه العجوز كأنها كوزٌ إذا حَسَرَتِ الخِمارَ عن أنفها ووجهها.

3- مرت ترجمته.

4- (عُرَيْنَة): بطنٌ من قبيلة تميم.

عجوزاً لو انَّ الماءَ يُسقى بِكَفِّها لما تَرَكَتْنا بالمِياهِ نَجوزُ[1]

وما تزالُ العربُ تَحْمَدُ العجوزَ الحَيْزَبونَ والمرأةَ المُتوسِّطَةَ العُمْرِ. ولا تَكْرَهُ مع شَرْخِ الشَّبابِ أنْ يتزَوَّجَ الرجلُ امرأة كَهْلَةً.

وقد تزوَّجَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم (خديجةَ ابنةَ خُويلدٍ[2]) وهو شابٌّ وهي طاعِنةٌ في السن. وقالتْ له (أمُّ سَلَمَةَ ابنةُ أبي أميةَ[3]) حينما خَطَبَها: "يا رسولَ اللهِ. إني امرأةٌ قد كَبِرْتُ وما أُطيقُ الغَيْرَةَ".

فقال لها: "أما قولُكِ قد كبرتُ فأنا أكبرُ منكِ. وأما الغَيْرَةُ فإني سوفَ أدعو اللهَ أن يُزيلَها عنكِ".

وقالَ الشاعرُ:

فما أنا بابنِ رُهْمٍ قد عَلِمْتُمْ ولا ابنِ العامِلِيَّةِ فاحذَرونِي[4]
ولكنِي وُلِدْتُ بِنَجْمِ شَكْسٍ لِشمطاءِ الذَّوائِبِ حَيزَبونِ[5]

ولا أشكُّ أنَّ مولايَ الشيخَ الجليلَ قد استَخدَمَ في (مصرَ) أصنافاً مِنَ الجَواري الجميلاتِ اللواتي يَشِعُّ مِنهُنَّ النورُ. ولولا أنَّ الكبيرَ في السِّنِّ يَحْتاجُ إلى مَنْ يُعينُه، لكانَ الحَزْمُ أنْ يَقتنعَ بما يُتاحُ له مِنْ عدمِ الزواجِ. فالشيخُ يعرِفُ قولَ القائلِ:

1- (نجوز): نمضي ونذهب. والمعنى أنَّ هذه العجوز لو أنَّ الماء يُسقى بكفِّها لما تركتنا نأخذ الماء.

2- (خديجة بنت خُويلد): أبوها واحد من سادة قريش. وقد تزوجت مرتين قبل زواجها من النبي. أول أزواجها عتيق بن عابد المخزومي الذي مات عنها. فتزوجت أبا هالة التميمي فمات عنها أيضاً. ثم تزوجت النبي. وهي أم أولاده جميعاً ما عدا إبراهيم. وكانت ذات مكانة في قريش وذات مال وتجارة. ولدت عام 555 م وتوفيت عام 620 م في السنة العاشرة للبعثة وعمرها 65 عاماً.

3- (أم سَلَمَةَ): هي هند بنت أبي أمية المخزومي. تزوجَتْ أبا سَلَمَةَ المَخْزوميَّ وأسلمتْ وسافَرَتْ معه إلى الحبشة. وكان زوجُها أبو سلمة من أُمراءِ الحربِ عند المسلمين. فلما مات زوجُها متأثراً بجِراحِهِ عام 4 ه، تزوجها النبي (ص). وكانت ذاتَ رأيٍ ناصح. توفيت عام 60 هـ 680م.

4- (الرُّهْم): جماعة الطير التي لا تصيد. (ابن العاملية): يبدو أن هذا الرجل كان ضعيفاً.

5- (شَكْس): هنا تحمل معنيين. أولُهما مَحاقُ القمر. والثاني: المُشاكسُ الصعبُ الأخلاق وهو المقصود في البيت. (الذَّوائب): ج ذُؤابة. وهي مُقَدَّمُ شعرِ الرأس. والمعنى أنه رجل صعب مُشاكس. وأمه عجوز شمطاء قوية. والشاعر يهدِّدُ خُصومَهُ حتى يحْذَروه.

مـا العيـشُ إلا القُفْـلُ والمِفتاحُ وغُـرفَـةٌ تَـخـرِقُـهـا الـرِّيـاحُ
لا صَـخَـبٌ فـيـها ولا صِـياحُ

الخَدَمُ ولؤمهم

وحدَّثَني (ابنُ القِنِّسريِّ[1]) المُقرئُ أنه سَمِعَ الشيخَ يسألُ عن غُلامٍ للخِدْمَةِ. ويبدو أنه لم يَجِدْ واحِداً لأنَّ الأحرارَ لا يَستَقِرُّونَ في خِدْمةِ أحَدٍ. فقد قالَ (أبو عُبادَةَ البحتري[2]):

أنـا مِـنْ ياسِـرٍ ويُسْـرٍ ونُجْـحٍ لـسـتُ مِـنْ عـامِـرٍ ولا عَـمَّـارِ
مـا بـأرضِ العـراقِ يـا قـومُ حُرٌّ يَفْتَديـنـي مِـنْ خِدْمَةِ الأحْـرارِ؟[3]

والحقُّ أنَّ على الرجلِ الوحيدِ أنْ يَخْدُمَ نفسَهُ بنفسِهِ. فذلك خيرٌ مِنْ أنْ يَدخُلَ العبيدُ إلى بيته. فطالما اضْطَرُّوا مالِكَهم إلى ضَرْبِهِمْ، وأنْ يَتَّقِيَ شرورَهم بكثرةِ الأكْلِ.

ورُبَّ رجلٍ مِنْ أهْلِ الأدبِ يَنزِلُ في خانٍ. وهو ليس بالخائِنِ ولا يَسْتَحِقُّ أنْ يُخانَ. فيخدمُه صبيٌّ حُرٌّ وليس عَبداً. فيكونُ في خِدمَتِهِ له السَّرِقةُ والأذى. إذا أرْسَلَهُ بالدراهمِ ليأتِيَهُ ببطِّيخةٍ حينَ يَكثُرُ البطيخُ ويَنزِلُ سِعرُه فيصبحُ مُتاحاً للناسِ جميعاً، سَرَقَ هذا الصَّبِيُّ مِنَ الدَّراهِمِ غيرَ مُهْتَمٍّ بأنه خانَ الأمانةَ. ثم يَقِفُ عندَ البائِعِ. فيغْبُنُهُ ويُعْطيهِ بَطِّيخَةً صغيرةً لم تَنْضُجْ ولم يُصْبِحْ لونُها أصفَرَ بعدُ. ثم يَنصرِفُ وهو يَلعَبُ بها كأنه يُلاعِبُ فتاةً. ولا يزالُ يَرميها ويَتلقَّفُها في الطَّريقِ حتى يَكْسِرَها بين الأصحابِ فيختَلِطُ حَبُّها بالحَصْباءِ فيزهَدُ بها كُلُّ مَنْ يَشْتَهيها. ويجوزُ أنْ يَحْمِلَها في حالِ السَّلامَةِ ويَمضيَ لِيسْبَحَ مع الفِتيانِ. فإذا نَزَلَ في الماءِ اخْتطفَها بعضُ المُؤذينَ مِنَ الصِّبْيانِ. فأكَلَها وهو لا يَراهُ فلا يتْرُكُ منها شيئاً.

1- (ابن القنسري) هذا ليس معروفاً. ويبدو أنه كان يتردد على بيت أبي العلاء.

2- مرت ترجمته.

3- معنى البيتين أنه مِنْ أهلِ اليُسْرِ والنَّجاحِ وليس مِنْ أهلِ الصعوبة كعامر وعمار. فهل في أرضِ العراق مَنْ يُخلِّصُه من أنْ يخدمه الأولادُ الأحرارُ لأنهم لا يستَقِرون على حال؟

وهذا الأديبُ قد يُرْسِلُ خادِمَهُ ذاك بِصَحْنٍ مِنَ الفَخَّارِ ليُحْضِرَ له لَبَناً فلا يَكونُ له مِنْ ذلك إلا سوءُ الرأْيِ. فإنَّ الصبيَّ إذا وضَعَ في صحنِ الفَخارِ اللبنَ وقعَ. فإذا باللبنِ يَنْسَفِحُ على الأرضِ. ويُصْبِحُ صحن الفخار مُكسَّراً لا يرغَبُ به أحدٌ لا مِنَ النُّسَّاكِ الزاهِدينَ ولا مِنَ العُتاةِ الظَّالِمين. فإذا كان هذا الأديبُ يذهبُ مَذْهَبَ (ابنِ الرومِيِّ) في التَّطَيُّرِ، عَدَّ أنَّ تَحَطُّمَ صَحْنِ الفَخَّارِ - والفَخَّارُ غُضارٌ - يعني فناءَ عَيْشِهِ ذي النَّضَارِ. فيدْعو على الصَّبِيِّ بالهَلاكِ لأنه فَوَّتَ عليه طَعامَهُ. فماذا يفعلُ بذلك اللبنِ الفاسِدِ وقد حانَ وقْتُ رَحيلِهِ إلى بلدِهِ؟

وكان في بلدِنا غُلامٌ لبعضِ الجُندِ يَزعُمُ - وهو صادقٌ فيما يَزعُمُ - أنه كانَ مَمْلوكاً لــ (أبي أُسامةَ جُنادَةَ بنِ محمدٍ الهَرَويِّ[1]) في مصرَ. وكان هذا الغلامُ يأسَفُ لِفِراقِ (الهرويِّ) ويعْجَبُ مِنْ جَميلِ أخلاقِهِ. ويقولُ إنه باعَهُ لأنه لا يعرفُ السِّباحَةَ لأنَّ إجادَةَ السِّباحَةِ كانتْ أمراً مَطلوباً في الغِلْمانِ. ولأنه لا يعرفُ السِّباحَةَ فقد باعَهُ بسِعْرٍ بَخْسٍ.

وإنَّما ذكرْتُ قِصَّةَ هذا الغُلامِ لأنَّ الشيخَ الجليلَ - طيَّبَ اللهُ الوقتَ بحياتِهِ - مِمَّنْ يَعْرِفُ (جُنادَةَ) ويعرِفُ أخبارَهُ.

***

وأما أهلُ بلدي[2] - حَرَسَهمُ اللهُ - فإذا كان الحظُّ قد أعطاني حُسْنَ ظَنِّ الغُرباءِ بي، فلا يَمْتنِعُ أنْ يُعْطِيَني تلك المنزِلَةَ مِنَ الأقرباءِ. ولكنهم معي خاسِرون. فَهُمْ كَمَنْ يَطلُبُ الخَطابةَ مِنَ الأخْرَسِ، وكمَنْ يطلب الحَرَّ والدفءَ في شهرِ البردِ والقَرَسِ.

وسيدي الشيخُ (أبو العباس المُمَتَّع[3]) شابٌّ فكأنَّه في السِّنِّ لي ولدٌ. وهو في

1- (جُنادة بن محمد الهروي)كان حافظاً للغة . قتله الحاكم بأمر الله الفاطمي صاحب مصر عام 399 هـ 1009 م.

2- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن تقدير أهل المعرة لأبي العلاء.

3- (أبو العباس المُمَتَّع): من أدباء حلب. ويُشير المعري هنا إلى ما أورده ابن القارح عن ذكر أبي العباس لأبي العلاء بكل خير.

المودَّةِ أخٌ. وهو في فَضْلِهِ أبٌ أو جَدٌّ. وإنَّه في أدَبِهِ لا فَضْلَ لأحدٍ عليه كما قالَ تعالى: (وما لأحدٍ عِنْدَهُ من نِعْمَةٍ تُجزى[1]).

التَّوْبَة

وأما[2] خوفُ الشيخِ من رغباتِهِ وشَهَواتِهِ – عَمَرَ اللهُ خَلَدَه بالفرحِ والجذَلِ، وأراحَ سَمْعَهُ مِنْ كلِّ لومٍ وعَذَلٍ – فهذا الخوفُ سَجيَّةُ الإنسانِ التي لا يختصُّ بها إلا الشجاعُ الذي لا يَقْنَطُ مِنْ رحمةِ اللهِ: (قُلْ يا عبادِيَ الذين أَسْرَفوا على أنفُسِهِمْ لا تَقْنَطوا مِنْ رَحمةِ اللهِ)[3].

كم مِنْ أديبٍ شَرِبَ وطَرِبَ ثم تابَ. فاستَجابَ لِمَنْ عاتَبَهُ في شُربِه وطَرَبِه. فقد يضِلُّ الدَّليلُ في ضَوْءِ القَمَرِ. ثم يَهديه اللهُ بحجارةٍ صغيرةٍ وُضِعتْ دليلاً على الطَّريقِ. وكم نَجا مِنْ لُجَّةِ الماءِ غَريقٌ فسَلِمَ بعد أنْ كانَ قريباً مِنَ المَوْتِ.

وقد كان (الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ)[4] يَسيرُ في أَوْخَمِ المَسالِكِ. ثم صارَ مِنَ الزُّهَّادِ ومِنْ أَهْلِ الاجتِهادِ.

وربَّ خَليعٍ وهو فتى، تابَ وتعلَّمَ لمَّا كَبِرَ. وبِعلْمِه أفتى فصارتْ له الصَّدارةُ. وربَّ مُغَنٍّ بطنبورٍ أو عودٍ، قُدِّرَ له أنْ يَنالَهُ حَظُّ التوبةِ. فارتقى مَنابِرَ الوعْظِ مِنْ بَعْدِ النَّظَرِ إلى المُحرَّماتِ والانغماسِ فيها.

ولعلَّ الشيخَ الجليلَ قد نَظَرَ في طَبقاتِ المُغَنِّينَ فوجدَ فيهم (عمرَ بنَ عبدِ

1- سورة (الليل). الآية 19.

2- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح: (وأنا أستعينُ بِعصمةِ اللهِ وتوفيقِهِ على دَفعِ شهواتي، وأشكو إليه عُكوفي على الأماني..)

3- سورة (الزمر) من الآية 53.

4- (الفُضَيْلُ بنُ عِياض): هو أبو علي بن مسعود التميمي الخراساني الزاهد. كان في شبابه يَقطعُ الطريق. ثم عشق جاريةً. فبينما هو يرتقي الجُدران إليها سمع قارئاً يتلو: (ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله). "سورة (الحديد) الآية 16. فقال: "يا ربِّ آن". وتزهَّدَ حتى رفض أنْ يقبلَ عطاء الرشيد. وانتقل مِنَ الكوفة إلى مكة. وبقي فيها حتى مات عام 187 هـ 802 م.

العزيزِ[1]) و(مالكَ بنَ أَنسٍ[2]). هكذا ذكرَ (ابنُ خُرداذَبة[3]). فإنْ كان كاذِباً فعليه كَذِبُهُ.

والحكايةُ مَعْروفةٌ أنَّ (أبا حَنيفةَ[4]) كان يُشارِبُ الشاعِرَ (حَمَّادَ عَجْرَدَ[5]) ويُنادِمُه. فتنسَّكَ (أبو حنيفةَ) وأقام (حَمَّادٌ) في الغَيِّ. فبلَغَهُ أنَّ (أبا حنيفةَ) يَذُمُّهُ ويَعيبُهُ. فكتبَ إليه (حمادٌ):

إنْ كـان نُـسْـكُـكَ لا يَـتِـمُّ بغَـيْـر شَـتْـمي وانـتـقـاصـي
فاقْعُـدْ وقُـمْ بـي حيـث شِـئتَ مـع الأدانـي والأقـاصـي
فَـلَـطـالَـمـا زَكَّـيْـتَـنـي وأنـا الـمُـقـيـمُ علـى المعاصـي
أيـامَ تُـعْـطـيـنـي وتـأْ خُـذُ فـي أبـاريـقِ الـرَّصـاصِ

أليس الصَّحابةُ – عليهم رِضوانُ اللهِ – كلُّهُمْ كانوا على ضَلالٍ، ثم تدارَكَهُم الله المُقْتَدِرُ ذو الجَلالِ؟ وفي بعضِ الرِّواياتِ أنَّ (عمرَ بنَ الخَطَّابِ) قبل إسلامِه خرجَ مِنْ بيتِه يُريدُ مَجْمَعاً كانوا يجْتمعون فيه لِلقِمارِ. فلم يجِدْ فيه أحداً. فقال: "لأَذْهَبَنَّ إلى الخَمَّارِ لعلي أَجِدُ خمراً". فلم يَجِدْ عنده شيئاً. فقال: "لأَذْهَبَنَّ وأُسْلِمَنَّ".

والتوفيقُ يجيءُ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى.

وفيما خوطِبَ به النبي صلى اللهُ عليه وسلَّمَ: (ووَجَدَكَ ضالاً فهدى)[6].

1- (عمر بن العزيز) بن مروان بن الحكم أمير المؤمنين الإمامُ العادِلُ الحافظ الثقة التقي. بويِع بالخلافة عام 99 هـ 717 م. وبقي فيها حتى مات عام 101 هـ 719 م.

2- (مالك بن أنس): أبو عبد الله الأصبحي المدني. إمام المدينة وأحد الأئمة الأربعة. توفي في المدينة عام 179 هـ 795 م

3- (ابن خُرداذَبة): هو أبو القاسم عُبَيد الله بن خُرداذبة. نادَمَ الخليفةَ العباسي (المعتمد على الله) واختصَّ به. له مؤلفات كثيرة منها (أدب السماع) و(جمهرة أنساب الفُرْس) و(المسالك والممالك).

4- (أبو حنيفة): النعمان بن ثابت فقيهُ العراق الإمام رأس المذهب الحنفي. توفي عام 150 هـ 767 م.

5- (حَمَّاد عَجْرَدْ): أحد بني نهشل بن دارِم. شاعر عباسي مُحْسِن عُرِفَ بالهجاء والغزل. كان يسكن الكوفة. واتُّهِمَ بالزندقة والمجون. وهو أستاذ أبي نواس في الأمرين. وله في (بشار بن برد) أهاجٍ مُقذِعة. توفي عام 161 هـ 778 م.

6- سورة (الضحى) الآية 8.

وذكر (أبو مَعْشرٍ المدنيُّ[1]) في (كتاب المَبْعَثِ) حَديثاً مَعناهُ أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ذبَحَ ذبيحةً للأصنامِ. فأخذ شيئاً منها فطُبِخَ له. وحَمَلَهُ (زيدُ بنُ حارثة[2]). ومَضَيا ليأكلاه في بعضِ الشِّعابِ. فلَقِيَهما (زيدُ بنُ عمرو بنِ نُفَيْل[3]) وكان مِنَ المتألِّهين في الجاهلية. فدعاهُ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلمَ ليأكُلَ مِنَ الطَّعامِ. فسألَهُ عنه فقالَ له: "هو مِنْ شيءٍ ذبحناه لآلهتنا". فقال (زيدُ بنُ عمرو): "إني لا آكُلُ مِنْ شيءٍ ذُبِحَ للأصنامِ. وإنِّي على دينِ إبراهيمَ صلى اللهُ عليه". فأمرَ النبيُّ صلى الله عليه (زيدَ بنَ حارثةَ) بإلقاءِ ما مَعَهُ.

وفي حديثٍ آخرَ وقد سمعتُه بإسنادٍ: أنَّ (تميمَ بنَ أوسٍ الداريِّ[4]) – والدارُ قبيلةٌ من لَخْمٍ – كان يُهدي إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلَّمَ في كل سنةٍ راوِيَةً مِنْ خَمْرٍ. فجاءَ بها في بعضِ السِّنينَ – وقد حُرِّمَتِ الخمرُ – فأراقَها. وبعضُ أهلُ اللغة يقول: (بَعَّها): أي أراقَها بِقُوَّةٍ.

عن الخمر

و(العِنَبُ المَطْبوخُ[5]) إنْ أسْكَرَ فهو جارٍ مَجْرى الخمرِ. على أنَّ كثيراً مِنَ الفُقَهاءِ قد شَرِبوا (الجُمْهوريَّ) – وهو عَصيرُ العِنَبِ الذي عمرُه ثلاثُ سنوات –، و(البُخْتُجَ)

1- (أبو معشر المدني): هو نجيح بن عبد الرحمن الهاشمي. أصلُه من السِّنْد. وكان مولى بني هاشم. مِنَ الرواة وأصحاب السير. ألف في المغازي. توفي عام 170 هـ 786 م.

2- (زيد بن حارثة): أبو أسامة بن شُراحيل الكلبي. سُبِيَ في الجاهلية. فاشتراه (حكيم بن حزام) لعمته خديجة. فتبناه محمد (ص). فصار يُدعى (زيد بن محمد) حتى نزلت آية (ادعوهم لآبائهم). وزيد من الأربعة الأوائل في الإسلام. ولد عام 35 قبل الهجرة. وقتل في غزوة مؤتة عام 8 هـ 629 م.

3- (زيد بن عمرو بن نفيل العدوي): من حُنَفاء الجاهلية. اعتزل الأوثان والمَيْتَةَ وما يُذْبَحُ على الأوثان. وقد آذاه قومه. فخرج من مكة يبحث عن دين إبراهيم. ولما علم ببعثة النبي عاد إلى مكة فقُتِل في الطريق. وهو والد الصحابي (سعيد بن زيد) أحد العشرة المبشرين بالجنة.

4- (تميم بن أوس الداري): يُكنى (أبا رُقيَّةَ) بابنته لأنه لم يولد له سواها. كان نصرانياً وأسلم سنة 9 هـ 630 م.

5- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح: (عرض علي بعضُ الناسِ كأسَ خمرٍ فامتنعتُ منها وقلت لهم: (خَلُّوني والمطبوخَ على مذهبِ الشيخ الأوزاعي).

– وهو العصيرُ المَطبوخُ –، و(المُنَصَّفَ) – وهو العصيرُ الذي طُبِخَ حتى ذهبَ نِصْفُهُ –. وذُكِرَ (أحمدُ بنُ حنبلٍ) عند (أحمدَ بنِ يَحيى ثَعلبٍ) وهل شَرِبَ النبيذَ؟ والنبيذُ عند الفقهاءِ غيرُ الخمرِ. فقالَ ثعلبُ: "أنا سقيتُه بيدي في خِتانِ صبيٍّ عندَ (خَلَفِ بنِ هِشامٍ البَزَّاز[1])".

وأما (الطِّلاءُ) – وهو ما طُبِخَ مِنْ عَصيرِ العِنَبِ – فقد كانَ (عمرُ بنُ الخطابِ) عليه السلامُ رتَّبَه على نصارى الشامِ لِجنودِ المسلمين.

والمثلُ السائرُ:

هـي الـخـمـرُ تُكـنى الـطِّـلاءَ كمـا الذئـبُ يُكنـى أبـا جَعْـدَةِ

وهذا البيتُ يُروى ناقصاً تفعيلةً كما يَعلَمُ الشيخُ الجليلُ. وهو يُنسَبُ إلى (عَبيدِ بن الأبرص[2]). وربما وُجِدَ في إحدى نُسَخِ ديوانِهِ وليس في كُلِّ النُّسَخِ. والذي أذهبُ إليه أنَّ هذا البيتَ قيلَ في الإسلامِ بعدما حُرِّمت الخمرُ.

وإنما لذَّةُ الشاربينَ فيما يَعْرِضُ لهم مِنَ السُّكْرِ. ولولا ذلك لَكان غيرُها مِنْ أنواعِ الأشْرِبَةِ أعْذبَ وأدفأَ. وقد قالَ (الأخطلُ التغلبيُّ[3]):

عَلِّلانـي بشُـربَـةٍ مِـنْ طِـلاءٍ نِعْمَتِ النِّيـمُ في شَـبا الزَّمْهَريرِ[4]

ويُروى لـ (دِعْبِلِ الخُزاعيِّ):

عَـلِّـلانـي بِـسـمـاعٍ وطِـلا وبِضَيْـفٍ جائـعٍ يَـبْغـي القِـرى

وهذا يدلُّ على أنَّ (الطِّلا) يُسْكِرُ. ويُروى لـ (الهُذلي):

إذا مـا شِـئْتُ باكَرَنـي غَريـضٌ وزِقٌّ فـيـه نِـيٌّ أو نَـضيـحُ[5]

1- (خلف بن هشام البزاز): أبو محمد البغدادي. من أعلام القراء والحُفَّاظ في القرن الثالث. توفي في بغداد عام 227 هـ 842 م.

2- مرت ترجمته.

3- مرت ترجمته.

4- (نعمت): نِعمَ. (النِّيم): ما يجعل المرءَ ينام. (الشَّبا): حد السيف. أي أنَّ الخمر تجعلك تنام من الدفء في الزمهرير القارس الذي يشبه حد السيف.

5- (غَريض): هو المُغَنِّي غَريض. (النِّيُّ): الخمر التي لم تمسُّها النار. و(النَّضيح): المطبوخ.

وإنْ كانَ الشيخُ الجليلُ – هَيَّأَ اللهُ له المُحِبِّينَ – قد شَرِبَ نِيَّاً، وقال له النُّدمانُ "هَنِيَّاً"، فله أُسوَةٌ بشيخِ الأزْدِ (محمد بن الحسن[1]) إذ قال:

بـل رُبَّ ليـلٍ جَمَعَـتْ قُطريْهِ لي بنـتُ ثمانيـنَ عـروسٌ تُجتَلـى[2]

ثم قال في آخر القصيدةِ:

فـإنْ أَمُـتْ فقـد تناهَـت لَذَّتـي وكلُّ شـيءٍ بلـغَ الحَـدَّ انتهـى

وما أختارُ للشيخِ الجليلِ هو أنْ يأخُذَ بِقولِ (أبي نُواسٍ الحَكَمِيِّ):

قالوا كَبِـرْتَ فقلت: ما كَبِرتْ يدي عَـنْ أنْ تَسـيرَ إلـى فَمـي بالكاسِ

والشيخُ يعرِفُ البيتَ:

ومـا طبخوهـا غيـرَ أنَّ غُلامَهُمْ سـعى ليلـةً فـي كَرْمِهـا بِسَـراحِ

ويعرف أيضاً بيتَ (عبدِ الله بنِ المُعْتَزِّ):[3]

ذكَـرَ العِلْـجُ أنَّـهـم طَبَخوهـا فَـرَضِينـا ولـو بِـعُـودِ خِـلالِ[4]

وقديماً طلبَ النُّدمانُ الخمرَ مَطْبوخاً، شُبَّاناً في العُمْرِ وشيوخاً. وهُمْ يَطلُبونَها وَيتَحايَلونَ على ذِكْرِ أوصافِها حتى يُتاحَ لهم شُربُها على أنها غيرُ مُحَرَّمة. وأبياتُ (الحُسَيْنِ بنِ الضحَّاكِ) الخَليعِ التي تُنسَبُ إلى (أبي نُواسٍ) مَعروفَةٌ:

وشـاطِريِّ اللسـانِ مُخْتَلِقِ التَّكْـ ـريـهِ شـابَ المُجـونَ بالنُّسُـكِ[5]

بـاتَ يُغَمِّـي يَرْتـادُ صالِيَـةَ النـا رِ ويَكْـنـي عـن ابْـنَـةِ الـمَـلِكِ[6]

1- (محمد بن حسن): هو محمد بن دريد الأزدي. وقد مرت ترجمته.

2- (قطرا الليل): أوله وآخِره. و(بنت ثمانين): خمرة معتقة عمرها ثمانون سنة.

3- (عبد الله بن المعتز): هو أبو العباس بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم. الخليفة الشاعر الأديب. بويِع بالخلافة في ربيع الأول من عام 296 هـ 909 م ، وقُتل في ربيع الثاني من العام نفسه.

4- (الخِلال): شجر تؤخَذُ منه عِيدان السِّواك. والمعنى أنَّ هذا العلج ذكر أنهم طبخوا الخمر. فَرضِيَ منها بمقدار عود من الخلال.

5- (شاطريِّ اللسان): بارعُ الحديث. وهو يختلِقُ كُرهه للخمر لكنه يخلط بين المجون والزهد.

6- (يُغَمِّي): يخفي مُرادَه وهو يرتادُ الخمر المطبوخة على النار. ويكني عنها بابنةِ الملك حتى لا يذكُرَ اسمَها.

دَسَسْتُ حَمْراءَ كالشِّهابِ لَه مِنْ كَفِّ خَمَّارِ حانةٍ أَفِكِ[1]
يَحلِفُ عن طَبْخِها بِخالِقِه وربِّ موسى ومُنشِئِ الفَلَكِ[2]
كأَنَّما نَصْبُ كأسِها قَمَرٌ يَكرَعُ في بَعْضِ أَنجُمِ الفلكِ

ومِنَ النِّفاقِ أنْ يُظْهِرَ الإنسانُ شُربَ ما أجازه شُربَه بعضُ الفقهاء لأنه لا يُسْكِرُ، ويَعمِدُ إلى ما يُسْكِرُ بِحُجَّةِ أنه لا يُسْكِرُ. وقد أحسنَ الحكميُّ (أبو نواس) في قولِه:

فإذا نَزَعْتَ عن الغِوايةِ فليكُنْ للهِ ذاك النَّزْعُ لا للناسِ

***

وقد آنَ لمولاي الشيخِ أنْ يَزْهَدَ في أخلاقِ (حُمَيْدٍ الأَمَجِيِّ[3]) قائلِ هذه الأبياتِ:

شَرِبْتُ المُدامَ فلم أُقْلِعِ وعُوتِبْتُ فيها فلم أرجِعِ
حُمَيْدُ الذي أَمَجٌ دارُهُ أخو الخمرِ ذو الشيبةِ الأصْلَعِ
علاهُ المَشيبُ على حُبِّها وكان كَريماً فلَمْ يَنْزِعِ

وقال آخرُ:

تُعاتِبُني في الرَّاحِ أُمٌّ كَبيرةٌ وما قَوْلُها فيما أراه مُصيبُ؟
تقول: ألا تَجْفو المُدامَ فعندنا مِنَ الرِّزْقِ تَمرٌ مُكثِبٌ وزبيبُ[4]
فقلتُ: رُوَيْداً ما الزبيبُ مُفَرِّحي وليس لِتَمْرٍ في العِظامِ دَبيبُ
فإنَّ حُمَيْداً عَلَّها في شبابِه ولم يَصْحُ منها حينَ لاحَ مَشيبُ[5]

1- (الأفِك): الكاذب.

2- هذا الخَمَّار الكذاب يحلِفُ بالله الخالق الذي هو رب موسى ومنشئ الكون أن خمرته غير مطبوخة.

3- (حُمَيْد الأَمجي): شاعر إسلامي أموي. و(أَمَج): بلدة قرب المدينة المنورة فيها سوقٌ ومزارعُ ونخيل.
ويُروى أنه لما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز المدينة المنورة دعا بحُمَيْدٍ الأمجي وقال له: أأنت القائل:
حُمَيْدُ الذي أَمَجٌ دارُهُ أخو الخمرِ ذو الشيبةِ الأصْلَعِ
قال: نعم. قال عمر:سأقيم عليك الحدَّ بها. قال حُميد: هيهات. ألم تسمع الله يقول: (والشعراء يتبعهم الغاوون).. الآية. إلى قوله (يقولون ما لا يفعلون).

4- (مُكثِبٌ): كثير كأنه الكثيب.

5- الشاعر يشير إلى أبيات (حميد) السابقة. و(علَّها): شربها مرة بعد مرة.

وإذا تسامَعَتِ المَحافِلُ بتوبةِ الشيخِ الجَليلِ، اجتمعَ عليه الشُّبَّانُ المُقْتَبِلون، والأدباءُ المُكْتَهِلون، وكلُّ أشيبَ لم يَبْقَ مِنْ عُمْرِهِ إلا القليلُ. وهؤلاء يَجْتمِعون إليه كما يَجتمعُ السُّمَّارُ للسَّمَرِ. فيقتبِسونَ مِنْ آدابِه، ويُصْغونَ المَسامِعَ لِخِطابِه. فإذا جلسَ إليهم في بعضِ المَساجِدِ في (حلبَ) حرسَها اللهُ، فإنه يُعيدُ إليها الآدابَ لأنَّها مِنْ بَعْدِ (أبي عبدِ اللهِ بنِ خالويه) ابتعَدَتْ عن الأدبِ.

وإذا كانتْ تلك المكانةُ للشيخ الجليلِ بِفضلِ اللهِ، فقد أعدَّ معه خَنجَراً كالخَنجَرِ الذي أَعدَّهُ (ابنُ الروميِّ) في مرضِ موتِهِ، لِينحرَ به نفسَهُ إذا اشتدَّ عليه الألمُ. أو أعدَّ ذاك الذي عناه (ابنُ هَرْمَةَ[1]) في قولِهِ:

لا أُمْتِـعُ العـوذَ بالفِصـالِ ولا ... أَبْـتـاعُ إلا قَريـبـةَ الأجَـلِ[2]
لا غَنَمـي فـي الحيـاةِ مُـدَّ لهـا ... إلا دِراكَ الـقِـرى ولا إِبِـلـي[3]
كـم نـاقـةٍ وجَـأْتُ مَـنْحَـرَهـا ... بِمُسـتهَلِّ الشُّـؤبوب أو جَمَـلِ[4]

فإذا جلسَ الشيخُ الجليلُ في مَجْلِسِهِ الذي يَلتقِطُ أهلُهُ من عِلْمِهِ زَهْرَ الأسْحارِ أو لؤلؤَ المَحارِ، يكونُ ذلك الخَنجَرُ قريباً منه. فإذا صادفَ أنْ يَمُرَّ بِبابِ المَسْجِدِ زِقُّ خَمرٍ – ومِنْ أسماءِ زقِّ الخمرِ (الكَهْلُ المُرَقَّب). وهو الذي عناهُ الشاعرُ بقولِهِ:

1- (ابن هرمة): هو إبراهيم بن علي بن سلمة الفهري. من سكان المدينة. نزل إلى دمشق ومدح الوليدَ بن يزيد الأموي. ثم اتصل بأبي جعفر المنصور ومدحه فاستحسن شِعرَه. كان مولَعاً بالشراب حتى جُلِد عليه. وقد عُرِف بالبخل. ولد عام 80 هـ 675 م وتوفي عام 167 هـ 783 م

2- (العوذ المطافيل): الحديثةُ الولادة مِمَّا يُؤكَلُ لحمه. والمعنى أنَّ ما عنده مِنْ أولادِ الإبل والغنم لا يطول عمرها عنده لأنه يذبحها إكراماً لضيفه. وكل ما يبتاعه منها تكون قريبة الأجل للسبب نفسه.

3- (القِرى): إكرام الضيف. والمعنى أن غنمه وإبله لا يُمَدُّ لها في الحياة إلا ريثما يقوم بإكرام ضيوفه.

4- (وَجَأَ): طَعَنَ وذَبح. (المَنْحَر): مَوْضِعُ النَّحرِ في أول العنق. (الشُّؤبوب): حَدُّ كل شيء، والدفعةُ مِنَ المطرِ الغَزير. والمعنى أنه ذبح كثيراً من النوق والجمالِ حتى سالَتْ دِماؤها كأنها المطر الغزير. وقد تشَبَّثَ الناس بهذه الأبيات على ابنِ هرمة وهو البخيل. وكان لهم معه نوادر من أجلها. من ذلك أن (عروة بن أُذينة) وقفَ على باب (ابن هَرمة) وناداه. فقالت له ابنته: (خرج والله آنفاً): فسألها: (هل من قِرىً؟). قالت: (لا والله). قال: (فأين قولُ أبيك:

لا أُمتِع العوذَ بالفِصال.. الأبيات.

قالت: (بذلك والله أفناها). ثم أخبرت والدها بما كان فضمَّها إليه وقال لها: (أنت والله ابنتي حقاً).

إذا الكهـلُ المُرَقَّـبُ غـاضَ أُلْنـا إلـى سِـيٍّ لـه فـي القَـرْوِ ثـانِ[1]
كأن الـذَّارِعَ الـمَغْـلـولَ مِنْهـا سَـليبٌ مِـنْ رِجـالِ الـدَّيْـبُـلانِ[2]

أقولُ إنه إذا صادَفَ ومَرَّ مِنْ أمامِ المَسْجدِ زِقٌّ خمرٍ، وثَبَ إليه الشيخُ الجليلُ وثبةَ نِمرٍ إلى قَطيعٍ مِنَ الماشِيَةِ ونَحَرَهُ. أو أمَرَ بعضَ أصْحابِهِ بالوُثوبِ إليه. فطَعَنَ الزِّقَّ بذلك الخَنْجَرِ طعنةً انبعَثَ بعدها ما فيه بمثْلِ لَونِ الدَّمِ. ثم قرأَ هذه الآيةَ: (إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلك ذِكْرى للذَّاكِرين)[3].

فإذا مضى صاحِبُ الزِّقِّ إلى السلطانِ مُسْتَعْدِياً على الشيخِ الجليلِ فقال لهُ السلطانُ: "مَنْ فَعَلَ ذلك بك؟". فسمَّاه له، قال السلطانُ بِمَشيئةِ اللهِ: "لا حُرَّ بوادي عَوْفٍ". وهذا مثَلٌ يُضْرَب للرجلِ الذي يَسودُ الناسَ فلا يُنازِعُه أحدٌ على سِيادتِه. ثم يتابعُ السلطانُ ويقولُ: "ماذا أَصْنَعُ بذلك الشيخِ وهو أصلُ الأدبِ وبقيةُ أَهْلِهِ؟".

ثم إنَّ الشيخَ الجليلَ يَطَأُ زِقَّ الخَمْرِ تحتَ قدمِهِ، ويحْسِبُه مِنْ أوساخِ التُّرابِ. وهو لا يَفعلُ ذلك مرةً أو اثنتين. وإذا بِدِنانِ الخمرِ قد اجْتَنَبَتِ الناحيةَ التي يكونُ فيها الشيخُ الجليلُ كما اجْتنبَ (أبو سفيانَ بنُ حربٍ[4]) طريقَهُ مِنْ خوفِ النبي صلى اللهُ عليه وسلَّمَ. فقالَ (حسانُ بنُ ثابتٍ[5]):

1- (الكهل) هنا: زقُّ الخمر. (المُرقَّب): الجِلْدُ الذي يُسلَخ من جلد الرقبة. أي أنَّ هذا الزق مصنوع من الجلد المرقَّب. (غاض): انتهى ما فيه من الخمر بعد الشُّرْب منه. (أُلْنا): مِنْ (آلَ): ذهب ومضى. (القَرو): إناء واسع. والمعنى أنه إذا فَرَغَ زِقُّنا من الخمر، هرعنا إلى نظير له في الاتساع والامتلاء بالخمر.

2- (الذارِعُ): الزق الصغير يُؤخَذُ بالذراع. (المَغلول): المأخوذ. (الدَّيبُلان): مَرفأ في بلاد السندِ كان أهله قراصنة وقُطاع بحر. والمعنى أننا نخطف هذا الزق. فكأنه شيء سلبه رجال الديبلان.

3- سورة (هود) من الآية 114.

4- (أبو سفيان): هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس. من سادات قريش في الجاهلية. وكان قائدَ الحروب على محمد (ص). أسلم يوم فتح مكة. وشهد مع النبي غزوة حنين وغزوة الطائف. وقصته مع القافلة التي أدت إلى غزوة بدر معروفة. ولد عام 63 قبل الهجرة 560 م. توفي ما بين 30 و34 هـ وبين 650 و654 م.

5- مرت ترجمته.

إذا أَخَـذَتْ حُورانُ مِـنْ رَمْلِ عالجٍ فقـولا لها: ليسَ الطريقُ بسـالكِ[1]

حديثُ طالوت[2]

وإذا كان السلاحُ الذي يُهَيِّئُه الشيخُ الجليلُ لِطَعْنِ خوابي الخمرِ بَدَلَ الخَنجرِ سيفاً قصيراً يوضَعُ في الكُمِّ، فإنه إذا ضُرِبَ به زِقُّ الخمرِ، تذكَّرَ حكايةَ (طالوت) المَذكورَةَ في (كتاب المبتدأ). فقد أَمَرَ (طالوتُ) ابنتَهُ – وهي امرأةُ داودَ صلى اللهُ عليه – أنْ تُدْخِلَهُ على زَوجِها وهو نائمٌ لِيقتُلَهُ. فوضعتْ لوالدِها في فِراشِ زوجِها داودَ زِقَّ خمرٍ وأَدْخلَتهُ عليه. فضربَه بالسيفِ وسالَتِ الخمرُ. فظنَّ أنها الدمُ. فأدركَهُ الأسفُ والندمُ. فرفَعَ السيفَ ليقْتلَ نفسَه ومعه ابنتَه. فأمْسَكَتْ بِيدِهِ وحدَّثته بما فَعَلَتْهُ. فشَكَرَها على ذلكَ. وكذلك مَنْ يَضْرَبُ زِقَّ خمرٍ. فسوف يرى سائِلاً كأنه الدمُ.

والسكرانُ إذا أَلَمَّ بذلك المَسْجِدِ الذي يكونُ فيه الشيخُ الجليلُ، يُؤْخَذُ ويُحَرَّكُ ويَجعَلونَهُ يمشي ذَهاباً إياباً ويُشَمُّ فمُه. فإذا أوجَبَ وَضْعُهُ أنْ يُجْلَدَ جُلِدَ. ولا يَقتَصِرُ له الشيخُ – أَغْراهُ اللهُ أنْ يَأْمُرَ بالمَعْروفِ ويَنهى عن المُنكَرِ – على أربعينَ جَلْدَةً على مَذهبِ أهلِ الحِجازِ، ولكنْ يَجلِدُه ثمانين جَلْدَةً على مَذْهَبِ أهلِ العِراقِ. فإنها أَوْجَعُ وأَفْجَعُ. ويُقالُ إنَّ النبيَّ ضلى الله عليه وسلم، جَلَدَ أربعينَ جَلْدَةً. فلما صارَ الأمرُ إلى عمرَ بنِ الخطابِ – عليه السلامُ – وجَدَ الأربعينَ قليلةً. فشاوَرَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ عليه السلامُ. فجعلاها ثمانينَ جَلْدَةً.

1- هذا البيتُ من قصيدة قالها حسان بن ثابت في غزوة بدر الثانية. فقد واعد النبيُّ (ص) قريشاً أن يلتقوا في بدر بعد عام من الغزوة الأولى. لكن قريشاً لم تأت. و(حُوران): اسم فتاة. والمعنى أنه إذا سارت هذه الفتاة في رمل منطقة عالج، فقولا لها: إن الطريق غير سالك فارجِعي.

2- (طالوت) أول ملك لإسرائيل. وهو سِبْطُ بنيامين. قادَ جيش إسرائيل وانتصر على (جالوت) الذي قتله داود. و(جالوت) أو (جوليات) محارِبٌ معروف تصدَّى لداود الشاب ملك إسرائيل المستقبلي.

عودةٌ إلى ذِكْرِ الحُور

وإذا صَحَّتِ الأخبارُ المَنقولةُ بأنَّ أهلَ الآخِرةِ يَعلَمون أخْبارَ أهلِ العاجِلَةِ، فلعلَّ حواريَّ الشيخِ الجليلِ المُعَدَّاتِ له في الخُلْدِ يَسْأَلْنَ عن أخبارِهِ مَنْ يَأتيهِنَّ مِنَ الصَّالِحينَ. فيَسْمَعْنَ مرةً أنه في (الفُسطاط)، وتارةً أنه في (البصرةِ)، ومرةً أنه في (بغدادَ)، وخَطْرةً أنه في (حلبَ). فإذا شاعَ أمرُ تَوبتِهِ وماتَ ناسِكٌ مِنْ أهلِ (حلبَ)، أخبرهُنَّ بذلكَ. فسُرِرْنَ وابتَهَجْنَ. وهنَّأَهُنَّ جاراتُهُنَّ.

ولا رَيْبَ أنه قد سَمِعَ حِكايةَ البيتَيْنِ الثابِتَيْن في كتابِ (الاعتبار):

أنْـعَمَ اللهُ بالخَيـالَـيْـن عَـيْـنـاً ... وبِـمَـسْـراكِ يـا أمَـيْـمُ إلَـيْـنـا

عَجَباً مـا جَزِعْتِ مِنْ وحشـةِ اللـ ... ـحْـدِ ومِنْ ظُلْمَـةِ القبـورِ علينا؟[1]

رجعةٌ إلى الخمر

وأعوذُ باللهِ مِنْ قَوْمٍ يَحُثُّهُمُ المَشيبُ على أنْ يَسْتَكثِروا مِنَ الخمرِ. كأنها التي تُنْجيهِم مِنَ المَصائبِ والدَّواهي كما قالَ حاتم الطائي[2]:

وقـد عَلِـمَ الأقْـوامُ لـو أنَّ حاتِماً ... أرادَ ثَـراءَ المـالِ كـان لـه وَفْـرُ

يَفُـكُّ بـه العانـي ويُـؤْكِلُ طَيِّباً ... وليسـتْ تُعَرِّيهِ القِداحُ ولا اليَسْرُ[3]

أمـاوِيَّ إنْ يُصْبِـحْ صَـدايَ بِقَفْرةٍ ... مِـنَ الأرضِ لا مـاءٌ لَـديَّ ولا خمرُ

تَـرَيْ أنَّ ما أهْلَكْتُ لـم يكُ ضَرَّني ... وأنَّ يَـدي مِمَّـا بَخِلْـتُ بـه صِفْـرُ

1- ورد البيتان في معرض الحديث عن أهوال القبر. فقد مرَّ أحدهم قرب مقبرة فسمع مُنْشِداً من أحد القبور ينشد هذين البيتين. وكانت هناك جنازة لفتاة اسمها أميمة. و(الخيالان): هما رجلان مدفونان في قبرين متجاورين أو في قبر واحد. وهما يسألان أميمة: أما خشيتِ علينا من وحشة القبر ومن ظلمة اللحد؟

2- (حاتم الطائي): من قبيلة طيِّء. أبو سَفَّانة وأبو عدي. مَضْربُ المَثَلِ في الكرمِ والجود. وكان شاعراً. توفي عام 46 قبل الهجرة 605 م. وكان نصرانياً.

3- (العاني): الذي أصابته مصيبة. (القِداح): التي تُضْرَبُ في لعب القمار. و(اليَسْر): المَيْسِر.

وقال (طَرَفَةُ بن العبد):

فإنْ كنتَ لا تَسْـطيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي فَدَعْنـي أُبادِرْهـا بِمـا مَلَكَـتْ يدي

وقال (عبدُ اللهِ بنُ المعتز):

لا تُطِلْ بالكؤوس مَطْلي وحَبْسي ليس يَومي يا صاحِبي مِثْلَ أَمْسي[1]

لا تَسَـلْني وسَـلْ مشـيبِيَ عَنِّـي مُذْ عَرَفْتُ الخَمْسـينَ أَنكَرْتُ نَفْسي

و(ابنُ المعتز[2]) هذا حَثَّتْهُ كَثْرَةُ سِنِيِّ عُمْرِهِ على أنْ يَسْتكْثِرَ من السُّلافةِ، وما حَفِظَ حقَّ الخِلافةِ. وإنَّ العَجَبَ أنَّه طَمِعَ أنْ يَلِيَها وقد نَجَحَ في تَولِّيها. فَكَأنَّه تَرَكَ العِبادَةَ حتى ماتَ.

وإذا كانَ (ابنُ المُعتزِّ) قد طَمِع بِالخلافَةِ، فإنَّ (معاويةَ بنَ يزيدَ[3]) لم يَطمعْ بها حتى قال له القائلُ:

تَـلَـقَّـاهـا يَزيـدٌ عـن أبـيـهِ فَخُذْهـا يـا مُعـاويَ عـن يزيـدِ

وقد كان (مُحمد بنُ يزيدَ المُبَرِّدُ[4]) يُنادِمُ (أبا عُبادةَ البحتريَّ[5]). ثم تَركَهُ.

وأنا أَضِنُّ بالشيخِ الجليلِ – جَعَلَ اللهُ قلبَ عَدُوِّه يتميَّزُ مِنَ الغَيظِ – أنْ يكونَ مِثلَ (أبي عثمانَ المازِنيِّ[6]) الذي عُوتِبَ في الشَّرابِ فقالَ: "إذا صارَ أكبرَ ذنوبي تركتُه".

1- (المَطْل): المُماطَلَة. والمعنى: لا تؤخِّرْ تقديمَ الخمر لي ولا تَحبِسْني عنها. فإن يومي ليس مثل أمسي. لأن العمر تقدم بي.

2- (طرفة بن العبد) و(ابن المعتز) مرت ترجمتهما.

3- (معاوية بن يزيد): هو معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. وَلِيَ الخلافةَ فوجدها ثقيلةً عليه. ولم يَزِدْ عهدُه عن أربعين يوماً انزوى فيها في داره لِمرضِهِ. ولد عام 26 هـ 647 م. وتوفي عام 64 هـ 683 م.

4- (محمد بن يزيد المبرِّد): ينتهي نسبه إلى ثُمالة. أحدُ كبار العلماء في علوم اللغة والفقه والنحو والنقد. ويلفظ البعض اسمه (المبرَّد). فكان يقول: (برَّدَ اللهُ مَنْ برَّدني). أي مَنْ قال: (المبرَّد).

5- مرت ترجمته.

6- مرت ترجمته.

وأما (إبراهيمُ بنُ المهديِّ[1])، فقد أساءَ في لَوْمِهِ على الكأسِ والشَّرابِ لــ (محمدِ بنِ حازِمٍ[2]). فإنَّ مَنْ لَعِبَ بِأَوْتارِ العُودِ لا يَحِقُّ له أنْ يَلومَ أحَداً على فِعْلِ الشَّرابِ.

وقد رُوِيَ أنَّ (المُعتَصِمَ[3]) دَعا (إبراهيمَ بنَ المَهْدِيِّ) كَعادتِهِ. فَغَنَّاهُ صَوْتاً مَشْهوراً له وبَكى. فقالَ له (المعتصمُ): "ما يُبْكيكَ؟".

فقال: "كنتُ عاهدتُ اللهَ إذا بَلَغْتُ ستينَ سنةً أنْ أَتوبَ. وقد بَلَغْتُها".

فأَعْفاهُ (المعتصمُ) من الغِناءِ وحُضورِ الشَّرابِ.

والتوْبةُ إذا لم تَكُنْ نَصُوحاً، لم يَكُنْ ثَوْبُها مَصْنوعاً صُنْعاً جديداً. وكان في بَلدِنا رجُلٌ مُغْرَمٌ بالخمرِ غيرِ المَطْبوخَةِ. فلمَّا كَبِرَ رَغِب في المَطْبوخِ. وكانَ يحضُرُ مع نَداماهُ وبينَ يَديهِ خَمرةٌ مَطْبوخةٌ وخمرةٌ نيِّئةٌ. وعندَهم قدَحٌ واحِدٌ. فكانَ يَشْرَبُ هو مِنَ المَطبوخِ ويشربُ أصحابُهُ بالقَدَحِ مِنَ النَّيِّئِ. فإذا جاءَ القَدَحُ إليهِ لِيشْربَ، غَسَلَهُ مِنْ أَثَرِ الخمْرِ النَّيِّئِ وشَرِبَ فيه المَطْبوخَ. فإذا فَرَغَ وِعاءُ الخمرِ المْطبوخِ، رَجَعَ فَشَرِبَ مِنْ شَرابِ إخْوانِهِ.

***

وأما مُخاطَبةُ الشيخِ الجليلِ غيرَه وهو يَعني نفسَه[4]، فهو كقولِهم في المَثَلِ (إياكِ أَعْني واسْمَعي يا جارة).

ولا مَنْدوحَةَ عمَّا جُبِل عليه الإنسانُ. فالمُتَنَسِّكُ يُريدُ أنْ يَنصَرِفَ حُبُّه عن العاجِلةِ.

1- (إبراهيم بن المهدي) بن أبي جعفر المنصور. أبو إسحاق. أمه (شَكْلة) من سبي طبرستان. وإليها يُنسَبُ فيقال (ابن شكلة). وكانت قد سُبِيت فتربَّت عند أبي جعفر. ثم صارت عند المَهدي فولدت له إبراهيم. وهو أديب فصيح شاعر ومن أعلام الغناء. ثار على المأمون وبويِع بالخلافة سنة 202 هـ 779 م. ثم انهزم فاختفى في العام التالي. وظل مُخْتَفِياً سبعَ سنين حتى ظفر به المأمون وعفا عنه. توفي عام 224 هـ 839 م.

2- (محمد بن حازم): بن عمرو الباهلي. أبو جعفر. من شعراء الدولة العباسية. كثير الهجاء. وكان عابثاً ماجِناً لاهياً ثم تاب.

3- مرت ترجمته.

4- يُشير المعري هنا إلى قول ابن القارح: (وأقبلتُ على نفسي مُخاطِباً ولها معاتباً. والخطابُ لغيرها والمعنى لها...)

ولكنه ليس يقدِرُ على ذلك. كما لا تَقْدِرُ الظَّبيَةُ أنْ تَصيرَ لبوةً، ولا الحَصاةُ أنْ تصيرَ لؤلؤةً: (يوسِفُ أَعْرِضْ عن هذا واستغْفِري لربِّكِ إنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين)[1]. وقولُ القائلِ في الدعاءِ: "أللهم اجْعَلْ عُصْفوري صَقْراً" يكون للسَّفَهِ مُوازِياً:

لقــد عَلِمْــتَ ولا أَنْهاكَ عــن خُلُقٍ أنْ لا يكــونَ امْــرؤٌ إلا كَمــا خُلِقــا

وإنا لَنَجِدُ الرجلَ مُوقِناً بالآخرةِ، مُصَدِّقاً بِالقِيامةِ، مُعْتَرِفاً بِالوَحْدانيَّةِ. وهو يضِنُّ على الكلبِ بعَظْمٍ، وعلى الجاريةِ بعِقْدٍ مَنْظومٍ. كأنَّه في الأرضِ مُخَلَّدٌ وإنْ فَنِيَتِ الأرضُ بِما عليها. وكَثيرٌ مِنَ الذين يَتْلونَ الآيةَ: (مَثَلُ الذين يُنْفِقونَ أَمْوالَهم في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مئةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يشاءُ واللهُ واسِعٌ عليمٌ)[2]. وهم بها مُصَدِّقونَ، ومِنْ خَشْيَةِ اللهِ مُشْفِقونَ، يَضِنُّونَ بالقليلِ التافهِ، ولا يَسْمَحونَ بشيءٍ للسَّائِلِ أو رجلِ الدينِ. فكيف تكونُ حالُ مَنْ يُنْكِرُ حَديثَ الجزاءِ، ولا يقبلُ عَنِ الفانيةِ حُسْنَ العزاءِ؟

أبو طلحةَ واليهودي

وقد مَرَّ بِالشيخِ الجليل الحديثُ النبويُّ الذي معناه أنَّ (أبا طَلْحة) خاصَمَ يَهودياً إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ. وكان لــ (أبي طلحةَ) حَديقةُ نخْلٍ. وبينه وبين اليهودي خِلافٌ على نَخْلةٍ واحِدةٍ. فقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ لليهوديِّ: "أتسمَحُ له بالنَّخْلَةِ حتى أضمنَ لك نَخْلَةً في الجنةِ؟".

فقالَ اليهوديُّ: "لا أَبيعُ عاجِلاً بآجِلٍ".

فقالَ أبو طلحةَ: "أَتَضْمَنُ لي يا رسولَ اللهِ كما ضَمِنْتَ له حتى أُعْطِيَهُ الحديقةَ؟".

فقالَ: "نعم".

فرضِيَ أبو طلحةَ بِذلك. وأخذَ اليهوديَّ وذهبَ إلى حَديقته. فوجَدَ فيها امرأتَه

1- سورة (يوسف) الآية 29.

2- سورة (البقرة) الآية 261.

وأبناءَه وهمْ يأكُلون مِنْ ثَمرِها. فجَعَلَ يُدْخِلُ إصْبَعَه في أفواهِهم فيُخْرِجُ ما فيها مِنَ التَّمْرِ. فقالت له امرأتُه: "لِمَ تَفعلُ هذا ببنيكَ؟".

فقال: "إني قد بِعْتُ الحديقة".

فقالت له: "إنْ كنتَ بِعتها بعاجِلٍ فبئسَ ما فعلتَ".

فقصَّ عليها الخبرَ ففرِحَتْ بِذلك.

حِرْصُ الناسِ

ولو قِيلَ لبعضِ عُبَّادِ هذا العَصْرِ: "أَعْطِ لَبِنَةً مِنْ حَصىً صَغيرٍ لِتُعْطَى في الآجِلَةِ لَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، لَما أجابَ. ولو سُئِلَ أَمَةً عَوْراءَ يُعَوَّضُ مِنْها في الآخِرةِ بِحَوْراءَ لَما فَعَلَ. ويكونُ هذا الرجلُ مِنَ المُصَدِّقينَ بالآخِرةِ والأنبياءِ والكُتُبِ السَّماوِيةِ. فكيفَ يكونُ مَنْ يُنْكِرُ ذلكَ بالتَّكذيبِ، ويَجْحَدُ وقوعَ التَّعْذيبِ؟

مِيتةُ فاذوه

وأما (فاذوه)[1] فلَقِيَ المَوْتَ في الطريقِ بمِهْراسٍ. فلا إلهَ إلا اللهُ. ما أُعِدَّ المِهراسُ لِيُشَقَّ به الراسُ. ولكنْ لكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ. والشرُّ يأتي سَريعاً ويُصيبُ الناسَ. و(فاذوه) هذا مَنَّتْهُ نفسُهُ التوبةَ فكانَتْ كَصاحِبةِ (امرئِ القيس[2]) لَمَّا قال لها:

مَـنَّـيْـتِـنـا بَـغَـدٍ وبَـعْـدَ غَـدٍ حـتـى بَخِلْـتِ كَـأسْـوأِ الـبُـخْـلِ

ويُحْكى عن (أبي الهُذَيلِ العَلاَّفِ[3]) أنه كانَ يمرُّ في الأسْواقِ على حِمارٍ ويقولُ: "احْذَروا توبةَ غُلامي". وكان له غَلامٌ يَعِدُ نفسَه بِالتَّوْبَةِ. فسَقَطَتْ عليه آجُرَّةٌ فقَتلتْهُ. وخَدَعتْهُ الدنيا الغَرَّارةُ.

1- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن تأخير فاذوه للتوبة حتى وقعَ المِهْراسُ على رأسه في الطريق فمات ولم يَتُبْ.

2- مرت ترجمته.

3- (أبو الهذيل العَلاف): محمد بن الهذيل البصري. شيخ المعتزلة ومن أكبر علماء البصرة ومُتَكلِّميهم. ولد عام 135 هـ 752 م. توفي عام 235 هـ 849 م وقد تجاوز المئة.

بَدءُ التَّعارُفِ بين المعريِّ وابنِ القارح

وأولُ ما سَمْعْتُ بأخبارِ الشيخِ – أدامَ اللهُ تَثْبيتَ الفَضائِلِ بِبقائِهِ – مِنْ رجلٍ مِنْ مَدينةِ (واسِط) يستعدُّ لإتقانِ عِلْمِ (العَروضِ). فقد ذكرَ أنه شاهَدَه في (نَصيبين[1]) عندما مَرَّ فيها.

وقد شاهدْتُ عند (أبي أحمدَ عبدِ السلامِ بنِ الحُسَيْنِ المَعْروفِ بالواجْكا[2]) رَحِمَهُ اللهُ، وكانَ مِنْ أحرارِ الناسِ، كُتُباً مَأْخوذَةً عن سَماعٍ لرجلٍ مِنْ أهلِ (حلبَ). وما أشكُّ أنَّ صاحِبَ السَّماعِ هو الشيخُ أيَّدَ اللهُ شَخْصَهُ بالتوفيقِ. فهو المَشْهورُ الذي لا نَظيرَ لهُ. وهو لا يَحْتاجُ إلى تَعريفٍ بالشعرِ لأنَّ شَرفَهُ وعِلْمَهُ مَعْروفانِ. ويكفي ذِكرُ اسْمِهِ حتى يُعرَفَ. سألَ (البَكْرِيُّ) المَعْروفُ بعلمِ الأنْسابِ (رؤبةَ): "مَنْ أنتَ؟".

قالَ رُؤبةُ: "أنا ابنُ العَجَّاجِ".

قالَ (البكريُّ): "قَصَّرتَ وعَرَّفتَ".

والشيخُ الجليلُ في الاشْتِهارِ كما سَطَعَ ضَوْءُ النهارِ. وكما قالَ (أبو تمام الطائي):

تَـحْـمـيـه لألاؤه أو لَوذَعِيَّـتُـهُ مِنْ أنْ يُذالَ بِمَنْ؟ أو مِمَّنِ الرجلُ؟[3]

ولو صَحَّ التناسُخُ بين الأُمَمِ لَقيلَ إنه (عليُّ بنُ مَنْصورٍ[4]) الذي مَدَحَهُ (المتنبي) فقالَ فيهِ:

في رُتْبَةٍ حُجِبَ الـورى عن نَيْلِها وعـلا فَسَـمَّوهُ علـيَّ الحاجِبـا[5]

1- (نَصيبين): مدينة تجارية هامة تقع في شمال الجزيرة في بلاد الشام. وهي اليوم في الأراضي التركية مقابل مدينة القامشلي الحدودية.

2- (عبد السلام بن الحسين): أبو أحمد الواجْكا البصري اللغوي. تولى النظر في دار الكتب في بغداد والإشراف عليها. توفي عام 405 هـ 1014 م.

3- البيت من قصيدة لأبي تمام في مدح المعتصم. و(اللَوْذَعِيَّةُ): الفهم والبراعة والألمعية. و(ذالَ): قلَّتْ قيمتُه. والمعنى أنَّ ألمعيتَه وشهرتَه تحميانه مِنْ أنْ تقِلَّ قيمتُه بالسؤال عنه وأنْ يُقالَ: مَنْ هو هذا الرجل؟.

4- (علي بن منصور) الحاجب. من أعلام القرن الرابع. مدحه المتنبي.

5- (الورى): الناس. والمعنى أنه نال رتبةً لا تصير لغيره من الناس. وظل يرتفع حتى سُمِّيَ (علي الحاجب).

فقد حَجَبَ طُلاَّبَ الأدبِ عن رُتبتِه. فنزلَ في رأسِ الجَبلِ لا في سَفْحِ الوادي.

شيوخُ ابنِ القارح

وأما العلماءُ الذين لَقِيَهم الشيخُ الجليلُ فأولئك مصابيحُ النهارِ وكواكِبُ الليلِ. وإنَّ في النظرِ إليهم شرفاً. فكيف بِمَنْ اغْتَرَفَ مِنْ بحرِ عِلْمِهم غُرَفاً؟ وإنَّما أقولُ ذلك على الإيجازِ والاقتصارِ. ولعله قد نقلَ بحارَ عِلمِهم إليه بقلمِهِ وفَهمِهِ. ففتَحوا له الخزائنَ التي لا يستطيعُ أحدٌ الغوصَ إليها.

أخذَ عن (الكَتَّاني[1]) سُوَرَ التَّنزيلِ وفازَ بثوابٍ جَزيلٍ. فكأنَّما لقَّنَه إياها الرسولُ. ولا يُنالُ المطلوبُ إلا بهذه الدرجةِ. وكأنه أخذها عن (جبريلٍ) مِنْ دون تغييرٍ فيها أو تبديلٍ.

وسَهَّلَ له شيوخُه ما كان صعباً مِنْ جِبال اللغة العربية. فصارَ الصعبُ مِنْها مثلُ (كتاب سيبويه) كأنه الأرضُ السهلةُ. فغاصَ في بحرِ اللغةِ كأنه يسبحُ فيه مِنْ غيرِ قاربٍ. وأما انحيازُهُ إلى (أبي الحسنِ)[2] الوزيرِ رَحِمَه اللهُ، فقد كانَ ذلك الرجلُ سيِّداً، ولِمَنْ ضَعُفَ مِنْهم مُؤَيِّداً، ولِمَنَ قَوِيَ منهم مُصاحِباً ووادَّاً. وكان يحْمي هؤلاءِ وهؤلاءِ مِنْ مَصائِبِ الدهرِ. فهو كما قالَ القائلُ:

وإذا رأيتَ صديقَه وشَقيقَهُ لم تَدْرِ أيُّهُما ذوو الأرحامِ

وكما قالَ (أبو تمام الطائي):

كُلُّ شِعبٍ كنتُمْ بِهِ آلَ وَهْبٍ فهو شِعبي وشِعبُ كلِّ أديبِ

وإذا كانَ (أبو الحسنِ الوزيرُ) قد سَجَنَ المتنبي، فقد جَنى المتنبي ذلك على نَفْسِهِ كما قيلَ في المَثَلِ السَّائِرِ: (على نَفْسِها جَنَتْ بَراقِشُ[3]).

1- (الكتاني): عمر بن إبراهيم البغدادي. شيخ القراء في القرن الرابع. ولد عام 300 هـ 912 م وتوفي عام 390 هـ 1000 م عن تسعين عاماً.

2- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن حَبْسِ أبي الحسن الوزير للمتنبي.

3- قيل إنَّ (براقش) كلبةٌ كانت لقوم من العرب. فأغار عليهم قومٌ آخرون فهربوا وهربتْ معهم. فاستَدَلَّ المُغيرون على الهاربين بنُباحها حتى ظفروا بهم وبها.

وذكرَ (الصُّولِيُّ[1]) أنه دَخَلَ على الخليفةِ (المُتَّقي[2]) العباسيِّ بعدما قَتَلَ (بنو حَمْدانَ) (محمدَ بنَ رائقٍ[3]) فسألَه عن أبياتِ (نهشل بن حَرِّي[4]):

ومُوَلّــىً عَصانــي واسْــتَبَدَّ بِرأيِه ... كمــا لــم يُطَــعْ بالبَقَّتَيْــنِ قَصيرُ[5]
فلمَّــا رأى مــا غِــبُّ أمْــري وأمْرِهِ ... ونــاءَتْ بأعْجــازِ الأُمــورِ صُــدورُ
تَمنَّــى نئيشــاً أنْ يكــونَ أطاعني ... وقــد حَدَثــتْ بعــدَ الأمورِ أمــورُ[6]

ملاحظة

يقالُ: (فعل كذا نئيشاً): أي بعد ما فاتَ الأوانُ. قال الشاعرُ:

إنَّــكَ يــا قُطَــيْــنُ ولســتَ منهــم ... لألأمُ مــالــكٍ عَــقِــبــاً وريــشــا[7]
تنــاءَتْ مِنكُــمُ عُــدُسُ بــنُ زيــدٍ ... فــلــم تَــعْرِفْــكُــمُ إلا نــئــيــشــا

عودةٌ إلى السياق

والشُّبَّانُ الذين يَشْعُرونَ في أنفسِهِمْ رغبَةً بالنُّهوضِ في الحياةِ، يَبغونَ الوُصولَ

1- مرت ترجمته.

2- (المتقي): هو إبراهيم بن جعفر المقتدر بن المعتضد أبو إسحاق. ولد عام 295 هـ 908 م. بويع بالخلافة عام 329 هـ 929 م. وخُلِعَ بعد أربع سنوات وزُجَّ به في السجن حتى مات فيه عام 357 هـ 968 م.

3- (محمد بن رائق): ولي شَرِطَةَ (المقتدر) عام 319 هـ 931 م. وظل يرتقي حتى صار أمير الأمراء. وقد اغتاله (ناصر الحمداني) عام 330 هـ 942 م.

4- (نهشل بن حَرِّي): شاعر جاهلي مُجيد. أدرك الإسلام ولم يلتق بالنبي (ص). كان مع علي بن أبي طالب في حروبه. توفي حوالي 45 هـ 665 م

5- (المُوَلَّى): مَنْ جَعلْتَه ولياً لي. (البقَّتان): حِصْنان كانا في الحيرة لجذيمة الأبرش.
و(جَذيمة) هذا ثالث ملوك الحيرة التنوخيين. وأصلُ لقبه (الأبرص) لِبَرَصٍ كان فيه. فكره هذا الاسم واستبدله بالأبرش. كان أعظم ملوك العرب في الجاهلية. قتلته الزباء انتقاماً لأبيها الذي قتله جذيمة.
و(قَصير): كان عبداً لجذيمة. وكان صاحبَ رأي عاقلاً لبيباً. وكان خازنَ ماله وصاحِبَ أمره. وقد حذَّر الملكَ من الزباء فلم يستمع إليه فقُتِل. والمعنى أن هذا الذي جعلتُه ولياً لي عصاني واستبد برأيه كما عصا جذيمةُ الأبرشُ قصيراً.

6- (نئيشا): أخيراً وبعد فوات الوقت. والمعنى أنه بعد أنْ عصاني ورأى نتيجة عِصيانه لي بعد أن أُثْقِل كاهله بصعاب الأمور، تمنى أنْ يكون قد أطاعني. لكن أموراً جديدة حدثت فلم تنفع أمنيته.

7- (العَقِب): الأولاد. (الريش): المال. والمعنى إنك يا قُطَيْنُ ألأم بني مالك في عَقِبِك ومالِك.

إلى المَراتِبِ الشريفةِ العاليةِ. ولكنْ هل يَسْلَمونَ مِنَ الوقوعِ في الوِهاد؟ فربما وَثبَ مَنْ يطلبُ الارتفاعَ وثبةً واجَهَتْ مِنَ القَدَرِ انْحِرافاً فوقَعَ صاحِبُها. فَلْيعْلَمِ الإنسانُ أنَّ القليلَ مِنْ مَتاعِ الدنيا، يُغنيهِ عن جَمْعِ المالِ. ولْيَعلَمِ الإنسانُ أيضاً أنَّه مَهْما عَمِلَ واجْتهدَ، فإنه لا نَجاةَ له مِنَ القَضاءِ المَحْتوم. وآهٍ مِنْ عُمْرٍ بِالمَوْتِ مَخْتوم. وما أَقولُ هذا القَوْلَ إلا لأنَّ المَثَلَ السَّائِرَ يقولُ: (رأْيُ الشَّيخِ خَيْرٌ مِنْ مَشْهدِ الغلامِ). أي أنَّ الشيخَ بحنكتِه في الحياةِ يرى الرأيَ بالتفكيرِ أفضلَ مِنْ مُشاهدةِ الفتى للأمورِ التي تجري أمامه.

وسَــوْرَةِ عِلْمٍ لم تُسَــدَّدْ فأَصْبَحَتْ وما يُتَمــارى أنَّها سَــورَةُ الجَهْلِ[1]

الحجُّ وأنواعُ التَّلْبِيَةِ فيه

وأما حِجَجُه الخَمْسُ[2]، فهو – إنْ شاءَ اللهُ – يَستَغْني يومَ الحَشْرِ بالأولى مِنْهُنَّ. وهناك يَنْظُرُ إلى مَنْ جاءَ بعدَهُ مِنْ أهلِ العِلْمِ. ولا رَيْبَ أنَّهُ يَجِدُ فيهم مَنْ لم يَحْجُجْ. فَيَتَصَدَّقُ عليهم بالأربَعِ.

وكأني به – والحُجَّاجُ يَرفَعونَ أصْواتَهم بالتَّلْبِيةِ – وهو يفكِّرُ في تَلْبِياتِ العَربِ وأنها جاءَتْ على ثلاثةِ أنواعٍ:

- مَسْجُوعٍ لا وزنَ له.
- ومَنْهوكٍ.
- ومَشْطورٍ.

فالمَسْجوعُ كقولِهم:

لَبَّيْكَ ربَّنا لَبَّيْكْ * والخيرُ كُلُّه بيديكْ

1- (السَّوْرة): الوثبة. (يُتمارى): مبني للمجهول مِنْ مارى يتمارى. يُجادل. والمعنى أنَّ رُبَّ رغبة بالعلم تنقلب بصاحبها إلى الجهل إذا لم يعرف كيف يُسدِّدُ خُطاه.

2- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح: (وحَجَجْتُ خمسة أعوام وعدتُ إلى مصر).

والمَنْهوكُ (وهو الذي نَقَصَتْ مِنْه تَفعيلَةٌ فبَقِيَ على تَفعيلتَيْنِ) على نَوعَيْنِ:

أحدُهما مِنْ بَحرِ الرَّجَزِ كقولِهم:

لَـبَّـيْـكَ إنَّ الـحَـمْـدَ لـكْ والـمُـلْـكَ لا شَـريـكَ لـكْ
إلا شَـــريـــكٌ هـــو لـكْ تَـمْـلِـكُـه ومـــا مَـلَـكْ
أبـو بَـــنـــاتٍ بَـــفَـدَكْ[1]

وهذه مِنْ تلبيات الجاهلية. و(فَدَك) كان فيها يومئذٍ أصنامٌ.

ومِنْ مَنْهوكِ الرجَزِ أيضاً قولُهم:

لبَّيْـكَ يـا مُعْطـي الأَمِـرْ لبَّيْـكَ عـن بَنـي النَّمِـرْ[2]
جئنـاكَ فـي العـام الزَّمِـرْ نَـأْمَـلُ غَـيْـثـاً يَـنهَـمِرْ[3]
يَـطْـرُقُ بالـسيلِ الخَمِـرْ[4]

وثانيهما: مِنْ مَنْهوكِ البحرِ المُنْسَرِحِ. وهو جِنْسانِ:

أحدُهما: في آخِرِه ساكِنان. كقولهم:

لَـبَّـيْـكَ رَبَّ هَـمْـدانْ مِـنْ شـاحِطٍ ومِـنْ دانْ[5]
جئنـاكَ نَبغـي الإحسـانْ بِكُـلِّ حَـرْفٍ مِـذْعـانْ[6]
نَطـوي إليـك الـغِـيطـانْ نَـأْمَـلُ فَضْـلَ الـغُـفْـرانْ

والآخرُ لا يَجْتمِعُ فيه ساكِنانِ. كقولِهم:

1- (فَدَك): قرية في الحجاز. أقام النبي معها صلحاً عام 7 ه. والمقصود هنا صنمٌ كان في فَدَك. وهو – حسب التلبية – شريكٌ لله.

2- (الأَمِر): الرجلُ المُبارَك الذي يأتيه المال. والمعنى أنك تُعطي الرجالَ المالَ. و(بنو النَّمِر): قبيلة.

3- (الزَّمِر): القليلُ الخَيْرِ. يقال: (زَمِرَ فلان): كان قليل المروءة فهو زَمِرٌ. و(زَمِرَت الشاة): كانت قليلة الشَّعر. و(عطِيَّةٌ زَمِرَة): قليلة.

4- (الخَمِرُ): الكثير الخَمْر وهو الشجر الكثير الملتفُّ. يقال: (أخمرت الأرضُ): كثر شجرُها. وهنا يُشَبَّه السيلَ لغزارته بالأرض الكثيرة الشجر.

5- (الشاحِطُ): البعيد. و(الداني): القريب.

6- (الحَرْفُ): الناقة الضامِرَةُ الصلبة. شُبِّهت بحَرْفِ الجبل. (مِذْعان): طيِّعة مُذعِنة لراكبها

لَـبَّـيْـكَ عـن بَـجـيـلَـةْ الـفـخْـمَـةِ الـرَّجـيـلَـةْ[1]
ونِـــعْـمَـتِ الـقـبـيـلـةْ جـاءَتْـــك بـالـوَسـيـلـةْ
تُـــؤَمِّـــلُ الـفَـضـيـلَـةْ

وربما جاؤوا بالتلبية على قوافٍ مُختلِفة كما رَوَوْا في تلبيةِ (بكرِ بنِ وائل):

لَـبَّـيْـكَ حـقَّـاً حَـقـا تَـــعَـــبُّـــداً ورِقَّـــــا
جِـئـنـاك لـلـنَّـصـاحَـةْ لـم نـــأتِ لـلـرَّقـاحَـةْ[2]

والمَشْطورُ جِنسان:

أحدُهما عند (الخليل بن أحمد) مِنَ الرجَزِ كما رُوِيَ في تَلْبِيَةِ (تميم):

لَبَّيْكَ لولا أنَّ بَكراً دونَكا
يشكُرُك الناسُ ويَكْفُرونَكا[3]
مازال منَّا عَثَجٌ يَأْتُونَكا[4]

والجنسُ الآخَرُ مَنَ البحرِ السَّريعِ. وهو نوعان:

أحدُهما يلتقي فيه ساكِنانِ كما يَروونَ في تلبية (هَمْدان):

لَـبَّـيْـكَ مـعَ كُلِّ قَـبـيـلٍ لَـبُّـوكْ هَـمْـدانُ أبْنـاءُ المُلـوكِ تدْعـوكْ
قـد تَرَكـوا أصنامَهـم وانْتابـوكْ فاسْـمَعْ دُعاءً في جميـعِ الأُمْلوكْ[5]

والثاني هو المَشْطورُ الذي لا يَجْتمِعُ فيه ساكِنانِ كقولِهم:

لَبَّيْكَ عن سَعْدٍ وعن بنيها

1- (الرَّجيلة): القادرة على المشي. يقال: (رجلٌ رَجيل): يقدر على السير الصعب. و(بَجيلة): قبيلة.
2- (النَّصاحة): الإخلاص. ومنه (توبةٌ نَصوحٌ). و(الرقاحة): الكسب والتجارة. و(الرَّقاحي): التاجر.
3- يقصد أن بكراً قد انفردوا بالكفر بالرب.
4- (العَثَج): الجماعةُ من الناس. والمعنى أنَّ جماعتنا يأتون إليك.
5 (انتابه): قصد إليه. (الأُمْلوك): اسمُ جَمْعٍ بمعنى المُلوك. وقيل: (الأملوك قوم من العرب). وزاد بعضهم أنهم مِنْ حِميَر. وهذا المعنى الأخير هو الأصح لأن (هَمْدان) حِمْيريون.

وعن نساءٍ خَلْفَها تَعْنيها

سارت إلى الرَّحْمَةِ تَجْتَنيها

والمَوْزونُ مِنَ التلبيةِ يجِبُ أن يكونَ كُلُّه من الرجَزِ عند العربِ. ولم تأتِ التلبيةُ بالقصيدِ مِنْ غيرِ الرجزِ. ولعلهم لَبَّوْا بالقصيدِ ولم تنقلْه الرواةُ.

وكأنِّي بالشيخِ الجليلِ لَمَّا اعْتَزَمَ على استِلامِ الرُّكْنِ ذكَرَ البَيتيْنِ اللذين ذَكَرَهُما (المُفَجَّعُ البِصريُّ[1]) في كتابِ (حدِّ الإعراب):

لـو كان حَيًّـا قبلهـنَّ ظَعائِنـاً ... حَيَّـا الحَطيـمُ وُجوهَهـنَّ وزمـزمُ

لكـنـه عَمَّـا يُطـيـفُ بِـرُكْـنِـه ... مِنْهُـنَّ صَمَّاءُ الصَّدى مُسْـتَعْجِمُ[2]

فيَعْجَبُ مِنْ خُروجِ الشاعرِ مِنَ المذكَّر إلى المؤنث. فالركنُ (مذكرٌ). و(صمَّاءُ) مؤنث. وإذا حُمِلَ هذا الكلامُ على تقديرِ (صخرةٌ صماءُ)، فحُذِفَ المَوصوفُ وهو (الصَّخرةُ) وأُقيمَتِ الصفةُ (صماءُ) مَقامَهُ لم يكن هذا التقديرُ بعيداً.

وكذلك يذكُرُ قولَ (مجنون ليلى):

ذكرتُـكِ والحَجيـجُ لـه عَجيـجٌ ... بمكَّـةَ والـقـلـوبُ لهـا وَجيـبُ

فقلـتُ ونحـنُ فـي بَلَـدٍ حَـرامٍ ... بِـهِ لِـلـهِ أُخْـلـصَـتِ القلوبُ

أَتـوبُ إليـكَ يـا ربَّـاهُ مِمَّـا ... جَنيْـتُ فقـد تظاهـرتِ الذنـوبُ

فأمَّـا مِـنْ هـوى ليلـى وحُبِّـي ... زِيـارتَـهـا فـإنـي لا أتـوبُ

فيقول: "ألم يقلِ البِصريُّون إنَّ (هاء النُّدْبَة) حقُّها السكونُ مثلُ (واغوثاهْ) (وامِعتصماهْ). والهاءُ في (رباه) مِثلها؟ فكيف حرَّكها الشاعرُ بالضمِّ فقال (يارباهُ)؟".

1- (المُفَجَّع البِصري): أبو عبد الله المعروف بِمِضرابِ اللبن. أخذ عن ثعلب وعن غيره. كان شاعراً شيعياً. وكان كاتب البصرة وشاعرها وأديبها. كان يجلس في الجامع فيُكتَب عنه ويُقْرَأُ عليه الشعرُ واللغةُ والكتب. توفي عام 327 هـ 939 م.

2- معنى البيتين أنه لو كان البيتُ يُحيِّي أحداً من الظعائن من قبل، لحيَّى وجوهَهُنَّ الحَطيمُ وزمزمُ. لكن الركن صخرةٌ صماء لا تُكلِّم من يطوف به.

ويردُّ بنفسِه على هذا القولِ: "يَجوزُ أنْ يكونَ مَقْصدُهم أنَّه يَجِبُ تَسْكينُ (هاءِ النُّدْبةِ) في الكلامِ المَنْثورِ. فإنَّ الشعرَ المَنْظومَ تَجوزُ فيه أشياءُ لا تَجوزُ في سِواهُ".

ولعلَّه قد ذكرَ أبياتَ (عمرَ بنِ أبي ربيعةَ[1]) في طَوافِهِ:

أُطَـوِّفُ بالبيـتِ فيمَـنْ يُطَـوِّفُ ... وأرفَـعُ مِـنْ مِـئـزَري الـمُـسْـبَلِ
وأسْـجُدُ باللَّيْـلِ حتـى الصَّبـاحِ ... وأتْـلـو مـن الـمُحْكَـم الـمُـنْـزَلِ
عسـى فـارِجُ الكَرْبِ عن يوسِـفٍ ... يُـسَـخِّـرُ لـي رَبَّـةَ الـمَحْـمَـلِ

فقالَ: "ما أيسَرَ لَفْظَ هذه الأبياتِ لولا أنَّه كانَ يَجِبُ أنْ يقولَ: (أنْ يُسَخِّرَ) لأنَّ تقديرَ جملة (يُسخَّر) في مَحَلِّ نَصبِ خبرِ (عسى). لكنه حذفَ (أنْ)". فسبحانَ اللهِ. لا تَعْدِم الحسناءُ مَنْ يذُمُّها. (وأيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ[2])؟

ولعله ذكرَ أيضاً عِندَ النَّفْرِ مِنْ (مِنىً) هذين البيتين لِعمرَ بنِ أبي ربيعةَ أيضاً:

ودِّعي القلـبَ يا قُرَيْـبَ وجُودِي ... لِـمُحِـبٍّ فِـراقُـه قـد أَحَمَّـا[3]
ليـس بَيْـنَ الحيـاةِ والمَـوْتِ إلا ... أن يَـرُدُّوا جِـمـالَهـم فَـتُـزَمَّـا[4]

كما ذكر قولَ (قيسِ بنِ الخَطيمِ[5]):

ديـارُ التي كادَتْ ونحنُ على مِنىً ... تَحُـلُّ بنـا لـولا نَجَـاءُ الرَّكائـبِ[6]
ولـم أرَهـا إلا ثَلاثـاً علـى مِنـىً ... وعَهْـدي بهـا عَـذْراءَ ذاتَ ذوائـبِ

1- (عمر ابن أبي ربيعة): هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي. شاعر مشهور. ويقال إنه أشعر قريش. اختصَّ بشعر الغزل. وكان وسيماً بهي الطلعة. ولد عام 23 هـ 643م. وتوفي عام 93 هـ 711 م.

2- من قول النابغة الذبياني:

ولسـتَ بِمُسْـتَـبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ؟

3- (قُرَيْبَ): اسم مصغَّر من (قُريبَة) اسم فتاة. (أَحَمَّ): من (حَمَّ الشيءُ): قَرُبَ. و(جُودي): فعل أمر. والمعنى أنَّ الشاعر يطلب من حبيبته أن تودِّعَه وأن تَجودَ عليه لأنه قد اقترب فراقُه.

4- (زَمَّ الناقةَ): جعل لها زِماماً. أي وضع لها الرسنَ ليسوقها.

5- (قيس بن الخطيم): بن عدي الخزرجي. أدرك النبي ولقيه وانصرف على أنْ يستمتع بالخمر والنساء ثم يعود ليسلم. فقُتِلَ قبل أن يعود. وهو شاعر مُجيد حماسي.

6- (النَّجاء): الإسراع. والمعنى أنها كادت تنزل عندنا ونحن في منى لولا إسراع القافلة بالرحيل.

تَبَدَّتْ لنا كالشمسِ تحتَ غَمامَةٍ بدا حاجِبٌ منها وضَنَّتْ بِحاجِبِ

وقولُ الشاعر (تحُلُّ بنا) يُحتَمَلُ أنْ يكونَ (تحُلُّ فينا).

ولأنَّ الحِجَجَ الخَمْسَ التي أتى بها الشيخُ كانَتْ مع مُجاوَرةٍ للبيتِ الحَرامِ، فقد أقامَ في (مكةَ) حتى صارَ أعلمَ بها مِنْ عِلْمِ الغُرابِ بِوَكْرِهِ، ومِنْ عِلْمِ طيورِ القَطا بترابها الذي تَبيضُ فيه، ومِنْ عِلْمِ الحِرباءِ بالشجرِ الذي تَأْوي إليهِ.

وإذا كانَ الشيخُ الجليلُ قد سافَرَ إلى اليَمنِ أو غيرِهِ، وصارَ يَحِجُّ مِنْ تلك الأماكنِ، فذلك أعْظَمُ درجَةً في الثَّوابِ. ويحقُّ له بعدها العودةُ إلى بلدِهِ.

ولعلَّ الشيخَ وَقَفَ في (المُغَمَّسِ[1])، وتَرَحَّمَ على (طُفيلٍ الغَنَوِيِّ[2]) لِقولِهِ:

هل حَبْلُ شَمَّاءَ بعد الهجْرِ مَوْصولُ أم أنتَ عنها بَعيدُ الدَّارِ مَشغولُ

إذ هيَ أَحْوى مِنَ الرَّبْعِيِّ حاجِبُه والعَيْنُ بالإثْمِدِ الحَارِيِّ مَكْحولُ[3]

تَرْعى أسِرَّةَ مَوْلِيٍّ أطاعَ لها بالجَزْعِ حيثُ عصى أصحابَه الفيلُ[4]

وإنَّما أَطْلقْتُ التَّرَحُّمَ على (طُفَيْلٍ) إذْ كانَ بعضُ الرواة يَزْعُمُ أنه أدركَ الإسلامَ. ورُوِيَ له مدحٌ في النبي صلى اللهُ عليه وسلم ولم أسْمعْهُ في ديوانه وهو:

وأبيكَ خَيْرٍ إنَّ إبْلَ مُحَمَّدٍ غُزُلٌ تَناوَحُ أنْ تَهُبَّ شَمالُ

وإذا رأينَ لدى الفِناءِ غَريبَةً فاضَتْ لَهُنَّ مِنَ الدُّموعِ سِجالُ

وترى لها حَدَّ الشتاءِ على الثَّرى رَخَماً وما تَحيا لهُنَّ فِصالُ

1- (المُغَمَّس): موضع قرب مكة في الطريق إلى الطائف.

2- (طُفَيلُ الغنوي): هو طفيل بن عدي بن كعب. من بني غَنيٍّ من قيس عيلان. شاعر جاهلي مشهور. وهو من أوصف الناس للخيل حتى سمي (طفيل الخيل).عاصر النابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى. وكان يسمى (المُحَبِّر) لجودة شعره. وهذا الوصفُ مِنْ (حبَّرَ الشيءَ): زَيَّنَه.

3- (الأحوى): الظبي. (الرَّبعي): الذي ولد في الربيع. (الإثْمِد): الكحل. (الحارِيّ): نسبة إلى (الحِير). والمعنى أن هذه الفتاة تشبه الظبي الفتي الذي حاجبه وعيناه مكحولتان بالإثمد المجلوب من الحيرة.

4- (الأَسِرَّة): ج سِرٍّ وهو بطنُ الوادي. (المَوْلِيُّ): الذي توالى عليه المطر. (الجَزْع): اسم موضع. و(الفيل): هنا هو فيل أبرهة الحبشي حينما أراد غزو مكة في عام الفيل. والمعنى أن هذه الفتاة تراقب بطن الوادي الذي أصابه المطر في المكان الذي عصا فيه الفيلُ أصحابَه فلم يتوجَّه إلى مكة.

ولعل الشيخَ الجليلَ يُنْشِدُ أيضاً أبياتَ (ابنِ أبي الصَّلْتِ الثّقَفي[1])

إنَّ آيـــاتِ ربِّـنـا ظـاهِـراتٌ ... مـا تَمـارى فـيـهـنَّ إلا الكَفـورُ
حَبَـسَ الفيـلَ المُغَمَّـسِ حتـى ... ظَلَّ يَـحْـبـو كأنـه مَـخْـمورُ[2]
كلُّ ديـنٍ يـومَ القيامَـةِ عنـدَ اللهِ ... إلا ديـــنَ الـحَـنـيـفَـةِ بُـورُ

ولا ريبَ أنه تَخطِرُ له أبياتُ (نُفَيْل)[3]:

ألا حُـيِّـيـتِ عَـنَّـا يـا رُدَيْـنـا ... نَعِمْناكُـمْ مـع الإصْبـاحِ عَـيْنـا[4]
رُدَيْنَـةُ لـو رأيْـتِ، فـلا تَرَيْـهِ، ... لـدى جَنْـبِ المُغَمَّـسِ مـا رأَيْـنـا
إذن لَعَذَرْتِنـي ورَضيـتِ أمْـري ... ولـم تَأْسَـيْ علـى مـا فـاتَ بيْنـا
حَمَـدْتِ اللـهَ إذ أَبْصَـرْتِ طَيْـراً ... وحَصْـبَ حِجـارةٍ تُلْقَـى عَلَيْنـا[5]
وكلُّ القَـوْمِ يسـألُ عـن نُفَيْـلٍ ... كـأنَّ عَلَـيَّ للحُـبـشـان دَيْـنـا

وليت شعري هل قَرَنَ الشيخُ الحجَّ بالعمرةِ أم أفردَهُ دونَ عُمرة؟ وأرجو أنْ لا يكونَ قد لَقِيَتْهُ فتاةٌ تعرِضُ له أنْ يتزوجَها زواجَ مِتعةٍ مُستندَةً إلى فتوى (ابنِ عباسٍ) في إباحَتِهِ لزواجِ المِتعةِ. ولعله تذكَّرَ قولَ القائلِ:

قالتْ وقد طُفْتُ سَبْعاً حولَ كَعبتِها ... هل لكَ يا شَيْخُ في فتوى ابنِ عباسِ؟

1- (ابن أبي الصلت): هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي. قرأ كتب الدين ورَغِبَ عن الأوثان. وأُخبِرَ أنه سيظهر نبي فظن أنه هو النبي. فلما بُعِث محمد (ص) كفر به حسداً له. وكان النبي يقول عنه: (آمَنَ لسانُه وكفر قلبه). توفي عام 5 هـ 627 م.

2- (المغَمَّسِ): مجْرور على تقدير أنه مضاف إليه لكلمةِ (موضع) المحذوفة. وهو المكان الذي حُبِس فيه الفيل.

3- (نُفَيْل): بن حبيب بن عبد الله الخثعمي. أسره أبرهة الحبشي حين كان يستعدُّ لدخول مكة. فافتدى نفسه بأنْ صار دليلاً لأبرهة. فلما نزلوا المُغَمَّس وحُبِسَ الفيل، ولى الأحباشُ الهروبَ. وصاروا يسألون عن نُفيل.

4- (نَعِمْناكم): من تحية الجاهلية وهي (عِمْتَ صباحاً وعِمتَ مساءً). وقد استبدلها الإسلام بـ (السلام عليكم). والمعنى إننا نُحييك يا ردينة بـ (نَعِمَتْ عينُكِ) في الصباح.

5- هذا الكلام مثلُ ما جاء في القرآن في سورة (الفيل): (وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سِجِّيل).

هل لكَ في رَخْصَةِ الأطرافِ ناعمَةٍ تُمسي ضَجيعَك حتى مَصدَر الناسِ؟[1]

عن مأساةِ آل جوهرَ الصقلي

فأمَّا المُنْتَسِبونَ إلى (جَوهَرَ الصِّقِلِّيِّ[2])، فَحالُهم كَحالِ (الجَوْهَرِ) الذي تَشقَّقَ وتَشَظَّى بعدَما كانَ في المَكانَةِ العالِيةِ. وكم دُرَّةٍ كانَتْ في تاجِ مَلِكٍ فلمَّا هَلَكَ رَمَتْها عَن تاجِهِ مَحْظِيَّاتُهُ. وهل نَفَعَتْهُ جُيوشُهُ عن قُدومِ الأَجَلِ؟ وكم مِنْ فَتاةٍ جَميلَةٍ شَريفَةٍ سالِمَةٍ مِنَ العَيْبِ والدَّنَسِ، أُصيبَتْ بالمَرضِ والسُّعالِ؟

***

وكأنِّي بالشيخِ الجليلِ وقد مرَّ بـ (أنطاكيَّةَ) ذَكَرَ قولَ (امرئِ القيس):

عَـلَـوْنَ بأنطاكيَّـةٍ فـوقَ عِقْمَـةٍ كَجِرْمَـةِ نَخْـلٍ أو كجَنَّـةِ يَـثْـربِ[3]

وخَطَرَ له أنَّ (النَّطْكَ) وهو اللفْظُ الذي يجِبُ أن يُشْتَقَّ منه (أَنطاكيَّة) – لو كانَتْ عربيةً – مُهْمَلٌ مَنْسِيٌّ لم يَذكُرْهُ مَشْهورٌ مِنَ الثِّقاتِ.

ولمَّا مَرَّ بـ (مَلَطْيَةَ[4]) أَنْكَرَ وزنَها وقال: (فَعَلْيَة). وهذا الوزنُ لم يُعرَفْ في العربيةِ.

1- (رَخصَة الأطراف): طرية الأطراف وناعمة. (حتى مَصدر الناس): حتى ينتهي موسمُ الحج ويعود الناس إلى بلدانهم. وهذه الفتاة تعرض عليه أن تتزوجه وتكون ضجيعته حتى انتهاء موسم الحج.

2- (جوهر الصقلي): أبو الحسن. مولى المُعِزِّ لدين الله الفاطمي وقائدُ جيوشه وفاتحُ مصر للفاطميين وباني القاهرة عام 358 هـ 969 م. والمعري هنا يُشيرُ إلى ما ذَكَرَه ابنُ القارح عن مَأساةِ آلِ جوهر على يد الحاكم بأمر الله، وكيف التقى بابن جوهر. وُلِدَ جوهر في جزيرة صقلية عام 316 هـ 928م. وتوفي عام 381 هـ 992م.

3- (العِقْمة): كلُّ ثوب أحمر. (الجِرمة): القطعة من شجرة النخيل. (يثرب): كانت مشهورة ببساتينها. والشاعر يصف الظعائن والهوادج. فقد وصلت الظعائن إلى أنطاكية وهُنَّ في هوادج مستورة بالقماش الأحمر الذي يشبه النخيلَ، أو يشبه بساتين يثرب لأنها مُزَيَّنة.

4- (أنطاكية): بلد قديم على الساحل الشمالي الغربي من سورية. وهي اليوم في الأراضي التركية. و(مَلَطْية): مدينة في الأناضول.

حكايةُ ابنِ القارح مع أبي القاسمِ المَغْرِبيِّ

وأما صَديقُهُ (أبو القاسمِ المَغْربيُّ[1]) الذي عابَهُ وطَعَنَ فيه عند ذِكْرِه، فالواجِبُ أنْ ينساهُ ويَغْفِرَ له لأنَّ المَثَلَ يقولُ: "أَعْرِضْ عَمَّنْ في القَبرِ". وإذا حَجَزَ الترابُ الرجلَ فقد انْقَضَتْ مَآرِبُه مِنَ الدنيا. ومَنِ اسْتَحَقَّ اللومَ في حَياتِهِ، فإنه يستَحِقُّ المَعْذِرَةَ في مَماتِهِ. وإذا كلَّمَهُ أبو القاسمِ بِما يُؤْذيه، فلعلَّهُ كانَ يَقصُدُ المُسامَرَةَ ولم يَقْصُدِ الإيذاءَ[2]. ومَنْ غَفَرَ ذَنْبَ حَيٍّ وهو يُلْحِقُ بِهِ الأَذاةَ، فكيفَ لا يَغْفِرُ لهُ بعدَ المَوْتِ وقد ذَهَبَتْ قُوَّتُهُ؟ والسَّلامُ على رجلٍ في قَبرِهِ، يُساوي ألفَ سَلامٍ عليه وهو بينَ الناسِ في مَجالِسِهِمْ. والشيخُ يَعْرِفُ ما قالوهُ في مَعنى البَيْتِ:

وآتي صاحِبي حيثُ وَدَّعا

أي أَزورُ قبرَهُ.

وأمَّا الذي أَنكَرَهُ عليه (أبو القاسمِ) مِنْ سُرْعَةِ بَديهَتِهِ[3]، فمَولايَ الشيخُ مَشْهورٌ في الأدبِ كَشُهْرَةِ (الحَسَنِ والحُسَيْنِ) في آلِ هاشِمٍ. فكأَنَّهُ الوَشْمُ الواضِحُ في الكَفِّ المَوْشومِ. وهل يَستَغْرِبُ أَحَدٌ سَجْعَ القُمْرِيِّ؟ أو نُزولَ القَطْرِ من السَّحابِ المُمْتَلِئِ؟

ولو بارى مولايَ الشيخُ الخُزامى بالرائِحةِ الزكِيَّةِ، لَجازَ أنْ يسبِقَها يومَ تكونُ غَضَّةً في الربيعِ. ولو بارى البُروقَ المُلْتَمِعَةَ لَسَبَقَ وميضَها بسرعةِ خاطِرِهِ. ولا

1- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن (أبي القاسم المغربي) وعن تكالبه على الجاهِ والمال، واتَّهمه بأنَّ والده (أبا الحسن المغربي) يخشى منه أن يقتله.

2- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح من أنَّ (أبا القاسم) قال له: (إني أريد أن ألعنك). فقال له ابن القارح: (العَنِّي غائباً). فقال له: (لا. في وجهك أَشْفى).

3- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن أبي القاسم حين قال له في إحدى الليالي: "أريد أن أجمع أوصافَ الشمعة السبعةَ في بيت واحدٍ. ولا يأتيني من الشعر ما أرضاه". فقلت: "أنا أفعل في هذه الساعة". فقال: "أنت أهلٌ لهذا".

فأخذت القلمَ من دواتِه، وكتبتُ بحضرتِه:

لقد أَشْبَهَتْني شَمعَةٌ في صبابتي وفي هَـوْلِ ما أَلْقى وما أَتَـوَقَّـعُ

نُحولٌ وحَـرْقٌ في فَـناءٍ ووَحْدةٍ وتَـسْهيدُ عَيْنٍ واصْفِرارٌ وأدمُـعُ

فقال: "كنتَ عَمِلْتَ هذا قبلَ هذا الوقت". فقلتُ له: "تمنَعُني سُرْعَةَ الخاطرِ وتُعْطيني عِلْمَ الغيب؟".

أَسْتَغْرِبُ مَوْقِفَ (أبي القاسم) لأنَّ في الناسِ مَنْ يكون طبْعُه المُخاصَمَةَ والمُشاتَمَةَ. فيؤذي الجَليسَ ويُكثِرُ مِنَ الكَذِبِ والتَّدْليسِ وهو يَعلَمُ أنَّ جَليسَهُ فاضِلٌ لا يَسبِقُه في رَمْيِ السِّهامِ رامٍ.

سرعةُ البديهة

وسريعو البديهةِ والعارِفونَ بأوجهِ القولِ ومَسالكِ الأمورِ أنواعٌ:

فمِنْهُم القادرُ على (الارْتِجالِ). ومولاي الشيخُ في الارْتجالِ أسرَعُ مِنَ الحِصانِ أو مِنَ المَطَرِ الغَزيرِ.

ومنهم مَنْ تَتَجَلَّى سُرعَةُ بديهتِهِ إذا كان شاعراً، في أنْ يقول نِصْفَ بيتٍ ويقولَ شاعِرٌ آخرُ النصفَ الثاني. ولا يستطيع ذلك إلا القادِرونَ. فهل تُنتِجُ الصُّخورُ زيتاً؟

ومنهم مَنْ يَقْصُد بسرعة بديهته إلى التَّحَدِّي وإظْهارِ ما لا يَستَطيعُهُ غيرُهُ. ولا يَستطيعُ هذا النوعَ إلا الأَقْوِياءُ في البلاغةِ واللغةِ.

عن ابنِ خالويه

وأما (ابنُ خالويه)[1] وإحْضارُ الكُتُبِ لِيبحَثَ عمَّا سألَه سيفُ الدولة مِنْ أمورٍ لغويةٍ، فإنه لم يَعْجَزْ عن الإجابَةِ ولا نَسِيَ. ولكنَّ الحازِمَ الذي يَحْفَظُ العِلْمَ يُريدُ التَّأكُّدَ مِنْ حِفْظِهِ بِشهادَةِ الكُتُبِ. فهو ليس مِثلَ (أبي خُبَيْبٍ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير[2]) الذي ليس عِنْدَه شيء يُعطيهِ كما قال عنه (فَضالَةُ الأسدِيُّ) حينما وَرَدَ عليه

1- يُشيرُ المعري هنا إلى (ابن خالويه) عندما وصله كتابٌ من سيفِ الدولة يتعلَّقُ بمسائل لغوية لِيردَّ عليها، فاضطربَ وأخرج من خزانته كتبَ اللغة.

2- (عبد الله بن الزبير): بن العَوَّام القرشي. أبوه أحدُ العشرة المبشرين بالجنة. أمه (أسماء بنت أبي بكر). و(خُبَيْب) اسم ولده الأكبر. ولد في المدينة عام 2 هـ 623 م. وكان أولَ مَولود فيها للمهاجرين. كان من فقهاء الصحابة. شهد موقعة (الجمل) مع أبيه وخالتِهِ (عائشة). وكان شَهْماً ذا فصاحة وقوة. لكنه كان بخيلاً. ثار على بني أمية وبويع بالخلافة عام 64 هـ 683 م. ثم حاصره الحجاج وقتله عام 73 هـ 692 م.

وطَلَبَ مِنْهُ أنْ يُعينَهُ بعدما نَفَدَتْ نَفَقَتُه ونَفَقَتْ ناقتُهُ، فردَّهُ ابنُ الزبيرِ فقالَ فيهِ:

أرى الحاجاتِ عنـد (أبي خُبَيْبِ) نَكِـدْنَ ولا أُمـيَّـةَ فـي الـبـلادِ[1]

وأين مِثْلُ (ابنِ خالويه أبي عبد الله)؟. لقد فقدتْه بلادُ الشامِ. فكانت مثلَ مكةَ عندما فُقِد فيها (هشام بن المغيرة المخزومي[2]). وقد رثاه الشاعرُ فقالَ:

أصبـحَ بَطْـنُ مكـةَ مُقْـشَـعِرَّاً كأنَّ الأرضَ لـيـَس بِـهـا هشـامُ
يَـظَـلُّ كـأنَّـه أثْـنـاءُ سَـوْطٍ وفَـوْقَ حِـفـانِـه شَـحْـمٌ رُكامُ[3]
فـلِلْكُـبَـراءِ أكْـلٌ كـيفَ شـاؤوا ولِلصُّـغَـراءِ حَـمْـلٌ واقْـتِـئـامُ[4]

أبو الطيب اللغوي[5]

و(أبو الطَّيِّبِ اللُّغوِيُّ)[6] اسمُهُ (عبدُ الواحدِ بنُ علي). له كتابٌ في (الإتْباعِ) صَغيرٌ على حُروفِ المُعْجَمِ في أَيْدي البَغداديين. وله كتابٌ يُعْرَفُ بـ (كِتاب الإبدال) قد نَحا فيهِ نَحْوَ كتابِ (يعقوبَ بنِ السِّكّيتِ[7]) في (القَلِب). وكتابٌ يُعْرَفَ

1- (أبو خُبَيْب) هو عبد الله بن الزبير. و(نَكِدْن): من النَّكَدِ وهو العُسْرُ. والمعنى أنَّ الحاجاتِ عند ابن الزبير عَسيرةٌ مفقودة. وليس بنو أميةَ الكرماءُ موجودين في البلاد. ولو كانوا موجودين لأكرموه.

2- (هشامُ بن المغيرة) بن عبد الله بن عمر المخزومي. من سادات قريش وعُظَمائها وأحدِ رؤسائها الثلاثة في حرب الفجار. وقد أرَّخت قريش بوفاته إعظاماً له.

3- (الأثناء): ج ثَنِيّ. وهو الثوب الذي له طَيَّات. أو ما اعوجَّ من الحيات. (الحِفان): اليدان اللتان ضُمَّتْ أصابِعهما. (الرُّكام): المُتراكم بعضُه فوق بعض. والمعنى أنه رشيق الجسم كأنه سوط مَثْنِيٌّ. وبين يديه الشحم لإطعام الناس.

4- (قَئِم الشيءَ واقتأمه): جَمَعَه وجَرَفه. والمعنى أنَّ الكبراء لهم طعام كثير حيث يشاؤون. والصُّغَراء يحملونه ويجمعونه.

5- (أبو الطيب اللغوي): هو عبد الواحد بن علي الحلبي. عاصر ابن خالويه. وكان من العلماء الحاذقين. ظل في حلب حتى قتله الروم عندما دخلوها عام 351 هـ 962 م.

6- يُشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن ذهابه إلى (أبي الطيب اللغوي) بعدما خرج من مَجلس ابن خالويه الذي درس ما سأله عنه سيف الدولة. وقد أجاب اللغوي عن تلك المسائل بالقلم الذي كان في يده.

7- مرت ترجمته.

بـ (شجر الدُّرِّ) سَلَكَ به مَسْلَكَ (أبي عمرَ اللغويِّ[1]) في كتاب (المَداخِل). وكتابٌ في (الفَرْق).

ولا شكَّ أنه قد ضاعَ كثيرٌ مِنْ كُتُبِه وتَصْنيفاتِهِ لأنَّ الرومَ قتلوهُ وقتلوا أباه في (حلبَ). وكان (ابنُ خالويه) يُلقِّبُه (قُرْموطَة الكَبَرْثَل). و(القُرْموطة) هي دُحروجَةُ الخُنفساءِ لأنه كان قصيراً. و(الكبَرْثَـلُ) إما ذَكَرُ الخُنْفُساءِ أو الجُعَل.

وحَدَّثَني رجلٌ ثِقَةٌ أنَّه كانَ حاضِراً في مَجْلِسِ (أبي عبدِ اللهِ بنِ خالويه) عندما جاءه رسولُ (سيفِ الدولةِ) يَأمرُهُ بالحُضورِ ويقولُ له: "قد جاءَ رجلٌ لغويٌّ". يعني (أبا الطيب اللغوي) هذا".

قالَ المُحَدِّثُ: "فقمْتُ مِنْ عندِ ابنِ خالويه ومَضَيْتُ إلى المتنبي فحَكَيْتُ له الحِكايةَ.

فقالَ: "الساعةَ يسألُ أبو الطيب ابنَ خالويه عن كلماتٍ غريبةٍ مثلِ شَوْطِ بَراح و العِلَّوضِ[2] ونحو ذلك لكي يُحْرِجَه".

وكان بين (أبي الطيب اللغوي) وبين (أبي الفتح بن كاتبِ البِكْتُمُريِّ[3]) مَودَّةٌ ومُؤانَسةٌ. و(أبو الفتح) هذا يقولُ لـ (أبي الطيب):

يـا عبـدُ إنـك عِنْـد القلـبِ جَنَّتُهُ ... حُبَّـاً وإنَّـكَ عنـدَ الطَّـرْفِ ناظِـرُهُ
أزمَعْتَ سَـيْراً فقلُ ما أنـتَ قائِلُه ... واذْكُرْ لراعي الهَـوى ما أنت ذاكِرُهُ
لا أشْـتَكي سَـهَراً طالتْ مَسافَتُه ... أللَيْـلُ يَعْلَـمُ أنـي الدَّهْـرَ سـاهِرُهُ

قولُه (يا عبدُ) يريد (يا عبدَ الواحد) وهو اسم (أبي الطيب). وقد كانَ (أبو الطيبِ) يَتَعاطى شيئاً مِنَ النظمِ.

1- (أبو عمر): هو محمد بن عبد الواحد اللغوي الزاهد. كان من أكابر أهل اللغة. أخذ عن ثعلب. ولد عام 261 هـ 875 م وتوفي عام 345 هـ 956 م.

2- (شَوْط براح): ابن آوى. و(العِلَّوْض): الذئب.

3- (أبو الفتح البِكتُمُري): يعرف بابن الكاتب الشامي. من شعراء آل حمدان. وله شعر في الغزل.

تواضعُ المعري

وقد عَلِمَ اللهُ أنِّي لا في العِيرِ ولا في النَّفيرِ[1]. كُلَّما رَغِبْتُ في الخُمولِ، قُدِّرَ لي غيرُ ما أُريدُ. ولو أقامَ الشيخُ سنةً في (معرة النعمانِ) فلن يَسْمَعَ لي ذِكْراً، ولن أَخْطُرَ على فِكْرِه. والآنَ غَمَرني إفْضالِه وأَظلَّني دَوحُ فَضْلِهِ. وهو دَوْحٌ واسِعٌ كَبيرٌ وليس شَجَرةً صغيرةً. وجاءني مِنْ أقوالِهِ وكِتاباتِهِ فرائدُ لو صارتِ الواحِدةُ مِنْها حبةً من فِضَّةٍ، لَكانت معروفةً مَشهورةً. وهذه الحَبةُ لو بِيعَتْ لَصارت قبيلةٌ غنيةً بِثَمَنِها. ومَنْ ينظُرُ إليها كأنه ينظُرُ إلى جَوْهَرةٍ تُشبِهُ كَوكبَ الزُّهَرَةِ كما قالَ الراجزُ:

ذهَبَ لمَّا أنْ رآها تُزمُرَةْ وقالَ يا قَومِ رأيتُ مُنكَرةْ
شَذْرَةَ وادٍ إذْ رأيتُ الزُّهَرَةْ[2]

والشيخُ – أدامَ اللهُ عِزَّ الأدبِ بِحياتِهِ – كَريمُ الطبع. والكريمُ يُخدَعُ وقد خُدِعَ بي. ومَنْ سَمِعَ عن أمرٍ ظنَّ أنه يَراهُ. وهو يَعلمُ أنَّ الصَّخْرَ لا يُنتِجُ التَّمْرَ.

ابنُ القارح في مصر

وأما ما ذكَرَهُ الشيخُ الجليلُ مِنْ مَيْلِهِ في (مِصرَ) إلى بعضِ اللَّذّاتِ[3]، فهو يَعرفُ الحديثَ النبويَّ: (أَريحُوا القلوبَ تَعِ الذِّكْرَ). وقالَ (أُحَيْحَةُ بن الجُلاَحِ[4]):

صَحَوْتُ عن الصِّبا واللهوُ غُولُ ونفسُ المرءِ آونةً مَلولُ

1- المعري هنا يردُّ على ابن القارح مدحَهَ له حين قال عنه: (وأنا في مكاتبة حضرته بمنظوم ومنثور كَمَنْ أمدَّ النارَ بالشرر.....)

2- (تُزمُرَة): اسم رجل. (الشَّذْرَةُ): القليلُ من الأشياء. والمعنى أنه لما رأى تزمرةُ هذه الفتاةَ صرخَ في قومه أنه رأى مُنكَرة. وهي شيء قليل بالمقارنة مع كوكب الزُّهَرة. ونحن اليوم نلفظ اسم هذا الكوكب(الزُّهرة) بتسكين الهاء.

3- يشير المعري هنا إلى قول ابن القارح: (ومَضيتُ إلى مصر وتركتُ نفسي تسرحُ في الشهوات).

4- (أُحَيْحَةُ بن الجُلاح): أبو عمرو بن الجُلاح من بني مالك بن الأوس. اشتهر بالعزَّةِ حتى قيل إنه أعزُّ أهل يثرب. وزوجته (سلمى بنت عمرة). تزوجها بعده هاشم بن عبد مناف. فولدت له عبد المطلب جد الرسول (ص).

وكانَ يَنبغي أنْ يكونَ في هذا الوقتِ يَضْبِطُ ما معهُ من الأدَبِ بِتدريسِ مَنْ يدرُسُ عليه. وهو يضبِطُ ما معه مِنَ الأدبِ لأنَّ السِّنَّ لا بدَّ لها مِنْ تأثيرٍ، ولا بدَّ أن تَرْمِيَ بالقِلَّةِ كلَّ كثير. ويُعوِّضُ ذلك أنَّ قَطْرَتَهُ الواحدةَ تُغَرِّقُ، وأنَّ نَفَسَه إذا بَرَدَ يُحَرِّقُ. وقال رجلٌ مِنْ قريشٍ:

للــه دَرِّيَ حيــنَ أدرَكَنــي البِلــى ... علــى أيِّمــا تأتــي الحــوادِثُ أنْــدَمُ
ألَــمْ أَجْتَلِ البيضاءَ يَبْــرُقُ حِجْلُها ... لها بَشَــرٌ صــافٍ ووجْهٌ مُقَسَّــمُ[1]
ولم أَصْطَبِحْ قبلَ العَواذِلِ شُــربَةً ... مُشَعْشَــعَةً كــأنَّ عاتِقَهــا الــدَّمُ؟

ولعل الشيخَ الجليلَ قد قضى في عُمْرِه أرَبَه ومَقاصِدَه. والأشياءُ لها نِهاياتٌ. والعاجلةُ سَرابٌ ساخِرٌ.

وقد عاشَرَ الشيخُ مُلوكاً ووزراءَ. فلا أحَدَ يَستطيعُ انْتِقاصَ قَدْرِهِ أو الإزراءَ به. وقد سَمِعَ خَبَرَ (النعمانِ بنِ المُنذرِ)، وهو الأكبرُ، إذْ فارقَ مُلْكَه ورغِبَ في أنْ يَسوحَ في الأرضِ تعَبُّداً وزُهْداً. وإياه قَصَدَ (عدِيُّ بنُ زيد) في قولِهِ:

وتَذَكَّــرْ ربَّ الخَورنَــقِ إذ فَكَّــ ... ــرَ يَــومــاً وللــهُــدى تَــفْكــيــرُ
سَــرَّهُ مُلْكُــه وكَثْــرَةُ مــا يَمْــ ... لِــكُ والبَحْــرُ مُعْرِضــاً والســديرُ[2]
فارعَــوى جَهْلُــهُ فقال: ومــا غِبْــ ... ــطَــةُ حَــيٍّ إلــى المَمــاتِ يَصيــرُ؟

مَضارُّ الخمرِ

والسُّكْرُ مُحَرَّمٌ في كلِّ المِلَلِ. ويُقالُ إنَّ أهلَ الهندِ لا يَجعلونَ رجلاً يشربُ المُسْكِرَ مَلِكاً عليهم، لأنهم يَرَوْنَ السُّكْرَ مُنْكَراً. ويقولونَ: "يَجوز أنْ يَحْدُثَ في المَمْلَكةِ نبأٌ والملِكُ سَكْرانُ. وإذا بهذا الملكِ الذي يَتبعُه الناسُ نائمٌ مِنْ سُكْرِهِ".

1- (البيضاء): يقصد الفتاة البيضاء. (الحِجْلُ): الخلخال. (بَشَرٌ): البِشرة. (مُقسَّم): وسيم ذو وسامة وقسامة. والشاعر في هذه الأبيات يقول إنه أدركته الشيخوخة والبلى. وكان من قبلُ يجتلي الفتاةَ الوسيمةَ البيضاءَ، ويشرب الخمر المشعشعة الحمراء كالدم. والمعري يأتي بهذه الأبيات ليؤكد أن الإنسان ينقص حين يتقدم في السن.

2- (الخورنق) و(السدير): قصران كانا للنعمان بن المنذر.

لُعِنَتِ الخَمْرةُ فهي تَذْهبُ بِشَهوةِ الإنسانِ إلى الطعامِ. وكم حَقَّرتْ الجماعةَ التي تشربها. لا خيرَ في الخمر. إنها تَجْعلُ الإنسانَ ضائعاً فكأنَّه يَدوسُ على مثلِ الجَمْرِ. وشارِبُها يَسوقُ نفسَهُ إلى المَصائِبِ والدَّواهي. وتَجْعلُه يجرُّ وراءهُ ذَيْلَ الباطِلِ ويُضيِّعُ عَقْلَهُ. ومَنْ حَمَلَ الرَّاحَ فقد سَرَّحَ رُشْدَهُ وضَيَّعَهُ. ومَنْ رَضِيَ بِصُحْبتِها فقد خَلَعَ ثوبَ الوَقارِ، وتَصرَّفَ تصَرُّفَ الأطفالِ الصِّغارِ. ومَنْ واظَبَ على شُرْبِها مَنَعَتْهُ عن بُلوغِ أمانيه. وهي تَجعلُه يفضحُ أسرارَهُ وخبايا نفسه. وما أَخْوَنَ عهودَ الخمرِ. تجعلُ مُتَعاطيها يَنْقُضُ مَواثيقَه وأحْلافَه. وكم مِنْ شابٍّ ماتَ وهو صَحيحُ الجِسْمِ بِسببِها. ومَنْ يَشربُها منذ الصَّباحِ تراه زائِغَ العَيْنين. وكم عصفَ العودُ بالرجال على أنواعهم، وكم أسقط المِزهَرُ مِنَ المُتَهَجِّدينَ في سَهَرِ اللهو.

والشيخُ الجليلُ يعرفُ أبياتَ (المُتَنَخِّل الهذلي[1]):

مِمَّا أُقَضِّي ومَحارُ الفتى ... للضُّبْعِ والشَّيْبةِ والمَقْتَلِ؟[2]
إنْ يُمْسِ نشوانَ بمَصْروفَةٍ ... مِنْها بِنَيْءٍ وعلى مِرْجَلِ
لا تَقِهِ المَوتَ وقِيَّاتُه ... خُطَّ له ذلك في المَحْبَلِ[3]

وينبغي أنْ يُزَهِّدَ الشيخَ في الخمرِ الصافيةِ أنَّ نداماه الأكرمينَ أصبحوا في القبورِ. وكم جَلسَ مع فتيانٍ أتى عليهم الزمنُ كُلَّ الإتيانِ. فكانَ كما قالَ (النابغةُ الجعدي[4]):

تَذَكَّرْتُ والذِّكْرى تَهيجُ لِيَ الهوى ... ومِنْ حاجَةِ المَحْزونِ أنْ يَتَذكَّرا
ندامايَ عِنْدَ المُنْذِرِ بنِ مُحَرَّقٍ[5] ... فأصبَحَ منهمْ ظاهِرُ الأرضِ مُقْفِرا

1- مرت ترجمته.

2- (قضَّى حاجته): قضاها وأنفذها. (المَحار): المرجِع. (الضُّبْع: الذي إذا مات نَبَشت قبرَه الضباعُ وأكلته. والمعنى أنَّ مصير الإنسان للموت أو القتل أو الهرم.

3- (المَصْروفة): هي التي تُشْرَبُ صِرفاً مِنْ غير أنْ تُمزَجَ بالماء. (المَحْبَل): أوانُ الحَبَل). (الوقِيَّات): ج واقية. ومعنى البيت والبيت السابق: إنْ كان الفتى يشربُ الخمرَ نيئة ومطبوخة، فلن يحميَهُ من الموت شيء. وقد كُتِبَ ذلك له من لحظة حَبِلَتْ به أمُّه.

4- مرت ترجمته.

5- من ملوك الحيرة اللخميين.

وهو يعرفُ الأبياتَ التي أولُّها:

خَليلــيَّ هَيَّا طــالَ ما قــد رَقَدْتُما أَجِدَّكُمــا لا تَقْضِيــان كَراكُمــا؟[1]

وهل يَعجَزُ أنْ يكونَ كما قالَ الآخَرُ:

أمــا الطِّــلاءُ فإنــي لَســتُ ذائِقَها حتــى أُلاقِيَ بعــدَ الموتِ جَبَّــارا[2]

فكأنَّ هذا الشاعرَ يُخاطِبُ نَديمَه على الشَّرابِ بعد أنْ مَرِضَ وأصابه البلاءُ. فحرَّم على نفسِهِ شُربَها حتى يَسكُنَ تحتَ الترابِ.

دنانيرُ ابنِ القارح
واستقصاءُ المعري معانِيَ الدينار وما قيل فيه

وسرَّني عَوْدةُ الدنانيرِ إليه[3]. والأموالُ على الحَياةِ أَعْوانٌ. تَتَعَدَّدُ أشْكالُها وألوانُها. ولها مِنَّا لِلناسِ حُقوقٌ. لا يَجِبُ أنْ نُقابِلَها بالعُقوقِ.

قال (عمرو بنُ العاص[4]) لــ (معاويةَ بنِ أبي سفيان[5]): "رأيتُ في النومِ أنَّ القيامةَ قد قامتْ وجيء بك وقد أَلجَمَكَ العَرَقُ".

فقال معاويةُ: "هل رأيْتَ ثَمَّ مِنْ دنانيرِ (مِصْرَ) شيئاً؟".

ودنانيرُ الشيخِ الجليلِ هذه لا ريْبَ أنَّها مِنْ دنانيرِ مِصْرَ. وهي لم يَأْخُذْها الشيخُ

1- يخاطب الشاعرُ صديقيه اللذين ماتا ويسألهما: أما انقضى نومكما؟

2- (الطلاء): الخمر طُبِخت حتى ذهب ثلثاها.

3- يشير المعري هنا إلى سرقة ابنة أخت ابن القارح لدنانيره وإجبارها السلطانُ على إعادتها إليه.

4- (عمرو بن العاص) بن وائل السهمي. القائد السياسي الداهية. أبو عبد الله. أسلم عام 8 هـ 629 م قبل فتح مكة. ولاَّه عمر بن الخطاب فلسطين والأردن. ثم سيَّره إلى مصر ففتحها وصار والياً عليها. وأقرَّه عثمان بن عفان عليها أربع سنوات ثم عزله. فلعب دوره السياسي بين علي ومعاوية. ولد عام 592 م وتوفي عام 63 هـ 682 م

5- مرت ترجمته. وقد أراد عمرو بن العاص أنْ يَغْمِزَ من جانب معاوية بأنه سرق دنانير سيحاسبه الله عليها يوم القيامة. فردَّ عليه معاوية بسخرية مرة حين سأله :هل رأيتَ من دنانير مصر شيئاً؟ ويقصد بها ما سرقه عمرو من دنانير مصر التي كان والياً عليها.

مِنَ الناسِ. ولكنْ مِنْ عِندِ المُلوكِ. ولم يَجْعَلْها الشيخُ مَهْراً لِلفاجِراتِ. فالحمْدُ للهِ الذي جَعلَها سالِمَةً إلى هذا الوقتِ. ولم تَكنْ ذهباً مَخْزوناً صارَ إلى امرأةٍ خمَّارةٍ قَبَضَتْها ثمناً للخمرِ. كما قال الشاعرُ:

وخَمَّـارةٍ مِـنْ بَنـاتِ المَجـوسِ تـرى الـزِّقَّ فـي بيتهـا شـائلا[1]
وزنَّـــا لها ذَهَـــبـــاً جـامِـداً فـكـالَـت لـنـا ذَهَـبـاً سـائِـلا

ولا أجعلُ مِنْ كلمةِ (دنانير) لغزاً كما قال الشاعرُ:

دنـا نِيرُنا مِنْ قَرْنِ ثـورٍ ولم يَكُن مِنَ الذهبِ المَضْروبِ بينَ الصَّفائِحِ[2]

ولو رأى المرقّشُ هذه الدنانيرَ لَعَلِمَ أنَّها أحْسَنُ مِنْ وُجوهِ حَبيباتهِ لَمَّا ارتَحَلَ ظاعِناً بِنِسائِهِ فقالَ:

النَّشْـرُ مِسْـكٌ والـوجـوهُ دَنـا نـيـرٌ وأَطْـرافُ الأكُـفِّ عَـنَـمْ[3]

وإنَّها لَأحسنُ مِنَ الوجوهِ التي ذكرَها (النابغةُ الجعديُّ) وزَعَمَ أنَّ حُسْنَها ظاهِرٌ فقالَ:

فـي فُتُـوٍّ شُـمِّ العَرانيـن أمثـا لِ الـدنانيـرِ شُـفْنَ بالمِثْـقـالِ[4]

ودنانيرُ الشيخ أُخِذَتْ مِنْ عطايا وجَوائزِ رجالٍ كِرامٍ أسيادٍ. تارةً بالخِدْمَةِ عندَهم وتارةً بِمَدحِهِمْ بِشِعْرِهِ. ولم تَكنْ مَرهونَةً لِغيرِ الحَقِّ. ولم يكنْ يَضِنُّ بها عِندَ الحاجَةِ إلى إنْفاقِها، كما قالَ (رَدَّادُ الكلابي):

يَطوي ابنُ سَلمى بها عن راكِبٍ بُعُراً عِيدِيَّـةً أُرْهِنَـتْ فيهـا الدنانيـرُ[5]

1- (شالت القِربَةُ): ارتفعت قوائمها عندما تمتلئ أو عندما تُنْفَخ.

2- اللغز في قوله (دنا نيرنا): و(دنا): قرُبَ. و(النير): الدلو. والمعنى أنَّ دلونا المصنوع من قرن ثوب اقترب. وهو ليس مصنوعاً من الذهب المضروب على شكل صفائح.

3- (النَّشْرُ): الرائحةُ. (العَنَم): نبات أملس دائم الخضرة.

4- (الفُتُوُّ): ج فتى. (العرانين): ج عِرنين وهو الأنف. (شُفْنَ): مِنْ (شافَ الدينارَ يَشُوفُه شَوْفاً): صقله وجلاه.

5- (العِيدِيَّة): النفيس الغالي. (البُعُر): ج بعير. والمعنى أن ابن سلمى يُخفي عن راكبي البعير محفظة ثمينة وضع فيها دنانيره.

وهذه الدنانيرُ، عندَ أَهْلِ العَقْلِ وأَهْلِ البَلَهِ معاً، أَجْوَدُ مِنْ خاتَمِ الخَمْرِ الطينيِّ الذي ذكرَهُ (عبيدُ الله بنُ قيس الرقيات[1]) في قولِه:

إنْ خُتِمَتْ جازَ طِينُ خاتَمِها كما تَجوزُ العَبديَّةُ العُتُقُ[2]

أراد بالعَبْدِيَّةِ دنانيرَ نَسَبَها إلى (عبد الملك بن مروان[3]). ويُقالُ إنَّه أولُ مَنْ ضَرَبَ الدنانيرَ في الإسلامِ.

ودنانيرُ الشيخِ الجليلِ صَحيحَةٌ مَضْبوطَةٌ لا يُمْكِنُ للصَّيْرَفيِّ أنْ يَنْقُدَها أو أنْ يَرُدَّها. وهي راجِحَةٌ ومَوْثوقَةٌ إذا وُضِعتْ في مِيزانِ الصَّيارِفَةِ. وحاشَ للهِ أنْ تكونَ كما قال (الفرزدق[4]):

تَنْفي يداها الحَصى في كُلِّ هاجِرَةٍ نَفْيَ الدنانيرِ تَنْقادُ الصَّيارِيفِ[5]

وهذا البيت يُنشَدُ على وجهين: الدنانير والدراهيم.

ودنانيرُ الشيخِ الجليلِ ليسَتْ مِنْ دنانيرِ مدينة (أَيْلَة[6]). فتلك ليستْ صَحيحَةً

1- (عبيد الله بن قيس الرقيات) بن شريح من بني عامر بن لؤي. كان شاعراً مُجيداً ومن أنصار عبد الله بن الزبير. وانقطع لمدح أخيه مصعب بن الزبير. فلما قُتِلَ مصعب أمر عبد الملك بن مروان بقتله. ثم عفا عنه وسمع مدائحه. وسُمِّيَ (الرقيات) لأنه تغزل بثلاث فتيات كل واحدة منهن تسمى (رُقَيَّة). توفي عام 85 هـ 704 م.

2- (جازَ الدرهمُ): قُبِلَ على ما هو عليه ولم يُرَدَّ. (العبدية): دنانير صُكَّت على عهد عبد الملك بن مروان. (العُتُق): ج عتيق. ومن معاني العتيق الجيد والجميل. والمعنى أن هذه الخمرة إذا خُتِمت بالطين كان طينُ خاتمها مقبولاً ومرغوباً كما تُقبَل الدنانيرُ العبدية المنسوبة إلى عبد الملك بن مروان.

3- مرت ترجمته.

4- مرت ترجمته.

5- (تَنفي): تُبعِدُ (الهاجِرة): وقتُ الظهيرة عند اشتداد الحر. (الصَّيارِيف): ج صَيْرَفي. وهو الذي يفحص النقود ليعرف صَحيحها مِنْ زائفها. (التَنْقاد): نقدُ الدراهم وفحصُها. والشاعر يصف الناقةَ. والمعنى أنّ يدي الناقة في سيرها السريع عند اشتداد الحرِّ، تُبْعِدُ الحصى وتنثره كما تفحص يدُ الصيرفي النقود. و(تنقادُ): فاعل للمصدر (نَفْيَ). ومأخذ النحويين على هذا البيت أنه قال (الصياريف). والأصل هو الصيارف. أو الصيارفة. فأضاف الياء على (مَطْلِ الكسرة). أي تحويل الكسرة إلى ياء. فكأنك قلت (دراهيم) بدل دراهم. ولم نجد هذا البيت في ديوان الفرزدق.

6- (أَيْلة): مدينة على ساحل البحر الأحمر في خليج العقبة.

أو مقبولةً. فلا يستطيعُ البائِعُ أنْ يبيعَ بها نُخَيْلةً صغيرةً لا نخلةً كبيرةً. وقد ذَكَروا دنانيرَ (أَيْلَةَ) غيرَ المقبولةِ لأنَّ هذه المدينةَ كانَتْ تحتَ سُلْطَةِ الرومِ. فكانت تأتيها الدنانيرُ مِنَ الشامِ. قال أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاحِ:

وما هِبْرِزِيٌّ مِنْ دنانير أَيْلَةٍ بأيدي الوُشاةِ مُشْرِقاً يَتأَكَّلُ[1]

الوُشاةُ: النَّقَّاشون الذين يُوَشُّون الدنانيرَ.

ودنانيرُ الشيخِ تلك لو رآها (مُحْرِزُ الضَّبِّيُّ[2]) لَشَهِدَ أنها حين تَبرُزُ، أجَلُّ مِنْ تلك (الوجوهِ القَسِماتِ) وإنْ كانت ذاتَ جَمالٍ وسِماتٍ. قال الشاعرُ:

كأنَّ دَنانيراً على قَسِماتِهم وإنْ كان قد شَفَّ الوجوهَ لقاءُ[3]

ومَعاذَ اللهِ أنْ تُقْرَنَ دنانيرُ الشيخِ بأزهارٍ أَيْنَعَتْ في الوادي في فصلِ الأمطارِ. فلمَّا جاءَ الصيفُ بوَهْجِهِ يَبِسَتْ وتَمَزَّقَتْ. ومِنْ أنواعِ هذه الأزهارِ نوعٌ يُسمَّى (حَوْذانَ). قالَ الشاعرُ:

ورُبَّ وادٍ سَقاهُ كوكَبٌ أَمِرٌ فيه الأوابدُ والأُدْمُ اليعافيرُ[4]
هَبَّطْتُهُ غادِياً والشمسُ شارِقَةٌ كأنَّ حَوْذانَه فيهِ الدَّنانيرُ

ودنانيرُ الشيخِ هذه لو أخذها رجلٌ باعَ حِصانَه الكُمَيتَ وندِم على بيعه له، فإنها

1- (الهِبْرِزِيُّ): الدينار الجيد. (الوشاة): النقاشون. (المُشْرِق): الشديد الحُمْرة. (يتأكّل الشيءُ): يفسُد. والمعنى أن هذا الدينار الذي معه دينار جيد ليس من دنانير أيلة الشديد الحمرة، والتي تفسد حين ينقشها النقاشون.

2- (مُحْرِز الضبي) بن المُكَعْبر من ولد بكر بن ربيعة. شاعر جاهلي حماسي.

3- (القَسِمات): ج قَسِمة. بكسر السين وفتحها. الوجه أو ما أقبل منه. (شفَّ الشيءُ): رقَّ حتى ظهر ما تحته. و(شفَّه الحبُّ): أرَّقَه وذهب ببعضه. والمعنى أنَّ هذه الوجوه تلمع كالدنانير وإنْ كان انتظارُ اللقاء قد أقلقها وهمَّها.

4- (الأَمِرُ): المُبارك الميمون. (الأوابد): الوحوش. (الأُدْمُ): مِنْ أَدِمَ: اشتدَّت سُمْرَتُه. فهو آدَمُ وهي أدْماء. والجمع (أُدْمٌ). (اليعافير): ج يَعفور وهو الظبي. والشاعر يصف هذا الوادي الذي نزل إليه. فقد سقاه مطرٌ مُبارك غزير. وتسكن فيه الوحوش والظباء السمراء. فلما نزله مع شروق الشمس رأى حَوْذانَه تلمع كأنها الدنانير.

تُنسيهِ نَدَمَهُ وتجعَلُ البَهْجَةَ تَسْكُنُ في قلبه، ولم يَأْسَفْ أنَّه استعاضَ عن الفرسِ بحمارٍ، ولم يَشْعُرْ بِأَلَمِ الشكوى مِنْ حالِهِ ولم يَقُلْ:

نَدِمتُ على بَيْعِ الكُمَيْتِ وإنَّما ... حَياةُ الفَتى هَمٌّ لهُ وخَسارُ
ولمَّا أتاني بالدَّنانيرِ سائِمي ... أَصاخَتْ وهَشَّت لِلْبِياعِ (نَوارُ)[1]
وقالت: أَتِمَّ البَيْعَ واشتَرِ غَيرَه ... فحَوْلَكَ في المَشْتى بَنونَ صِغارُ
فأنْفَقْتُ فيهم ما أَخَذتُ ولم يَزِلْ ... لديَّ شرابٌ راهِنٌ وقُتارُ[2]
إلى أنْ تداعى الجُنْدُ بالغَزْوِ وانْجَلَتْ ... غُيومُ شِتاءٍ سُحْبُهُنَّ غِزارُ
وأعْوَزَني مُهْرٌ يَكونُ مَكانَهُ ... كأنْ ليس بَيْن العالَمين مِهارُ
وسارَ على الخيلِ المُغِذَّةِ صُحْبَتي ... وسِرتُ وتَحْتي للشَّقاءِ حِمارُ

ولله المِنَّةُ لأنه حَمى دنانيرَ الشيخِ مِنَ الدُّخولِ إلى الحاناتِ منذ الصَّباحِ الباكِرِ. ومن يُبَكِّرُ إلى الحانةِ ليس بِالمَشْكورِ. وهذا الذي يدخُلُ الحانة مُبَكِّراً، يأتي معه بالدنانير. ويصطَحِبُ معه أصْحاباً كُرَماءَ. فيُقيمُ بهم في بيوتِ الخمرِ أياماً، أَيْقاظاً في السُّكْرِ أو نِياماً. فتُفْني الذهبَ أَقداحُ الشرابِ التي تُشبه قِداحَ المَيْسِرِ. قالَ (النابغةُ الجعدي[3]):

ودَسْكَرَةٍ صَوْتُ أبوابِها ... كصوتِ المَواتِحِ في الحَوْأبِ[4]
سَبَقْتُ إليها صِياحَ الدُّيوكِ ... وصَوْتَ نَواقيسَ لم تُضْرَبِ[5]

1- (نَوار): اسم زوجة الشاعر. (السائم): الذي يساوم على البيع. والمعنى أن زوجته (نوار) أصاخت السمع لِما يقوله السائم وهشَّت لبيع الحصان.

2- (الراهن): الجاهز المُعَدُّ. (القُتار): دخان الطعام المطبوخ. والشاعر يحكي في هذه الأبيات قصته الطريفة. فقد وقف ليبيع حصانه فتردَّد. لكن زوجته حرَّضَته على البيع لأنَّ أبناءه حوله وقد أقبل الشتاء. فلما باع حصانه صار عنده الطعام والشراب. ولكن حين جاء الغزو وتداعى الجنود للقتال، أعوزه مُهرٌ كأنه ليس في الدنيا مِهار. فسار أصحابُه على الخيل. وسار هو على الحمار.

3- مرت ترجمته.

4- (الدَّسْكَرة) في الأصل هي القرية أو الصومعة. وهي هنا بمعنى بيت الشراب. (المواتِحُ): من فعل (مَتَح الماءَ): أخرجه من البئر بالدلاء. (الحَوْأب): الدلو. والمعنى أنه ذهب إلى حانة صوتُ أبوابها حين تُفْتَحُ يشبه صوت الدلاء عندما تُسْتَخْرَجُ من البئر.

5- (لم تُضْرَب): لم يَحِنْ وقتُ ضربها. وذلك دليل على تبكيره في الذهاب إلى الحانة.

وقال آخر:

وقَبْضَــةٍ مِــنْ دنانيرٍ غَـدَوْتُ بها للدَّسْـكَريِّ وحَوْلــي فِتْيَةٌ سُــمُحُ[1]
ولــم يَـزَلْ ثَـمَّ يســقينا ويأخُذُها حتى اســتقَلَّ بما في الصُّرَّةِ القدحُ

ولو كان الشيخُ قد أدرك مَنْ تقدَّمَ مِنَ المُلوكِ، لَكانَ كلُّ واحِدٍ مِنْ دَنانيرِهِ كالذي قالَ فيه القائِلُ:

وأصْفَـرَ مِــنْ ضَــرْبِ المُلــوكِ يَــلــوحُ علــى وَجْهِــهِ جَــعْــفَــرُ[2]
يَــزيــدُ على مــائــةٍ واحِـــداً إذا نــالَــهُ مَــعْــشَــرٌ أَيْــسَــروا

ودنانيرُ الشيخِ بإذن الله مُقَدَّساتٌ. ما هُنَّ بالفاحشةِ مُدَلَّساتٌ. والحَزْمُ والضَّبْطُ مِنْ شِيَمِهِ. فلا يَدْفَعُ لِمُقْتَرِضٍ مِنْها شيئاً إنْ لم يَكُنْ يَعْرِفُهُ. وفي الكتابِ العَزيزِ: (ومِنْ أهلِ الكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ ومِنْهم مَنْ إِنْ تأْمَنْهُ بِدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ)[3]. وهذه الآيةُ قِيلَتْ لِرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقد كانَ في زمانِهِ مِنْ أهلِ الكِتابِ مَنْ يَتحَرَّجُ مِنْ عَدَمِ رَدِّ الأمانةِ لأنه كانَ يَتَضَمَّخُ بالنُّسْكِ والزُّهْدِ. فأمَّا اليومَ، فلو استُؤْمِنَ كِتابِيٌّ على فِلْسٍ رومِيٍّ لَأَسْرَعَتْ إليهِ الظُّنونُ إِسْراعَ السَّحابِ المُنْقَشِعِ. وهذا السَّحابُ يُسَمَّى (الرَّمِيَّ) كما جاءَ في قولٍ لأبي جُنْدُبٍ الهُذَلِيِّ:

أولئـك لــو دَعَـوتِ أتــاكِ مِنْهُــم رجــالٌ مــثــلُ أَرْمِيَــةِ الحَــميــمِ[4]

وما عَنيتُ بالكتابي مَنْ نُسِبَ إلى توراةٍ وإنجيلٍ دون مَنْ نُسِبَ إلى القرآن المُبَجَّلِ. بل عَنَيْتُهُمْ جَميعاً.

1- (الدَّسْكَرِيُّ): صاحبُ الدَّسْكَرَة. وهو الخَمَّار. (سُمُح): ج سَموح. (استقلَّ الشيءَ): وجده قليلاً. ومعنى البيتين أنه ظل يدفع ثمنَ الخمر لصاحب الحانة من دنانيره حتى صار ثمن القدح أكثر مما في صرته من المال.

2- (الأصفر): الدينار. (الجعفر): النهر. أي أن هذا الدينار الذي ضربه الملوك مُلتمع كأنه وجه النهر.

3- سورة (آل عمران) من الآية 75.

4- (الأَرْمِيَةُ): ج رَمِيّ. وهو السحاب. (الحَميم): الصيف. أي أنَّ الذين يأتي منهم يُسرِعُ كإسراعِ سحابة الصيف.

على أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ وُجودِ أَمانَةٍ عندَ الناسِ في أَنْحاءِ البِلادِ. وهي التي تَحْفَظُ الخَيْرَ في الدنيا. وهي في الآخرةِ أَشْرَفُ عندَ اللهِ. ولعلها تُحرِّضُ على عَدَمِ اقْتِرافِ الخِيانةِ.

فلْيَحْتَفِظِ الشيخُ الجليلُ بِما بَقِيَ عندَهُ مِنَ هذه الدنانيرِ، ولْيُشْفِقْ عليها مِنَ الإنفاقِ إِشْفاقَ اللبيبِ الحَريصِ. فكُلُّ واحِدٍ مِنها دينارٌ صافٍ جاءَهُ مِنْ قومٍ أَعِزَّةٍ. وكلُّ واحِدٍ مِنْها يَدفَعُهُ إلى الكرمِ وإلى الفرحِ به كما قال (سُحيْمٌ عبدُ بني الحَسْحاسِ[1]):

تُريكَ غَـداةَ البين كَفَّـاً ومِعْصَماً ووَجْهـاً كدينـارِ الأعِـزَّةِ صافِيـا

ولو نظرَ إلى هذا الدينارِ (قَيْسُ بنُ الخَطِيم) لما شَبَّه به وجهَ محبوبتِه (كَنُودَ)، ولم يَسْمَحْ لِنفسهِ أَنْ يقولَ:

صَرَمْتَ اليـوم حَبْلَكَ مِنْ (كَنودا) لِـتُـبْـدِلَ وَصْلَهـا وَصْـلاً جَديـدا
عَشِـيَّةَ طالَعَـتْ فأَرَتْـكَ قَصْـراً مَحاسِـنَ فَخْمَـةً مِنْهـا وجِيـدا[2]
ووَجْهـاً خِلْتُـه لمَّـا بَـدا لـي غَـداةَ الـبَـيْـنِ ديـنـاراً نَقيـدا[3]

ولِمِثْلِ هذا الدينارِ قَصَدَ (ربيعةُ بنُ المُكَدَّم[4]) لمَّا أَيْقَنَ بِالمَوْتِ فقالَ:

شُـدِّي علَـيَّ العَصْـبَ أَمَّ سَـيَّارْ فقـد رُزيـتِ فارِسـاً كالدينـارْ[5]

1- مرت ترجمته.

2- (القَصْر): العَشيُّ. وهي هنا ظرف زمان. والمعنى أنها جاءتك في العشي فأرتك محاسنها وعنقها.

3- (الدينار النقيد): المنقود. أي الذي فحصه الناقد فوجده صحيحاً.

4- (ربيعة بن المُكَدَّم) بن عامر من كنانة. فارس العرب وشاعر حماسي. يُضرب به المثل في الشجاعة. وقد خرج يوماً مع ظعائن لقومه. فلحق بهم خصومُهم فرماه أحدهم بسهم. فلحق بالظعائن حتى وصل إلى أمه فقال لها مرتجزاً

شُدي عليَّ العصْبَ أم سيارْ

فضَمَّدته فَكَرَّ راجِعاً يُحاربُ ودمُه ينزف. ثم قال للظعائن أنْ يُسْرِعْنَ إلى حَيِّهِنَّ. ثم وقف مُتَّكِئاً على رُمحه فوق فرسه حتى مات دون أنْ يجرؤ خصومه على محاربته حتى وصل أهلُه إلى حيهن.

5- (العَصْب): الضِّماد على الجرح. (أَمَّ سيار): يا أم سيار. (رُزيتِ): من الرُّزء وهو المُصيبة. وقد ضبطتها بنت الشاطئ (رُزيتُ) بضم التاء. لكننا وجدنا أن المعنى لا يستقيم بهذا الشكل. فالشاعر يطلب من أم سيار أن تضمِّد جراحه فقد رُزِئتْ بفقده وهو الفارس القوي الذي يُشبِه الدينار.

ولو مَلَكَ هذا الدينارَ (مالِكُ بنُ دينار[1]) مع زُهْدِهِ وبُلوغِهِ في الوَرَعِ أَقْصى جُهْدِهِ لَجازَ أنْ يَتَمَسَّكَ به ويَحرِصَ عليه أكثرَ مِمَّا يَحْرِصُ على أبيه (دينار). وقد يُنْكِرُ عليَّ أَحَدٌ ما ذَكرتُهُ عن تَفْضيلِ (مالكِ بنِ دينار) لهذا الدينارِ عن أبيه. ولا غَرابَةَ في ذلك. فقد يَكْذِبُ مَنْ يَسْتَعْمِلُ التَّشْبيهَ.

وكلُّ دينارٍ جَيِّدٍ مِنْ دَنانيرِ الشيخِ الجليلِ الصُّفرِ المُباركةِ، أَبْلَغُ في قَضاءِ الحاجَةِ مِنَ الرجلِ الذي اسمُهُ دينار، والذي اختارَهُ لِقَضاءِ الحاجَةِ قائلُ هذا البيتِ:

هل أنـت باعِـثُ دينـارٍ لِحاجَتِنا أو عبـدَ ربٍّ أخا عَوْنٍ بـنِ مِخْراقِ؟

فأما قولُ (الفرزدق[2]):

رأيـت ابـنَ دينـارٍ يَزيـدَ رَمى به إلى الشـامِ يومُ العَنْزِ واللهُ قاتِلُهْ[3]

فلو كان (دينارٌ) هذا المذكورُ في هذا البيت أحدَ دنانير الشيخ، لسُرَّ (يزيدُ) أن يكون (دينارٌ) والدَه.

ودنانيرُ الشيخِ الجليلِ ليستْ مِنْ دنانيرِ (النَّخَّة). ودنانيرُ (النَّخَّةُ) هي ما يَأْخُذُهُ عاملُ الصَّدَقاتِ إذا فَرَغَ مِنْ جِبايَتِها. وهو أمرٌ مُستَنْكَرٌ. ولذلك قالَ القائلُ:

عَمِّـي الذي مَنَعَ الدينـارَ صاحِبَهُ دينـارَ نخَّةِ كلـبٍ وهو مَشْـهودُ[4]

وكلُّ دينارٍ مِنْ دنانير الشيخِ الجليلِ التي رَجَعَتْ إليه بَعدَما سُرِقَتْ مِنْه بَعدَ يَأْسِهِ مِنَ اسْتِرْجاعِها، أشفى لِعَطَشِ العَطْشانِ مِنْ ماءِ الرجلِ المُسمَّى (دينار) الذي طَلَبَ

1- (مالك بن دينار): أبو يحيى البِصري. الحافظ الزاهد الواعظ. ومن أعيان كتبة المصاحف. توفي في البصرة عام 127 هـ 745 م. وبعضهم يرى وفاته بعد ذلك بقليل.

2- مرت ترجمته.

3- (ابن دينار يزيد): رجل هو يزيد ابن دينار. و(يومُ العَنْزِ): يومُ ذَبْحِ العنْز. وهو مثل يضرَبُ لِمَنْ يلْقى التَّهْلُكَة. و(يومُ) فاعل لفعل رمى. والتقدير (يومُ العنز رمى ابن دينار إلى الشام يوم القتل). ويضيف الشاعر أن الله قاتله لذا ساق نفسه إلى الشام يوم القتل.

4- (دينارَ نَخَّةَ): بدل من دينار التي في الشطر الأول. والشاعر يفتخر بأن عمه منع الذي يريد أخذ دينار النخة. وهذا الرجل هو كلب فضحه عمه والناس شهود. و(دينار النخة) قال عنه الحديث النبوي: (ليس في النخة صدقة). أي أنه لا يجوز التصدُّق من الأموال التي تؤخذ على جباية الصدقات.

واحِدٌ في الصَّحْراءِ أَنْ يَسقِيَه وهو راكِبٌ على ناقته فرفضَ. فقالَ ذاك العطشانُ عنه:

أقـولُ لـديـنـارٍ وهُـنَّ شـوائـلٌ بـنـا كَـنَعـامٍ طـالِبـاتِ رِئـالِ[1]
لـكَ الويْـلُ أَدْرِكني بِشُـربَةِ آجِنٍ مِـنَ الماءِ مـا مَشْـروبُها بِـزُلالِ[2]
فمـا كادَ دينـارٌ يُغيـثُ بِنُطْفَـةٍ حُشاشَـةَ نَفْـسٍ آذَنَـتْ بِـزَوالِ[3]

وكلُّ دينار مِنْ دنانيرِ الشيخِ ليس كَدينارِ (الأخطل[4]) الذي ذكَرَهُ في قَوْلِهِ:

كُمَّـتْ ثلاثَـةَ أحْـوالٍ بِطينَتِهـا حتـى اشْـتَراها عِبـادِيٌّ بدينـارِ[5]

وهذا (العِبادي) – والعبادي هو مَنْ كان مِنْ نَصارى الحِيرَةِ - لو وَقَعَ الدينارُ بينَ يَدَيْهِ، لَما أَعْطاهُ إلى الخَمَّارِ بِطيبةِ نَفْسٍ ولو كانَ ذلك على سَبيلِ الدَّيْنِ الآجِلِ. وذلك لِبُخْلِهِ.

ودينارُ الشيخِ ليس كالدينارِ في البيتِ الذي أَنْشَدَهُ (أبو عُمَرَ الزاهِدُ[6]):

وفـي الكتـابِ أسـطُرٌ مَحْكوكـةْ لا حـَّظ فـي الدينـارِ للكاروكـةْ

وزعم قائلُ هذا البيت أنَّ (الكاروكة) هي القَوَّادة.

والعجيبُ في دنانيرِ الشيخِ الجليلِ أنها تَفِرُّ مِنْ يدِ السارِقِ فِرارَ دنانيرِ الشمسِ التي وَصَفَها (أبو الطيب المتنبي[7]) فقالَ:

1- (هُنَّ): النوق التي يركبونها. (الشوائِل): ج شائلة وهي التي جفَّ لبنها. (الرِّئال): الريق. والمعنى أنني قلت لدينار حين كانت النوق مِنْ غير لبن كأنها نَعام يطلب الريق فلا يجده. وذلك كناية عن العطش الشديد.

2- (الآجِن): الماءُ الآسِنُ الذي تغير طعمه. ومعنى البيت تتمة لمعنى البيت السابق. فقد قال لدينار هذا أنْ يدركه بشربة ماء وإن كان آجناً وليس زُلالاً.

3- (النُّطفة): القليل من الماء. (الحُشاشة): بقية الروح. والمعنى يُتَمِّمُ معنى البيتين السابقين بأنَّ ديناراً هذا لا يُغيث الذي أشرف على الهلاك بقليل من الماء.

4- مرت ترجمته.

5- (كُمَّت): عُتِّقت. (أحْوال): ج حَوْل وهو العام. (العِبادي): من (العِباد). وهم نصارى الحيرة.

6- (أبو عمر الزاهد) هو محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم اللغوي. غلام ثعلب. من كبار مشايخ الصوفية. توفي عام 320 هـ 932 م.

7- مرت ترجمته.

وألقى الشرقُ مِنْها في ثيابي دنانيراً تَفِرُّ مِنَ البَنانِ

ولو رأى هذه الدنانيرَ (كُثَيِّرُ عزة) لَأَقْسَمَ قَسَماً مُؤَكَّداً أَنَّها أحسنُ مِنَ الدنانيرِ الهِرَقْلِيَّةِ التي شَبَّهَ نفسَهُ بِواحِدٍ منها فقالَ:

يروقُ عُيونَ النَّاظِرينَ كأَنَّه هِرَقْلِيُّ وزنٍ أَحْمرُ التِّبْرِ راجِحُ[1]

وإِنْ كانت دنانيرُ الشيخِ الجليلِ زائدةً على الثمانين[2]، فقد زادَتْ على عَدَدِ أصحابِ موسى الذين جاءَ فيهم: (واختارَ موسى قومَه سَبعينَ رجلاً لِميقاتِنا)[3]، كما زادتْ على عددِ مَرَّاتِ الاسْتِغْفارِ المَذْكورَةِ في قولِهِ تعالى: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سَبعينَ مرةً فلنْ يَغْفِرَ اللهُ لهم)[4]، وعلى عدد أَذْرعِ السِّلْسِلَةِ في قولِه تعالى: (في سِلْسِلَةٍ ذَرعُها سبعونَ ذِراعاً فاسْلُكوه[5]).

ولو كان الإنسانُ في بئرٍ عُمقُها ثمانونَ قامَةً، لَأمكنَ أَنْ تَسْتَنْقِذَهُ هذه الدنانيرُ المصْفَرَّةُ مِنْ غيرِ مَرَضٍ، والتي لا تَغَصُّ بِالريقِ أو مِنَ الهَمِّ والحُزْنِ. وإِنَّما ذَكَرتُ ذلك لِقولِ (الأعشى[6]):

ولو كُنْتَ في جُبٍّ ثَمانينَ قامةً ورُقِّيَت أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ

ولو كانتْ سنواتُ عُمْرِ (زهيرِ بنِ أبي سُلمى) الثمانين[7] مِثْلَ دنانيرِ الشيخِ الثمانينَ، لَما وَصَفَ نفسَهُ بالسآمةِ، ولَكانتْ له أَعْظَمُ قامةٍ. و(القامةُ): الأعوانُ. كأنها جَمْعُ (قائم). قال الراجِزُ:

1- معنى البيت أن الموصوف – والشاعر يصف نفسه - يروق منظرُه للناظرين كأنه دينارٌ هرقلي بِوزنه، وبأنه من الذهب الأحمر، وبأنه مقبول راجح عند أهل العلم بالدنانير الذهبية.

2- يشير المعري هنا إلى أن ابن القارح ذكر أن دنانيره التي سُرقت كانت ثلاثة وثمانين ديناراً.

3- سورة (الأعراف) من الآية 155.

4- سورة (التوبة) من الآية 80.

5- سورة (الحاقَّة) من الآية 32.

6- ميمون بن قيس. وقد مرت ترجمته.

7- يشير المعري هنا إلى بيت زهير بن أبي سُلمى:

سئمتُ تكاليف الحياة ومَنْ يَعِشْ ثمانين حَوْلاً لا أبا لك يسأَمِ

وقـامتـي ربـيـعةُ بـنُ كَـعْـبٍ حَـسْـبُـكَ مـا عِـنـدَهُـمْ وحَسْـبي

ولو أَدْرَكَهُ (عُروةُ بنُ حِزامٍ[1]) وهو يقولُ:

يُكَلِّفُنـي عَمِّـي ثَمانيـنَ نـاقـةً ومـا لـيَ يـا عَفْـراءُ غيْـرُ ثمـانِ

لَجازَ أَنْ يَرِقَّ له الشيخُ فيُغيثَه مِنْ دنانيره الثمانين بِبعْضِها أو يَسْمَحَ له بِكلِّها لأنه كريمُ الطَّبعِ، وعُودُه في المَصائِبِ صَلْبٌ. ولو كانتْ هذه الدنانيرُ الثمانون في يدِ (عُروةَ)، لَبَلَغَ بها الأُمْنِيَةَ لأنَّ الناقةَ في ذلك الزمانِ كانت ربما اشتُرِيَتْ بِعَشْرةِ دراهمَ. وفي بعضِ أخبارِ (الفرزدق) أنَّ رجلاً مِنْ مُلوكِ (بني أميةَ) أعطاه مئةً مِنْ إبلِ الصَّدَقَةِ. فباعها بألفٍ وخمسمئةِ دِرْهَم بعدما راعاه المُشْتري وزادَ في الثَّمَنِ. وقد مَرَّتْ بالشيخِ الجليلِ الحكايةُ التي يذكُرُها أصحابُ التاريخِ أنَّ الجمَلَ كان يُباعُ في زمنِ (أبي جعفرَ المنصورِ) بِدرهمٍ، وأنَّ (أبا جعفر) صادَرَ أموالَ قومٍ مِنْ أصحابِهِ وكانت لهم نِعاجٌ. فباعوها ثَمانيَ نِعاجٍ بدرهم. وهذا مِمَّا وُجِد بخطِّ (المَرزُباني[2]) في تاريخِ (ابنِ شجرَة[3]).

ودنانيرُ الشيخِ الجليلِ الثمانونَ، أَنْصَرُ له مِنَ الفُرسانِ الثمانينَ الذين ذَكرَهم (العَلَوي البِصريُّ) صاحبُ الزَّنج في قوله:

عَبَـرْتُ إليهـم في ثمانين فارسـاً فأدرَكْـتُ منهـم بُغْيَتـي ومُرادِيـا

ولولا خَشْيَةُ الغُلُوِّ لَقلتُ: إنَّ دنانيرَ الشيخِ الثمانينَ أَنْصَرُ له أيضاً مِنَ الثمانينَ ألفاً التي ذكرها أحدُ الشعراءِ في قولِه:

1- (عُروة بنُ حِزام) بن مالك. أحد الشعراء العذريين العشاق الذين قتلهم العشق. وصاحبته (عفراء بنت مُهاصِر). نشأ معها في بيت واحد لأن والده مات وهو صغير. فكفله عمه وهو أبوها. فلما طلب الزواج منها طلب عمه مهراً غالياً. توفي عام 30 هـ 650 م.

2- مرت ترجمته.

3- (ابن شجرة): هو أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة القاضي. أحد أصحاب (ابن جرير الطبري). تقلَّد قضاء الكوفة. وكان مِنْ علماء القرآن والنحو والشعر والتاريخ. وله مؤلفات كثيرة. توفي عام 350 هـ 961 م.

ثمانـونَ ألفـاً ولـم أُحْـصِهِـمْ وقـد بلَغَـتْ رَجْـمَهـا أو تَزيـدُ[1]

وكيف لـ (الفرزدقِ هَمَّامِ بنِ غالبٍ) أنْ تَرمِيَهُ المصائِبُ بأعوامِه الثمانينَ لو كانَ يَملِكُ هذه الدنانيرَ كما في قولِه:

رَمَـتْـنـي بالـثَّـمانيـنَ الليالـي وسَـهْمُ الدَّهْـرِ أَقْـتَـلُ سـهمِ رامِ

ولو مَلَكَ هذه الدنانيرَ (راعي ثَمانين) الذي يُضْرَبُ به المثلُ على الحُمْقِ بقولهم: (أحْمَقُ من راعي ضَأْنٍ ثمانين[2])، لَجَعَلَتْ له عَقْلاً صافِياً وثوباً مِنَ الدَّعَةِ ضافياً. فالمَثَلُ السائِرُ يقولُ: (وُجودُ الدَّعَةِ والدراهمِ يُذْهِبُ حُمْقَ الأحْمَقِ). ولِلذَّهَبِ على الفضة فضلٌ بأنه أَثْمَنُ مِنْها. كما أنَّ المَكارِمَ لها رائحةٌ طيبةٌ تَدُلُّ على أصْحابِها.

والشيخُ الجليلُ يعرفُ حِكايةَ (الحطيئة[3]) مع (سعيد بن العاص[4]) لمَّا سأله: "أيُّ الناس أشعرُ".

قال الحطيئة: "(أبو دُؤاد الإيادي) الذي يقولُ:

لا أَعُـدُّ الإقـتـارَ عُـدْمـاً ولكـنْ فَقْـدُ مَـنْ قـد رُزِئْتُـه الإعْـدامُ"[5]

ثم قالَ ابنُ العاصِ للحطيئة: "ثم مَنْ؟".

قال: "حسانُ بنُ ثابِتٍ الذي يقولُ:

رُبَّ حِلْـمٍ أضاعَـهُ عَـدَمُ المـا لِ وجَهـلٍ غَطَّـى عليـه النَّعيـمُ".

قال ابنُ العاصِ: "ثم مَنْ؟.

1- (الرَّجْمُ): هو القول بالظن والغيب. يقال (فلان يرجُم بالغيب). أي يقول ظناً دون دليل.

2- يُضرَبُ المثلُ في الحمق براعي الضأن الثمانين لأن الغنم تنفر من كل شيء فيحتاج راعيها إلى جمعها في كل وقت.

3- مرت ترجمته.

4- (سعيد بن العاص) الأموي القرشي. ولد عام الهجرة. وكان أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفان. وقد جعله عثمان عاملاً له على الكوفة. ففتح طبرستان. اعتزل أيام الفتنة بين علي ومعاوية. فلما استقر الأمر لمعاوية ولاه (المدينة) ثم عزله. ولد عام 2 هـ 623 م وتوفي عام 59 هـ 679 م.

5- (الإقتار): قلة المال. و(العُدْم): الفقر. والمعنى أنه لا يجد قلة المال فقراً، لأنَّ فقد أهله هو الفقر.

قال الحطيئةُ: "أعشى قيسٍ الذي يقولُ:

بـيـضـاءُ ضَـحْـوَتُـها وصَـفـرا ءُ الـعَـشِـيَّـةِ كـالـعَـرارةْ"[1]

قال ابن العاص: "ثم مَنْ؟".

قال الحطيئةُ: "ثم حَسْبُك بي إذا وضعتُ رِجْلاً على رِجلٍ ثم عَويْتُ في آثارِ القوافي كما يعوي الفَصيلُ في آثارِ الإبلِ". و(الفَصيلُ) هو ولدُ الناقةِ الذي انْفَصَلَ عن أمِّهِ بعدَ فِطامِه.

وقال الشاعرُ:

وجدْتُ بنـي الجَعْراءِ قَوْمـاً أَذِلَّةً ومَنْ لا يُهِنْهُمْ يُمْسِ وغداً مُهَضَّما[2]

وأحْمَـقَ مِنْ راعي ثمانيـنَ تَرتَعي بِجَنْبِ السِّتارِ بَقْلَ رَوْضٍ مُوَسَّما[3]

ودنانيرُ الشيخِ الجليلِ الثمانون – وأرجو اللهَ أنْ يَزيدَ رَيْعُها حتى يصيرَ قيراطُها قِنطاراً، وأنْ يكونَ كلُّ واحِدٍ منها مُعَطَّراً، وأنْ تَظَلَّ طَيِّبةَ الرائحةِ في رمضانَ وغيرِهِ مِنَ الشهورِ – أوفَرُ حَظّاً في الحَمْدِ مِنَ السَّنواتِ الثمانينَ التي ذَكَرَها (الحَرَّانِيُّ السُّلَميُّ[4]) أبو المُحَلَّم عَوْفُ بنُ المُحَلَّم في قولِه:

إنَّ الـثَّـمـانيـنَ، وبُـلِّـغْـتُـهـا قـد أَحْوَجَتْ سَـمْعي إلـى تَرجُمانِ

وبَـدَّلَـتْـنـي بالشِّـطاطِ الجَـنـا وكنـتُ كالصَّعْـدَةِ تَحْتَ السِّـنانِ[5]

1- (العَرارة): شجر له زهر أصفر. وقصد أن هذه الخمرة تكون في الصباح بيضاء. وتكون في المساء صفراء كأنها زهر شجر العَرار.

2- (المُهضَّم): المَنْقوص. والمعنى أن بني الجَعراء أذِلاَّء. والذي لا يُهينهم يكون وغداً وناقِصَ الهمة.

3- (السِّتار): ستار الخيمة. (الموسَّم): الجميل المكتمل النمو. والبيت يكمل معنى البيت السابق بأنَّ الذي لا يهينهم يكون أيضاً أكثر حُمقاً من راعي الضأن الثمانين الذي ترعى غنمُه بقولاً قرب ستار خيمته. و(المُوَسَّم): هو النبات الذي أصابه المطر الوسمي. و(الوسمي): هو المطر الذي ينزل في أول الربيع.

4- (عَوْفُ بنُ المُحَلَّم) الحَرَّاني السُّلَمي. شاعر عباسي حماسي. كان منقطعاً لآل طاهر بن الحسين مُقرَّباً منهم ومحبوباً إليهم. توفي عام 214 هـ 829 م.

5- (الشِّطاط): الطول وحُسْنُ القُوام. (الجنا): انحناء الظهر. (الصَّعْدة): القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تثقيف. وعليها يوضع سِنان الرمح. وقد قيل إن الشاعر دخل على عبد الله بن طاهر. فسلم عليه =

فالثمانونَ التي ذَكَرَها (السُّلَمِيُّ) تُضْعِفُ. ودنانيرُ الشيخِ تُنعِشُ وتُسْعِفُ. وتلك تجعَلُ الرجلَ بعدما يكونُ مِثْلَ القناة أو الرُّمْحِ، يُصبِحُ كأنه قوسٌ في أيدي الذين انْحَنَتْ ظُهورُهم. ودنانيرُ الشيخِ تُقيمُ الأوَدَ وتَسُرُّ القلبَ.

والبيتُ المنسوبُ إلى (أبي العِتْريف[1]) معروفٌ:

حَبشِيٌّ لـه ثَمانون عَيْباً كَسَبَتْهُ مَهابَةً وجَلالا

ولعله قد مرَّ في أرضِ (الموصِلِ) بالقريةِ التي تُسَمَّى (ثمانين). وهي قريبةٌ مِنَ الجَبَلِ المُسَمَّى (الجُودِيَّ[2]). فإنْ كانَتْ هذهِ القريةُ مَوْطِنَ أُناسٍ، فإنَّ دنانيرَ الشيخِ الجليلِ تَجْري مَجْرى الوطنِ في الإفراحِ والإيناسِ كما قالَ الشاعرُ:

الفَقْرُ في أوطانِنا غُربَةٌ والمالُ في الغُرْبَةِ أوطانُ

فضلُ الذهبِ

لله دَرُّ الذهبِ مِنْ صاحِبٍ وخليل. فإنه يَفيءُ على المَرْءِ بِظِلٍّ ظَليلٍ. إذا دُفِنَ تحت الأرضِ لم يُبالِ ولم يتأثَّرْ. وهو لا يَبْلَى كغيرِهِ مِنَ المَخْلوقاتِ والأشياءِ. أعطاه الناسُ قَدْراً نفيساً. ولم تَسْقُطْ قيمته ومِقدارُه. والدُّرُّ إذا كُسِرَ ذَهَبَتْ قيمتُهُ. وأغلى أنواعِه لا تُحفَظُ إنْ تَحَطَّمَ. ورُبَّ ذَهَبٍ كان في سِوارٍ. وبقي زماناً مَرْئِيَّاً مَنْظوراً غيرَ مُتَوارٍ. ثم جُعِلَ في خَلْخالٍ. تَخْتالُ بلُبْسِه ذاتُ الخالِ. ثم نُقِلَ إلى آنيةٍ أو صارَ إلى كأسٍ. ويظلُّ مُحْتفِظاً بِحُسْنِه وقيمتِهِ. لا تُغَيِّرُه النيرانُ، ولا يَغْدُرُ بِمَنْ يَمْلِكُهُ. فهو وَفِيٌّ لأصحابِه.

= عبد الله فلم يسمع عوف. فلما علم بذلك ارتجل القصيدة مستهلاً ببيت زهير بن أبي سُلمى المشهور. والمعنى أن السنوات الثمانين جعلت قُوامي منحنياً بعدما كان مستقيماًيشبه القناة المستقيمة تحت سنان الرمح.

1- لم نجد له ترجمة.

2- (الجُودي): جبل يُطِلُّ على الجانب الشرقي مِنْ دجلة. وهو من أعمال الموصل. ويقال إنَّ سفينة نوج وقفت عليه بعد انحسار الطوفان. والآية 44 من سورة هود تتحدث عن طوفان نوح وكيف استقرت السفينة على (الجودي): (وقيل يا أرضُ ابلعي ماءَك ويا سماءُ أَقْلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ واستوت على الجوديِّ وقيلَ بُعْداً للقومِ الظالمين).

ولعل دنانيرَ الشيخِ الجليلِ الثمانينَ قد أَدْرَكَ ذهبُها زمنَ (قارونَ) و(موسى) وأخيه (هارونَ). فهو لا يَهْلَكُ ولا تذهبُ عنه عِزَّتُه وقيمتُه مهما تقادمَ عليه الزمنُ. وهو يُعَظَّمُ في أرضِ (السِّنْدِ) وبلادِ (الهند) كما يُعَظَّمُ في كلِّ مكانٍ.

ابنةُ أختِ ابنِ القارح
وتقليباتُ لفظةِ (الخال)

وأما ابنةُ الأختِ[1] – أدام اللهُ لها الصِّيانةَ – فإنها ذاتُ دالَّةٍ على الخالِ إذْ كان قَريبَ أَحَدِ الوالِدَيْن. فهَمَّتْ أنْ تَأْكُلَ مالَ خالِها.

وبنتُ الأُخْتِ هذه ليستْ مثلَ ابنِ أُخْتِ الرجلِ الذي قالَ فيه القائلُ وهو (تأَبَّطَ شَراً):

ووراءَ الثَّـأرِ منـي ابـنُ أُخـتٍ مَـصِـعٌ عُـقْـدَتُـه ما تُـحَـلُّ[2]

وليست شبيهةً بـ (الهِجْرِسِ[3]) الذي طالَبَ خالَهُ (جَسَّاسَ بنَ مُرَّةَ) بثأرٍ فلم يَقْبُحْ فِعْلُهُ. ولكنها تُشبِهُ (ابنَ مُضَرِّس) واسمُهُ (توبةُ[4]) وهو المَعْروفُ بـ (الخِنَّوْت). وكان له أخٌ يقالُ له (طارِق). فقتله رهْطُ خالِه. فرأى أنْ يَقتلَ خالَه وقالَ:

بَكَتْ جَزَعاً أمـي (رُمَيْلَةُ) أنْ رَأَتْ دَماً مِـنْ أَخيها في المُهَنَّـدِ باديا[5]

1- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح عن سرقة ابنة أخته لدنانيره.

2- (المَصِع): الذي يقاتل بالسيف. أي أن ابن أخته المقاتل يُساعده في نيل ثأره. وإذا عقد أمراً فإنه لا يردُّه عنه أحد.

3- (الهِجْرِس) بن كُلَيب بن ربيعة التغلبي. أمه (جليلة بنت مُرَّة) أختُ جَسَّاس. كان جنيناً حين قَتَلَ خالُه (جساس) والدَه (كليب بن ربيعة). فلما ولدته ،وضعته أمه بين قومها. فلما شَبَّ طلب بثأر أبيه.

4- (توبة الخِنَّوْت): بن مُضَرِّس من بني سعد بن زيد مناة بن تميم. أمه (رُمَيْلَة بنت عوف بن عَلقَمة). وكان يُعرَف بها فيقال له: (توبة ابن رُميلة). وكان شاعراً مُجيداً. قتل رهطُ خاله أخويه (طارقاً) و(مِرداساً). فحزِع عليهما جزعاً شديداً. وثأر لهما. وقال فيهما مراثي جيدة. وظل يبكيهما حتى طلب إليه (الأحنف بن قيس) أن يكفَّ. فلما أبى سماه الأحنف (الخِنَّوت) وهو الذي يمنعه الغيظ أو البكاء من الكلام.

5- (رأت دماً من أخيها في المُهنَّدِ): أي أن دم ابنها الذي هو دم أخيها على السيف الذي قَتلَ به ابنَها طارقاً.

فقُلْتُ لهـا: لا تَجْزَعـي إنَّ طارقاً حَميمي الذي كانَ الخَليلَ المُصافِيا
وما كُنْتُ، لو أُعْطيـتُ ألفَيْ نجيبةٍ وأولادَهـا لَغْـواً تُسـاقُ وراعِيـا
لِأرْضَـى بِوِتْر مِنهُـمُ دون أنْ أرى دماً مِنْ بني عَوْفٍ على السيفِ جارِيا
ومـا كانَ في عَوْفٍ دَمٌ لـو أصَبْتُهُ لِيوفِيَنـي مِنْ طـارِقٍ غَيْـرُ خالِيا[1]

و(توبةُ) هو القائلُ:

لِتَبْـكِ النسـاءُ المُعْـوِلاتُ لطارقٍ ويَبْكيـنَ مِرْداسـاً قَتيـلَ قَتـانِ[2]
قتيلانِ لا تبكـي المَخاضُ عليهما إذا شَـبِعَتْ مِـنْ قَرْمَـلٍ وأَفـانِ[3]

ويجوزُ أنْ يكونَ قد رَشَحَ إلى هذه المرأةِ التي هي بنتُ أُخْتِ الشيخِ شيءٌ مِنْ مُوَرِّثاتِ الخُؤولة. فيكونُ فيها شيءٌ مِنْهُ ومِنْ شاعِريته. فلْيَحْذَرِ الشيخُ مِنْ هِجائِها له أكثرَ مِنْ حَذَرِهِ مِمَّا سَرَقَتْ يداها. فهو يَعلَمُ أنَّ الشِّعرَ وَرِثَهُ (زهيرُ بنُ أبي سُلمى) مِنْ خالِه (بَشامةَ بنِ الغدير[4]). ولم يَكُنْ في (مُزيْنَةَ) قومِ زُهيرٍ شِعْرٌ يُذكَرُ قَبلَهُ. وحَضَر زهيرٌ وفاةَ خالِه. وطلبَ مِنهُ أنْ يُعْطِيَهُ شيئاً مِنْ مالِهِ. فقالَ له (بَشامةُ): "أما يَكْفيكَ أني أورثْتُكَ غَرائِبَ القَصائِدِ؟".

غرائِزُ النساء في فهم الشعر

وربما كانَ في نِساءِ حَلَبَ – حَرَسَها اللهُ – شَواعِرُ. فيَجوزُ أنْ تَكونَ ابنةُ أُختِ

1- المعنى العام للأبيات أنه قال لأمه حينما رأت دم أخيها على السيف: لا تخافي. فإن طارقاً كان أخي وصديقي. ولو أُعطيتُ ألفَ ناقة فلن أرضى إلا بالثأر من بني عَوْف. ولا أريد دم أحد مِنْ بني عَوْف إلا دم خالي الذي قتل أخي.

2- (القَتان): قليلُ الطعام فهو نحيف البنية. والمعنى أنه يطلب من النساء أن تبكي طارقاً ومرداساً الذي هو نحيف البنية

3- (المَخاض): التي في المخاض. (القَرْمَلُ): الطعام الذي فيه قُرُنفل. (الأَفان): الطعام القليل. والمعنى أن طارقاً ومرداساً لا تبكيهما التي في المخاض إذا شبعت من الطعام.

4- (بشامة بن الغدير): الغطفاني من بني عوف. شاعر مُجيد. وهو خال زهير الذي كان مقيماً بين أخواله. وخاله بشامة كان أستاذه في الشعر.

الشيخِ مِنهُنَّ. فطالَما كانتِ النساء أَجْوَدَ غَرائِزَ مِنْ رِجالِهِنَّ. وحَدَّثَ رجلٌ ضَريرٌ مِنْ أَهْلِ (آمِدَ[1]) يَحْفَظُ القُرآنَ ويأنَسُ بأشياءَ مِنَ العِلْمِ، أَنَّهُ كانَ وهو شابٌّ له امرأةٌ تُزَيِّنُ النساءَ في الأعْراسِ. وكانَ يَدَّعي مَعْرِفَةَ طَوالِعِ الناسِ مِنَ النُّجومِ. وكان له جِرابٌ فيه أشعارٌ. وكان يَعْتَمِد حِفظَ تلك الأشعار ويَدرسُها في بيته. لكنَّهُ لم يَكُنْ له غَريزةٌ في مَعْرِفَةِ الأوْزانِ. فكانَ يَكْسِرُ البيتَ الذي يَدْرُسُهُ. فتقولُ له امرأتُهُ الماشِطَةُ: "ويلي. ما هذا جَيِّدٌ". فَيُلاحيها ويَزعُمُ أنها مُخْطِئة. فإذا أصبحَ مَضى فَسَأَلَ مَنْ يَعْرِف ذلك. فأخْبَرَهُ أَنَّ الصَّوابَ معها، وعَرَّفَه كيفَ يَجِبُ أنْ يكونَ. فإذا تلَقَّنَهُ عنه عادَ في الليلةِ الثانِيَةِ فذَكَرَ البيتَ وقد أُصْلِحَ. فتقولُ الماشِطَةُ: "هذا البيتُ الآن جَيِّدٌ".

وكانَ لي أجيرٌ مِنْ أهلِ البادية اسمُهُ (عُلْوانُ). وله امرأةٌ تَزعُمُ أنَّها مِنْ (طيِّء). فكانَ لا يَعرِفُ مَوْزونَ الأبياتِ مِنْ غَيرِهِ. وكانَتِ المَرأَةُ تُحِسُّ بذلك. وكانتْ تتأسَّفُ على طِفْلٍ لها ماتَ يُقالُ له (رجب). وكانت تُنشِدُ هذا البيتَ:

إذا كنــتَ من جَــرَّا حَبيبِك مُوجَعاً فــلا بــدَّ يومــاً مــن فِــراقِ حبيــبِ

فقالت يوماً:

إذا كنتَ مِنْ جَرَّا رُجَيْبٍ مُوجَعاً

فعلمتْ أن الوزن مُختَلٌّ فقالتْ:

إذا كنتَ مِنْ جَرَّا رُجَيْبِنَ موجَعاً

فأنكَرَتْ ذلك. فقالَتْ:

إذا كنتَ مِنْ جرّا رُجَيْبِك موجَعاً

فاستقامَ الوزنُ واللفظُ.

ولا بأسَ مِنْ عَفْوِ الشيخِ عن بنتِ أُخْتِهِ. فَفي الكتابِ العزيزِ: (يا أيُّها الذينَ آمَنوا إنَّ مِنْ أزْواجِكُمْ وأولادِكم عَدوًّا لكم فاحْذَروهم وإنْ تَعْفوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ).

1- (آمد) هي أعظم مدن ديار بكر. وقد مر الحديث عنها.

أبو بكر الشِّبْلي

وأما (أبو بَكْرِ الشِّبليُّ[1]) رَحِمَهُ اللهُ، فلا رَيْبَ أنَّه مِنْ أهلِ الفَضْلِ. وأرجو أنْ يكونَ سالِماً مِنْ مَذهَبِ الحُلولِيَّة.

وأنشدني مِنْ شِعرِهِ مُنْشِدٌ:

باحَ مَجْنونُ عامِرٍ بِهَواهُ وكَتَمْتُ الهوى ففُزْتُ بِوَجْدي
وإذا كانَ في القِيامَةِ نودي أينَ أهلُ الهوى؟ تَقَدَّمْتُ وحدي

هكذا أُنْشِدْتُه بسكونِ الياء في (نُودي). ولا أُحِبُّ ذلك وإنْ كانَ جائزاً. وإنَّما يوجَدُ ذلك في أشعارِ الضُّعَفاءِ مِنَ المُحْدَثين.

فإنْ صَحَّ أنَّ هذين البَيتين للشبلي، فقد يَعْتَرِضُ عليه مَنْ يقولُ: "مَنْ زَعَمَ أنه في الحبِّ صادِقٌ صافٍ، فما يَجِبُ أنْ يَأْتِيَ بغيرِ الإنْصافِ. وادِّعاؤهُ الانْفِرادَ بالحُبِّ في العالَمِ، أمرٌ لا يُسلِّمُه إليه البَشرُ. فإنْ كانَ هَواهُ للخالِقِ أو لِلمَخلوقينَ – ولا يَقينَ – فإنَّ له في الأُمَمِ نُظَراءُ كثيرون في الحبِّ ومَعرفةِ الحُبِّ.

ختامُ الرسالة

وأنا أَعْتذِرُ إلى مَولايَ الشيخِ الجليلِ مِنْ تَأخيرِ الإجابةِ. فإنَّ عَوائِقَ الزَّمَنِ مَنَعَتْ مِنْ إملاءِ الأحرُفِ السوداءِ. فكأنها السوداءُ التي عَناها القائلُ:

نُبِّئْتُ سَوْداءَ تَنْآني وأَطْلُبُها لقد تَباعَدَ شَكْلانا وما اقْتَرَبا
وَجَدتُها في شبابي غيرَ مُطْلِبَةٍ فكَيْفَ والرأسُ جَوْنٌ تُسْعِفُ الطَّلبا[2]

وأنا مُسْتَطيعٌ بغيري. فإذا غابَ الكاتبُ فلا إملاءَ. ولعل الشيخَ لا يُنْكِرُ عليَّ

1- يشير المعري هنا إلى ما ذكره ابن القارح حين يقول: (وليس يحسُنُ أن أشكوَ مَنْ يرحمني إلى مَنْ لا يرحمني... وكان أبو بكر الشبلي يقول: "ليس غيرُ الله غير. ولا عند غير الله غير".

2- معنى البيتين أن تلك الفتاة السوداء تبتعد عني وأنا أتبعها. فشكلانا مختلفان. وكانت في شبابي لا تُلبِّي طلبي. فكيف تُجيب طلبي بعدما صار شعر الرأسِ أبيض؟

الإطالةَ في الجوابِ. فإن الذهبَ النفيس يُشْتَرى بأضْعافِ وزنِهِ مِنَ الفضة. فكيفَ إذا كانَ الثَّمنُ مِنْ صِغارِ الحصى المَرْمِيَّةِ في الطريقِ؟ فرسالةُ الشيخ ذهبٌ نفيسٌ، وجوابي هو مِنْ صِغارِ الحصى.

وعلى حَضْرَتِه الجليلةِ سلامٌ يَتبعه سلامٌ.

***

أُنْجِزَتِ الرسالةُ والحمدُ لله ربِّ العالَمين. وحَسبُنا اللهُ ونِعْم الوكيلُ. وصلى اللهُ على سيدنا محمدٍ النبيِّ وعلى آلِه الطيبين الطاهرين وسلَّمَ.

كتب للمؤلف

==========

أولاً: الأعمال الكاملة إصدار دار حوران – دمشق – 2002

- المجلد الأول يضم المسرحيات التالية:

(الجدران القرمزية – البيت والوهم – العيون ذات الاتساع الضيق – الطائرُ يسجنُ الغرفة – الحفلةُ دارت في الحارة – الممثلون يتراشقون الحجارة).

- المجلد الثاني يضم المسرحيات التالية:

(العشاقُ لا يفشلون – لا تنظرْ من ثقب الباب – القرى تصعدُ إلى القمر – يا حاضر يا زمان – الميراث).

- المجلد الثالث يضم المسرحيات التالية:

(الصخرةُ والحفرة – قطعةُ العملة – لا ترهبْ حَدَّ السيف – طاقيَّةُ الإخفاء) ومسرحيات الأطفال (حارسُ الغابة – البئرُ المهجورة – الصندوقُ الأخضر – الجزيرةُ الخضراء).

- المجلد الرابع يضم المسرحيات المعدَّة:

– (جوهرُ القضية) عن مسرحية (هل كان إيفان إفانوفيتش موجوداً؟) تأليف ناظم حكمت.

– (الجمجمة) عن مسرحية (الجمجمة) تأليف ناظم حكمت.

– (تأخرتَ يا صديقي) عن مسرحية (انسوا هيروسترات) تأليف غريغوري غورين.

- (قصيدةٌ متوحشة) عن مسرحية (ثمن الحرية) تأليف عمانوئيل روبلس.
- (الجرةُ والقاضي) عن مسرحية (الجرة المحطمة) تأليف فون كلايست.
- (التاجرُ يعود) عن مسرحية (تاجر البندقية) تأليف شكسبير.

• المجلد الخامس يضم (الحوارات الصحفية) من عام 1970 إلى عام 2002

ثانياً: المسرحيات ما بعد الأعمال الكاملة:

1- مسرحيتان: (الليلةُ الأخيرة وديكُ الجِنِّ الحِمْصي) إصدار اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2005

2- مسرحية (عريس وعروس) إصدار اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2007

3- سلطانُ السرور ومسرحياتٌ أخرى - إصدار الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - 2013 - سلسلة إبداع عربي وتتضمنُ المجموعة:

أولاً: سلطانُ السرور

ثانياً: المسرحيات الواقعية:

- الغيمةُ السوداء
- الزوجان
- الأفعى حبيبتي
- سفينةٌ برية
- غزلٌ عائلي

ثالثاً: مسرحيات المونودراما

- الجدار
- الأشْرِعَة
- شجرةُ الياسمين

- أُحِبُّها

- شيءٌ من نوعٍ جديد

4- مسرحيتان للأطفال:

(حكايةُ الملك يونان) و(السريرُ السحري) - إصدار وزارة الثقافة - دمشق- 2010

ثالثاً: الدراسات النقدية:

1 - المسرحُ العربيُّ المعاصِرُ في مواجهةِ الحياة - وزارة الثقافة - دمشق - 1984

2 - أصولُ الإلقاءِ والإلقاءِ المسرحي

الطبعة الأولى - المعهد العالي للفنون المسرحية - دمشق - 1991

الطبعة الثانية - مكتبة مدبولي - القاهرة - 1996

الطبعة الثالثة - المعهد العالي للفنون المسرحية - دمشق - 2001

الطبعة الرابعة - الهيئة العربية للمسرح - الشارقة - دولة الإمارات العربية - 2012

3 - المسرحُ السوريُّ في مئة عام 1847 - 1946 - المعهد العالي للفنون المسرحية - دمشق - 1997

4 - المسرحُ التجريبيُّ الحديثُ عالمياً وعربياً

الطبعة الأولى - وزارة الثقافة المصرية - القاهرة - منشورات مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي 1998

الطبعة الثانية - دار حوران - دمشق -2002

5 - مراجعاتٌ في المسرحِ العربي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2001

6- من التقليدِ إلى التجديد في الأدبِ المسرحيِّ السوري - المعهد العالي للفنون المسرحية - وزارة الثقافة - دمشق - 2002

7 - تحقيق وتقديم لكتاب (أحكامُ الذِّكْرِ والسَّماعِ عند الصوفية) - تأليف الشيخ سعيد بلبل

الطبعة الأولى - المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق - 2002

الطبعة الثانية - دار الإرشاد بحمص - 2004

8- أحزانُ الشعرِ العربيِّ الحديث بين حزيران 1967 وتشرين 1973 - دار حوران - دمشق - 2003

9- النصُّ المسرحي: الكلمة والفعل - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2003

10- مسرحُنا العربي: واقِعُه وآفاقُه - دار حوران - دمشق - 2007

11- من مقعدِ المتفرج - وزارة الثقافة - دمشق - 2007

12- المسرحُ وحكاية العمر - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2010

13- شؤونٌ وقضايا مسرحية - مجلة (دبي الثقافية) - دار الصدى - الإصدار 71 - نوفمبر - تشرين ثاني - 2012.

14- أوراقٌ غيرُ متناثرة - وزارة الثقافة – دمشق – سلسلة (آفاق ثقافية) – 2014

تحت الطبع:

محمد بنُ عبد الله كما أراه

حملة نيدابا لدعم التعليم والقراءة

مئات آلاف الضحايا، والمدن المدمرة، ليس الثمن الوحيد الذي دفعه السوريون في الحرب التي أنهكت بلدهم. في ظل غياب المدارس في كثير من المناطق السورية المشتعلة، وفي ظل لجوء مئات آلاف الأطفال مع أسرهم خارج البلاد، تبدو مشكلة التعليم واحدةً من أهم المشكلات التي تواجه السوريين اليوم ومستقبلاً، وخاصة فيما يتعلق بالأطفال السوريين المتواجدين في مخيمات اللجوء في الدول المجاورة.

صنفت الكارثة السورية كأحد أكبر الكوارث الإنسانية منذ الحرب العالمية الثانية، اقتصر الدعم الدولي والإنساني على تغطية الحاجات الأساسية للبقاء من غذاء وتدفئة وطبابة وضمن حدودها الدنيا، وأصبح الإهتمام بالتعليم أو المشاريع الثقافية من ضمن الرفاهيات التي لا يوجد إمكانيات لتغطيتها.

تأتي هذه الحملة من كتّاب ومؤلفين وفنانين سوريين محاولةً لدعم مشاريع تعليم الأطفال السوريين في المخيمات على قلتها، ومحاولةً للفت النظر إلى كارثة مستقبلية لجيل كامل غير متعلم من أطفالنا، ما لم تُعطَ هذه القضية حقها.

قدم المساهمون في الحملة كتبهم وتصاميمهم دون مقابل مادي إلى دار ممدوح عدوان للنشر، التي تقوم بنشر وتوزيع هذه الكتب، لتعود كامل أرباح هذا المشروع إلى دعم مشاريع التعليم البديلة في المخيمات ودعم مشاريع إنشاء مكتبات في أماكن اللجوء والنزوح داخل وخارج سوريا.

في المرحلة الأولى تم التعامل مع منظمة بسمة وزيتونة ومنظمة ألفابيت

للتعليم البديل، ونرغب في توسيع هذا المشروع ليشمل جميع مخيمات اللجوء ومراكز النزوح.

قد تبدو نتيجة هذا الجهد صغيرة بالنسبة إلى حجم الكارثة المحطية بنا وغير كاف لإحداث أثر فعلي على الأرض، لكنه جهد صادق من جميع المساهمين في الحملة، على اختلاف مشاربهم ومواقفهم الفكرية والسياسية، لعلَّنا نستطيع مد أيدينا إلى أطفالنا اللاجئين، وكلنا أمل أن يصلوا بنا يوماً ما بعلمهم وثقافتهم إلى مستقبل أفضل.

تم اختيار اسم نيدابا كرمز للحملة، وهي إلهة الكتابة عند السومريين ويمتد تأثيرها إلى بلاد الشام. في الحرب التي تدور في سوريا،أغلب الفصائل المتقاتلة تستصرخ رموزاً تاريخية في تأجيج هذه الحرب، فكان أن اخترنا رمزاً تاريخياً من منطقتنا أيضاً لكن كي نستصرخ في سبيل دعم التعليم والقراءة.

حملة نيدابا

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع